YALE UNIVERSITY PRESS

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

حِلفُ المصَالِحِ المُشتَرَكة

التعاملات السرّية بين إسرائيل وإيران والولايات المتحدة

تريتا بارزي

حِلفُ المصَالِح المُشتَرَكة

التعاملات السرّية
بين إسرائيل وإيران
والولايات المتحدة

تأليف

تريتا بارزي

ترجمة

أمين الأيوبي

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L.

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
TREACHEROUS ALLIANCE
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
CARAVAN Books
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © 2007 by Yale University
All rights reservedArabic Copyright © 2007 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى
1429 هـ 2008 م

ISBN978-614-421-869-3 :

جميع الحقوق محفوظة للناشر

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص. ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت – هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

المقدمة

تبقى العلاقات الإسرائيلية الإيرانية لغزاً غامضاً في نظر أغلب المحلّلين بالرغم مما للتوترات بين هذين البلدين من أثر عميق في الشرق الأوسط وفي الأمن القومي للولايات المتحدة. إن الحساسية السياسية التي تتميز بها هذه القضية دفعت أغلب الخبراء الأميركيين إلى الإحجام عن دراسة هذا الموضوع بالتفصيل. بالمقابل، تجري معالجة الوضع السيئ الذي يميّز العلاقات بين هذين الحليفين السابقَين إما كظاهرة يتعذر تعليلها أو كنتيجة صرفة للخصومة الإيديولوجية العميقة الجذور. في هذه الأثناء، يجري تجاهل تأثير ذلك الوضع على السياسة الخارجية الأميركية بشكل مناسب بالرغم من الضرر البالغ الذي يلحق بالمصالح القومية الأميركية. في حين يُعتقد على نطاق واسع أن المفتاح للسلام في الشرق الأوسط هو حلّ الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، لا تحظى المنافسة الجيوسياسية الرئيسية بين إسرائيل وإيران سوى على قليل من الاهتمام، وهذا له تأثير حاسم في هذا الصراع وغيره من الصراعات الإقليمية.

عندما تمعّنت في التقلّبات التي تشهدها العلاقات الإسرائيلية الإيرانية والعلاقة المثلثية بين الولايات المتحدة وإسرائيل وإيران، حرصتُ على التركيز على القوى والتطورات الجيوسياسية بدلاً من التركيز على الإيديولوجية، أو التبريرات السياسية العابرة، أو وجهات النظر المانوية التبسيطية. أنا أجادل بأن التحولات الكبرى في العلاقات الإسرائيلية الإيرانية ما هي إلاّ نتائج لتحوّلات جيوسياسية – وليس إيديولوجية – وأن حلاً يتم التفاوض عليه للمنافسة الاستراتيجية بينهما سيسهّل بدرجة كبيرة حل المشكلات الإقليمية الأخرى بدلاً من الالتفاف عليها.

إن العداوة الحالية المستحكمة بين البلدين أكثر ارتباطاً بالتغيير في موازين القوى في الشرق الأوسط بعد انتهاء الحرب الباردة منها بالثورة الإسلامية في العام 1979. وبالرغم من أن الثورة الاسلامية في إيران كانت بمثابة نكسة كبيرة لإسرائيل، فهي لم تمنع إسرائيل من دعم إيران والسعي إلى تحسين علاقاتها مع حكومة آية الله الخميني كثقل مكافئ لأعداء إسرائيل من العرب. ومن دواعي السخرية أنه عندما دعا القادة الإيرانيون إلى تدمير إسرائيل في ثمانينيات القرن الماضي، كانت إسرائيل واللوبي المؤيد لها في واشنطن يحاولان التأثير في الولايات المتحدة وحملها على عدم الالتفات إلى الخطاب الإيراني. أما اليوم، وبعد أن أصبحت حماسة الثورة في إيران أضعف بكثير مما كانت عليه في الثمانينيات، لم تتغير الأوضاع إلاّ قليلاً. بدورها، انتهجت إيران سياسة مزدوجة طوال هذه الفترة: ففي الثمانينيات، جعلت إيران من نفسها أكثر الداعمين الإقليميين مجاهرة بتأييد القضية الفلسطينية. لكن نادراً ما اقترن هذا الكلام بالأفعال، على اعتبار أن المصلحة الاستراتيجية لطهران – خفض التوترات مع إسرائيل، واستخدام الدولة اليهودية في إعادة بناء العلاقات مع الولايات المتحدة – تعارضت مع المستلزمات الإيديولوجية لإيران. لكن في الفترة التي تلت العام 1991 والجهود التي بذلتها الولايات المتحدة وإسرائيل لبناء نظام جديد في الشرق الأوسط بناء على العملية السلمية بين الإسرائيليين والفلسطينيين والعزلة الطويلة التي تعاني منها إيران، حصل تداخل بين مصالح إيران الإيديولوجية والاستراتيجية، وقررت طهران للمرة الأولى أن تصبح خصماً متصدراً للدولة اليهودية. في هذه المرحلة، استخدمت إسرائيل وإيران نفوذهما لإحباط مبادرات السياسة الخارجية الأميركية التي رأى كل منهما أنها تصب في مصلحة الطرف الآخر. وبناء على ذلك، عملت إيران ضدّ العملية السلمية مخافة أن تصبح معزولة في المنطقة، وسعت إسرائيل إلى منع حوار أميركي إيراني مخافة أن تخون الولاياتُ المتحدة المصالح الأمنية الإسرائيلية في حال باشرت إيران والولايات المتحدة اتصالات مباشرة. لغاية اليوم، لا يزال هذا المنطق هو السائد في العاصمتين، وهو يغذّي التوترات في المنطقة.

يناقش هذا الكتاب السياسة الخارجية. وقد ركّزتُ فيه على العلاقات بين هذه الدول (إيران، إسرائيل، الولايات المتحدة) وليس على التطورات الداخلية التي لها تأثير ضئيل أو لا تأثير لها – بالرغم من أهميتها – في السياسات الخارجية لهذه الدول. كما أنني لم أسعَ إلى تقديم تفسير عميق للإيديولوجيات التي يعتنقها قادة هذه الدول. بدلاً من ذلك، اقتصرت على دراسة الأفكار ووجهات النظر العالمية هذه فقط في ما يتعلق بمدى تأثيرها في السياسة الخارجية لكل من إسرائيل وإيران. لكن هذه المقاربة لا تعني عدم وجود صلة بين الإيديولوجيات وهذا الصراع على الإطلاق أو أن اعتناقها محل تساؤل. بل على العكس من ذلك، يتمسك كل من القادة الإسرائيليين والإيرانيين بقوة بإيديولوجيات ووجهات نظر عالمية، ويتعاملون معها على محمل الجدّ. غير أن القول بأن هذه الإيديولوجيات هي العامل الرئيسي المحدد في العلاقات الإسرائيلية الإيرانية مسألة مختلفة تماماً.

بالنظر إلى الحساسية التي تميز هذه المسألة بالتحديد، لم يُكتب سوى القليل جداً عن العلاقات الإسرائيلية الإيرانية أو عن تأثيرها على السياسة الخارجية الأميركية. لقد مرّ نحو عقدين منذ أن نُشر آخر كتاب يتناول العلاقات الإسرائيلية الإيرانية باللغة الإنكليزية؛ لقد عانت العديد من الدراسات التحليلية التي أجريت في الولايات المتحدة في تلك الفترة من عجز المحللين الغربيين عن الوصول إلى إيران والتحدث إلى مسؤولين إيرانيين، وكان لذلك تأثير خاص في دراسة القضايا المعقدة مثل العلاقات بين الولايات المتحدة، وإيران، وإسرائيل. ولكي نتجنب هذه السقطات، اعتمدت في تأليف أغلب ما احتواه هذا الكتاب على مقابلات أجريتها مع مسؤولين ومحللين إيرانيين، وإسرائيليين، وأميركيين.

من خلال هذه المقابلات المباشرة مع صنّاع القرار، كنت قادراً على الحصول على روايات للأحداث وطريقة التفكير التي أنتجت القرارات الاستراتيجية من مصادر عليمة، ومع الذهاب في الوقت نفسه إلى ما هو أبعد من نقاط الحديث والتبريرات العامة التي صدرت عن إيران وإسرائيل بغرض إخفاء الطبيعة الحقيقية للتوتر بينهما. لم يسبق أن توفر العديد من هذه الروايات والتعليلات المنطقية لعامة الناس من قبل. إن المقابلات التي أُجريت مع المسؤولين الإيرانيين على وجه الخصوص كشفت بواطن الأمور، واخترقت نواحياً نادراً ما كانت تناقَش من قبل – في حال نوقشت أصلاً– بشكل علني في إيران، مع توخي الحذر من أجهزة الرقابة التي تواجهها وسائل الإعلام المطبوعة في ما يتعلق بقضايا حساسة مثل إسرائيل. الأمر نفسه ينطبق إلى حدٍ معين على إسرائيل، حيث المشكلة هناك ليست في الرقابة الحكومية، وإنما في السرد الذي ركّز بشكل شبه حصري على التهديد العسكري المتصوَّر من إيران والذي أهمل الحسابات الاستراتيجية الأساسية لدى صنّاع القرار الإسرائيليين والإيرانيين.

من أجل ضمان إمكانية التعويل على هذه المقابلات والروايات، أجريت مقابلات مع عدد كبير على نحو غير عادي من الأشخاص، وأجريت مقارنة بين الروايات التي رووها. لا يوجد حجة في هذا الكتاب اعتمدتُ فيها على اقتباس واحد أو اثنين، فالإحالات المزدوجة والكمّ الهائل من الأشخاص الذين أجريت مقابلات معهم يضمنان أيضاً أن الروايات التي سردناها في هذا الكتاب تعكس جوهر التبادلات، حتى وإن كان تذكّر الأحداث بدقة أمراً صعباً بعد مرور عشرين عاماً.

تم اختيار الأشخاص الذين أجريت مقابلات معهم بناء على مشاركاتهم الخاصة في رسم السياسة الخارجية الإيرانية، أو الإسرائيلية أو الأميركية، أو بناءً على اطلاعهم على تلك العملية. وأحلنا الروايات المقتبَسة إلى المسؤولين والمحللين في كافة الحالات عدا النزر اليسير منها. ومع أن عددهم أكبر بكثير من أن أشير إليهم بالاسم هنا، غير أنه من الأجدى الإشارة إلى القليل منهم بسبب اطلاعهم على معلومات داخلية قيمة للغاية كانت تعتبر سرّية.

بالنسبة إلى سياسة إيران مع إسرائيل في عهد الشاه، وفّر سفير إيران لدى الأمم المتحدة في أواخر سبعينيات القرن الماضي فيريدون هوفيدا، ووزير الاقتصاد الإيراني علي ناغي علي خاني (وهو زميل مقرّب من رئيس المجلس العسكري في عهد الشاه، أسد الله علام)، تفسيرات قيمة لأسس التفكير الاستراتيجي لدى الشاه. وفي ما يتعلق بحقبة ما بعد انتصار الثورة، وفّر كل من سفير إيران لدى الأمم المتحدة ومساعد وزير الخارجية الدكتور جواد ظريف، ومساعدي وزراء الخارجية الدكتور عباس مالكي والدكتور محمود فيزي والدكتور هادي نجاد حسينيان، بالإضافة إلى الرئيس السابق للجنة العلاقات الخارجية في البرلمان الإيراني محسن ميرْدمادي؛ ومحمد رضا طاجيك المستشار السابق لدى الرئيس محمد خاتمي؛ وأمير موهيبيان، المحرر السياسي في الصحيفة اليومية الإيرانية المحافظة **رسالات**؛ وعلي رضا علوي تابار محرر العديد من الصحف الإصلاحية؛ رؤىً لا تقدّر بثمن عن حسابات الجمهورية الإسلامية.

في الجانب الإسرائيلي، حصلنا على معلومات قيمة من الرئيس السابق للموساد إفرايم هالفي، ووزير الخارجية السابق الدكتور شلومو بن عامي، ووزير الدفاع السابق موشيه أرينز، ونائب وزير الدفاع الدكتور إفرايم سنيه، ومدير المخابرات العسكرية عموس جلعاد، والسفير الأسبق لدى الأمم المتحدة الدكتور دوري غولد، والمندوب السابق لدى إيران أوري لوبراني؛ والملحق العسكري السابق في إيران إسحاق سيجيف؛ والرئيس السابق للجنة إيران ديفيد إيفري؛ ويوسي ألفير المستشار السابق لدى رئيس الوزراء إسحاق رابين؛ والسفير السابق لدى الأمم المتحدة إيتمار رابينوفيتش، وممولّ صفقات إيران – كونترا ياكوف نمرودي. كما نودّ أن نشير إلى أن المتحدث باسم لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية في الموضوع الإيراني كيث وايزمان شاركنا أفكاره في صياغة الرؤية الاستراتيجية للوبي المؤيد لإسرائيل. (أجريت مقابلتي ومناقشاتي مع كيث قبل اتهامه بالتجسس وتركه المنظمة).

أخيراً، حصلت على روايات داخلية عن الحسابات التي أجرتها واشنطن من مستشاري الأمن القومي الدكتور زبيغنيو بريجينسكي، والمقدم روبرت ماكفرلاين، والجنرال برينت سكاوْكروفت، والدكتور أنتوني لايك، إضافة إلى مساعدي وزراء الخارجية روبرت بيلّيترو، ومارتن إندك، ولاري ويلكرسون كبير معاوني وزير الخارجية كولن باول؛ والمبعوث الخاص لإدارة بوش الحالية في أفغانستان السفير جايمس دوبنز؛ والسفير دينيس روس؛ والدكتور غاري سيك الذي خدم ككبير مساعدي البيت الأبيض في شؤون الخليج العربي بين عامي 1976 و1981.

تعمقت هذه المقابلات في عملية صنع القرارات المتعلقة بالسياسة الخارجية الإيرانية، والإسرائيلية والأميركية، ونتيجة لذلك، وفّرت صورة فريدة من نوعها وغير معلومة بدرجة كبيرة عن المقاربة التي يتّبعها كل من هذه البلدان في تعامله مع البلد الآخر ونخص بالذكر المنظور الإيراني غير المعروف بالنسبة إلى الجمهور الغربي وهو ما أضعف بالتالي تحليل الوضع الإيراني بدرجة كبيرة في الغرب. أحد الأسباب الرئيسية التي تجعل التحليل الوارد في هذا الكتاب مختلفاً إلى حدٍّ بعيد عن الحكمة التقليدية في ما يختص بالمثلث الأميركي الإسرائيلي الإيراني هو أنه يعتمد على وجهات نظر كبار صنّاع القرار في البلدان الثلاثة كافة وروايتهم. بالإضافة إلى ذلك، تمكنت، بصفتي مستشاراً لدى أحد أعضاء الكونغرس الأميركي، من الاطلاع على بعض التعاملات السرّية بين هذه البلدان والتي تحفل بها الفصول الأخيرة من هذا الكتاب. وقد وفر لي هذا الموقع إمكانية الاطلاع على رواية مباشرة عن بعض التطورات التي أشرت إليها في هذا الكتاب والتي سعيت إلى إعادة سردها بأقصى دقّة ممكنة.

يعالج الكتاب طبيعة العلاقات الإسرائيلية الإيرانية منذ إنشاء إسرائيل في العام 1948 وحتى وقتنا الحاضر. وقد قمت بذلك في ثلاثة أقسام منفصلة. عالجت في القسم الأول السياق التاريخي للمثلث الأميركي الإسرائيلي الإيراني أثناء الحرب الباردة. كما ناقشنا في القسم الأول الاتفاق التفاهمي الإسرائيلي الإيراني في أيام الشاه، إضافة إلى روابط الطرفين السرّية في أيام الجمهورية الإسلامية. وقمت بتفحّص المعلومات الخاصة بالاتفاق التفاهمي الإسرائيلي الإيراني وخيانة الشاه لإسرائيل من خلال اتفاقية الجزائر عام 1975، فضلاً عن الجهود الإسرائيلية المكثفة لترقيع العلاقات الأميركية الإيرانية في ثمانينيات القرن الماضي وسياسة إيران المزدوجة في تعاملها مع إسرائيل؛ إنكار حقها في الوجود من ناحية، والقبول بدعمها، وضبابية تعاملها مع القضية الفلسطينية من ناحية أخرى. ونبيّن في القسم الثاني من الكتاب كيف غيّرت الهزة التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفياتي وهزيمة العراق في حرب الخليج في العام 1991 بشكل جذري العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران وإسرائيل. في الشرق الأوسط الجديد الذي برز بعد هذا التصدّع الجيوسياسي، لم تعد إيران وإسرئيل تنظران إلى بعضهما كشريكين محتملين في موضوع الأمن، بل كمتنافسَين في تحديد التوازن في الشرق الأوسط. هنا نناقش تحوّل إيران إلى خصم نشط لإسرائيل والتحوّل الكلّي لتل أبيب إلى معارضة التقارب الأميركي الإيراني بدلاً من دعمه، إضافة إلى الجهود التي تبذلها كل من إيران وإسرائيل لإجهاض السياسات الأميركية في المنطقة التي يعتبرها كل من الطرفين بأنها تصبّ في مصلحة الآخر. في القسم الأخير من الكتاب، نناقش الخيارات التي تفكر فيها واشنطن في الوقت الحالي، إضافة إلى إحدى السياسات التي يبدو أن إدارة بوش تعرض عنها بالرغم من أنها تتمتع بأوفر الحظوظ للتخفيف من حدّة المنافسة الإسرائيلية الإيرانية والتقليل من خطر نشوب

حرب كارثية تعمّ الشرق الأوسط – وأميركا – على عدة عقود قادمة.

كلمة شكر

لا يوجد حيّز كافٍ هنا لشكر كل من يستحق الشكر لجهوده التي قدّمها ليظهر هذا الكتاب، كما أنني لا أستطيع أن أتقدم بالشكر الكافي من الأشخاص الذين أشرت إليهم. أولاً وقبل كل شيء، أنا مدين بالشكر إلى الأبد لفرانسيس فوكوياما، المشرف الإستشاري في كلّية الدراسات الدولية المتقدمة بجامعة جونز هوبكنز، حيث كتبت أطروحة الدكتوراه التي اعتمدت عليها في تأليف هذا الكتاب. فقد كانت إرشاداته، وانتقاداته، ومساعدته حاسمة، بحيث تجاوزت نصائحه الخاصة التي أسداني إياها مجال أطروحتي وهذا الكتاب. إنه أحد أبرع المفكرين السياسيين في عصرنا، وكنت محظوظاً كفاية بأن توفرت لي فرصة التأثر بحكمته. بالمقابل، لم يكن من الممكن تأليف هذا الكتاب أو التوصل إلى التحليل الذي اعتمد عليه لولا المساعدة التي حصلت عليها من تشارلز دُوران من جامعة جونز هوبكنز. فنظرية *دورة القوة* لدوران تشكل القاعدة التحليلية لهذا الكتاب. من خلال نظريته، يتم الأخذ بعين الاعتبار التفاعل بين الطبيعة الدورية لقوى الدول وطموحاتها للعب أدوارها. ففي حالة العلاقات الإسرائيلية الإيرانية، يعتبر فهم الطموحات الإيرانية ركيزة محورية في فهم تصرفات إيران حيال إسرائيل؛ سواء قبل انتصار الثورة أم بعده. كما أودّ الإشارة إلى أن نصيحة كل من بريجينسكي وجاكوب غرايجيل وانتقاداتهما الرزينة كانت مفيدة للغاية. كما أنني مدين بالشكر بالطبع إلى روحي رمضاني، عميد دراسات السياسة الخارجية الإيرانية. فقد سُعدت كثيراً، وتشرّفت بتلقّي نصائحه ومساعدته، وأنا آمل بأن أتمكن من مواصلة دراستي للعلاقات الدولية والسياسة الخارجية الإيرانية بطريقته المميزة وبأن أتمسك بالمعايير التي وضعها.

قدّم روان كاري أفكاراً واقتراحات لا حصر لها لهذا الكتاب، والتي أشكره جزيل الشكر عليها. وأشكر وكيلتي ديبوراه غروزْفينور التي ساعدت على الترويج لكتابي وجعله قابلاً للتسويق. كما أدين بالشكر للبروفسور ديفيد ميناشري، والعقيد صموئيل ليمون من وزارة الدفاع الإسرائيلية، والبروفسور إليوت كوهين على مساعدتهم في إعداد المقابلات التي أجريتها في إسرائيل. يعتمد هذا الكتاب على العمل الجبار الذي قام به البروفسور ميناشري في مجال العلاقات الإسرائيلية الإيرانية خلال العقود القليلة الماضية. وأنا ممتنّ بالمثل للسفير جواد ظريف، والدكتور مصطفى زهراني وأفشين مولافي على مساعدتهم في ترتيب المقابلات في إيران. كما أدين بالكثير من الامتنان لكلّية الدراسات الدولية المتقدمة بجامعة جونز هوبكنز لأنها وفّرت لي الفرصة لإجراء تحقيق معمّق في هذه القضية الهامة، ولجورج بيركوفيتش من منحة كارنيجي للسلام الدولي لتقديمه مكتباً لي لتأليف هذا الكتاب في صيف العام 2006. كما قدّم لي كريس روجرز من دار النشر التابعة لجامعة يال والبروفسور نيكي كيدي مساعدة قيّمة في تحويل كتاباتي الأصلية إلى مخطوطة مقبولة.

قبل كل شيء، يتعين عليّ أن أشكر عائلتي: زوجتي أمينة التي لولا حبّها، وصداقتها، وصبرها الذي لا ينفد، ما كنت لأنجح في إكمال هذه المهمة؛ وولدي داريوس الذي هو فخر حياتي؛ وشقيقي روزبيه الذي كان بحثه المحايد عن الحقيقة مصدر إلهام لي؛ وأخيراً وليس آخراً، والديّ اللذَين لم يكن ليتم شيء بدونهما. وأنا ممتنٌ لهم جميعاً إلى الأبد.

الفصل 1 تقديم:

انتباه: محمود أحمدي نجاد خارج نطاق السيطرة

الرئيس الإيراني هو النسخة الفارسية لهتلر.

– نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي شمعون بيريز، في إشارة إلى الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد.

إن إسرائيل والولايات المتحدة بحاجة إلى إقامة علاقة استراتيجية أوسع مع إيران.

– رئيس الوزراء الإسرائيلي شمعون بيريز في حديثه إلى الرئيس رونالد ريغان، سبتمبر/أيلول 1986.

"يتعين إزالة هذا النظام الذي يحتلّ القدس من صفحات التاريخ"[1]. بهذه الكلمات، التي قيلت في طهران في أكتوبر/تشرين الأول 2005، رفع محمود أحمدي نجاد، الرئيس الإيراني المتشدّد، حدة المنافسة بين إيران وإسرائيل، التي كانت تغلي على نار هادئة منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، إلى درجة الغليان. غالباً ما كان يجري تفادي بحث التوترات الإسرائيلية الإيرانية، التي تعامَل دائماً على أنها ثمرة صراع هامشي، من قبل صنّاع القرار في واشنطن، والذين ركّزوا على النزاع الإسرائيلي الفلسطيني أو على الإطاحة بالرئيس العراقي صدام حسين. بقيام صنّاع القرار في واشنطن بذلك، فشلوا في الاعتراف بأن التنافس الجيوسياسي بين إسرائيل وإيران هو الصراع الأساسي – منذ انتهاء الحرب الباردة – الذي رسم سياق كافة المسائل الأخرى تقريباً في المنطقة. باستعارة أحمدي نجاد خطاب آية الله الخميني المعادي لإسرائيل، ضمِن أن يكون إدراك هذه الحقيقة عاجلاً وليس آجلاً.

مع ذلك، وعلى الرغم من أن العالم ركّز انتباهه على الأفق الإسرائيلي الإيراني المسدود، تبقى طبيعة الصراع مفهومة على نحو خاطئ بدرجة كبيرة. فتشكيك أحمدي نجاد بالمحرقة، ووصف إسرائيل لإيران بأنها ألمانيا النازية الجديدة، يعكسان صراع إيديولوجيات قوياً كما يعتقد أغلب الأميركيين. فمن ناحية، هناك إسرائيل التي يصفها من يدافع عنها بأنها دولة ديموقراطية في منطقة محاصَرة بالنظم المستبدّة وأنها مركز طليعي شرقي يمتلك عقلية عصر التنوير. من ناحية أخرى، هناك الجمهورية الإسلامية الإيرانية التي يصفها أعداؤها بأنها نظام ديني متزمّت يتجسّد رفضه للغرب وتطلعاته إلى التحدث باسم المسلمين في كل مكان برفضه منح إسرائيل حقاً في الوجود. لقد عادت هاتان الإيديولوجيتان إلى المشاركة في معركة لا يمكن المساومة أو التفاوض فيها من أجل التوصل إلى هدنة تضع أوزارها – المطلوب فقط انتصار رؤية ونظام قيم لطرف على رؤية ونظام قيم الطرف الآخر – أو هذا ما يبدو عليه الحال. كما فشل أغلب المراقبين، الذين أعماهم الخطاب النقدي، في ملاحظة مصلحة مشتركة حساسة تتقاسمها هاتان القوتان غير العربيتين في الشرق الأوسط: الحاجة إلى تصوير صراعهما الاستراتيجي الجوهري بأنه صراع إيديولوجي.

بعد انتهاء الحرب الباردة وهزيمة العراق في حرب الخليج في العام 1991، تبخّرت الاعتبارات الاستراتيجية التي كانت قد وضعت إيران وإسرائيل على الجانب الجيوسياسي نفسه في القسم الأخير من القرن العشرين. وسرعان ما وجدت إسرائيل وإيران نفسيهما، في غياب أي أعداء مشتركين، في منافسة على إعادة رسم النظام الإقليمي بعد الإجهاز على الجيش العراقي. وخشية اختلال الوزن الاستراتيجي لإسرائيل في حال برزت إيران كقوة عظمى في الشرق الأوسط، بدأ السياسيون الإسرائيليون بوصف النظام في طهران بالمتعصب وغير العقلاني. من الواضح أنهم أصرّوا على أن التوصل إلى تسوية مع الملالي أمر ميؤوس منه. بدلاً من ذلك، طالبوا الولايات المتحدة بتصنيف إيران، إلى جانب العراق الخاضع تحت حكم صدام، بالدولة الشرّيرة التي يتعين احتواؤها. في البداية، قبل تغيير مزاج إسرائيل تجاه إيران بالتشكيك في واشنطن بالرغم من أن الإسرائيليين عرضوا الحجة نفسها اليوم، وتحديداً قولهم إن البرنامج النووي الإيراني سيوفر للملالي أصحاب العمائم السوداء إمكانية الحصول على قنبلة. وكتب كلايد هبرمان في النيويورك تايمز في نوفمبر/تشرين الثاني 1992، "لماذا انتظر الإسرائيليون حتى وقت قريب لكي يطلقوا إنذاراً قوياً، هذا سؤال محيّر؟" وتابع هبرمان حديثه فقال: "ظلت إسرائيل على مدى عدة سنوات على استعداد للتعامل مع إيران، حتى عندما كان الملالي في طهران يصرخون مطالبين بإزالة الكيان الصهيوني"[2].

لكن في نظر إسرائيل، أفضل وسيلة لحشد الدول الغربية بجانبها هي بلفت الانتباه إلى الميول الانتحارية المزعومة لرجال الدين، وتعلّقهم الواضح بفكرة تدمير إسرائيل. إذا كان يُنظر إلى القيادة الإيرانية بأنها غير عقلانية، فإن استخدام التكتيكات التقليدية مثل الردع سيكون أمراً مستحيلاً، مما لا يدع خياراً أمام المجتمع الدولي سوى عدم التسامح مطلقاً مع القدرات العسكرية الإيرانية. فكيف يمكن الوثوق ببلد مثل إيران في حال امتلاكه تكنولوجيا صاروخية، إذا كانت قيادته عصية على الاقتناع بوجوب العدول عن موقفها في مواجهة صواريخ الغرب الأكثر قوة وعدداً؟ تمثلت الاستراتيجية الإسرائيلية في إقناع العالم – وواشنطن على الخصوص– بأن الصراع الإسرائيلي الإيراني ليس صراعاً بين متنافسَين على التفوق العسكري في منطقة مختلّة النظام بشكل أساسي، وتفتقر إلى التدرّج في السلطة. بالمقابل، حصرت إسرائيل الصراع كما لو أنه صراع بين ديموقراطية وحيدة في الشرق الأوسط وحكم ديني توتاليتاري يكره كل ما يمثله الغرب. بتصوير الوضع بتلك العبارات، جادلت إسرائيل بأن ولاء الدول الغربية لإسرائيل لم يعد مسألة خيار أو مجرّد مصلحة سياسية، بل مسألة بقاء أو صراع بين الخير والشرّ على أقلّ تقدير.

في النهاية، تمكنت الدعوة الإسرائيلية من ترسيخ فكرة الملالي غير العقلانيين. فبعد كل شيء، كان الإيرانيون أنفسهم أكبر مصدر للعون في ترويج تلك الحجة في واشنطن، لأنهم فضلوا هم أيضاً إطاراً إيديولوجياً للصراع. فعندما انتصرت الثورةُ الإسلامية في العام 1979، تخلّت القيادة الإسلامية الجديدة عن الهوية القومية الفارسية لنظام شاه إيران المخلوع، محمد رضا بهلوي، ولكنها لم تتخلَ عن توقه إلى امتلاك إيران وضعية قوة عظمى. وفي حين أن الشاه سعى إلى فرض هيمنته على الخليج العربي وعلى أجزاء من المناطق المطلة على المحيط الهندي، على أمل أن يجعل

من إيران يابانَ غرب آسيا، سعت إيران في ظل آية الله الخميني إلى تكوين قيادة للعالم الإسلامي بأكمله. كانت وسائل الشاه لتحقيق أهدافه تُختصر في جيش قوي وروابط استراتيجية مع الولايات المتحدة. من ناحية أخرى، اعتمد آية الله على النموذج الخاص للإسلام السياسي والحماسة الإيديولوجية للتغلب على الانقسام العربي الفارسي، وتقويض الأنظمة العربية التي تعارض الطموحات الإيرانية. لكن ما من مرّة كانت فيها الأهداف الإيديولوجية والاستراتيجية لإيران على المحكّ إلاّ وسيطرت المقتضيات الاستراتيجية لدى طهران. فلو عدنا إلى ثمانينيات القرن الماضي عندما كانت إيران غارقة في حرب مع العراق بزعامة صدام حسين، حرص الإيرانيون على عدم اتباع خطب آية الله الخميني اللاذعة التي كان ينتقد فيها إسرائيل بأي أعمال ملموسة. وبالرغم من أن الإيديولوجيا لعبت دوراً حاسماً في السنين الأولى للثورة، اعتمدت سياسة إيران مع إسرائيل على الإكثار من الصراخ لكن مع القليل من الأفعال. ونجحت الإيديولوجيا الثورية للنظام والخطاب الفظيع في إخفاء عملية المتابعة المنهجية لسياسة الأمر الواقع.

بعد انتهاء الحرب الباردة، ازدادت أهمية هذه السياسة المزدوجة لأن إسرائيل تحوّلت من شريك احتاجت إيران إلى إبقائه بعيداً إلى منافس عدواني تمكن من اختراق دائرة النفوذ المتنامي لإيران. لكن لم يكن من الممكن حشد الجماهير العربية المسلمة خلف إيران من أجل تحقيق الطموحات الإيرانية في السيطرة. لذلك عادت إيران إلى الإيديولوجيا مرّة أخرى لإخفاء دوافعها الحقيقية، مع استغلال محنة الشعب الفلسطيني في إضعاف الحكومات العربية التي أيدت عملية أوسلو في تسعينيات القرن الماضي. لقد تولّى كتبة الخطابات الإيرانية الدور الريادي في شنّ حملة شعواء على شهية إسرائيل التي لا تنتهي لقضم الأراضي العربية، وعلى قمعها للفلسطينيين، وتغاضيها عن القرارات الصادرة عن مجلس الأمن، وإهانتها للمسلمين باستمرارها في احتلال القدس، موطن الحرم الشريف، أو قبّة الصخرة؛ ثالث المواقع المقدسة في الإسلام. ولغاية هذا التاريخ، لا يزال خطاب طهران يقول إن صراعها مع إسرائيل ليس على مكاسب جيوسياسية وإنما على إنصاف الفلسطينيين وشرف الإسلام. ومع تأطير الصراع الإسرائيلي الفلسطيني بهذه العبارات، ونتيجة للخوف من ردّة فعل معاكسة من قبل الشعوب العربية، كان على الحكام العرب الموالين للغرب أن يخطوا بحذر لئلاّ يحطّوا من شأن الأهداف المعلَنة لطهران. ففي عيون العديد من الدول العربية، أدّت قوة الخطاب الإيراني إلى جعل المعارضة العلنية لإيران أشبه بإذعان أو حتى موافقة على الموقف الإسرائيلي والأميركي من القضية الفلسطينية. بالطبع، لقيت التصريحات المعادية لإيران مثل تحذير الملك عبد الله عاهل الأردن في أواخر العام 2004 من هلال شيعي يمتدّ من إيران ويمرّ عبر عراق ما بعد صدام ويصل إلى لبنان، وانتقاد الرئيس المصري حسني مبارك في مستهل العام 2006 للشيعة العراقيين بأنهم موالون لإيران، صدى ضعيفاً لدى الشعوب العربية. وأحد الأسباب التي تفسر ذلك هو سمعة إيران بأنها مساندة للفلسطينيين.

إن التصريحات الإيديولوجية الصادرة عن أحمدي نجاد وشخصيات إيرانية أخرى هي نتاج تأثير، وليست سبباً، للتوجه الإيديولوجي لإيران. بالمثل، لا ينبغي إعطاء قيمة اسمية لوصف رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت لإيران بأنها "عاصفة مظلمة آخذة في التجمّع، وترخي بظلّها على العالم" في الخطاب الذي ألقاه أمام الكونغرس في 24 مايو/أيار 2006. في الوقت الحالي، يبدو أن كلاً من إيران وإسرائيل تبني حساباتها – أو سوء حساباتها – على أن تصوير الصراع الدائر بينهما بعبارات إيديولوجية ورؤيوية سيوفر لكل طرف سلاحاً يرفعه في وجه الآخر في جهوده لتعريف نظام الشرق الأوسط بما يتفق ومصالحه الخاصة. غير أن عواقب هذه اللعبة الخطرة بلغت مستويات لا يمكن التسامح معها وهي تدفع جهات فاعلة أخرى إلى التورّط فيها. فمن ناحية، هددت إسرائيل بقصف طهران، وأطلقت إدارة بوش تهديدات مشابهة، مصرّة على أن خيارها العسكري الخاص في ما يختصّ بإيران يبقى مطروحاً على الطاولة. حتى أن واشنطن فكّرت في استخدام أسلحة نووية ضدّ إيران، وفقاً لما جاء في تقارير صحفي[3]. من ناحية أخرى، تواصل إيران وصف إسرائيل بأنها كيان مصطنَع يفتقد إلى الشرعية وليس له مستقبل في الشرق الأوسط. وطوى النسيانُ فكرة أن التهديدات، والشعارات، والعضّات الكلامية ليست حقيقة سياسية واستراتيجية وحسب، بل إنها حقيقة بشرية ومظهر للصداقة الإيرانية اليهودية.

قلّة هي المدن الغربية التي تصدح فيها الموسيقى الفارسية بأعلى صوتها في متاجر التسوّق. ولكنّ هذا حدث يومي طبيعي في إحدى محطات الحافلات التي تخضع لإجراءات أمنية صارمة في الوسط التجاري بالقدس. في هذا المكان، الذي يناظر محطة ***بين*** بنيويورك، ينتظر جنود إسرائيليون في سنّ الثامنة عشرة الحافلات لكي تقلّهم إلى منازلهم، وبنادقهم الهجومية معلّقة فوق أكتافهم، وأغاني الأساطير الفارسية تصمّ آذانهم. معظم محلات بيع الأقراص المدمجة هنا يملكها يهود إيرانيون، حيث استطاعوا على مدى السنين العشرين الماضية إيجاد سوق للأغاني الفارسية في قلب الدولة اليهودية. عندما يحكّ المرء سطح العداوة الإسرائيلية الإيرانية الشرسة، يبرز التجانس بين الثقافتين. إن أوجه الشبه بينهما أكثر من أوجه الخلاف بطرق عدة. فكل من الثقافتين تميل إلى النظر إلى نفسها على أنها متفوقة إلى حدّ ما على ثقافة جيرانها العرب، إذ إن العديد من الإيرانيين يعتقد بأن جيرانه العرب ناحية الغرب والجنوب أدنى مستوى منه من الناحية الثقافية؛ وأنهم وحوش يتمتعون بحظ وافر لكون الفرس جيراناً لهم وبوسعهم تحديثهم وتهذيبهم. وبالمثل، بعد أن ألحقت إسرائيل الهزائم بالعرب في الحروب الكثيرة التي اندلعت بين الطرفين، بات أغلب الإسرائيليين لا يأبهون لقدراتهم. فقد قال لي محلل إسرائيلي بطريقة متعجرفة، "نحن نعرف ماذا يستطيع العرب فعله، وهم لا يستطيعون فعل الكثير"، وذلك قبل شهور من اندلاع الحرب مع حزب الله في العام 2006 والتي ربما أعادته إلى رشده بعض الشيء. ومع عدم قدرة الإسرائيليين على كبت إحساسهم بالتفوق أو على إقناع العرب بالتخلّي عن أفكارهم النمطية المتعلقة بالفرس واليهود، بات يتملّكهم شعور بأنه لم يعد لديهم خيار سوى اعتبار التوصل إلى سلام أمراً بعيد المنال. لقد تخلّى بعض الإسرائيليين عن حلم العيش في سلام مع جيرانهم، سواء عبر صداقات حقيقية أو عبر اعتراف – وقبول – في حدوده الدنيا وإن يكن متبادلاً، ورضوا برؤية "لا حرب، لا سلم" المستندة إلى التفوق العسكري الإسرائيلي. كما توصل الإيرانيون إلى استنتاج مشابه قبل عدة قرون، بحيث بات الإسرائيليون والإيرانيون يعتقدون فيما يعيشون حياتهم اليومية بأن "العرب قادمون للنيل

منّا".

ربما كان الأهم من ذلك أن الإسرائيليين والإيرانيين يرون أنهم منفصلون ثقافياً وسياسياً عن المنطقة التي أُجبروا فيها على مواجهة أعدائهم الإقليميين من خلال عدسات العقلية المانوية. فمن الناحية الإثنية، نجد أن يهود إسرائيل محاطون ببحر من العرب الذين ربما لم يكونوا دائماً في حالة حرب مع إسرائيل، ولكن لم يسبق أن كانوا في حالة سلام معها. من الناحية الثقافية، نجد أن اليهود الأشكيناز القادمين من أوروبا الشرقية يهيمنون على المجتمع الإسرائيلي، حتى وإن تنامى بروز اليهود الميزراحي، أو الشرقيين، في السنين الأخيرة. من الناحية الدينية، نجد بالطبع أن إسرائيل دولة فريدة على صعيد إقليمي وعالمي على اعتبار أنها الدولة الوحيدة المبنية على الديانة اليهودية. وربما في ردّ طبيعي على تاريخ الاضطهاد الطويل الذي عانى منه اليهود، يوجد لدى إسرائيل ميل نفسي شديد إلى عدم الثقة بالعالم الخارجي. وبناء على هذه العقلية، لا يمكن للمؤسسات الدولية والتحالفات العالمية أن تكون بديلاً عن قدرة إسرائيل الخاصة على حماية نفسها. ففي النهاية، يعتقد الإسرائيليون بأنه لا يمكن لقرار صادر عن مجلس الأمن الدولي أن يحمي إسرائيل كما يحميها مائتا رأس حربي نووي. وقال لي جنرال إسرائيلي بفخر: "هذه هي أسلحة السلام". وهو ما يدل على فشله في رؤية التناقض بين العبارتين.

لا يختلف الإيرانيون كثيراً عن الإسرائيليين. فبافتخارهم بأنهم ورثة حضارة سبقت ظهور الإسلام بأكثر من ألفي عام، كانوا أول من أشار إلى الغربيين بأنهم ليسوا عرباً. إيران، أو أرض الأريانيين كما يُعتقد بأنه معنى كلمة إيران، تسكنها شعوب يتكلم أغلبها لغات هندية أوروبية. واللغة الفارسية أقرب من الناحية اللغوية إلى الفرنسية والسويدية منها إلى العربية، بالرغم من أنها تحتوي على العديد من المفردات العربية وتُكتب بحروف عربية. وبالرغم من دخول الإسلام إيران في القرن السابع الميلادي، فقد حافظ الفرس على لغتهم، وعلى تقاليدهم الثقافية، وعلى الصفة الخاصة التي لا تزال تربطهم لغاية الآن بماضيهم الزرادشتي. فلا يزال يُحتفل بالسنة الإيرانية الجديدة، النوروز (اليوم الجديد) في إيران منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام، وتبقى هذه المناسبة أطول عطلة في البلاد اليوم، متجاوزة أي عيد إسلامي.

بالرغم من أن الإيرانيين مسلمون، فهم يميّزون أنفسهم عن محيطهم باعتناقهم المذهب الشيعي الإسلامي بدلاً من المذهب السنّي الأكبر بكثير والأوسع انتشاراً. وكما الإسرائيليون، تساور الإيرانيين شكوك عميقة بالعالم الخارجي. وفي حين أن اليهود عانوا من الاضطهاد ونجوا من الإبادة الجماعية، حارب الإيرانيون الاستعمار، ومحاولات الضم، وعقوداً من التدخلات الخارجية، وأخيراً وليس آخراً، خاضوا حرباً دامت ثماني سنين مع العراق في عهد صدام حسين. عندما غزا صدامُ إيران في العام 1980، لم ترَ الأمم المتحدة في ذلك تهديداً للسلم والأمن العالميَّين. واحتاج مجلس الأمن إلى أكثر من سنتين للمطالبة بانسحاب القوات الغازية. (قارنْ ذلك بغزو صدام للكويت في العام 1990 عندما أصدر مجلس الأمن الدولي القرار 660 بعد مرور اثنتي عشرة ساعة على الغزو، مطالباً بانسحاب فوري وغير مشروط للقوات العراقية). ثم مرّت خمس سنوات أخرى، ويرجع ذلك أساساً إلى المماطلة الأميركية، قبل أن تبحث الأمم المتحدة مسألة استخدام صدام للأسلحة الكيميائية ضدّ الجنود والمدنيين الإيرانيين. (قامت الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية إما ببيع مكونات الأسلحة الكيميائية مباشرة لصدام، أو عرفت بأمر هذه المبيعات، ووافقت سرّاً عليها). منذ ذلك الحين، ضمنت الولايات المتحدة تخفيف حدة القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة لحماية صدام. ثم استشهدت الولايات المتحدة بتلك الجرائم نفسها لتبرير غزوها للعراق في العام 2003. بالنسبة إلى الإيرانيين، كان الدرس واضحاً: عندما يهجم الخطر، لا يمكن لإيران الاعتماد لا على اتفاقيات جنيف ولا على ميثاق الأمم المتحدة لكي تحمي نفسها. وكما هو الحال مع إسرائيل تماماً، توصلت إيران إلى أنه لا يمكنها الاعتماد على أحد سوى على نفسها.

اليهود والإيرانيون ليسوا غرباء عن بعضهم. فثقافة الطرفين، وديانتاهما، وتاريخاهما متشابكة بشكل وثيق منذ العصور البابلية. يمكن إرجاع أصول العلاقات بينهما إلى القرن الثامن قبل الميلاد عندما أعاد الملك الأشوري تيغلاث بيليزر الثالث توطين آلاف من اليهود بالقوة في ميديا (الواقعة جنوب غرب إيران). وأعيد توطين مجموعة أخرى من اليهود في إكبتانا (همدان) وفي سوسا في العام 721 قبل الميلاد على يد خليفته سرجون الثاني. لغاية اليوم تشكل همدان مركزاً رئيسياً لليهود الإيرانيين. كما تُشتهر همدان بأنها المكان الذي دُفنت فيه الملكة إستير، زوجة الملك كسيركسيس، التي أنقذت الشعب اليهودي من الاضطهاد في القرن الخامس قبل الميلاد. ولا يزال يُحتفل بهذه المناسبة في عيد بوريم (إستير 1:3–32:9). أضف إلى ذلك أن قبر دانيال، نبي العهد القديم، يوجد خارج سوسا اليوم، في جنوب غرب إيران[4]. وصلت أهم موجات المستوطنين اليهود بعد أن نهب الملك الفارسي قورش مدينة بابل في العام 539 قبل الميلاد وحرّر اليهود من الأسر البابلي. اليهود يبالغون في تقدير هذا الملك الفارسي لدرجة أنهم رفعوه إلى رتبة المنقذ الذي أرسله الله، وهو الوحيد من غير اليهود الذي وصل إلى هذه المرتبة في الكتاب المقدس (عزرا 1:1–7). وبالرغم من أن الفرس سمحوا لليهود بالعودة إلى إسرائيل ودفعوا تكاليف إعادة بناء الهيكل في القدس، فقد اختار العديد منهم الهجرة إلى فارس. فاليهود الذين يبلغ عددهم خمسة وعشرين ألفاً والذين يعيشون في إيران اليوم يتحدرون مباشرة من هؤلاء الذين اختاروا الاستقرار في ما كان يُعتبر حينها القوى العظمى الوحيدة في العالم.

ربما يكون الأمر الأهم من ذلك، والذي يفسر كون اليهود الفرس جزءاً مكملاً من إيران على مرّ التاريخ، هو أنه على خلاف يهود الشتات، لم يفرّ اليهود الإيرانيون إلى إيران، وإنما رحلوا إليها طوعاً، وكانت لهم إيران منذ ذلك الحين، في الأيام الحلوة والمرّة، موطناً. حتى في يومنا هذا، تستضيف إيران، في ظل الجمهورية الإسلامية، أكبر جالية يهودية في الشرق الأوسط خارج إسرائيل، بالرغم من هجرة عشرات الآلاف منهم إلى إسرائيل أو إلى الولايات المتحدة[5]. وأسفار إستير، وعزرا، ونهيميا، ودانيال تعرض أوصافاً محببة للعلاقة بين اليهود والبلاط الفارسي. وعلى غرار الأتباع الآخرين في الإمبراطورية الفارسية، تمتع اليهود بالحرّية الدينية، والتزموا بأحكام شريعتهم الخاصة في الأحوال الشخصية مثل الزواج وقانون

الأحوال الشخصية. وهذه المعاملة اللطيفة جعلت اليهود أقل ممانعة للتأثيرات الفارسية في الديانة اليهودية. وقد صاغ الزرداشتيون الفرس العديد من معتقدات اليهودية الحديثة. فعن طريق الفرس، 'تعلّم اليهود مفاهيم الزمن الخطي، والإيمان بالأُخرويات، والإيمان بالملائكة، والشياطين، فضلاً عن مفاهيم مثل الجنة والنار'[6]. وهذا ما يشاهَد كثيراً في الأعمال الأدبية التي ترجع إلى الإمبراطورية الأكيماندية، عندما بدأ اليهود بوصف إله وحيد في مقابل القول بأن إلههم هو الأكبر من بين سائر الآلهة الأخرى؛ وهو المفهوم الذي 'آمن به الأنبياء والشخصيات اليهودية الأولى'[7].

يعيش نحو مائتي ألف يهودي إيراني مع أبنائهم في إسرائيل. وينتمي بعض هؤلاء إلى أعلى مستويات النخبة السياسية الإسرائيلية. في الجمهورية الإسلامية، لم يكن هؤلاء الأفراد ليتمكنوا من بلوغ قمة السلّم الوظيفي أو الإداري، لأنهم كانوا سيتوقفون قبل وقت طويل من بلوغهم مرحلة التفوق بسبب السقف الزجاجي الذي يفصل الأقليات الدينية، والعلمانيين، والملحدين عن الفئة التي تُعتبر بأنها قادرة على محض الجمهورية الإسلامية ولاءها. فالرئيس الإسرائيلي موشيه كاتساف، ونائب رئيس الوزراء (رئيس هيئة الأركان السابق في الجيش الإسرائيلي ووزير الدفاع) شاوول موفاز وُلدا في إيران. كما أن رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي دان حالوتس، الذي استقال حديثاً من منصبه، من أبوين مهاجرَين من ايران.

عندما عمل كاتساف لدى الأمم المتحدة، كانت هوايته المفضلة إحراج الدبلوماسيين الإيرانيين في المناسبات المتنوعة عبر السعي إلى التحدث إليهم باللغة الفارسية. فعلى اعتبار أنه يُحظر على الدبلوماسيين الإيرانيين التحدث (علناً على الأقل) إلى مسؤولين إسرائيليين، لم يكن في وسع هؤلاء أن يتخلّصوا من كاتساف الذي لا يلين إلاّ بمغادرة تلك المناسبات. وكاتساف رأى في ذلك عملاً مسلّياً للغاية. وكانت مقاربة موفاز وحالوتس في التعاطي مع إيران أقل فكاهة من ذلك بقليل، فهما من أبرز القادة الإسرائيليين الصقور في ما يختص بإيران. فعندما سُئل حالوتس في مؤتمر صحفي عُقد في يناير/كانون الثاني 2005 عن المدى الذي يمكن أن تذهب إليه إسرائيل لوقف البرنامج النووي الإيراني، أعطى الطيار السابق ردّاً يثير القشعريرة: "ألفا كيلومتر". هذه هي المسافة التي تفصل بين إسرائيل وإيران. بالنسبة إلى اليهود الإيرانيين الآخرين – سواء في إسرائيل أم في إيران– تسببت التوترات بين البلدين في ألم مبرح وقلق فظيع، لأنه منذ الثورة الإسلامية، برز تفاهم غير مكتوب بين الأقلية اليهودية بإيران والسلطات الإيرانية وهو أنه طالما أن اليهود الإيرانيين يعارضون الصهيونية والدولة الإسرائيلية، فسيحظون بالحماية في إيران، ويُمنحون قدراً واسعاً من الحرّية الدينية. وكما أشار ديفيد ميناشري، أبرز الخبراء بالشأن الإيراني في إسرائيل، وهو نفسه يهودي وُلد في إيران "كان هذا الاتفاق، الذي يفصل بشكل واضح بين كون المرء يهودياً وبين كونه صهيونياً، فكرة الجالية اليهودية وقد قامت بعرضها على نظام آية الله الخميني بعد الثورة"[8]. وأصدر آية الله الخميني فتوى يأمر فيها بحماية اليهود[9].

قلّة هم اليهود الإيرانيون الذين أخذوا خطاب أحمدي نجاد المعادي لإسرائيل على محمل الجدّ، وهم أشاروا إلى حقيقة أن الأوضاع لم تتغير كثيراً بالنسبة إلى اليهود الإيرانيين في عهده. وعلل سياماك مورساثيغ رئيس المستشفى اليهودي في طهران ذلك بالقول: "إن معاداة السامية ليست ظاهرة شرقية، كما أنها ليست ظاهرة إسلامية أو إيرانية؛ إن معاداة السامية ظاهرة أوروبية"[10]. ولم يمسّ أحد بسوء الكُنس الأربعين في إيران، والعديد منها ملحق بمدارس عبرية. كما لم يلحق أذى بالمكتبة اليهودية، التي تتباهى بكتبها التي يناهز عددها عشرين ألف كتاب، أو بالمستشفيات والمقابر اليهودية. لكن اليهود الإيرانيين ليسوا مكتوفي الأيدي. فالعضو اليهودي في المجلس الإيراني، أو البرلمان، موريس موهتامد، يجاهر بإدانته لتصريحات أحمدي نجاد. فقد صرّح موهتامد لصحيفة الغارديان: "عندما تحدث رئيسنا عن الإبادة الجماعية، اعتبرت أن من واجبي كيهودي التحدث عن القضية. فهذه الكارثة الأفظع في تاريخ البشرية موثقة في عشرات الآلاف من الأفلام والوثائق. وقلت بأن هذه الملاحظات تمثل إهانة كبيرة للمجتمع اليهودي بإيران بأكمله وللعالم أجمع"[11]. وسرعان ما سلك هارون يشايي، رئيس المجلس اليهودي بإيران، الطريق نفسه فبعث إلى أحمدي نجاد برسالة شديدة اللهجة يحتج فيها على ملاحظاته[12]. وفاز المجتمع اليهودي بدعم محمد خاتمي، الرئيس الأكثر اعتدالاً الذي سبق أحمدي نجاد، حيث أشار الرئيس الإصلاحي في ملاحظات لقيت انتشاراً واسعاً في مستهلّ العام 2006، "لا تنسوا أن إحدى جرائم هتلر، والنازية، والاشتراكية القومية الألمانية، هي ارتكاب مجزرة بحق أناس أبرياء، من بينهم العديد من اليهود"[13].

كما واجه اليهود الإيرانيون مآزق مشابهة في إسرائيل. يمكن فهم حقيقة أن تشكيك أحمدي نجاد في الإبادة الجماعية ودعوته إلى نقل إسرائيل إلى أوروبا أثارا مخاوف عودة الفاشية بين أوساط اليهود الأشكيناز، لكن اليهود الإيرانيين في إسرائيل كانوا أقل تأثراً وإن لم يكونوا أقل انزعاجاً. وعلل سولي شافار، وهو يهودي إيراني يعمل مدرّساً في جامعة حيفا، ذلك بالقول: "يدرك اليهود الإيرانيون المصدر الذي تأتي منه الرطانة والخطاب الراديكالي"[14]. ففي النهاية، يرى العديد من اليهود الإيرانيين في إسرائيل أنهم لا يبعدون كثيراً عن إيران؛ وهو منظور لا يألفه الإسرائيليون الآخرون. ففي فترة رئاسة خاتمي، أصبح التنقل بين البلدين عبر تركيا أمراً سهلاً، وباتت الخطوط الهاتفية المباشرة – التي لم تُقطع أبداً – تُستخدم بكثرة مع هبوط الأسعار. يسافر اليهود الفرس من إسرائيل إلى تركيا، حيث يعيدون جوازات سفرهم الإسرائيلية بواسطة البريد، ويحملون جوازات السفر الإيرانية مع صعودهم على متن الرحلات التالية المتوجهة إلى طهران. حتى أن بعض اليهود الذين يفقدون جوازات السفر الإيرانية يذهبون إلى القنصلية الإيرانية في إسطنبول ليطلبوا الحصول على جوازات سفر جديدة، كاشفين عن جنسيتهم الإسرائيلية الجديدة. والمفاجئ في الأمر أنه لا يبدو أن السلطات الإيرانية تأبه لذلك.

مع كل أوجه التشابه الثقافية هذه، يوجد الكثير أيضاً مما يميّز بين الثقافتين. فالفوارق بين الإيرانيين والإسرائيليين أمر يتعامل معه اليهود الفرس بشكل يومي. فعلى الصعيد الثقافي والاقتصادي، يفضل بعض اليهود الإيرانيين مكان مولدهم الفارسي على وطنهم اليهودي الأم. والعديد من

اليهود الإيرانيين الذين هاجروا حديثاً إلى إسرائيل إنما هاجروا لأسباب اقتصادية وليس لأسباب سياسية. فنظراً إلى اعتقادهم بأن إسرائيل جنّة اقتصادية، تركوا معيشتهم في إيران ليحصلوا على معيشة أفضل في إسرائيل. لكن بالنسبة إلى العديد منهم، لم تكن إسرائيل عند مستوى توقعاتهم، وهم يحلمون الآن بالعودة إلى إيران. والبعض منهم تصرّف بناء على هذه الأحلام بالفعل. واستناداً إلى أورلي هالْبيرن من صحيفة الجيروزالم بوست، يمتلئ شارعا يافا وريهوف يهودا بالقدس بأصحاب المحلات الإيرانيين الذين يقولون بأنهم تواقون إلى العودة مجدداً؛ بعضهم من أجل زيارة إيران، والبعض الآخر من أجل العيش فيها. قالت يهودية إيرانية مهاجرة لهالبيرن: "في إيران، الكل يقول إن الحياة في إسرائيل رائعة. فهم يعطونك منزلاً، ويعطونك مالاً. الحياة هناك سهلة. قدمنا إلى هنا وأُصبنا بصدمة. الحياة هناك صعبة، لكنها ليست بمثل صعوبتها هنا". وأضافت أن "قلبها مشتاق إلى إيران"[15]. من الواضح أن المهاجرين الإيرانيين الآخرين يفضلون إسرائيل، وهناك بعض التوترات بين المهاجرين حديثاً والمهاجرين المتوطدين القادمين من إيران. فالمهاجرون الأكبر سنّاً يميلون إلى التشكيك بعض الشيء في المنافسين القادمين حديثاً، وهم يوجهون إليهم التهم في بعض الأحيان بمحاباة السلطة في إيران.

بقدر التشابه بين الإسرائيليين والإيرانيين، يعاني المهاجرون الإيرانيون القادمون حديثاً إلى إسرائيل من صعوبة في التغلب على الصدمة الثقافية. فالتباين بين القيم التقليدية للمجتمع الإيراني والتيارات الليبرالية السائدة في المجتمع الإسرائيلي – التي تحددها أعراف المهاجرين الأوروبيين وثقافتهم بدلاً من أن تحددها الجغرافيا الشرق أوسطية للبلاد – يمكن أن يكون أكبر من ذلك. لقد تسنّت لي فرصة التحدث إلى يهودي إيراني مسنّ كنت جالساً بجانبه أثناء انتظارنا وصول الحافلة التي ستقلّنا من القدس إلى تل أبيب. لم يكن إهساق (إسحاق) يكنّ أية مشاعر حبّ لرجال الدين في طهران، ولكنه كان يحب استعادة الذكريات القديمة للبلد الذي قضى فيه معظم حياته. ففي النهاية، إسرائيل هي أحدث فصل في حياته الطويلة، وهو لم يتمكن أبداً في الواقع من جعل الدولة اليهودية موطناً له. فهو لم يستطع الانسجام معها. وبطريقة إيرانية تقليدية، شعر إسحاق بأنه مكره على مشاركة رغيف الخبز الذي أحضره معه لكي يتناوله أثناء رحلته الطويلة في الحافلة والتي تستغرق ساعة من الزمن مع رفاقه الركاب من الأشكيناز، وهو يخشى اليهود الأوروبيين الأكثر تحفظاً والذين لم يستطيعوا التأكد مما إذا كانت ملامح إسحاق الداكنة تعني أنه يهودي شرقي (ميزراحي) أو أحد المواطنين العرب. وبعد أن شعر بالإحراج، عاد إسحاق إلى مقعده. وبعد لحظة صمت، رفع صوته وهو يتحدث بالفارسية بلكنة أصفهانية قوية، قائلاً "فارْهانغ ناداران" (إنهم غير مثقفين). من الشائع سماع هذا الانتقاد لإسرائيل بين أوساط اليهود الإيرانيين.

على غرار أغلب اليهود الروس الذين هاجروا إلى إسرائيل بعد سقوط جدار برلين، لا يزال اليهود الإيرانيون يفضلون لغتهم الخاصة على العبرية وهم يتمسكون بثقافتهم الإيرانية بإخلاص كبير. وهم يحتفلون بعيد النوروز بصخب يجعل مهرجانات لوس أنجلس أو طهران تبدو متواضعة عند مقارنتها به. واشتكى إسحاق إليّ قائلاً: "أنا فخور بأنني يهودي، وأنا فخور بأنني إسرائيلي، لكن لا يوجد ما يجمعني مع هؤلاء الناس". وفي تعبير عن رفضه للطرق الليبرالية لليهود الأوروبيين، "أنا لا أريد أن يعيش أولادي كما يعيشون". كما أن حالات سوء التفاهم بين المجموعتين ليست نادرة. فالإيرانيون يميلون إلى التحدث بحذر، فيتجنّبون الإفصاح عن نواياهم أو غاياتهم مهما تكن التكاليف. وبدهاء واسع وأدب جمّ، يمرّرون رسالتهم خلف طبقات وطبقات من المشاعر الدقيقة والمجاملات المضللة عن قصد. لكن الإسرائيليين على النقيض من ذلك تماماً. إنه صراع بين 'التاروف' و'الشوتزْباه'.

تاروف مبدأ اجتماعي إيراني، مفهوم يحكي عن الأدب غير الصادق. وعلى سبيل المثال، يتبادل الإيرانيون دعوات العشاء ليس لأنهم يعنون ذلك بالضرورة، بل لإظهار الأدب وحسب. وهم يتوقعون من الطرف المدعو أن يردّ بأدب مماثل؛ برفض تلك الدعوة. والتصرف الوقح هو أن تقبل الدعوة عندما تُعرض عليك لأول مرّة. أي أنه ينبغي اعتبار الدعوة بأنها صادقة فقط في حال عُرضت عليك ثلاث مرّات تقريباً من قبل فعندئذٍ، سيكون من الوقاحة بالطبع رفضها. إن الغموض، والرمزية، والفوارق الدقيقة التي لا تنتهي متأصلة في الثقافة واللغة الإيرانية. وشرح ناصر هاديان من جامعة طهران، المسألة بعبارات لا بدّ وأن يعتبرها الأميركيون والإسرائيليون متناقضة بشكل صارخ، فقال: "التاروف علامة على الاحترام حتى وإن لم نكن نعني ذلك"[16]. لكن في نظر الإيرانيين، ليس في الأمر تناقض، فهم يفهمون التاروف ولماذا لا يزال الأدب غير الصادق علامة على الاحترام الكامل.

يوجد لدى الإسرائيليين سمة ثقافية مختلفة، شوتزْباه، وتعني "الوقاحة أو الحقد". فهم يحكون نكتة ويقصدون من وراء ذلك شرح فكرة. وعلى سبيل المثال، يتجادل صبي مدلل يبلغ من العمر اثني عشر عاماً مع والديه، وفي فورة غضب، يعمد إلى قتلهما معاً. يتم إلقاء القبض عليه على الفور، ويُساق إلى السجن في انتظار عقد المحكمة. وما إن يدخل قاعة المحكمة حتى يلقي بنفسه عند قدمي القاضي وهو يبكي ويقول: "ارحمني! ففي النهاية، أنا مجرّد يتيم مسكين". على العكس من العديد من الإيرانيين، لا يميل الإسرائيليون إلى إخفاء ما يعنون قوله. وهم لا يجدون خياراً سوى التحدث بطريقة مباشرة من غير أن يتفوهوا بكلمة زائدة واحدة أو يبذلوا أي جهد في التعبير عن الفوارق الدقيقة التي تميز لا محالة بين كافة الأوضاع الاجتماعية، وهي سمة يجدها الإيرانيون واليهود الإيرانيون ببساطة فظة ومهينة. في حين سيتحدث الإيراني طويلاً لكي يتجنب استخدام عبارة "كلا"، يحيا العديد من الإسرائيليين على الحقائق القاطعة. وبناء على ذلك، يمكن أن يكون الحصول على جواب يحمل في طياته فوارق دقيقة من إسرائيلي أمراً لا يقل صعوبة عن إمكانية الحصول على جواب صريح من إيراني. في الصراع القائم بين التاروف والشوتزباه، لا يوجد منتصرون، وإنما يسود الارتباك.

بقدر ما يجد كل طرف الطرف الآخر وقحاً وقليل الأدب، أو غير صادق أو مراوغاً، يحتفظ كل من الإسرائيليين والإيرانيين بنظرة مبالغاً فيها وشبه أسطورية عن الآخر. فالاحترام والتوقير اللذان يكنهما كل من الطرفين المتنافسَين للآخر مسألة لا جدال فيها. وقال لي خبير إسرائيلي في

الشؤون الإيرانية: "يُنظر إلى الإيرانيين على أنهم أسياد في الخداع، وأنا أعتقد بأن مكانتهم الأسطورية لا تتبع من كون الإسرائيليين يعرفون الإيرانيين ويقدّرون قدراتهم وحسب، بل ولأنهم شديدو الاختلاف عن العرب. فعندما نقوم بتصنيف أعدائنا، نصنّف العرب بأنهم متزمّتون بحيث إنهم سيعملون وفقاً للتوجيهات نفسها إلى الأبد، وذلك لأنهم عرب. إنهم ضيّقو الأفق وغير معقّدين. لكن تصنيف الإيرانيين أصعب بكثير على الإسرائيليين لأنهم شديدو الشبه بنا".

يشير بعض الإسرائيليين إلى قصة الملكة إستير المنقولة عن الكتاب المقدس كمؤشر على غموض فنّ التلاعب الإيراني. فاستناداً إلى ما تقوله الأسطورة، كانت إستير ابنة تاجر يهودي يقيم في مدينة سوسا في أيام كسيركسيس (486–465 قبل الميلاد). رأى الملكُ الفارسي جمالَها فجعلها ملكة من غير أن يعرف عن جذورها اليهودية شيئاً. وبعد أن تبوّأت العرش، عرفت إستير بأمر مؤامرة تدبَّر في المملكة لقتل كافة اليهود، لم يكن يحيكها الفرس وإنما أبناء أقلّية أخرى، الأمالكيين. ولذلك، اقتربت إستير من الملك ودعته ودعت المتآمر الرئيسي هامان، لحضور مأدبة قامت بإعدادها وأرادت من خلالها التقدم إلى الإمبراطور الفارسي بالتماس. سأل الإمبراطور – كما جاء في الكتاب المقدس – بتلهف إستير عن التماسها فقال: "والآن، قولي لي ما هو طلبكِ؟ وسأمنحكِ ما تطلبين". لكن بدلاً من أن تفصح عن طلبها، وعدت إستير الملكَ بالإفصاح عنه في حال رضي بالإنضمام إليها مع هامان إلى مأدبة العشاء في اليوم التالي أيضاً. وهنا أيضاً، سألها الملك عن طلبها. كان على إستير انتظار اللحظة المناسبة بفارغ الصبر وها قد وصلت تلك اللحظة. قالت إستير: "إذا كان ذلك يرضي جلالتكم، أسألك أن تمنحني حياتي؛ هذا هو التماسي. لأنه جرى بيعي وبيع شعبي للدمار والذبح والإبادة". طلب الملك الذي غلبته الحيرة معرفة من الذي طلب قتل الملكة. أجابت إستير بثقة: "هامان". وهي تعلم بأن خطتها وصبرها تكلّلا بالنجاح. عُلّق هامان على حبل المشنقة، وأُنقذ يهود فارس من الموت.

شرح صموئيل بار من مركز المناهج المتعددة بهيرتزيليا ومسؤول قديم في الاستخبارات الإسرائيلية القصة فقال: "في الكتاب المقدس، تصرّفت إستير بطريقة فارسية مثالية. فلقد خدعت الأطراف الأقوياء، وأخفت نواياها عنهم، وتلاعبت بهم، وأقنعتهم بخوض حروبها نيابة عنها"[17]. واستناداً إلى مركز شالم في القدس، ينبغي على الإسرائيليين اليوم تعلّم المواهب الفطرية التلاعبية الإيرانية لدى إستير وتوظيفها في دبلوماسيتهم. لكن الشغف بإستير ربما يكشف عما لدى الإسرائيليين أكثر مما يكشف عما لدى الإيرانيين. فقد علّق خبير إسرائيلي في الشؤون الإيرانية بالقول: "نحن نحب اعتبار أنفسنا أسياداً في الخداع. لكن فكّر في الأمر التالي عندما تعرّف شخصاً بأنه عدوّك اللدود، فأنت تحكي الكثير عن نفسك". من دواعي السخرية أن لقب أسياد الخداع في أوروبا؛ حيث تميزت التيارات المعادية للسامية على مرّ التاريخ بالقوة، أُطلق على الشعب اليهودي وليس على الإيرانيين. وهناك العديد من الإسرائيليين الذين يعون الصور النمطية المأخوذة عن الإيرانيين، ويجادلون بأنهم يبالغون في أحسن الأحوال، ويضلّلون في أسوأ الأحوال. ويشرح إيهود ياري وهو إعلامي تلفزيوني إسرائيلي محنّك "هذه الأساطير اخترعتها أيادي إيران القديمة؛ دعونا نطلق عليهم لقب 'لوبرانيين' في إشارة إلى أوري لوبراني، المبعوث الإسرائيلي لدى إيران في سبعينيات القرن الماضي والذي يبقى ناشطاً في الشؤون الإيرانية بوزارة الدفاع. أنا لا أصدق الأسطورة التي تقول إن لدى الإيرانيين سبعة آلاف عام من الدبلوماسية تحت عمامة رفسنجاني". لكن حتى ياري لم يستطع إنكار التقدير الذي يكنّه الإسرائيليون للأمة الإيرانية. فقد كان يتحدث معي وهو يستعيد ذكريات "الأيام الحلوة القديمة" قبل الثورة، عندما كان التعاون الاستخباري بين البلدين يجري على قدم وساق، وعندما كان السياح الإسرائيليون يذهبون جماعات لزيارة إيران؛ البلد الوحيد في الشرق الأوسط الذي كان الإسرائيليون يلقون فيه الترحاب في ذلك الوقت[18].

من ناحية أخرى، يرفض الإيرانيون التعبير عن إعجابهم الصريح بالقدرات التي يتمتع بها الإسرائيليون، ويحاولون إخفاء هواجسهم ومخاوفهم خلف الخطاب الملتهب والمظاهر الإيديولوجية الكاذبة. كذلك يرفض الإيرانيون بغضب أية إشارة تفيد بأن إسرائيل منافسة لإيران على تبوّء موقع قيادي في المنطقة. ويتساءلون بتبرّم مكشوف كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ ويصرّون على القول إنه على الرغم من كافة المشكلات التي تواجهها إيران مع العرب، المشكلات التي تسببها إسرائيل هي الأسوأ. فعلى الأقل، هناك قاسم مشترك بين إيران والعرب، وهو الإسلام، وإيران، كما يجادلون عادة، "بلد حقيقي"؛ لا دولة مصطنعة بُنيت على أرض عربية محتلّة. في هذا السياق، قال لي مصطفى زهراني، رئيس المركز البحثي إيبيس التابع لوزارة الخارجية الإيرانية، في مكتبه الكائن شماليّ طهران في أغسطس/آب 2004: "إن الأفعال التي تقوم بها إسرائيل غير مشروعة، وعدد سكانها ضئيل للغاية. ولذلك لا يمكنها أن تكون قوة مهيمنة. إن مجرّد القبول باستمرار وجودها أمر نستكثره، ناهيك عن أن تكون قوة مهيمنة"[19]. لكن خلف الكلمات القاسية التي تفوه بها زهراني يكمن الخوف الإيراني من مواجهة منافس في المنطقة ربما كان صغير الحجم، وذا ثقافة غريبة عن المنطقة، ولكنه يملك ورقة رابحة يستخدمها عند الحاجة وتشتهيها إيران، ألا وهي دعم الولايات المتحدة الأميركية.

في 12 يوليو/تموز 2006، اندلعت الحرب بين إسرائيل وحزب الله، وهي مجموعة عسكرية وسياسية لبنانية تدعمها إيران. في ذلك اليوم، عبرت وحدة من حزب الله الحدود الإسرائيلية اللبنانية واختطفت (أسرت) جنديين إسرائيليَّين وقتلت ثلاثة جنود آخرين. على الفور، شرعت إسرائيل في مهمة إنقاذ لم يكن مصيرها الفشل وحسب، بل وأدّت إلى مقتل خمسة جنود إسرائيليين آخرين. بالنسبة إلى حزب الله، كان ذلك اشتباكاً حدودياً متوسط الحجم. كانت الغاية من الغارة الحصول على أسرى إسرائيليين، لكي يكون في مقدور حزب الله استخدامهم في الفوز بتحرير أسرى لبنانيين وفلسطينيين يحتجزهم الإسرائيليون. بالنسبة إلى إسرائيل، وإلى داعميها من المحافظين الجدد في إدارة بوش، كان ذلك عملاً حربياً، ليس من جانب حزب الله وحسب، بل ومن جانب إيران أيضاً.

في غضون ساعات، سلّمت إسرائيلُ حزبَ الله رداً لم يكن يتوقعه: غارات جوية واسعة النطاق استهدفت معاقل حزب الله ومنصات إطلاق الصواريخ، فضلاً عن البنية التحتية المدنية في لبنان، على الطريقة الإسرائيلية المرعبة والصاعقة. حتى أن الإسرائيليين قصفوا خزانات النفط

اللبنانية ومدارج الهبوط والإقلاع في مطار بيروت، وهو ما جعل من المستحيل على الطائرات الإقلاع منه أو الهبوط فيه. وقد أدّت تلك الخطوة إلى احتجاز ما يصل إلى خمسة وعشرين ألف لبناني يحملون الجنسية الأميركية وسط القتال، ولكن لم يظهر أن إدارة بوش كانت تأبه لذلك. بل وعلى العكس من ذلك، كان المحافظون الجدد البارزون، الذين حثّوا طوال سنوات إدارة بوش على الهجوم على إيران، منتشين. فحثّ ويليام كريستول من ويكلي ستاندارد البنتاغون على الردّ على "هذا الاعتداء الإيراني بتوجيه ضربة عسكرية إلى المنشآت النووية الإيرانية. لماذا الانتظار؟" ووصف القتال الدائر بعبارات إيديولوجية فقال: "حرب إسلامية إسرائيلية". وحذّر كريستول من الظهور في مظهر الضعيف وختم مقالته بالقول "إنها حربنا أيضاً"[20]. لا يهم إن كان حزب الله، بالرغم من أنه حليف مقرّب من إيران ومن سوريا أيضاً، قد أظهر في مرات عدّة أنه قادر على اتخاذ قرارات هامة من الناحية السياسية والعسكرية من تلقاء نفسه، بدون موافقة أو رعاية إيرانية. بالنسبة إلى المحافظين الجدد ومؤيدي إسرائيل في الجناح اليميني بأميركا، شكلت الحرب في لبنان خطوة حاسمة في خطتهم لتحويل إيران إلى عراق ثانٍ[21]. فبعد مرور يوم واحد فقط على بدء الحرب، دعا مايكل ليدين، من معهد المشروع الأميركي وأحد أكثر الصقور من الباحثين في الشأن الإيراني عدوانية بواشنطن، الولايات المتحدة إلى توسيع رقعة القتال وتحويله إلى حرب إقليمية: "الطريقة الوحيدة لكي ننتصر في هذه الحرب هي في إسقاط هذين النظامين في طهران ودمشق، وهما لن يسقطا نتيجة للقتال الدائر بين وكلائهما في غزة ولبنان من ناحية، وبين إسرائيل من ناحية أخرى. وحدها الولايات المتحدة يمكنها تحقيق ذلك"[22].

في اليوم نفسه، كتب جون غيبسون، وهو مؤيد آخر لسياسة إدارة بوش في الشرق الأوسط، مقالة افتتاحية لقناة فوكس نيوز جادل فيها بأن إيران (أي حزب الله) لم تهاجم إسرائيل، وإنما هاجمت في الحقيقة الولايات المتحدة. "إنها فعلاً حرب تشنّها إيران علينا"[23]. ومع أن الرئيس بوش لم يعمل بنصيحة إخوانه المحافظين الجدد، فقد فعلت واشنطن كل ما في وسعها لإطالة أمد الحرب وبالتالي منح إسرائيل الوقت لتدمير حزب الله بقدر الإمكان، حيث قالت وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس لمحطة فوكس نيوز: "إن وقف أعمال العنف أمر ضروري، ولكن إذا كان ذلك الوقف لأعمال العنف رهينة القرار التالي لحزب الله بإطلاق الصواريخ على إسرائيل أو قرار حماس التالي باختطاف مواطن إسرائيلي، فلن نصل إلى أية نتيجة". حتى أن الرئيس بوش نفسه ردّ على دعوات المجتمع الدولي التي طالبت بوقف إطلاق النار على الفور بحثّه على عدم إهمال الفرصة الاستراتيجية التي وفّرتها الحرب، فقال لمحطة سي أن أن: "ما نقوله هو أنه علينا ألاّ نغفل عن السياق الأوسع"[24]. من الواضح أن بوش كان يأمل بأن استئصال إسرائيل المتوقع لحزب الله سيضعف النفوذ المتوسع لإيران في المنطقة، ويضع نهاية لتحدّيها لهيمنة أميركا وإسرائيل على المنطقة. كما أن تحييد حزب الله كان سيحرم إيران أيضاً من قدراتها الردعية والثأرية، مما يمهّد الطريق أمام حرب مع طهران لن تكون قادرة فيها على توجيه ضربات ثأرية إلى الدولة اليهودية. فقد قال لي إفرايم سنيه، نائب وزير الدفاع الإسرائيلي في مؤتمر انعقد في جنوب أوروبا في 28 يوليو/تموز 2006 في منتصف تلك الحرب، بثقة تثير الخوف: "الحرب مع إيران حتمية. فلبنان ليس سوى توطئة للحرب الأكبر مع إيران".

في أعقاب حرب خلّفت أكثر من ألف وخمسمائة قتيل، جلّهم من المدنيين اللبنانيين، وأدّت إلى نزوح تسعمائة ألف لبناني وثلاثمائة ألف إسرائيلي، وألحقت أضراراً جسيمة بالبنية التحتية اللبنانية، وعرقلت الحياة الطبيعية في كافة الأراضي اللبنانية وفي شمال إسرائيل، تبقى توقعات سنيه تحذيراً ينذر بالشؤم. لكن في حال صدقت توقعاته، فالنزاع لن يقتصر على إسرائيل وإيران، بل سيكون حرباً إقليمية، تجرّ الدول والجهات الفاعلة من غير الدول على حدٍّ سواء. كما أنها ستكون حرب أميركا أيضاً، تماماً كما يرغب المحافظون الجدد بشدة. (على العكس من العراق، يمكن لإيران أن تلحق أذى مدمّراً بالولايات المتحدة بسبب القدرات العسكرية غير النظامية المنتشرة في مختلف أرجاء المنطقة).

تقف أميركا اليوم عند مفترق طرق خطير، حيث احتلال العراق آخذ في التحوّل في سرعة إلى حرب أهلية وفوضى، حتى وان استُخدم الجيش بكافة إمكانياته. وهناك قدر كبير من الارتباك في تفسير كيفية تورّط أميركا في منافسة إسرائيلية إيرانية على أمر لا علاقة له بالإيديولوجية أو الدين. وقبل أن تتمكن من العثور على طريق يؤدي إلى مستقبل سلمي، يتعين على واشنطن أولاً الاستفادة من الماضي من جديد.

القسم الأول

حقبة الحرب الباردة

الفصل 2

تحالف أملته الضرورة:

الصداقة السرّية للشاه

يمكن للعرب أن يتسامحوا مع مضمون العلاقات الإيرانية الإسرائيلية الوثيقة طالما أنها لا تظهر في العلاقات الخارجية.

– مذكّرة محادثات رُفعت السرّية عنها، السفارة الأميركية في العاصمة الإيرانية طهران، بتاريخ 14 أكتوبر/تشرين الأول 1972.

غداة انتهاء الحرب العالمية الأولى، سيطر البريطانيون على فلسطين بطريقة شبه استعمارية، بموجب انتداب منحته عصبة الأمم. وانتعشت الحركة الصهيونية، التي كانت قد بدأت في نهاية القرن السابق لهجرة اليهود إلى فلسطين، شجعت عليها بهدف نهائي هو إقامة دولة يهودية، وفي ظل هذا الانتداب، وقعت اشتباكات متكررة بين السكان اليهود – الذين كان عددهم يتزايد باستمرار – والأغلبية العربية التي عارضت بحزم فكرة إقامة دولة يهودية، وأرادت لنفسها الاستقلال عن بريطانيا. خلال فترات الانتداب المختلفة، قمع البريطانيون كلاً من الثوار العرب واليهود. وبعد خروج بريطانيا من الحرب العالمية الثانية منهكة، ومفلسة مالياً، وممزقة بين المطالب المتعارضة بشكل صارخ لكل من السكان العرب واليهود، استسلم البريطانيون أخيراً، وطلبوا من الأمم المتحدة إيجاد تسوية للمشكلة. وفي 15 مايو/أيار 1947، شكلت الأمم المتحدة لجنة خاصة لفلسطين عُرفت باسم يونسكوب، من أجل التوصية بحلّ. واختيرت إيران للمشاركة في تلك اللجنة التي تألفت من إحدى عشرة دولة.

بعد مرور عدة شهور من جلسات الاستماع المضنية، قُدّمت خطة حظيت بدعم ثمانية أعضاء فقط من أصل أعضاء اللجنة الأحد عشر. فضّل أغلب أعضاء اللجنة تقسيم فلسطين وإنشاء دولة عربية مستقلة وأخرى يهودية، مع وضع القدس تحت وصاية دولية. عارضت إيران– إلى جانب الهند ويوغوسلافيا – هذه الفكرة، وتوقعت بأن التقسيم لن يؤدي سوى إلى زيادة أعمال العنف بدلاً من تقليلها[1]. في ذلك الوقت، كان الشاه محمد رضا بهلوي يحكم إيران، وهو الإمبراطور الثاني في السلالة البهلوية. كان والده، رضا شاه، قد قام بعملية انقلابية في فبراير/شباط 1921 وأزاح سلالة قاجار الحاكمة عن الحكم. وبعد مرور عشرين عاماً على ذلك التاريخ، أُطيح برضا شاه على يد البريطانيين والروس الذين نصّبوا ابنه الصغير، محمد رضا، على العرش. وحتى قبل إقامة الدولة اليهودية، تكهن محمد رضا شاه بأن التقسيم سيؤدي إلى عقود، إن لم يكن قروناً، من العنف. وأصرّ نظام البهلوي على القول بأنه من خلال إقامة دولة فيدرالية وحيدة تضم الدولتين اليهودية والعربية، يمكن فقط إحلال السلام في تلك المنطقة. وفي مواجهة اعتراضات إيران الهادئة، تبنّت الجمعية العامة للأمم المتحدة خطة التقسيم بموجب القرار رقم 181 الصادر في 29 نوفمبر/تشرين الثاني 1947. وسرعان ما اندلع القتال بين اليهود والفلسطينيين، وبعد مرور أقل من ستة شهور، أعلن ديفيد بن غوريون استقلال دولة إسرائيل. واختارت إيران، إلى جانب الدول الاثنتي عشرة التي صوّتت ضدّ التقسيم، عدم الاعتراف رسمياً بالدولة الجديدة، وهو قرار التزم به الشاه طوال مدة حكمه التي بلغت سبعة وثلاثين عاماً[2].

مع ولادة دولة إسرائيل، واجهت إيران مأزقاً ميّز تعاملاتها مع الدولة اليهودية منذ ذلك الحين. فقد أدرك الشاه أن إقامة دولة ليست عربية موالية للغرب في الشرق الأوسط يمكن أن يعزز أمن إيران عبر لفت انتباه الدول العربية وتخصيص مواردها، وهي الدول التقليدية المنافسة لإيران في المنطقة. لكن لو أراد الشاه الاعتراف رسمياً بإسرائيل أو دعم إنشائها علناً، فسيُصبّ جزء من جام غضب العرب على إيران. ولذلك توجّب على إيران سلوك مسار بين العداء المكشوف والتحالف المكشوف. على مدى العقود الثلاثة التي تلت ذلك، تعامل الشاه مع هذا العمل الموازِن بمهارة فائقة.

التورّط في لعبة القوى العظمى

خرج من الحرب العالمية الثانية منتصران جليّان هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. لكنّ هزيمة دول المحور أدخلت هاتين الدولتين في منافسة عالمية، وسرعان ما بدأتا بعد الحرب بتقطيع العالم وضمّه إلى فلكي تأثيرهما. لم يكن الشرق الأوسط استثناءً من ذلك، فثروته النفطية جعلته قطعة ثمينة على الخصوص في لعبة الشطرنج الجيوسياسية بين واشنطن وموسكو، اللتين كانتا تعملان على جذب الدول الإقليمية إلى معسكريهما. وفي مقابل تعاون هذه الدول، يُعرض عليها الصداقة والحماية. بالنسبة إلى إيران، كان الخيار واضحاً، فقد ولّدت القرون الطويلة من الحروب المشتعلة بين إيران وروسيا لدى الشاه شكوكاً طبيعية بالنوايا السوفياتية. شكّلت الإيديولوجية الشيوعية تهديداً حقيقياً لحكم الشاه في إيران، حيث أوجد التوزيعُ غير المتساوي للثروة أرضاً خصبة للجماعات الموالية للسوفيات مثل حزب توده (الشعب) الإيراني. وأمل الشاه بأن الانضمام إلى المعسكر الغربي سيمكّن إيران من تلقّي المساعدات الاقتصادية والعسكرية من الولايات المتحدة لكي توقف المغامرات السوفياتية في الشرق الأوسط والخليج العربي.

كانت خيارات إسرائيل الاستراتيجية أكثر تعقيداً. فقد اعتمدت الدولة اليهودية الناشئة حديثاً على الغرب في الحصول على الاستثمارات الرأسمالية، ولكنها كانت في أمسّ الحاجة إلى هجرة المجتمعات اليهودية في كل من الشرق والغرب إليها لكي تنمو وتبقى. ومع ميلان الميزان الديموغرافي بقوة ضدّها – كان يوجد في فلسطين التاريخية حوالى 1.35 مليون عربي و650000 يهودي في العام 1948 – لم يكن في مقدور إسرائيل أن تزدهر بدون وصول المزيد من المهاجرين اليهود. وفي حين كان بن غوريون يفضّل دائماً الولايات المتحدة بوصفها دولة راعية أساسية، شعر العديد من الإسرائيليين في الأيام الأولى لتلك الدولة بانجذاب عاطفي وإيديولوجي إلى الاتحاد السوفياتي، لأنه لم تكن توجد مشاعر اشتراكية قوية وحسب في إسرائيل، بل وكان العديد من الإسرائيليين يعتبرون الاتحاد السوفياتي البلد الأول المسؤول عن هزيمة النازية. بالنسبة إلى الشاه الذي

كان ينظر إلى العالم أساساً من منظور الحرب الباردة، كانت علاقات إسرائيل الغامضة مع الاتحاد السوفياتي وجهودها إلى تنمية روابطها مع القوتين العظمتين سبباً يدعوه إلى الشك فيها. تبنّى الشاه سياسة "الثنائية المحسوبة"، فأبقى نفسه على مسافة بعيدة من الدولة اليهودية فيما بقي ينتظر منها توضيح ولاءاتها. وأثناء السنتين الأوليين على وجود إسرائيل، لم تعترف إيران بها لا بحكم الأمر الواقع ولا بحكم القانون. ولكن تل أبيب نأت بنفسها عن المعسكر السوفياتي، وترسّخت توجهاتها الموالية للغرب، وتبدّدت في إثر ذلك الشكوك الإيرانية[3]. في العام 1951، اعترفت حكومة مصدّق بإسرائيل كأمر واقع في المنطقة، ولكنها أصرت على عدم الاعتراف بها بصفة قانونية، وهذا يعني أنها لم تُقم علاقات رسمية مع الدولة اليهودية[4]. بالرغم من ذلك، كان للاعتراف بحكم الأمر الواقع مضامين سياسية هامة؛ فقد عنى لا محالة أن إيران اعترفت بإنشاء دولة إسرائيل وأنها لن تسعى إلى تدميرها أو تدعم أمراً كهذا.

لكنّ اختيار المعسكر الغربي لم يحلّ المأزق الأمني الذي تعاني منه إسرائيل. فإسرائيل دولة وحيدة لليهود في بحر من الدول العربية المعادية، والتي أقام بعضها روابط قوية مع الاتحاد السوفياتي. بعدما تبيّن أن كسر دائرة عداوة العرب أمر مستحيل، وضعت إسرائيل آمالها في مدّ يدها إلى الدول غير العربية في المنطقة، بما في ذلك إيران. وهذا التطلّع أوجد مبدأ بن غوريون الخاص بالمحيط، وهو مفهوم في السياسة الخارجية ظل مهيمناً على الفكر الاستراتيجي الإسرائيلي حتى انتهاء الحرب الباردة. ينصّ هذا المبدأ على أن بُعد احتمال التوصل إلى سلام مع الدول العربية المحيطة يجبر إسرائيل على بناء تحالفات مع دول المحيط غير العربية – وعلى الخصوص إيران، وتركيا، وأثيوبيا – فضلاً عن الأقليات كالمسيحيين اللبنانيين والجماعات غير العربية مثل الأكراد، وأن شبكة التحالفات هذه ستزرع إسفيناً بين أعداء إسرائيل، وتضعف التكتل العربي، وتوقف انتشار القومية العربية في المنطقة[5].

في هذه الأثناء، تدهورت العلاقات بين إيران والدول العربية بسرعة[6]. ومع أن إيران تعاطفت مع المشاعر الوطنية للعرب ومطالبتهم بالاستقلال عن القوى الأوروبية المستعمرة (في النهاية، كانت إيران لا تزال تتعافى من تاريخها الطويل المؤلم من التدخلات البريطانية والروسية)، فقد تنامت لدى الشاه مشاعر الانزعاج من المظاهر الموالية للسوفيات[7]. ففي مصر على سبيل المثال، أدّى انقلاب الضباط الأحرار في العام 1952 إلى خلع الملك فاروق وتحقيق الاستقلال النهائي عن بريطانيا، وإلى الانسياق التدريجي نحو فلك الاتحاد السوفياتي نتيجة لذلك. وبدون اختيار من إيران وإسرائيل، سرعان ما وجد هذان البلدان نفسيهما في مواجهة مأزق أمني مشترك. فكلاهما يخشى التصاميم التي أعدّها السوفيات للمنطقة وتهديد الدول العربية الموالية للسوفيات، وكلاهما رأى في النظام الداعي إلى الوحدة العربية والمعادي للغرب في القاهرة، بقيادة جمال عبد الناصر، مصدر الشرّ الرئيسي في الشرق الأوسط[8]. فإلى جانب إسرائيل، كان شاه إيران الموالي للغرب أحد أهداف مصر الأساسية[9]. وسرت مخاوف في إيران وخصوصاً من النزعة التوسعية الإقليمية للوحدة العربية ومن المطالب العربية بإقليم خوزستان الواقع في جنوب إيران والغني بالنفط لأنها دفعت الدول العربية إلى التحالف ضدّ إيران حتى وإن كانت المصالح القومية للدول العربية تشير إلى وجوب سلوك طريق مختلف[10]. في هذا الصدد، قال فيريدون هوفيدا، الذي عمل سفيراً لإيران لدى الأمم المتحدة في سبعينيات القرن الماضي فيما خدم شقيقه أمير عباس هوفيدا كرئيس للوزراء لدى الشاه: "شعر الإيرانيون كما لو كانوا محاصرين بالعرب. والعرب يتبنّون دائماً سياسات معادية لإيران"[11].

لكن في أواخر الخمسينيات، تبلور اتفاق تفاهمي إسرائيلي إيراني، عززه توطيد العلاقات المصرية السوفياتية وبروز عبد الناصر كزعيم للجماهير العربية بعد حرب السويس في العام 1956. كما عزز التواطؤ بين إسرائيل وفرنسا وبريطانيا – وهي الدول التي هاجمت مصر في العام 1956 – شكوكَ عبد الناصر والعالم العربي بالاتفاق العدائي القائم بين المستعمرين السابقين وإسرائيل. لكن بن غوريون، الحذر والمشكك دائماً في مواقف العالم الخارجي من الدولة اليهودية، كان يخشى عدم دخول إيران والدول المحيطة في علاقات استراتيجية شاملة مع إسرائيل ما لم تتعرضا لضغوط من جانب الولايات المتحدة. وبناء على ذلك، بعث برسالة شخصية إلى الرئيس الأميركي دوايت آيزنهاور في 24 يوليو/تموز 1958 حذّره فيها من انتشار الدعوة إلى الوحدة العربية ومن انتشار الشيوعية في الشرق الأوسط، وطلب من الولايات المتحدة أن تدعم إسرائيل كوسيلة للدفاع عن المصالح الغربية. كتب بن غوريون، "بوضع هدف بناء سدّ مرتفع في وجه الموجة المدّية الناصرية السوفياتية، بدأنا بزيادة أواصر روابطنا مع العديد من الدول التي في خارج محيط الشرق الأوسط إيران، تركيا، أثيوبيا... هدفنا هو تشكيل مجموعة من الدول – ليس في صيغة تحالف رسمي بالضرورة – تكون قادرة على الوقوف بقوة في وجه التوسع السوفياتي عبر وكيل السوفيات الرئيس المصري عبد الناصر، والتي ربما تنقذ حرّية لبنان، وربما سوريا عندما يحين الوقت المناسب"[12]. لبّى آيزنهاور دعوة إسرائيل وعرض الدعم الأميركي لتحالف الدول المحيطة.

تجاوز التوافق بين إيران وإسرائيل حدود التهديدات المشتركة التي يشعران بها. فالنمو الاقتصادي المذهل لإسرائيل ورفض العرب بيع نفطهم لإسرائيل جعلا تل أبيب في أمسّ الحاجة إلى سلعة تملك إيران الكثير منها[13]. بعد أزمة السويس في العام 1956، ساعدت إيران على تمويل بناء خط أنابيب بقطر 20 سم لنقل النفط من إيلات في جنوب إسرائيل عبر بئر السبع إلى الشريط الساحلي المتوسطي لإسرائيل. وصل خط الأنابيب هذا، الذي أُطلق عليه خط أنابيب إيلات – أشكلون، خليج العقبة بالبحر المتوسط، ومكّن الصادرات الإيرانية من تجاوز قناة السويس الضعيفة من الناحية الاستراتيجية. كان التقليل من الاعتماد على قناة السويس التي تسيطر عليها مصر هدفاً في غاية الأهمية بالنسبة إلى الشاه لأن 73 في المائة من مستوردات إيران و76 في المائة من صادراتها النفطية تمرّان عبر القناة. أُبرم الاتفاق، الذي استغرق التوصل إليه عدة أيام، في ضواحي تل أبيب في صيف العام 1957 أثناء زيارة سرّية قام بها مندوب من شركة النفط الإيرانية الوطنية. جرى مدّ خط الأنابيب في وقت قياسي بلغ مئة يوم، وبدأت المرحلة التشغيلية في أواخر العام 1957، وصار ينقل النفط الإيراني إلى إسرائيل بسعر 1.30 دولار للبرميل. وجرى تطوير خط

الأنابيب بعد ذلك ليصبح بقطر 40 سم بعد مفاوضات مباشرة جرت بين رئيس الوزراء الإسرائيلي ليفي إشكول والشاه في العام 1958. كان ذلك أول لقاء مباشر بين عضو في وزارة إسرائيلية وبين الشاه[14]. ورغم عدم اعتراف إيران وإسرائيل بوجود تجارة نفطية أو تعاون في مدّ خط الأنابيب، فقد كانت علاقاتهما سرّاً مكشوفاً ومحلّ انتقاد عربي لاذع. وخوفاً من احتمال تخلّي الشاه عن المشروع بسبب تحسسه للمشاعر العربية، منحت واشنطن مشروع خط الأنابيب دعماً قوياً فقط بعد أن حصلت على ضمانات بأن المصلحة المالية لإيران في السعي إلى إكمال مدّ خط الأنابيب تفوق مصلحة طهران في إرضاء المشاعر العربية. من الواضح أن واشنطن شعرت بأن الشاه أراد أن يبقى على مسافة بعيدة من إسرائيل، ولذلك طلبت ضمانات بأن الضغوط التي تمارسها الدول العربية لن تدفع الشاه إلى التراجع عن التزاماته بمدّ خط الأنابيب[15].

كان يوجد أسباب أخرى لتنمية علاقات أقوى بين إسرائيل وإيران. ففي إيران، تقيم جالية يهودية كبيرة، وكانت إسرائيل متلهفة لانتقالها إلى الدولة اليهودية، وكانت طهران على استعداد لتوفير ممرّ آمن لليهود العراقيين للوصول إلى إسرائيل أيضاً. بدورها، طمعت إيران في نفوذ إسرائيل في واشنطن، وكانت في أمسّ الحاجة إلى التكنولوجيا الإسرائيلية المتطورة من أجل نموها الاقتصادي، وكانت خبرة إسرائيل في الرّي محل تقدير خاص من قبل الإيرانيين المتعطشين للتكنولوجيا. كما أن المناخ الجاف والأراضي القاحلة والمنفّرة في كل من إيران وإسرائيل أتاحا فرصاً لتعاون مكثّف في مجال الزراعة، حتى وإن كان هذا التعاون مدفوعاً بعوامل سياسية أكثر منه بحاجات إيران الزراعية. وغالباً ما كان الشاه يأمر وزاراته بتوظيف مستشارين إسرائيليين كوسيلة لتمتين العلاقات، بالرغم من أن خبراتهم لم تكن مطلوبة دائماً ولأنه غالباً ما لم يكن لمجموعة خبراتهم صلة بالمشاريع الموكلة إليهم. ويشرح نائب وزير الزراعة الأسبق في إيران ذلك بالقول: "كان يعمل لدينا إسرائيليون لم يكونوا خبراء زراعيين ولا يحصلون على رواتب، ولكنهم كانوا يشاركون في المشاريع بالرغم من ذلك"[16]. لكنّ توظيف عدد فائض من المستشارين الإسرائيليين كان طريقة آمنة من الناحية السياسية لكي يوازن الشاه ابتعاده العلني عن الدولة اليهودية[17]. لكن في حين كانت توجد ناحية سياسية في التبادل التكنولوجي، وفّر الإسرائيليون لإيران بالفعل المهارات والخبرات التقنية التي كانت في أمسّ الحاجة إليهما. واستناداً إلى أريه إلياف، وزير العمل الإسرائيلي السابق، قامت إسرائيل بتدريب نحو عشرة آلاف خبير زراعي إيراني[18]. وأخيراً وليس آخراً، وفّر التكوين غير العربي المشترك لإسرائيل وإيران بُعداً عاطفياً لتعاونهما المتنامي[19].

شراكة غير متوازنة

من الواضح أن إيران، بوصفها الدولة الأقوى في محيط إسرائيل، كانت عاملاً حاسماً في الاستراتيجية السياسية الكلّية لتل أبيب. لكنّ إسرائيل لم تكن ذات أهمية مماثلة بالنسبة إلى إيران على الرغم من حاجة إيران إلى التكنولوجيا الإسرائيلية. لقد ظلت إيران طوال عقد الخمسينيات تنظر إلى إسرائيل أساساً كوسيلة لمنع السوفيات – وليس العرب – من إحراز تقدم في المنطقة[20]. شكّل الاتحاد السوفياتي الخطر الرئيسي على إيران لأنه كان ينظر إلى احتياطيات النفط في المنطقة ويستخدم مصر في زمن عبد الناصر كوكيل له لاختراق الخليج العربي[21]. يشرح تشارلز ناس، الذي عمل كدبلوماسي أميركي في إيران في ذلك الوقت، هذا الأمر فيقول: "رأى الشاه في السوفيات فكّي كمّاشة أحدهما يمرّ عبر أفغانستان والآخر يمرّ عبر العراق"[22]. من الواضح أن مخاوف الإيرانيين من الاتحاد السوفياتي أفادت الولايات المتحدة لأنها جعلت من إيران أكثر تلهفاً لحماية القوى العظمى الغربية. بدوره، ساعد الدعم السوفياتي للدول الداعية إلى الوحدة العربية على النظر إلى الخطر العربي الذي يهدد إيران على أنه مجرّد امتداد للخطر السوفياتي، في حين كان يُنظر إلى إيديولوجيا الوحدة العربية على أنها مسهّل أكثر منها جذر الخطر.

آمن الشاه بقوة بأنه في مواجهة نشاط سوفياتي هدام أو حتى هجوم مباشر، لا أحد يمكن أن يضمن أمن إيران غير إيران نفسها[23]. تولّدت هذه القناعة جزئياً إثر محادثة جرت بين الشاه وسفير أميركي في أواخر أربعينيات القرن الماضي. في ذلك الوقت، كان الشاه صغير السنّ، وغير مجرّب، وسريع التأثّر. وكان قد رأى كيف أن ضعف إيران مكّن القوى العظمى من السيطرة على الأسرة الحاكمة لبلاده. وكانت تلك إهانة عقد العزم على محوها. قال السفير الأميركي بنبرة واقعية: "أميركا لن تدخل في حرب أبداً مع السوفيات من أجل إيران أو من أجل إنقاذ إيران". ولم ينسَ الشاه تلك المحادثة[24].

من جانب آخر، قام السوفيات بالقليل لتهدئة مخاوف الشاه. فقد دعمت موسكو جماعات المعارضة اليسارية الإيرانية مثل مجاهدي خلق، وحزب توده، وفدائيي خلق على أمل إشعال ثورة شيوعية تجعل إيران دولة تدور في الفلك السوفياتي[25]. وفي مقابلة أجريت في العام 1974 مع مجلة الحوادث التي تصدر في بيروت، شدد الشاه على أن القلق الإيراني من الدعوة إلى الوحدة العربية نابع من تأثير موسكو في الحكومات العربية التي تدافع عن هذه الإيديولوجية. وأشار الشاه إلى أن إيران لم تسعَ إلى إيجاد أية عداوة مع العرب، مع أن الفلسطينيين يدعمون جماعات المعارضة الإيرانية. ما كان الشاه يسعى إلى تجنّبه هو بروز وضع تتيح نشاطات الفلسطينيين والقوميين العرب فيه للسوفيات زيادة حدة الخطر على إيران. قال الشاه: "وقفنا وسنقف إلى جانب الفلسطينيين، بالرغم من حقيقة أن بعض جماعات المقاومة درّبت مخرّبين إيرانيين على التسلل إلى أراضينا، وقتل شعبنا، وتفجير منشآتنا المختلفة. نحن نعرف كيف نميّز بين إنصاف القضية الفلسطينية وبين الأعمال المسيئة التي يقوم بها بعض الفلسطينيين في حقنا. ما أخشاه هو أن الفلسطينيين ربما يسمحون للظروف الدولية بأن تجعل قضيتهم أداة سوفياتية أو استراتيجية دولية أخرى. تُحسن مصر، والمملكة العربية السعودية، وسوريا وغيرها من البلدان العربية صنعاً بمساعدة الفلسطينيين على عدم الوقوع في هذه الأشراك"[26]. لكن مع مرور

الوقت، بات الخطر العربي يلعب دوراً أعظم في التفكير الاستراتيجي الإيراني. ومع تزايد الخطر العربي على إيران، زادت حاجة إيران العسكرية إلى إسرائيل – بشكل يوحي بالتناقض – وزادت حاجتها إلى إبقاء تعاملاتها مع إسرائيل سرّاً.

زواج مصلحة ليس سرّياً للغاية

آثرت إيران إبقاء معظم أوجه تعاونها مع إسرائيل بعيدةً عن مسامع الرأي العام. فمن ناحية، اعتقد الشاه بأن العلاقات العلنية مع إسرائيل ستضرّ بعلاقات إيران مع الدول العربية وتُذكي المعارضة العربية للسياسات الإيرانية في الخليج العربي. من ناحية أخرى، كان بحاجة إلى إسرائيل لموازنة الخطر الذي يشكّله السوفيات والدول العربية الموالية لهم. من أجل التقليل من مظاهر تعاملاته مع إسرائيل، قرر الشاه ترك إدارة هذه التعاملات للشرطة السرّية المرعبة في إيران (منظمة معلومات وأمن الدولة، أو السافاك)[27]. ففي العام 1957، أمر الشاهُ الاستخباراتِ الإيرانية بإقامة علاقات مع وكالة الاستخبارات الإسرائيلية (الموساد) وإدارة تعاملات إيران الحساسة مع الدولة اليهودية، والتي غالباً ما أخفتها عن وزارة الخارجية الإيرانية. فكان يجري تدريب ضباط الجيش وعملاء الشرطة السرّية سرّاً على يد ضباط المخابرات الإسرائيلية في كل من إيران وإسرائيل. كما درّبت إسرائيلُ أربعمائة طيار، ومظلّي، ومدفعي إيراني وباعت إيران معدات عسكرية بالغة التطور[28]. واستناداً إلى أحد السفراء الإيرانيين السابقين، درّب الموساد أيضاً جهاز السافاك على تقنيات التعذيب والاستجواب أيضاً[29].

لكنّ طهران أبقت زيارات مسؤوليها لإسرائيل سرّاً، فكان الإيرانيون يسافرون إلى إسرائيل عبر تركيا من غير تختيم جوازات سفرهم لدى وصولهم إلى الدولة اليهودية. وقد ضمن هذا الإجراء احتواء جوازات السفر على زيارات تركيا فقط من غير أن يظهر لإسرائيل أثر في العملية[30]. (ولغاية اليوم، لا يزال اليهود الإيرانيون المسافرون لإسرائيل يسلكون المسار نفسه بموافقة ضمنية من السلطة الإيرانية). وحتى نشر الدبلوماسيين الإيرانيين في إسرائيل أُبقي سرّاً. ففي سبعينيات القرن الماضي، كُلّف ستة دبلوماسيين إيرانيين بمهمّة سرّية في إسرائيل، ولكنّ سجلاتهم أشارت إلى أنهم كانوا يخدمون في بيرن بسويسرا. وكان يُشار إلى السفارة الإيرانية بإسرائيل "ببيرن 2" في وثائق وزارة الخارجية الإيرانية[31]. حتى أن الإيرانيين حاولوا إخفاء المكان الحقيقي لمراكزهم عن الدبلوماسيين الأميركيين، على الرغم من معرفة الولايات المتحدة بكل من وجود الدبلوماسيين الإيرانيين ونشاطاتهم في إسرائيل[32]. وبالرغم من أن إسرائيل اعتادت على النهج السرّي لإيران، وبالرغم من أن إسرائيل كانت مدركة تماماً لأعمال الموازنة غير المستقرّة التي كان يقوم بها الشاه بين القيام بواجبات إيران بوصفها دولة مسلمة وبين تحييد مدّ الراديكالية العربية، لم تقبل تل أبيب بشكل كامل تناقض سياسات إيران مع مواقفها من إسرائيل. فإذا كانت إيران، الدولة المسلمة، ستعترف علناً بإسرائيل، فسيساعد ذلك مسعى إسرائيل إلى إقناع العرب بأن الدولة اليهودية سمة دائمة في الشرق الأوسط. ففي النهاية، أثبتت إسرائيل منفعتها للشاه وللمصالح القومية لإيران، لكن شاه إيران رفض منح إسرائيل اعترافاً كاملاً.

شكّلت الزيارة الأولى التي قام بها بن غوريون لإيران في العام 1961 سابقة في البروتوكول السرّي[33]. فقد أبقيت الزيارة سراً، واتبعت الرحلات المتتالية التي قام بها رؤساء الوزراء الإسرائيليون لإيران البروتوكولَ نفسه. بعد ذلك بسنين قليلة، حثّ الديبلوماسيون الإسرائيليون في طهران رئيسة الوزراء غولدا مئير على انتهج خط هجومي أكثر مع الشاه في هذه المسألة وعلى تغيير البروتوكول. فقد تصوّر صنّاع السياسة في تل أبيب أنه مع الإعلان عن علاقات إسرائيل مع إيران على الملأ، لن يكون أمام إيران أي خيار سوى الاعتراف بإسرائيل بطريقة رسمية. في الواقع، كان الإسرائيليون ينتهزون كل فرصة لجعل تعاملاتهم مع إيران علنية[34]. لقد اقترح مستشارو مئير وضع لافتة على مبنى البعثة الإسرائيلية في طهران لتوضيح حقيقة أمرها. رفضت مئير الاقتراح، ولكنها قبلت بتوصية رئيس البعثة الإسرائيلية مئير عزري، بإقناع القوى الغربية مثل الولايات المتحدة والمملكة المتحدة بالضغط على الشاه لكي يعترف علناً بإسرائيل. لكن الشاه لم يتراجع عن موقفه، بل عاقب الإسرائيليين عبر رفضه الاجتماع بمندوب إسرائيل لدى إيران لأكثر من ثلاثة أعوام[35].

نجحت إيران طوال عقد السبعينيات في ألعابها البهلوانية الدبلوماسية القائمة على المحافظة على تحالف جيوسياسي مع دولة لم تمنحها اعترافاً رسمياً، وعلى السماح بتواجد إسرائيلي كبير في طهران بدون الاعتراف ببعثتهم كسفارة. فالعلم الإسرائيلي لم يرفرف على مقرّ البعثة والدبلوماسيون الإسرائيليون لم يشاركوا في الاحتفالات التي يوجب البروتوكول على الدبلوماسيين حضورها. لكن في جميع المسائل الأخرى عدا الاحتفالات، عملت البعثة الإسرائيلية مثل أية سفارة أخرى. وعلى الرغم من الطبيعة غير الرسمية لهذه العلاقات، كان يشار إلى رئيس البعثة الإسرائيلية عادة بالسفير الإسرائيلي لدى إيران، وفي السبعينيات، تمتع بإمكانية الاتصال المباشر بالشاه. وكان المسؤولون الإسرائيليون يزورون إيران بشكل متكرر ويلتقون بالشاه شخصياً، وبدون معرفة وزارة الخارجية الإيرانية غالباً[36]. على الرغم من أن القيمة الرمزية للفوز باعتراف دولة إسلامية رئيسية في الشرق الأوسط كانت كبيرة، فلقد حرصت إسرائيل على عدم الضغط كثيراً في هذه المسألة لأن ذلك كان سيؤثر سلباً على علاقاتها مع طهران[37]. في النهاية، كانت العلاقة عبارة عن ترتيبات ظلت – وإن لم تكن مثالية – تعمل لصالح إيران. واستناداً إلى أمنون يوهانان، وهو دبلوماسي إسرائيلي رفيع خدم بطهران في السبعينيات، كان الإسرائيليون "على استعداد لتجاهل شكليات الاحتفالات الدبلوماسية طالما أن الجوهر الحقيقي موجود، في حين كان في مقدور العرب التساهل مع مضمون العلاقات الوثيقة بين إيران وإسرائيل طالما أنها لا تبدو من مؤشرات خارجية"[38]. بدورها، احتاجت إيران إلى إسرائيل في المجال العسكري، ولكنها أبقت على تعاملاتها مع الدولة اليهودية بعيداً عن أعين الرأي العام لتجنب لفت انتباه الحكومات ذات

النزعة الوحدوية العربية.

تنامي التنافر الإيراني المصري

تعلّم الشاه بالطريقة الصعبة كيف أن المعرفة العلنية بتعاملاته الإسرائيلية تضرّ بالمصلحة الاستراتيجية الإيرانية. ففي يوليو/تموز 1960، تساءل صحافي أجنبي عما إذا كانت إيران قد قررت الاعتراف بإسرائيل. وبدون الإمعان في التفكير، أشار الشاه إلى اعتراف إيران بحكم الأمر الواقع بإسرائيل من قبل حكومة مصدّق في العام 1951 وقال بأن "إيران اعترفت بإسرائيل منذ زمن طويل"[39]. أثارت تعليقات الشاه ردّاً غاضباً من الرئيس المصري عبد الناصر الذي سارع إلى قطع العلاقات الدبلوماسية مع إيران، وشنّ حملة إعلامية شرسة عليها[40]. لكن عبد الناصر لم يكن مهتماً أساساً بعلاقة إيران بإسرائيل. لكن تصريح الشاه غير المتروّي وفّر للزعيم المصري فرصة لتوسيع نفوذ مصر في الخليج العربي ولمواجه علاقات إيران الآخذة في التوسع مع دول الخليج العربية. على نحو متزايد، انتقل مركز الدعاية العربية المعادية لإيران من بغداد – المنافس العربي التقليدي لإيران في المنطقة – إلى القاهرة[41]. لم تستخفّ إيران بهذا الموقف الهجومي من جانب مصر واستعدادها للتعاون مع موسكو. وبالمثل رأى الشاه أن خطر حدوث مواجهة عسكرية مع مصر، بطريقة مباشرة أو من خلال العراق هام. ويشرح ضابط سابق في الاستخبارات الإيرانية شارك في التعاون الإيراني الإسرائيلي الأمر بالقول: "كانت إيران معرّضة لتهديد مباشر بسبب النشاطات العسكرية التي كان يقوم بها المصريون في منطقة الخليج. كان المصريون على استعداد لبناء قوات بحرية يمكن إرسالها إلى الخليج العربي لدعم العراق في مواجهة عسكرية مباشرة مع إيران"[42].

إذا ضعفت إيران بسبب مصر والعراق، سيتعزز موقف الجانب العربي وسيتحرر الجيش العراقي مما يسمح له بالمشاركة في هجوم عربي محتمل على إسرائيل. لكن طالما أن إيران توازن العراق، وتحوّل انتباه القوات المسلّحة العراقية نحو الشرق وبعيداً عن الدولة اليهودية، كان يتوفر لإسرائيل نافذة أمن صغيرة ولكنها هامة. ولذلك، قدّمت الاستخبارات الإسرائيلية لإيران – التي كان جيشها يستعدّ بشكل متواصل لمواجهة هجمات مصرية أو عراقية محتملة – معلومات استخبارية مكثفة عن التحركات والمخططات العسكرية المصرية. إلى جانب تركيا، راقبت أجهزة الاستخبارات الإيرانية والإسرائيلية باستمرار التعاون العسكري السوفياتي المصري، فكانت الدول غير العربية الثلاث تراقب شحنات الأسلحة السوفياتية المتوجهة إلى مصر والعراق أثناء انتقالها من البحر الأسود إلى الخليج العربي عبر قناة السويس. لكن مع نهاية عقد الستينيات، بدأ السياق الاستراتيجي الذي ساعد على التوصل إلى الاتفاق التفاهمي الإسرائيلي الإيراني في مستهلّ الخمسينيات يضعف ببطء[43].

الفصل 3بروز إسرائيل، بروز إيران

احمني!

– الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون في حديث مع الشاه، بقصد الترويج لسياسة الدعامة المزدوجة، مايو/أيار 1972.

إن جوهر الاتفاق التفاهمي الإيراني الإسرائيلي في خمسينيات وستينيات القرن الماضي لم يكن تحالفاً محتماً غير عربي ضدّ الجماهير العربية، وإنما كان تطابقاً في المصالح أملته مواطن الضعف المشتركة بين إيران وإسرائيل. فالدولتان كانتا تتقاسمان مصالح مشتركة لأنهما كانتا معرّضتين لخطر مشترك. وتوازن القوى – وليس التركيبة غير العربية لهذين البلدين – هو الذي مهّد الطريق أمام الاتفاق التفاهمي الإيراني الإسرائيلي. لكن منطق التوازن كان يعني أن أساس التحالف نفسه عرضة للخطر في حال استطاع أي من البلدين أن يتغلب على الفوارق التي تفصله عن جيرانه، أو في حال امتلك أي منهما قوة كافية للتعامل مع هذه الأخطار بمفرده. وبما أن العداء بين العرب وإسرائيل أعمق من الخلافات العربية الفارسية، احتاجت تل أبيب إلى طهران أكثر مما احتاجت طهران إلى تل أبيب. وبالتالي، كانت خيانة إيران لإسرائيل أقرب احتمالاً من خيانة إسرائيل لإيران.

شهدت نهاية عقد الستينيات ومطلع السبعينيات تغييرات مهمة في الخريطة الجيوسياسية للشرق الأوسط. فقد أحرزت إسرائيل نصراً مذهلاً على العرب في حرب العام 1967؛ وتزايد الخطر الذي يشكله العراق على كل من إيران وإسرائيل؛ وانتقلت العلاقة الاستراتيجية بين القوى العظمى من الاحتواء إلى التخفيف من حدّة التوتر؛ وتخلّت مصر عن تحالفها مع الاتحاد السوفياتي، وانتقلت إلى المعسكر الغربي بعد حرب أكتوبر؛ وشهدت إيران نمواً اقتصادياً سريعاً وغير مسبوق وبالتالي باتت تتمتع بنفوذ إقليمي؛ وقرر البريطانيون سحب أسطولهم من الخليج العربي وهو ما مكّن الشاه من لعب دور مهيمن في الشؤون الإقليمية وما وراءها. شكّلت كافة هذه العوامل تحدّياً للتوازن الذي قام عليه الاتفاق التفاهمي الإسرائيلي الإيراني.

حرب العام 1967

أبرزت حرب العام 1967 تغيراً كبيراً في نظرة الشاه لإسرائيل. فالهزيمة الساحقة التي أنزلتها الدولة اليهودية بجيرانها العرب، واستيلاؤها على أراضٍ مصرية وأردنية وسورية أرغما إيران على إعادة تقييم علاقاتها الإقليمية. إن خوف الشاه من رؤية التوازن بين إسرائيل والعرب يميل بشدّة لصالح تل أبيب لم يكن مدفوعاً بخوف من تحوّل إسرائيل إلى خطر يهدد إيران[1]. ففي النهاية، كانت إيران في ذلك الوقت دولة يبلغ عدد سكانها واحداً وأربعين مليوناً، وتفصلها مئات الأميال عن إسرائيل، ذلك البلد الذي لا يزيد عدد سكانه عن أربعة ملايين. فالحقائق الجيوسياسية، في تلك الفترة على الأقل، حالت دون تحوّل إسرائيل إلى خطر يهدد إيران[2]. فلو أرادت إسرائيل الانقلاب على إيران، يمكن لطهران دائماً تعديل موقفها في المنطقة والاقتراب أكثر من الكتلة العربية المعتدلة. ويشرح مهدي إحساني، نائب السفير الإيراني لدى الأمم المتحدة في السبعينيات، ذلك فيقول: "لم نكن نشعر بعدم الأمن بسبب القوة الإسرائيلية في المنطقة. فهناك عنصر جيوسياسي سيجعل الإيرانيين أكثر ارتياحاً إذا لم يكن الإسرائيليون ضعفاء"[3].

في لعبة الموازنة التي كانت تلعبها إيران، لم تكن ترغب في رؤية إسرائيل ضعيفة، ولكنها لم ترغب بالمثل في رؤية إسرائيل قوية جداً. فضعف إسرائيل سيقوّي العرب والسوفيات ويدفعهم إلى تحويل تركيزهم نحو إيران. من ناحية أخرى، إذا أصبحت إسرائيل قوية جداً، سيكون لذلك حسنات ومساوئ. لقد استفادت إيران بالتأكيد من إضعاف الدول العربية، لكن تنامي قوة إسرائيل صاحبه تزايد الشكوك الإيرانية في النزعة التوسعية الإسرائيلية. اعتقد الشاه بأن حرب العام 1967 حوّلت إسرائيلَ من دولة محاصَرة إلى دولة معتدية، وهو ما أوجد العديد من المشكلات لإيران. فالشاه، الحذر دائماً من قوة جيرانه ووضعهم، لم يرغب في أن تصبح إسرائيل دولة مهيمنة في المنطقة بحيث يمكنها تحدّي مسعى إيران إلى أن تكون رفيعة الشأن أو ذات أهمية استراتيجية بالنسبة إلى واشنطن. والأهم من ذلك أن تحوّل إسرائيل إلى دولة أكثر عدوانية وهيمنة سيعقّد عمليات الموازنة التي كان يقوم بها الشاه والمتمثلة في المحافظة على علاقات قوية مع إسرائيل بدون إغضاب جيران إيران العرب[4]. أفرز رفض إسرائيل إعادة الأراضي العربية التي استولت عليها في حرب الأيام الستة تلك التعقيدات. فعلى العكس من توقعات تل أبيب، لم يؤدِّ سحق الجيش المصري إلى اقتراب الشاه أكثر من إسرائيل والاعتراف بالدولة اليهودية بشكل رسمي. بدلاً من ذلك، جمّد الشاه كافة المشاريع الإيرانية الإسرائيلية المشتركة – بالرغم من رسائل التهاني الحارّة التي بعث بها الجنرالات الإيرانيون إلى المسؤولين الإسرائيليين – وانتهج سياسة علنية أكثر تشدداً تجاه تل أبيب[5]. ففي مقابلة مع صحيفة يوغسلافية في أواخر العام 1967، صرّح الشاه بأن "أي احتلال للأرض بقوة السلاح لن يتم الاعتراف به. ويتعين التوصل إلى حلّ دائم للخلافات القائمة بين الدول العربية وإسرائيل ضمن إطار ميثاق الأمم المتحدة"[6].

بالمثل، لاحظت واشنطن التغيّر في الموقف الإيراني، وطلبت توضيحات بهذا الخصوص[7]. وكما تبيّن فيما بعد، لم يكن التغيّر ظاهرياً، بل كان جوهرياً. ففي 22 نوفمبر/تشرين الثاني 1967، تبنّى مجلس الأمن الدولي القرار رقم 242 والذي يطالب "بانسحاب القوات المسلّحة الإسرائيلية من الأراضي التي استولت عليها في الصراع الأخير" وشدد على "عدم القبول بامتلاك الأرض بالحرب". ودعمت إيران، إلى جانب الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، هذا القرار وضغطت سرّاً على إسرائيل للتخلّي عن الأراضي المحتلّة.

كما التفت الإيرانيون إلى الأميركيين للضغط على إسرائيل لحملها على تبنّي موقف أكثر مرونة في تعاملها مع العرب. فقد اعتقدت إيران بأن إصرار إسرائيل على الاحتفاظ بالأراضي العربية المحتلة لن يعمل سوى على تأجيج الصراع وإطالة أمده[8]. لكن الشاه كان يُفكّر أيضاً في المصالح

الخاصة بإيران والنتائج الاستراتيجية بعيدة المدى للأعمال الإسرائيلية. فكما استفادت مصر سابقاً من التقارب السياسي بين إيران وإسرائيل في الدفع بمصالحها في المنطقة على حساب إيران، مهّد انتقاد إيران للسياسات التوسعية التي تنتهجها إسرائيل الطريق أمام إعادة الدفء إلى العلاقات الإيرانية العربية[9]. يضاف إلى ذلك أن التمسك بمبدأ القرار 242 – الذي يقول بأن الاستيلاء على الأرض بالقوة غير مقبول – كان هاماً لحماية الأراضي الإيرانية من النزعة التوسّعية العربية أو السوفياتية المحتملة. يشرح السفير فيريدون هويدة، الرئيس السابق للبعثة الدائمة لإيران في الأمم المتحدة، ذلك فيقول: "كان من الأهمية بمكان التشديد على المبدأ الذي يقول بأنه لا يمكنك الحصول على الأرض من خلال الحرب. لذلك عندما قالت إسرائيل بأن الضفة الغربية جزء من إريتز إسرائيل (إسرائيل الكبرى)، كان من المهم الإشارة إلى أن ذلك أمر غير مقبول؛ لا من أجل إرضاء العرب، وإنما لأننا كنا نعاني من مشكلات مع بلوشستان وأذربيجان. كان القرار 242 هاماً بالنسبة إلينا"[10]. فمن الناحية التاريخية، لطالما كانت هذه المناطق من إيران تضم عدداً قليلاً، ولكنه يثير المشكلات، من الانفصاليين الإثنيين، لذا أرادت إيران إقامة مبادئ وطيدة يمكن أن تمنع هؤلاء من الانفصال عن إيران أو الوقوع في أيدي جيرانها العرب. أدركت تل أبيب عدم استحسان إيران لتنامي قوة إسرائيل، وبرز شك جديد في تل أبيب في نوايا الشاه[11].

تبين أن مخاوف الإسرائيليين كانت مبرَّرة بعد أن أدّت التغييرات في مصر إلى اقتراب إيران أكثر من العرب.

نهاية حقبة عبد الناصر وارتداد مصر

أجبرت الهزيمة المدمّرة التي مُني بها العرب في ظل قيادة عبد الناصر في حرب العام 1967 القاهرةَ على مراجعة استراتيجية الترويج لقيادتها في العالم العربي عبر الوقوف في جانب موسكو وتحدّي الولايات المتحدة وإيران. فقد تحطمت أحلام عبد الناصر بإعادة المجد القديم لمصر، وأُجبر على التقليل من طموحاته الإقليمية. وفيما كانت مصر تستكشف طريقاً لإعادة توجيه سياستها بحيث يبعدها عن الاتحاد السوفياتي في ظل أنور السادات، خليفة عبد الناصر، فُتحت كوّة بين إيران ومصر كان لها أثر عميق في علاقات إيران بإسرائيل: فقد تبنّت مصر سياسة خارجية معتدلة، واعترفت بدعم إيران العلني لموقف العرب في ما يتعلق بالقرار 242. وشكّل ذلك خطوة في اتجاه التخفيف من التوترات العربية الإيرانية[12].

من خلال وساطة قامت بها الكويت، بدأت مناقشات إيرانية مصرية عبر قناة خلفية في العام 1969. كان لدى إيران شرطان لإعادة الروابط مع مصر. في الشرط الأول، أصرّت إيران على أن تقدّم القاهرة اعتذاراً إلى إيران عن استفزازاتها السابقة لها. والشرط الثاني هو أن الخطوة الأولى نحو تطبيع العلاقات ينبغي أن تقوم بها مصر. قَبِل عبد الناصر – الذي أدرك ضعفه – بالشرطين القاسيين اللذَين وضعهما الشاه. وافق عبد الناصر على مضض على بيان مشترك يعلن استئناف العلاقات الدبلوماسية الكاملة في أغسطس/آب 1970. وبعد شهر من ذلك تُوفي عبد الناصر وخلفه أنور السادات الذي عمّق توجُّههُ الموالي للأميركيين في النهاية من التقارب الإيراني المصري[13]. وفي يوليو/تموز 1972، قام الرئيس المصري الجديد بتحوّل هام نحو المعسكر الغربي بطرد أكثر من عشرة آلاف خبير عسكري روسي. وقبل القيام بهذا التحوّل الجذري في التبعية، تشاور السادات مع الشاه، الذي سُرّ للميول الموالية للغرب لدى السادات وعرض حوافز اقتصادية لقاء إعادة توجّه مصر[14].

لكن قبل طرد الخبراء، بدأ الشاه – بالرغم من حقيقة أنه سعى إلى المحافظة على علاقات أمنية قوية مع إسرائيل – باتخاذ خطوات أكثر جلاء تجاه العرب[15]. فعلى سبيل المثال، منع الشاهُ المسؤولين الإيرانيين من حضور الاحتفال بالذكرى السنوية الثانية والعشرين لتأسيس الدولة اليهودية في مقرّ البعثة الإسرائيلية بطهران[16]. كما أثار الشاه غضب حلفائه الإسرائيليين عبر رفضه توجيه دعوة إلى رئيس دولة إسرائيل لحضور الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة السنة 2500 على قيام الإمبراطورية الفارسية في أكتوبر/تشرين الأول 1971، والسبب هو أن حضور الرئيس الإسرائيلي كان سيدفع العرب إلى مقاطعة الاحتفالات[17]. وقد حظيت الاحتفالات المسرفة بتغطية إعلامية سلبية في الولايات المتحدة، وهو الأمر الذي فسّره الشاه على أنه ردّ انتقامي إسرائيلي على عدم توجيه الدعوة. كان الشاه الإيراني ميالاً إلى الإيمان بنظريات المؤامرة، واعتقد بأن وسائل الإعلام الأميركية تسيطر عليها المصالح اليهودية. واعتبر أن أي انتقاد لإيران في وسائل الإعلام الأميركية بمثابة جهد إسرائيلي لإضعافه. ربما شعر الإسرائيليون بالغضب من تحامل الشاه على وسائل الإعلام، ولكنهم استفادوا منه أيضاً. ففي المناقشات التي أُجريت مع الشاه، غالباً ما كان شمعون بيريز، الذي كان وزيراً للدفاع حينها، يعد بتوفير تغطية إعلامية إطرائية لإيران في الولايات المتحدة للفوز بتنازلات إيرانية في مسائل أخرى. ويشرح ديبلوماسي إسرائيلي سابق عمل في إيران الوضع فيقول: "بالرغم من أننا لم نكن دائماً قادرين على الوفاء بتلك الوعود، إلا أنه لم يكن يوجد ما يضّرنا في اعتقاد الشاه أننا نملك ذلك النفوذ"[18].

في المجالس الخاصة، كان الشاه أكثر قسوة في معارضته للسياسات الإسرائيلية. ففي لقاء سرّي بين الشاه ووزير الخارجية الإسرائيلي أبا إيبان عُقد في طهران في 14 ديسمبر/كانون الأول 1970، ألحّ الشاه أكثر من مرّة بالقول لإيبان بأنه ينبغي التوصل إلى حلّ سلمي وأنه ينبغي إعادة الأراضي العربية[19]. كان ذلك بمثابة لعنة بالنسبة إلى الأسطورة إيبان. فذوبان الجليد بين إيران ومصر كشف عن الضعف المتأصل في الاتفاق التفاهمي الإسرائيلي الإيراني. ومع تنامي ثروة إيران ونفوذها – ويعود ذلك أساساً إلى ارتفاع العائدات النفطية – باتت إيران أقل استعداداً للوقوف تلقائياً بجانب إسرائيل بعد أن أدركت إيران أن احتمالات حلّ نزاعاتها مع العرب باتت أقوى. في نفس الوقت، أدّى بروز إيران وتحسّن علاقاتها مع العرب إلى زيادة مخاوف إسرائيل بأنها أصبحت أقل نفعاً لطهران[20]. تجلّى هذا التباين في العلاقات في تلهّف المسؤولين الإسرائيليين إلى تعاون

سياسي بين البلدين، وهي حماسة لم يكن في مستطاع نظرائهم الإيرانيين استجماعها[21].

من المنظور الإيراني، كان تحوّل مصر نحو الغرب انتصاراً استراتيجياً هاماً. فانهزام إيديولوجيا الوحدة العربية التي آمن بها عبد الناصر وقطع العلاقات المصرية السوفياتية خلّصا الكتلة العربية من البلد الذي يمكن أن يشكل التحدّي الأكثر قوة لإيران أو الذي يمكن أن يقدم أكبر الدعم لدعاية مناوئة للفرس[22]. فعلى سبيل المثال، لم تعد إيران تنظر من الناحية العملية إلى مصر في ظل قيادة السادات على أنها تشكل خطراً عليها. ويذكر نائب سابق لرئيس أركان سلاح البحرية الإيراني أن "الميزة الأهم التي حصلت عليها إيران من انتقال الحكم من عبد الناصر إلى السادات، هي تراجع مستوى إثارة الرأي العام ضدّ إيران في البلدان العربية المجاورة. فلم يعد هناك من يثير الرأي العام ضدّ إيران"[23]. لكن بالنسبة إلى إسرائيل، كان انتقال مصر إلى المعسكر الغربي السبب في جعل بيئتها الاستراتيجية أكثر تعقيداً وتحالفاتها أقلّ وضوحاً. فلم يكن يوجد لدى إسرائيل أية أسباب واضحة للنظر إلى صعود نجم السادات على أنه عنصر إيجابي كما كان لدى إيران. فالصراع بين إسرائيل ومصر أكثر عمقاً وأقلّ اعتماداً على سياسات القوى العظمى بالمقارنة مع صراع إيران مع العرب. بوجه عام، كان خطر النزعة الوحدوية العربية أكثر خطراً على إسرائيل منه على إيران. فقد رأى فيه صنّاع السياسة في تل أبيب خطراً وجودياً، ودعماً لتوحيد العرب وتعبئة لمواردهم بهدف تدمير الدولة اليهودية، في حين رأت فيه إيران أداة في التصاميم السوفياتية وخطراً، إلى حدّ معين، على التطلعات القيادية لإيران في المنطقة. كان قلق إسرائيل مبنياً على أسس قوية، فهي في حالة نزاع على الأرض مع مصر. وفي حين وضع التوجه الغربي لمصر حداً لخطاباتها الوحدوية العربية الموجّهة ضدّ إيران، فهو لم يفعل الكثير للتخفيف من حدّة عداوة القاهرة لتل أبيب. بالنسبة إلى إسرائيل، بقيت مصر في ظل السادات خطراً، وهذا ما أثبتته لاحقاً حرب أكتوبر.

نتيجة لذلك، بات التحوّل في التفكير الإيراني أكثر إثارة للمشكلات بالنسبة إلى إسرائيل. فقبل بضعة شهور على طرد السادات للخبراء السوفيات، قامت غولدا مئير بزيارتها الأولى لطهران بصفتها رئيسة وزراء دولة إسرائيل. واستناداً على الممارسات المتبعة، حطّت طائرة مئير ليلاً على مدرج جانبي بمطار مِهرأباد. وهنا أيضاً، ألحّ الشاه على ضرورة أن تتبنّى إسرائيل موقفاً أكثر اعتدالاً تجاه مصر. جادل الشاه بأن التوغلات السوفياتية التي جاءت مع النظام البعثي الجديد للعراق أوجبت انفصال مصر عن الكتلة السوفياتية. من وجهة نظر الشاه، إسرائيل لم تفهم التغييرات التي تحدث في الشرق الأوسط ولم تولِ الانتباه الكافي لحاجات حلفائها ومصالحهم. غادرت مئير طهران وهي في حالة ذهول، واشتكت في وقت لاحق إلى مساعديها بالقول بأنه "بعد استئناف علاقاته مع مصر، لم يعد الشاه كما كان"[24].

تزايد الخطر العراقي وسياسة الوفاق الدولي

بعد القطيعة التي وقعت بين السادات والاتحاد السوفياتي، حوّلت موسكو تركيزها إلى العراق. وسرعان ما حلّ العراق محلّ مصر بوصفه العدو العربي الرئيسي، بالرغم من أن الرجل القوي البارز حديثاً بالعراق – صدام حسين – لم يكن يتحلّى بالكفاءة التي كان يتحلّى بها عبد الناصر. أدّى رفض السادات للنزعة الوحدوية العربية المسلّحة التي كان يؤمن بها عبد الناصر إلى وقف إيران كافة خططها العسكرية التي تستهدف مصر، وبخاصة الخطط التي تهدف إلى منع أي اختراق محتمل أو نشاط تمرّد من قبل مصر عبر العراق[25]. وبالمقابل، استمرّ التخطيط الموجّه ضدّ العراق وزادت كثافته[26]. فاستضافة بغداد لعناصر من المعارضة الإيرانية، ومعاهدة الصداقة التي وقّعتها مع الاتحاد السوفياتي – والتي تضمنت التزاماً سوفياتياً بتقديم مساعدات عسكرية واقتصادية للعراق على مدى خمسة عشر عاماً – قوّتا الشكوك الإيرانية في النوايا العدائية للنظام البعثي. جرى التوقيع على هذه المعاهدة في 9 أبريل/نيسان 1972 في ذروة التقارب المصري الإيراني[27]. وبالرغم من ادّعاء الشاه بأنه لا يقيم اعتباراً للعراق مشيراً إليه "بالقزم البائس الصغير"، كان التردد الأميركي في بيع الأسلحة لإيران سيجعل البلاد في موقف ضعيف أمام الجيوش العراقية المتنامية. وعلى مدى السنين الأولى من سبعينيات القرن الماضي، كان الإنفاق العسكري الإيراني مدفوعاً أساساً بالخطر المتصوَّر من قِبَل العراق[28].

واجهت إسرائيل الخطر نفسه، ونظرت إلى القوة المتنامية للعراق بقلق بالغ. لم يسبق أن كان للعراق مشاركة كاملة في حروب العرب مع إسرائيل، ولكنّ المفكرين الاستراتيجيين خافوا من أنه في حال برز العراق كمطالب بقيادة العالم العربي وكان على استعداد للهجوم على إسرائيل في حرب إسرائيلية عربية مقبلة، فقد ينقلب التوازن لصالح العرب. يمكن لتحالف عربي بمشاركة كاملة من العراق اجتياز الأردن ووضع الجيش العراقي في سرعة على الجبهة الشرقية لإسرائيل. وكما يشرح صموئيل بار من مركز المناهج المتعددة بهرتزيليا، "كان هناك خوف إسرائيلي كبير من اقتراب الفرق العراقية من إسرائيل إلى جانب الجيوش العربية"[29]. وذاع انتشار الفكرة التي تقول بأن العراق عنصر لا يمكن التوقع بتصرفاته في تقييمات الأخطار الإسرائيلية في السبعينيات، بالرغم من القوة التي أظهرتها الجيوش المصرية والسورية في حرب العام 1973. يقول الفريق إسحاق سيغيف، الملحق العسكري الإسرائيلي بطهران: "كان العراق العدو الحقيقي لإسرائيل"[30].

في وقت كان فيه التقارب الإيراني العربي يولّد احتكاكاً بين طهران وتل أبيب، ساعد بروز الخطر العراقي على توفير أرضية جيوسياسية صلبة لاستمرار الاتفاق التفاهمي الإيراني الإسرائيلي السرّي. وعلى الرغم من الغزل بين طهران ومصر، استمرّ الانكشاف الإيراني أمام الاتحاد السوفياتي وأمام العراق في إثارة قلق الشاه. في الحقيقة، كان التهديد السوفياتي لإيران يتزايد، لا بسبب المواقف السوفياتية المناوئة لإيران، وإنما بسبب الضعف المتنامي في عزيمة أميركا على حماية إيران. ومع انتقال العلاقة الاستراتيجية الأميركية السوفياتية من الاحتواء إلى الوفاق، وهو ما أوجد تعايشاً تنافسياً وإن يكن سلمياً بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، باتت المواقف الإسرائيلية والإيرانية المتباينة تجاه سياسات القوى العظمى أقل تأثيراً في علاقاتهما الثنائية. من الواضح أن إسرائيل لم تكن مشغولة بالحرب الباردة مثل إيران. وفي نظر إسرائيل، لا يعني وجود حكومة عربية

موالية للغرب خطراً أقل بالضرورة على أمن إسرائيل، كما أن وجود دولة موالية للسوفيات لا يعني بشكل تلقائي أنها ستصبح عدوة للدولة اليهودية[31].

لكن مع وجود الاتفاق التفاهمي، تغيرت الديناميات. فقد دق المسمار الأخير في نعش اتفاقية سينتو (منظمة المعاهدة المركزية بين إيران، وباكستان، وتركيا، والولايات المتحدة) العسكرية الإقليمية والتي مكّنت الدول المشاركة فيها من تبنّي سياسات خارجية أكثر استقلالية، وخففت من حدّة التوترات مع الاتحاد السوفياتي بدون المخاطرة بتوليد احتكاك مع الولايات المتحدة[32]. لكنّ الاتفاق التفاهمي قلل أيضاً من استعداد القوى العظمى للمخاطرة، وترك حلفاءها في مناطق مثل الشرق الأوسط أقل ثقة بميل هذه القوة العظمى إلى ضمان أمنها. إلى جانب بروز الخطر العراقي على كل من إيران وإسرائيل، أدّت الحالة الجديدة من عدم اليقين في إمكانية التعويل على الأميركيين في مجابهة النفوذ السوفياتي (والعربي) في المنطقة إلى جعل التعاون الإسرائيلي الإيراني أكثر أهمية[33].

الانسحاب البريطاني

جلب الاتفاق التفاهمي والتوسع الأميركي الزائد بسبب حرب فييتنام فرصاً غير مسبوقة لإيران. فلطالما حلم الشاه بإعادة بعث المجد السابق لإيران وإعفائها من الاعتماد على القوى العظمى. والأهم من ذلك أنه أراد رفع شأن إيران في الخليج العربي؛ هذه المياه التي تشكل الفناء الخلفي لإيران والحيوية بالنسبة إلى أمن البلاد. رأى الشاه أنه ينبغي على إيران أن تحمي نفسها ولا تعتمد على حماية أية قوة أجنبية. ولذلك، عندما أعلن البريطانيون، في العام 1969، عن عزمهم على سحب كافة جنودهم المنتشرين في شرق قناة السويس وإنهاء سيطرتهم العسكرية على الخليج العربي، رأى الشاه في ذلك فرصة لزيادة تواجد إيران بشكل حاسم وتوسيع دورها في عملية صنع القرار في المنطقة. وباعتبار أن حرب فييتنام كانت لا تزال مستعرة، لم تكن الولايات المتحدة في وضع يمكّنها من الاستئثار بالسيطرة الاستراتيجية على الخليج العربي. لذلك، كان على الدول الإقليمية أن تدافع عن أمنها بمفردها. والفراغ الذي خلّفته المملكة المتحدة توسّل ببساطة إلى إيران لكي تتدخل. وطالب الشاه بقوة لكي تُمنح إيران دور الشرطي في الخليج العربي وهو ما قاد الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون في النهاية إلى اعتماد سياسة الدعامة المزدوجة. وقد أدّى هذا التطور الإقليمي الهام إلى زيادة الاعتماد الأميركي على إيران – وليس العكس – وإلى زيادة التأثير الإيراني في واشنطن[34].

بموجب سياسة الدعامة المزدوجة، أوكلت الولايات المتحدة أمن الخليج العربي إلى الدولتين الأقوى في المنطقة، إيران والمملكة العربية السعودية. لكن بما أن إيران الدولة الأكثر كثافة بالسكان والأقوى عسكرياً في المنطقة، وبما أنها البلد الرئيسي الذي يطلّ على مضيق هرمز الاستراتيجي، فقد وقع جلّ العبء الأمني على كاهلها، وهو ما كان مبعث ارتياح عظيم لدى الشاه[35]. ويعتقد غلام رضا أفخامي، وكان مستشاراً لدى الشاه، بأنه ربما تم زرع بذور هذه السياسة أثناء زيارة قام بها نيكسون لإيران. أمضى نيكسون، الذي لم يكن يشغل منصباً رسمياً حينها، عدة ساعات مع الشاه في مقابلة رسمية خاصة. وأثناء المباحثات، جادل الشاه بأن الولايات المتحدة تبالغ في توسّعها وأن تواجدها العسكري المكثف في شتى أرجاء العالم سيولّد عمّا قريب مشاعر سيئة تجاه واشنطن. بالمقابل، اقترح الشاه أن تقوم الولايات المتحدة بتشجيع القوى الإقليمية التي تملك القدرة على المحافظة على الاستقرار على تولّي دور أكبر في القضايا الأمنية. فهذه المقاربة ستجعل القوى الإقليمية أكثر اقتناعاً بالقيادة العالمية للولايات المتحدة مع بناء أساس أكثر استدامة للأمن الإقليمي[36]. لكن اعتبار النصيحة التي أسداها الشاه إلى نيكسون بأنها كانت عاملاً محدداً في القرارات التي اتخذها لاحقاً وهو رئيس مسألة خاضعة للنقاش. فقد كانت فكرة المؤثرات الإقليمية معروفة جيداً في دوائر السياسة الخارجية بواشنطن في ذلك الوقت وبرزت بشكل مستقل عن رغبات الشاه. ومع ذلك، كانت حجة كرّرها الشاه على مسامع المسؤولين الأميركيين كلما سنحت له الفرصة[37].

في نهاية الستينيات، أصبحت حاجة الشاه– الذي انتهج سياسة أكثر استقلالية عن الولايات المتحدة – إلى واشنطن أقل من حاجة أميركا إلى إيران. ويعود ذلك جزئياً إلى ارتفاع عائدات إيران النفطية من جهة، وإلى التوسع الأميركي الزائد في جنوب شرق آسيا من جهة أخرى. وسواء أكان حليفاً أم لم يكن، لم يكن الشاه يتردد في الاستفادة من نفوذه المتنامي[38]. ففي مايو/أيار 1972، توقف نيكسون ومستشار الأمن القومي هنري كيسنجر لفترة وجيزة في طهران في طريق العودة من زيارتهما التاريخية الأولى للاتحاد السوفياتي، حيث أطلقا عجلة سياسة الوفاق الدولي. وأثناء المناقشات التي دامت ساعات عدة مع الشاه، أفصح نيكسون عن مفهوم سياسة الدعامة المزدوجة وعن الدور الذي يتصوّر أن تلعبه إيران في القضايا الأمنية التي تهمّ الخليج العربي. ولكي يجعل سياسته أكثر جاذبية، عرض على الشاه موافقة مطلقة على بيع كافة الأسلحة الأميركية غير النووية تقريباً. ومع وصول ذلك اللقاء إلى نهايته، نظر نيكسون إلى الشاه مباشرة وصاح قائلاً: "احمني!"[39]. وعلى الرغم من الاحتجاجات القوية من جانب الجيش الأميركي، تبنّى نيكسون سياسة غير مسبوقة قائمة على منح أحد حلفاء الولايات المتحدة في الشرق الأوسط إمكانية غير محدودة تقريباً للحصول على كافة أنواع الأسلحة غير النووية التي تنتجها الولايات الأميركية، ومع أن كيسنجر أنكر في وقت لاحق منح هذا الإذن المطلق لإيران، إلا أن مذكّرة سرّية يرجع تاريخها إلى 25 يوليو/تموز 1972 عُثر عليها في السفارة الأميركية بطهران أثناء أزمة احتجاز الرهائن في العام 1979، تدحض هذا الزعم. في تلك المذكّرة المرفوعة إلى وزير الدفاع ميلفين ليرد ووزير الخارجية ويليام روجرز، كتب كيسنجر بأن الرئيس أعاد القول بأنه "ينبغي أن تُترك القرارات الخاصة بشراء المعدات العسكرية بشكل عام إلى الحكومة الإيرانية. وفي حال قررت الحكومة الإيرانية شراء معدات معينة، ينبغي تشجيع المشتريات من الأسلحة الأميركية بطريقة لبقة متى كان ذلك ملائماً، وينبغي توفير المشورة التقنية حول القدرات التي تتميز بها المعدات المعنية"[40].

في ذروة الضعف الذي اعترى أميركا، رفع الشاه بطريقة حاذقة مصالح إيران ودورها إلى واشنطن، وفاز بتنازلات منها لم يكن يجرؤ أحد من حلفاء الولايات المتحدة على تخيّلها. وابتداء من الستينيات، شهدت إيران نمواً لم يسبق له مثيل في قدراتها العسكرية والاقتصادية. فخلال الفترة الواقعة بين عامي 1968 و1973، نما الناتج القومي الإجمالي لإيران بمعدل سنوي وسطي بلغ 12 في المائة، وطرأت زيادة سنوية في الاستثمار المحلّي الإجمالي فاقت في المتوسط 15 في المائة. وفي العامين 1973 و1974، نما الناتج القومي الإجمالي بمعدلات أعلى حتى، بنسبة 34 في المائة و42 في المائة على التوالي، نتيجة لرفع الحظر النفطي الذي فرضته منظمة الدول المصدّرة للنفط (أوبيك). وقفزت عائدات إيران النفطية من 5.4 مليار دولار في العام 1973 إلى 19.4 مليار دولار في العام 1974[41].

لكن مع هذه القوة الأكبر، حلّت مسؤوليات أكبر وبرزت مواطن ضعف أخطر. أدرك الشاه هذه الحقيقة وسعى إلى زيادة دوره في المنطقة عبر ملء الفراغ الذي أحدثه رحيل البريطانيين، والاعتماد الأميركي المتزايد على إيران، وربما الأهم من ذلك الفوز بقبول العرب بالأهمية المتعاظمة لإيران. لكن في الوقت الذي دعت فيه القوى الجيوسياسية – وفوق كل شيء، بروز الخطر العراقي – إلى مزيد من التعاون بين إيران وإسرائيل، أرخت طموحات الشاه في أن يصبح القوة المهيمنة في المنطقة بظلالها على العلاقات الإسرائيلية الإيرانية.

الفصل 4سعي إيران إلى الهيمنة

كان في مقدورنا الاستفادة من صداقة [إسرائيل]، ولكننا لم نكن أصدقاء حقيقيين.

– دبلوماسي إيراني سابق عمل في إسرائيل

لطالما كان التفوق الإقليمي العادة بدلاً من يكون الاستثناء بالنسبة إلى إيران طوال تاريخها الذي يمتدّ ثلاثة آلاف عام. فأثناء الفترة الواقعة بين عامي 550 قبل الميلاد و630 بعد الميلاد، كانت فارس إحدى القوى البارزة في العالم، فهزمت جيوش البابليين، والأشوريين، والمصريين، واليونانيين والرومانيين. كان الفرس أول من بنى إمبراطورية في العالم، بحيث امتدت من ليبيا في الغرب إلى أثيوبيا في الجنوب، وإلى بلغاريا في الشمال، والهند في الشرق. ووجدت روما في الإمبراطورية الفارسية في عهد السلالتين الحاكمتين الباريثية والساسانية ندّاً لها. تملك إيران موارد طبيعية هائلة، وموقعاً جيواستراتيجياً فريداً، وثقافة نابضة بالحيوية، وشعباً يفوق عدده سكان الدول المجاورة بكثير. تطلّع الإيرانيون، الذين يعلمون جيداً تلك المزايا، باستمرار إلى لعب دور الأول بين الأقران في السياسة الإقليمية[1]. وهذه الحقائق لم تغب عن بال الشاه الذي حلم بإعادة المجد القديم لإيران، وتحويلها إلى قوة جبّارة كما كانت في السابق. لقد اعتقد بأنه فقط في ظل الهيمنة الإيرانية يمكن للمنطقة أن تزدهر، وتجد سبيلاً لتجنّب الحرب وسفك الدماء. كتب الشاه على سرير موته في Answer to History بأن إيران هي "الدولة الوحيدة القادرة على المحافظة على السلم والاستقرار في الشرق الأوسط"[2]. ويرى الإيرانيون أن بلادهم هي المهيمن الطبيعي في منطقة الخليج. فضعف جيران إيران يجعلهم غير مؤهلين لتطلّع مشروع إلى احتلال ذلك الموقع[3]. ويشرح غلام رضا أفخامي، المستشار السابق لدى الشاه، ذلك فيقول: "لا يمكن لأحد أن يضارع قوة إيران، أو ثقافة إيران، أو تاريخ إيران. ومن المهم أن تدرك ذلك لكي تفهم لماذا فعل الشاه ما فعل؛ ولتفهم أيضاً لماذا قال كل شخص آخر في العالم أنه كان متعجرفاً"[4].

كانت واشنطن على دراية تامة بطموح الشاه إلى العظمة الإمبراطورية، ووجدت الحافز الإيراني مشروعاً، بالرغم من أنه غالباً ما اصطدمت طموحاته بطموحات واشنطن[5]. كانت الإصلاحات الاقتصادية الطموحة للشاه، وكذلك إنفاقه العسكري السخي، يهدفان إلى جعل إيران البلد الأقوى في المنطقة. ظهرت مؤشرات واضحة في مستهل سبعينيات القرن الماضي تدلّ على أن إيران بلغت ذلك الهدف. فخلال الفترة الممتدة بين أواخر الستينيات وبداية السبعينيات، تجاوز نمو إيران بسرعة نمو جيرانها على صعيد القوة الاقتصادية والعسكرية، مما جعلها "القوة الجلية الكبرى في المنطقة"[6]. في 12 فبراير/شباط 1971، كتب وزير البلاط في يومياته بأن إيران "تتولى بسرعة القيادة لا في الخليج وحسب، بل وفي الشرق الأوسط والعالم المنتج للنفط بأكمله"[7]. وقفزت العائدات النفطية لإيران من ملايين الدولارات إلى مليارات الدولارات. واستُخدمت هذه العائدات في تحديث الجيش الإيراني وتوسيعه، إضافة إلى منح القروض للدول العربية المجاورة لإيران. وذهب الشاه في جولة لشراء الأسلحة زادت النفقات العسكرية لإيران من 6.10 مليار دولار في العام 1973 إلى 12.14 مليار دولار في العام 1974. وفي العام 1976، تضاعف الإنفاق العسكري لإيران ثلاث مرّات فبلغ مستوى مذهلاً مقداره 18.07 مليار دولار[8]. وفي هذه الأثناء، بقي الإنفاق العسكري الإسرائيلي ثابتاً إلى حدّ ما طوال فترة السبعينيات، في حين ارتفع الإنفاق العسكري في الدول العربية، ويعود ذلك أساساً إلى ارتفاع أسعار النفط. لقد اعتقد صنّاع السياسة بتل أبيب أن منطق توازن القوى يفترض بأن زيادة هذه القوى العربية ينبغي أن تحمل إيران على تمتين روابطها مع إسرائيل. ولكن وكما فعلوا في العديد من المرات سابقاً، أساء الإسرائيليون تقدير نوايا الشاه واللعبة الكبرى التي يهيّئ إيران لدخولها[9].

ما وراء التفوق العسكري

لكل نعمة جانب سيئ. بالنسبة إلى إيران، أوجب تنامي قوة إيران إدخال تعديلات في سياستها الخارجية للفوز باعتراف الدول الأخرى التي كانت تربطها بإيران بشكل تقليدي علاقات غير متينة. فبدون هذا الاعتراف، لن تتمكن إيران من التمتع بثمار موقعها الجديد. كان الشاه يدرك جيداً أنه مع امتلاك بلد ما القوة، تتّسع دائرة نفوذه. ولكي تحافظ على موقع القوة الذي امتلكته حديثاً، باتت إيران متحسسة للتطورات الجارية في محيط دائرة نفوذها، ومن أجل المحافظة على مستوى معين من التحكم بهذه التطورات، تحتاج الدولة إلى دور سياسي يكافئ قدراتها الاقتصادية والعسكرية الجديدة. لكن تقدير حجم ذلك الدور ليس بالمسألة البسيطة، بل يتعين أن تحصل عليه الدولة من جيرانها. وفي حال وجدت تلك الدول المجاورة أن سياسات الدولة الناشئة غير شرعية وتثير المشكلات، فقد تفضل التحالف معاً لمقاومة القوة الناشئة بدلاً من أن تتكيّف مع وزنها الجيوسياسي الجديد[10]. بكسب اعتراف الدول المجاورة، ستكسب إيران صوتاً مسموعاً في صناعة القرار على الصعيد الإقليمي عبر تولّي منصب قيادي في منظمات مثل أوبيك وفي الترتيبات الأمنية الإقليمية. بواسطة هذا الصوت، يمكن أن تضمن إيران بأن جيرانها سيأخذون مصالحها ورغباتها بعين الاعتبار ويحولون دون حدوث تطورات يمكن أن تتحدّى موقع القوة الذي تمثله إيران. واعتقد الشاه "بأن الطريقة الوحيدة لكي يحدث ذلك ستكون في امتلاك إيران سيطرة سياسية ما على طريق نقل النفط، على غرار ما فعل الأميركيون تماماً"[11]. وأدرك الشاه أن إيران بحاجة الآن إلى دور سياسي يتناسب مع قوتها الاقتصادية المتنامية. بواسطة هذا الدور، شعر بأنه ستسنح لإيران فرصة تغيير عناصر الممارسة السياسية الإقليمية بما يصبّ في صالحها عبر التخلّي عن مبدأ توازن القوى المخلّ بالاستقرار والمكلف. ببساطة، شعرت إيران بأنها ستصبح قوية بما فيه الكفاية لوضع حدّ للعبة الموازنة وعقد صداقات مع أعدائها العرب من موقع القوة. ففي النهاية، إذا لم تنتهز إيران تلك الفرصة، فستضطرّ في وقت لاحق إلى تكييف

علاقاتها من موقع الضعف.

يشرح أفخامي المسألة فيقول: "إذا أصبحت إيران قوية بما يكفي للتعامل مع هذا الوضع في المنطقة بمفردها، وإذا أصبحت علاقتها مع الولايات المتحدة متينة للغاية بحيث إنك لن تعود بحاجة إلى إسرائيل، فمن الناحية الاستراتيجية، الاتجاه الذي ينبغي سلوكه هو ذلك الذي يقرّبك من العرب"[12]. في أواسط السبعينيات، كانت إيران شديد الثقة بنفسها، وربما بالغت في ذلك. فبما أن كل شيء يسير على هواه، لم يشعر الشاه بالحاجة إلى توخّي الحذر. يقول داوود هيرميداس باواند، وهو دبلوماسي سابق اختار – على العكس من العديد من زملائه – البقاء في إيران بعد الثورة: "شعرت إيران في ذلك الوقت أنها في موقع يسمح لها بتغيير التركيبة السياسية للمنطقة، وتولّي مكانة محورية"[13]. وعلّق مسؤول إسرائيلي رفيع عمل في إيران في السبعينيات، بالقول إن اللعبة الإيرانية "هي أن تكون لاعباً مؤثراً. أرادت إيران أن تبدو هامة في نظر كافة الأطراف، وأن تكون جزءاً من اللعبة"[14]. كان الشاه يكره اتخاذ الدول المجاورة له قرارات بدون التشاور معه أولاً. بامتلاكه القول الفصل في كل قرار إقليمي – كما تفرض القوة العالمية أن يكون لها رأي في كل قرار عالمي – يمكن أن يضمن الشاه تجسيد حلمه الذي طالما سعى إلى تحقيقه بجعل إيران قوة يحسب لها حساب في المنطقة. ويشرح دبلوماسي إيراني سابق المسألة فيقول: "بالنسبة إلى الشاه، عرض القوة كان في امتلاك دور يجعله محلّ تشاور واعتبار في كل القرارات"[15]. لكن الشاه رأى أن القيادة أثارت مخاوف جيرانه. ففي حين تفهمت الإدارة الأميركية تطلّعات إيران وتعاطفت معها إلى حدٍّ ما (قال ريتشارد ناس، الذي خدم كدبلوماسي أميركي في إيران في ذلك الوقت: "ينبغي التعامل مع الرأي الإيراني بجدّية بالغة... في العالم الصعب والقذر جداً الذي نعيش فيه، هذا ليس بالأمر غير المنطقي")، خلَص آخرون في النهاية إلى أن ما بدأ كاستراتيجية دفاعية للمحافظة على قوة إيران تحول بسرعة إلى سياسة هيمنة[16]. وبات رأب الصدع العربي الفارسي مع الإبقاء على إسرائيل بجانبه صعباً على نحو متزايد على الشاه. مع تنامي قوة إيران، بدأ التوازن بين الروابط الاستراتيجية مع إسرائيل وبين اعتراف العرب بإيران يميل لصالح أعدائها التاريخيين.

بروز الخيار العربي لإيران

إن للتوترات بين العرب والفرس جذوراً تاريخية عميقة. والندوب التي خلّفها فتح العرب لإيران وأسلمتها في القرن السابع لا تزال حية. ولا يزال الإيرانيون يفتخرون بنجاحهم في مقاومة تعريب بلادهم. في حين قبلت إيران بالإسلام على نطاق واسع، فقد ظل أكثر ملامح الهوية الإثنية والثقافية لإيران بدون تغيير؛ بعكس الدول الأخرى في الشرق الأوسط. صحيح أن إيران أصبحت دولة إسلامية، ولكنها لم تصبح دولة عربية. وبقدر ما يرضي ذلك الإيرانيين، بقدر ما يثير امتعاض الدول العربية المجاورة لإيران. بعد مرور ثلاثمائة عام على فتح العرب لإيران، تحوّل العداء الثقافي المستحكم بين العرب والشعب الإيراني إلى حرب كلمات، أُطلق عليها اسم الشُّعوبية. وقد خدمت هذه الحرب، التي شابها تبادل الإهانات من مختلف الألوان، في ترسيخ الهوية الفارسية للأمة الإيرانية والفكرة التي تقول بأن اعتناق المرء للإسلام لا يعني بالضرورة أن يصبح عربياً. أوجد هذا النزاع الذي بدأ منذ ألف عام، والمتجذّر في أذهان كل من العرب والفرس، نوعاً فريداً من التزمّت الذي أثّر سلباً في العلاقات بين الشعبين. في حين يرى العرب أنهم متفوقون من الناحية الإثنية على الفرس، نجد أن العداء الفارسي أكثر حدّة ويأخذ شكل تفوّق ثقافي[17]. وقد استمرت هذه العقلية طوال القرن العشرين ولا يزال حضورها قوياً. في الواقع، يجادل العديد بأن البغض المتبادل بين العرب والفرس ازداد حدّة في العقود الأخيرة[18]. ومع تنامي النزعة القومية الإيرانية والعربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، وصلت هذه التوترات إلى مستويات جديدة. ففي إيران استلهم رضا شاه (والد محمد رضا شاه بهلوي) من المبدأ الصفائي الذي آمن به الرئيس التركي كمال أتاتورك، وسعى إلى إعادة بناء الإمبراطورية الفارسية والتقليل من تأثير الثقافة العربية، واللغة العربية، والدين في المجتمع الإيراني. من ناحية أخرى، استغلّ أصحاب النزعة العربية العداء العربي الفارسي، وبالغوا فيه كوسيلة لتوحيد الجماهير العربية.

كان رأب الصدع الفارسي العربي أحد عاملَين ساهما في تعقيد مساعي إيران في السبعينيات لبلوغ مرتبة متفوقة. فمن ناحية، احتاج الشاه محمد رضا بهلوي إلى المحافظة على قدر معين من الاستقرار في المنطقة لكي يحرم الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي من ذريعة للتدخل في فلك النفوذ الإيراني. وتمكن الشاه بصعوبة من الفوز بالهيمنة على الخليج العربي بسبب خروج البريطانيين، وهو لم يكن ليرضى بالهزيمة أمام واشنطن أو موسكو[19]. من ناحية أخرى، سيمقت العرب في ظل غياب مصالحة عربية إيرانية الاعتراف بالقوة المتنامية لإيران ومطالبتها بلعب دور سياسي أكبر في المنطقة. نظر العرب إلى بروز إيران وإلى النزعة القومية الفارسية لدى الشاه بشك عميق وتردّدوا في منح إيران بركاتهم السياسية. يمكن حتى لأصغر إمارة عربية إضعاف مساعي إيران للحصول على الشرعية من العرب وتولّي دور القائد الإقليمي[20]. وبعبارة سهلة: لكي يتم الاعتراف بإيران والقبول بها بوصفها القائد الإقليمي، "كان على إيران أن تلبّي رغبات العرب"[21].

عانى الشاه من الفشل مرّة بعد أخرى في التغلّب على شكوك العرب وممانعتهم. فقد حاول في العام 1972 إنشاء جهاز لأمن الخليج العربي من أجل إضفاء صبغة شرعية على سياسة الدعامة المزدوجة لنيكسون والموافقة الإقليمية عليها. لكن الحملة الإيرانية فشلت بسبب رفض العرب المشاركة فيها، والمتجذّر في الهواجس العربية من التطلعات السلطوية المتصوَّرة للشاه[22]. كما حاولت إيران تولي دور قيادي في كارتيل النفط أوبيك، وهي منظمة أخرى هامة بالنسبة إلى التطور الداخلي والخارجي لإيران، وتحسين العلاقات الإيرانية العربية. وهنا أيضاً، فشل الشاه[23]. لكن مع تحسّن وضع إيران الاقتصادي بسبب الارتفاع الصاروخي في عائدات النفط، بدأت باستغلال هذه القوة في تحقيق غايات سياسية[24]. في هذا السياق، سعى

الشاه إلى تحسين علاقاته مع الدول العربية عبر منحها مساعدات مالية سخية[25]. ففي العام 1974 فقط، منح الشاه 850 مليون دولار على شكل منح لمصر، و7.4 مليون دولار للأردن، و30 مليون دولار للمغرب، و150 مليون دولار للحكومة السورية الموالية للسوفيات[26]. ويتذكّر مهدي إحساسي، نائب السفير الإيراني السابق لدى الأمم المتحدة تلك المرحلة فيقول: "عرف الشاه حق المعرفة أننا لن نكون أصدقاء حقيقيين، لكن يمكن لهذه المساعدات أن تعود بالفائدة"[27].

لكن المساعدات المالية الإيرانية لم تتجاوز ذلك الحدّ، خاصة لأنه كان في مقدور الحكومات الداعية إلى الوحدة العربية طلب الدعم المالي من الدول العربية الغنية بالنفط. بشكل متزايد، أدرك الشاه بأن روابط إيران مع إسرائيل تحول دون عودة الدفء الحقيقي إلى العلاقات الإيرانية العربية. ولم يعد في الإمكان تجاهل الانتقادات العربية لروابطه مع إسرائيل. ففي رسالة بعث بها الخبير العربي المميز في الشؤون النفطية الشيخ طارقي إلى الشاه، عبّر طارقي عن الإحباط الذي يشعر به العرب بسبب إيران فقال: "أنت على دراية بما تفعله إسرائيل بإخوانك المسلمين، وأنت تعرف كيف أنها تدنّس المسجد الأقصى، وكيف أن جنودها يدوسون بأقدامهم في المسجد. ولكنك تصرّ بالرغم من ذلك على المحافظة على علاقات وثيقة معها، وعلى إمدادها بالنفط الخام الذي يلعب دوراً أساسياً في تحريك قواتها المسلّحة ضدّ إخوانك المسلمين. بعد هذا كله، هل تتخيل أنه من الممكن أن تتمتع بعلاقات حسن جوار مع العرب؟"[28].

كلما ازدادت إيران قوة، كلما زادت حاجة الشاه إلى قبول العرب بطموحات إيران السياسية، وكلما صار أكثر تحسساً للانتقادات العربية. نتيجة لذلك، برز توجّه جديد من هذا السياق السياسي لطهران؛ الخيار العربي لإيران: أي التقرّب من موقف العرب في صراعهم مع إسرائيل. وعنى ذلك أن الاعتراضات الإسرائيلية باتت غير ذات أهمية على نحو متزايد بالنسبة إلى إيران. يقول نائب سابق لرئيس أركان سلاح البحرية الإيراني: "لم يحتج الشاه إلى التصرف وفقاً للرغبات الإسرائيلية... كان الشاه قلقاً للغاية من انتقادات أي زعيم عربي له، ولكنه لم يكن يقلق في حال وجّه رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن انتقادات له". على سبيل المثال، أظهرت إيران حساسية متزايدة لمشاعر العرب حيال التعاون العسكري الإيراني الإسرائيلي. كانت الروابط العسكرية مع إسرائيل تقتصر على القوة البرّية والقوة الجوّية لأن هاتين القوتين، كما يشرح قائد سلاح البحرية، "كانتا داخل إيران ولم يكن يراهما أحد من الخارج... لم يكن في مقدورنا إرسال سفننا لكي تبحر في مياه الخليج وعلى متنها صواريخ غابريال الإسرائيلية"[29]. وسعى الشاه، الذي كان يعلم جيداً أن روابطه القوية مع إسرائيل تمنع إيران من لعب دورها كقائد إقليمي، إلى البحث عن فرص لإظهار أن عدم موافقة إيران على السياسات الإسرائيلية يتجاوز التردد في منح إسرائيل اعترافاً دبلوماسياً كاملاً. فمن الناحية العملية أيضاً، كانت إيران على استعداد لإظهار استقلالها للعرب. وأول اختبار لاعتبارات إيران الجديدة جاء مع عرض العرب لقوتهم في حرب أكتوبر.

إسرائيل المأخوذة على حين غرّة

تأكدت مخاوف إسرائيل من نوايا السادات في حرب أكتوبر. ففي 6 أكتوبر/تشرين الأول 1973، أخذ الجيشان المصري والسوري إسرائيلَ على حين غرّة وحطّما صورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر التي اكتسبها قبل ست سنين من ذلك التاريخ في حرب العام 1967[30]. كانت إسرائيل قد بالغت في تقدير قوتها الردعية، وقللت من تقدير إمكانات الجيوش العربية. وكما عبّر أحد الباحثين الإسرائيليين، "لقد أُخذت إسرائيل القوية على حين غرّة في العام 1973"[31]. وبالرغم من أن إسرائيل نجحت في النهاية في صدّ الهجوم العربي، فالهزيمة التي كادت أن تنزل بها دفعت الدول الشرق أوسطية إلى إعادة تقييم تصوراتها لميزان القوى. فقد أضرّت الحرب بالقوة الإسرائيلية المتصوَّرة، وهو ما كان له تأثير هام في الخريطة السياسية للمنطقة.

أفرزت حرب تشرين تحديات وفرصاً لإيران. فمن ناحية، لم تكن إيران تريد أن ترى نصراً عربياً يسمح لتلك الدول بإهمال إسرائيل بالكامل والتركيز بالكامل على إيران[32]. وكانت إسرائيل على دراية كاملة بهذا الضعف المتأصل في علاقاتها مع إيران، فضلاً عن علاقاتها مع الدول المحيطة بالإجمال. وفيما سعت إسرائيل إلى منع حدوث تحسّن في العلاقات العربية الإيرانية، أقرّت تل أبيب بأن لإيران مصلحة في الإبقاء على مستوى معين من العداوة بين إسرائيل وجيرانها العرب. وقال لي إسحاق سيغيف، الملحق العسكري الإسرائيلي السابق لدى إيران في منزله الذي يقع خارج تل أبيب: "كان الشاه في غاية الذكاء". وفيما كان يتصفح ألبوماً يحتوي على صور لزملائه الإيرانيين السابقين – وكانوا في معظمهم من جنرالات الشاه – أقرّ سيغيف بالقيود التي حدّت من الاتفاق التفاهمي الإسرائيلي الإيراني. وأضاف: "في اللحظة التي تبيّن له فيها أن كافة الدول العربية معادية لإسرائيل، كان ملائماً له إلى حدّ بعيد الاستمرار في دفع كافة العرب لكي يقفوا في وجه إسرائيل... لتصبح إسرائيل بذلك محطّ غضب كافة العرب بدلاً من إيران"[33]. من ناحية أخرى، كان الانتصار الإسرائيلي سيجعل الجهود التي تبذلها إيران للتخفيف من حدّة التكتل العربي أكثر صعوبة. كان بروز مصر موالية للغرب نعمة بالنسبة إلى الشاه، لأن ذلك أدّى إلى التقليل من الخطر العربي الذي يهدد إيران بدرجة كبيرة. وعللت طهران بأنه يمكن لنصر إسرائيلي حاسم أن يؤدي إلى سقوط نظام السادات وإلى عودة مصر إلى المعسكر العربي الراديكالي الموالي للسوفيات[34].

كان تحقيق نصر سريع من قبل أي من الطرفين سيعود بنتائج سلبية على إيران، لأن ذلك سيعزز من هيبة الدولة المنتصرة وموقفها. وهذا يعني أنه يمكن المحافظة على موقف إيران على الوجه الأمثل عبر ضمان عدم خروج أي طرف من الصراع بنصر شامل لأن ذلك سيكون تحدياً لمسيرة إيران الثابتة نحو التفوق الإقليمي[35]. لكنّ حرباً مطولة كانت ستبرز خطراً آخر وهو أنه سيكون لدى الدول العظمى ذريعة لكي تعود إلى

التدخل في الخليج العربي. وكان يُنظر في طهران إلى هذا السيناريو على أنه الأسوأ[36]. ونتيجة لذلك، كانت إيران حريصة على "ألاّ تصبّ الزيت على نار الحرب"[37]. فقد كانت إيران قلقة على الخصوص من أن الاتحاد السوفياتي ربما يستغل التوسع الأميركي الزائد بسبب حرب فييتنام، ويتحدّى التفوق الإيراني في الخليج، وهذا بدوره سيشكّل تهديداً لإمدادات إيران النفطية، نتيجة لذلك، سيشكّل تهديداً لقدرتها على ضبط سرعة النمو الداخلي والخارجي[38].

كان الإخلال بالاستقرار أو الحرب المطولة سيوفران للاتحاد السوفياتي مثل هذا العذر، وهذا ما زاد من هواجس الشاه حيال السياسة الخارجية الإسرائيلية العدوانية بشكل متزايد. نتيجة لذلك، لم ترغب إيران في دخول العرب والإسرائيليين في حربٍ – بالرغم من أنها رغبت أن يبقى كل طرف محترساً من الآخر – يمكن أن تكون لها نتائج غير مقصودة بجلب القوى العظمى إلى المنطقة مرّة أخرى. وأوضحت وثيقة سرّية في وزارة الخارجية الأميركية، يعود تاريخها إلى أبريل/نيسان 1974، هواجس الشاه بالتفصيل:

يولي الشاه عناية خاصة لسياسة الوفاق الدولي التي ننتهجها مع الاتحاد السوفياتي وإمكانية أن يؤدي ذلك إلى تحرير موارد السوفيات بحيث يستخدمونها في الشرق الأوسط. فالنشاط السوفياتي في الشرق الأوسط يشير إلى مواصلة استخدام وكلاء مثل العراق واليمن الجنوبي في تحقيق أهداف السياسة الخارجية السوفياتية. ويبقى الشاه قلقاً من احتمال زعزعة الاستقرار في البلدان المجاورة، واستغلال السوفيات لذلك. إنه قلق من التحركات الراديكالية في الخليج العربي، ومن العداء العراقي لإيران... وهو يعترف بالحاجة إلى تحسين علاقاته وتعاونه مع الحكومات العربية الأكثر اعتدالاً ويسعى إلى ذلك... غير أن إقامة هذا التعاون ليست أمراً سهلاً بسبب حذر العرب القديم من إيران[39].

لكنّ الاتحاد السوفياتي لم يكن المنافس الوحيد على القيادة في الخليج العربي. فحليفة إيران وداعمتها، الولايات المتحدة، كانت في نظر الشاه منافساً أيضاً، وإن لم يكن معادياً[40]. عارض الشاه علناً الوجود العسكري الأميركي في المنطقة، لأنه "لم يرد وجود قيود على طموحاته بالهيمنة على الخليج العربي، ورأى في القاعدة البحرية الأميركية في البحرين منافساً لهيمنته على المنطقة"[41]. واستناداً إلى أفخامي، "إذا كان للأميركيين وجود في المنطقة، ربما لن تملك إيران الدور الذي تريده"[42]. وبالرغم من سعي الشاه إلى زيادة استعداد الولايات المتحدة لحمايته من اعتداء سوفياتي أو عربي، فهو لم يرغب في وجود عسكري أميركي في ما اعتبره مجاله. بإقامة إطار إقليمي مستقرّ تحت قيادته، يمكن أن تمنع إيران كلاً من واشنطن وموسكو من اختراق مياه الشاه الفارسية[43].

بعد وضع هذه الأهداف، خطى الشاه بحذر أثناء حرب أكتوبر لمنع أي طرف من الفوز ولتجنّب الإخلال بالاستقرار ودخول الطرفين في حرب مطوّلة، مع النأي بإيران عن إسرائيل لكي يُظهر للعرب فوائد القيادة الإيرانية بالنسبة إلى الدول العربية. ولذلك، وبالرغم من خيبة أمل إسرائيل الشديدة، أصرّت إيران رسمياً على التزام موقف الحياد طوال فترة الحرب، على الرغم من القوة المتنامية للدول العربية. فعلى النقيض من الوضع الذي كان سائداً في حرب 1967، باتت إيران الآن تعتبر تطلعات العرب بأنها مشروعة.

قدّمت طهران مساعدات مباشرة إلى الدول العربية المشاركة في الحرب، في تناقض واضح مع اتفاقها التفاهمي مع إسرائيل. فقد اتصل السادات في الأيام الأولى للحرب طالباً إمدادات من النفط الخام، ووافق الشاه على ذلك. وفي غضون أربع وعشرين ساعة، تم تسليم شحنة ضخمة للقاهرة. وقد ترك كرم الشاه وبادرة الصداقة التي قام بها انطباعاً عميقاً لدى السادات[44]. ووسعت إيران نطاق مساعدتها الطبّية للعرب وقدّمت للمملكة العربية السعودية طيارِين وطائرات إيرانية للمساعدة على حلّ المشكلات اللوجستية. ونقلت الطائرات الإيرانية كتيبة سعودية إلى الجانب السوري من مرتفعات الجولان. وهناك، نقلت الجنودَ السوريين الجرحى، وأحضرتهم إلى طهران من أجل تلقّي العلاج[45]. وقال الشاه لمدير البلاط، أسد الله علام: "هذا أقل ما يمكنني فعله، بالنظر إلى أن السعوديين أخوة مسلمون، ولطالما تشوّقت لتمتين صداقتنا"[46]. وقد عادت هذه التدابير بمكاسب على الفور على إيران، لأن كلاً من العراق والسودان وافق على تطبيع العلاقات مع طهران. ولزيادة الطين بلّة، منع الشاه يهوداً أستراليين أرادوا التطوّع في الجيش الإسرائيلي من الذهاب إلى إسرائيل عبر طهران[47].

حتى أن الشاه ساعد السوفيات على تقديم يد العون إلى الجانب العربي. ففي مطلع أكتوبر/تشرين الأول 1973، طلب السوفيات إذناً من إيران لإرسال معدات عسكرية إلى بغداد (لكي تُستخدم في الحرب مع إسرائيل) عبر المجال الجوّي الإيراني. رفض الشاه الطلب السوفياتي ولكنه سمح لأربع طائرات مدنية سوفياتية بنقل قطع غيار إلى العرب. لم يستشر الشاه الولايات المتحدة ولم يبلّغ واشنطن بقراره إلاّ بعد مرور عشرة أيام على التقدم بالطلب. وأعطى نائب وزير الخارجية الإيراني، أحمد ميرفنديرسكي، في وقت لاحق إذناً لخمس طائرات سوفياتية بالتحليق في سماء إيران. وقد كلّف هذا القرار غير المفوَّض، ميرفنديرسكي منصبه، بالرغم من أنه يبقى من غير الواضح إن كان قراره قد جاء متعارضاً مع الرغبات الاستراتيجية للشاه أو أن إقالته من منصبه كانت بسبب اتخاذه قراراً بدون الحصول على تفويض مناسب. واستناداً إلى قائد سابق لسلاح البحرية، لم يكن للمشكلة علاقة بالجوهر وإنما بالإجراءات. "المشكلة هي أنه (أي ميرفنديرسكي) اتخذ القرار. كان عليه أن يطلب رأي الشاه، وعلى الأرجح أنه كان سيحصل على موافقته (على تسيير رحلات في الأجواء الإيرانية) أيضاً"[48].

لكنّ إيران رفضت في الوقت نفسه المشاركة في حظر النفط الذي فرضه العرب على إسرائيل وواصلت إمداد إسرائيل بالنفط طوال مدة الصراع. كان لإيران سياسة معلنة تتمثل في عدم السماح باستخدام النفط كسلاح سياسي. ويشرح سفير إيراني سابق ذلك فيقول: "لم نقبل أبداً بحظر

النفط على أي بلد. فنحن لم نؤمن باستخدام ذلك السلاح"[49]. وهذه السياسة مكّنت إيران دائماً من البقاء في موقع يسمح لها ببيع النفط إلى كافة الأطراف المشاركة في الصراع[50]. يضاف إلى ذلك أن إيران قامت بتزويد الجيش الإسرائيلي بالأسلحة، بما في ذلك مدافع المورتر التي كان في أمسّ الحاجة إليها[51].

بدلاً من انتهاج سياسة قائمة على توازن القوى، يُفترض بموجبها تقديم إيران مساعدات أكبر لإسرائيل في حال تنامي القوة العربية، فضّل الشاه الموازنة بين العرب والإسرائيليين بتقديم مساعدته إلى الطرفين. يشرح سفير إيراني سابق ذلك فيقول: "لم نجعل من إسرائيل صديقاً لكي نجعل من العرب أعداءً لنا"[52]. وجادل بأن إيران لم تكن مرتبطة بأي طرف في الصراع، ولم يكن في إمكانها الوقوف تلقائياً بجانب إسرائيل، حتى وإن اتفق البلدان على أشياء كثيرة. وعلّق السفير فيريدون هويدة، الرئيس السابق للبعثة الإيرانية الدائمة لدى الأمم المتحدة، ببرودة قائلاً: "السياسة هي سياسة. وفي النهاية، تلحق إيران مصلحتها القومية الخاصة"[53].

سواء أكان ذلك أمراً يتعلّق بالسياسة أم لم يكن، شعرت الدولة اليهودية بأن الشاه خانها. ورأى القادة الإسرائيليون بأن النكسات الأولى التي تعرّضوا لها في الحرب جعلت الشاه يعيد التفكير في استراتيجية التحالف مع إسرائيل. ويشرح البروفسور سولي شافار من جامعة حيفا الأمر فيقول بأن الإسرائيليين كانوا "قلقين جداً ومتخوفين من التحوّل في موقف الشاه تجاههم وتجاه العالم العربي بعد حرب يوم الغفران (أوكتوبر)"[54]. لقد سعى مسؤولون إسرائيليون على نحو روتيني إلى إقناع إيران بعكس سياستها، مجادلين بأن إيران لا تعرف من هم أصدقائها الحقيقيين[55]. ومع أنه لم يكن يربط بين إيران وإسرائيل أي تحالف رسمي، توقعت إسرائيل من إيران أن تتصرّف كحليف لإسرائيل في الممارسة، بعد الأخذ بعين الاعتبار أهدافهما الجيواستراتيجية المشتركة والتعاون الاستخباراتي القائم بينهما. لكن في حين انتهجت إسرائيل سياسة تحقيق التوازن مع العرب من خلال علاقاتها مع إيران التي كانت تنظر إليها كحليف طبيعي وصديق، كان المنظور الإيراني أكثر تعقيداً. التزمت طهران بسياسة محايدة وبراغماتية، مع فسحة بسيطة لمفاهيم مثل الصداقة. لكن لم يسبق أن عرّفت إيران نفسها بأنها تقف في جانب إسرائيل، وميّزت بين الأصدقاء والصداقة. وقال لي دبلوماسي إيراني عمل في إسرائيل: "كان في مقدورنا الاستفادة من صداقة الإسرائيليين، ولكنهم لم يكونوا أصدقاءنا الحقيقيين"[56]. بعد وقت قصير على انتهاء الحرب، طرحت مصر وإيران مشروع قرار مشتركاً في الأمم المتحدة يدعو إلى جعل الشرق الأوسط منطقة خالية من الأسلحة النووية. ونظراً إلى احتكار إسرائيل للسلاح النووي في المنطقة، كان الهدف من القرار واضحاً جداً[57].

الفصل 5 ختم المصير في لحظة النصر

لقد فقدنا كل ثقتنا به. كان مجنوناً. كان أخرق.

-ياكوف نمرودي، الملحق العسكري الإسرائيلي بإيران، في حديثه عن الشاه وعن قراره بالتوقيع على اتفاقية الجزائر

كنت ألعن طهران طوال مدة سفري إلى طهران.

-إليعازر تسافرير، رئيس عمليات الموساد في شمال العراق، في تعبير عن ردّة فعله على اتفاقية الجزائر

أجبرت حربُ أكتوبر إسرائيلَ على إعادة النظر في طبيعة علاقاتها مع إيران. ففي زمن الحرب، عندما واجهت إسرائيل خطراً وجودياً، لم يمدّ الشاه يد العون لإسرائيل لموازنة العرب. وبدلاً من ذلك، وازن الشاه – بهدف ترسيخ الوضع الخاص لإيران في المنطقة – بين علاقات إيران مع الطرفين.

أظهرت الحرب أن تحوّل مصر إلى الغرب لم يكن يعني بالضرورة تجنّب دخولها في حرب مع إسرائيل. فمع عبد الناصر أو بدونه، بقيت مصر عدواً مخيفاً وخطراً جدّياً. في الوقت نفسه، كانت إسرائيل واثقة من طول أمد التوترات العراقية الإيرانية، وأنها غير آمنة على صعيد العلاقات الإيرانية المصرية؛ وتأثيرات تلك العلاقات على روابط إسرائيل بإيران. لم يصارح الشاه الإسرائيليين أبداً بخطط عمله المتعلقة بمصر، في حين أن تقاسم مثل هذه المعلومات كان شائعاً في ما يتعلق بالعراق[1]. وهذا ما جعل مصر أكثر إثارة للمشكلات بالنسبة إلى إسرائيل. كما أظهر الدعم السوفياتي للعرب أثناء الحرب أن نوايا الإمبراطورية الشيوعية، وقوتها، وقدراتها الهجومية يمكن أن تشكل تهديداً خطيراً. في نفس الوقت، كانت القوى الواقعة على الجبهة الشرقية لإسرائيل تزداد قوة. وواجهت إسرائيل جيوش الدول العربية الثلاث المجاورة لها مجتمعة على مدى خمسة وعشرين عاماً. لكنّ أياً من تلك الحروب لم يشهد مشاركة كاملة من جانب الجيش العراقي. وبما أن لدى العراق كلاً من الطموح والقدرة على أن يصبح الدولة العربية الأقوى، عانت إسرائيل من الأرق حيال النوايا العدائية المستمرّة لبغداد. فقد استطاع العراق تطوير قدراته الهجومية عبر امتلاك صواريخ سكود، وطوّر قدرة لاجتياز الأردن ونشر قواته على الضفة الشرقية في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة. بوجه عام، بالرغم من موقف إيران البارد من إسرائيل، كانت الدولة اليهودية في حاجة ماسّة إلى إيران بعد الحرب أكثر من أي وقت مضى. فلم يكن أمام إسرائيل أي خيار بكل بساطة سوى إعادة الاستثمار في علاقاتها مع طهران لأنها كانت تفتقر إلى القدرة على المناورة لانتهاج سياسات أو الدخول في تحالفات أخرى.

لكي تعيد تنشيط روابطها مع إيران، عيّنت إسرائيل في العام 1973 أوري لوبراني كرئيس جديد لبعثتها في طهران. ولد لوبراني في ألمانيا في العام 1926، وانضمّ في سنّ مبكرة إلى الهاغاناه (أي الدفاع)، وهي منظمة يهودية شبه عسكرية وطليعة الجيش الإسرائيلي في ما بعد، في ما كان يُعرف بفلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطاني. بعد إنشاء الدولة اليهودية، التحق بوزارة الخارجية، وعُيّن في عدة مناصب رفيعة، منها مستشار رئيس الوزراء بن غوريون للشؤون العربية. ربما ترجع الصلة الوثيقة للوبراني ببن غوريون إلى الحرص الذي دفع لوبراني إلى تطوير علاقات إسرائيل مع الدول المحيطة، على اعتبار أن بن غوريون مناصر قوي لاستراتيجية المحيط. خدم لوبراني بين عامي 1965 و1968 كسفير لدى أوغندا، ورواندا، وبروندي، حيث سرعان ما جعلته جهوده الاستخبارية الصناعية أحد أكثر الرجال اطلاعاً بأحوال تلك البلاد، وهو رجل غالباً ما لجأت إليه وزارة الخارجية الأميركية للحصول على معلومات استخبارية. وعمل في وقت لاحق سفيراً لإسرائيل لدى دولة محيطية هامة أخرى، أثيوبيا[2].

سرعان ما تملّك لوبراني احترام عميق للثقافة والتماسك القومي الإيراني. ويعود لوبراني بالذاكرة إلى الماضي وهو يحتسي الشاي في منزله بتل أبيب، ويقول: "خلال زيارتي الأولى لإيران، زرت قرية صغيرة. كانت قرية فقيرة لا تتوفر فيها مياه ولا مرافق أساسية أخرى. لكن في المساء، تجمّع أبناء القرية لسماع سرد الشاهنامه من أحد المسنّين"[3]. يرجع تاريخ تأليف كتاب الملوك، أو الشاهنامة، إلى القرن العاشر. إنه عمل أدبي مذهل يحكي قصة الأمّة الإيرانية من العصور الميثولوجية إلى عصر الإمبراطورية الفارسية. واستناداً إلى العديد من الباحثين، ساعد كتاب الشاهنامه، والوحدة الثقافية والسياسية التي عكسها ووفّرها، على ضمان مناعة إيران الناجحة من التعريب، وهو ما سمح لها بالبقاء كأمّة تتكلّم اللغة الفارسية. ويواصل لوبراني حديثه عن تلك الذكريات فيقول: "كان لمشهد القرويين الفقراء وهم ينصتون إلى الرجل الذي يحكي قصص الشاهنامه التي يحفظها عن ظهر قلب أثر عميق في نفسي. لم تكن إيران دولة قوية، كما لم تكن متطورة، ولكنها كانت حضارة". ومع توالي السنين، أصبح لوبراني أحد أكثر الخبراء الإسرائيليين الضالعين في الشؤون الإيرانية. وفهمه وإعجابه بالثقافة الإيرانية أثّرا كثيراً في نظرة إسرائيل إلى إيران باعتبارها دولة صديقة، ومعادية.

سعت تل أبيب إلى استخدام تعيين لوبراني كفرصة لزيادة الحضور الدبلوماسي الإسرائيلي في إيران. وسعى لوبراني إلى تقديم أوراق اعتماده إلى الشاه – وهو إجراء يقتصر على السفراء القادمين فقط – من أجل فرض الاعتراف الرسمي بإسرائيل على الشاه. لكن تبيّن أن توقعات إسرائيل كانت غير واقعية، لأنه لم يحضر أي مسؤول إيراني للترحيب بلوبراني في مطار مهرأباد. ولزيادة الأمور سوءاً، بقي طلب لوبراني بمقابلة الشاه بدون جواب مدة زادت على ثلاثة أعوام ونصف[4].

كان لدى إسرائيل سبب وجيه للقلق بشأن روابطها مع إيران. ففي الفترة التي تلت الحرب، بدأت إيران باستكشاف الفرص لتقليل اعتمادها على خطوط الأنابيب الإسرائيلية في تصدير نفطها إلى أوروبا. وخط أنابيب إيلات أشكلون تجاوز فائدته الاستراتيجية لأنه بُني في الأصل لكي تلتفّ إيران حول الأرض التي تحكمها حكومة عبد الناصر المعادية لإيران. وخوف إسرائيل من إقدام إيران على وقف استخدامها لهذه الخطوط أدّى إلى بذل جهود دبلوماسية لثني الشاه عن القيام بعمل كهذا. ويشرح البروفسور الإسرائيلي سولي شافار سياق ما حدث فيقول: "تملّك الإسرائيليين خوف شديد. فالغرض من الزيارات التي قام بها القادة الإسرائيليون، إيغال آلون، ورابين، وبيريز... كان الحصول على مزيد من التطمينات بأن الشاه

سيواصل ضخّ نفطه. وكانت تلك القضية الرئيسية بين إسرائيل وإيران بعد حرب يوم الغفران (أكتوبر)"[5].

لم يكد يمضي وقت طويل على وقف إطلاق النار في العام 1973 حتى بدأت واشنطن محادثات فكّ الاشتباك بين إسرائيل ومصر. ولعبت إيران دوراً نشطاً في تلك المفاوضات، بالرغم من شعور الإسرائيليين بالإحباط من الموقف الذي اتخذه الشاه. طوال فترة تلك المفاوضات، عبّرت إيران عن دعمها للموقف المصري – إعادة كافة الأراضي المحتلّة مقابل السلام، والتي جادل الشاه بأنها تستند إلى المنطق والعدل – مع انتقادها الموقف الإسرائيلي الجامد وغير الحكيم الداعي إلى انتزاع الاعتراف من الدول العربية أولاً. وضغطت طهران على تل أبيب عبر تجميد كافة أشكال المساعدات العسكرية، وأوقفت مشترياتها من الأسلحة الإسرائيلية. وأشار مسؤولون إيرانيون إلى لوبراني بأن العلاقات الإيرانية الإسرائيلية ستبقى مجمّدة طالما أن المفاوضات بين مصر وإسرائيل عالقة. بالإضافة إلى ذلك، حثّ الشاهُ الرئيسَ الأميركي جيرالد فورد على زيادة الضغط الأميركي على إسرائيل. إن انعدام صبر الشاه في تعامله مع إسرائيل دفع المسؤولين في تل أبيب إلى القلق من مضي إيران إلى حدّ قطع كافة العلاقات[6]. وفي مقابلة مع صحافي أميركي يعمل لدى مجلّة الحوادث التي تصدر في بيروت، رفض الشاه علناً الاستراتيجية الإسرائيلية المتمثلة في تحقيق الأمن عبر احتلال الأرض:

ترتكب إسرائيل غلطة كبيرة باعتمادها على الأراضي العربية المحتلة من أجل أمنها... في هذه الأيام التي بات يُستخدم فيها طائرات بعيدة المدى تحلّق على ارتفاع 24 كيلومتراً، وصواريخ أرض – أرض يمكنها تجاوز كافة العقبات، لا يوجد شيء اسمه الحدود الآمنة لإسرائيل... إن الأمن الوحيد لإسرائيل هو ضمانة دولية بحدودها السابقة... فهل لدى إسرائيل ما يكفي من الرجال لاحتلال العالم العربي بأكمله؟ هل يمكنها الوصول إلى الجزائر؟ هل يمكنها محاربة المملكة العربية السعودية؟ وهل يمكن لإسرائيل مواصلة هذه النفقات العسكرية في السنين العشر القادمة؟ من الذي سيدفع هذه النفقات؟ أنتم أيها الأميركيون، في مقابل ماذا؟ من أجل دعم مسألة غير أخلاقية بالمرّة؛ احتلال بالقوة لأرض تابعة لدولة من قبل دولة أخرى؟[7]

بقدر ما كانت هذه الإشارات مدعاة للإحباط في إسرائيل، لم يكن قد حان وقت عمل الخيانة الأكبر من قبل الشاه في حقّ الدولة اليهودية – من المنظور الإسرائيلي – بعد. ظنّت إسرائيل بأن الشاه سيواصل "انتقاد إسرائيل علناً من أجل ملاطفة العرب" مع عدم الإفصاح عن كافة خلافاته الجوهرية مع إسرائيل[8]. لكن تل أبيب لم تتوقع عدم قيام الشاه في أوسع خلاف بين إيران وإسرائيل – بالإنهاء المفاجئ لدعم إيران للمساعدات التي تقدّمها إسرائيل إلى الثورة الكردية العراقية عبر التوقيع على اتفاقية الجزائر في العام 1975 بدون التشاور مع إسرائيل على الإطلاق.

إسرائيل، وإيران وأكراد العراق

يعيش الأكراد، المتحدرون من مدينة ميديا القديمة بفارس، كما تقول الأسطورة، في جبال العراق، وتركيا، وإيران منذ ألف عام. وبما أنهم من أصل إيراني، تتميز روابطهم الإثنية، والثقافية، واللغوية بإيران بأنها قوية. لكن العديد من الأكراد سعوا إلى الاستقلال – أو إلى الحكم الذاتي على الأقل – عن حكومة كل من العراق، وتركيا، وإيران مجادلين بأنهم يستحقون دولة خاصة بهم لأنهم لا يستطيعون التعبير عن هويتهم الثقافية بحرّية في البلدان التي يسيطر عليها من هم من غير الأكراد[9]. ولا تزال القضية تشكّل مشكلة لهذه الحكومات، ولكنها وفّرت لها فرصة لإضعاف بعضها. فمن الناحية التاريخية، كانت مشاعر السخط لدى الأكراد أقوى بكثير في تركيا والعراق – حيث استمرّ إنكار وجودهم هناك عدة عقود – منها في إيران. ونتيجة لذلك، كانت إيران في وضع أفضل يتيح لها استخدام القضية الكردية في إضعاف جيرانها.

في مستهلّ الستينيات، طلب الملاّ مصطفى البرزاني، وهو زعيم ثوري كردي بارز في العراق، الدعم العسكري من الإسرائيليين من أجل مقاتلة الجيش العراقي. من الواضح أنه كان لدى إسرائيل مصلحة مشتركة مع إيران في إضعاف بغداد، وبخاصة عبر تحالفها مع شعب غير عربي. لكن سرعان ما توصل الموساد (وكالة الاستخبارات الإسرائيلية) إلى استنتاج مفاده أنه لن يمكن تقديم مساعدة هامة إلى الأكراد العراقيين بدون تعاون إيران. وفي حين أن طهران استفادت أيضاً من انشغال الحكومة العراقية بالثورة الكردية، كان الشاه عديم الثقة على حدّ بعيد بالبرزاني الذي كان يشتبه في كونه شيوعياً. واستناداً إلى رئيس عمليات الموساد في إقليم كردستان العراقي، إليعازر تسافرير، لم يكن الإيرانيون "يحبّون الملاّ مصطفى البرزاني لأنهم اعتقدوا بأنه ملاّ أحمر... على اعتبار أنه أمضى اثني عشر عاماً في روسيا كلاجئ سياسي"[10].

في البداية، رفض الشاه الاقتراح مستدلاً بروابط البرزاني المزعومة مع الاتحاد السوفياتي والارتدادات المحتملة للانتصارات الكردية في العراق لدى الأقلّية الكردية في إيران نفسها. كما شعر الشاه بالتردد حيال النوايا الإسرائيلية، وهو يعلم تمام العلم بأن إسرائيل دعمت السيادة الكردية التي تتجاوز إلى حدّ بعيد فكرة إضعاف بغداد[11]. وكما اشتبه الشاه، قال الإسرائيليون للبرزاني بأن في مقدوره الاعتماد على الدعم غير المشروط من الدولة اليهودية. ففي النهاية، لا ترى إسرائيل في إنشاء دولة غير عربية في قلب الأراضي العربية سيناريو يوجد فيه ما يخيفها. ويشرح تسافرير، الذي كان مكلفاً من قبل الموساد بتدريب المقاتلين الأكراد، ذلك فيقول: "قلنا للأكراد... بأنه بصرف النظر عما تقومون به، نحن ندعمكم؛ في الحرب وفي السلم. وبطريقة ما، كانت مصلحتنا المشتركة مع الأكراد أكثر تعقيداً من مصلحة الإيرانيين معهم"[12]. لكن على الرغم من تردد الشاه، تمكنت إسرائيل بصعوبة من الجمع بين الإيرانيين والبرزاني – الذي كانت لديه مخاوفه الخاصة من دوافع الشاه – بعد عدة شهور من بذل الجهود. وجرى إبلاغ الولايات المتحدة بهذه الجهود التعاونية، ووافقت على تقديم دعم سرّي محدود. كما أن إيران أيضاً رغبت في أن يكون دورها في هذا التعاون غير لافت للأنظار.

تم التوصل إلى الاتفاق الأول في مايو/أيار 1965 في المقرّ الخاص بمصطفى البرزاني في إقليم كردستان العراقي[13]. عبر رجال الشرطة السرّية السافاك، وضباط الموساد، باللباس الكردي التقليدي، الحدود العراقية سيراً على الأقدام ووصلوا إلى مقرّ الثوار الأكراد. عرض الإسرائيليون تدريب قوات البرزاني، وتمويلها وتسليحها لكي تشنّ عمليات هجومية واسعة النطاق ضدّ الجيش العراقي[14]. تعين تمرير الأموال وشحنات الأسلحة عبر جهاز السافاك الذي وفّر للإسرائيليين أيضاً ممرّاً برّياً إلى إقليم كردستان العراقي. وقد أتاح التعاون الإيراني إرسال شحنات منتظمة من الأسلحة، والأطباء، والموادّ الطبّية، والمدرّبين الإسرائيليين إلى إقليم كردستان العراقي من إسرائيل عبر إيران[15].

وأثناء زيارة الرئيس ريتشارد نيكسون ومستشار الأمن القومي هنري كيسنجر لطهران في مايو/أيار 1972، أقنع الشاهُ الولاياتِ المتحدة بلعب دور أكبر بكثير في ما كان حتى ذلك الحين تعاوناً إسرائيلياً إيرانياً بالدرجة الأولى. لكن وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الدفاع نصحتا بعدم مشاركة الولايات المتحدة على أساس أن الأكراد سيتعرّضون في النهاية للخيانة من طهران، ولكن كيسنجر قرر مخالفة النصيحة وجادل بأنها طريقة ملموسة لكي تظهر الولايات المتحدة دعمها لإيران[16]. ومع أن العملية كانت ناجحة للغاية من حيث إنها شلّت قدرة بغداد على تحدّي تفوق الشاه في الخليج العربي، وشغلت الجيش العراقي عن قضية فلسطين، كانت قوة العراق في تعاظم مستمرّ، ونظر كل من واشنطن، وطهران، وتل أبيب إلى ميل بغداد الموالي للسوفيات، وتوجهها المعادي للإيرانيين، وميولها العربية الوحدوية بقلق بالغ[17]. من منظور إسرائيل، وفّرت العملية أيضاً إمكانية الاتصال بالجالية اليهودية العراقية الكبيرة، ومكّنت إسرائيل من ترحيلها إلى إسرائيل. كانت المكوّنة الديموغرافية في السياسة الخارجية الإسرائيلية ذات أهمية محورية بالنسبة إلى الدولة اليهودية التي جعلها تعداد سكانها الصغير بالمقارنة مع جيرانها العرب متلهّفة على الخصوص إلى تشجيع يهود الشتات على الهجرة إلى إسرائيل. وساعد السافاك على تهريب اليهود العراقيين عبر إقليم كردستان العراقي إلى مدينة ريزاييه الواقعة في شمال إيران، حيث كان يجري تسليمهم إلى المنظمات اليهودية والتي بدورها أعادت توطينهم في إسرائيل[18].

بعد وقت قصير على زيارة نيكسون وكيسنجر لطهران، بدأت المساعدات المالية الأميركية بالتدفق إلى الثوار الأكراد، أو البشمركه (الذين يواجهون الموت)، كما يسمّون أنفسهم[19]. واستناداً إلى ياكوف نمرودي، وهو يهودي عراقي خدم كأول ملحق عسكري إسرائيلي بطهران، نشرت إسرائيل عدداً قليلاً من الفصائل العسكرية في إقليم كردستان العراقي، حيث قام ضباطها بتدريب البشمركه العراقيين وقيادتهم في المعارك، لكن نادراً ما كانوا يشاركون بأنفسهم في القتال الحقيقي[20]. كما أن الوجود العسكري الإيراني كان أكبر حجماً، حيث كان يضم كتيبة دفاع جوي، وكتيبة مدفعية، وعدداً قليلاً من عملاء السافاك. والإيرانيون تحاشوا أيضاً المشاركة في القتال في الخطوط الأمامية ضدّ الجيش العراقي[21].

لكن في مارس/آذار 1975، توقفت العملية الكردية فجأة بعد أن سحبت إيران البساط من تحت إسرائيل، وسحبت ذراعها الرئيسية الموجهة ضدّ العراق. كان الرئيس الجزائري هواري بومدين قد أبلغ الشاه بأن حاكم العراق بحكم الأمر الواقع، صدام حسين، يخطط لحضور قمة أوبيك التي ستعقد في الجزائر من أجل التفاوض على وقف الأعمال العدائية بين العراق وإيران، بما في ذلك نزاعهما الحدودي على الممر المائي شط العرب/أروند رود. وفي 3 مارس/آذار 1975، سافر الشاه إلى الجزائر، وبعد ذلك بثلاثة أيام، أعلن بومدين عن أن الصراع بين إيران والعراق قد انتهى[22]. فقد توصل البلدان إلى اتفاق حدودي دعا كل طرف إلى الامتناع عن التدخل في الشؤون الداخلية للطرف الآخر، ووضع آلية لتقاسم السيطرة على الممر المائي شط العرب/أروند رود، وهو هدف إقليمي قديم لإيران[23]. من خلال اتفاقية الجزائر هذه، تم التوصل إلى حل للنزاع على الممر وبدا واضحاً أنه في صالح إيران، وصفّق له العديد باعتباره أحد أهم الانتصارات التي حققها الشاه، لأنه عزز مكانة إيران كقوة بالغة الأهمية في الخليج العربي. وقال الشاه بلهجة منتصرة لأسد الله علام، مسؤول البلاط، لدى عودته إلى طهران: "الآن، وبعد انتظار طويل، تمكنت من تمزيق معاهدة شط العرب"[24].

كان الاتفاق بمثابة مفاجأة كاملة لإسرائيل وللولايات المتحدة. فالشاه لم يستشر حلفاءه الإسرائيليين والأميركيين، ولا أبلغهم بأمر المفاوضات مع العراقيين، ولا أشار إلى أن التعاون مع الأكراد أصبح معرضاً للخطر[25]. واستناداً إلى غاري سيك الذي خدم كخبير في الشؤون الإيرانية في مجلسي الأمن القومي على عهد إدارة كل من كارتر وريغان، "تمت الصفقة قبل أن يتم إبلاغ أحد بأمرها، كان هذا هو الهم الرئيسي. تلقّى الشاه عرضاً، فقبل به، وأكمله، وعاد وأعطى أوامره، وترك للولايات المتحدة وإسرائيل أمر معرفة أن اللعبة قد انتهت"[26]. وعلى سبيل المثال، عرف تشارلز ناس، المسؤول عن مكتب إيران في وزارة الخارجية، بأمر الاتفاق من الصحافة، وقال: "ضربة موفقة. دخلت المكتب ذات صباح، وعرفت بأمر الاتفاقية"[27].

لكن استناداً إلى مسؤولين إيرانيين، لم يكن الفشل في التشاور مفاجأة، "فالديكتاتوريون حكام مستبدّون... والشاه اعتبر نفسه مساوياً للولايات المتحدة، ولذلك لم يشعر بأنه بحاجة إلى التشاور مع الأميركيين"[28]. هناك العديد من المؤشرات التي تدل على أن قرار الشاه بالتوقيع على اتفاقية الجزائر جاء في الحال. فحتى كبار المسؤولين في السافاك أُخذوا على حين غرّة، وهناك فقرة في المذكرات اليومية لأسد الله علام تدعم هذه النظرية. فقد عاد الشاه في وقت مبكر من صباح 7 مارس/آذار 1975، وأجرى اتصالاً مع الجنرال نعمة الله ناصري، رئيس السافاك، وأمره بإنهاء العمليات الجارية في كردستان العراق على الفور، وبعرض اللجوء إلى إيران على الثوار. وعلى طريقة الشاه التي تتميز بالاستبداد المطلق، لم تُعرض الاتفاقية أبداً على البرلمان الإيراني للمصادقة عليها، مما ترك حيّزاً ضئيلاً للتقييم النقدي لبعض بنودها، مثل نقل أراضٍ إيرانية لا يعرف الكثير عن غناها

بالنفط إلى الدولة العراقية[30].

صُعق الإسرائيليون والأكراد من رؤية حلفائهم الإيرانيين وهم يوضبون حقائبهم ويرحلون. وفي حين لم تساور تل أبيب أوهام بأن الإيرانيين سيضعون حداً إن عاجلاً أو آجلاً للعمليات الكردية، لكنهم لم يتوقعوا أبداً إنهاءها بهذه الطريقة الدراماتيكية والمحزنة، على حدّ تعبير إليعازر تسافرير[31]. كان السافاك محرجاً للغاية لدرجة أنه لم يبلغ عملاء الموساد بالعراق بأن تعاونهم وصل إلى نهايته. بدلاً من ذلك، فسّر الأمر على أنه تبديل روتيني للجنود. وبعد يوم من ذلك، في 9 مارس/آذار، استدعى مسؤولٌ إيراني أوري لوبراني، وشرح له تفاصيل الاتفاقية[32]. بحلول هذا الوقت، كانت واشنطن قد اطلعت على نوايا إيران قبل بضعة أيام، ولكنها لم تتقاسم تلك المعلومات مع الدولة اليهودية، مما صبّ الزيت على النار بتل أبيب[33].

بالنسبة إلى إسرائيل، كانت تلك مجرّدة خطوة أخرى من خطوات الشاه الرمزية التي تصبّ في صالح العرب، ولكنها كانت مسألة حياة أو موت. فالانسحاب السريع للشاه وضع الجنود الإسرائيليين في موقف حرج. كان أمام تسافرير ساعتان فقط كي يستقل الطائرة مغادراً مقرّ البرزاني في كردستان العراق إلى إيران (حيث توجد عائلته) في مواجهة تقدم الجيش العراقي. وقال لي تسافرير: "كنت ألعن طهران طوال مدة سفري إلى طهران. كنت أشعر بخيبة أمل مريرة"[34].

أظهرت طهران القليل من التفهم للاحتجاجات الإسرائيلية. فقد اعتبر الشاه العملية بأنها إيرانية أساساً، ونتيجة لذلك، لم يكن لموافقة إسرائيل أو لوجهة نظرها أهمية كبيرة. قال لي عضو سابق في إحدى وزارات الشاه: "كنت أضع نفسي في مكان الشاه، بلدي ليس صغيراً، وهو يضم خمسة وثلاثين مليوناً من السكان، وأنا أملك النفط، ولديّ الكثير من الأشخاص المتعلمين. لماذا عليّ أن آبه لحفنة من اليهود الملاعين؟"[35] بالنسبة إلى الإيرانيين، كان ذلك القاعدة وليس الاستثناء، لم يعتد الشاه بكل بساطة على استشارة الإسرائيليين في القضايا التي يعتبرها تهمّ المصلحة القومية لإيران[36]. وفي نظر السفير الإيراني السابق لدى دولة جنوب أفريقيا، "أولويتنا كانت شطّ العرب... وأن نحسّن علاقاتنا مع العراق... كانت مصلحتنا القومية تحتلّ المقام الأول"[37]. كان الموقف الإيراني يقول إنه لم يتوفر وقت للتشاور مع واشنطن وتل أبيب. فقد استغرقت المفاوضات بضع ساعات فقط في سحابة يومين، 5–6 مارس/آذار 1975، وكانت مكثفة جداً[38]. وتمكن الشاه من النوم مدة ساعتين فقط في الليل أثناء إقامته في الجزائر – كما كان عليه أن يتفاوض في المسائل التي تخصّ أوبيك – وكان منهكاً لدى عودته إلى البلاد[39].

أصرّ المسؤولون الإيرانيون على أن الولايات المتحدة وإسرائيل كانتا على اطلاع تام بأن العراق وإيران تتفاوضان على النزاع الدائر حول مياههما الإقليمية منذ مستهل العام 1974 في إسطنبول. ترأس تلك المباحثات السفير عبد الرحمن صادرييه، أحد أبرز الدبلوماسيين بوزارة الخارجية الإيرانية، ونظيره العراقي السفير طالب شبيب. لم تُحط المباحثات بالسرّية، وتابعت واشنطن وتل أبيب تقدمها. وجادل الإيرانيون بأنه كان سيتم التوصل إلى اتفاق، عاجلاً أو آجلاً، وكان من السذاجة اعتقاد واشنطن وتل أبيب بأن حلاً للنزاع على الممرّ المائي لن يشمل وضع حدّ للتدخل الإيراني بشمال العراق[40]. ردّت طهران بطريقة سلبية على الصيحات الدولية التي تعالت احتجاجاً على طريقة تعاملها مع الأكراد، مشيرة إلى اعتراف صدام حسين أثناء مباحثات الجزائر بأنه كان في مقدور الجيش العراقي التخلّص من الأكراد قبل زمن طويل لولا التدخل الإيراني. فقد اشتكى الشاه إلى علام قائلاً: "لقد عانى الأكراد من الهزيمة تلو الهزيمة. وبدون دعمنا، لن يصمدوا عشرة أيام في وجه العراقيين". لكن الشاه وافق على مضض على الاجتماع بالبرزاني في 11 مارس/آذار بطهران، لأنه، استناداً إلى علام، كان "محرجاً من الالتقاء بالرجل وجهاً لوجه"[41].

سواء توفّر وقت لإجراء مشاورات أم لا، انتاب صنّاع القرار في كل من تل أبيب وواشنطن غضب شديد من قرار الشاه. أرسل كيسنجر، الذي كان المدافع الرئيسي عن المشاركة الأميركية في العمليات الكردية، مبعوثاً خاصاً إلى سويسرا، حيث كان الشاه يمضي عطلته بعد وقت قصير من قمّة الجزائر، لكي يفهم على نحو أفضل الدافع لديه. حمل المبعوث الخاص معه رسالة صيغت بعبارات شديدة اللهجة كرر فيها كيسنجر الموقف الأميركي الذي يقول بوجوب مواصلة العملية الكردية. وعلى نحو غير مألوف، لم يقدّم كيسنجر أية عبارات تهنئة للشاه على انتصاره الديبلوماسي[42]. بالنسبة إلى واشنطن، كانت اتفاقية الجزائر صيحة إفاقة، لأنها أدركت أن مصالح إيران بدأت بالانحراف عن مصالحها الخاصة. قال ناس: "كان ذلك التباعد الهامّ الأول في المصالح. وقد فوجئنا بذلك"[43]. وعلى الرغم من هذه النظرة، امتنعت الولايات المتحدة عن إبداء ردّة فعل بالغة القسوة تجاه الانقلاب في سياسة الشاه، ويعود ذلك جزئياً إلى الوضع الإيراني الاستثنائي في السياسة الخارجية الأميركية. فقد كانت واشنطن تغضّ الطرف منذ مدة عن الميول المتمرّدة للشاه. يقول هنري بريشت، مسؤول مكتب إيران في وزارة الخارجية الأميركية في أواخر التسعينيات: "لم نكن ننظر إلى إيران – في السفارة على الأقل – على أنها دولة مطاوعة"[44].

لكن الإسرائيليين لم يتأنّوا في اختيار كلماتهم في انتقاد الشاه. فبين ليلة وضحاها، ألغت إيران مكوّنة رئيسية في السياسة الاستراتيجية الإسرائيلية. اعترض لوبراني بقوة على قرار طهران ولكنه قوبل بالصدّ من قبل مسؤول إسرائيلي رفيع علّل ضعف إسرائيل بكونها "سمحت للعاطفة بأن تتداخل مع السياسة"[45]. فقد شعر صنّاع السياسة الإسرائيليون بأنهم تعرّضوا لخيانة شخصية على يد شاه إيران. وعلّق تسافرير بمرارة قائلاً: "فعل الشاه ما فعله رئيس الوزراء البريطاني نيفيل تشامبرلين مع هتلر بتخلّيه عن تشيكوسلوفاكيا"[46]. والقصة البطولية الكردية نبّهت إسرائيل بطريقة مؤلمة بموقفها الضعيف إزاء إيران، واهتزّت ثقة تل أبيب بالشاه. وعلّق نمرودي بامتعاض قائلاً: "كانت تلك غلطة الشاه الكبيرة. كان مجنوناً. كان

أخرق"[47].

بالرغم من أنه لم يكن في مقدور إسرائيل التسامح مع الألعاب السياسية التي يقوم بها الشاه ومغازلته للدول العربية، كانت تل أبيب تنظر إلى أية تلميحات إلى حدوث تغيّر في النظرة الاستراتيجية للشاه بأكبر قدر من الجدّية. بعدم إبلاغ الشاه لإسرائيل عن قراره بإنهاء العمليات الكردية، تولّد انطباع لدى إسرائيل بأن "روابط إيران مع الدولة اليهودية أصبحت انتهازية أكثر منها ضرورية". وسافر إسحاق رابين، الذي كان رئيساً لوزراء إسرائيل حينها، إلى طهران لطلب تفسير من الشاه. وبما أن الشاه كان يدرك جيداً أن إسرائيل تأمل بأن تشارك إيرانُ إسرائيلَ نظرتها إلى التهديدات الإقليمية المحتملة، قال الشاه بأنه اعتقد بأن الحرب مع العراق كانت محتمة وأن المعاهدة ستوفر لإيران بعض الوقت[48]. قال الشاه للوبراني بغرض طمأنة تل أبيب إلى أن أساس تحالفهما – صورة التهديد المشتركة – يبقى متيناً: "اتفاقية الجزائر لا تستحقّ الورق الذي كُتبت عليه"[49]. لكن في الحقيقة، بدأت تصوّرات إيران وإسرائيل للتهديدات بالتباعد.

فكّ القيود عن العراق

استفادت إيران إلى الحدّ الأقصى من الموافقة المطلقة لنيكسون على مشترياتها من كافة الأسلحة الأميركية غير النووية. مع تصاعد حجم مشتريات إيران من الأسلحة بدرجة كبيرة، زاد حجم جيشها من 225000 جندي في العام 1972 إلى 385000 جندي في العام 1975[50]. وقد ساعد إنفاق الشاه المسرف على الأسلحة على إنقاذ الاقتصاد الأميركي من أزمة النفط التي اندلعت في مستهلّ سبعينيات القرن الماضي، لأن أغلب الأموال التي أنفقتها الولايات المتحدة على نفط الشرق الأوسط عاد إلى واشنطن مجدداً من خلال التسوّق العسكري للشاه. ففي الفترة الممتدة بين عامي 1972 و1977، حصلت إيران على ثلث كافة مبيعات الأسلحة الأميركية[51]. غير أن نمو إيران مكّن الشاه من تبنّي سياسات مستقلة على نحو متزايد – وأحادية دائماً – وهو ما قوّى شكوك واشنطن وتل أبيب في الطموحات الخطرة للشاه[52].

بسحب البساط من تحت رِجلي إسرائيل في العراق، ساعد الشاه على جعل الجبهة الشرقية أكثر تهديداً لإسرائيل. فنوايا الدول العربية المعادية لإسرائيل لم تُستثر بتنامي قوة الشاه وتحسّن علاقاته مع الدول العربية المجاورة لإيران. والنمو غير المتعادل لإيران وإسرائيل مهّد الطريق أمام بروز تقييمات إيرانية وإسرائيلية متباينة للتهديد العربي. واستناداً إلى وزير المالية الإيراني السابق علي ناغي علي خاني، "كانت صورة التهديد المشتركة (بين إسرائيل وإيران) تتباعد"، حتى وإن كانتا لا تزالان تواجهان العديد من الأعداء المشتركين[53].

لكن على غرار ما حصل في العديد من المرّات السابقة، أدّت الأعمال الإيرانية التي زادت من انكشاف إسرائيل أمام العرب إلى زيادة حاجة إسرائيل إلى التعاون الأمني مع إيران. ومع أن الأعمال التي قامت بها طهران كانت مضرّة بالمصالح الإسرائيلية، لم يكن في استطاعة إسرائيل الثأر لذلك. بالمقابل، أصبحت إسرائيل أكثر اعتماداً على إيران لأن خسارة إيران فيما تقترب مصر من واشنطن وتتزايد قوة العراق ستكون بمثابة كارثة تنزل بالدولة اليهودية.

في هذه الأثناء، لم تساهم الثروة والقوة المتنامية لإيران في التقليل من الخطر العربي، فالشكوك التي ساورت الدول العربية وعدم ثقتها بإيران بقيا على حالهما. وكما أشار الشاه نفسه، ظلّ العراق على الخصوص يشكل تهديداً من خلال إعادة تسلّحه، ومناصرته للقضية العربية، ودعمه لعناصر المعارضة الإيرانية، بما في ذلك آية الله الخميني الذي كان يقيم حينها في المنفى بالعراق والذي كانت شعبيته ونفوذه في أوساط عناصر المعارضة بإيران يتزايدان. بالتوقيع على اتفاقية الجزائر، رفعت إيران وسيلة ضغط أساسية عن بغداد (أي دعم التمرّد الكردي) وأضعفت أمن إسرائيل.

كان الشاه على دراية تامة بأن دعم إيران للتمرّد الكردي هو الذي منع العراق من القيام بعمل عسكري ضدّ إيران، وبالتالي لم يكن في قطع الدعم عن الأكراد معنى كبير إذا كان تفكير الشاه ينحصر بالتوازن الإقليمي. فالتخلّي عن إسرائيل والثوار الأكراد كان مؤشراً قوياً على أن الشاه تخلّى عن منطق توازن القوى. وهذا ما عبّر عنه الشاه في مقابلة مع الصحافي العربي محمد حسنين هيكل في أبريل/نيسان 1975، بعد شهر واحد فقط من التوقيع على اتفاقية الجزائر: "قمنا بتطبيق مبدأ عدو عدوي هو صديقي، وبدأت علاقتنا مع إسرائيل تتطور. ولكن الوضع تغيّر الآن... وأنا أفكر بين الحين والآخر بتوازن جديد في المنطقة... وربما يمكن مكاملته في إطار إسلامي"[54].

على غرار العديد من قرارات الشاه الاستراتيجية، كان الدافع لديه هو الفوز باعتراف العرب بالقيادة الإقليمية لإيران. وبما أن نجاح إيران في الحصول على الدعم العربي لسيادة إيران على الخليج العربي لا يزال محدوداً في أحسن الأحوال، بات التخلّص من التهديد الذي يشكله العراق – وهو البلد الوحيد المتبقي في المنطقة الذي يمكنه التطلّع؛ بل إنه يتطلّع فعلاً إلى تحدّي طموح إيران بقيادة المنطقة– الهدف الأكثر أهمية. أمل الشاه بأن يفتح قبول بغداد الضمني للهيمنة الإيرانية من خلال اتفاقية الجزائر الطريق أمام الدول العربية الأخرى لكي تفعل الأمر نفسه، على اعتبار أن بنود الاتفاقية بدت في نظر الدول الإقليمية تصبّ بوضوح في مصلحة طهران. وكما توقع الشاه، رأى العرب أن الاتفاقية أعطت إيران المكانة الأولى في الخليج العربي، ورسخت تفوق إيران في الشؤون الإقليمية[55]. يضاف إلى ذلك أن القرار الإيراني السريع والأحادي بالتوقيع على الاتفاقية – بدون التشاور مع الولايات المتحدة – زاد من تأكيد استقلالية طهران وقيادتها. من الناحية الجوهرية، امتنع الشاه عن التباحث مع واشنطن وتل أبيب لأنه "اعتقد بأن الوقت قد حان لكي يتخذ تدابير معينة بدون التشاور مع أي شخص آخر؛ لأن ذلك كان بمثابة دلالة على المستوى الذي وصلت إليه إيران"، على حدّ ما جاء على لسان أحد مستشاريه[56].

في البداية، بدا الانقلاب الدبلوماسي الذي قام به الشاه ناجحاً. فقد هدّأ لفترة مؤقتة المنافسة العراقية الإيرانية. فعلى سبيل المثال، لم يحدث تصادم إيراني عراقي أو عربي فارسي أثناء عقد مؤتمر أمن الخليج العربي في العاصمة العُمانية مسقط في العام 1978[57].

لكن سرعان ما بدا واضحاً أن اتفاقية الجزائر كانت خطوة استراتيجية رئيسية خاطئة قام بها الشاه؛ تماماً كما جادلت إسرائيل حينها. فبدلاً من أن توفّر لإيران بعض الوقت، وفّرت الوقت المنشود لصدام حسين. وبالرغم من أن الشاه فاز باعتراف رمزي من جانب منافسه الرئيسي بأن إيران هي القوة المهيمنة في المنطقة، أدّى سحق الانتفاضة الكردية إلى تحرير بغداد من السلاسل الكردية. وتحررت الموارد العراقية من جديد ليصار إلى تركيزها على التسلّح والسيطرة. لقد مكنت الاتفاقيةُ العراق من تعزيز قوته وزيادة حجم جيشه بدرجة كبيرة وزيادة إنفاقه العسكري على الأسلحة السوفياتية – زاد الإنفاق العسكري العراقي بمقدار الضعف بين عامي 1975 و1980 – في حين دخلت إيران مرحلة من التراجع النسبي الثابت. وهذا التحوّل في ميزان القوى لصالح بغداد عزز التصوّر العراقي بأن البنود التي نصّت عليها اتفاقية الجزائر كانت غير منصفة، مما قوّى من رغبة صدام في الأخذ بالثأر[58].

بحلول العام 1978، بدأ السافاك بالاعتراف بهدوء للضباط الإسرائيليين بأن اتفاقية الجزائر أزاحت عبئاً عن كاهل العراق، مما مكّن بغداد من تعزيز قدراتها الهجومية. وجادل تسافرير بأن "صدام حسين ينتظر الفرصة المناسبة وحسب لغزو إيران". وقد سنحت هذه الفرصة لصدام بعد خمس سنين فقط على التوقيع على اتفاقية الجزائر؛ أي بعد وقت قصير من سقوط الشاه[59]. يضاف إلى ذلك أن النزعة الأحادية للشاه أضعفت مصداقية إيران كحليف لدى واشنطن وتل أبيب، ولدى الأكراد. ولو عدنا إلى الماضي، نجد أن توقيع الشاه على اتفاقية الجزائر استبدل تفوق إيران الحقيقي ولكن غير المعترف به بتفوق قصير الأمد ولكنه معترف به. في لحظة انتصاره، ختم الشاه على مصيره. واعترف لي أميرال سابق في سلاح البحرية الإيراني بالقول: "كانت اتفاقية الجزائر كارثة"[60].

الفصل 6 جنون العظمة

أقول بصراحة بأنني أرغب في أن تلعب إيران دوراً في المحيط الهندي. ليس لديّ أي اعتراض على التواجد الأميركي فيه، بل إنني سأدافع عن مصالحكم بالتأكيد.

-الشاه محمد رضا بهلوي، في حديث مع نائب الرئيس الأميركي نيلسون روكيفلر في 24 مارس/آذار 1976

في سياق الاتفاق التفاهمي البراغماتي بين إيران وإسرائيل، أبرز سلوك طهران في المسألة الكردية الضعف المستمر الذي يعتري التحالف؛ وليس انهياره. فعلى الرغم من اتفاقية الجزائر، بقيت العلاقات العراقية الإيرانية متوترة حتى نهاية حكم الشاه، وبقيت طهران وتل أبيب تتقاسمان العديد من المصالح الجيواستراتيجية بالرغم من زوال أحد عناصر التعاون الجوهرية. من خلال التفكير الذي يتجاوز الأخطار، جعل الشاه من ترسيخ مكانة طهران عبر تأمين الدعم العربي لطموحات إيران إلى أن تكون الأولى بين الدول في المنطقة، هدفه الرئيسي.

بالرغم من أن إسرائيل لم تكن منافساً على القيادة الإقليمية، أعاقت روابط طهران بالدولة اليهودية الجهود التي تبذلها إيران لبلوغ تلك المكانة[1]. وبشكل متزايد، بدأت العلاقات الإسرائيلية الإيرانية بالتحوّل من تحالف بين دولتين غارقتين في الصراعات إلى تعاملات بين دولة تطمح إلى أن تكون مهيمنة ودولة باتت عبئاً أكثر منها رصيداً لدى الدولة الأولى في سعيها إلى تحقيق التفوق. كما كانت إسرائيل عبئاً ثقيلاً على الشاه وذلك لجملة من الأسباب السياسية المحلّية بالرغم من أنه أولى القليل من الاهتمام للرأي العام الإيراني في المسائل المتعلقة بالسياسة الخارجية. في حين دعمت إسرائيل علناً علاقات تل أبيب بطهران – وهي إحدى الدول الإقليمية القليلة التي يمكن لإسرائيل أن تفاخر بتعاونها الاستخباري معها – كان العكس هو الصحيح بالنسبة إلى إيران. لكن حتى بالرغم من تخوّف الإيرانيين وارتيابهم بجيرانهم العرب، لم تُترجم تلك المشاعر إلى نظرة إطرائية لإسرائيل[2]. كان يُنظر إلى الدولة اليهودية عموماً بأنها قوة عدوانية وإمبريالية. فقد حدث الجيَشان الشعبي الأكثر خطورة والذي عبّر عن المشاعر المعادية لإسرائيل في العام 1967 أثناء مباراة في كرة القدم جرت في طهران بين الفريقين القوميَّين الإيراني والإسرائيلي. فقد تحولت المناسبة بسرعة إلى مظاهرة معادية لإسرائيل، وُزّعت فيها بالونات رُسمت عليها الصلبان المعقوفة، ونصب المتظاهرون صورة لموشي دايان وبصقوا عليها[3].

ترجع وجهات نظر الشعب الإيراني حيال إسرائيل أساساً إلى تأثير الدوائر الدينية بإيران والمشاعر العامة والمعادية للإمبريالية لدى الإيرانيين العاديين. كما أنه في وقت كان التعبير فيه عن الانتقاد العلني للشاه يمكن أن يؤدّي بصاحبه إلى السجن، كان توجيه الغضب في اتجاه إسرائيل طريقة آمنة لكي يعبّر الإيرانيون العاديون عن سخطهم على حكم الشاه[4]. وربما قادت هذه التعبيرات الشعبية الساخطة المراقبين الخارجيين إلى الاعتقاد بأن المشاعر المعادية لإسرائيل في إيران أعمق مما كانت في الواقع، غير أن المسؤولين الإسرائيليين العاملين بإيران لم يغفلوا تلك المواقف السلبية. ففي واحدة من بين العديد من الحوادث، رُسم على سيارة إسحاق سيغيف، خليفة ياكوف نمرودي كملحق عسكري إسرائيلي لدى إيران، شعارات نازية ومعادية لإسرائيل؛ "هايل هتلر" و"يا إسرائيل اخرجي". قال لي سيغيف: "عندما أشرت في البازار إلى أنني إسرائيلي، لم يقبلوا أخذ المال من يدي. كانت أساسيات معاداة اليهودية المستندة إلى النزعة الشيعية واضحة بالنسبة إلينا"[5].

لم تقتصر مشاعر العداء لإسرائيل على عامة الناس، فقد برزت هذه المواقف داخل الحكومة أيضاً. لكن مشاعر الموظفين الحكوميين كانت سياسية أكثر منها مواقف دينية. واستناداً إلى مسؤول إيراني سابق، "حتى أولئك التكنوقراطيين الذين كانوا يساعدون إسرائيل، كانوا في أعماق قلوبهم غير سعداء في الحقيقة بسبب الأفعال التي تقوم بها إسرائيل في حقّ الفلسطينيين"[6]. وداخل الحكومة، اشتُهرت وزارة الخارجية بانتقادها على الخصوص لعلاقات إيران بإسرائيل، في حين كان الجيش والسافاك يفضّلان بناء روابط أقوى معها[7]. جادلت وزارة الخارجية بأن الدول العربية تكتسب أهمية متزايدة، بما أن كافة دول عدم الانحياز كانت تقف مع العرب وضدّ إسرائيل. لكن الوزارة كانت تخوض معركة شاقّة من أجل التأثير في سياسة إيران تجاه إسرائيل. ويشرح دبلوماسي إيراني سابق بأنه غالباً ما "كنّا لا نعرف حتى ماذا كان يجري"[8]. وقد تجسّد انعدام الثقة بين الجيش ووزارة الخارجية في حادثة اكتشف فيها الجنرال حسن توفانيان، الجنرال المؤتمَن لدى الشاه والمكلّف بمشتريات الجيش من الأسلحة، أن الملحق العسكري الإسرائيلي لدى إيران، ياكوف نموردي، قام بتزوير ترويسة رسالة لجنرال ميت في سلاح الجو الإيراني وتوقيعها لبيع أسلحة تعود إلى الحرب العالمية الثانية لدولة أفريقية عبر الحكومة السويسرية. قام توفانيان بإبلاغ رئيس البعثة الإسرائيلية، مئير إزري، واتفق الاثنان على وجوب الطلب من نمرودي مغادرة إيران لكن مع الإبقاء على المسألة سرّاً لمنع وزارة الخارجية من "تضخيم الحادثة بما لا يتناسب وحجمها بالنظر إلى ميولها المؤيدة للعرب"[9].

كان يُعرف عن الشاه نفسه أنه يشك في إسرائيل والعالم اليهودي، ويحتقره أحياناً[10]. فقد كان يؤمن على نحو مبالغ فيه بالنفوذ اليهودي بواشنطن، معتقداً أن اليهود الأميركيين يسيطرون على وسائل الإعلام الأميركية، إضافة إلى جملة من القطاعات الأخرى[11]. وقد سبب تقديره الزائد لنفوذ اللوبي اليهودي الكثير من وجع الرأس لإسرائيل، ولكنه وفّر لإسرائيل أيضاً قدراً معيناً من الردع. في هذا الصدد، يقول مسؤول إسرائيلي رفيع عمل بإيران: "اعتقد الشاه – على نحو خاطئ – أن كل مقالة افتتاحية في نيويورك تايمز بأنها من عمل إسرائيل؛ ولذلك لم يكن يرغب في إثارة عداء إسرائيل"[12]. ومع تدهور صورة حكم الشاه في نظر أميركا في السبعينيات، وكثرة الانتقادات التي وُجهت إليه على خلفية انتهاك حقوق الإنسان وانعدام الديموقراطية، ازدادت حاجة الإمبراطور الإيراني إلى خدمات اللوبي اليهودي. وهذا ما مكّن إسرائيل من توفير دعم اللوبي اليهودي لإيران

في مقابل انتزاع تنازلات إيرانية. لكن استناداً إلى السفير هويدة، رئيس بعثة إيران الدائمة لدى الأمم المتحدة، لم يعطِ شمعون بيريز الشاهَ سوى وعود فارغة. كان توفير دعم اللوبي اليهودي "خدعة دنيئة من جانب شمعون بيريز. وهي لم تكلّفه شيئاً. كان يعرض تقديم المساعدة، ولكنه لم يكن يفعل شيئاً"[13].

لكن بالنسبة إلى جمهور الإيرانيين، لم تعكس المشاعر المعادية لإسرائيل معاداة عميقة للسامية. فبغض النظر عن التفرقة التي تعاني منها الأقليات المتنوعة في عهد إيران الإسلامية، نمى المجتمع اليهودي على صعيدي الثقافة والتجارة؛ ويعود الفضل في ذلك إلى حدّ بعيد إلى السياسات التي اتّبعتها سلالة البهلوي. فبحلول مستهلّ القرن العشرين، بلغ عدد اليهود عشرات الآلاف، ولعبوا دوراً سياسياً متزايد الأهمية. فقد شارك اليهود الإيرانيون بقوة في الثورة الدستورية في العام 1906، ووضعوا ثقلهم خلف الدستوريين من أجل تشكيل مجلس استشاري قومي (برلمان) بدلاً من إنشاء مجلس إسلامي كما كان يطالب رجال الدين. ووضع رضا شاه، مؤسس سلالة بهلوي التي لم تعمّر طويلاً، حداً للتمييز الذي تعاني منه الأقليات الدينية، وعمل على دمجهم بالكامل في المجتمع الإيراني الأكبر. كما سمح للوكالة اليهودية بفتح مكتب لها في طهران لمساعدة اليهود على الهجرة، بالرغم من معارضة الدوائر الدينية بإيران[14]. وكان لسياسات رضا شاه تأثير عميق في ردّة فعل اليهود الإيرانيين على إنشاء إسرائيل. ففي حين تسبب تأسيس الدولة اليهودية في هجرة جماعية لليهود السفارديم من البلدان العربية إلى إسرائيل، لم يفعل اليهود الإيرانيون الشيء نفسه. فبحلول مارس/آذار 1951، لم يستوطن في إسرائيل سوى ثمانية آلاف من أصل مائة ألف يشكلون تعداد الجالية اليهودية القوية بإيران[15]. واستناداً إلى دراسة لجامعة طهران في العام 1974، عبّر أغلب اليهود الإيرانيين الذين هاجروا فعلاً إلى إسرائيل عن رفضهم لفكرة وجود معاداة للسامية بإيران؛ وهم جعلوا من إسرائيل موطنهم الجديد لأسباب اقتصادية وليست دينية في الغالب[16].

القرار الذي يساوي بين الصهيونية والعنصرية

في نوفمبر/تشرين الثاني 1975، أي بعد شهور على التوقيع على معاهدة الجزائر، طرحت الدول العربية في الأمم المتحدة على التصويت قراراً يساوي بين الصهيونية – الإيديولوجية المؤسسة للدولة اليهودية – والعنصرية بناء على حجة مفادها أن الصهيونية تجيز التفرقة العنصرية. نصّ القرار 3379 الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة على "أن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية والتفرقة العنصرية"، ودعا إلى إنهاء كافة أشكال التفرقة العنصرية، بما في ذلك الصهيونية. جرى تبنّي القرار في 10 نوفمبر/تشرين الثاني 1975 بتأييد اثنين وسبعين صوتاً مقابل خمسة وثلاثين صوتاً، وامتناع اثنتين وثلاثين دولة عن التصويت. من دواعي خيبة أمل إسرائيل أن إيران صوّتت لصالح القرار. وتبين أن المشاعر المختلطة حيال إسرائيل لدى الموظفين في وزارة الخارجية كانت عاملاً حاسماً في التأثير في تصويت إيران.

وضع التكتل العربيُّ الوفدَ الإيراني تحت ضغط مكثف لكي يدعم القرار، مجادلاً بأنه لا يمكن لدولة إسلامية مثل إيران أن تبقى صامتة حيال معاملة إسرائيل للفلسطينيين. ودار جدال تميّز بالانفعال بين طهران ووفدها بنيويورك. كان موقف طهران في البداية الامتناع عن التصويت، ولكن الوفد الإيراني، وبخاصة الدبلوماسيين من أصحاب الرتب المتدنّية، أقنعوا طهران بعكس موقفها عبر تأكيدهم على فوائد التصويت لصالح القرار. كان هؤلاء الدبلوماسيون الإيرانيون يميلون إلى الموافقة على المزاعم التي جاءت في القرار، وكانوا قلقين من المضامين الأوسع نطاقاً على صعيد روابط إيران بإسرائيل[17]. كان إرضاء الولايات المتحدة وإسرائيل وإغضاب الدول النامية في المنطقة التي تسعى إيران إلى تحسين علاقاتها معها سيكبّدان إيران كلفة سياسية مرتفعة. ويشرح السفير مهدي إحساسي، الذي خدم كعضو في الوفد الإيراني لدى الأمم المتحدة في ذلك الوقت، المسألة فيقول: "لم نشأ إعطاء صورة بأننا نتبع الولايات المتحدة وإسرائيل بشكل أعمى"[18]. من وجهة نظر إيران، جاء التصويت لصالح القرار 3379 منسجماً مع سياسة طهران الداعية إلى التصويت مع حركة عدم الانحياز وإظهار المزيد من الاعتبار للحساسيات العربية[19]. واقتنعت طهران في نهاية المطاف بأن التصويت لصالح القرار سيشكل "جزءاً من سياسة إيران الداعية إلى الاقتراب أكثر من العرب لكي تحقق استقلالها ودورها القيادي"[20]. ويشرح هويدة، الذي أدلى بصوت إيران، أن تطلعات إيران للقيادة لعبت دوراً حاسماً في الجدال الذي دار بين طهران وبعثتها في الأمم المتحدة فيقول: "بالنظر إلى سياسة الهيمنة التي يتّبعها الشاه في الخليج العربي، لم يكن في مقدوره التهرّب من التصويت". ويضيف هويدة بأن سياسة إيران الهادفة إلى احتلال موقع القيادة حالت دون امتناعها عن التصويت[21].

بعد تلك الحادثة، كان لدى الشاه تغيير آخر في الصميم. فالشاه الذي كان كثير التدقيق في شؤون الدولة، ويقحم نفسه في كافة القرارات الكبيرة منها والصغيرة، اتصل بالبعثة الإيرانية في الأمم المتحدة في 11 نوفمبر/تشرين الثاني، وأعطاها تعليمات جديدة. فخوفاً من أن تصويتاً لصالح حركة عدم الانحياز والكتلة العربية وضدّ الولايات المتحدة سيتسبب بمشكلات لإيران، أمر الشاهُ الوفد الإيراني لدى الأمم المتحدة بمعارضة القرار، ليقال له بأن التصويت قد تم فعلاً في الليلة السابقة، وأن الوفد صوّت بموجب تعليماته السابقة لصالح القرار[22]. لم يفشل الإسرائيليون في التعبير عن غضبهم من إهانة إيران العلنية لمعتقد الدولة اليهودية. فعلى مأدبة الغداء التي تقام كل نصف شهر ويحضرها نائبا رئيسا البعثتين الإسرائيلية والإيرانية لدى الأمم المتحدة بنيويورك، حرص مساعد السفير الإسرائيلي على إفهام زميله الإيراني المدى الكامل للسخط. وفي طهران، أثار رئيس البعثة الإسرائيلية القضية مباشرة أمام الشاه، ولكن الشاه رفض مناقشة القرار، معتبراً أنه غير ذي صلة بالعلاقات بين الدولتين[23]. جاءت عجرفة الشاه انعكاساً لصورته الذاتية الجديدة كعبقري جيوسياسي استطاع في أقل من ثلاثة عقود تحويل إيران من دولة متخلفة إلى قوة اقتصادية

وإقليمية متطورة. لكن النجاح لم يسهم بالكثير للتخفيف من طموحات الشاه.

قيصر بلباس الشاه

اعتقد الشاه بأن القوة تجعل الدول أكثر تحملاً للمسؤولية. لكنه هو نفسه كان استثناءً من تلك القاعدة. فمع تنامي قوته، زادت شهيته لمزيد من القوة. لكن ربما كان الأهم من ذلك أنه مع بدء قوة إيران بالتراجع فجأة نتيجة لبروز العراق (الذي تحرّر للتوّ من التمرّد الكردي بفضل اتفاقية الجزائر)، تمثّلت ردة فعل الشاه في تخليص نفسه من كافة القيود المحتملة[24]. ومن دواعي السخرية أن الشاه لم ينظر إلى الاتفاقات بأنها انتصارات عظيمة وحسب، بل وشهادة على سياساته الحكيمة. فبعد أن حقق كافة أهدافه في الخليج العربي، زاد الشاه رهاناته، وبدأ يتطلّع إلى الدول المطلة على المحيط الهندي وما وراءه، مفرطاً في توسيع رقعة إيران من خلال طموحاته غير المحدودة. ففي لقاء مع نائب الرئيس الأميركي نيلسون روكيفلر في 24 مارس/آذار 1976، أفصح الشاه عن رؤيته وطموحاته فقال: "سياستي صادقة ومباشرة، وأنا لا أملك أجندة مخفية. وأنا أقول بصراحة إنني أرغب في أن تلعب إيران دوراً في المحيط الهندي. ليس لديّ أي اعتراض على التواجد الأميركي فيه، بل إنني سأدافع عن مصالحكم بالتأكيد"[25]. في البداية، وسّع الشاه مدى نشاط البحرية الإيرانية حتى خط العرض 20، ثم ابتعد أكثر فوصل إلى خط العرض 10. وبناء على ذلك، بدأت البحرية الإيرانية بتسيير دوريات بمحاذاة سواحل أفريقيا الشرقية، مظهرة بذلك قدراتها[26]. وعلى ضوء هذه التطورات، شعر الشاه بأنه لا يمكن أن تقف إيران موقف اللامبالي من الوضع السياسي في الصومال، ولذلك أمر جيشه بالتدخل في هذه الدولة الأفريقية الشرقية. يقول الدبلوماسي الإيراني السابق داوود هيرماديس باواند: "كان ذلك حصيلة تصوّر جنون العظمة الذي تملّك الشاه حيال نفسه وحيال مكانة إيران"[27].

نظرت واشنطن إلى هذه التطورات بعين حذرة وقد تملّكها القلق مما يمكن أن تفعله طموحات الشاه به[28]. يقول هنري بريشت، مسؤول مكتب إيران السابق في وزارة الخارجية الأميركية: "لم يكن الشاه يسعى إلى أن يكون المهيمن على المنطقة وحسب، بل وأراد أن يصبح قوة على المسرح العالمي"[29]. كما لاحظ المسؤولون الإسرائيليون التوسع الزائد لإيران، ووصفوا ما كان يحصل "بجنون عظمة الشاه"، كما لاحظوا الأخطار التي يمثلها ذلك على إيران وعلى العلاقات الإسرائيلية الإيرانية[30]. وفي نظر الخبير في الشؤون العراقية أندرو بارازيليتي، كانت سياسة الشاه الطموحة على نحو متزايد بعد العام 1975 محاولة للمحافظة على وضعية إيران في الوقت الذي بدأ يخسر فيه الأرض أمام بغداد بسبب مشتريات الأسلحة الضخمة المتنامية التي كان يقوم بها العراق في ظل صدام حسين.

بالرغم من أن العديد من مستشاري الشاه كانوا على دراية بالأخطار التي تشكلها سياساته، فقلّة منهم كانوا في وضع يمكّنهم من التعبير عن وجهات نظرهم للحاكم الإيراني المستبدّ. ويتأسف علي ناغي علي خاني، وهو وزير سابق في وزارة الشاه، "لماذا نطمح إلى أن نكون القوة المهيمنة في المحيط الهندي؟ كان الأمر سخيفاً. فشعبنا فقير... حتى أن جيشنا لم يكن يملك القوة الكافية بما أن كافة قطع الغيار مصنوعة في الولايات المتحدة، كنا دولة معتمدة على الخارج بالكامل"[31]. ولزيادة الأمور سوءاً، بلغ الأسلوب الاستبدادي أصلاً للشاه في الحكم مستويات سخيفة. فقد جاء في تقرير رُفعت السرّية عنه أعدته وزارة الخارجية قبل زيارة الشاه للولايات المتحدة في 22 أغسطس/آب 1967 أن "الشاه يحكم البلاد ويديرها. فهو من يتخذ كافة القرارات الهامة، والعديد من القرارات غير الهامة نيابة عن الحكومة الإيرانية"[32]. وبحلول منتصف السبعينيات، أصبح ميل الشاه إلى التدخل في أدقّ التفاصيل في شؤون الدولة مزمناً. ويشرح هويدة الأمر فيقول: "فجأة، اعتقدَ بأنه أذكى من أي شخص آخر"[33]. توقف الشاه عن استشارة مستشاريه، وأصرّ على إجراء كافة التحليلات واتخاذ كافة القرارات بنفسه. نتيجة لذلك، ازدادت حدّة المنافسة بين الإدارات الحكومية المختلفة في توفير البيانات للشاه وعلى الخصوص بين السافاك ووزارة الخارجية. في النهاية، باتت البيانات تصل إلى الشاه في صيغتها الأولية بدون أي تحليل أو معالجة، لكي يقوم بنفسه بتحليلها، واتخاذ القرارات بشأنها. "لم يكن يوجد خط اتصال واحد من البعثة لا يصل إلى جلالته شخصياً... كان عليه أن يعرف كل شيء يختص بالعلاقات الخارجية... كان يقول أجل وكلا. كان الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يقرّر"[34].

ما من قضية تجلّت فيها هذه الحقيقة مثل علاقات إيران بإسرائيل. فقد رفض وزير البلاط أسد الله علام بشكل متكرر الدعوات التي كانت تصله من مسؤولين إسرائيليين رفيعي المستوى لأن مثل هذه اللقاءات "لن تلقى صدى حسناً لدى الشاه الذي يرغب في الإبقاء على مسائل معينة حكراً على نفسه"[35]. لقد أصبح الشاه على نحو متزايد حكومة من رجل واحد. وتحوّلت اجتماعات مجلس الوزراء إلى مهازل؛ ولم تتم معالجة القضايا المتعلقة بالأمن القومي، أو السياسات النفطية، أو الإنفاق العسكري، أو البرنامج النووي للشاه أبداً على المستوى الوزاري[36]. الأمر نفسه ينطبق على العلاقات الإسرائيلية الإيرانية. فقد قال لي وزير سابق: "حضرت اجتماعات وزارية طوال ستّ سنين تقريباً. وما من مرّة أجرينا فيها مناقشة استراتيجية حول إسرائيل"[37]. وعلى غرار نهجه مع الدول العربية، سعى الشاه إلى إبقاء طبيعة روابطه مع إسرائيل بعيدة عن أعين شعبه وحتى عن أعين حكومته. في النهاية، ساهمت عاداته التي سيطر عليها الميل إلى الشكّ والسرّية في سقوطه. فمع انتشار حالة عدم الاستقرار في كافة أرجاء إيران، زاد ميل الشاه إلى معاقبة المستشارين الذين اقتصروا على رفع تقارير عن التطورات السلبية، مما ترك القليل جداً ممن تجرؤوا على قول أي شيء له على الإطلاق. وبحلول الوقت الذي عرف فيه الحقيقة، كان الوقت متأخراً جداً.

الفصل 7 بروز بيغن واليمين الإسرائيلي

في دولة مثل دولتكم، مع ما تملك من طائرات أف-14 والكثير من طائرات أف-4، ومع كل هذه المشكلات التي تحيط بكم، يتعين عليكم امتلاك قوة صاروخية جيدة.

-وزير الدفاع الإسرائيلي عيزر وايزمان في حديث مع الجنرال الإيراني حسن توفانيان، يوليو/تموز 1978

يوم 21 يونيو/حزيران 1977 هو تاريخ انتصار اليمين بإسرائيل. فبعد عدة عقود من هيمنة حزب العمل على المشهد السياسي الإسرائيلي، سيطر حزب الليكود، بزعامة مناحيم بيغن، أخيراً على الكنيست الإسرائيلي وعلى السلطة التنفيذية. كما تبيّن في ما بعد، أصبح تحوّل إسرائيل إلى اليمين مصدر احتكاك بين تل أبيب وطهران[1]. وُلد بيغن في بولندا في العام 1913، وبدأ حياته كتلميذ لزئيف جابوتينسكي، مؤسس الصهيونية المعدّلة والأب الروحي لليمين الإسرائيلي، ثم تحول إلى منافس له. وبعد انتقاله إلى فلسطين عقب اندلاع الحرب العالمية الثانية، لعب بيغن دوراً أساسياً في بروز اليمين الإسرائيلي وقاد إرغون سفاي لويما (المنظمة العسكرية الوطنية)، وهي ميليشيا يهودية مسؤولة عن عدد كبير جداً من التفجيرات على عهد الانتداب البريطاني لفلسطين خلال أربعينيات القرن الماضي. لقد عرضت الحكومة البريطانية مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه إسترليني لمن يدلي بمعلومات تقود إلى اعتقاله، ولكنه تمكن من تجنب الوقوع في الأسر باستمرار. شارك بيغن في وقت لاحق في تأسيس حزب هيروت حيث أضفى صبغة راديكالية على تعاليم جابوتينسكي لتصبح أفكاراً معدّلة جديدة[2]. على العكس من جابوتينسكي. لم يشارك بيغن ولا جماعته، الذين كان العديد منهم من الناجين من الإبادة الجماعية، في الاعتقاد بأن العالم سيفهم الحلم الصهيوني ويدعم تحقيقه، بالرغم من أنهم شاركوا جابوتينسكي في اعتقاده الأساسي بوجود عداء دموي مستحكم بين العرب واليهود[3]. يضاف إلى ذلك أن هيروت، مثل سلفه الاجتهادي المعدّل، كان يؤمن بإيديولوجيا "إيريتز إسرائيل (إسرائيل الكبرى)، التي لا تشمل كامل أنحاء فلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطاني وحسب، بل وتشمل أيضاً أراضي واقعة شرقيّ نهر الأردن، في ما أصبح لاحقاً المملكة الأردنية.

شكل حزب هيروت في منتصف السبعينيات تحالفاً مع أحزاب مشاركة له في الرأي أُطلق عليه اسم ائتلاف الليكود. وما لبث هذا الائتلاف أن نقل المكونة الإيديولوجية من الجدال الدائر حول حدود الدولة اليهودية إلى المشهد السياسي. واستناداً إلى شلومو أفينيري، المدير العام السابق لوزارة الخارجية الإسرائيلية، تجاوز تعلّق بيغن الإيديولوجي بالضفة الغربية (التي أصرّ على تسميتها بيهودا والسامرة) الهواجس الأمنية المشروعة لدى إسرائيل. كان بيغن ينتمي إلى المدرسة المناطقية التي جادلت بأنه ينبغي على إسرائيل امتلاك أكبر قدر ممكن مما اعتبرته إسرائيلَ التاريخية، لأنه كلما زادت رقعة الأرض التي تملكها إسرائيل، كلما زاد الطابع اليهودي للدولة. يعتقد أتباع هذه المدرسة بأنه بزيادة المرء لمطالبه المناطقية، يصبح صهيونياً أقوى، في حين أن أية تسوية على أراضي إسرائيل التاريخية تعادل انتقاصاً من إيمانه بالصهيونية[4]. في حين أن الليكود أقرب إلى هذا النهج في التفكير، كان حزب العمل متعلقاً بالمدرسة الاجتماعية، التي تجادل بأن التركيبة الداخلية للمجتمع الإسرائيلي سبقت وجود أرض هذا المجتمع، وأن إسرائيل الأكبر على صعيد رقعة الأرض ستضم مزيداً من الفلسطينيين، وسيضعف الطابع اليهودي لها نتيجة لذلك. بالنظر إلى معدلات المواليد المرتفعة لدى السكان الفلسطينيين، سيصبح اليهود في النهاية أقلّية داخل دولتهم في حال ضمّت إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزّة. وبناء على ذلك، تنظر المدرسة الاجتماعية إلى التضخيم المناطقي على أنه وصفة كارثة[5]. ويقرّ أصحاب النزعة المناطقية بالأخطار التي تمثلها المشكلة الديموغرافية ولكنهم يعتقدون بأن مستلزمات المحافظة على سيطرة إسرائيل الكبرى ستتفوق على هذه المشكلة.

استغلّ بيغن مشاعر السخط العام من حزب العمل في أعقاب حرب أكتوبر، وتبنّى النزعة المناطقية وجعل إيديولوجيا جابوتينسكي اليمينية الإيديولوجية المهيمنة على إسرائيل[6]. وكان أول رئيس وزراء إسرائيلي يشير إلى الضفة الغربية بيهودا والسامرة ويعتبرها جزءاً مكملاً لأرض إسرائيل. وما إن تم انتخابه حتى زار مستوطنة إلون موريه الإسرائيلية في فلسطين المحتلة، وأعلن أنها جزء من إسرائيل المحرَّرة. وفي أكتوبر/تشرين الأول 1979، قضت المحكمة العليا الإسرائيلية بأن مستوطنة إلون موريه غير شرعية ويتعين إخلاؤها[7]. لكن على الرغم من الحكم الصادر عن المحكمة العليا، أعلن وزير الزراعة في وزارة بيغن أرييل شارون، عن خطط لتوطين أكثر من مليون يهودي بالضفة الغربية في السنين العشرين القادمة، في تحدّ صارخ للقرار 242 الصادر عن مجلس الأمن الدولي. مع مجيء بيغن، جاء معه أيضاً مبدأ أمني إسرائيلي جديد. كان بيغن عازماً على فرض الهيمنة الإسرائيلية على المنطقة، "توازن جديد للقوى تكون فيه إسرائيل القوة المهيمنة بالكامل" استناداً إلى إيلان بيليغ. كان بيغن ينتقد علناً ما وصفه بوضعية الردع الإسرائيلية خلال السنين التي قضاها في المعارضة. وقد تبنّى وضعية هجومية "تميزت بأهداف توسعية ضخمة"، لكي تمنح إسرائيل التفوق الاستراتيجي. وقد حازت فكرة تحويل إسرائيل إلى قوة عسكرية إقليمية عظمى على دعم الشعب الإسرائيلي أثناء مدة ولاية بيغن[8].

أضف إلى ذلك أنه نتيجة للنزعة الراديكالية لجيل الإبادة الجماعية الذي آمن بتعاليم جابوتينسكي، أضيف بُعد إيديولوجي إلى مبدأ محيط إسرائيل. فإسرائيل لم تعد تسعى إلى عقد تحالفات مع الدول غير العربية في المنطقة لمجرّد إضعاف الدول العربية المجاورة لإسرائيل وإقناعها بمزايا السلام مع الدولة اليهودية. وبدلاً من ذلك، بات يُنظر إلى التحالفات مع الدول غير العربية على أنها ضرورة بالنظر إلى تصوّر استحالة التوصل إلى سلام مع العرب. لقد كانت إيران تتلاءم تماماً مع النظرة العالمية الإسرائيلية الليكودية، بالنظر إلى الحضارة القديمة لإيران على الخصوص – التي اعتبرها العديد من الإسرائيليين متفوقة على حضارة العرب – ومع الممارسة القديمة للدبلوماسية. في حين يميل العديد من المسؤولين الإسرائيليين إلى اعتبار أنفسهم متفوقين من الناحية الثقافية على جيرانهم العرب، فهم ينظرون إلى إيران على أنها مساوية لهم في هذه الناحية.

وكانت هناك فكرة إسرائيلية تقول بأنه "يمكن التعامل مع الإيرانيين لأنهم إيرانيون"[9]. بالنسبة إلى إيران، صنعت سياسة الليكود العدوانية نصر بيغن الذي اعتُبر النكسة الانتخابية الثانية التي يُمنى بها الشاه في أقل من ثمانية شهور، بعد هزيمة المرشح الديموقراطي للرئاسة الأميركية جيمي كارتر لصالح جيرالد فورد في نوفمبر/تشرين الثاني 1976. فقد شاب التوتر الشديد علاقة الشاه مع الحزب الديموقراطي منذ السنين الأولى لإدارة كيندي. كان يكره تركيز كيندي على حقوق الإنسان وخشي من أن يتبنى كارتر – الذي دافع عن حقوق الإنسان وتخفيض مبيعات الأسلحة الأميركية بوجه عام – "مزاعم من نوع مزاعم كيندي"[10]. من وجهة نظر الشاه، من شأن وصول ديموقراطي إلى البيت الأبيض أن يجعل الولايات المتحدة حليفاً أقل جدارة بالاعتماد عليه في مواجهة الشيوعية. لكن في إسرائيل، فضّل الشاه الحكومة العمّالية، التي كانت في السلطة عندما بدأ تطوير العلاقات الإسرائيلية الإيرانية على مرّ العقدين السابقَين، والتي تتمتع قيادتها بعلاقات عمل طيبة مع كل من العرب ومستشاريه[11]. وعلّق مسؤول إيراني خدم في نظام البهلوي، "في وسعنا أن نتفاهم مع حزب العمل بسهولة لأنه يمكنك التحدث إليهم بطريقة أكثر حزماً وسيستمعون إليك"[12].

كان النهج العدواني لبيغن بمثابة أخبار سيئة لإيران. فابتداءً من حرب العام 1967، صارت إيران تنظر إلى إسرائيل على أنها دولة محاربة. وغالباً ما عبّر الدبلوماسيون الإيرانيون عن عدم موافقة طهران على المبدأ العسكري الذي تعمل به إسرائيل، مجادلين بأنه لا يمكن لإسرائيل أن تحصل على السلام والقبول في المنطقة "بالعيش بجانب ماسورة مدفع"[13]. لقد قدّم الشاه الدعم للموقف العربي عندما رفض مزاعم إسرائيل في الضفة الغربية مجادلاً بأن "عصر احتلال الأرض واغتصابها بالقوة صار شيئاً من الماضي"[14]. واستناداً إلى مُلخص سرّي أعدّته وزارة الخارجية الأميركية، قد حثّ الشاهُ الولايات المتحدة في مستهل السبعينيات للضغط على إسرائيل من أجل التوصل إلى السلام. جاء في ذلك المُلخص، "يشعر الشاه بأنه ينبغي على الولايات المتحدة بذل كل جهد للتوصل إلى حلّ مبكر للوضع العربي الإسرائيلي. وقد عبّر عن معارضته لتهويد القدس وعن دعمه لانسحاب إسرائيلي من كافة الأراضي العربية المحتلة واستعادة الحقوق المشروعة للفلسطينيين"[15].

في مقابلة مع نيوز أند وارلد ريبورت الأميركية في العام 1976، دعا الشاهُ إسرائيل إلى تطبيق القرارين 242 و338 والاعتراف بدولة فلسطينية بوصفها حقيقة: "لطالما عبّرت عن الرأي الذي يقول بأنه يتعين تنفيذ القرارين 242 و338. فنحن لا نستطيع القبول بالأمر الواقع – امتلاك الأرض بالقوة – لأنك إذا قبلت به في مكان معين، لماذا سترفضه في مكان آخر؟... ينبغي أن تنضم منظمة التحرير الفلسطينية إلى معاهدة جنيف في شكل ما، لأنه لا يمكنك تجاهل وجود هذا العدد الكبير من الفلسطينيين. يتعين علينا القبول بذلك، فكما قبلنا بوجود إسرائيل، ينبغي علينا القبول بوجود الفلسطينيين أيضاً. إنها حقيقة"[16].

في مستهل العام 1977، أي قبل شهور معدودة من انتخاب بيغن، قام رئيس الوزراء الإيراني أمير عباس هويدة بجولة في الشرق الأوسط، وأصدر العديد من البيانات المشتركة مع نظرائه العرب. ففي الرباط، "شدد على أن أزمة الشرق الأوسط يمكن أن تُحلّ فقط على أساس انسحاب إسرائيل من كافة الأراضي العربية التي احتلّتها، وإعادة حق الشعب الفلسطيني الذي لا يمكن التفريط فيه بوجود قومي"[17]. وبعد شهر من ذلك، أدان بيان مشترك مع مصر صدر بطهران، "إسرائيل بسبب سياساتها وممارساتها في الأراضي المحتلة والمصممة لتغيير التركيبة الديموغرافية والطابع الجغرافي لتلك الأراضي". ورأى البلَدان بأن هذه السياسة تشكل تهديداً خطيراً للسلام في الشرق الأوسط[18]. وفي مايو/أيار، صدر بيان مشترك مشابه مع الحكومة الكويتية[19]. من المنظور الإيراني، كان انتقاد الموقف الإسرائيلي ببساطة أمراً يصح القيام به في ذلك الوقت. مع الأخذ بعين الاعتبار موقف إسرائيل الضعيف إزاء إيران، لم يحمل الانتقاد في طياته كلفة سياسية عالية[20]. مثّل تحوّل إسرائيل إلى اليمين وإلى سياسات بيغن العنيدة – في نظر الشاه – تحديات خطيرة لاستراتيجية إيران وأهدافها، والتي كانت تتعرض للعراقيل بسبب التراجع النسبي في قوة إيران. لقد رأى الشاه في بيغن زعيماً متشدداً ستؤدي سياساته غير المرنة إلى إضعاف رغبة السادات في التوصل إلى سلام، وهدد بتقليص التعاون العسكري الإيراني الإسرائيلي ما لم يتبنَّ بيغن موقفاً أكثر مرونة. وأمر الجنرال حسن توفانيان، الذي كان مسؤولاً عن إدارة برامج مشتريات إيران العسكرية بإبطاء المشاريع العسكرية الإيرانية الإسرائيلية السرّية[21]. كما تملّك الخوفُ إيران من أن السياسات التوسعية التي تنتهجها إسرائيل بالضفة الغربية ستغذّي حالة عدم الاستقرار، وتوفر للاتحاد السوفياتي فرصة لتعزيز وجوده في الشرق الأوسط. وعلّق أحد مستشاري الشاه على ذلك بالقول: "إذا لم يتم التوصل إلى مصالحة مع العرب بطريقة ما، فإن فرص عودة السوفيات واختراقهم للمنطقة ستزداد، لأنه لا يوجد للعرب مكان آخر يذهبون إليه". بالإضافة إلى ذلك، كان الشاه يبني مشروعية لقيادته عبر الترويج للسلام بين الإسرائيليين والعرب[22]. وقرار الشاه القديم بعدم الاعتراف بإسرائيل بشكل رسمي ينبع جزئياً من الخوف من أن مثل هذه الخطوة ستشلّ قدرة إيران في المستقبل على التوسط بين إسرائيل والعرب[23].

لكن السياسات المتشددة التي اتّبعها بيغن جعلت إمكانية لعب الشاه دور صانع سلام أكثر صعوبة، وهو ما انعكس بدوره سلباً على أداء إيران كقائد إقليمي في عيون العرب[24]. وأية حروب أخرى ستفرز عواقب لا يمكن التوقع بها مما قد يميل الميزان في المنطقة ضدّ إيران مع لفت مزيد من الانتباه إلى الروابط غير الشعبية بين إيران وإسرائيل. كان بيغن على دراية تامة بحساسيات الشاه، وما إن فاز في الانتخابات حتى أرسل وزير خارجيته موشي دايان إلى طهران لطمأنة الشاه إلى أن إسرائيل ستواصل مساعيها لتحقيق السلام. وأعيد الحديث عن رسالة دايان أمم توفانيان أثناء لقاء جمع بينهما بتل أبيب في 18 يوليو/تموز 1977. تكشف الدقائق السرّية لذلك اللقاء أن دايان طمأن توفانيان بأن إسرائيل تريد السلام "بدون أية شروط مسبقة وبدون أية عبارات تبدأ بلكن، وإذا". زد على ذلك أن دايان شرح بأن "كافة النقاط مفتوحة أمام المفاوضات، وأن إسرائيل على

استعداد للجلوس مع جيرانها العرب بدون أية شروط مسبقة"، ولكن إسرائيل "لن تتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية، ولن توافق على إقامة دولة لهذه المنظمة". وردّ توفانيان بأن الشاه دافع عن التوصل إلى تسوية سلمية مع العرب وأنه "متى حصل على تطمينات بأن هذه هي السياسة التي تنتهجها حكومة إسرائيل الحالية... سيحدث مزيد من التطوير والترسيخ للتعاون بين البلدين"[25]. وقد عكست الموافقة المشروطة لتوفانيان الشكوك الإيرانية حيال صدق بيغن في ما يقوله.

في 9 نوفمبر/تشرين الثاني 1977، قام السادات بمحاولة جريئة لكسر الجمود في الوضع العربي الإسرائيلي عبر إلقائه خطاباً في الكنيست الإسرائيلي[26]. وأيد الشاه بقوة خطوة السادات على أمل أن تؤدي إلى إرغام إسرائيل على تبنّي موقف أكثر مرونة[27]. وقال لمجلة نيوزويك: "لدى السادات عقد أقل تجاه السلام من أي شخص آخر، بما في ذلك الإسرائيليين. وأنا أتمنى لو أنه كان لدى إسرائيل عقد أقل"[28]. وضع هذا العرض المصري غير المتوقع إسرائيلَ تحت ضغط شديد، وهي التي كانت محقة في شكها في أن عرض السلام الذي تقدم به الساداتسيعزز الخيار العربي لدى إيران؛ الانجذاب نحو موقف العرب في صراعهم مع إسرائيل. وفور إلقاء السادات خطابه، طلب بيغن من دايان السفر إلى طهران حاملاً اقتراحاً رسمياً بإعطاء الشاه رواية مباشرة عن المحادثات التي أجراها الرئيس المصري. انتهز الشاه الفرصة لتحذير إسرائيل مجدداً من الاستهانة بالنوايا السوفياتية. وجادل الشاه بأن الاتحاد السوفياتي يقوم بتسليح العراق وسوريا من أجل تخريب أية جهود تؤدي إلى السلام. وقال: "تحسن إسرائيل صنعاً إذا أخذت في حسابها هذين البلدين عند دراستها للمبادرة، ودعم روسيا السوفياتية الذي سيشعل الحرب مجدداً ضدّ إسرائيل"[29]. غير أن مطالب دايان الأولية أظهرت أن الهدف الرئيسي لإسرائيل من هذه الزيارة هو إضعاف الخيار العربي لدى طهران. طلب دايان أن يقوم الشاه بالإعلان بشكل رسمي عن وصوله إلى طهران، على العكس من الممارسات التي تتبعها إيران وإسرائيل في علاقاتهما السرّية. كما اقترح دايان رفع مستوى بعثتيهما الدبلوماسيتين إلى مستوى سفارتين رسميتين؛ وهو ما يعني اعترافاً إيرانياً رسمياً بإسرائيل. وبعد أن أدرك الشاه بأن إسرائيل تحاول شلّ قدرته على استخدام الخيار العربي، رفض اقتراحي دايان، مستشهداً بتأثير رجال الدين في إيران على الرأي العام الإيراني. حتى أن تل أبيب سعت قبل زيارة دايان إلى استخدام زيارة السادات من أجل إشهار العلاقات الإسرائيلية الإيرانية أكثر، وهو ما أزعج إيران كثيراً. فقد وجهت وزارة الخارجية الإسرائيلية دعوة إلى رئيس البعثة الإيرانية لدى إسرائيل ليكون أول مسؤول يرحّب بالسادات لدى وصوله إلى مطار بن غوريون. وبما أن إيران توقعت أن تجذب الزيارة انتباه الرأي العام، لم يكن في مقدورها تحمّل رؤية أحد مسؤوليها وهو يصافح الرئيس المصري في إسرائيل. ولذلك رفض رئيس البعثة الإيرانية العرض بأدب[30].

أحيت الزيارة غير المتوقعة التي قام بها السادات إلى إسرائيل الآمال بالعملية السلمية، لكن سرعان ما اعتراها الجمود مجدداً أثناء المباحثات التي تلتها في مدينة الإسماعيلية بمصر في شهر ديسمبر/كانون الأول. وفي مظهر للدعم القوي لموقف السادات، زار الشاهُ مصر في 9 يناير/كانون الثاني 1978 وقال للمراسلين "بأنه يعتقد بأن مصر تقوم بالضبط بما نعتقد أنه صواب". وألقى الشاه اللوم على إسرائيل بالإعلان عن أن الكرة في الملعب الإسرائيلي[31]. وبعد شهر من ذلك، مارس الشاه المزيد من الضغوط العلنية على إسرائيل بانتقاد الموقف الإسرائيلي واصفاً إياه "بأنه غير مفهوم، وغير متساهل، وعنيد"[32]. جاءت ملاحظات الشاه القاسية قبل أيام فقط من زيارة بيغن لطهران. مع أن الشاه كان قاسياً في تعاطيه مع رئيس الوزراء الإسرائيلي، حيث ألحّ على بيغن بأنه يتعين على إسرائيل تقدير موقف السادات الضعيف في العالم العربي بسبب قراره الأحادي بزيارة القدس، أشار العاهل الإيراني أيضاً إلى أن إيران لا تنوي الوقوف بالكامل إلى جانب العرب. واستناداً إلى غلام رضا أفخامي، وهو أحد مستشاري الشاه، لم يفكر الشاه في اتخاذ "مواقف معادية لإسرائيل دفاعاً عن العرب"[33]. سبب هذا الموقف هو أنه بالنظر إلى تراجع قوة إيران وتنامي قوة العراق، ازدادت حاجة طهران الأمنية إلى إسرائيل مجدداً، وهو ما كان مبعث سرور كبيراً في تل أبيب.

مشروع الزهرة

بعد مرور سنتين فقط على التوقيع على اتفاقية الجزائر، بدأت إيران تدرك أن الاتفاقية لم تعق تطور العراق كخطر. بالإضافة إلى ذلك، ضعف إحساس إيران بالأمن بانتخاب الرئيس كارتر الذي تبنّى مقاربة أكثر ليونة مع السوفيات. كان الشاه كثير الانتقاد لسلوك الولايات المتحدة في الحرب الباردة، وجادل بأن واشنطن أصبحت على نحو متزايد حليفاً لا يمكن الاعتماد عليه. خشي الشاه من أنه مع عدم قدرة الولايات المتحدة على الوقوف بحزم في وجه الشيوعية، سيجد السوفيات الفرص لتعزيز تقدمهم في الشرق الأوسط. وفي أواخر العام 1977، قال الشاه لمسؤول إسرائيلي طرح أسئلة حول إنفاق إيران غير المسبوق على شراء الأسلحة بأنه مقتنع بأن الحرب مع الكتلة العربية الموالية للسوفيات قادمة. اعتقد العاهل الإيراني بأن العراق سيهاجم إيران – بتحريض من الاتحاد السوفياتي ودعم كامل من الدول العربية – على الرغم من اتفاقية الجزائر. لجعل الأمور أكثر سوءاً، خشي الإيرانيون من أن تتعامل الولايات المتحدة مع الحرب كصراع محلّي، وتمتنع من اتخاذ موقف تاركة إيران تدبّر أمورها بنفسها، حتى وإن كان العراق سيحارب بدعم سوفياتي كامل[34]. فالمبيعات السوفياتية من صواريخ سكود للعراق، والتي زادت من القدرات الهجومية للعراق بدرجة كبيرة، لم تجعل الأمور أحسن حالاً[35]. وفي نوفمبر/تشرين الثاني 1977، عبّر الشاه عن المأزق الذي تجد إيران نفسها فيه:

سؤال: لا تزال تُتهم بين الحين والآخر بأنك تنفق بإسراف على مشترياتك من الأسلحة. هل تحاول تحقيق شكل من أشكال الاكتفاء الذاتي بسبب ما تعتبره عدم القدرة على الاعتماد على الولايات المتحدة؟

الشاه: الأمر لا يتعلق بعدم القدرة على الاعتماد على الولايات المتحدة كما شاهدنا في فييتنام، وكمبوديا، ولاوس، وأثناء الحروب الهندية

الباكستانية وحسب، بل يتعلق بعجز الأمم المتحدة. قمنا بتسوية خلافاتنا مع العراق، ولكن عملية بناء جيشه لا تزال مستمرّة. وأنا أتساءل كم يبلغ عدد محرّريكم وأعضاء الكونغرس لديكم الذين يدركون بأن العراق يملك من الطائرات، والدبابات، والمدافع أكثر مما نملكه نحن؛ وحتى صواريخ أرض – أرض من طراز سكود. أم أننا مجرّد دولة أخرى. انظر إلى حدودنا. ماذا سيحصل إذا تفكك ما بقي من باكستان؟ إذا لم نتولَّ أمننا في المنطقة، فمن الذي سيتولاّه؟[36]

شعر الشاه أن إيران بحاجة إلى امتلاك قدرات ردعية في مواجهة صواريخ سكود العراقية، فالتجأ إلى الولايات المتحدة لشراء صواريخ بيرشينغ. ولكن إدارة كارتر رفضت الطلب الإيراني، معللة ذلك بقدرة هذا النوع من الصواريخ على حمل رؤوس حربية نووية[37]. لم يبقَ أمام طهران المحبطة سوى اللجوء إلى إسرائيل، كما حصل في مرات كثيرة عندما رفضت واشنطن تقاسم التكنولوجيات المتطورة مع إيران. كانت الدولة اليهودية على استعداد لتوفير "التكنولوجيا التي لن يقدمها الغرب لإيران"[38]. فقد دفع امتلاك العراقيين لصواريخ سكود الباليستية إلى الشروع في واحدة من أكثر عمليات التعاون السرّي والمثير للجدل بين إيران وإسرائيل؛ مشروع الزهرة. أمر الشاهُ الجنرال توفانيان باللجوء إلى إسرائيل للحصول على التكنولوجيا الصاروخية. لكن عرض إسرائيل تجاوز مجرد بيع صواريخ أميركية. فقد اقترحت تل أبيب تعاوناً يوظف الأموال الإيرانية والمعرفة التكنولوجية الإسرائيلية في تطوير صاروخ يصل مداه إلى 300 كلم. جادلت إسرائيل بأن طهران بحاجة إلى صواريخ باليستية منتجة محلّياً في ترسانتها، وكان الشاه آذاناً صاغية. قال وزير الدفاع الإسرائيلي عيزر وايزمان لتوفانيان: "يتعين عليكم امتلاك صواريخ أرض – أرض. في دولة مثل دولتكم، مع ما تملك من طائرات أف–14 والكثير من طائرات أف–4، ومع كل هذه المشكلات التي تحيط بكم، يتعين عليكم امتلاك قوة صاروخية جيدة"[39]. كانت المناقشات التمهيدية قد بدأت على عهد حكومة رابين، حيث وقّع شمعون بيريز وزير الدفاع حينها مع الشاه على اتفاقية في أبريل/نيسان 1977 بطهران، إلى جانب خمسة عقود أخرى لشراء النفط مقابل السلاح بلغ مجموع قيمتها مليار دولار[40]. كان الهدف زيادة مدى صاروخ إسرائيلي موجود واستبدال قطع الغيار الأميركية لكي يمكن لإسرائيل تصدير هذه الصواريخ بطريقة قانونية بدون الحصول على موافقة من واشنطن. تضمّن الصاروخ الإسرائيلي معدات ملاحية تعمل بالقصور الذاتي ونظام توجيه مُنعت تل أبيب من توفيره للبلدان الأخرى.

أدّى انتصار بيغن في الانتخابات إلى تجميد الشاه لمشروع الزهرة، ولكن تم عكس القرار في العام 1978 بعد أن تلقّت إيران تطمينات من وايزمان بأن إسرائيل جادّة في التوصل إلى سلام مع العرب. قدّمت إيران دفعة أولى مقدارها 280 مليون دولار على شكل نفط من جزيرة خرج في الخليج العربي، وبدأت إسرائيل ببناء منشأة لتجميع الصواريخ بالقرب من سيرجان، الواقعة إلى الجنوب من وسط إيران، ومنشأة لاختبار مدى الصاروخ بالقرب من رفسنجان، حيث يمكن إطلاق الصاروخ في اتجاه الشمال مسافة 300 كلم في الصحراء، وفي اتجاه الجنوب نحو خليج عُمان[41]. شاهد توفانيان تجربة لإطلاق الصاروخ أثناء زيارة قام بها لإسرائيل. وقال في مقابلة مع نيويورك تايمز: "كان صاروخاً جميلاً، جميلاً مكتمل البناء"[42]. وفّر المشروع للإيرانيين تكنولوجيا صاروخية محلّية يمكن أن تحمي إيران من كل من صدام حسين وموسكو، وتقلل من اعتمادها على الإمدادات العسكرية الخارجية[43]. قال توفانيان لوايزمان: "الأمر المهم فعلاً هو جارتنا روسيا. فهدفها لم يتغيّر أبداً، وهو الوصول إلى كل هذه المياه. إننا مجبرون على تطوير أحد أشكال القوة الردعية"[44]. بالنسبة إلى الإسرائيليين، أنعشت هذه المشاريع التحالف مع طهران في وقت كانت تتعرض فيه لضغوط متزايدة من العرب ومن تطلعات الشاه إلى القيادة، في حين وفّرت إسرائيل إمدادات مضمونة من النفط فضلاً عن التمويل اللازم لبحوثها الصاروخية المتطورة. ومع أن إسرائيل لم تكن تشعر بالارتياح بسبب اعتمادها على النفط الإيراني – قدّرت وزارة الخارجية الأميركية بأن ثلاثة أرباع مستوردات إسرائيل من النفط في العام 1970 مصدرها إيران – وبالرغم من أن إسرائيل بذلت مساعي للعثور على مورّدين جدد وإلى تخزين النفط في منشآت تخزين بصحراء النقب، مكّنت مشتريات النفط إسرائيلَ من فتح سوق للبضائع والتكنولوجيا الإسرائيلية بإيران[45]. وكان ذلك سيظهر للدول العربية – كما أملت إسرائيل – بأن التعاون مع إسرائيل والقبول بها سيولّدان منافع عظيمة.

إحدى النواحي الحساسة في مشروع الزهرة هي أنه يمكن تزويد الصواريخ برؤوس حربية نووية، بالرغم من أن ذلك الاحتمال لم يكن موضوع بحث في تلك الفترة. لم تُناقش هذه المسألة علناً، ولكنّ الإيرانيين فسّروا التلميحات الإسرائيلية على أن هذه إمكانية يمكن استكشاف آفاقها في وقت لاحق. ويشرح توفانيان، في إشارة إلى الوثائق الإسرائيلية السرّية التي تصف المحادثات التي جرت بين توفانيان ووايزمان، الأمر فيقول: "عندما تقرأ تلك الصفحات، لن يساورك شكّ في ذلك". مع أن إيران لم تكن تسعى إلى امتلاك أسلحة نووية في ذلك الوقت، يشير الجنرال الذي كان موضع ثقة الشاه إلى أن ذلك "لم يكن يعني بأن إيران لن تهتم بهذا الأمر في عقد قادم". وفي مرحلة لاحقة، ناقش الإسرائيليون والإيرانيون إمكانيات تعزيز القدرات الصاروخية بحيث يمكن إطلاقها من الغواصات. وأكثر ما يثير الدهشة في مشروع الزهرة هو أن كِلا البلدين بذل كل ما في وسعه لإخفاء الأمر عن الأميركيين. كانت واشنطن على دراية تامة بأن تل أبيب وطهران عقدتا العديد من اللقاءات السرّية، لكن لم يكن واضحاً لدى الأميركيين المدى الكامل لهذه الاجتماعات ولا جوهرها. يقول مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى هارولد سوندرز: "بنت إسرائيل للإيرانيين أشياء كثيرة لم نكن على علم بها. لكن ما يفاجئني هو أن الإسرائيليين كانوا سيساعدون الإيرانيين على تطوير صاروخ ربما كان جزءاً من برنامجهم النووي". وعبّر غاري سيك، الذي خدم في مجلس الأمن القومي، عن ذهول مماثل. قال بأنه "فوجئ عندما علم بأن بلدين تربطهما بالولايات المتحدة علاقات تحالف وثيقة كانا يجريان عمليات عسكرية مشتركة بدون أن يحدثونا عنها"[46].

وضعت ثورة العام 1979 حداً لمشاركة إيران في مشروع الزهرة. وفي وقت لاحق، في التسعينيات، اتصلت قيادة إيران الإسلامية بتوفانيان

بواشنطن العاصمة، وحاولت إقناعه بمشاركتها تفاصيل المشروع، بالإضافة إلى مساعدة إيران على استعادة المال الذي نقلته إلى إسرائيل في العام 1978، لكنّ توفانيان رفض التعاون[47]. كان التعاون العسكري بين إسرائيل وإيران شهادة على رسوخ تقييمات الأخطار المشتركة لدى إيران وإسرائيل. في حين أن البيئة الجيوسياسية لإيران وإسرائيل شهدت تغييرات، غير أن أساس اتفاقهما التفاهمي – الخطر المزدوج لكل من التوغل السوفياتي والقوة العربية – أظهر قدرة مدهشة على الاستمرار، بالرغم من سعي الشاه إلى التفوق الإقليمي. بالنسبة إلى إيران، كان الاتصال الإسرائيلي الإيراني أداة ردعية للأنظمة العربية، لأنه يمكن لإسرائيل أن تستغل هجوماً يشنّه العرب على إيران لضرب الخاصرة الغربية للعراق[48]. بالرغم من أن محادثات السلام مع إسرائيل أزالت بعض الهواجس الإسرائيلية من نوايا القاهرة، بقيت تل أبيب تستشعر خطر جارتها الشرقية. وشدد وايزمان على الهواجس الإسرائيلية حيال جيوش مصر وسوريا والعراق مجتمعة في مناقشاته مع توفانيان فقال: "آخر شيء نرغب فيه وآخر شيء نحتاج إليه هو الحرب. يتعين عليك تذكر أن مصر والأردن وسوريا دول تحيط بنا، وهي تملك حالياً أكثر من 5000 دبابة وأكثر من 1300 طائرة مقاتلة. ويمكن أن يتدخل العراق في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة بقوة كبيرة... أنا لا أريد مناقشة الوضع الاستراتيجي لكن ما عليك سوى أن تنظر في الخريطة لرؤية ماذا سيحصل لبلد صغير مثل بلدنا إذا عدنا إلى الحدود القديمة بدون أمن حقيقي"[49].

أعاد الموساد طرح قضية مساعدة الأكراد العراقيين، مستشعراً الحذر الإيراني من التسلّح العراقي، مع السافاك. فاعتراف إيران بأن إنهاء التعاون مع الأكراد سمح للعراق بالبروز بقوة أعطى إسرائيل الأمل بأن طهران ربما تفكر في إعادة فتح الممر الكردي. درست طهران العرض ولكنها لم تقدّم جواباً محدداً؛ وفقاً لما قاله الإسرائيليون. لكن مسؤولاً حكومياً إيرانياً رفيعاً أصرّ على القول بأن وثائق السافاك السرّية تظهر استئناف التعاون بين إسرائيل وإيران وأكراد البرزاني في العام 1978، وإن يكن على نطاق أضيق بكثير، حيث لم يزد عدد عملاء السافاك المشاركين في العمليات والذين هم على دراية بها عن أربعة[50].

بالرغم من ذلك، خدم رفض إيران النسبي، ومقاربة إدارة كارتر الأكثر اعتدالاً في التعاطي مع الإتحاد السوفياتي، وتنامي قوة العراق في دفع إيران مجدداً نحو أحضان إسرائيل. صحيح أن إسرائيل لم تقم بأية أعمال محددة لتضخيم التصور الإسرائيلي والإيراني للأخطار أو التقليل من جهودها الهادفة إلى الإضرار بالعلاقات الإيرانية العربية، على غرار استفادة الشاه من التوترات الإسرائيلية العربية المستمرّة، استفادت الدولة اليهودية من إحساس الشاه المستمرّ والمتزايد بالخطر القادم من بغداد ومن موسكو. من وجهة نظر إسرائيل، وأصحاب النزعة المعدّلة الاجتهادية الجديدة داخل أوساط الليكود، بقيت إيران حجر الزاوية في مبدأ دول المحيط الذي تؤمن به إسرائيل. بالنسبة إلى إسرائيل، كان منطق التحالف الإسرائيلي الإيراني قابلاً للبقاء؛ إذا لم يكن دائماً. واستناداً إلى إليعازر تسافرير، رئيس الموساد في ما يتعلق بكل من إيران والعراق في الستينيات والسبعينيات، بصرف النظر عن اسم إيران – بارز، علام، ميديا – وبصرف النظر عن اسم العراق – بابل، آشور، سومر – كان يوجد دائماً تنافس وحرب أحياناً (بين الاثنين)... والإيرانيون يعرفون ذلك – وهذا هو السبب الذي يدعوني إلى التفاؤل بمستقبل العلاقات الإسرائيلية الإيرانية. عرف قورُش الكبير أن هناك مصلحة مشتركة بين طرفي الشرق الأوسط؛ إيران وإسرائيل. ولهذا السبب، سمح قورش لعزرا ونيهيميا بالعودة وإعادة بناء الهيكل. من الواضح أنه كانت لديه مصلحة في ذلك لكي يهيمن على بابل العراق. إيران بلد مسلم ولكنه ليس عربياً، ومن أجل المحافظة على التوازن، تحتاج إيران إلى شعب غير عربي يتقاسم معها مصلحة مشتركة[51].

في غمرة الجهود التي بذلها الشاه لاستعادة المبادرة في قلب الموازين في المنطقة، أجبرت الاضطراباتُ الداخلية العاهلَ الإيراني على تركيز انتباهه على مواطن ضعفه المحلّية. كانت القلاقل في تصاعد مستمرّ. وبعد سبعة شهور من زيارة بيغن لإيران، سعى رئيس الوزراء الإسرائيلي إلى إقناع كارتر والسادات في مباحثات كامب ديفيد بأن الشاه قد انتهى[52].

الفصل 8عودة آية الله

الله أكبر، خميني راهبار (قائد.(

– الملحق العسكري إسحاق سيغيف ورئيس الموساد إليعازر تسافرير في تحية لعودة آية الله الخميني إلى إيران في ساحة شاهياد/ميداني زادي، 11 فبراير/شباط 1979

في 11 فبراير/شباط 1979، حلّ محل الشاه نظام إسلامي. كانت الثورة حدثاً بالغ الخطورة ليس بالنسبة إلى إيران وحسب، بل وأطلقت موجات طالت مختلف أرجاء العالم الإسلامي. فمن خلال ثورة شعبية، تم استبدال ديكتاتورية موالية للأميركيين في الشرق الأوسط الغني بالنفط بأول نظام ديني في العالم المعاصر. بعد هذه الثورة، لن يعود الشرق الأوسط كما كان أبداً. فسقوط الشاه المفاجئ أخذ الغرب على حين غرّة، بالرغم من أنه بالكاد كانت تتم التعمية على مشاعر السخط المتنامية في إيران. وشعر الإسرائيليون بخوف مماثل وكأنهم لم يُفاجأوا كما تفاجأ الغرب. فبالاستعانة بالجالية الإيرانية اليهودية النشطة، أصبحت شبكة الاستخبارات الإسرائيلية غير الرسمية أقوى بكثير من شبكة الولايات المتحدة[1]. وكان المسؤولون الإيرانيون قد اكتشفوا بطريقة غير مباشرة حقيقة ضعف الشاه عبر اللجوء إلى نظرائهم الإسرائيليين طلباً للمساعدة والمشورة. وغالباً ما كان السافاك يلجأ إلى الموساد طلباً للمساعدة في استجواب عدد متزايد من ناشطي المعارضة[2].

بدا سلوك المسؤولين الإيرانيين في بعض الأحيان هزلياً. فعلى سبيل المثال، حثّ قائد سلاح الجو الإيراني، الجنرال أمير حسين راباي الملحق العسكري الإسرائيلي إسحاق سيغيف في العام 1978 على الطلب من وزير الخارجية الإسرائيلي موشي دايان "إخبار الشاه بما يجري حقيقة في إيران... فالشاه يجلس على كرسي عالٍ جداً، والجميع يقولون أجل، أجل، أجل. لا يمكنك الانتقاد، ولا يمكنك أن تقول له كل هذه الأشياء". شعر الملحق العسكري الإسرائيلي بأنه مجبر على الطلب من دايان المجيء إلى إيران. استنتج دايان بسرعة أن الشاه لم يعد قادراً على إصدار القرارات. وعندما لا يتخذ الشاه قرارات، تصاب الحكومة بالشلل من الناحية الفعلية. جادل سيغيف بأن تدبير انقلاب عسكري هو الطريقة الوحيدة لإنقاذ نظام البهلوي، لكن الجنرالات الإيرانيين تملّكهم خوف شديد من تحدّي سلطة الشاه أو حتى شرح مدى تردّي الأوضاع له. كان تنظيم لقاء يجمع الجنرالات بدون إذن من الشاه يوازي تنظيم حركة انقلاب في ذهن الشاه المصاب بالخُيَلاء المرضي. ولم يتمكن الجنرالات من استجماع شجاعتهم للقيام بعمل إلاّ بعد فرار الشاه من إيران في 16 يناير/كانون الثاني 1979، ولكن في تلك المرحلة، أعطت إدارة كارتر إشارات إلى أنها تودّ رؤية إصلاحات ديموقراطية بإيران. قضى قرار واشنطن على آخر بارقة أمل لدى الجنرالات الذين لم يرَ العديد منهم حلاً سوى الفرار من البلاد[3].

فرّ الشاه، وسلّم شهبور بختيار مقاليد السلطة، وهو معارض بارز لحكم الشاه ولم يكن موضع ثقة الشاه، ولا الإسلاميين، ولا اليساريين. عرض الموساد دعمه على بختيار الذي ألمح إلى أنه سيكون مفيداً قيام إسرائيل "بإسكات الخميني"، وهو آية الله الإيراني المتشدد الذي تزعّم المعارضة في وجه الشاه من مقره خارج باريس. وعرض بختيار نصح الشاه بالتقدم بالطلب مباشرة إلى تل أبيب، ولكن إسرائيل رفضت طلب بختيار، مذكّرة رئيس الوزراء الإيراني الجديد بأن إسرائيل ليست شرطي العالم[4]. (انقلبت الأدوار بعد عقد من ذلك. فاستناداً إلى تقارير صحفية، دخل عملاء إيرانيون منزل بختيار بباريس – حيث كان لاجئاً – وقتلوه بوحشية). عندما تولّى بختيار منصب رئاسة الوزراء، كانت الرحلات التي تسيّرها شركة العال الإسرائيلية أداة الاتصال الوحيدة بين إيران والعالم الخارجي، لأن كافة شركات الطيران ألغت رحلاتها المتجهة إلى إيران بسبب انعدام الاستقرار وأعمال العنف التي تشهدها البلاد. فقد أراد دايان إبقاء الموظفين الإسرائيليين بإيران أطول فترة ممكنة، على أمل أن يرغم حضورهم الحكومةَ الثورية على الإبقاء على روابط إيران بإسرائيل[5]. لكن بغرض تهدئة الرأي العام والمعارضة الدينية، أولى الأوامر التي أصدرها بختيار كانت قطع الروابط مع نظام التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، ووقف صادرات النفط إلى إسرائيل[6]. أثبتت إيماءات إسرائيل لبختيار بأنها كانت عديمة الجدوى، لأن مدة ولايته كانت قصيرة. ففي 1 فبراير/شباط، عاد آية الله الخميني إلى إيران بعد خمسة عشر عاماً قضاها في المنفى حيث استقبله الملايين بالترحاب هناك. وسرعان ما أعلن الحرب على حكومة بختيار. وبعد مرور عشرة أيام، استقال بختيار[7]. عقب وصول آية الله، جرى نقله بالطائرة إلى ميدان شاهياد جنوب غرب طهران (والذي أُطلق عليه بعد ذلك ميداني أزادي، أو ميدان الحرّية، بعد الثورة)، حيث تجمّع الملايين من مناصريه لاستقباله. وهناك، وقف الملحق العسكري الإسرائيلي إسحاق سيغيف ورئيس الموساد الإسرائيلي إليعازر تسافرير، إلى جانب الثوريين الدينيين، يراقبان مجريات الأمور فيما كانا يحاولان الاندماج مع الجمهور. مرّ أحد المشايخ بالقرب من الإسرائيليَّين وسألهما بالفارسية عن سبب عدم حملهما صوراً فوتوغرافية لآية الله ذي الوجه الغاضب. قدّما اعتذارهما – بعبارات فارسية متقنة – وتسلّم كل منهما صورة كبيرة لأب الثورة. ثم انضمّا إلى الحشود وهما يصرخان "الله أكبر، خميني راهبار (أي قائد)." ومع اقتراب الطوافة التي كانت تقلّ الخميني، لمح سيغيف شخصية مألوفة تجلس بجانب الخميني. "كان يوجد في الطوافة الجنرال راباي"، ذراع الشاه اليمنى الذي تآمر قبل شهور قليلة على قتل الخميني[8]. وبعد بضعة أسابيع، أُعدم راباي على يد الثوريين. كانت تلك أياماً خطرة على الإسرائيليين في طهران. بدأت الدولة اليهودية بإجلاء أغلب رعاياها، لكن جرى الإبقاء عمداً على القليل منهم في طهران بناء على تعليمات دايان. وفي 10 فبراير/شباط، أي قبل يوم من استقالة بختيار، وصلت آخر رحلة لشركة العال إلى طهران لإجلاء آخر الإسرائيليين. غير أن حظراً مبكراً على التجوّل أجبر الطائرة على الإقلاع في عجل، بدون أن تنقل معها أي ركاب، وبقي العديد من الإسرائيليين في المطار حتى صباح اليوم التالي. وفي اليوم التالي، هاجم جمع من الناس البعثة الإسرائيلية. اتصل سيغيف بالجنرال توفانيان هو في وضع يائس وطلب من الجيش الإيراني التدخل. لكن طلب سيغيف رُفض. ردّ توفانيان: "أنا آسف يا جنرال، لكنني لست قادراً على مساعدتك"[9]. ومع اقتحام الجمع للبوابات،

فرّ سيغيف وثلاثة موظفين آخرين عبر مخرج جانبي. ثم نُهب مقرّ البعثة وأُضرمت فيه النيران.

بعد أن فقد الموساد الاتصال بأفراد البعثة، أقام منازل آمنة في طهران لحماية العدد القليل المتبقي من الإسرائيليين. في تلك المرحلة، نصّب آية الله الخميني حكومة جديدة. كان الموساد قد أجرى اتصالات مع عناصر من المعارضة قبل سقوط الشاه، وكان لديهم أمل ضعيف في إقامة علاقات ودّية مع الحكومة الثورية[10]. وبالرغم من ذلك، تم بذل جهد أخير لاستيضاح ما إذا كان في مقدورهم البقاء أو ما إذا كان يتوجب عليهم الرحيل، علماً بأنهم على دراية تامة بأن إرسال موظفين إسرائيليين إلى إيران مجدداً سيكون أصعب بكثير من محاولة الإبقاء على الموظفين الحاليين وتقديمهم للحكومة الإيرانية الجديدة في طهران كأمر واقع. وبناء على ذلك، اتصل تسافرير، الذي ترأس جهود الإجلاء التي كان يقوم بها الموساد، بنائب رئيس وزراء آية الله الخميني، أمير عباس انتظام، وطلب منه الإذن بالبقاء. وبعد التشاور مع رئيس الوزراء مهدي بازرغان ومع مساعد وزير الخارجية كريم سنجابي، جاء الجواب سلبياً، وألحّ بدلاً من ذلك على الإسرائيليين بالرحيل. وبعد بضعة أيام، في 18 فبراير/شباط، قطع بازرغان كافة العلاقات مع إسرائيل، بما في ذلك مبيعات النفط والرحلات الجوية. وبذلك وصلت حقبة العلاقات الإسرائيلية الإيرانية إلى نهاية مفاجئة وغير منتظرة[11].

المسألة الفلسطينية في منظور الثوريين

عرّف النظام الجديد نفسه بعبارات مناوئة لنظام البهلوي: كل شيء يرتبط بسلالة البهلوي خطأ بكل بساطة، بما في ذلك الروابط مع إسرائيل. ومع أن السخط من علاقات الشاه السرّية بتل أبيب لم يكن القوة الدافعة للثورة، فقد أيدت كافة الفصائل الثورية الرئيسية المشاعر المعادية لإسرائيل لأن تل أبيب على علاقة وثيقة بالولايات المتحدة. وهم رأوا في الدولة اليهودية مركزاً أمامياً للإمبريالية الأميركية في الشرق الأوسط، وشبّهوا معاملة إسرائيل للفلسطينيين بمعاملة نظام الفصل العنصري للسود بدولة جنوب أفريقيا[12]. ومن ناحية أخرى، رأت القوى الدينية الإيرانية في إسرائيل دولة غير شرعية ومغتصباً لأرض إسلامية[13]. ورأى الثوريون المتدينون بأن إسرائيل "بحكم طبيعتها عدوة للإسلام وللقرآن" وأن الواجب الديني يفرض على كل مسلم محاربتها[14]. واعتقد الأصوليون أن إنشاء الدولة اليهودية لم يكن أكثر من إهانة للإسلام، ومشكلات العالم الإسلامي متجذّرة في العلمانية والابتعاد عن الإسلام الحقيقي. وبما أن الثورة أوجدت دولة إسلامية صغيرة وحسب، فمن واجب إيران النضال من أجل الإسلام والعدالة الإسلامية في كل مكان[15]. كان منهاج التفكير هذا جديداً من أوجه عدّة على الدوائر الدينية بإيران. ففي حين أيد العديد من رجال الدين القضية الفلسطينية من منظور معاداة الإمبريالية، كان آية الله الخميني الذي أعطى الصراع بُعداً دينياً[16].

وُلد الإمام سيد روح الله الخميني الموسوي من أسرة متدينة لها تاريخ ديني عريق في مدينة خومين في وسط إيران في 17 مايو/أيار 1900. بدأ دراساته الشرعية في مرحلة مبكرة من حياته وقُبل في الكلّية الشرعية في أراك ثم في قم التي تُشتهر بتألقها التعليمي في ظل إدارة آية الله الشيخ عبد الكريم هاريزادي. وفي العام 1963، انتقد آية الله الخميني حكومة الشاه علناً، وأُودع السجن مدّة ثمانية شهور، وبعدها تم ترحيله إلى المنفى، بتركيا أولاً ثم بالعراق حيث واصل إلقاء خطبه الدينية المعادية للشاه. في العام 1978، لم يعد صدام حسين يطيق آية الله المتّقد فقام بطرده، ويعود ذلك جزئياً إلى تعرّضه لضغط إيراني[17]. عاش آية الله الخميني بعد ذلك بفرنسا إلى حين عودته المظفَّرة إلى إيران في العام 1979. وخلال فترة إقامته بفرنسا، أصبح آية الله الخميني أحد أكثر معارضي أسرة البهلوي تأثيراً. على العكس من النقّاد الإيرانيين الآخرين، لم يشغل آية الله الخميني نفسه كثيراً بمحنة الشعب الفلسطيني. وبدلاً من ذلك، صاغ انتقاداته للدولة اليهودية بلغة دينية ووضع إسرائيل في خانة العدو للإسلام[18]. فإسرائيل سرطان سيدمّر الإسلام والمسلمين ما لم تتم إزالته من المنطقة؛ إنها دولة لا ترغب في وجود القرآن[19]. جاء إهمال آية الله الخميني للبُعد الفلسطيني للصراع الفلسطيني الإسرائيلي متلائماً مع نظرته الكونية. فقد رفع مصلحة المجتمع المسلم (الأمة) وقلل من فكرة المصالح القومية العلمانية والوطنية (ميليغاراي)، وجادل بأن النظام الدولي "نتاج العقل البشري الضعيف"، وأنه يتعين استبداله بنظام عالمي إسلامي مقدّس. كتب آية الله الخميني في أواخر سبعينيات القرن الماضي، "الإسلام ليس حكراً على بلد، أو على عدة بلدان، أو على مجموعة، أو حتى على المسلمين. جاء الإسلام من أجل الإنسانية... والإسلام يرغب في إدخال الإنسانية كافة أسفل مظلة عدالته"[20].

أضافت النظرة العالمية بُعداً إيديولوجياً إلى السياسة الخارجية الإيرانية، وهو ما تلقّى مزيداً من الدعم نتيجة لفشل التكتل الديني في النظر إلى إيران كدولة. بدلاً من ذلك، عرّف رجال الدين في البداية حلفاءهم وأعداءهم بناء على النظرة الخاصة لكل منهم للإسلام[21]. بالإضافة إلى ذلك، دخل الثوريون بإيران الساحة السياسية وهم يكنّون كثيراً من الاحتقار للولايات المتحدة بسبب دعم واشنطن للشاه. وغالباً ما لم يكن يجري التمييز بين واشنطن وتل أبيب؛ في حين كانت الولايات المتحدة الشيطان الأكبر، كانت إسرائيل أميركا الصغيرة. ونتيجة لذلك، أضحت معارضة إسرائيل خاصية مميزة لإيران الإسلامية، حيث بات يُنظر إلى الدولة اليهودية وللصهيونية على أنهما عدوتان للإسلام وخطران إيديولوجيان على الهوية الإسلامية لإيران[22].

ضيف لم يتلقَّ دعوة

لدى الفلسطينيين تاريخ طويل من الدعم النشط للمعارضة الإيرانية لنظام البهلوي. والعديد من الثوريين الإيرانيين تلقّوا تدريبات في المعسكرات

التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية، وتوقّع الفلسطينيون أن تُحدث الثورة تغييراً كبيراً في نظرة إيران إلى الصراع الفلسطيني الإسرائيلي. بدون إبلاغ الحكومة الإيرانية مسبقاً، سافر رئيس منظمة التحرير ياسر عرفات إلى إيران في 18 فبراير/شباط 1979 مصطحباً معه ثمانية وخمسين مسؤولاً آخر في المنظمة[23]. وبالرغم من أن الثوريين أُخذوا على حين غرّة، رحّب العديد من المسؤولين الإيرانيين بعرفات في أرض المطار ووفروا للفلسطينيين مساكن راقية في النادي الحكومي السابق الكائن في شارع فريشتيه شماليّ طهران[24]. في احتفال رسمي أقيم في الأسبوع نفسه، وحضره كل من رئيس الوزراء بازرغان ووزير الخارجية سنجابي، سُلّمت مجمعات البعثة الإسرائيلية لدى إيران إلى منظمة التحرير، وأطلق على الشارع الذي توجد فيه المجمعات اسم شارع فلسطين. بالإضافة إلى ذلك، تنقّل عرفات في مختلف أرجاء إيران وأقام مكاتب للمنظمة في المدن الإيرانية المختلفة، بما في ذلك مدينة أهواز في إقليم خوزستان الذي يقع في جنوب غرب إيران والذي يضم عدداً كبيراً من السكان الذين يتكلمون اللغة العربية[25].

بقي العديد من حاشية عرفات في النهاية لأكثر من عام يعملون في مكاتب المنظمة بإيران. كما التقى عرفات في رحلته هذه بآية الله طالقاني، نصيره الإيراني القديم والذي سبق نشاطُه في القضية الفلسطينية نشاطَ الخميني[26]. لكن حالما وصل عرفات إلى طهران، بدأت التوترات بين منظمة التحرير الفلسطينية والثوريين بالظهور. ففي اليوم الأول للزيارة، عقد عرفات اجتماعاً دام ساعتين مع الخميني. وكم كانت دهشة عرفات عندما انتقد آية الله الخميني المنظمة وتحدث إلى الزعيم الفلسطيني عن ضرورة العودة إلى الجذور الإسلامية للقضية الفلسطينية والابتعاد عن الميول اليسارية والوطنية التي يتبنّاها عرفات. واستناداً إلى أحد المحلّلين الإيرانيين، "لم ينسجم أحدهما مع الآخر"[27]. وأبلغ إبراهيم يازدي، وزير خارجية إيران في الحكومة الثورية الأولى، موظفي السفارة الأميركية بأن آية الله الخميني طالب منظمة التحرير بتبنّي توجّه إسلامي واستنساخ منهجية ثورة إيران التي لا تؤمن بالعنف. وجادل الإيرانيون بأن التوجه الإسلامي سيزيد من احتمالات تحقيق نصر فلسطيني ويمنع الماركسيين والعناصر الراديكالية الفلسطينية من تولّي زمام الأمور[28]. لكن في الحقيقة، احتاج الإيرانيون إلى إعادة تعريف القضية الفلسطينية لكي تكون إيران قادرة على لعب دور قيادي فيها. ولو أنها عُرّفت كقضية عربية، لما كان في مستطاع إيران لعب أي دور ذي شأن، ولما كانت الثورتان ستلتقيان مجدداً.

أوجد الثوريون الإيرانيون في أذهانهم صورة عن الفلسطينيين وعن صراعهم لم تكن تتطابق مع الواقع بكل بساطة. فقد اشتكى مسؤول إيراني استضاف الفلسطينيين بالقول: "لم يكن أي من الفلسطينيين متديناً. وكان معظمهم يشرب الكحول، وأرادوا مشاهدة الأفلام". وقد أدّت هذه الاختلافات الإيديولوجية بين الثوريين الإيرانيين ومندوبي منظمة التحرير إلى نشوء غمامة سوداء خيمت على العلاقات، وظلّت الفجوة بينهما تتّسع باستمرار. وتساءل الإيرانيون، "هل هؤلاء فلسطينيون حقاً؟ هل هؤلاء هم الفلسطينيون الذين كنا نطمح إلى بلوغ مستواهم؟"[29] وبدورهم، بدأ الفلسطينيون يفهمون – عقب اجتماع عرفات بالخميني – أن إيران الإسلامية لن تقدم للفلسطينيين سوى دعم كلامي وخطابي. والاستثمارات الفلسطينية الكبيرة في المعارضة الإيرانية للشاه لم تعد بعوائد مجزية ببساطة[30]. فعلى سبيل المثال، قرر آية الله الخميني عدم إرسال طائرات أف–14 الإيرانية لمساعدة سلاح الجو السوري في القتال المستمر في لبنان، بالرغم من خطابه المعادي لإسرائيل، في إشارة أخرى إلى أن إيران لا تنوي لعب دور نشط في جانب العرب ضدّ إسرائيل بما يتجاوز الإدانات اللفظية للدولة اليهودية[31]. بالرغم من أن عرفات حصل على دعم آية الله طالقاني، كان يجري على نحو متزايد تهميش هذا الشيخ العليل في الحياة السياسية، فيما كان معارضو منظمة التحرير يحققون مكاسب على الأرض. ودعم بعضُ الثوريين، مثل مصطفى شمران وزير الدفاع الإيراني الذي تلقّى تعليمه في الولايات المتحدة، حركة أمل الشيعية بلبنان، والتي كانت على تنافر مع منظمة التحرير. وقطع آخرون – مثل قائد فيلق الحرس الثوري الإيراني – روابطهم مع جورج حبش أمين عام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والمنافس لعرفات[32].

طرأ مزيد من التدهور على العلاقات بين إيران ومنظمة التحرير مع تدهور علاقات إيران مع جيرانها العرب. كما ألقى آية الله الخميني موعظة على عرفات حذّره فيها من شرور العلمانية، واتهم الدول العربية الأخرى بالتخلّي عن الإسلام. سرعان ما توترت العلاقات بين طهران ودول مجلس التعاون الخليجي. بدأت حكومة آية الله الخميني تنتقد منظمة التحرير والجبهة الشعبية علناً متهمة إياهما بتغذية التوترات بين العرب والفرس في الأهواز، وتساءل العديد من رجال الدين البارزين، من منظور أمني، عن مدى صوابية وجود مكتب لمنظمة التحرير في الأهواز، آخذين بعين الاعتبار العدد الكبير من سكانها الناطقين باللغة العربية[33]. ولم يكد يمضي شهور على افتتاح مكاتب الأهواز حتى أُغلقت، وتم وضع سفارة منظمة التحرير بطهران تحت حراسة أمنية مشددة. ومن أجل الموازنة بين هذا العمل الذي اتُّخذ في حق الفلسطينيين والتقرب من الجماهير العربية والإسلامية المجاورة، لجأ آية الله الخميني إلى موارده الخطابية للتغطية على سياسات إيران الحقيقية، فأعلن آية الله في 17 أغسطس/آب يوم القدس وحثّ المسلمين في العالم أجمع على التظاهر في ذلك اليوم دعماً للفلسطينيين[34]. لكنّ الحقيقة هي أن الاحتفالات بيوم القدس أظهرت فقط عدم استعداد إيران لتقديم دعم ملموس للفلسطينيين.

لم تبقَ علاقات آية الله الخميني المتوترة بمنظمة التحرير سرّاً مدة طويلة. فقد جاء في مذكّرة سرّية أرسلتها السفارة الأميركية بطهران إلى واشنطن في سبتمبر/أيلول 1979 أن "إيران تدعم بحماسة وبدون تحفّظ القضية الفلسطينية"، ولكن "هناك القليل مما يقال عن منظمة التحرير الفلسطينية نفسها"، وأن الإيرانيين لن يسمحوا لأي تدخل من جانب منظمة التحرير في الشؤون المحلّية الإيرانية، وبخاصة في خوزستان[35]. لكن كما إسرائيل، أدركت منظمة التحرير أن إيران أكثر أهمية من أن يتم الاستغناء عنها. وحتى تاريخ اندلاع الحرب العراقية الإيرانية، واصلت منظمة التحرير الاستثمار في الفصائل الإيرانية المتنوعة لكي تتفوق على مناورات آية الله الخميني وموقفه الفاتر من فكرة المشاركة الإيرانية النشطة وغير

البلاغية في القضية الفلسطينية[36].

مع تعزيز عرفات لعلاقاته بالمجاهدين، زاد تدهور علاقاته بالخميني، وبحلول نوفمبر/تشرين الثاني 1980، انتهى شهر العسل الإيراني الفلسطيني، مع رفض آية الله الخميني الاعتراف بجهود وساطة فلسطينية للفوز بتحرير الدبلوماسيين الأميركيين الذين احتجزهم طلاب إيرانيون في السفارة الأميركية[37].

الفصل 9تحوّلات إيديولوجية، استمراريات جيوسياسية

تخيّل لو كان في مقدورك إسقاط صدام وإقامة جمهورية إسلامية هناك... سيؤدي ذلك إلى تغيير موازين كل شيء، وسيكون في مقدورك الهيمنة على المنطقة، سيكون في مقدورك الهيمنة على الشرق الأوسط بأكمله.

– استراتيجي سياسي إيراني يتحدث عن طموحات إيران في بداية الثورة

مع اندلاع الثورة في العام 1979، كانت قوة إيران في المنطقة في تراجع بالمقارنة مع قوى جيرانها؛ وعلى الخصوص العراق. وبات وضع إيران بوصفها القوة التي لا تُضاهى في المنطقة يعتمد على أرضية مهزوزة في العام 1978. فالفوضى التي عمّت أرجاء البلاد مع اندلاع الثورة لم تخدم سوى في زيادة الأمور سوءاً. وتراجع الإنفاق العسكري الإيراني من 16.6 مليار دولار في العام 1978 إلى 7.7 مليار دولار في العام 1979، والعشرات من الضباط الإيرانيين إما أنهم فرّوا من البلاد أو قُتلوا على يد الثوريين، مما شتت الكثير من الخبرات العسكرية التي تملكها البلاد. وما بين عامي 1979 و1980، خسرت القوات المسلحة الإيرانية أكثر من مائة ألف رجل. وفي نفس الوقت، تضخم حجم الجيش العراقي وفاق عدد جنوده عددَ جنود الجيش الإيراني لأول مرة في تاريخه. وبحلول العام 1980، فاق الإنفاقُ العسكري للعراق إنفاقَ إيران لأول مرّة في تاريخه أيضاً.

بشكل يوحي بالتناقض، لم يعمل تراجع قوة إيران إلاّ على زيادة طموحات الثوريين. وبالرغم من أن صنّاع السياسة الأميركيين تكهنوا بأن آية الله الخميني سينتهج سياسة خارجية قومية متطرّفة، فقد اعتقدوا أيضاً بأنه سيرفض الطموحات السياسية للشاه[1]. لكن الإيديولوجية الإسلامية التي تؤمن بها إيران، بالرغم من استيائها من النظام الدولي وفكرة الدولة القومية، لم تكن أقل طموحاً من نظرة السياسة الواقعية التي اعتنقها الشاه والتي تتمحور حول فكرة القيادة الإقليمية الإيرانية. وفي حين سعى الشاه إلى الحصول على الموافقة على سعيه للقيادة وضمان مشروعيتها عبر المساعدات المالية والحماية العسكرية للدول العربية المجاورة، سعى الثوريون إلى الهدف نفسه لكن من خلال الإسلام السياسي. لكن في حين اعتقد الشاه بأنه يستطيع تحقيق طموحاته ضمن إطار النظام القائم، شعر الثوريون بأنهم بحاجة إلى إعادة تعريف إطار التعامل بين الدول ومبادئه التأسيسية من أجل عكس تدهور إيران واستئناف محاولاتها لتبوّءِ القيادة.

بالرغم من الاختلاف الكبير في طرق وتبريرات كل من البهلوي والخميني، كانت أهدافهما الإستراتيجية متشابهة إلى حدّ بعيد – تفوق الثوريون على جنون العظمة لدى البهلوي: فعلاوة على مجرّد لعب دور الأول بين الأقران في المحيط الهندي ومنطقة غرب آسيا، سعت حكومة آية الله الخميني إلى قيادة العالم الإسلامي بأكمله. أي أن كلاً من الشاه (بعد العام 1976) والثوريين رغب في لعب دور سياسي يتجاوز الموارد المتوفرة لإيران[2].

اعتقد الثوريون بأنه لكي تبقى القيادة في حوزة إيران، يتعين تغيير كامل النظام في المنطقة. وكما أن الجماهير الإيرانية أسقطت الشاه المدعوم من الأميركيين وشكلت حكومة إسلامية، جادل الثوريون بأنه ينبغي على الجماهير العربية إسقاط أمرائها المدعومين من الولايات المتحدة وتشكيل حكومات تعمل بموجب أحكام الشريعة. لقد فشلت مساعي الشاه لاكتساب الشرعية للقيادة الإقليمية الإيرانية – بالاستناد إلى الدعم الأميركي، وإقامة الروابط القوية، وتقديم المساعدات العسكرية للحكومات العربية المعتدلة في المنطقة، وتقديم المساعدات المالية لدول عربية مثل سوريا، فضلاً عن إبعاد نفسها في العلن عن إسرائيل – في نهاية المطاف فشلت في إقناع العرب بمنح إيران الدور الذي تتطلّع إليه. فالشكوك العربية الفارسية، بالإضافة إلى الامتعاض من الاتفاق التفاهمي بين الشاه وإسرائيل، حرم إيران من ذلك الدور. لكن بتصدير الثورة ونشر إيديولوجيا الإسلام السياسي، أملت إيران برأب الصدع بين الفرس والعرب وتأسيس نظام قيم إقليمي يعطي إيران دوراً قيادياً. ويشرح سياسي إيراني ينتمي إلى معسكر الإصلاحيين المنطق الإيراني على الشكل التالي: "تخيّل لو كان في مقدورك إسقاط صدام وإقامة جمهورية إسلامية هناك... (الهيمنة الإقليمية) تلخّص الفكرة بأكملها. لديك جمهورية إسلامية في العراق، وجمهورية إسلامية في إيران. وهما الدولتان الأقوى في المنطقة. سيؤدي ذلك إلى تغيير موازين كل شيء، وسيكون في مقدورك الهيمنة على المنطقة، سيكون في مقدورك الهيمنة على الشرق الأوسط بأكمله"[3].

على النقيض من استراتيجية الشاه، التي أسندت وضع إيران في المنطقة إلى تحالف مع واشنطن، لم يكن لدى النظام الجديد هذا الخيار ولا هو آمن بجدوى تلك الاستراتيجية. وبدلاً من ذلك، فضلت القيادة الجديدة مقاربة تعتمد على تكامل إيران وتصالحها مع الدول المجاورة لها بدلاً من التعاون مع الدول البعيدة. في هذا السياق يشرح سفير إيران، جواد ظريف، لدى الأمم المتحدة هذا الأمر فيقول: "تقع إيران في منطقة تُعتبر فيها أقلية، حيث السكان في المنطقة ليسوا قريبين بالضرورة من إيران. لكن في نفس الوقت، هذا هو الجوار القريب لإيران، وإيران بحاجة إلى إقامة علاقة ملائمة بطريقة ما مع الدول المجاورة لها مباشرة، وهو ما سيقلل من القلق السائد في إيران بسبب حقيقة أنها محاطة بدول يغلب عليها السنّة والعدد الكبير من الدول العربية"[4].

جادل الثوريون بأن أفضل طريقة لضمان أمن إيران على المدى البعيد واحتلالها سدّة القيادة هي في مصادقة الدول العربية المجاورة لها بدلاً من إقامة توازن معها وليس من خلال التفوق العسكري الإيراني وبناء تحالفات مع دول تقع خارج المنطقة. كانت أهمية رأب الصدع بين العرب والفرس من خلال الإسلام السياسي جلية منذ بداية الثورة. والتصادم الذي وقع بين آية الله الخميني وعرفات كان سببه الصراع القومي العربي الوحدوي مع إسرائيل الذي يؤمن به الزعيم الفلسطيني على حساب مقاومة تستلهم مبادئها من الإسلام. لقد عكس انتقاد آية الله الخميني لعرفات حاجة إيران إلى بناء نظام قيم يمكنها من خلاله تحقيق طموحاتها القيادية. لكن ذلك لا يعني بالضرورة أن هذا النهج في التفكير جديدٌ في السياسة

الخارجية الإيرانية. فقد توصل الشاه إلى الاستنتاج نفسه في العام 1975 عندما وقّع على اتفاقية الجزائر، حتى أنه فكّر في التلاعب بفكرة الاعتماد على الإسلام للفوز بثقة العرب. لكن بقدر ما كان يعرف مأزق إيران في كونها دولة فارسية في بحر عربي، بقدر ما ابتعد عن المبالغات التي آمن بها الثوريون.

خسارة كبيرة لأميركا، وضربة مدمرة لإسرائيل

أمالت الثورة الإيرانية كفة الميزان في الشرق الأوسط عبر جذب إيران بعيداً عن المعسكر الغربي. بالنسبة إلى أميركا، شكّل الأمر كارثة. ففي غمرة الحرب الباردة، خسرت واشنطن حليفاً هاماً كُلّف بمهمة المحافظة على الاستقرار في منطقة الخليج العربي المتفجرة للغاية وإبقاء السوفيات خارجها. بالرغم من بغض آية الله الخميني للملحدين في الكرملين ورفضه الاقتراب من الاتحاد السوفياتي – كان شعاره يقول: "لا شرق، ولا غرب" – ظلّت المخاوف تساور واشنطن من أن إيران ستقع في أيدي الإمبراطورية الحمراء. لكن في البداية، بقيت كافة الخيارات مفتوحة أمام آية الله الخميني وكارتر. وبالرغم من أن خطاب آية الله الخميني كان يحتقر الولايات المتحدة ويتحدّاها، لم يكن ينوي في البداية قطع العلاقات معها. وعلل الأمر بالقول بأنه طالما أن الولايات المتحدة تحترم استقلال إيران، ففي الإمكان إقامة علاقة جديدة معها.

تظهر وثائق رُفعت السرّية عنها لوكالة الاستخبارات المركزية بأن واشنطن كانت تعلم حق العلم أن آية الله الخميني تعرّف على مصالح مشتركة بين البلدين وأنه فضّل مواصلة بيع النفط للولايات المتحدة[5]. وواشنطن أيضاً كانت شديدة التلهف إلى ضمان أن الثورة لن تؤدي إلى قطيعة كاملة مع إيران، لأن ذلك سيفيد موسكو بالتأكيد. لكنّ الشيخ المتشدد وجد من يفوقه تشدداً عندما اقتحمت مجموعة من الطلاب اليساريين السفارة الأميركية في 4 نوفمبر/تشرين الثاني 1979، واحتجزت كافة الدبلوماسيين والموظفين رهائن. امتنع آية الله الخميني في البداية من تأييد احتجاز الرهائن، ولكنه سرعان ما أقنعته العناصر التي تميل إلى اليسار من مناصريه بدعم الطلاب ومطالبتهم الولايات المتحدة بتسليم الشاه[6]. (كان "ملك الملوك" الإيراني المصاب بالسرطان ينتقل من بلد إلى آخر على أمل أن يمنحه الرئيس كارتر في النهاية حق اللجوء في الولايات المتحدة).

سرعان ما تحوّل ما بدأ كخطة أعدّها هواة لاحتجاز بضعة دبلوماسيين أميركيين لبضعة أيام إلى محنة دولية لم يسبق لها مثيل. وبعد شعوره بالإذلال، قطع كارتر كافة الروابط الدبلوماسية مع طهران، ولم تعد أميركا تنظر إلى إيران كما كانت تفعل في السابق. بل على العكس من ذلك، بدأ الإيرانيون ينظرون إلى واشنطن على أنها خطر؛ ليس بالضرورة خطراً عسكرياً وإنما كخطر سياسي على المدى البعيد نابع من رفض أميركا القبول بالثورة الإيرانية، وبالتالي عزم واشنطن على استغلال كل فرصة لعكس مسار الثورة[7]. ولغاية اليوم، لا تزال إيران تعاني من النتائج الكارثية التي جلبتها على نفسها بسبب احتجاز الرهائن.

لم تكن تشعبات الحرب الباردة عاملاً مهماً في الحسابات الإستراتيجية الإسرائيلية بقدر ما كانت هواجسها الأمنية المباشرة والأخطار التي تواجهها من الدول العربية؛ التي كان ميلها إلى التحالف مع الولايات المتحدة أو إلى معاداتها ذا أهمية ثانوية بالنسبة إلى الدولة اليهودية. وبدلاً من ذلك، كانت إسرائيل تسير وفقاً للمبدأ المحيطي حتى وإن نجحت تل أبيب في كسر طوق العداوة العربية المحيطة بها من خلال إبرام معاهدة سلام مع مصر؛ الدولة العربية الأقوى والأكثر كثافة بالسكان[8]. كان موقع إيران ضمن هذا الإطار الاستراتيجي، وروابطها الاقتصادية والعسكرية، وثروتها النفطية، وعداوتها التقليدية للعراق والاتحاد السوفياتي كل ذلك جعل من الاستغناء عنها أمراً مستحيلاً[9]. وبعد مرور خمسة وعشرين عاماً على الاستثمارات السياسية الإسرائيلية بإيران، أضحت روابطها مع طهران عنصراً حاسماً في الاستراتيجية الإقليمية لإسرائيل.

ما من شك في أن خسارة إيران كانت ستشكل نكسة استراتيجية كبيرة للدولة اليهودية. وهذا الاحتمال جعل من الأهمية بمكان بالنسبة إلى إسرائيل أن تسعى إلى المحافظة على روابطها مع إيران حتى في ظل النظام الجديد. كانت إسرائيل قد عانت من خسارة حليف محيطي قبل بضع سنين فقط عقب انهيار حكومة هيلاسلاسي بأثيوبيا في العام 1974. ولكن إسرائيل نجحت في إعادة بناء تحالفها مع الحكام الشيوعيين الجدد لذلك البلد. كانت إيران أكثر قيمة بالنسبة لإسرائيل من أثيوبيا، ولذلك من الواضح أنها كانت تستحق المحاربة من أجلها[10]. يقول ديفيد كيمشي، الذي تولى منصب مدير عام وزارة الخارجية في ذلك الوقت: "كانت تربطنا علاقات وثيقة بإيران، تدخل في عمق نسيج الشعبين. وكان من الصعب على شعب القبول بحقيقة أن كل هذه الحميمية أُلقيت من النافذة. ولذلك كان هناك الكثير من المحاولات خلال السنة الأولى بعد الثورة لرؤية إن كان في مقدورنا إحياء العلاقات مع إيران"[11]. كما أن إسرائيل كانت مهتمة بمصير الجالية اليهودية القوية التي يبلغ تعدادها مائة ألف. والمأزق هو أن تبنّي سياسة عدوانية تجاه طهران يمكن أن يجعل اليهود الإيرانيين في خطر، في حين أنه من غير المرجح أن يؤدي اتّباع مقاربة ليّنة إلى إزالة الأخطار التي تواجههم. وبكل بساطة، لم يكن لدى إسرائيل الكثير من الأوراق لتلعبها[12].

بالرغم من أن جهاز الاستخبارات الإسرائيلية عرف بأنه من المرجح أن تعني الثورة نهاية العلاقات الرسمية بين إيران وإسرائيل، كانت الدولة اليهودية ضائعة بين أولئك الذين يريدون توجيه ضربة معاكسة لإنقاذ نظام البهلوي وأولئك الذين اعتقدوا أن النظام الجديد سينهار سريعاً وستحل محله قيادة تتبنّى الحقائق الجيوسياسية لإيران وتعترف بحاجتها إلى إسرائيل[13]. هيمن على المجموعة الأولى إسرائيليون كان لهم اتصالات مكثفة مع نظام البهلوي. وقد انتابهم شعور قوي بأن الثورة ظاهرة مؤقتة، وأنه سرعان ما ستعاود إيران الحقيقية الظهور.

كان أرييل شارون، وهو قائد عسكري إسرائيلي طموح، وسياسي أصبح في وقت لاحق رئيس وزراء إسرائيل، ينتمي إلى المعسكر الأول. وأثناء اجتماع وزاري في ذروة الثورة، اقترح إرسال جنود مظلّيين إسرائيليين إلى طهران لإنقاذ الشاه[14]، لكن تم التصويت ضدّ ذلك الاقتراح. لكن بصرف

النظر عن الاختلافات بين هذين المعسكرَين، هيمن المبدأ المحيطي على تفكير الاثنين. ويعلّق يوسي ألفير، وهو ضابط سابق في الموساد، على ذلك فيقول: "واصل هؤلاء الأشخاص النظر إلى إيران كحليف طبيعي لإسرائيل"[15]. واستناداً إلى ألفير، كان منطق المبدأ المحيطي "مترسخاً بالكامل" في العقلية الإسرائيلية لدرجة أنه أصبح غريزياً. وكان من الصعب ببساطة سبر غور أولئك الذين لا ينظرون إلى إيران على أنها حليف طبيعي[16].

مع بروز الصهيونية المعدلّة الجديدة، أُعطي المبدأ المحيطي بُعداً إيديولوجياً. كان ديفيد بن غوريون قد وضع هذه الاستراتيجية في الأصل بغرض إضعاف الدول العربية مع الإثبات في نفس الوقت فوائد إبرام سلام مع إسرائيل عبر إظهار مساهمات إسرائيل في التطور الاقتصادي والتكنولوجي في الدول المحيطة. واعتقد بأنه سرعان ما ستدرك الدول العربية أنها تستطيع هي أيضاً الاستفادة من هذا التقدم في حال أبرمت صلحاً مع إسرائيل. ولذلك، لم يكن السلام مع العرب والقبول بإسرائيل في المنطقة احتمالاً وارداً وحسب، بل وكان هدفاً في نظر أب المبدأ المحيطي.

لكن المؤمنين بالصهيونية المعدّلة الجديدة لم يكونوا على هذا القدر من التفاؤل. فقد اعتقد رئيس الوزراء بيغن بأن العرب لا يفهمون غير لغة القوة، وهو ما لا يدع خياراً أمام إسرائيل سوى السعي إلى التفوق العسكري. وبناء على وجهة النظر هذه، وبما أنه لن يتم القبول بإسرائيل في الشرق الأوسط أبداً، فلن يتم التوصل إلى السلام من خلال المفاوضات والتسويات وإنما سيتم الفوز به عبر إلحاق هزيمة عسكرية شاملة بجيران إسرائيل[17]. كان إسحاق شامير، خليفة بيغن في زعامة حزب الليكود، يشاطره وجهة النظر هذه ويؤمن بقوة بأن سلاماً حقيقياً مع الدول العربية لا يمكن تحقيقه[18]. بالنسبة إلى معتنقي الصهيونية المعدّلة الجديدة، لم يكن المبدأ المحيطي منطقياً من الناحية الاستراتيجية وحسب، بل ومنسجماً مع نظرتهم الكونية. وبالتالي حتى عندما اعترى الضعفُ المنطقَ الاستراتيجي للمبدأ المحيطي – عبر السلام الفاتر مع مصر وعبر الإيديولوجية الجديدة المعادية لإسرائيل التي تؤمن بها إيران – بقي البُعد الإيديولوجي لهذا المبدأ حياً.

فشلت إسرائيل في التشكيك في حكمة هذا المبدأ حتى عندما بدأت إيران تطوير روابط مع الشيعة بلبنان في منتصف ثمانينيات القرن الماضي. وعلى نحو يوحي بالتناقض، زادت خسارة إيران وضعفها من إحساس إسرائيل بالخطر القادم من العراق، وهو ما زاد بدوره من حاجة تل أبيب إلى علاقاتها مع طهران. فبالرغم من أن إسرائيل أبرمت اتفاقية سلام مع مصر، ظلّت علاقاتها مع العالم العربي ومع الكتلة السوفياتية عدائية. لذلك في حين ساد الهدوء جبهتها الجنوبية، أي الجبهة المصرية، ظلّت جبهتها الشرقية أكثر انكشافاً نتيجة لتنامي القوة العراقية ولخسارة إيران كثقل موازن للعراق. من وجهة نظر تل أبيب، كان العراق الخطر الإقليمي الوحيد الأكبر على أمن إسرائيل، في حين لم يكن يُنظر إلى إيران – بالرغم من إيديولوجيتها، وخطابها العنيف، ودعمها الصريح للقضية الفلسطينية– على أنها خطر. من أجل كافة الغايات العملية، بقيت إيران بالنسبة إلى إسرائيل شريكاً في موازنة التهديد العراقي[19].

الحقائق الجيوسياسية مقابل الخيالات الإيديولوجية

بالطبع، أكثر ما أزعج الثوريين هو أن الحقائق الجيوسياسية في المنطقة ظلّت على نحو مفاجئ بدون تغيير؛ على الرغم من إعادة صياغة الهوية الإيرانية من ملَكية فارسية تحت حكم البهلوي إلى جمهورية إسلامية في ظل الخميني. فقد بقيت إسرائيل وإيران تتقاسمان الأخطار الرئيسية المشتركة نفسها. ونتيجة لذلك، بقيت الحقائق الجيوسياسية بالنسبة إلى إيران منيعة أمام النظرات الكونية والإيديولوجيات التي تعتنقها القيادة الجديدة بطهران، لا تزال إيران محاطة بدول عربية معادية من الجهتين الجنوبية والغربية، وبقوة عظمى روسية عدوانية من الشمال[20].

رفضت إيران في البداية، بسبب رغبتها في إعادة تصميم نظام الشرق الأوسط بأكمله، بناء تحالفات مع الدول العربية التي تشاطرها المآزق الجيوسياسية والتي تتصادم إيديولوجياتها مع إيديولوجية إيران. على سبيل المثال، خسرت مصر دورها القيادي في العالم العربي، وأقصتها الدول العربية بعد التوقيع على اتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل. لقد سعى السادات إلى كسر عزلة بلاده عبر مدّ اليد إلى إيران فور وفاة الشاه. ولكن آية الله الخميني استثمر تلك الفرصة لاكتساب الشرعية في العالم العربي فرفض عرض السادات واتهم مصر بخيانة الفلسطينيين.

في مايو/أيار 1980، قطعت إيران كافة علاقاتها مع مصر[21]. لكن سرعان ما تبيّن لحكومة آية الله الخميني أن الدول العربية المجاورة لإيران لا تقبل بنموذج الإسلام السياسي لإيران. ففكرة الوحدة الإسلامية، والنظام الإسلامي، بالكاد تلائم الأنظمة العربية القائمة، وحتى الأنظمة التي تدعم نظاماً إسلامياً، كانت معادية للنموذج الإسلامي الشيعي لإيران. كما أن تحدّي إيران للنظم السياسية القائمة في الدول العربية كان مثار قلق على الخصوص في الدول الخليجية العربية التي تربطها علاقات قوية بواشنطن، والتي يصف آية الله الخميني نموذجها الإسلامي "بالإسلام الأميركي". كما شعرت إيران الثورية بالخوف من حكام الدول التي تضم أعداداً كبيرة من الشيعة مثل العراق. في حين كان العرب يدركون جيداً طموحات الشاه، فقد انتابهم الذعر من التصاميم السياسية التي أعدّها آية الله الخميني، ومن المحاولات التي تبذلها إيران لتصدير الثورة[22]. قُلبت الطاولات فحلّ محل الخطر الوحدوي العربي الذي كان يهدد إيران خطرٌ إسلامي، وعلى وجه التحديد خطر شيعي بات يهدد الدول العربية[23].

كما أن الثورة لم تبدد مخاوف إيران من الاتحاد السوفياتي. ففي ديسمبر/كانون الأول 1979، غزت القوات الروسية أفغانستان، فوضعت إيرانُ قواتها المسلحة في حالة تأهب قصوى. خافت إيران من أن تستغلّ موسكو الاضطراب السياسي في إيران من أجل تحقيق هدفها بعيد المدى بالوصول إلى المياه الدافئة للخليج العربي. في هذا السياق، واصلت الإمبراطورية السوفياتية فرض ثلاثة تحدّيات محددة على إيران، بالرغم من انتصار الثورة. فعلى الصعيد الإيديولوجي، عارض الشاه الشيوعية نتيجة لالتزامه بالقيم الرأسمالية الغربية، في حين نظر أتباع آية الله الخميني إلى إلحاد موسكو على أنه خطر على الإسلام. أما على الصعيد الاستراتيجي، فظلّت التصاميم التي وضعها الكرملين للمنطقة على حالها، وساورت

نخبة العاملين في السياسة الخارجية في النظام الثوري، بقيادة الرئيس أبو الحسن بني صدر ووزير الخارجية صادق قطب زاده، شكوك عميقة بموسكو، وشعرت بالقلق من أن السوفيات سيستغلّون انهيار القوات المسلّحة الإيرانية، ويشنّون هجوماً على إيران[24]. أما على الصعيد السياسي، واجه كل من الشاه والخميني معارضة يسارية مدعومة – بشكل مباشر أو غير مباشر – من موسكو. لكن الفارق الوحيد بالنسبة إلى القيادة الجديدة هو أن إيران لم يعد في مقدورها الاعتماد على دعم واشنطن في مواجهة التحدّي السوفياتي، وهو ما جعل إيران أكثر انكشافاً أمام التصاميم السوفياتية.

سرعان ما تحوّلت طموحات إيران الإقليمية، وهدفها المتمثل في نشر الإسلام السياسي، والتوترات القائمة بينها وبين واشنطن إلى عداوة إيرانية إسرائيلية، وهو الأمر الذي ساورت الاستخبارات الإسرائيلية الظنون بشأنه قبل وقت طويل من اندلاع الثورة. فمعارضة إيران الإيديولوجية للدولة الإسرائيلية لا لَبْس فيها، والنظرة بعين الشك جعلتها ترى يداً إسرائيلية خلف العديد من التحدّيات التي تواجهها. فعلى سبيل المثال، اعتقد نظام آية الله الخميني أن إسرائيل ساعدت الثورة الكردية في شمال غرب إيران والتي اندلعت بعد شهور قليلة على الثورة[25]. ويشرح محمود وازي، وهو نائب سابق لوزير خارجية الجمهورية الإسلامية، الأمر فيقول: "نظرنا إلى إسرائيل من منظور مفاده أنها داعمة الولايات المتحدة وعميلتها في المنطقة"[26]. غير أن العوامل الجيوسياسية دفعت في اتجاه تقارب البلدين من بعضهما، على الرغم من معارضة إيران الإيديولوجية لإسرائيل وشكوكها فيها. وجرى إطلاق مجسّات من كلتا العاصمتين، وإن بدا واضحاً أن تل أبيب كانت الأكثر تلهفاً إلى إحياء تعاونها القديم مع طهران.

بعد شهور قليلة فقط على انتصار الثورة، وبالرغم من قطع العلاقات، عرضت تل أبيب إعادة عدد من الدبابات الإيرانية أميركية الصنع والتي كان الشاه قد شحنها إلى إسرائيل من أجل تحديثها، وقبلت إيران ذلك العرض[27]. وسعت إسرائيل بعدة طرق إلى التودد إلى حكومة الخميني، ولكنها وجدت أن مشاعر مختلطة تنتاب طهران إزاء مدى فائدة الدولة اليهودية. فمن ناحية، يتقاسم البلدان فعلاً مصالح مشتركة ناتجة عن التهديدات التي يواجهانها في المنطقة. ومن ناحية أخرى، أية تعاملات علنية مع إسرائيل ستشوّه الموقف النقي الذي اتخذه آية الله الخميني من القضية الفلسطينية وحجته التي تقول إنه يتعين على العالم الإسلامي اللجوء إلى قيادة إيران لنيل الحرية والاستقلال. والتصرف الموازن بين هذين الهدفين عنى أن إيران ستلجأ إلى إسرائيل كملاذ أخير فقط. رأى الثوريون أنه طالما أن إيران تتمتع ببدائل أخرى، سيكون تحاشي الدولة اليهودية السياسةَ الطبيعية للجمهورية الإسلامية، وهو ما كان مدعاة إحباط كبير في إسرائيل. لكن الرافعة التي لم تستطع إسرائيل بنفسها إيجادها ضدّ إيران، وفرها طلاب احتجزوا رهائن في السفارة الأميركية. تلا عملية احتجاز الدبلوماسيين الأميركيين حظر دولي محدود، وتجميد لأرصدة إيران في الخارج، ووقف لمبيعات الأسلحة وقطع الغيار الأميركية لإيران. مع تراجع موقف إيران في العالم، ومع تزايد عزلة إيران الدولية بفعل الضغوط الأميركية، وجدت إسرائيل الرافعة التي تحتاج إليها لكي تنمّي الروابط مع شيوخ إيران[28].

عودة في طور الاختمار على غرار العودة إلى أثيوبيا؟

في مستهل العام 1980، أي بعد شهور على اندلاع أزمة الرهائن، قام أحمد كاشاني، النجل الأصغر لآية الله العظمى أبو القاسم كاشاني الذي لعب دوراً رئيسياً في تأميم صناعة النفط الإيرانية في العام 1951، بزيارة إسرائيل – وعلى الأرجح أنه كان أول إيراني يقوم بذلك بعد الثورة – لمناقشة مبيعات الأسلحة والتعاون العسكري ضدّ البرنامج النووي العراقي في أوزيراك. بالرغم من أنه عرّف عن نفسه بأنه "مواطن غير رسمي قلق"، أثمرت رحلته عن موافقة بيغن على شحن إطارات لطائرات الفانتوم المقاتلة إضافة إلى شحن أسلحة إلى الجيش الإيراني. جاء قرار بيغن متناقضاً تماماً مع مصلحة الولايات المتحدة وسياسة واشنطن الصريحة القائمة على فرض عزلة على إيران لتأمين تحرير الرهائن الأميركيين. انتاب كارتر الحنق من عدم تحسس بيغن للآلام التي كانت تعاني منها أميركا. وبعد تبادل عنيف للعبارات بين الرئيسين العنيدين، وبّخ كارتر إسرائيلَ بتعليقه المبيعات المستقبلية من قطع الغيار للدولة اليهودية[29].

لكنّ تحدّي بيغن آتى ثماره، فقد بادل آية الله الخميني الخطوة الإسرائيلية بالسماح لعدد كبير من اليهود الإيرانيين بمغادرة إيران. عبر الآلاف منهم نحو باكستان باستخدام الحافلات، ومن هناك، جرى نقلهم بواسطة الطائرات إلى أستراليا حيث سُمح لهم بالهجرة إلى الولايات المتحدة أو إلى إسرائيل[30]. واستناداً إلى محمد رضا أمين زاده، وهو مسؤول إيراني فرّ من البلاد في العام 1985، أجرى عقيد في الجيش الإسرائيلي اسمه يوري المفاوضات على الصفقة، والذي زار إيران في مستهل العام 1980[31]. كشف استعداد إيران للتعامل مع إسرائيل كيف أن المآزق التي كانت تعاني منها طهران حدّت من قدرتها على متابعة أهدافها الإيديولوجية. خلال هذه المرحلة المبكرة، أظهر الثوريون ميلاً إلى وضع الإيديولوجية جانباً لتقديم أمنهم ومصالحهم الخاصة. في لحظة معينة، قام أحد المقربين من آية الله الخميني بإخباره بأن هناك شحنة كبيرة من الأسلحة تفكر إيران بشرائها ومصدرها إسرائيل. سعى هذا الشخص إلى الحصول على موافقة آية الله الخميني على المضي قدماً في صفقة الشراء. وسأل آية الله الخميني إن كان من الضروري مناقشة مصدر الأسلحة والاستعلام عنه عند القيام بعملية الشراء، فأجاب ذلك الشخص بالنفي. فردّ عليه آية الله الخميني بهدوء، "إذاً، نحن لا نبالي"[32].

بدا واضحاً بشكل متزايد أن خطاب إيران المعادي لإسرائيل لا يتطابق مع سياستها الفعلية. ففي الوقت الذي كانت إيران تتعامل فيه سرّاً مع الحكومة الإسرائيلية، كانت تدين علناً الدولة اليهودية، وتشكك في حقها في الوجود. على سبيل المثال، دعا وزير الخارجية الإيراني في 14 أغسطس/آب 1980 إلى وقف مبيعات النفط إلى الدول التي تدعم إسرائيل. وبعد صخب كبير، لم يتم تنفيذ ذلك التهديد[33]. ويشرح خبير في قضايا

السياسة الخارجية الإيرانية يقيم بطهران المسألة فيقول: "لعبت المعارضة الإيديولوجية لإسرائيل دوراً لصالح هذا النظام قبل انتصار الثورة"[34]. وبعد أن تولّى الثوريون السلطة، تصرفوا بناء على مبادئ مختلفة. إحدى الركائز الأساسية للسياسة الخارجية للحكومة الثورية كانت "المعارضة الخطابية لإسرائيل، والتعاون العملي... مع الدولة اليهودية"[35].

من الواضح، أن الترتيبات لم تكن مثالية بالنسبة إلى إسرائيل، لكن منطق المبدأ المحيطي أرغم إسرائيل على التودد إلى الإيرانيين. فتصاعد شعبية السادات في الولايات المتحدة، وعلاقات بيغن الخاصة المجمّدة مع كارتر، عقّدا الخيارات الاستراتيجية الإسرائيلية. فإذا كان التقارب الأميركي العربي بعد كامب ديفيد سيتعزز أكثر، فإن حاجة إسرائيل إلى ثقل موازِن إقليمي للعرب – إيران – سيزداد تبعاً لذلك. لذلك، كان من الضروري إبقاء الأبواب مفتوحة للفوز بإيران مجدداً. ويعلّق غاري سيك، الذي خدم في مجلس الأمن القومي الأميركي في ذلك الوقت، على ذلك بالقول: "من منظور إسرائيلي، كانت تلك خطة استراتيجية بعيدة المدى، كانت تلك السياسة المحيطية. كانوا يحاولون تكرار التجربة الأثيوبية مع إيران"[36]. لكن في 22 سبتمبر/أيلول 1980، تحققت تكهنات الشاه بأن صدام حسين سيهاجم إيران عندما يُعطى الفرصة؛ بعد خمس سنين فقط من التوقيع على اتفاقية الجزائر. وبدلاً من أن تجد إسرائيل نفسها أكثر اعتماداً على إيران، كانت طهران هي التي وجدت نفسها فجأة في حاجة ماسة إلى قدرة إسرائيل على الحصول على الأسلحة الأميركية.

الفصل 10 هجمات صدام!

ثلاثة كنّا نتمنّى لو أننا لم نرَهم: الفرس، واليهود، والذباب.

– عنوان كتاب (مع بعض التعديل من المترجم) لخير الله تلفاح، خال صدام حسين

بدلاً من الفوز بأصدقاء عرب، لم تجلب السياسات التي اتبعتها حكومة آية الله الخميني سوى الأعداء. فالجهود التي بذلتها إيران لتحدّي الواقع الإقليمي حوّلتها إلى دولة منبوذة، يخافها الجميع، ويتحاشاها معظمهم[1]. إنّ المحاولات التي بذلتها إيران لتبوّءِ قيادة المسلمين المضطهَدين في العالم وضعتها على طرفي نقيض مع العراق، الذي سعى إلى رفع راية الوحدة العربية بعد أن فقدت مصر حظوتها بتوقيعها على اتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل[2].

كان لدى آية الله القليل من الخيارات لكسر دائرة العزلة التي فرضتها الولايات المتحدة، والتكتل العربي، والاتحاد السوفياتي على إيران. كانت إيران تفتقر إلى ما كان لدى الشاه من علاقات دبلوماسية، وأصدقاء إقليميين، وعائدات نفطية (نتيجة الهبوط الكبير في إنتاج النفط الإيراني بسبب الفوضى التي أحدثتها الثورة) تُرضي بها أعداءها. لكن ضعف إيران كان نعمة على أعدائها الكثيرين. فصدام، الذي كان ينتظر بفارغ الصبر فرصة لاستعادة أمجاد العراق القديمة، أدرك أن الظروف باتت في صالحه. كان يعرف أن الدول العربية الأخرى ترغب في دعم العراق، آخذاً بعين الاعتبار التهديد الذي تشعر به من إيران. كما أن الفراغ الذي خلّفه استبعاد مصر من جامعة الدول العربية (بعد خروج السادات من الصف العربي وتوقيعه على اتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل) كان يستجدي قائداً جديداً لملئه[3]. بالإضافة إلى ما تقدم، بدا أن الجيش الإيراني في حالة يُرثى لها وكانت دفاعاته في الممر المائي محيط شط العرب/أروند رود ضعيفة جداً. أي أن إيران كانت هدفاً مغرياً. حسِب صدام أنه سيتمكن من السيطرة على الممر المائي وعلى إقليم خوزستان الغني بالنفط أيضاً في جنوب غرب إيران. وأي غزو ناجح لإيران سيجعل العراق القوة المهيمنة في منطقة الخليج العربي ويعزز تجارته النفطية المربحة. كما أن العراق كان في طور تحسين علاقاته مع الولايات المتحدة في تلك الفترة، وسرى اعتقاد واسع بأن واشنطن رأت العديد من المزايا في هجوم يشنّه العراق على إيران.

بعد أن قطع العراق علاقاته الدبلوماسية مع إيران في يونيو/حزيران 1980، أعلن في 17 سبتمبر/أيلول أن شط العرب جزء من أراضيه ملغياً بذلك اتفاقية الجزائر من الناحية الفعلية. شنّ صدام هجوماً واسع النطاق على إيران في 22 سبتمبر/أيلول بحجة محاولة إيرانية مزعومة لاغتيال وزير الخارجية العراقي، طارق عزيز. كانت الدفاعات الإيرانية في البداية مشتتة، فتقدم الجيش العراقي بسهولة نحو الأهواز، عاصمة إقليم خوزستان. كان سلاح الجو الإيراني مشلولاً بسبب افتقاره إلى قطع الغيار الأميركية، وهو ما أعطى سلاح الجو العراقي السيادة الجوية وقدرات هجومية كبيرة. لكن مع تواصل الاختراق العراقي في عمق الأراضي الإيرانية، واجه مقاومة غير متوقعة. فبدلاً من أن ينقلب الإيرانيون على النظام الديني، التفّوا حول قيادتهم بحماسة كبيرة. وفي غضون شهرين، قُدّر عدد المتطوعين الذين أُرسلوا إلى جبهات القتال بحوالى مائة ألف إيراني. وسرعان ما تبيّن للعراقيين أن الجيش الإيراني لا يزال خصماً منيعاً، بالرغم من الفوضى والصعوبات التي واجهها. بحلول العام 1982، استعادت إيران الأراضيَ التي استولى عليها جيش صدام، ونقلت الحرب إلى الأراضي العراقية. فما كان يساور صدام من إحراز نصر سريع ومُحكَم تبيّن أنه حرب استنزاف دامت ثماني سنين، وأسفرت عن نحو مليون قتيل.

عززت الحرب عداء السوفيات والعرب لإيران، والذي بدوره عزّز تصوّر إسرائيل وإيران للخطر المشترك. على الرغم من عودة الدفء إلى العلاقات العراقية الأميركية، خشيت موسكو من أن انتصاراً إيرانياً سيخلّ بالتوازن في المنطقة، ولذلك زادت دعمها للعراق. وقد أثار تسليح موسكو للعراق غضب نظام آية الله الخميني؛ الذي أشار إلى الاتحاد السوفياتي "بالشيطان الأكبر الآخر". في العام 1983، طردت إيرانُ عدة دبلوماسيين سوفيات، وأعدمت عدداً كبيراً من أعضاء الحزب الشيوعي الإيراني بتهمة التجسس لصالح موسكو[4]. كما توقّع صدام، موّل حكام الخليج ماكينة الحرب العراقية بسخاء. في مقابل ذلك، نسّق الزعيم العراقي قراراته العسكرية مع قادة عرب آخرين[5].

بفضل التمويل الذي قدّمته دول الخليج، أنفق العراق المزيد من مليارات الدولارات على شراء الأسلحة أكثر مما أنفقته إيران وإسرائيل معاً. وطوال فترة الثمانينيات، كان العراق الثاني في المنطقة من حيث إنفاقه العسكري بعد المملكة العربية السعودية، بحيث زاد حجم جيشه بمقدار عشرة أضعاف في أقل من عقد فوصل إلى مليون جندي بحلول العام 1988، وإلى مليون وأربعمائة ألف جندي في العام 1990. كما زادت القدرات الهجومية العراقية تبعاً لذلك بحيث تضمنت مخزونات من الأسلحة الكيميائية، والتي وفّرت مكوناتها دول غربية. في السنوات الأخيرة من الحرب، أظهر العراق مدى أسلحته الهجومية بتوجيهه ضربات إلى العاصمة الإيرانية – التي كانت تبعد حوالى 500 كلم عن الخطوط الدفاعية العراقية – باستخدام صواريخه الباليستية. بامتلاك العراق هذه الأسلحة، باتت إسرائيل فجأة في متناوله أيضاً[6].

كما فرضت الحرب المزيد من الضغوط على علاقات إيران مع منظمة التحرير الفلسطينية التي أيدت صدام، تاركة لإيران القليل من المصداقية في سعيها إلى قيادة المسلمين ضدّ إسرائيل[7]. تشكّلت جبهة عربية موحّدة بعد أن شكلت المملكة العربية السعودية، والبحرين، والكويت، وقطر، والإمارات العربية المتحدة وسلطنة عُمان مجلس التعاون الخليجي في العام 1981[8]. ويعلّق أمير موهبيان، المحرّر السياسي في الصحيفة اليومية المحافظة **رسالت** التي تصدر في طهران، "من ناحية، لم نعترف بإسرائيل، ومن ناحية أخرى، كنّا في حالة حرب مع دولة إسلامية علمانية، وشعرنا بأن العالم ضدّنا"[9].

انسجمت الحقيقة مع الإيديولوجيات في طهران. فبغزو إيران، جسّد صدام حسين الخطر العربي الذي يهدد إيران، وزاد من تأثير القوى الجيوسياسية التي أوجدت المحور الإسرائيلي الإيراني قبل عدة عقود. يمكن للحماسة الإيديولوجية أن تدافع عن إيران إلى حدّ معين، ودار جدال بين الثوريين بكثافة داخل الدوائر المغلقة حول ما إذا كان يوجد شيء اسمه "مصلحة قومية" أو ما إذا كان ينبغي على الإيديولوجية وحدها أن تملي على الدولة أفعالها. مع تزايد الصعوبات الناشئة عن الحرب، مالت النقاشات بشكل متزايد إلى البراغماتية[10]. وبالرغم من أن هذا الميل لم يبدأ إلاّ في الشهور التي تلت انتصار الثورة، فقد زاد اعتداء صدام وعزلة إيران من حدّة التحوّلات في السياسة الخارجية الإيرانية – في سلوكها وليس في خطابها– بعيداً عن الإيديولوجية ونحو النهج العملي والمنفعة الذاتية[11]. في النهاية، لم يعد في مقدور إيران صدّ الجيش العراقي الغازي بدون توسيع قنواتها مع إسرائيل وواشنطن من أجل شراء الأسلحة وقطع الغيار للعتاد الحربي المصنوع في الولايات المتحدة[12].

بعد أن بدأ مفهوم المصلحة القومية يفرض هيمنته، بدأ العديدون يجادلون بالحاجة إلى فتح قنوات مع الولايات المتحدة، وحتى استخدام وسطاء إسرائيليين إذا لزم الأمر[13]. لكن كان يتعين الإبقاء على كافة الاتصالات مع الإسرائيليين سرّية لأن القنوات المفتوحة ستقوّض مصداقية إيران الإيديولوجية. لكن بدلاً من الرجوع إلى أنماط السياسة الأولى التي كان يتّبعها الشاه في تحالفه مع إسرائيل ومع الغرب، توصل الثوريون إلى استنتاج مختلف، وهو استنتاج أقرب إلى طريقة الشاه في التفكير بعد التوقيع على اتفاقية الجزائر، وهو أن غزو صدام – الذي لم يكن بأي حال سيقنع إيران بالتخلّي عن فكرة التقرّب من جيرانها العرب والسنّة وربط مصيرها بمصير إسرائيل – قوّى على نحو يوحي بالتناقض من اعتقاد حكومة آية الله الخميني بأن التوصل إلى تسوية مع العرب عامل حيوي في أمن إيران الدائم والبعيد المدى.

برزت من المأزق الاستراتيجي لإيرا – مع جذب كل من القوى الإيديولوجية والاستراتيجية السياسةَ الخارجية الإيرانية في اتجاهات مختلفة – استراتيجية متعددة المراحل لا تزال تربك المحلّلين السياسيين والقادة الأجانب على حدٍّ سواء. فبدلاً من تفضيل إيجاد توازن مع العرب عبر التحالف مع إسرائيل، أو السعي إلى التوصل إلى تسوية مع العرب عبر تولّي الدور الريادي في مواجهة إسرائيل، اختارت طهران القيام بالأمرين معاً عبر التمييز بين سياستها العملانية وخطابها العلني. فمن ناحية، تعاونت إيرانُ سرّاً مع إسرائيل في المسائل الأمنية، ورفعت حدّ خطابها المعادي لإسرائيل إلى مستويات أعلى بكثير للتغطية على تعاملاتها معها[14]. هدفت هذه السياسة، التي ربما برزت كحل وسطي بين الفصائل ذات الدرجات المتفاوتة من الحماسة الإيديولوجية داخل الحكومة، إلى جعل المصالح الإيديولوجية والاستراتيجية يقوّي بعضها البعض الآخر. تضمنت لائحة الأهداف ضمان الأمن بعيد المدى بوصفها دولة غير عربية في الشرق الأوسط، وإيجاد مكانة متفوقة في المنطقة بالرغم من الانقسام العربي – الفارسي أو السنّي – الشيعي، وأخيراً، النقاوة الإيديولوجية لحماية هوية الثورة واستخدم الإيديولوجية الإسلامية لإيران كوسيلة لتسهيل بلوغ الهدفين السابقَين.

على المستوى الإيديولوجي، تعين أخذ مصالح العالم الإسلامي في الحسبان، أي الاستقلال عن القوى العظمى، وكذلك محنة الشعب الفلسطيني، وإمكانية الوصول إلى المواقع المقدسة بالقدس والسيطرة عليها. وبالرغم من أن الثوريين "رأوا خطراً (عسكرياً) مصدره إسرائيل، فهو لم يكن خطراً ماثلاً على المدى المنظور"، لقد اعتُبرت الدولة اليهودية خطراً إيديولوجياً على الإسلام السياسي[15]. طغت هذه المهام الأخلاقية، على حدّ وصف النائب السابق لوزير الخارجية محمود ويزي، على المصالح الاستراتيجية لإيران بين الحين والآخر، وبخاصة في السنين الأولى للثورة[16].

من ناحية أخرى، عززت المستلزمات الاستراتيجية الإيرانية معارضتها الإيديولوجية لإسرائيل في نظر الثوريين. وبهدف إدارة علاقاتها مع الدول الإسلامية المحيطة بها، يقول سفير إيران لدى الأمم المتحدة جواد ظريف: "احتاجت إيران، من وجهة نظر استراتيجية، إلى اتخاذ موقف قاسٍ جداً من إسرائيل من أجل تخفيف – إن لم يكن إزالة – العداوة المتأصلة في المقاربة التي ينتهجها جيرانها [ضدّها]. هذا من وجهة نظر استراتيجية، فضلاً عن النواحي الإيديولوجية للدعم الإيراني للفلسطينيين"[17]. لكنّ الثوريين رفضوا بشدّة فكرة الاعتماد على الدول البعيدة مثل إسرائيل أو الولايات المتحدة لموازنة العرب لأن إيران لن تتمكن أبداً من أن تصبح قائداً إقليمياً إذا كانت تعتمد على الآخرين في ضمان أمنها. يشرح غاري سيك، الذي خدم في مجلس الأمن القومي على عهد إدارتي كارتر وريغان، ذلك بالقول بأنه عندما "كانت إيران تهاجَم بالأسلحة الكيميائية، تبيّن أن كافة المعاهدات التي وقّعها الآخرون مع إيران كانت بدون فائدة. واستنتج الإيرانيون بأنه لا يمكنهم الاعتماد على أحد سوى أنفسهم"[18].

الوظيفة الأساسية للموقف الإيراني المعادي لإسرائيل كانت التخفيف من الأخطار العربية التي تهدد إيران أو على الأقل جعل دعم العراق أكثر كلفة على الحكومات العربية. يعترف المحرر السياسي في صحيفة **رسالت** مهيبيان قائلاً: "لقد اعتقدنا بأن موقفنا المعادي لإسرائيل سيساعد على إقناع العالمين العربي والإسلامي بأن هجوم العراق على إيران كان خطأ"[19]. وفي لقاء استراتيجي، أبدى وزير الخارجية الإيراني علي أكبر ولايتي، الذي غالباً ما كان يلعب دوراً موازِناً في النقاشات الداخلية بين الفصائل الأكثر إيديولوجية في الحكومة وبين المدافعين عن مقاربة المصلحة القومية، دعمه للإيديولوجيين قائلاً: "الإيديولوجية إحدى الرافعات القليلة التي بقيت لإيران". كانت مصدر تأثير لم يكن في مقدور إيران إهماله[20]. وكما فعل الشاه في السابق، استغلّ الثوريون عدم شعبية الدولة اليهودية في أوساط الشعوب العربية في رفع مكانة إيران في العالم العربي الإسلامي وخفض الأخطار التي تواجهها من العرب. لكن على العكس من الشاه، لم يستطع الثوريون إقامة علاقات علنية مع إسرائيل بسبب تركيزها الإقليمي المضاعف؛ ستقضي العلاقات العلنية مع إسرائيل على هدف التقرب من الدول العربية المجاورة لإسرائيل.

لكن الإسلام السياسي والمعارضة لإسرائيل خدما غايات استراتيجية أيضاً. فبعد الفشل في تصدير الثورة وإسقاط الأنظمة في الدول العربية المجاورة، سعت إيران إلى استغلال وتوسيع الفجوة بين الشعوب العربية – الشارع العربي – وبين الحكومات الفاسدة وغير الشعبية عبر استجداء

الاعتزاز الديني لدى العرب وشعورهم بالإحباط من عجز الحكومات العربية إزاء إسرائيل والقوى العظمى.

قامت إيران بمحاولات كثيرة لطرد إسرائيل من الأمم المتحدة، ورعت مسابقة للأطفال في الرسم والكتابة موضوعها "يتعين إزالة إسرائيل عن وجه الأرض" في البلدان الإسلامية المختلفة، وتعهدت بإرسال أسرى الحرب العراقيين لقتال إسرائيل بلبنان[21]. حتى أنها اقترحت تشكيل جيش إسلامي لطرد إسرائيل من الأراضي العربية المحتلة. وقال ولايتي للمراسلين الصحفيين: "أعلنت إيران أنها تريد المشاركة بنشاط في مهمة تحرير فلسطين". رأى الثوريون أنه كلما بدت إيران أكثر عداءً لإسرائيل، كلما زاد التعاطف الذي يمكن أن تكسبه بين أوساط الشعوب العربية، وكلما زادت من صعوبة تحدّي الحكومات العربية لإيران ومعارضتها لها. لكن هذه الاستراتيجية فشلت فشلاً ذريعاً. بل إنها زادت من عزلة إيران، وزادت من مخاوف الحكومات العربية من الطموحات الإيرانية. يشرح موهبيان المسألة فيقول: "لم تكن مناشدتنا موجهة إلى حكومات العالم الإسلامي، وإنما إلى شعوبها؛ إلى الشارع. لكن ذلك زاد من خوف الحكومات العربية وزاد من دعمها لصدام"[22].

لكن خطاب إيران العنيف الموجّه ضدّ إسرائيل كان مجرّد خطاب؛ كلمات. ففي انتصار للواقعية على الإيديولوجية، كانت إيران حريصة على عدم ترجمة هذا الخطاب إلى أفعال ملموسة، لأن إيران لا تتحمل الدخول في مواجهة مع الدولة اليهودية في غمرة حربها مع العراق. في هذا الصدد، قال لي نائب وزير الخارجية الإيراني السابق عباس مالكي: "كان صنّاع السياسة الإيرانيون أذكى من أن يجعلوا من إسرائيل خطراً مباشراً على إيران، لأنه في ذلك الوقت، كان العراق هو الخطر"[23].

أثناء محادثة دامت ثلاث ساعات مع مساعديه المقرّبين في الأيام الأولى للحرب، بيّن آية الله الخميني النهج الذي ستتّبعه الجمهورية الإسلامية في الصراع الفلسطيني. فاستناداً إلى أب الثورة الإيرانية، والشخص الذي يجسّد إيديولوجيتها، الصراع الإسرائيلي الفلسطيني مسألة فلسطينية في الأساس. وعلى مستوى تالٍ، ينبغي أن تُشارك إيران والدول الإسلامية الأخرى. ونتيجة لذلك، ينبغي ألاّ يكون حجم مشاركة إيران في هذا الصراع أكبر من حجم مشاركة الفلسطينيين أنفسهم ومشاركة جيرانهم العرب، وينبغي ألاّ تكون إيران دولة على خط المواجهة مع إسرائيل. ينبغي ترك المواجهة المباشرة مع الدولة اليهودية إلى الفلسطينيين أنفسهم وإلى جيرانهم العرب المباشرين. ويشرح علي رضا علوي تابار، الذي ينتمي إلى فصيل الإصلاحيين في الحكومة الإيرانية، حقيقة الموقف بالقول "لم نشأ أبداً المشاركة بشكل مباشر في القتال ضدّ إسرائيل"[24]. كما قال آية الله الخميني لمساعديه بأنه في حال تم التوصل إلى اتفاق بين الفلسطينيين والإسرائيليين، ينبغي على إيران أن تدعم ذلك الاتفاق بالوقوف خلف الفلسطينيين[25].

خلال السنين الأولى للحرب العراقية الإيرانية، سنحت لآية الله الخميني فرصة كبيرة لإظهار تمييز إيران بين الخطاب العلني والسياسة العملياتية. ففي 6 يونيو/حزيران 1982، عندما اجتاحت إسرائيلُ لبنان، كان العديد من قادة الطائفة الشيعية اللبنانية، بمن فيهم قائد ما بات يُعرف لاحقاً بحزب الله، في طهران لحضور مؤتمر هناك. جاءت أخبار الهجوم أثناء انعقاد المؤتمر، ولجأ القادة الشيعة إلى إيران على الفور طلباً للمساعدة. وافق الخميني، وأرسل وفداً رفيع المستوى، ضمّ وزير الدفاع الإيراني وبعض قادة وحدات النخبة، إلى سوريا لاستطلاع الدور المحتمل لإيران. وصل الإيرانيون في 11 يونيو/حزيران إلى سوريا ولكنهم سرعان ما استنتجوا ما كان يشتبه فيه الخميني منذ مدة طويلة؛ إن حرب لبنان كانت محاولة لصرف تركيز إيران بعيداً عن العراق. كان صدام قد عرض عشية حرب لبنان التوصل إلى سلام مع إيران ودعا طهران إلى الانضمام إلى بغداد في قتال إسرائيل، لكن الخميني رفض العرض. الآن، وبالرغم من جهود التعبئة التي بذلها سفير إيران لدى سوريا علي أكبر محتشمي بور، وقائد فيلق الحرس الثوري الإيراني محسن رفيق دوست، لإرسال عشرة آلاف جندي إيراني إلى جنوب لبنان لفتح حرب على جبهتين، سارع آية الله الخميني إلى تغيير توجيهاته، وأمر الإيرانيين بالعودة إلى جبهة الحرب مع العراق، معلناً أن الطريق إلى القدس يمرّ عبر كربلاء بالعراق[26].

لم تكن تلك حادثة منعزلة. ففي العام 1986، اندلعت اشتباكات بين حزب الله والحزب القومي السوري الاجتماعي الموالي لسوريا نتيجة للجهود سوريا الهادفة إلى إخضاع حزب الله لسيطرتها. وهذا ما وضع حليف إيران بلبنان على طرفي نقيض مع حليف إيران ضدّ العراق، فاختارت طهران الحليف الثاني[27]. جدد قرار آية الله الخميني التأكيد على الأهداف الإيديولوجية لإيران مع ضمان عدم متابعة تلك الأهداف بطريقة نشطة بالضرورة. سيبقى تحرير القدس أداة خطابية للفوز بالشرعية في العالم العربي، ولكنه ليس قيمة مثالية في حدّ ذاتها ينبغي السعي إليها عبر القيام بأعمال ملموسة، لكي لا تتعرض حاجات إيران الأمنية قصيرة المدى إلى الخطر. يجادل نائب وزير الخارجية السابق وازي، بالقول: "جدد التأكيد على أن سياستنا تجاه المنطقة تملك جانباً ناعماً وآخر قاسياً للقوة. إننا نعبّر دائماً عن آرائنا ومعتقداتنا. لكن ذلك لا يعني أننا بحاجة إلى تجسيد تلك الآراء في سياستنا الفعلية"[28]. بتجنّب التورّط بشكل مباشر في القضية الفلسطينية، يمكن لإيران مراعاة حاجاتها الأكثر إلحاحاً. ويصرّ نائب وزير الخارجية السابق عباس مالكي على القول بأنه "كان قراراً استراتيجياً عميقاً. ولو أن آية الله الخميني لم يعارض في ذلك الوقت هذه الخطوة، لما كانت إيران ستتمكن من مقاتلة صدام"[29]. يمكن فهم المعارضة الشديدة المتفجرة لإسرائيل – التي كانت إيران في أمسّ الحاجة إليها للحصول على إمدادات من الأسلحة – بدون ترجمة ذلك الخطاب إلى جهود عملية فقط على ضوء مركزية طموحات إيران إلى قيادة العالم الإسلامي.

الأهم من ذلك ربما هو أن دعم إيران لحزب الله كان مدفوعاً بجهودها الهادفة إلى نشر نموذجها الإسلامي السياسي لكي تتبوأ مركزاً قيادياً في العالم الإسلامي أكثر مما كان مدفوعاً بمعارضة إسرائيل. يشرح سفير إيران لدى لبنان الأمر فيقول: "إذا ركّزنا على النقطة التي تقول بأن لبنان يعتبر قلب البلدان العربية في الشرق الأوسط، ومنصة يجري توزيع الأفكار المختلفة إلى باقي أنحاء العالم العربي انطلاقاً منها، يمكننا الاستنتاج بأن وجود حركة إسلامية في ذلك البلد سيثمر عن ظهور حركات إسلامية في مختلف أنحاء العالم العربي"[30].

أدّى غزو صدام لإيران إلى حدوث تباعد بين المصالح الأميركية والمصالح الإسرائيلية في ما يختصّ بإيران على نحو لا جدال فيه. فعلى

العكس من حليفتها واشنطن، تابعت إسرائيل مجريات الحرب بقلق كبير. فقد بدت إيران ضعيفة، وكان الانتصار العراقي سيجعل إسرائيل في وضع أكثر انكشافاً[31]. سيصبح العراق المهيمن على الخليج العربي بدون منازع، علماً بأنه يملك ثالث أكبر احتياطي من النفط في العالم وجيشاً يزيد حجمه بمقدار أربعة أضعاف عن حجم الجيش الإسرائيلي. وسيجعل خطر الجبهة الشرقية أكبر من أي وقت مضى. بالرغم من أن العراق كان يغازل الولايات المتحدة، وأن بعض الأعضاء في إدارة ريغان – مثل دونالد رامسفيلد، المبعوث الخاص للرئيس ريغان في العراق – كانوا يردّون على هذه المغازلة بالمثل ويتأملون في فكرة جعل صدام حليفهم الجديد في الخليج العربي، سيكون لهذا التقارب العراقي الغربي القليل من التأثير في عداوة بغداد لإسرائيل[32]. غير أن انتصاراً إيرانياً، بقدر ما كان مستبعداً غداة اندلاع الحرب، لم يكن ليثير قلقاً خاصاً لدى إسرائيل. لأن إيران تبعد آلاف الكيلومترات عن إسرائيل، ولأن قدرتها على المشاركة في حرب ضدّ إسرائيل محدودة، حتى وإن خرجت من الحرب منتصرة[33]. يقول البروفسور ديفيد مناشري من جامعة تل أبيب، والخبير الأول في الشؤون الإيرانية بإسرائيل: "طوال فترة الثمانينيات، لم يقل أحد في إسرائيل شيئاً عن وجود خطر إيراني؛ لم يتفوه أحد حتى بهذه الكلمة"[34].

في ذروة الحماسة الإيديولوجية في إيران، كانت إسرائيل تخشى انتصاراً عراقياً؛ واستبعادها وجود أخطار نابعة من الإيديولوجية السياسية لإيران، والجهود التي بذلتها إسرائيل لاستعادة إيران وإحياء المبدأ المحيطي، مهّدا الطريق أمام سياسة إسرائيل القائمة على تسليح إيران والسعي إلى خفض التوترات بين واشنطن وطهران[35]. وبالرغم من أن القلب العربي والمحيط غير العربي تبادلا الأدوار مرات عديدة بحلول أواخر السبعينيات من خلال استقرار وتحديث العصب السنّي وانتشار الراديكالية بين أوساط الشيعة، وهم المحيط الفارسي، كانت إسرائيل تفشل إما في إدراك ذلك أو تختار التركيز على قدرات هذه العناصر المختلفة بدلاً من التركيز على إيديولوجياتها، أو خطاباتها، أو نواياها. رأى العديد من الإسرائيليين أن الحرب أثبتت صحة اعتماد إسرائيل على المبدأ المحيطي، واستمرّ عامة المسؤولين الإسرائيليين الكبار، منهم إسحاق رابين، في الاعتقاد بأن إيران حليف طبيعي لإسرائيل[36]. كان وقف صدام الهدف الأكثر أهمية، "وإذا كان ذلك يعني تلبية طلبات شراء الأسلحة التي يتقدم بها الإيرانيون كسبب لمنع حدوث انتصار عراقي، فليكن ذلك"، كما يؤكد ديفيد كيمشي، المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية[37]. لكن هناك المزيد. لم يكن إغراء واشنطن بمدّ اليد إلى إيران سيفيد في إيقاف العراق وإحياء المبدأ المحيطي وحسب، بل وكان سيبعد الولايات المتحدة عن العرب ويجعل "إسرائيل الشريك الاستراتيجي الحقيقي الوحيد للولايات المتحدة في المنطقة" في نهاية المطاف[38].

لذلك، بعد مرور ثلاثة أيام على دخول القوات العراقية الأراضي الإيرانية، قطع موشي دايان زيارة خاصة كان يقوم بها إلى فيينا لعقد مؤتمر صحفي لحثّ الولايات المتحدة – في غمرة أزمة الرهائن – على نسيان الماضي ومساعدة إيران على مواصلة دفاعها عن نفسها[39]. بعد ذلك بيومين، قال نائب وزير الدفاع الإسرائيلي موردخاي زيبوري لصحيفة معاريف الإسرائيلية بأن إسرائيل ستقدم مساعدات عسكرية لإيران في حال غيّرت موقفها العدائي من الدولة اليهودية: "يمكن لإسرائيل أن تقدم مساعدات هامة لإيران وأن تمكّنها – من وجهة نظر لوجستية – من مواصلة حربها مع العراق. بالطبع، هذا لا يمكن أن يحدث طالما أنه لم يطرأ تغيير جذّي في النظام الإيراني المتطرّف"[40].

تنقّلت إسرائيل برشاقة على عدة جبهات. ففي زيوريخ، أفيد بأنه تم عقد لقاء جمع بين مسؤولين إيرانيين وإسرائيليين لإبرام صفقة أسلحة. وهناك، ناقش العقيد الإسرائيلي بن يوسف ونظيره الإيراني العقيد زارابي، مدير المجمّع الصناعي العسكري بإيران، اقتراحات كثيرة، منها اتفاق يسمح لتقنيين إسرائيليين بتدريب الجيش الإيراني على تعديل العتاد الحربي أميركي الصنع بحيث يتلاءم مع قطع الغيار إسرائيلية الصنع[41]، وفي واشنطن، حثّ السفيرُ الإسرائيلي لدى الأمم المتحدة، إفراييم إيفرون، وزيرَ الخارجية الأميركي إدموند موسكي على تليين موقف إدارة كارتر من مبيعات الأسلحة إلى طهران مع نقل هواجس تل أبيب من مضامين الانتصار العراقي. وعلى العكس من رغبات واشنطن، تراجع بيغن عن الوعد الذي قطعه لكارتر واستأنف مبيعات الأسلحة وقطع الغيار لإيران. وأثناء اللقاء الأخير بين كارتر وبيغن، الذي انعقد في 13 نوفمبر/تشرين الثاني 1980، أعاد بيغن التأكيد على مصلحة إسرائيل في استئناف العلاقات مع إيران. وفسّر طلب إيران المساعدة وميلَ تل أبيب إلى تقديمها. رفض كارتر الفكرة على الفور، وذكّر بيغن بأن مبيعات الأسلحة إلى إيران ستنتهك الحظر الأميركي. وما إن تولّى ريغان سدّة الرئاسة في يناير/كانون الثاني 1981، حتى استؤنفت مبيعات الأسلحة السرّية[42]. من جانبها، أبقت إدارة ريغان على الحظر، ولكنها غضّت الطرف عن مبيعات الأسلحة الإسرائيلية. وأعطى وزير الخارجية ألكسندر هايغ، المعروف بتعاطفه مع إسرائيل، ضوءاً أخضر غير رسمي للمضي في هذه المبيعات في مستهل العام 1981[43].

وفي وقت لاحق، اجتمع شارون، في سبتمبر/أيلول 1981، مجدداً بهايغ، وبوزير الدفاع الأميركي كاسبار واينبرغر، ومدير وكالة الاستخبارات المركزية ويليام كايسي، وشرح الحاجة إلى دعم إيران. وفي سيرته الذاتية، كتب شارون بأنه قال للأميركيين بأن إيديولوجيا آية الله الخميني "لا تنفي أهمية إيران كبلد أساسي في المنطقة" وأنه من مصلحة الغرب على المدى البعيد مواصلة الاتصالات البعيدة عن الأنظار مع حكومة الخميني، وبخاصة مع الدوائر العسكرية بطهران. وبدلاً من التأكيد على حاجة إسرائيل إلى إيران لموازنة العراق، حذّر شارون الأميركيين من خطر استخدام الاتحاد السوفياتي للحرب من أجل دخول إيران والسيطرة على مصادر الطاقة فيها. فهناك معاهدة بين إيران وروسيا ترجع إلى العام 1921، وتسمح لموسكو بالتدخل ضدّ قوات عسكرية تابعة لأي طرف يريد استخدام إيران كقاعدة عمليات ضدّ روسيا[44]. حذّر شارون الأميركيين من أن ذلك يمكن أن يحدث في حال واصل العراق حربه ضدّ الإيرانيين[45]. بوجه عام، بلغت نسبة العتاد العسكري الذي اشترته طهران بعد اندلاع الحرب مباشرة،

استناداً إلى أحمد حيدري، وهو تاجر أسلحة عمل لصالح نظام الخميني، من إسرائيل 80 في المائة[46].

مع استمرار الحرب من دون أن يسقط النظام الثوري، بدأ التفكير الإسرائيلي بغض النظر عن الاعتماد على انهيار نظام آية الله الخميني للسعي والتركيز بدلاً من ذلك على تعزيز العناصر المعتدلة فيه[47]. بالرغم من أن الإسرائيليين بدأوا يدركون أن نظام آية الله الخميني لن ينهار في وقت مبكر، أصرّوا على اعتبار أن طبيعته الإسلامية وآراءه المتطرّفة مؤقتة، وأن إيران الحقيقية ذات التوجه الجيوسياسي ستستأنف التعاون الاستراتيجي الذي كان قد بدأه الشاه مع إسرائيل، عما قريب. هذا ما جعل من الأهمية بمكان بالنسبة إلى إسرائيل دعم إيران في الحرب، لأن هزيمة الإيرانيين لن تعني تعزيز الجبهة العربية المعادية لإسرائيل وحسب، بل وستقلل من فرص إحياء التحالف الإسرائيلي مع إيران لأن النظام التالي سيكون ضعيفاً ومعتمداً على العراق. بناء على ذلك، يمكن لدعم المعتدلين داخل النظام الإيراني أن يسهّل عملية استئناف الروابط بين إسرائيل وإيران، علماً بأن العنصر الوحيد في إيران الذي يمكنه تغيير الوضع إلى الأحسن يتألف من الضباط المحترفين في الجيش الإيراني. ويشرح كيمشي وجهة النظر هذه بالقول: "ساد شعور بأنه في حال استطعنا نحن في إسرائيل الإبقاء على العلاقات بطريقة ما مع الجيش، يمكن أن يؤدي ذلك إلى تحسّن في العلاقات بين إيران وإسرائيل"[48].

غير أن إسرائيل لم تكن موحّدة في حماسها لدعم إيران في الحرب. فقد واصل معسكر صغير الدفاع عن مشاركة إسرائيلية نشطة في إسقاط الخميني. وفي هذا السياق، جادل أوري لوبراني، ممثل إسرائيل لدى إيران في السبعينيات، في برنامج بانوراما الذي أذاعته محطة بي بي سي في 8 فبراير/شباط 1982 بأنه يمكن لإسرائيل أن تنظّم انقلاباً عسكرياً لإسقاط الخميني، ولكن واشنطن بطيئة في إعطاء مباركتها لهذه الخطة. دافع شارون عن فكرة مساعدة رضا بهلوي، نجل الشاه الراحل[49]. وجادل آخرون بأن إبرام السلام مع مصر جعل المبدأ المحيطي قديماً بالكلّية لأنه أثبت أن السلام مع العرب أمر ممكن. وجادل يوسي (يوسف) ألفير، وهو ضابط سابق في الموساد ومستشار رفيع لدى رئيس الوزراء السابق إيهود باراك، بأن الفكرة القائلة بأن إيران والعراق غير قادرين على تهديد إسرائيل طالما أنهما غارقان في الحرب كانت "مقاربة قصيرة النظر لأنها لم تعترف بحقيقة أنه كلما طال أمد الحرب، كلما زاد تسلّح البلدين وكلما زاد تطرّفهما"[50].

قصيرة النظر أو ليست قصيرة النظر، لم تتخلّ إسرائيل عن فكرة إعادة بناء علاقاتها مع طهران. ربما كانت اتصالات إسرائيل المكثفة مع الجيش الإيراني هي التي مهدت الطريق أمام أكثر تدخلات إسرائيل حسماً في الحرب. ففي 7 يونيو/حزيران 1981، أقلعت ثماني طائرات إسرائيلية من طراز أف-16 وأربع طائرات من طراز أف-15 قاعدة إتزيون الجوية في ما أُطلق عليه العملية أوبرا. كان هدف تلك المهمة مفاعل البولتونيوم البحثي العراقي في أوزيراك والذي يُشتبه في أنه يُستخدم في تطوير موادّ لصنع أسلحة دمار شامل. أدّت الضربة الجوية إلى تدمير موقع المفاعل بسرعة، وأعادت برنامج الأسلحة النووية العراقي عدة سنين إلى الوراء. عادت جميع الطائرات إلى إسرائيل سالمة مع الغسق في عملية اعتُبرت خالية من الأخطاء، واستناداً إلى صحيفة صنداي تلغراف اللندنية، استعانت إسرائيل بصور فوتوغرافية وخرائط إيرانية للمنشآت النووية[51]. كان هجوم أوزيراك قد نوقش من قِبل ضباط إسرائيليين كبار ومندوب عن نظام آية الله الخميني بفرنسا قبل شهر من تنفيذه، استناداً إلى آري بن ميناشي الذي شارك عن قرب في الاتصالات الإسرائيلية الإيرانية في مستهلّ الثمانينيات. في ذلك الاجتماع، شرح الإيرانيون تفاصيل هجومهم غير الموفّق على الموقع في 30 سبتمبر/أيلول 1980، ووافقوا على السماح للطائرات الإسرائيلية بالهبوط في مطار إيراني بتبريز في حال الطوارئ[52]. وسواء لعبت إيران دوراً في قصف أوزيراك أم لا، استغلّ العراق الهجوم الإسرائيلي في دعايته الهادفة إلى تقويض الجهود التي تبذلها إيران لإعطاء دورها القيادي في العالم الإسلامي صبغة شرعية. قال العراقيون بأن إيران تخوض حرباً إسرائيلية.

بعد شهر من ذلك التاريخ، وتحديداً في 18 يوليو/تموز، تحطمت طائرة شحن أرجنتينية كانت تنقل أسلحة إسرائيلية متوجّهة إلى إيران بالقرب من الحدود السوفياتية التركية، مما أثار غضباً دولياً. أنكرت كل من إيران وإسرائيل أية صلة بالطائرة، لكن الدعم الإسرائيلي لإيران بات سرّاً مكشوفاً على نحو متزايد[53]. في حين أعطت الحادثة دفعاً جديداً للجهود الدعائية التي يبذلها صدام ضدّ إيران، احتجت منظمة التحرير الفلسطينية على ما اعتبرته معايير إيران المزدوجة في سياستها تجاه الفلسطينيين[54]. لكن مبيعات الأسلحة استمرّت بدون انقطاع. بوجه عام، اشترت إيران من إسرائيل أسلحة فاقت قيمتها 500 مليون دولار في الفترة الواقعة بين عامي 1980 و1983، وذلك استناداً إلى معهد يافي للدراسات الاستراتيجية بجامعة تل أبيب. تم سداد معظم هذا المبلغ عبر تسليم شحنات من النفط الإيراني لإسرائيل. وتتبّعت وكالة الاستخبارات المركزية حوالى 300 مليون دولار من تلك المبيعات، وفوجئ العديد من ضباط الاستخبارات بعدم استعداد إدارة ريغان لوقف التعاملات الإسرائيلية الإيرانية[55].

في مايو/أيار 1982، قال وزير الدفاع الإسرائيلي أرييل شارون لمحطة أن بي سي أن تل أبيب زوّدت إيران بالأسلحة والذخائر لأنها اعتبرت أن العراق "خطر على العملية السلمية في الشرق الأوسط"[56]. وأضاف شارون بأن إسرائيل قدّمت الأسلحة لإيران لأنها شعرت بأنه من المهم "تركة نافذة صغيرة مفتوحة" أمام احتمال إقامة علاقات جيدة مع إيران في المستقبل[57]. في حين سعت إيران إلى إبقاء علاقاتها التجارية مع إسرائيل سرّاً قدر الإمكان، جنت إسرائيل بعض الفوائد من إذاعة خبرها على الملأ، وبخاصة بعد أن قررت إدارة ريغان غضّ الطرف عن تعاملات إسرائيل مع إيران. فكلما حظي التعاون الإسرائيلي الإيراني بمزيد من التغطية الإعلانية، كلما صارت إيران أكثر انعزالاً عن العالم العربي، وهذا بدوره سيزيد من اعتماد إيران على إسرائيل. يشرح السفير ظريف المسألة فيقول: "أية علاقات مع إسرائيل أو تصوّر وجود علاقات مع إسرائيل سيهدد أكثر أهداف السياسة الخارجية الإيرانية أهمية؛ ألا وهو التقارب مع دول المنطقة". حتى في الأيام التي غلبت فيها المشاعر الثورية، كان هدف الاستحواذ على

قلوب الشعوب في العالم الإسلامي وعقولها هدفاً أسمى[58]. لقد اعتبرت إيران أن الكشف عن تعاملاتها مع إسرائيل بمثابة محاولات إما من جانب الولايات المتحدة، أو إسرائيل، أو العراق لتشويه سمعة إيران وإضعاف سياستها الخارجية[59].

ردّ آية الله الخميني بغضب على فضح هذه الأسرار. ففي خطاب ألقاه في 24 أغسطس/آب 1981، أنكر بشدّة هذه المزاعم، وجادل بأن أعداء إيران يحاولون تقويض الثورة عبر نشر إشاعات كاذبة عن تعاون إسرائيلي إيراني. قال الخميني:

إنهم يتهموننا باستيراد الأسلحة من إسرائيل. وهذا يقال في حق بلد نهض لمعارضة هذه العصابة الصهيونية المدانة منذ البداية... منذ أكثر من عشرين عاماً، في خطابات وتصريحات، تحدثنا عن إسرائيل وعن أعمالها القمعية، في حين أن عدداً كبيراً من الدول الإسلامية لم يقم بخطوة واحدة حتى على هذا الطريق في معارضة إسرائيل. هذا الرجل المدعو صدام لجأ إلى التمثيل، وكما قيل، أجبر إسرائيل على قصف مركزه النووي لكي ينقذ نفسه من العار الذي سببه بنفسه بمهاجمة إيران الإسلامية. هدفه من القيام بذلك هو تمويه جرائمه، وإعطاء انطباع بأن إسرائيل تعارض صدام، وأنها تعارض حكومة البعث العراقية. هذا سيوفر له ذريعة، وهي أن إسرائيل تعارض صدام، وأن لها روابط معنا. هذه تفاهات صبيانية. إنهم يحاولون حمل الدول الإسلامية الأخرى على الاعتقاد بأننا ندعم إسرائيل. لكن منذ أن بدأت هذه القضية، وهذه الحركة، كان أكثر قضايانا أهمية وجوب التخلص من إسرائيل[60].

من جانبها، كانت إسرائيل تتعامل مع انفصالها عن أفكارها الإيديولوجية الخاصة. ما من شك في أن تعاملاتها مع إيران تجاوزت الحسابات قصيرة المدى القائمة على موازنة الخطر العراقي. فبالرغم من أن إيران قبلت المساعدة العسكرية الإسرائيلية، فإن عدم استعداد إيران للاعتراف بالكيان الإسرائيلي أو توسيع مدى التعاون ليشمل نواحي أخرى جعل إسرائيل بدون روابط استراتيجية قابلة للاستمرار مع دولة محيطية غير عربية. لقد أساءت إسرائيل بالخلط بين البراغماتية في التعاملات التجارية الإيرانية والفوارق الدقيقة في وجهات نظر الإيرانيين حيال إسرائيل. يقول صموئيل بار من معهد السياسة والاستراتيجيا الإسرائيلي بهرتزيليا: "من خلال النظرة الكونية الإيرانية، يمكنك التعامل مع الشيطان نفسه، ولكن الشيطان يبقى دائماً شيطاناً"[61]. لكن بالنسبة إلى إسرائيل، تفوقت الغريزة في مواجهة غياب أي خيار شريف. ومن رحم رغبة إسرائيل اليائسة في إحياء المبدأ المحيطي، وإعادة بناء المحور الأميركي الإسرائيلي الإيراني، وُلدت فضيحة العقد، عملية إيران – الكونترا.

الفصل 11 فضيحة

كل من إسرائيل وإيران بحاجة إلى الآخر. لطالما كان الأمر على هذا النحو، وسيبقى الأمر على هذا النحو.

– محلل إسرائيلي، 1986

كان العالم في العام 1983 مكاناً مختلفاً عما هو عليه اليوم. ففيما كان دونالد رامسفيلد، المبعوث الخاص للرئيس ريغان، يغدق الثناء على صدام حسين ببغداد، كانت إسرائيل تحثّ واشنطن على عدم الالتفات إلى الدعوات الإيرانية التي تطالب بتدمير الدولة اليهودية، وكان المحافظون الجدد يخططون للتقارب مع نظام الخميني، فيما كانت إيران – وليس الولايات المتحدة – تُعتبر بعيدة عن الواقع بتخيّلها بروز هلال شيعي.

بدلاً من مواجهة نفوذ إيران في المنطقة، وتحذير الغرب من الهيمنة الإيرانية، سلّمت إسرائيلُ إيرانَ عن غير قصد – باجتياحها لبنان – نجاحها الوحيد في تصدير ثورتها إلى العالم العربي. بدأ الاجتياح الإسرائيلي في 6 يونيو/حزيران 1982 ردّاً في الظاهر على محاولة مسلّحين فلسطينيين اغتيال شلومو أرغوف، سفير إسرائيل لدى المملكة المتحدة. غير أن أرييل شارون، الذي كان حينها وزير الدفاع في إسرائيل، كان يخطط لاجتياح لبنان منذ عدة شهور بغرض التخلّص من وجود منظمة التحرير الفلسطينية هناك؛ منذ أواخر العام 1981 على أقل تقدير. مع أن منظمة التحرير كانت ملتزمة بوقف إطلاق النار منذ صيف العام 1981، حسِب شارون ورئيس الوزراء مناحيم بيغن أنه في حال استطاعا القضاء على وجود المنظمة بلبنان، فسيتمكنان من عكس ميل القوة الدبلوماسية المتنامية للمنظمة، وإخماد الشعلة الفلسطينية الوطنية داخل الأراضي المحتلّة.

جنوب لبنان موطن تقليدي للطائفة الإسلامية الشيعية المحرومة بلبنان. كان الشيعة مستائين من منافسة اللاجئين الفلسطينيين لهم على الموارد المحلّية، وكذلك كانوا مستائين من تصرفات منظمة التحرير في الجنوب. لكنّ الاجتياح الإسرائيلي للجنوب، وطول المدة التي بقي فيها الإسرائيليون في الجنوب، وإنشاؤهم للمنطقة الأمنية أشعر الشيعة بالخوف، وسرعان ما ثاروا على إسرائيل لأنها حرمت الشيعة من إمكانية الوصول إلى الأسواق الجنوبية، وبدأت تغرق اقتصادهم المحلّي بالبضائع الإسرائيلية، مما ألحق أضراراً جسيمة بالمصالح الاقتصادية المحلّية[1]. بالإضافة إلى ذلك، ألحق الاجتياح الإسرائيلي الكثير من الدمار بلبنان، ولم يعمل سوى على زيادة مأساة اللبنانيين الذين كانوا يعانون أصلاً من حرب أهلية استمرّت سبع سنين. قُتل نحو من 20000 لبناني في ذلك الاجتياح، وشُرّد 150000 آخرون. وفي سبتمبر/أيلول 1982، نُفذت مجزرة مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين ببيروت. وبموافقة إسرائيلية ضمنية، اغتصب في تلك المجزرة، وقتل، وشوّه عدة آلاف من اللاجئين المدنيين[2].

هذه المحنة التي عانى منها الشيعة في ظل الاحتلال الإسرائيلي جعلتهم أكثر تقبّلاً لرسالة طهران. في مواجهة خصم إسرائيلي قوي، احتاج الشيعة إلى حليف خارجي، وكانت طهران أكثر من مستعدّة للعب هذا الدور؛ ليس بدافع من مشاعرها المعادية لإسرائيل بل لإيجاد معقل قوي لها في دولة عربية. كانت طهران في أمسّ الحاجة إلى تصدير ثورتها. وهي فشلت في ذلك في العراق بالرغم من أن أغلب السكان هم من الشيعة. والآن، وبفضل الاجتياح الإسرائيلي للبنان، حصلت إيران على فرصة لزرع بذور ثورة إسلامية في المشرق، ومن رحم الاجتياح الإسرائيلي وُلدت حركة شيعية جديدة ونشيطة تستلهم من الثورة الإيرانية. بدأت الحركة بعدد صغير من المجموعات المسلحة من الشباب المنظمين تحت راية الإسلام، وكرّست نفسها لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي. مع مرور الوقت، توحّدت هذه المجموعات – من خلال المعونات والمساعدات الإيرانية – ضمن ما تبيّن أنه أكثر أعداء إسرائيل منعة؛ حزب الله اللبناني[3].

لم يوفّر حزب الله لإيران موطئ قدم لها في الشرق وحسب، بل وقدّم لإيران ورقة أغلى قيمة بكثير: الكثير من الرهائن الأميركيين المحتملين. كان ريغان قد أرسل 1800 جندي من مشاة البحرية إلى لبنان في أغسطس/آب 1982 للتوصل إلى سلام واستباق صراع إقليمي أوسع نطاقاً. شكّلت قوات مشاة البحرية قوة متعددة الجنسيات إلى جانب قوات فرنسية وإيطالية. لكن بعد أن بات يُنظر إلى القوة متعددة الجنسيات على أنها منحازة إلى طرف في الحرب بدلاً من أن تخدم كقوة سلام، بدأ حزب الله باستهدافها. تُوّجت تلك الهجمات بتفجير انتحاري لمقر مشاة البحرية ببيروت بواسطة شاحنة مليئة بالمتفجرات في 23 أكتوبر/تشرين الأول 1983، مما أدّى إلى مقتل 241 جندياً. بعد مرور عشرين ثانية على هذا الهجوم، قتلت متفجرة أخرى ثمانية وخمسين جندياً مظلّياً فرنسياً كانوا في مبنى يأوي القوة متعددة الجنسيات والذي يبعد حوالى سبعة كيلومترات عن المكان الأول. في السنين التالية، خطف حزب الله عدة مواطنين أميركيين وغربيين آخرين. وقد وفّر هؤلاء الرهائن لإيران ورقة تفاوض قيّمة مع الولايات المتحدة ومع إسرائيل، ونافذةً قسرية لدفع الولايات المتحدة إلى إبرام صفقة مع إيران.

المتنفَّس الاستراتيجي لإسرائيل

بحلول العام 1983، طرأ تغيير على مزاج إدارة ريغان. فقد تمكنت القوات الإيرانية من طرد العراقيين من أراضيها، وتقدّم صدام بعرض للتوصل إلى سلام، بما في ذلك دفع تكاليف الأضرار التي ألحقتها الحرب بإيران. لكنّ آية الله الخميني آثر مواصلة الحرب في الأراضي العراقية، مصرّاً على ترديد الشعار "الحرب حتى النصر". فعلى الرغم من غياب التنظيم في الدفاعات الإيرانية والفوضى التي عمّتها، أبلت طهران بلاءً حسناً في قتالها ضدّ العراقيين الغزاة، وهدأت مخاوف إسرائيل من انتصار عراقي سريع. والآن، وبعد غرق كل من العراق وإيران في مستنقع الحرب، توفّر لإسرائيل متنفَّس استراتيجي فيما كانت تعمل على تعزيز مركزها الإقليمي[4].

من دواعي السخرية أن إيران حققت من خلال الحرب أهداف إسرائيل كدولة محيطة عبر شلّ قدرة العراق، وتحييد الجبهة الشرقية لإسرائيل[5]. بتقديم المساعدة العسكرية لإيران، ساهمت إسرائيل في ضمان أمنها الخاص عبر زيادة الانشقاقات بين العرب. يقول ديفيد كيمشي، مدير عام وزارة

الخارجية الإسرائيلية: "كان أملنا الكبير بأن يضعف كل من الطرفين الطرفَ الآخر إلى حدّ أنه لا يعود أي منهما يشكل خطراً علينا"[6]. كان المنطق بسيطاً: طالما أن العراق وإيران يتقاتلان مع بعضهما، لا يمكن لأي منهما أن يقاتل إسرائيل[7]. فأثناء مناقشة جرت على طاولة مستديرة بجامعة تل أبيب في يناير/كانون الأول 1988، أفصح وزير الدفاع الإسرائيلي عن المنطق الاستراتيجي الإسرائيلي: "الوضع الجيد بالنسبة إلى إسرائيل هو عدم وجود منتصر في الحرب العراقية الإيرانية. وهذا يصبّ في المصلحة الاستراتيجية الإسرائيلية، والفائدة السياسية التي جنتها إسرائيل من هذا الوضع لا تقدّر بثمن. فالميثاق المحيطي (مع إيران إبّان حكم الشاه) أدّى فقط إلى تحييد الدائرة العربية الداخلية، ولكنه لم يقضِ على الخطر من الناحية الاستراتيجية. لكن الحرب العراقية الإيرانية أوجدت توازن أخطار لإسرائيل"[8].

لكن المحافظة على المتنفّس الاستراتيجي لإسرائيل كانت علماً يفتقر إلى الدقّة. فسرعان ما تحوّلت الحرب لصالح العراق وأوجدت لإسرائيل كابوساً. ساهمت القدرات الدفاعية الإيرانية المدهشة في زيادة تمسك إسرائيل بالمبدأ المحيطي. اعتقد الإسرائيليون أن تنمية شخصيات معتدلة داخل الحكومة الإيرانية يمكن أن يساعد على تليين الإيديولوجية الإسلامية الرسمية وعلى توجيه سياسة إيران بحيث تتقرّب من إسرائيل. وسرى اعتقاد بأنه يمكن لهؤلاء المعتدلين تولّي السلطة متى تُوفي آية الله الخميني المتوعّك[9]. فآية الله كان يتقدّم في السنّ، والصراع على خلافته يمكن أن يولّد فرصة فريدة لإسرائيل لكي تؤثر في إيران بهدف إحياء التحالف المحيطي[10]. وأصبح تبنّي هذا الخيار أكثر أهمية مع إظهار واشنطن مزيداً من الإشارات التي تدلّ على ميلها إلى جانب العراق في الحرب.

عملية المخْلص

أدّى قرار آية الله الخميني بمواصلة الحرب داخل الأراضي العراقية إلى تدعيم موقف الأعضاء في إدارة ريغان الذين دافعوا عن حرمان إيران من القدرة على الحصول على السلاح. كان هؤلاء المسؤولون منزعجين على الخصوص من مساعدة إسرائيل لآية الله. وكانت الولايات المتحدة قد بدأت في مارس/آذار 1982 بتوفير معلومات استخبارية ودعم عسكري لصدام حسين، بما يتناقض وموقف واشنطن الرسمي بلزوم الحياد في الحرب[11]. إن ميل الولايات المتحدة لصالح العراق جعلها أكثر تردداً في إدانة استخدامه للأسلحة الكيميائية، بالرغم من أن الاستخبارات الأميركية أكدت الاتهامات الإيرانية بأن العراقيين يشنّون هجمات بالأسلحة الكيميائية يومياً تقريباً ضدّ الجنود الإيرانيين والمتمرّدين الأكراد[12].

في أواخر العام 1983، قام ريغان بإرسال رامسفيلد كمبعوث خاص إلى بغداد للاجتماع بصدام حسين وتمهيد الطريق أمام تحسين العلاقات الأميركية العراقية عبر زيادة الدعم الأميركي للعراق في الحرب. أثناء تلك الزيارة، نقل رامسفيلد معه أيضاً إلى وزير الخارجية العراقي طارق عزيز عرضاً إسرائيلياً بمساعدة العراق. لكن عزيز رفض العرض بل ورفض استلام الرسالة التي بعثت بها إسرائيل إلى الرئيس العراقي[13]. كان القصد من الاقتراح الإسرائيلي معرفة ما إذا كان تحسن العلاقات الأميركية العراقية يمكن أن يؤدي إلى علاقات أفضل بين إسرائيل والعراق. لكن رفض استلام الرسالة بدد أية شكوك لدى تل أبيب في النوايا العراقية. كان تقرّب واشنطن من أشد أعداء الدولة اليهودية عداوة في وقت رفض فيه العراق تحسين علاقاته مع إسرائيل مدعاة لفزع كبير بالنسبة إلى الإسرائيليين. وخشيت إسرائيل من إمكانية أن يؤدي هذا التقارب إلى إمالة كفة الميزان في المنطقة في حال أدّى إلى قبول أميركي بانتصار عسكري عراقي.

لم يكن لإيماءة عزيز غير الدبلوماسية تجاه إسرائيل أثر كبير في التخفيف من حماسة واشنطن، ناهيك عن التخفيف من فزع إسرائيل. استفاد المسؤولون في وزارة الخارجية الأميركية من عودة الدفء إلى العلاقات الأميركية العراقية، وقدّموا خطة أُطلق عليها اسم عملية المخلص، والتي هدفت إلى منع حلفاء الولايات المتحدة من إعادة بيع المعدات العسكرية الأميركية لإيران. تم إقرار الخطة في العام 1984، وسرعان ما جفّت مصادر السلاح الإيرانية[14]. أذعنت إسرائيل على مضض للتوجيه الأميركي الجديد، بالرغم من أنها لم تغلق قنواتها الإيرانية تماماً.

مهدت عملية المخلص، والفشل الأميركي بلبنان، واحتجاز حزب الله للرهائن، وفشل إسرائيل في التودد إلى العراق، ومواصلة الالتزام بالمبدأ المحيطي الطريق أمام ما بات يُعرف بفضيحة العقد قضية إيران – كونترا. لم يعد الهدف بعد الآن إعادة إيران الخميني إلى أحضان الغرب، وإنما تقوية المعتدلين داخل إيران الذين يمكنهم توجيه طهران نحو الغرب حالما يغادر آية الله الخميني المسرح السياسي بإيران. يقول إسحاق شامير، الذي خلف لمدة قصيرة بيغن كرئيس للوزراء في العامين 1983–1984: "من المهم أن يكون للغرب موطئ قدم بإيران بعد أن تتغير الأمور"[15]. ووافقه ديفيد كيمشي من حزب العمل الرأي بالقول: "كان هناك شخصيات بالغة التطرّف، وكان هناك، دعنا نقول، متطرّفون معتدلون... كانوا جميعاً متطرّفين، وكانوا جميعاً متعصبين، لكن هناك أشخاص بمثابة خطر مطلق، وكانت هناك مجموعة أخرى... على استعداد للتفاهم مع الغرب... وكانت لا تزال بالرغم من ذلك معادية لإسرائيل، لكنها أقل تطرّفاً بكثير من المجموعة الأولى. شعرنا بأنه في حال حلّت المجموعة الأولى محلّ الخميني، سيكون ذلك بمثابة تهديد مباشر لنا... في حين أنه في حال حلّت المجموعة الثانية محلّ الخميني، سيبقى هناك أمل... لم يكن لدينا ما نخسره بكل تأكيد"[16]. لم يكن في المقدور التقليل من قوة المنطق المحيطي لدى القادة الإسرائيليين في ذلك الوقت. لا يزال المحلّلون الإسرائيليون يعتقدون بأن نظام آية الله الخميني كان – بخلاف القوانين الجيوسياسية – ظاهرة مؤقتة وحسب. أثبتت هذه القوانين أنها صحيحة منذ أيام سيروس وحتى وقتنا الحاضر... كل من إسرائيل وإيران بحاجة إلى الآخر. لطالما كان الأمر على هذا النحو، وسيبقى الأمر على هذا النحو. وقال مسؤول إسرائيلي لم يجرِ الإفصاح عن اسمه لمانشستر غارديان ويكلي في العام 1986 بأن "المصالح الجيوسياسية الأساسية التي أملت في الأصل وجود رابط إسرائيلي إيراني كانت أبعد ما يكون عن مجرّد نزوة لدى الشاه... ستبقى هذه المصالح المشتركة موجودة عندما ينتهي مفعول الحماسة الدينية

الحالية التي اعتمد عليها نظام آية الله الخميني وتبدأ بالفتور"[18].

مكيدة إسرائيلية

تم التخطيط لأول مرة لفكرة تنفيذ عملية المخلص بهدف إعادة إيران – مع آية الله الخميني أو بدونه – إلى أحضان الغرب أثناء اجتماع عُقد في هامبورغ في أواخر العام 1984 بين كيمشي، وآل شويمر وهو تاجر سلاح إسرائيلي خدم كمستشار مقرّب لدى رئيس الوزراء الإسرائيلي شمعون بيريز، وياكوف نمرودي الذي خدم كملحق عسكري إسرائيلي لدى إيران في الستينيات والسبعينيات، ومنوشهر غوربانيفار وكان قريباً من فصيل هاشمي رفسنجاني الرئيس القوي للبرلمان الإيراني[19]. كان كيمشي قد دخل قبل شهور قليلة ماضية في حوار مع عناصر داخل النظام الإيراني كانت تسعى إلى تقريب السياسة الخارجية الإيرانية أكثر من الموقف الغربي[20]. مع أن الإيرانيين أجبروا القوات العراقية على الانسحاب من إيران، إلا أن رحى الحرب تواصلت، وكانت إيران في حاجة ماسّة إلى الأسلحة. ومن خلال غوربانيفار، اتصل الإيرانيون بحكومتين عربيتين، ولكنهما رفضتا تقديم المساعدة. حتى أن الإيرانيين حاولوا الاتصال بالولايات المتحدة مباشرة. ففي 14 يونيو/حزيران 1985، قام حزب الله بخطف طائرة تي دبليو أي في رحلتها 847 التي كانت متوجهة من أثينا إلى روما. طالب الخاطفون بتحرير السجناء الشيعة المحتجزين في الكويت، وإسرائيل، وإسبانيا، في مقابل إطلاق سراح الرهائن، والذين كان في عدادهم بعض الأميركيين. وعلى أمل الفوز بودّ واشنطن، تدخلت إيران لإنهاء العملية، وبعثت برسالة إلى مجلس الأمن القومي الأميركي قالت فيها: "بأنها تريد بذل قصارى جهدها لإنهاء أزمة التي دبليو أي". كان رفسنجاني في طريق العودة من زيارة قام بها لتونس عندما اعترضت الاستخبارات السرّية الإسرائيلية محادثة جرت بينه وبين السفير الإيراني لدى سوريا، علي أكبر محتشميبور، وهو شخصية هامة تقف خلف روابط إيران بحزب الله. أعطى رفسنجاني توجيهاته إلى السفير بأن يضغط على حزب الله لكي يطلق الرهائن[21]. وقام وزير الخارجية الإيراني علي أكبر ولايتي بعمل مماثل[22]. ومع أنه تم إطلاق سراح المحتجَزين في النهاية نتيجة للتدخل الإيراني، رفضت واشنطن التعامل مع إيران. كما سعى غوربانيفار إلى التودّد إلى وكالة الاستخبارات المركزية، ولكنّ أياً من جهوده لم يثمر عن أية نتائج أيضاً. وقال عدنان خاشقجي لغوربانيفار المذهول بأن الطريقة الوحيدة للاتصال بواشنطن تمرّ عبر إسرائيل[23].

وردت تقارير مقلقة من جديد من جبهة الحرب، فقد ردّت بغداد على الهجوم المضادّ الإيراني داخل الأراضي العراقية باستخدام متزايد للأسلحة الكيميائية، وشنّ هجمات صاروخية مدمّرة على المدن الإيرانية الكبرى. وجدت إيران نفسها مجبرة على العمل بنصيحة الخاشقجي[24]. كان ذلك الملاذ الأخير لإيران، ولكن المسألة كانت مسألة بقاء. رأى معسكر رفسنجاني أن إيران بحاجة إلى واشنطن، لأنه بدون الحصول على أسلحة وقطع غيار أميركية، ستخسر إيران الحرب، وبدون حماية أميركية من الاتحاد السوفياتي يمكن أن تصبح إيران دولة تسير في الفلك السوفياتي. بعد استنفاد كافة القنوات المحتملة، استعان غوربانيفار بالخاشقجي للاتصال بتل أبيب، واعداً الإسرائيليين بأنه في حال "انتصرت في هذه الحرب، فلن ننسى شكر أولئك الذين ساعدونا... سوف تشهدون تغيّراً جذرياً في موقف طهران من إسرائيل". لم يكن الإسرائيليون بحاجة إلى من يقنعهم بذلك، ويشرح نمرودي حقيقة الموقف الإسرائيلي بالقول: "لم نكن أقلّ شوقاً من الذين يتصلون بنا"[25]. رأى الملحق العسكري الإسرائيلي السابق إمكانية "استعادة النظام السابق... لرؤية البلدين كقوتين مشتركتين في مواجهة أعداء مشتركين في العالم العربي المحيط بهما"[26]. وعلل كيمشي، ونمرودي، وزملاؤهما الإسرائيليون بأنه كان على إسرائيل واجب إخراج إيران من عزلتها، ووقف دعمها للإرهاب، وإعادتها إلى "الشراكة الجيوسياسية مع الغرب"، وإمالة كفّ الميزان إلى غير صالح العراق[27]. لكن الإسرائيليين لم يفهموا بشكل كامل أنه لم تكن لدى إيران مصلحة ذاتية في إسرائيل. فعلى الرغم من بعض الأهداف الجيوسياسية المشتركة، سعت إيران إلى استخدام إسرائيل فقط في سبيل الاتصال بواشنطن[28]. ويشرح استراتيجي إصلاحي بارز المنطق الإيراني بالقول: "إسرائيل هي بوابة أميركا دائماً. وأنا لا أعتقد بأن أحداً في دنيا الأحلام حينها فكّر في استئناف الحوار مع إسرائيل على الإطلاق"[29].

تابعت إسرائيل التي لم تدرك لعبة إيران المزدوجة العمل على خطتها المتمثلة في استمالة إيران إلى الحظيرة الغربية مجدداً من أجل موازنة التهديد العربي والعراقي ومنع السوفيات من إيجاد موطئ قدم لهم في إيران. في حين كان لدى إسرائيل حوافزها الخاصة لترقيع علاقاتها مع طهران، كانت واشنطن مصدر تحدّ أصعب بكثير. كانت الولايات المتحدة في غمرة تقارب مع صدام حسين، والذكّريات المذلّة لأزمة الرهائن الأميركيين كانت لا تزال حاضرة في أذهان الأميركيين. لكن من خلال حزب الله، كان لدى إيران شيء أرادته الولايات المتحدة فعلاً؛ الرهائن الأميركيون في لبنان[30].

أوجد هذا الوضع علاقة مثلثية متوازنة على نحو مثالي، فواشنطن أرادت تحرير الرهائن، وإسرائيل أرادت بناء روابط أوثق مع إيران، وطهران أرادت الحصول على أسلحة[31]. بالنسبة إلى إسرائيل، كان الهدف الاستراتيجي الأوسع المتمثل في الفوز بإيران مجدداً أكثر أهمية من احتجاز حزب الله للرهائن في لبنان أو الحاجات العسكرية لإيران. بقيت العلّة كما هي لإعادة تكامل إيران مع المعسكر الغربي، لدى إسرائيل استعداد لرفع قدرات إيران العسكرية وحلّ وضع الرهائن بلبنان[32]. لكن لم يكن في الإمكان اختبار الخطة ما لم يتم تخفيض حدة التوترات بين الولايات المتحدة وإيران. لذلك، أولى المهام كانت الفوز بموافقة تل أبيب، ثم إشراك واشنطن في الخطة. اقترب نمرودي وكيمشي من رئيس الوزراء شمعون بيريز (كانت الانتخابات قد جرت في العام 1984، وجاءت نتيجتها متعادلة من الناحية الفعلية، فقرر حزب العمل والليكود تشكيل ائتلاف عريض)، والذي تشاور

مع وزير الدفاع رابين ووزير الخارجية شامير الذي بات رئيسياً لليكود بعد تقاعد بيغن. وافق الثلاثة، الذي أُطلق عليهم *منتدى رؤساء الوزارة* في الصحافة الإسرائيلية، على الفكرة في ربيع العام 1985 شريطة اقتصار الأسلحة المباعة لإيران على تلك التي استولت عليها إسرائيل أو التي صُنعت في إسرائيل. وأصرّوا على وجوب استبعاد الأسلحة الأميركية[33].

طُلب من الخاشقجي وغوريانيفار الاتصال بمجلس الأمن القومي الأميركي، ولكن مستشار الأمن القومي روبرت باد ماكْفرلاين لم تعجبه الفكرة. وكان على وشك رفض طلبهما للحصول على أسلحة والدخول في حوار عندما تدخل شمعون بيريز واستفسر عن إمكانية الدخول في تعاون سرّي مع إيران. كان تدخل بيريز مثمراً، فقد قرر ماكْفرلاين اختبار الاتصال الإيراني عبر طرف ثالث يمكنه تحمّل المسؤولية الكاملة؛ وكان الطرف الثالث إسرائيل. في حين كانت إسرائيل تتحرك بدافع المبدأ المحيطي، كانت المنافسة في الحرب الباردة محرّك العقول السياسية في واشنطن. لكن بالنسبة إلى الذين شملتهم التعيينات السياسية في إدارة ريغان، مثل تعيين بول وولفويتز، وروبرت ماكْفرلاين، وريتشارد بورت، كان استئناف العلاقات الدبلوماسية مع إيران غير واقعي، بالرغم من أنهم آمنوا بقوة بأن من مصلحة إسرائيل والولايات المتحدة تسهيل إيجاد حكومة بديلة يمكنها استئناف هذه العلاقات.

مع استمرار الحرب وارتفاع عدد الضحايا، سيبرز كادر يمكن دعمه لكي يصبح عنصر معارضة قادراً على البقاء. رؤي أنه إذا أضيف هذا الافتراض إلى حقيقة أن الاتحاد السوفياتي نشر مائة ألف جندي على الحدود الشمالية لإيران، والمناورات الحدودية التي كانوا يجرونها بصفة دورية، كان ينبغي أن ينتاب إيران قلق جيواستراتيجي من النوايا السوفياتية. يشرح ماكفرلاين الأمر بالقول: "لكننا نحن من افترضنا هذه النظرية علماً بأنه لم يكن لها أساس في الأحداث المعاصرة في الواقع أو في الموادّ الاستخبارية"[34]. كان ماكفرلاين قلقاً من أن التفوق الكبير الذي يملكه الاتحاد السوفياتي على إيران سيمكّنه من جذب طهران إلى المعسكر الشيوعي، وخاصة بعد وفاة الخميني. ففي مذكّرة فائقة السرّية رفعها إلى وزير الخارجية الأميركي جورج شولتز ووزير الدفاع كاسبار واينبرغر، كتب ماكفرلاين، "يتمتع الاتحاد السوفياتي بوضع أفضل من وضع الولايات المتحدة لاستغلال أي صراع على القوى يمكن أن يتسبب في تغييرات في النظام الإيراني والاستفادة منه، فضلاً عن زيادة الضغوط الاجتماعية السياسية". وخلص إلى أنه ينبغي أن يكون هدف واشنطن على المدى القصير قطع الطريق أمام الجهود التي تبذلها موسكو لزيادة نفوذها في إيران، وأنه يتعين على الولايات المتحدة تفادي الوصول إلى وضع تشعر فيه إيران بأنه لم يعد أمامها خيار سوى اللجوء إلى السوفيات[35].

أسلحة مقابل الرهائن

بعد تدخل بيريز، أعطى ريغان موافقته على إجراء تحقيق سرّي في الخطوة المقترَحة، وأوكل هذه المهمة لمايكل ليدين، وهو بروفسور في الجامعة الأميركية وصفه نمرودي بأنه "يُشتهر بأنه صهيوني حقيقي ومخلص، غالباً ما كان يحضر المناسبات العامة المناصرة لإسرائيل"[36]. طلب ماكفرلاين من ليدين عدم إطلاع وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات الأميركية على الأمر، فأجرى ليدين ترتيبات عقد لقاء مع شمعون بيريز بتل أبيب في 6 مايو/أيار 1985[37]. كان ليدين، الذي يُعرف اليوم بأنه أحد أشدّ المعارضين في واشنطن لأي شكل من أشكال الاتصال مع النظام الإيراني، ينتمي إلى المعسكر المعارض في ذلك الوقت. قال ليدين لرئيس الوزراء الإسرائيلي ما أراد الأخير أن يسمعه بالضبط: إن افتقار أميركا إلى المعلومات الاستخبارية المتعلقة بإيران أمر يُرثى له، وأنها بحاجة إلى المساعدة الإسرائيلية لبدء حوار مع طهران. قال نمرودي إن رئيس الوزراء "وافق على الطلب عن طيب خاطر". وقال بيريز لمايكل: "هناك اتصالات يقوم بها أعضاء كبار في النظام الإيراني، عبر وسطاء، للتباحث في مسألة بيع معدات عسكرية". اقترح رئيس الوزراء بأنه ربما يكون من المفيد إرسال بالون اختباري إلى طهران؛ شحنة أسلحة واحدة لاختبار نوايا الإيرانيين[38]. مع أنه لم يجرِ إطلاع وكالة الاستخبارات المركزية إلى حدٍّ بعيد على التعاملات مع إيران، فقد أيّدت فكرة مدّ اليد لإيران لمنعها من الوقوع في فلك الاتحاد السوفياتي بل وأوصت ببيع أسلحة إلى إيران عن طريق بلد ثالث لتعزيز موقف المعتدلين الإيرانيين وتحسين مستوى المعلومات الاستخبارية الأميركية المتعلقة بإيران[39].

واصل كيمشي وماكفرلاين التخطيط للعملية شخصياً. وبعد أن اطمأن ماكفرلاين إلى أن رابين وشامير موافقان على العملية أيضاً، مضى كيمشي إلى حدّ القول بأن الإيرانيين واثقون بأنه يمكنهم تأمين إطلاق سراح الرهائن الأميركيين في لبنان[40]. كانت هذه المسألة تحتلّ أهمية كبرى بالنسبة إلى ماكفرلاين بسبب الضغط الذي يمارسه ريغان نفسه. لكنّ كيمشي حذّر ماكفرلاين من أن الإيرانيين سيطلبون الحصول على أسلحة أميركية عاجلاً أو آجلاً. اختلفت روايتا ماكفرلاين وكيمشي في نقاط عديدة[42]، فعلى العكس من شهادة كيمشي، ادّعى ماكفرلاين بأنه غادر اللقاء الذي جمع بينه وبين كيمشي "متحفظاً ومتشككاً"[43]. فقد اعتقد بأن "المصالح الإسرائيلية ومصالحنا لم تكن متطابقة" وشكّ في أن الإسرائيليين ربما كانوا يسعون إلى انتهاز فرصة للإضرار بالعلاقات الأميركية العربية[44].

بعد أن أطلع ماكفرلاين الرئيسَ ريغان على تفاصيل المحادثات، تحركت الأمور بسرعة. كان ماكفرلاين يقوم بتبليغ كيمشي، وكان كيمشي يطلع بيريز وشامير على آخر المستجدات، وكان بيريز يوجز المعلومات لنمرودي وفريقه. وفي 9 يوليو/تموز، تمكن غوريانيفار من ترتيب اجتماع في هامبورغ مع حسن كرّوبي، وهو مسؤول مقرّب ومؤتمن من آية الله الخميني ويؤيد تحسين العلاقات مع واشنطن. بدأ الاجتماع مع كرّوبي متوتراً، ولكنّه عرف بالضبط ما ينبغي أن يقوله لتهدئة الإسرائيليين. خُصص القسم الأول من الاجتماع لتحليل الوضع الاستراتيجي في المنطقة بالإضافة إلى الوضع الداخلي الإيراني. لم يُخفِ كرّوبي حقيقة أن إيران في مأزق، وقال للإسرائيليين: "يمكن أن تساعد أميركا على إنقاذ إيران من وضعها

الصعب. إننا مهتمون بالتعاون مع الغرب، فلدينا مصالح مشتركة معه، ونرغب في أن نكون جزءاً منه". وقال كرّوبي بأن هزيمة إيران في حربها مع العراق ستحولها إلى دولة تدور في فلك الاتحاد السوفياتي، ما لم تتدخل أميركا وإسرائيل بحكمة. وتحدث عن مواجهة إيران والغرب "عدواً مشتركاً ألا وهو الاتحاد السوفياتي" وأنه يتعين هزيمة العناصر اليسارية بإيران. وطلب الحصول على أسلحة أميركية بعبارات لا لَبْس فيها فقال: "إن الخطر المادي من الاتحاد السوفياتي لمنطقتنا ولكم هو خطر متوقع. إننا نخشى السوفيات واليسار في بلادنا"[46].

عرض الإسرائيليون الذين أُعجبوا برجل الدين، مساعدتهم، فردّ كيمشي قائلاً: "ونحن أيضاً نرغب في التعاون. ونحن أيضاً نرغب في الخدمة كجسر بين إيران والغرب"[47]. ثم وصف نمرودي كيف أن الأعداء والمصالح المشتركة لكل من إيران وإسرائيل قد قرّبا البلدين من بعضهما في الماضي فقال: "سعينا بجهد إلى تقوية إيران. وأنا لا أتحدث عن تقوية نظام معين، وإنما أتحدث عن المساعدة على بناء إيران قوية، وحرّة ومعترف بها"[48]. دامت المحادثات أربع ساعات، وقبل أن يفترق الجمع، سأل نمرودي كرّوبي إذا كان سيخبر جماعته بطهران بأمر اجتماعه مع الإسرائيليين، فردّ كرّوبي بالقول: "أجل. ولكنّي لن أجاهر بذلك في الشوارع". وبوجه عام، كان الاجتماع بمثابة خرق كبير، وأوصى كيمشي في مذكّرة رفعها إلى بيريز وشامير بمواصلة الاتصالات[49].

لم يرق لواشنطن طلب إيران الحصول على أسلحة – مائة صاروخ تاو لكي نكون دقيقين – مقابل ضغطها على حزب الله لإطراق سراح أربع رهائن. لكن كيمشي المتلهّف لإنقاذ الصفقة سافر إلى واشنطن في 3 أغسطس/آب والتقى بماكفرلاين حاملاً معه اقتراحاً جديداً. فقد أراد الإسرائيليون استيضاح نوايا واشنطن: هل هذه عملية استراتيجية تهدف إلى بناء علاقة جديدة مع إيران، أم أنها مجرّد خطوة تكتيكية لإطلاق سراح الرهائن الأميركيين؟ طلب كيمشي تفسيرات حول ما إذا كانت الولايات المتحدة ستجدد الترسانات الصاروخية الإسرائيلية في حال مضت إسرائيل وأبرمت صفقة مع الإيرانيين. جرت صياغة الطلب بذكاء لوضع الخطر مباشرة على إسرائيل، مع إجبار واشنطن على المشاركة. أوجز ماكفرلاين للرئيس والوزراء الاقتراح الجديد. عارض الأعضاء الرئيسيون في الإدارة إبرام الصفقة، ولكن الفوز بإطلاق سراح الرهائن كان شديد الإغواء لريغان. وفي 6 أغسطس/آب 1985، أعطى الرئيسُ الضوء الأخضر للخطة، وتم شحن تلك الصواريخ[50]. ومع أن الصواريخ وصلت إلى الجناح الراديكالي في الحكومة – وليس إلى المعتدلين كما وعد غورباتيفار – تواصلت عمليات الأسلحة مقابل الرهائن بلا انقطاع[51]. ففي 15 سبتمبر/أيلول، وصلت شحنة ثانية من الصواريخ إلى إيران. وبعد بضع ساعات، أُطلق سراح بنيامين وير، وكان أحد الرهائن المحتجَزين في لبنان. وعلى الفور، أجرى ريغان اتصالاً ببيريز لتهنئته وشكره، وبدوره، أجرى بيريز اتصالاً مع نمرودي لنقل الرسالة ذاتها[52].

عُقد اجتماع ثانٍ مع كرّوبي في 27 أكتوبر/تشرين الأول 1985 بجنيف. وحضر ليدين ذلك الاجتماع للمساومة مباشرة مع الإيرانيين على عدد الصواريخ التي سيتم بيعها، وكيف سيتم تحرير الرهائن، ومتى سيتم ذلك[53]. في البداية، طلب كروبي الصواريخ مجاناً مقابل إطلاق الرهائن، معتقداً أن التوصل إلى تسوية في هذه المسألة سيزيد من تقبّل الأميركيين لمطالب إيران الأخرى. لم تكن الورقة الإيرانية الرابحة عرضاً على ليدين بوضع حدّ للإرهاب الذي ترعاه إيران وحسب، بل ودعوة وفد أميركي لزيارة إيران. أجاب البروفسور المحافظ الجديد: "إذا وفيت بوعودك وقمت بالخطوات اللازمة لاستئناف العلاقات مع الولايات المتحدة، سنكون على استعداد لفتح صفحة جديدة مع النظام الثوري في إيران". في هذه المرحلة، بدأ التوتر ينتاب الإسرائيليين من تركيز كرّوبي الحصري على مستقبل العلاقات الأميركية الإيرانية وإهماله إسرائيل، فتدخل كيمشي بغضب وسأل: "وما هو محلّ إسرائيل في كل ما يجري؟" لكنّ كرّوبي رفض الالتزام بأي شيء تجاه إسرائيل[54]. غادر ليدين الاجتماع منتشياً، فيما أُصيب الإسرائيليون بخيبة أمل[55].

لم يشارك ماكفرلاين ليدين حماسه، وعبّر لكيمشي عن خيبة أمله من هذه العمليات. فبعد إرسال شحنتي أسلحة، لم يتم تحرير أكثر من رهينة أميركية واحدة. يرجع ذلك جزئياً إلى غلطة إسرائيلية محرجة. فهم لم يشحنوا الصواريخ الخطأ وحسب، بل إن تلك الصواريخ كانت ممهورة بنجمة داوود. شعر الإيرانيون بأنه وقعوا ضحية غِشّ وخيانة. ومع أن كيمشي شارك ماكفرلاين في بعض هواجسه، جادل بأنه ينبغي إعطاء الإيرانيين فرصة ثانية لأن العملية أهم بكثير من أن يتم التخلّي عنها في هذه المرحلة. وكما حصل في العديد من المرّات السابقة، وقف ليدين والمقدّم أوليفر نورث – وكان عضواً في مجلس الأمن القومي تطور دوره بشكل كبير في الشهور القليلة التالية– بجانب الإسرائيليين وأيّدوا فكرة مواصلة العمليات[56].

لكن ماكفرلاين كان متشككاً، وبعد وقت قصير على اجتماع سبتمبر/أيلول مع كيمشي، سلّم كتاب استقالته للرئيس ريغان، ونصح بإنهاء العملية الإسرائيلية الإيرانية، وجادل بأنه بدلاً من تأسيس روابط مع الإيرانيين المعتدلين، دخلت الولايات المتحدة في مباحثات مع تجار أسلحة بدون الاكتراث للتوصل إلى حل سياسي للنفور الأميركي الإيراني. لكن ريغان، الذي لم يقتنع بهذا الكلام، أرسل ماكفرلاين إلى لندن في 7 ديسمبر/كانون الأول لرؤية غورباتيفار والتوصل إلى تقييم خاص بشأن إمكانية إبرام مزيد من الصفقات في المستقبل[57].

بدد اجتماع ماكفرلاين بغورباتيفار القليل من شكوك الأول، وعاد إلى واشنطن ليكرر التوصية بإنهاء العملية. استقال ماكفرلاين بعد ذلك بأيام قليلة، ولكن شعوراً منه بأن الرئيس لم ينتهِ من العملية الإسرائيلية الإيرانية، عرض تقديم مساعدته إذا كان الهدف هو تحويل العملية إلى حوار سياسي حقيقي[58]. وبعد بضعة أسابيع، في 17 يناير/كانون الثاني 1986، وقّع ريغان على نتائج تحقيق استخباري يسمح ببيع أسلحة أميركية –

وليس إسرائيلية – لإيران. لم يتم إبلاغ وزارة الخارجية ولا البنتاغون مسبقاً بالقرار غير المسبوق الذي اتخذه ريغان[59]. في هذه المرحلة، كان كيمشي، ونمرودي، وليدين بعيدين عن الصورة. فقد استُبدل ليدين بنورث، وكيمشي بأميرام نير، مستشار بيريز في شؤون الإرهاب. واستناداً إلى كيمشي، الذي لم يكن يكنّ تقديراً كبيراً لنير ولا لنورث، كان تركيز هذا الفريق الجديد على الأسلحة مقابل الرهائن أكبر بكثير من التركيز على الهدف الجيوسياسي الأصلي المتمثل في إقامة روابط مع إيران[60].

واصل الإسرائيليون الضغط على الولايات المتحدة لكي تُبقي على القناة الإيرانية مفتوحة، على الرغم من فشل الإيرانيين في تحرير الرهائن. فبعد أن شعر بيريز بالقلق من أن الفشل في تأمين إطلاق سراح كافة الرهائن سيدفع ريغان إلى وضع حدّ للعملية الإيرانية، بعث برسالة في 28 فبراير/شباط 1986 حثّ فيها ريغان على مواصلة الجهود لبدء حوار مع إيران لأسباب جيوسياسية. كتب بيريز، "إنها قناعتي الراسخة بأن التغيير الجوهري الذي نسعى إليه في البلد الذي نحاول أن نتعامل معه، يحمل وعوداً كبيرة لا بالنسبة إلى بلدَينا وحسب، بل وللعديد من الدول الأخرى في المنطقة وفي العالم الحرّ"[61]. ومضى إلى حدّ المجادلة بأنه ينبغي على الولايات المتحدة حلّ النزاع في لبنان عبر حوار مع طهران من أجل إقامة "علاقة استراتيجية أوسع مع إيران"[62]. مع إطلاق الرهائن أو بدونه، كان بيريز عازماً على إحياء الشراكة المحيطية مع إيران.

كعكة شوكولاته والكتاب المقدّس

بعد مرور خمسة شهور على استقالة ماكفرلاين، اتصل به خليفته، جون بويندكستر الذي قال له بأن الإيرانيين وافقوا أخيراً على بدء حوار سياسي، وعلى عقد لقاء رفيع المستوى في طهران. توقّع البيت الأبيض مشاركة رفسنجاني، أو رئيس الوزراء مير حسين موسوي، أو الرئيس علي خامنئي في المباحثات. أراد الرئيس من ماكفرلاين الذهاب إلى هناك، وهو عرض لم يكن في إمكانه رفضه[63]. من خلال الاجتماعات التي عُقدت في طهران، سعى الرئيس إلى تصحيح العلاقة مع إيران، وإنهاء الحرب العراقية الإيرانية، وأخيراً وليس آخراً، الفوز بإطلاق سراح كافة الرهائن الأميركيين المحتجَزين في لبنان[64]. مع أن ماكفرلاين أراد إقصاء الإسرائيليين للتقليل من الخطر الذي يحيق بالعملية، لكن ذلك لم يكن خياراً واقعياً بكل بساطة في تلك المرحلة. وبدلاً من ذلك، انتهى به الأمر إلى تنسيق زيارته لطهران بالتفصيل مع الإسرائيليين[65].

سافر ماكفرلاين إلى إيران في 25 مايو/أيار 1986، برفقة المحلل المتقاعد في وكالة الاستخبارات المركزية جورج كايف، وهاوراد تيشر العضو في مجلس الأمن القومي، وضابط اتصالات[66]. توقف الوفد أولاً في إسرائيل، حيث التقى بنورث، ونير، وريتشارد في سيكورد، وهو لواء متقاعد في سلاح الجو الأميركي. انتهز نورث الفرصة لكي يقنع ماكفرلاين بالسماح لنير بالذهاب معهم إلى إيران، مصرّاً على أن رفض ذلك سيكون بمثابة إساءة كبيرة لرئيس الوزراء الإسرائيلي، فوافق ماكفرلاين على مضض[67]. وصل الأميركيون إلى مطار مهر أباد بطهران عند الساعة 9 صباحاً في 26 مايو/أيار على متن طائرة نفاثة أميركية خاصة محمّلة بالصواريخ والأسلحة. وبناء على اقتراح نورث، حمل الأميركيون معهم هدايا مثل الكتاب المقدّس مع عبارات كتبها ريغان وكعكة شوكولاته على شكل مفتاح؛ فاتحة رمزية للعلاقات الأميركية الإيرانية.

لكن كم كانت دهشة ماكفرلاين – وعلى النقيض من الوعود التي قطعها نورث وغوربانيفار – عندما مرّ يومان من غير أن يعقد الوفد الأميركي أي اجتماع مع مسؤول إيراني رفيع المستوى. أخيراً، ظهر علي هادي نجف أبادي، رئيس لجنة العلاقات الخارجية في البرلمان وأحد مستشاري رفسنجاني في اليوم الثالث. بتحدثه اللغة الإنكليزية بطلاقة، كانت ثقته بنفسه وسعة اطلاعه وعمقها بادية بوضوح. أخيراً، صار في الإمكان بدء المناقشات. ناقش ماكفرلاين ونجف أبادي وجهات نظر الحكومتين حول الوضع الجيوسياسي في المنطقة. شرح نجف أبادي أن إيران بحاجة إلى تدعيم ركائز ثورتها بدلاً من دعم الإرهاب أو مواصلة الحرب. وبدوره، أكّد مستشار الأمن القومي السابق للمسؤول الإيراني أنه لا يوجد لدى واشنطن نيّة في دحر الثورة، وقال: "إن الحكم والمسائل المتعلقة بحكومة إيران هي شأن إيران وحدها"[68]. كان نقل القبول الضمني للإدارة الأميركية بالثورة كأمر واقع نقطة حرجة. فبعد مرور عقدين بالضبط على ذلك الاجتماع، فشلت الجهود الهادفة إلى حلّ المعضلة النووية بين الولايات المتحدة وإيران لأن طهران اقتنعت بأن إدارة جورج دبليو بوش لن تقبل بالثورة وأنها ستصرّ بدلاً من ذلك على تغيير النظام.

وجد ماكفرلاين أن "الحديث مع نجف أبادي كان مشجعاً، وأن كلامه بدا أنه يثبت صحة فهمنا لإيران؛ أنه لا بدّ من وجود أشخاص عقلاء في طهران مهتمّين بوقف الحرب، والتخلّص من عزلتهم، واستعادة قدر من العلاقات الطبيعية مع الغرب"[69]. كما شرح ماكفرلاين المنظور الأميركي حيال الخطر السوفياتي الذي يهدد إيران، والاحتلال السوفياتي لأفغانستان، والمطامح السوفياتية بالحصول على منفذ على المياه الدافئة في الخليج العربي. كما عالج القضية الإسرائيلية. وسأل هل يمكن أن ترى إيران أية شرعية في دولة إسرائيل؟ اعترف نجف أبادي بصوابية النقاط المتعلقة بالاتحاد السوفياتي، ولكنه رفض في بادئ الأمر الإجابة عن أي سؤال يتعلق بإسرائيل، وعمد إلى تغيير الموضوع ببساطة عندما أثار ماكفرلاين القضية مجدداً. لكنّ إجابات نجف أبادي أصبحت أكثر ليونة بعد وقت قصير. اقتبس ماكفرلاين من نجف أبادي قوله "'إننا غير مستعدين لمعالجة هذه القضية في هذه المرّة، لكن يجدر أن تكون على جدول الأعمال'. كان ذلك يعني ضمناً القبول بإسرائيل كدولة". غاب عن تعليقات نجف أبادي بشكل واضح العبارات العنيفة التي اعتاد النظام الإيراني على إطلاقها في وجه إسرائيل. فعلى مدى عدة أيام من المحادثات، لم يناقش نجف أبادي على الإطلاق محنة الشعب الفلسطيني أو القضية الفلسطينية في حدّ ذاتها. من الواضح أن الصراع الفلسطيني لم يكن على قمّة جدول أعمال الجمهورية الإسلامية. فعندما تكون المسائل المتعلقة بالأمن والوضع الجيواستراتيجي لإيران على المحك، تضع الجمهورية الإسلامية إيديولوجيتها

وخطابها جانباً. يقول ماكفرلاين: "تحدث نجف أبادي عن إسرائيل بالاسم، ولم يشعر بأي خوف من التطرّق إلى الموضوع الإسرائيلي"[70].

تركت المناقشات الجدّية لدى ماكفرلاين انطباعاً بأنه يوجد أساس للأمل. كان هناك غياب واضح للحماسة الإيديولوجية، ورأى ماكفرلاين أن رفسنجاني كان يريد بصدق إنجاح المحادثات. وكما هو معتاد، كانت النقطة العالقة هي موضوع الرهائن. هناك قام ماكفرلاين بمساومة صعبة ورفض تقديم أية صواريخ اشترتها إيران ما لم يتم تحرير كافة الرهائن. لكن هذا الموقف المتشدد لم يرق لنير، ممثل شمعون بيريز. وكم كانت خيبة أمل ماكفرلاين عندما بدأ نير مفاوضاته الخاصة مع الإيرانيين في ممرات الفندق حيث كان يُعقد الاجتماع. وفي حين كان ماكفرلاين يتخذ موقفاً متشدداً، أبلغ العميلُ الإسرائيلي الإيرانيين بأن ماكفرلاين سيرضى بما هو أقل بكثير من ذلك، ولكنه كان مخطئاً[71].

في نهاية اليوم الثالث، لخّص نجف أبادي الموقف الإيراني. فعلى الرغم من اعتراف إيران بصدق الإيماءة الأميركية، إلاّ أنهم رأوا أنه من المبكر جداً، ومن الخطورة بمكان، حدوث تقارب أميركي إيراني. لكن نجف أبادي شرح لماكفرلاين بأن رفسنجاني يرغب في البقاء على اتصال. وحول موضوع الرهائن، كان العرض الأخير لإيران تحرير اثنين منهم، وليس الأربعة جميعهم. لكن ذلك لم يكن كافياً في نظر ماكفرلاين، فانهارت المباحثات. وتبين له لاحقاً أن الإيرانيين عرضوا تحرير رهينتين فقط لأن مبعوث بيريز قال لهم بأن هذا العرض هو الحدّ الأدنى الذي يمكن أن يقبل ماكفرلاين بشيء دونه. مع تلاشي آماله، غادر ماكفرلاين المحبَط إيران وهو خالي الوفاض. لكن فيما كان الأميركيون يصعدون الطائرة للعودة إلى واشنطن، توصل كايف إلى اتفاق مع عضو في الوفد الإيراني بأنه ينبغي الإبقاء على القناة مفتوحة مع غوربانيفار بوصفه وسيطاً. لكن أصرّ الإيرانيون على أنه ينبغي أن تكون هذه القناة الثانية خالية "من آثار الإسرائيليين"[72].

تسريب مجلة الشراع

واصل نير ونورث على مدى الشهور القليلة التالية قيادة العملية، وهو ما أثمر عن نقل شحنات إضافية وإطلاق الرهائن[73]. لكن فيما اعترفت كل من الولايات المتحدة وإيران بالحاجة إلى إجراء المسؤولين الأميركيين والإيرانيين اتصالات مباشرة، بدأت القناة الثانية بالتشكّل. ففي منتصف أغسطس/آب، التقى سيكورد في بروكسل والمسؤول الإيراني الذي اتفق مع كايف على وجوب مواصلة الاتصالات. وفي منتصف سبتمبر/أيلول، زار هذا المسؤول الإيراني واشنطن سرّاً بهدف تحسين العلاقات الأميركية الإيرانية بشكل تدريجي. وهناك أبلغ الأميركيين بأن نجل آية الله الخميني أوجز لوالده بكثير من التفصيل ما جرى في المحادثات وأن الإيرانيين يريدون التحاور مع واشنطن، ليس من أجل الأسلحة وحسب، بل ولأسباب أوسع أيضاً[74]. ومن أجل إعطاء المحادثات دفعاً، التقى بيريز وريغان في البيت الأبيض في سبتمبر/أيلول 1986 لضمان مواصلة العملية. وفي ترديد للحجة الإيرانية، أشار الإسرائيليون إلى وضع الرهائن بأنه "عقبة يتعين تخطّيها في طريق بناء علاقات استراتيجية موسّعة مع النظام الإيراني"[75].

أحد الاقتراحات الإيرانية كان تشكيل لجنة تجتمع سرّاً لمناقشة سبل تحسين العلاقات بشكل تدرجي. كتب كايف بعد سنين قلائل على تلك المحاولة، "لقد اختار الإيرانيون أصلاً أربعة مسؤولين رفيعي المستوى من جانبهم، يضمون ممثلين عن كافة الفصائل". وقال الإيرانيون لكايف: "هذا يظهر أن هناك إجماعاً واسعاً بإيران على تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة"[76]. التقت اللجنة السرّية بألمانيا في أكتوبر/تشرين الأول من ذلك العام، وأمّنت تحرير الرهينة ديفيد جاكوبسن، وشحن خمسمائة صاروخ تاو إلى إيران.

لكن في 6 نوفمبر/تشرين الثاني 1986، دار اقتتال داخلي في إيران حول هذه القناة. فقد قام أحد المقرّبين من آية الله علي منتظري، وهو شيخ يساري على خلاف مع رفسنجاني، بتسريب التفاصيل المتعلقة برحلة ماكفرلاين إلى إيران إلى مجلّة الشراع اللبنانية[77]. وبعد أن فشلوا في إدراك حجم الارتدادات الناتجة عن تسريب الخبر، عاد أعضاء القناة الثانية إلى الاجتماع بجنيف بعد يومين من شيوع الخبر. كان الإيرانيون يأملون بأن المحادثات ستُستأنف حالما تهدأ الضجة التي أثارتها القصة، حتى أن واشنطن لم تكن قادرة على مواصلة إرسال شحنات الأسلحة. وتم عقد اجتماع أخير بفرانكفورت في 14 ديسمبر/كانون الأول 1986، حيث أوقف الأميركيون الحوار لأسباب سياسية[78]. تحولت القضية إلى فضيحة كبرى لإدارة ريغان. واضطُرّ الرئيس إلى الاعتراف في 25 نوفمبر/تشرين الثاني بأنه على الرغم من حظر الأسلحة الذي فرضته الولايات المتحدة وجهودها لمنع الدول الأخرى من بيع الأسلحة لإيران، باعت أميركا أسلحة لإيران، وحوّلت المال إلى ثوار الكونترا الذين كانوا يقاتلون الحكومة الساندينية بنيكاراغوا[79]. في خطاب متلفز للأمّة، دافع ريغان عن العملية وجادل بأنه "بالنظر إلى الأهمية الاستراتيجية لإيران ونفوذها في العالم الإسلامي، اخترنا تفحص إمكانية إقامة علاقة أفضل بين بلدينا"[80].

أجرى كل من مجلس النواب ومجلس الشيوخ تحقيقات في القضية، واستدعيا عدداً كبيراً من المسؤولين الأميركيين للمثول أمامهما والإدلاء بشهاداتهم. وعلى الفور بدأت لعبة اللوم، مما أوجد صدعاً كبيراً بين الولايات المتحدة وإسرائيل[81]. ففي 8 ديسمبر/كانون الأول تلقى شامير، الذي أصبح حينها رئيس الوزراء في حكومة الاتحاد الوطني، إشعاراً من ريغان بأنه تم تعليق شحنات الأسلحة الأميركية إلى إيران ولكنه رفض التعهد بوقف مبيعات الأسلحة لإيران[82]. وبعد ذلك بيومين، قال بيريز: "كانت مبيعات الأسلحة لإيران فكرة أميركية ولم تشارك فيها إسرائيل إلاّ بناء على طلب من واشنطن"[83]. وفي يناير/كانون الثاني، 1987، دافع بيريز عن أعمال إسرائيل بالقول بأنها كانت تستكشف الفرص لتلطيف حدة خطاب إيران. وقال للمراسلين: "لماذا لا نملك الحق في إلقاء نظرة فاحصة لمعرفة إن كان يوجد نافذة فرص، ومعرفة إن كانت توجد إمكانية لمستقبل آخر بإيران؟"[84] وخلص أبا أبيان، الذي ترأس لجنة إسرائيلية للتحقق في تورّط البلاد في قضية إيران، على أنه "من حقنا أن نبيع الأسلحة لإيران"[85]. حتى

أن شامير حثّ ريغان في مقابلة أجراها مع الواشنطن بوست على استئناف الاتصالات مع إيران ورفض "عقدة الذنب... التي يحاول بعض البلدان العربية فرضها على واشنطن"[86]. وتم تجنّب التسبب بمزيد من الإحراج للولايات المتحدة ولإسرائيل بسبب الوفاة الغامضة لأميرام نير في حادثة تحطم طائرة بالمكسيك خلال الأسبوع الذي كان من المقرر أن يدلي فيه بشهادته في محاكمة نورث. أثناء جنازة نير بإسرائيل، تحدث رابين عن "تولّي نير مهمات سرّية في أماكن لم تُكشف بعد، وعن الأسرار التي أبقاها سرّاً دفيناً في قلبه"[87].

من جانبهم، أنكر الإيرانيون بشدّة إجراء أية مفاوضات مع الإسرائيليين، فأعلن رفسنجاني في أواخر نوفمبر/تشرين الثاني بأننا "لم نفاوض إسرائيل أبداً... من أجل شراء أسلحة. وفي حال تبين لنا أن الأسلحة التي وصلتنا جاءت عبر إسرائيل، فلن نستخدمها في جبهات القتال"[88]. لكن رفسنجاني أوضح بأن إيران لا تزال على استعداد لتحرير الرهائن الأميركيين في لبنان في حال قامت واشنطن بتسليم الأسلحة التي اشتراها الشاه الراحل. وطالبت العناصرُ اليسارية بإيران بفتح تحقيق، لكن بعد استشعار آية الله الخميني بالضرر الذي سيلحقه الكشف عن الاتصالات الإيرانية الإسرائيلية بصورة إيران في العالم الإسلامي، تدخّل شخصياً ووضع حداً للمطالب بفتح تحقيق[89].

مع فتح تحقيق أو بدونه، كان ضرر كبير قد وقع أصلاً. فقد نفّست الدول العربية عن غضبها من واشنطن لدعمها إيران من خلال إسرائيل ضدّ صدام حسين[90]. بالنسبة إلى بعض الدول، كانت الإيديولوجية الأصولية لإيران أشدّ خطراً من إسرائيل[91]. والنتيجة هي أن هذه القضية وضعت العلاقات العربية الإيرانية على مسار لولبي هابط. فقد أصبحت العلاقات مع بعض الدول العربية غير قابلة للإصلاح[92]. جاء ردّ طهران متوقعاً؛ المزيد من الشجب لإسرائيل ولكافة الحكومات العربية التي تفكر في التفاوض مع الدولة اليهودية. حتى أن آية الله الخميني هاجم منظمة التحرير الفلسطينية في العام التالي عندما اعترفت بإسرائيل مجادلاً بأن "تقسيم فلسطين أمر غير مقبول" وأنه يمكن إقامة دولة فلسطينية فقط عندما "يتم سحق الصهاينة واستعادة الأراضي التي سلبوها"[93]. لكن مع ظهور المدى الكامل لتعاملات إيران مع إسرائيل على العلن، باتت التصريحات الإيرانية الشاجبة في غير محلها.

الفصل 12 النفَس الأخير للمبدأ المحيطي

إيران هي أفضل صديق لإسرائيل ونحن لا ننوي تغيير موقفنا في ما يتعلّق بطهران، لأن نظام آية الله الخميني لن يدوم إلى الأبد.

– إسحاق رابين، أكتوبر/تشرين الأول 1987

وصل المتنفّس الاستراتيجي لإسرائيل إلى نهايته في العام 1987، بعد سنة من تفجّر فضيحة إيران – كونترا. ومع تزايد احتمالات تحقيق العراق النصر بعد أن بدأت الولايات المتحدة تزويد صدام حسين بمعلومات استخبارية عن تحرّكات القوات الإيرانية، استنتجت تل أبيب أن استمرار الحرب سيكون أمراً بالغ الخطورة، ورأت أن حالة الجمود هي أفضل نتيجة ممكنة[1]. استمر المبدأ التوجيهي الذي يحكم السياسة الإسرائيلية من خلال تجنب القيام بأي أعمال ضدّ طهران ربما تهدد ما اعتبرته تل أبيب العودة الحتمية لإيران بوصفها حليفاً محيطياً غير عربي[2]، وحتى عندما بدا واضحاً أن إسرائيل كانت تساعد الراديكاليين الإيرانيين – وليس المعتدلين – من خلال شحنات الأسلحة، تواصلت تلك العمليات[3].

لم تكن قضية إيران – كونترا حادثة منعزلة. فالاتصالات بين إيران وإسرائيل تكررت طوال حقبة الثمانينيات، بدفع من القوى نفسها؛ حاجة إيران إلى السلاح، وأمل إسرائيل بإعادة بناء المحور الإسرائيلي الإيراني. لقد عثر الثوريون الذين اقتحموا السفارة الأميركية بطهران في نوفمبر/تشرين الثاني 1979 على وثائق تتحدث عن نشاطات إسحاق سيغيف، آخر ملحق عسكري إسرائيلي لدى إيران. تمكن الإيرانيون من تحديد مكان سيغيف، وتلقّى مكالمة هاتفية قبل أكثر من سنة على فضيحة إيران – كونترا من طهران. على الطرف الآخر من الخط كان يتحدث آية الله إسكندري والسيد خليلي. وعبّر آية الله بالفارسية عن اهتمام بالتعاون مع إسرائيل.

كان الإيرانيون بحاجة ماسّة إلى المعدات العسكرية الأميركية، وعرضوا بالمقابل إطلاق سراح جنود إسرائيليين أسرهم حزب الله بلبنان. سارع سيغيف المتلهف إلى لعب دور في خرق إسرائيلي إيراني للاتصال بالحكومة الإسرائيلية، وحصل على موافقتها على عقد اجتماع مع الإيرانيين. جرت اللقاءات بجنيف، ومدريد وأخيراً بإسرائيل نفسها، في منزل سيغيف خارج تل أبيب. حتى أن الملحق العسكري الإسرائيلي السابق اصطحب بلباسه المدني رجال الدين الإيرانيين إلى الأماكن المقدسة بمدينة القدس. وهناك، أمام حائط المبكى، سأل سيغيف الإيرانيين عن إيديولوجية آية الله الخميني وما إذا كانت إيران تسعى فعلاً إلى احتلال القدس. أجاب الإيرانيون بابتسامة بأن ذلك الهدف لن يسعى أحد وراءه طوال حياتهم. وبالرغم من ذلك، سرعان ما أدرك سيغيف أن الإيرانيين غير مهتمين بإقامة علاقات مع إسرائيل. وبدلاً من ذلك، كانوا بحاجة إلى مساعدة إسرائيل فقط على الحصول على الأسلحة وقطع الغيار الأميركية الصنع. يقول سيغيف: "كانوا يتلاعبون بي. وبعد أن اجتمعت بهم ثلاث مرات، لم تثمر تلك الاجتماعات عن شيء لأن الجنود كانوا في عداد القتلى أصلاً" كما تبين في ما بعد[4].

لكنّ هذه النكسات لم تثبّط عزيمة إسرائيل. كان المبدأ المحيطي – وكذلك الخوف من العراق وتباشير إيران – لا يزال يهيمن على النظرة الكونية لإسرائيل والتي ظلت في منأى عن التأثر على نحو ملفت بتغير الحقائق بإيران وبمعاهدة السلام التي أبرمتها إسرائيل مع مصر[5]. وغالباً ما كان وزير الدفاع رابين يذكّر بالخطر العراقي لتبرير الحاجة إلى مدّ اليد إلى طهران. في مؤتمر صحافي عقده في أكتوبر/تشرين الأول 1987، أسف للمناوشات التي دارت بين سلاحي البحرية الأميركي والإيراني في الخليج العربي وقال للمراسلين بأن "العراق يتلاعب بالولايات المتحدة لكي تهاجم إيرانَ في حرب الخليج، و... أن إسرائيل لم تغيّر موقفها القديم الذي يميل إلى جانب إيران"[6]. ومضى إلى حدّ الكشف – مستخدماً أكثر العبارات وضوحاً – عن وجهة النظر الثابتة لإسرائيل حيال إيران كشريك استراتيجي، فقال: "إيران هي أفضل صديق لإسرائيل ونحن لا ننوي تغيير موقفنا في ما يتعلّق بطهران، لأن نظام آية الله الخميني لن يدوم إلى الأبد"[7].

لم تكن تلك مجرد عبارات فارغة، فالمستشارون المقرّبون من رابين يشهدون بأنه غالباً ما كان يتحدث، في المجالس الخاصة، عن إيران بحنين كبير إلى الماضي[8]. وقال للسفير الأميركي توماس بيكرينغ في مناسبات كثيرة خلال مدة عمله بإسرائيل بين عامي 1985 و1988 بأنه "ينبغي على الولايات المتحدة التوصل إلى طريق لتطوير علاقات أمتن مع إيران". ويقول بيكرينغ بأنه "على الرغم مما كان حينها ثورة حديثة بإيران، كان شديد الاهتمام بإيران، واعتقد بأنه من الأهمية بمكان إحداث تغيّر في العلاقة معها". كما ردّد إسرائيليون بارزون آخرون المشاعر نفسها[9].

لكن إسرائيل لم تكن مصيبة في ذلك، لأن كافة افتراضاتها اعتمدت على أرضية مهتزة: أن إيران الشاه هي إيران الحقيقية، وأن العراق سيبقى دائماً دولة معادية في حين أن إيران لن تشكل تهديداً لإسرائيل أبداً، وأن التهديد السوفياتي لإيران – في غمرة الحرب العراقية الإيرانية – سيدفع إيران إلى اللجوء إلى إسرائيل[10]. بالنسبة إلى طهران، لم تكن إسرائيل رصيداً في حدّ ذاتها، وإنما سلعة قابلة للاستهلاك، علاقة تكتيكية قصيرة الأمد يمكن أن تقلل من الخطر الذي يحيق بإيران فيما تعمل على حماية هدفها الاستراتيجي الحقيقي، وهو تولّي القيادة الإقليمية. ويشتكي سيغيف من أن "الهدف من كافة تلك الاتصالات كان الحصول على قطع غيار. ولو أنه لم تكن هناك حرب دائرة، لما اتصلوا بنا"[11].

في قضية إيران – كونترا، كان الهدف الإيراني هو إعادة بناء العلاقات مع واشنطن، وليس إسرائيل. تكشف العملية بأكملها، التي أشرك فيها الإيرانيون الإسرائيليين مع توبيخهم في العلن، عن تناقض متأصل بين حاجات إيران الأمنية قصيرة المدى وبين مستلزماتها الاستراتيجية بعيدة المدى. فعلى المدى القصير، احتاجت إيران الإسلامية إلى إسرائيل لموازنة التهديد العربي، لكن على المدى البعيد، احتاجت إيران إلى مصادقة العرب عبر لعب ورقة معاداة إسرائيل للفوز بقبولهم بقيادة إيران. مع أن إسرائيل لم تشكل تهديداً لإيران، اعتقد القادة الدينيون بطهران أنهم لن يتمكنوا

من تولّي القيادة الإقليمية بدون اتخاذ موقف علني متشدد من إسرائيل، كما سبق أن استنتج الشاه من قبل. لغاية اليوم، يصرّ الإيرانيون على أنهم لم يتقرّبوا من إسرائيل من أجل شراء الأسلحة، وأنه من خلال السوق السوداء المفتوحة، حصلت إيران على الأسلحة الإسرائيلية[12]. يقول أليعازر تسافرير، رئيس الموساد بإيران في الستينيات والسبعينيات: "لم يوضح الإيرانيون لنا أبداً حساباتهم بشكل كامل. ومهما تكن إيران إيديولوجية وإسلامية، كل ما كانت تفعله اتّسم بالنزعة القومية، بل إنه بدا مشابهاً لما كان يفعله الشاه"[13].

في 20 أغسطس/آب، وبعد شهور من المفاوضات المكثفة، تم التوصل إلى وقف لإطلاق النار بين العراق وإيران، فوافق آية الله الخميني على مضض على القرار رقم 598 الصادر عن مجلس الأمن الدولي والذي يطالب بوقف فوري لإطلاق النار – وهو عمل شبّهه بشرب كوب من السمّ– وأخيراً، توقفت الأعمال العدائية. بعد ثماني سنين من القتال، وتكاليف بلغت عدة مئات من مليارات الدولارات وأكثر من مليون قتيل – أغلبهم من الإيرانيين– ودمار الصناعات النفطية في كِلا البلدين، بقيت الحدود بين الدولتين بدون تغيير[14]. لكن حتى انتهاء الحرب لم يفلح في تغيير نظرة إسرائيل الاستراتيجية تجاه إيران. وبدلاً من ذلك، أدت الحرب إلى جعل إيران أكثر انعزالاً و"بالتالي أكثر تقديراً من العراق للفرص التي توفرها علاقة جديدة مع إسرائيل" كما جادل مناصرو المبدأ المحيطي[15]. في نفس الوقت، تحوّل احتلال غزّة والضفة الغربية – حيث اندلعت الانتفاضة الفلسطينية في الشتاء السابق، وزادت بدرجة كبيرة من كلفة سياسة التوسّع في الأراضي التي تتّبعها إسرائيل – إلى همّ إسرائيلي كبير. أدرك العديد من القادة الإسرائيليين، منهم رابين، أن المجتمع الإسرائيلي زادت كراهيته لدفع ثمن نزاع مطوّل مع العرب[16]. كما خرج العراق من الحرب بجيش أضخم وأقوى من أي وقت مضى. وبذلك يكون المتنفّس الإسرائيلي قد وصل إلى نهايته في وقت كان العراق فيه في أوج قوته العسكرية. قال شمعون بيريز عشية التوصل إلى اتفاقية وقف إطلاق النار: "بنى العراق جيشاً ضخماً جداً يضم أكثر من خمسين فرقة. والسؤال هو ما إذا كان سيتحول إلى إعادة تأهيل بلده أو يُغرى باستحضار موقفه في العالم العربي (عبر مهاجمة إسرائيل)"[17]. وإذا أضفنا ما تقدّم إلى العزلة المستمرة التي تعاني منها إسرائيل، نجد أن هذه العوامل كافة زادت من إحساس المدافعين عن المبدأ المحيطي بحاجة إسرائيل إلى بناء علاقة استراتيجية مع إيران.

لكن مدرسة فكرية جديدة برزت أيضاً في إسرائيل، مدرسة ترى في العراق – بدلاً من إيران – حليفاً محتملاً لإسرائيل في المنطقة. لقد بدأ المبدأ المحيطي يتداعى، فالمحيط لم يعد يشكّل وزناً مكافئاً للدائرة الضيقة للدول العربية الراديكالية، ولكنه أصبح السبب الذي يولّد الراديكالية. أدرك بعض الإسرائيليين أن الجمهورية الإسلامية – ومعارضتها الإيديولوجية الثابتة لإسرائيل – يمكن أن تعمّر وقتاً أطول بكثير مما كان متوقَّعاً لها أصلاً. من ناحية أخرى، انجذب كل من مصر والعراق إلى المعسكر الغربي، كما أشار الجنرالان موشي تامير وأوري ساغاي ومناصرو هذه المدرسة الفكرية. فقد مضى على معاهدة السلام مع مصر ثماني سنين الآن، وصاغ صدام حسين، تحالفاً تكتيكياً مع الغرب ضدّ إيران. كما أن الخطر السوري على إسرائيل تلاشى بدرجة كبيرة بعد الضربة الموجعة التي تلقّتها سوريا من إسرائيل في حرب لبنان. نتيجة لذلك، بات التهديد ناشئاً من المحيط الإيراني – إما مباشرة أو عبر حزب الله بلبنان – وليس من دول الجوار العربية[18]. حتى أن تامير، الذي خدم في منصب المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية حينها، جادل بأنه ينبغي على إسرائيل أن تعتمد على العراق في درء الخطر القادم من إيران. قال تامير: "العراق جزء لا يمكن الاستغناء عنه من المعسكر العربي البراغماتي الكبير الذي نشأ لدرء الخطر الأصولي الإيراني"[19]. ومع أن فكرة إيران بوصفها خطراً ظلت تحظى بقلة من المدافعين بإسرائيل، لكن سرعان ما انتشرت بعد سنين قليلة بين أوساط الاستراتيجيين في حزب العمل الإسرائيلي؛ وليس مردّ ذلك حدوث تحوّل في إيديولوجية إيران، وإنما بسبب التغيّر الدراماتيكي الذي طرأ على الخريطة الجيوسياسية. لكن قبل وصولها إلى أعلى المستويات في حزب العمل، حصلت إسرائيلُ على فرصة أخيرة لاختبار إيران.

في 3 يونيو/حزيران 1989، توفي آية الله الخميني، وجاءت لحظة الحقيقة بالنسبة إلى أولئك الإسرائيليين الذين اعتقدوا بأن صراعاً على الخلافة سيجيء بالمعتدلين الإيرانيين إلى السلطة وينهي حالة التنافر الإسرائيلي الإيراني. ولم تكد تمضي بضعة أيام على وفاة آية الله الخميني حتى صرّح آفي بازنر، المتحدث باسم الحكومة الإسرائيلية بأن إسرائيل تريد من إيران ما بعد آية الله الخميني تجديد روابط الصداقة السابقة التي قطعتها الثورة، وعبّر عن آمال إسرائيل "بحدوث تحسّن في العلاقات"[20]. وفي مقابلة مع التلفزيون الإسرائيلي، أشار يوسي ألفير، الذي كان حينها مستشاراً لرابين، مرّة أخرى إلى منطق المبدأ المحيطي فقال، العدو الحقيقي لإسرائيل هو العراق والدول العربية الأخرى، في حين يوجد لدى إيران كافة الأسباب التي تجعلها صديقة لإسرائيل: "العراق يزداد قوة كل يوم بامتلاكه أسلحة كيميائية وغير تقليدية تهددنا. يوجد سبب يجعل إيران تستمرّ في مواجهة القوات العراقية وتحويل انتباهها... وإلى جانب ذلك، إيران تملك النفط، وإيران تضم يهوداً، وكل ما تقدم أسباب جيدة لتجديد الاتصالات مع إيران، بغض النظر عن النظام الحاكم فيها"[21].

بالنسبة إلى الأشخاص الذين اعتقدوا أن التشدد الإيديولوجي لدى آية الله الخميني يكمن في جذور عداوة إيران لإسرائيل، أثارت وفاة آية الله الخميني توقعات بأن تغييراً في العلاقات الإسرائيلية الإيرانية بات وشيكاً. فمع رحيل آية الله الخميني عن المشهد السياسي الإيراني، وبقاء العراق خطراً هائلاً يهدد البلدين، رأت تل أبيب أن الظروف أصبحت ناضجة لعودة الدفء إلى العلاقات. وفي نوفمبر/تشرين الثاني 1989، أبلغت وزارةُ الخارجية الإسرائيلية وزارةَ الخارجية الأميركية أن إسرائيل استأنفت مشترياتها من النفط الإيراني[22]. كانت إسرائيل قد وافقت على شراء مليوني برميل من النفط مقابل 36 مليون دولار، كجزء من صفقة لتأمين المساعدة الإيرانية في إطلاق سراح ثلاثة من أسرى الحرب الإسرائيليين محتجَزين بلبنان[23]. وبالرغم من إنكار وزارة الخارجية الإيرانية المشاركة في العملية، برزت بعض الاستنتاجات بأن الاتصالات بين إيران وإسرائيل بقيت

سليمة[24]. ونوقشت هذه القضية في الكنيست في وقت لاحق، في فبراير/شباط 1990، حيث كشف وزير الطاقة والبنية التحتية موشي شاحال أن الخزانة الإسرائيلية جنت أرباحاً مقدراها 2.5 مليون دولار من تلك العملية[25]. أملت إسرائيل بأن تؤدي الصفقة النفطية إلى المزيد، لكن إيران كانت أكثر انشغالاً بوضعها الاقتصادي اليائس منها بالحسابات الجيوسياسية. فقد خرجت إيران من الحرب بمعنويات مكسورة واقتصاد مفلس. وبالرغم من بقاء الثورة، لم تفز إيران بالحرب. والحلم الذي راودها بنشر الثورة حوّلها إلى دولة منبوذة؛ لا دولة مهيمنة. واستناداً إلى استراتيجي إصلاحي بارز بإيران، "كان لطريقة انتهاء الحرب العراقية الإيرانية تأثير مدمّر في التفكير الإيراني. فقد أدّت إلى تصاعد البراغماتية، وغيّرت مسألة الأرباح والتكاليف"[26].

رفسنجاني يتبنّى سياسة التفاهم الدولي

خرجت إيران من حربها مع العراق أكثر عزلة من أي وقت مضى. والجهود التي بذلتها لتصدير الثورة جعلتها في حالة خلاف مع جيرانها العرب فيما دُمّرت مواردها القومية وهيبتها العالمية[27]. بعد أن أدرك النظام الإيراني أن سياساته فشلت، أدّى الجدال الدائر إلى انقسام إيران بين معسكرين. فمن ناحية، جادل الثوريون المتشددون بأن إيران ضعيفة وبحاجة إلى تسليح نفسها من جديد للدفاع عن الثورة. وجادل المعسكر الثاني، بقيادة هاشمي رفسنجاني، الذي أصبح رئيساً للبلاد في العام 1989، بأنه يتعين على إيران الخروج من عزلتها الدولية وأنه ينبغي إعطاء الأولوية لإعادة بناء اقتصادها، على أن يعاد بناء الجيش بالتدريج[28]. يشرح غاري سيك، الذي خدم في مجلس الأمن القومي على عهد إدارتي كارتر وريغان، الأمر فيقول: "كان رفسنجاني أكثر اهتماماً بجهود إعادة الإعمار وبالسياسات البراغماتية. لقد بدأت الأمور تتغير، وكانت الفترة الزمنية 1988–1989 مرحلة انقسام حيث بدأ الناس ينظرون إلى الأمور بطريقة مختلفة"[29].

اعتقد معسكر رفسنجاني بأنه ينبغي على إيران أن ترمّم روابطها مع الحكومات العربية لأن الاستثمار في الشارع العربي فشل فشلاً ذريعاً في إعطاء إيران الدور القيادي في المنطقة. (لم يعترف النظام بذلك مطلقاً، لأن ذلك يتناقض مع القيم التي تجاهر بها الثورة). لقد تمكن معسكر الاقتصاد أولاً بقيادة رفسنجاني من إخراج منافسيه الانعزاليين من السلطة في الفترة الواقعة بين عامي 1989 و1992. غير أنه لكي تتم استعادة الموقع القيادي لإيران، لم يكن في المقدور التخلّي عن فكرة تصدير الثورة. لكن بدلاً من السعي إلى الإطاحة بالحكومات الإقليمية، تبنّى رفسنجاني نهج تصدير نموذج إيران عبر تقديم نفسها كمثال على دولة إسلامية عصرية ومستقلة. احتاجت إيران إلى جعل نموذجها جذاباً في عيون الدول الإسلامية عبر تحديث المجتمع لكن مع حمايته وحماية الإسلام في الوقت نفسه من القيم الغربية "المنحلّة"[30].

بعد وفاة الخميني، سعت القيادة الجديدة إلى التوصل إلى طريقة لإعادة بناء ما أمكن من اقتصاد الشاه – وإلى حدّ معين – والروابط السياسة العسكرية مع الغرب[31]. في فترة السبعينيات، عندما كان موقع إيران يحظى بدعم الولايات المتحدة من خلال سياسة الدعامة المزدوجة التي تبنّاها نيكسون، افتقرت طهران إلى موافقة الدول العربية. الآن باتت إيران تفتقر إلى الأمرين معاً وتحتاج إلى مداهنة واشنطن. كما كان من الضروري تحسين العلاقات مع واشنطن من أجل إعادة بناء الاقتصاد الإيراني، والتحول إلى نموذج تحتذي به الدولُ الإسلامية الأخرى. اعتقد المسؤولون الإيرانيون بأن في وسعهم اقتراض المال لتمويل عملية إعادة الإعمار لأن الدين الخارجي الإيراني لم يتجاوز 6 مليار دولار نتيجة لتمويل النفقات الحربية بالاستعانة بالموارد المحلّية.

لكن يمكن لإيران الحصول على قروض خارجية فقط إذا ليّنت سياستها الخارجية، وتجنبت القيام بخطوات تثير خوف الغرب. من أجل تمهيد الطريق أمام تحسين العلاقات الاقتصادية، سعت إيران إلى حلّ نزاعاتها العالقة مع جيرانها العرب ومع الولايات المتحدة. أوّل البنود المتعلقة بالطرف الأخير كان الرهائن الأميركيين الذين تحتجزهم جماعات لبنانية موالية لإيران[32]. جاءت مساعدة إيران للولايات المتحدة بلبنان على شكل جواب مباشر على دعوة أطلقها الرئيس جورج بوش الأب. ففي خطاب تولّي الرئاسة في العام 1989، ألمح إلى إيران بالقول: "النوايا الطيبة تولّد النوايا الطيبة. يمكن أن تكون النوايا الطيبة طريقاً يتقدم إلى الأمام باستمرار". ناشد الوسيطُ الإيطالي من الأمم المتحدة، جياندومنيكو بيكو، دعم رفسنجاني من أجل تحرير الرهائن. تردد رفسنجاني في بادئ الأمر، لأن إيران "لم تعد لديها علاقة منذ بعض الوقت بأولئك الذين يحتجزون الرهائن"، كما قال لبيكو. "والتعامل مع هؤلاء الأشخاص ليس أمراً سهلاً". لكن بعد أن أدرك بأن جهود إيران بلبنان يمكن أن تؤدي إلى تحسين العلاقات مع واشنطن، غيّر رفسنجاني موقفه. ونجحت إيران في التدخل وأمّنت تحرير الرهائن المتبقّين على أمل أن "يوقف الأميركيون عداوتهم غير المنطقية لإيران"[33].

أوجدت الجهود التي بذلتها إيران لتحسين علاقاتها مع الغرب ومع الأنظمة العربية، ولإنهاء التصدير العنيف للثورة قوة دفع جديدة لنظرة إيران وتصرفاتها على الصعيد الدولي؛ تحرير السياسة الخارجية الإيرانية من التوجهات الإيديولوجية. وشرح مصطفى زهراني، وهو دبلوماسي إيراني رفيع، المسألة بالقول: "كان ذلك جزءاً من التطور الطبيعي لثورتنا"[34]. واستناداً إلى جواد ظريف، السفير الإيراني لدى الأمم المتحدة والذي لعب دوراً حاسماً في المفاوضات مع الأمم المتحدة ومع محتجزي الرهائن بلبنان، "تطورت السياسة الخارجية الإيرانية بحيث باتت تنظر إلى الدول بدلاً من أن تنظر إلى الجماهير. وهذا هو سبب ما تراه من تحسن مستمرّ في العلاقات بين إيران والعالم العربي ودول الخليج العربي. كانت هناك محاولة من جانب إيران لإيجاد حضور قوي لها في العالم الإسلامي وفي حركة عدم الانحياز. وسعت إيران بشكل أساسي بعد انتهاء حربها مع العراق إلى إعادة تعريف موقعها في المجتمع الدولي باعتبار أنها قوة إقليمية، وإقامة علاقات جيدة مع الدول الأخرى في المنطقة"[35].

خفّضت إيران من حدّة خطابها المعادي للدول العربية في الخليج بدرجة كبيرة، واستجمعت جاذبيتها الهجومية لتحسين علاقاتها مع دول مجلس التعاون الخليجي، وحققت في ذلك نجاحاً أولياً[36]. ففي انتصار هام لإيران، بدأت الدول الأعضاء في مجلس التعاون الخليجي بالتصريح علناً بأنه ينبغي أن تلعب إيران دوراً في أي نظام أمني إقليمي في المستقبل[37]. في نفس الوقت، أدّى بروز ميخائيل غورباتشوف ذي النزعة الإصلاحية كزعيم للاتحاد السوفياتي إلى فتح الطريق أمام إقامة علاقات أكثر دفئاً بين إيران وعدوتها التقليدية الشمالية. بحلول العام 1989، لم تعد هناك آثار باقية للصعوبات السابقة بين البلدين؛ دعم موسكو للحزب الشيوعي الإيراني، وتسليحها للعراق، واحتلالها لأفغانستان.

لكن كانت هناك حدود لقدرة إيران على مدّ يدها في المناطق الأخرى. صحيح أن إيران ساعدت على تأمين إطلاق سراح الرهائن المحتجزين بلبنان، لكن بوش الأب تراجع عن وعده ولم يبادل الإيماءة الإيرانية بمثلها. يقول برينت سكاوْكروفت، مستشار الأمن القومي لدى بوش: "عندما أُطلق سراح جميع الرهائن، لم نفعل شيئاً". وبالرغم من اعتراف إدارة بوش بأن الحماسة الدينية لدى إيران قد ضعفت وأن إيران تراجعت كثيراً عما كانت عليه في أيام الخميني"، كانت ذكريات إيران – كونترا كافية لجعل أي سياسي أميركي يبتعد عن إيران. ويعترف سكاوْكروفت بأن "بيكو يقول بأن الذنب ذنبنا. ربما كان محقاً. وربما كان ذنب الولايات المتحدة أن بيكو لم ينجح في الجمع بين إيران والولايات المتحدة. في ذلك الوقت، كانت إيران أكثر تلهفاً إلى إعادة الدفء إلى العلاقات من الولايات المتحدة"[38]. بالمقابل، ظلّت العلاقات بين إيران والفلسطينيين فاترة، بما في ذلك المنظمات الفلسطينية الإسلامية الصاعدة. فقد ألقت جماعات مثل حماس والجهاد الإسلامي بثقلها خلف العراق أثناء الحرب[39]. فبالرغم من أنها جماعات إسلامية، ولكنها كانت أصوليات سنّية متفرعة من حركة الإخوان المسلمين. كانت تلك الجماعات لا تقيم اعتباراً كثيراً لإيران بشكل عام. ومن حسن حظ إسرائيل أنه لم يكن لإيران "أية اتصالات مع هذه المجموعات حينها"[40].

كما أثرت التوترات مع الفلسطينيين في الجدال الدائر بين رفسنجاني ومنافسيه السياسيين أيضاً. فقد فضّل رفسنجاني والخبراء الفنّيون (التكنوقراط) في وزارة الخارجية الإيرانية سياسة دعم أي حل يقبل به الفلسطينيون، في حين دافع الانعزاليون عن فكرة تبنّي خط أكثر نشاطاً في معاداة إسرائيل، على غرار ما فعلوا في مستهل الثمانينيات[41]. ومع أن رفسنجاني أراد المضي في تبنّي سياسة أكثر براغماتية، كان عليه أن يختار معاركه بحرص. فمدّ اليد إلى الولايات المتحدة كان خطراً بما فيه الكفاية، والتقدم السريع جداً في القضية الفلسطينية يمكن أن يعرّض رئاسته للخطر.

النتيجة النهائية كانت استمرار الوضع الراهن إلى حدّ بعيد. تمثلت سياسة إيران من حيث الممارسة (سياست إيمالي) في قبول – لا بدعم – رغبات الفلسطينيين، بما في ذلك الحلّ القائم على دولتين والذي تم تبنّيه بشكل رسمي الآن، في حين بقي خطاب إيران المعادي لإسرائيل على حاله بالرغم من أن طهران لم تتخذ أية خطوات عملية بناء عليه[42]. واستناداً إلى محسن ميردمادي، وهو إصلاحي إيراني بارز وعضو سابق في لجنة العلاقات الخارجية في البرلمان الإيراني، "كان موقفنا احترام أي حل يوافق عليه الفلسطينيون. فإذا كان الفلسطينيون يوافقون على حل قائم على دولتين، فلن يكون لدينا اعترض على ذلك. صحيح أننا لن ندعمه، ولكننا لن نعترض عليه أيضاً. غير أن سياسة عدم الاعتراض كانت من حيث الجوهر سياسة تدعم هذا الحل بطريقة غير مباشرة"[43].

لكن في 2 أغسطس/آب 1990، عاد صدام حسين وجعل نفسه النقطة المركزية في الحسابات الاستراتيجية الإيرانية، والأميركية، والإسرائيلية عبر غزوه دولة مجاورة أخرى. بعد ذلك بوقت قصير، انهار الاتحاد السوفياتي، وانتهت الحرب الباردة بدون إراقة دماء تقريباً. وبين عشية وضحاها، تحوّل النظام والتركيبة الدولية ثنائية القطبين إلى تركيبة أحادية القطب بقيادة الولايات المتحدة. لكنّ التحولات الجيوسياسية ستضمن رؤية إسرائيل لقليل من الفائدة في القفزات التي تقوم بها إيران بعد آية الله الخميني نحو تبنّي البراغماتية.

القسم الثاني

الحقبة أحادية القطب

الفصل 13 النظام العالمي الجديد

كان كل شيء يسير وفقاً لما نشتهي. إيران كانت مشكلة لنا، لكن ماذا يعنيه ذلك؟ نحن نملك كل شيء آخر.

– السفير الأميركي دانيال كورتْزر بعد هزيمة العراق في حرب الخليج وانهيار الاتحاد السوفياتي

تعرّض الشرق الأوسط في الفترة الواقعة بين عامي 1990 و1992 لهزتين لم يسبق لهما مثيل من حيث مقدارهما؛ هزيمة العراق في حرب الخليج، وانهيار الاتحاد السوفياتي. غيّر هذان الإعصاران الجيوسياسيان إلى حدّ بعيد طريقة نظر إيران وإسرائيل إلى بعضهما. فالتهديدات المشتركة التي دفعت الدولتين على مدى عدة عقود إلى التعاون وإيجاد مصالح جيواستراتيجية مشتركة – بالرغم من تحوّل إيران إلى دولة إسلامية معادية للصهيونية – لم يعد لها وجود. في حين استفاد الطرفان من هذين الحدثين، لكن انعدام اليقين الذي صاحب نظاماً عالمياً جديداً جلب معه أخطاراً جديدة. فيما كان هذا النظام الجديد قيد التبلور في الشرق الأوسط، سرعان ما وجدت طهران وتل أبيب نفسيهما على طرفين متقابلَين، حتى بالرغم من تراجع الحماسة الثورية بإيران. إنّ زوال الاتحاد السوفياتي وإضعاف العراق حرّرا الموارد الخاصة لكل من لإيران وإسرائيل. وفجأة، وجدت الدولتان نفسيهما بدون رقيب. بدأ الاستراتيجيون الإسرائيليون يقولون بأنه بعد أن لم يعد في مقدور العراق موازنة إيران، سرعان ما أصبحت طهران تهديداً. فبعد أن انجلى الغبار، دخلت الحليفتان الاستراتيجيتان السابقتان في منافسة شرسة على النظام المستقبلي في المنطقة. كانت الدولة اليهودية ستخسر كل شيء نتيجة حدوث أي تغييرات في النظام الإقليمي بسبب روابطها القوية مع واشنطن التي اعتمدت بدرجة كبيرة على دور إسرائيل كمتراس في مواجهة الاختراقات السوفياتية. ورأت إيران، التي باتت تكره العزلة التي وجدت نفسها فيها، أن في إمكانها الخروج منتصرة من هذه التغييرات.

صدّام يضرب مجدداً

بعد مرور عام تقريباً على سقوط جدار برلين وانتهاء التقسيم الذي فرضه الستار الحديدي، وتحديداً في 2 أغسطس/آب 1990، غزا صدام حسين بلداً مجاوراً آخر هو الكويت، بغرض الاستيلاء على حقول النفط التي فيها. في غضون أشهر، بنت إدارة جورج بوش الأب بتأنّ تحالف دول تحت راية الأمم المتحدة، وهزمت الجيش العراقي، وأعادت العائلة الكويتية الحاكمة، آل الصباح، إلى الحكم. دُمّر القسم الأعظم من الجيش العراقي، وانخفض الإنفاق العسكري السنوي العراقي من 26.4 مليار دولار في العام 1990 إلى ملياري دولار في العام 1991، وانخفض حجم قواته المسلّحة من 1.4 مليون جندي في العام 1990 إلى 475 ألف جندي في نهاية الحرب. ومع أن هزيمة العراق كانت شنيعة جداً، فقد ظلّ قوة عسكرية جوهرية في المنطقة. فبجيش قوامه نصف مليون جندي، كان العراق لا يزال يشكل تهديداً لجيرانه المباشرين.

جلبت الخطوة المتهورة التي قام بها صدام بدايات كثيرة معها. فلأول مرّة، تدخل دولة رئيسية تنادي بالوحدة العربية في حرب مع دولة عربية أخرى، محدثة خرقاً كبيراً في فكرة الوحدة العربية. ولأول مرّة منذ عدة عقود، يتفق الاتحاد السوفياتي الذي اعتراه ضعف شديد، والولايات المتحدة على رأي في صراع، مما مكّن مجلس الأمن الدولي من إجازة استخدام القوة لطرد جيش محتلّ، ولأول مرّة، حادت الولايات المتحدة عن طريقها بجذب الدول العربية إلى بناء تحالف إقليمي مع الحرص على إقصاء إسرائيل عنه. في مسعى إلى تخريب التحالف العربي المعادي للعراق الذي بناه بوش، حاول صدام أن يربط الاحتلال العراقي للكويت بسيطرة إسرائيل على الأراضي الفلسطينية. وفي جهد للفوز بتعاطف الجماهير العربية، عرض صدّام الانسحاب من الكويت في حال تنازلت إسرائيل عن أرض فلسطين. ومن أجل تجنّب هذا الربط والوصف القائل بأن واشنطن تقود حملة ضدّ الإسلام، أو أن الصراع هو بين الغرب والعالم العربي، احتاجت واشنطن إلى إشراك الدول العربية في التحالف. وكان ذلك ممكناً فقط في حال تم استبعاد إسرائيل.

أثارت هذه الدينامية الجديدة – التي أصبحت إسرائيل بموجبها عبئاً على الولايات المتحدة بدلاً من أن تكون رصيداً استراتيجياً لديها – أعظم المخاوف في تل أبيب، بالرغم من أن تدمير الآلة العسكرية لصدام كان سيفيد إسرائيل كثيراً. وكم كان غضب إسرائيل عندما استخدم كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة الوعد بحل الصراع العربي الإسرائيلي كجزرة لإقناع الدول العربية بالانضمام إلى التحالف المناوئ للعراق، ولجعل الأمور أكثر سوءاً، صرّح والذغرايف، في البرلمان بأنه لم يعد لإسرائيل أهمية في النظام الجديد للشرق الأوسط. قال والدغرايف لمجلس العموم أنه ينبغي على الولايات المتحدة أن تعلم أن تحالفاً استراتيجياً مع إسرائيل "لم يكن مفيداً على نحو خاص يوماً إذا كان لا يمكن استخدامه في أزمة مثل هذه... والآن، تعرف الولايات المتحدة أن تحالفاً مع إسرائيل لا يفيد في حل هذه الأزمة هو عديم الفائدة"[1].

حتى عندما أطلق صدام حسين أربعة وثلاثين صاروخاً على تل أبيب وعلى مدن إسرائيلية أخرى، في محاولة مكشوفة لجرّ إسرائيل إلى الدخول في الحرب، قالت الولايات المتحدة لإسرائيل، "في أقوى العبارات الممكنة" بأنه ينبغي أن تبقي نفسها خارج عملية العراق لأن الردّ الثأري الإسرائيلي سيتسبب في انهيار التحالف المناوئ للعراق الذي ترعاه واشنطن[2]. بالنسبة إلى حكومة رئيس الوزراء إسحاق شامير، كان ذلك قراراً في منتهى القسوة. فقد أضرّت هجمات صدام الصاروخية بمعنويات الشعب الإسرائيلي، وتحولت عاصمة البلاد في سرعة من مدينة كانت نابضة بالحياة وكثيرة الصخب إلى مدينة أشباح. وأرسل بوش الأب مساعد وزير الخارجية لورنس إيغلْبيرغر إلى إسرائيل لطمأنة قادة الدولة اليهودية إلى أن الولايات المتحدة تبذل كل ما في وسعها لتدمير منصات إطلاق الصواريخ العراقية.

لكن لا الجيش الإسرائيلي ولا وزارة الدفاع الإسرائيلية اقتنعا بذلك. بالمقابل، ساد شعور بين قادة إسرائيل بأن واشنطن ليست أهلاً للثقة وأنه لا يمكن الاعتماد عليها عندما تتعلق المسألة بوجود إسرائيل، وسادت أجواء مسمومة بين إسرائيل والولايات المتحدة، استناداً إلى إفرايْم هالفي، الرئيس

السابق لجهاز الموساد. كانت الحماية التي وفّرتها واشنطن لإسرائيل عديمة الفاعلية، وكانت حكاية أن إسرائيل تعتمد على الولايات المتحدة في تأمين حمايتها عسيرة الهضم على الإسرائيليين العاديين[3]. كان قرار شامير بالإذعان للأميركيين غير شعبي بالمطلق لأنه كان يُعتقد أنه "سيلحق ضرراً لا يمكن إصلاحه بالقدرات الردعية الإسرائيلية"[4]، ولجعل الأمور أكثر سوءاً، شعر الأشخاص المحيطون بشامير أن الولايات المتحدة لم تكافئ إسرائيل، حسب اعتقادهم، على مساعدتها على بقاء التحالف سليماً عبر رفض الردّ على العراق. لقد زادت هذه العلاقة الجديدة والمتوترة بين تل أبيب وواشنطن من المخاوف الإسرائيلية من التغييرات المصاحبة للنظام الجديد[5]. بالنسبة إلى إيران، جلبت الحرب فرصاً وأخطاراً في آن معاً. صحيح أن الولايات المتحدة أخفقت في مبادلة إجراءات حسن النية التي قامت بها إيران بلبنان، لكن غزو صدام للكويت وفّر لإيران فرصة أخرى لإظهار أنه يمكن للولايات المتحدة أن تستفيد من تحسّن العلاقات مع طهران. كما أظهرت لدول مجلس التعاون الخليجي أنها بحاجة إلى إيران من أجل موازنة العراق[6]. كان اعتداء العراق على دولة عربية شقيقة نصراً معنوياً لطهران، لأنه أظهر قصر نظر العرب بدعمهم السابق للعراق[7].

عارضت إيران بقوة غزو العراق للكويت، واستغلّت مغامرة صدام لتذكير المجتمع الدولي بأن العراق – وليس إيران – هو الخطر الحقيقي على السلام والأمن في المنطقة[8]. تبنّت إيران سياسة الحياد الإيجابي، فعارضت احتلال العراق، ورفضت مساعدة صدام، وبقيت في الوقت نفسه خارج التحالف المناوئ للعراق بقيادة أميركا. لكن الحياد الإيجابي كان مؤيداً من حيث الجوهر للسياسة الموالية لأميركا، حتى وإن انتقدت إيرانُ علناً الولايات المتحدة لسعيها إلى التوصل إلى ذريعة لإيجاد موطئ قدم لقواتها العسكرية في الخليج؛ وهو خوف ساور إيران منذ أيام الشاه[9]. ويشرح محمود وازي، نائب وزير الخارجية الإيراني في ذلك الوقت، المسألة فيقول: "حتى أن العراقيين جاءوا إلينا، وتوسلوا الحصول على دعمنا، لكنّنا أعلنا أننا نلتزم سياسة الحياد في الحرب، ولكن ذلك كان يعني في الواقع سياسة معادية للعراق"[10].

أجرت إيران اتصالات من وراء الكواليس مع الولايات المتحدة من أجل تجنّب أي سوء فهم، وسمحت لسلاح الجو الأميركي باستخدام الأجواء الإيرانية، ورفضت مناشدة العراقيين الدعم الإيراني. وفوق هذا كله، وضعت إيرانُ مشكلة اللاجئين تحت المراقبة (فرّ ملايين العراقيين إلى إيران وتركيا بعد انتهاء الحرب)، ورفضت أن تعيد الطائرات العراقية التي كان العراق قد أرسلها إلى إيران من أجل حمايتها، وربما الأهم من ذلك كان الامتناع عن مساعدة انتفاضة السكان الشيعة بالعراق ضدّ صدام في نهاية الحرب، وهي خطوة ساعدت على منع غرق العراق في حرب أهلية طائفية. حتى أن هذه الخطوات المساعِدة حازت على ثناء وزير الخارجية الأميركي جايمس بيكر[11].

أصدقاء تحوّلوا إلى أعداء

حدث تغيّر جذري في المناخ الأمني في الشرق الأوسط نتيجة لحرب الخليج وتفكك الاتحاد السوفياتي في 31 ديسمبر/كانون الأول 1991، والذي أنهى من الناحية الفعلية الحرب الباردة. مع تحوّل النظام الدولي ثنائي الأقطاب إلى عالم أحادي القطبية بقيادة الولايات المتحدة، انتقل الشرق الأوسط في اتجاه مختلف. خرجت إيران وإسرائيل من المعمعة كأقوى دولتين في شرق أوسط بدأ يتّسم على نحو متزايد بطبيعة ثنائية القطبية. ومع تصاعد القوى وسقوطها، صيغت تحالفات جديدة وظهرت عداوات جديدة.

أدّى اختفاء الدبّ السوفياتي من الحدود الشمالية لإيران إلى عودة الدفء إلى علاقات طهران بموسكو[12]. وبعد أن تملّك الخوف إيران من تزايد قدرة واشنطن على المناورة ضدّ طهران نتيجة لانتهاء الحرب الباردة، أعطت الأولوية لروابطها مع موسكو. أي أن روسيا لم تعد خطراً، بل أصبحت شريكاً[13]. لكن في أفغانستان، جلب انهيار الاتحاد السوفياتي أخطاراً على إيران. فقد أحدث الانسحاب السوفياتي فراغاً في السلطة ملأته الفصائل المتحاربة، والتي نهبت البلاد، وجلبت إليها شقاء لم يكن أقل سوءاً من الاحتلال السوفياتي. في منتصف التسعينيات، ملأت حركة طالبان هذا الفراغ في السلطة، بدعم من باكستان. بدورها، وفّرت طالبان ملاذاً آمناً للقاعدة. كان هؤلاء الأصوليون السنّة يمقتون إيران بشدّة، وهي مسألة لم تغفل عنها تل أبيب وواشنطن[14]. فقد أعلنت قيادة القاعدة منذ البداية أن العالم الإسلامي يواجه ثلاثة أخطار عظيمة: النصارى، واليهود، والشيعة[15]. وبما أن طالبان وتنظيم القاعدة يشكلان خطراً عسكرياً وإيديولوجياً، زادت إيران من دعمها الكبير للمقاومة المناوئة لطالبان طوال التسعينيات. مع نهاية ذلك العقد، لم يعد الخطر الأفغاني مسألة نظرية عندما أعدمت قوات طالبان أحد عشر دبلوماسياً إيرانياً بمدينة مزار الشريف الواقعة شمال أفغانستان في حادثة كادت أن تقود إلى اندلاع حرب شاملة بين إيران وطالبان.

لكن مع زوال الخطر السوفياتي على إيران، زاد الخطر الأميركي على نحو ينذر بالشؤم. فقد أصبحت الولايات المتحدة قوة رئيسية في الخليج العربي تُعتبر تقليدياً جزءاً من الفناء الخلفي لإيران. أصبحت أميركا الآن داخل فلك التأثير الإيراني مع قوات قادرة على إسقاط النظام بطهران[16]. يقول محمد رضا طاجيك، وهو مستشار للرئيس السابق محمد خاتمي: "تمكنت الولايات المتحدة من تصوير إيران على أنها خطر أكبر على الدول العربية حتى من إسرائيل. وكان لذلك وقع حاسم على تفكيرنا. فقد باعت الولايات المتحدة كميات كبيرة من السلاح نتيجة لذلك، وأصبحت القوة المهيمنة في الخليج العربي. في المحصلة النهائية، باتت إيران معرّضة لخطر أميركي مباشر"[17]. وجاء برنامج إعادة التسلّح الإيراني، الذي يُعتبر وفقاً للباحثَين البريطانيَّين أنوشروان إحتشامي ورايموند هينيبوش متواضعاً ودفاعياً ولا تزيد كلفته عن عُشْر ما كان ينفقه الشاه على الأسلحة، في ناحية منه ردّاً على الخطر الأميركي المتصوَّر[18].

من ناحية أخرى، بقي التصور الذي يقول إنّ العراق هو الخطر الرئيسي على إيران، بالرغم من هزيمته على أيدي الجيش الأميركي. وبالرغم

مما اعتراه من ضعف شديد، كان لا يزال يُنظر إليه على أنه البلد الإقليمي الوحيد القادر على تهديد سلامة الأراضي الإيرانية[19]. يشرح السفير جواد ظريف، الذي ترأس المفاوضات مع العراق أثناء الحرب العراقية الإيرانية وبعدها، الواقع فيقول: "لم يسبق أن شعرت بالثقة بأن العراقيين سيفوّتون الفرصة لتدمير إيران. وهم قدّموا لي كل سبب لزيادة اعتقادي بذلك"[20]. فالتأثير النفسي المدمّر للحرب العراقية الإيرانية وبقاء حكم صدام ببغداد لم يتركا ببساطة لإيران خياراً سوى التركيز على العراق بوصفه خطراً عسكرياً. لقد اعتقد العديد من الاستراتيجيين العسكريين في إيران والعراق بأنه في الصراع التالي سنشهد استخدام أسلحة دمار شامل منذ بدايته[21]. يقول نائب وزير الخارجية محمود وازي: "عرفنا أنه طالما بقي صدام في السلطة، سيبذل كل ما في وسعه للأخذ بالثأر"[22]. لقد واصلت المدرسة الحربية في كل من إيران والعراق التخطيط لشنّ حرب ضدّ الطرف الآخر، وهدفَ برنامجُ إعادة التسلّح الإيراني طوال فترة التسعينيات أساساً إلى احتواء الخطر العراقي، وهي نقطة لم تغب عن بال المسؤولين الإسرائيليين.

أظهرت الحرب العراقية الإيرانية ضعف إيران في مواجهة الصواريخ الباليستية، لأن العراق تمكن بسهولة من استهداف المدن الإيرانية بصواريخ سكود التي كانت تُطلَق من عمق الأراضي العراقية. وشرع الإيرانيون، الذين عزموا على سدّ هذه الثغرة الموجودة في دفاعاتهم، في برنامج طموح لتطوير صواريخ بعيدة المدى، وهو ما اكتشفته أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية في أواخر العام 1994[23]. فبعد وقت قصير على انتهاء الحرب، بدأت إيران تطوير صاروخ باليستي بناء على تصاميم الصاروخ الكوري الشمالي نودونغ-1. يبلغ مدى الصاروخ شهاب 3، كما يسمى، 1500 كلم، ويمكن أن يطال إسرائيل. لكن إيران لم تتمكن من إجراء تجربة إطلاق ناجحة لهذا الصاروخ إلاّ في العام 1999. ووفقاً لمصادر إسرائيلية، ستحتاج إيران إلى بضع سنين إضافية قبل أن تصبح صواريخها عملانية بالكامل[24]. وعلى الرغم من مدى الصاروخ، أصرّت إيران على القول إنّ دوافعها دفاعية صرفة. وعلى حدّ قول محمود ساريول غلام، مساعد مستشار الأمن القومي حسن روحاني: "التصور السائد هو أنه بالنظر إلى عدم تمتع إيران بشركاء أمنيين... فإنه يتعين عليها الدفاع عن نفسها بنفسها... من الصحة أن نقول بأنه بعد الحرب، لا يوجد لدى إيران أية استراتيجية هجومية تجاه أي بلد. لقد كانت استراتيجيتها دفاعية دائماً. فقد تعلمت القيادة بالطريقة الصعبة عدم الدخول في حرب... إن الكلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للحرب معروفة جيداً، ولذلك فإن استراتيجيتنا دفاعية دائماً. وصاروخ شهاب وغيره من الصواريخ عبارة عن آلية للمحافظة على البنية التحتية للردع"[25].

في هذه المرحلة تقريباً، استأنفت إيران بوتيرة بطيئة برنامج الطاقة النووية الذي كان قد بدأه الشاه. وكان آية الله الخميني قد علّق البرنامج، مجادلاً بأن استخدام وامتلاك الأسلحة النووية محرّمان[26]. افتقر البرنامج النووي الإيراني، الذي لا يزال في مرحلته الجنينية، إلى أجهزة الطرد المركزي لليورانيوم والكثير من المعرفة التقنية لتطوير أسلحة نووية؛ حتى في حال افترضنا أن التزود بهذه الأسلحة هو الهدف الإيراني. فهناك مراجعة استخبارية أميركية شاملة ترجع إلى العام 2005 وتظهر أنه على الأرجح أن تملك إيران القدرة على تصنيع مكونات رئيسية لسلاح نووي لكن ليس قبل العام 2015[27]. (تسارعت وتيرة البرنامج النووي الإيراني في أواخر التسعينيات، وبعد سنتين ونصف من أعمال التفتيش، لم تجد الوكالة الدولية للطاقة الذرّية أي دليل يثبت وجود برنامج أسلحة نووية إيراني، ولكنها لم تتمكن من التأكيد بالمثل على أن البرنامج الإيراني سلمي تماماً)[28].

بالرغم من أن البرنامج الصاروخي الإيراني سيجعل إسرائيل في متناول إيران في نهاية المطاف، واصلت طهران اعتبار إسرائيل أنها لا تشكل خطراً عليها وأنها عدو بعيد في أسوأ الأحوال، كما كانت في الثمانينيات تماماً. كما أنه لا يساور الإيرانيين قلق من النوايا العسكرية للدولة اليهودية، حتى في ظلّ تنامي القدرات الإسرائيلية؛ التي تضم ترسانة من الصواريخ والطائرات المقاتلة من طراز أف-15، ناهيك عن عدة مئات من الأسلحة النووية[29]. يقول مفكر سياسي إيراني بارز: "هناك الكثير من الكلام الموجّه ضدّ إسرائيل، ولكن إيران لا ترى في إسرائيل خطراً في الواقع"[30].

أدّت النكسات التي عانت منها إيران أثناء حربها مع العراق إلى إدخالها تعديلات في طموحاتها السياسية. فباتت تنظر على نحو متزايد إلى بحر قزوين والخليج العربي بوصفهما البيئة الأمنية لها، بدلاً من الشرق الأوسط بكامله. هذا يضع إسرائيل خارج تعريف إيران الخاص بدائرة نفوذها. يقول ظريف: "أنا أتتبّع كل تصريح يدلي به الزعيم العراقي. وأنا أتتبّع كل تصريح يدلي به مسؤول أميركي لأنني أعتبرهم ضمن نطاق بيئتنا الأمنية القومية. أنا لا أرى بالضرورة في إسرائيل خطراً سياسياً على مصالح إيران ونفوذها في المنطقة. وأنا لا أرى بالضرورة إسرائيل ضمن بيئتنا الأمنية القومية"[31]. بدلاً من اعتبارها خطراً عسكرياً، تُعتبر إسرائيل خطراً سياسياً على مصالح إيران ونفوذها في المنطقة[32]. وفي ذلك يقول علي رضا علوي تابار، وهو إصلاحي إيراني بارز: "لطالما اعتبرنا أن إسرائيل دولة تسعى إلى الإضرار بموقف إيران. وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي، شعر العديد أن إسرائيل ستسعى إلى بناء قاعدة لها في جمهوريات آسيا الوسطى الجديدة ضدّ إيران. في البداية، خشيت طهران من أن تلعب أرمينيا هذا الدور، ولكن الخوف بات من أذربيجان"[33]. واعتقد الإيرانيون بأن اللعبة التي تمارسها إسرائيل في دول آسيا الوسطى، والتي تهدف إلى منع إيران من توسيع نفوذها شمالاً، تعني أن تل أبيب تزيد رهاناتها[34].

الأمن في الفناء الخلفي لإيران

وفّرت هزيمة صدام والحاجة إلى بناء نظام جديد في مرحلة ما بعد صدام في المنطقة فرصة هامة لإيران لكي تستعيد الدور الذي فقدته نتيجة لنجاح الثورة والضرر الذي لحق بالبلاد جرّاء حربها مع العراق. كان لدى طهران – المقتنعة بأن حجمها وقوتها يؤهلانها لكي تكون دولة متفوقة في

الخليج العربي – كل ما يمكن كسبه والقليل مما يمكن خسارته نتيجة لأي تغيير في النظام بالمنطقة[35]. كان المسار المؤدي إلى هذا الهدف واضحاً؛ تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة ومع دول مجلس التعاون الخليجي. لقد لاقت سياسة الحياد الإيجابي التي اتّبعتها إيران ترحيباً حاراً من الدول العربية بالخليج. حتى أن المملكة العربية السعودية، اعترفت بالبراغماتية الجديدة لإيران في العام 1991 ووجّهت دعوة إلى رفسنجاني لزيارة المملكة. لقد استنتجت القيادة المحيطة برفسنجاني أن السياسة المناوئة للأمر الواقع والتصلّب الإيديولوجي لن يقرّبا إيران من أهدافها الجيوسياسية. بعد شهور فقط من انتهاء حرب الخليج، قامت إيران والمملكة العربية السعودية بتطبيع العلاقات، في إشارة أخرى إلى أن إيران ما بعد آية الله الخميني قد تخلّت عن الكثير من حماستها الثورية[36]. بدت طهران في نظر العديد من الخبراء تظهر إشارة واضحة إلى أن القومية هزمت الإيديولوجية في صناعة السياسة الخارجية الإيرانية[37].

قرن رفسنجاني مدّ يد إيران إلى الدول العربية المجاورة بسياسة التنمية أولاً، وإعادة التسلّح ثانياً. وبناء على ذلك، أجرت إيران تخفيضات جوهرية في إنفاقها على التسلّح، فتقلّص حجم قواتها العسكرية من 654000 في العام 1988 إلى 480000 في المتوسط في الفترة الواقعة بين عامي 1990 و1999، وتراجع إنفاقها العسكري من 9.9 مليار دولار في العام 1990 إلى 5.3 مليار دولار في العام 1995. وهذه الأرقام لا تعبّر عن مجرّد تسريح للموارد بعد انتهاء الحرب، ولكنها تعبّر عن قرار استراتيجي تم اتخاذه بالرغم من عدم إبرام اتفاقية سلام شاملة بين إيران والعراق. نتيجة لذلك، أصبح حجم القوات المسلّحة الإيرانية أكبر بقليل من حجم القوات المسلّحة العراقية بعد هزيمة صدام في حرب الخليج. مع أن التوجّه الجديد لإيران لم يفت صنّاع السياسة بواشنطن، فقد أخفقوا في تقدير المدى الكامل للبراغماتية الجديدة[38]. فبعد أن أوجدت لنفسها موطئ قدم في الخليج العربي، أدركت إدارة بوش أن وجودها العسكري في المنطقة يمكن أن يستمرّ طالما أن دول مجلس التعاون الخليجي بحاجة إلى من يحميها من العراق – وإيران. وعودة الدفء إلى العلاقات بين إيران ودول مجلس التعاون سيعرّض موقف أميركا في الخليج العربي للخطر[39].

لكنّ ذلك لم يثنِ طهران عن السعي إلى لعب دور أكبر في المنطقة. شعر القادة بإيران أن الوقت قد حان بالنسبة إلى واشنطن لكي تعترف بقدرة إيران وتقبل بها قائداً إقليمياً. يقول علوي تابار: "كان الوقت مثالياً بالنسبة إلى إيران لكي تؤكد على موقعها. كانت الظروف تعمل في صالحنا"[40]. فعشية هزيمة العراق، قال رفسنجاني: "هناك قوة وحيدة فقط يمكن أن توفّر السلم والاستقرار في الخليج العربي، وهي قوة إيران"[41]. مدّت إيران يدها لدول مجلس التعاون الخليجي في محاولة لبناء تركيبة أمنية حصرية جديدة في الخليج العربي يمكن أن تجعل دول مجلس التعاون أقل اعتماداً على الولايات المتحدة.

كان الإيرانيون قد تصوّروا وجود فرصة في بناء مثل هذا النظام في الثمانينيات. فبناء على إصرار إيران، تضمن القرار 598 الصادر عن مجلس الأمن الدولي والذي وضع حداً للحرب العراقية الإيرانية، فقرة سارية المفعول، تطالب الأمم المتحدة بالتشاور مع الدول الإقليمية في الجهود الهادفة إلى تعزيز أمن واستقرار المنطقة. وبناء على روح ذلك القرار، شددت إيران على مفاهيم الاعتماد على النفس وعدم التدخل من قبل القوى الخارجية، التي يتضمنها ميثاق مجلس التعاون الخليجي، لإقناع العرب بأن أمن المنطقة ينبغي أن يكون في عهدة الدول الإقليمية وحدها (كما فعلت إيران إبّان عهد الشاه). شعرت إيران بالقلق على الخصوص من مبادرة مصر وسوريا، مجلس التعاون الخليجي + 2، التي كانت ستجعل أمن الخليج العربي عربياً، عبر إشراك مصر وسوريا في ترتيبات الأمن الجماعي وإقصاء إيران، وكما كان الحال في أيام عبد الناصر، سعت مصر في ظل الرئيس حسني مبارك إلى استثمار الفرصة لاختراق منطقة الخليج العربي. ويشرح نبيل فهمي، سفير مصر لدى الولايات المتحدة، هذه المسألة فيقول: "لم تعد دول الخليج ترغب في الاعتماد على العراق بعد الآن من أجل موازنة إيران، ولذلك اعتقدنا بأن ما تبحث عنه هذه الدول كان موازناً عربياً آخر – وبعبارة أخرى مصر وسوريا – يمكنه موازنة إيران في الصراعات غير الاستراتيجية"[42].

لكن كان في ذهن أميركا نظام من نوع آخر. فبعد أن دافعت أميركا عن العرب في مواجهة صدام، شعرت دول مجلس التعاون الخليجي بأنها مدينة للولايات المتحدة، ورأت أن أقل ما يمكنها فعله هو أخذ رغبات واشنطن بعين الاعتبار[43]. إن الضغط الأميركي هو الذي أوجد الخيارين اللذَين واجها مجلس التعاون؛ السعي إلى نظام شرق أوسطي تشارك فيه إيران، أو السعي إلى نظام عربي تشارك فيه الولايات المتحدة. بعرض اتفاقيات أمنية ثنائية على دول مجلس التعاون، استبقت واشنطن ترتيباتٍ أمنية خليجية، وتمكنت من مواصلة إقصاء إيران عن صناعة القرار الإقليمي. في النهاية، قبلت دول مجلس التعاون بهذه الاتفاقات الثنائية، وانتهت الهيمنة العربية الإيرانية فجأة[44]. وسرعان ما أدركت إيران أنه لا واشنطن ولا تل أبيب متلهفة لرؤية إيران وقد عادت إليها الحظوة من جديد. لكن كان على إسرائيل أن تفضّ أولاً نزاعاتها مع أميركا.

النزاع الأميركي الإسرائيلي

بصرف النظر عما حدث، وضع العالم أحادي القطبية العديد من الافتراضات الأمنية الإسرائيلية السابقة في دائرة الشك. فما من شك في أن تداعي الجبهة الشرقية (أي العراق) وزوال الخطر السوفياتي حسّنا من البيئة الأمنية لإسرائيل، لأنه تبخرت فجأة كافة التهديدات العسكرية التقليدية لإسرائيل بشكل شبه كامل[45]. وأدّى هذا التحوّل الجيوسياسي الهائل إلى تحسين الأمن الإسرائيلي في ثلاث طرق. أولاً: وضع حداً لدعم موسكو العسكري للدول العربية المعادية لإسرائيل، وبخاصة سوريا، مما قضى من الناحية العملية على الخيار العربي العسكري. فلم يعد لدى العرب قوة عظمى يمكنهم الاعتماد عليها. والأهم من ذلك أن العراق لم يعد يشكّل خطراً حقيقياً على إسرائيل[46]. يشرح إيهود ياري من القناة التلفزيونية

الإسرائيلية الثانية ذلك فيقول: "لم يعد هناك جبهة شرقية، كما اعتادوا على تسميتها"[47]. ولخّص إسحاق رابين، الذي أصبح رئيس وزراء إسرائيل في العام 1992، مضامين هذا التطور بالنسبة إلى إسرائيل كما يلي: "لم يعد في إمكان الدول العربية المعادية لإسرائيل الاعتماد على المظلة السوفياتية التي وفّرت الحماية لها في الماضي، سواء على الصعيد العسكري، أم السياسي، أم الاقتصادي"[48]. كما أن روسيا قللت من حضورها السياسي في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، وهو ما كان محلّ ارتياح كبيراً بتل أبيب.

ثانياً: أدّى سقوط الشيوعية إلى فتح أبواب الهجرة أمام الملايين من اليهود المقيمين في الاتحاد السوفياتي. ورحّبت إسرائيل – التي تأخذ بعين الاعتبار دائماً حربها الديموغرافية مع الفلسطينيين – بالتدفق الهائل لليهود الروس لموازنة الفلسطينيين الذين يتمتعون بمعدل ولادات أكبر من نظيره لدى الإسرائيليين[49]. في غضون سنين قلائل، هاجر أكثر من مليون يهودي من الاتحاد السوفياتي السابق إلى إسرائيل[50]. ثالثاً: قضى صدام بغزوه الكويت على النزعة الوحدوية العربية كقوة سياسية وإيديولوجية قادرة على الاستمرار في العالم العربي. في هذا السياق، يقول كيث وايزمان من لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (إيباك): "أظهرت الحرب على الصعيد السياسي أن النزعة الوحدوية العربية كانت خرافة"[51].

مع تلاشي التهديدات العسكرية التقليدية، تحوّل تركيز إسرائيل إلى تهديدات جديدة: التهديد الداخلي الذي يشكّله السكان الفلسطينيون الذين يزدادون تمرّداً والذين يعيشون تحت الاحتلال، وانتشار أسلحة الدمار الشامل، والتحديات التي تواجه علاقة إسرائيل الخاصة بواشنطن[52]. كانت الانتفاضة الفلسطينية أهم هذه الأخطار. فقد فوجئت إسرائيل بقدرة الفلسطينيين على الاستمرار في المقاومة طوال هذه الفترة الزمنية المديدة (اندلعت الانتفاضة في ديسمبر/كانون الأول 1987 واستمرّت، وإن يكن بحدة تراجعت بالتدريج لغاية حرب الخليج في العام 1991 على الأقل). يقول دان كورتزر، السفير الأميركي لدى إسرائيل: "كان الأمر مدعاة لقلق الناس. وأعتقد بأنه هزّ أركان ما يكفي من الرفاق الذين كانوا يقولون بأنه ينبغي القيام بشيء لتغيير ديناميات التعامل الفلسطيني الإسرائيلي"[53]. أصبحت كلفة الاحتلال مرتفعة للغاية، وكان تفكك المجتمع الفلسطيني في حدّ ذاته خطراً. بحكم الاحتلال، أصبحت إسرائيل مسؤولة عن المشكلات في الأراضي الفلسطينية. كان الفلسطينيون ينهارون بين أيدي إسرائيل، في حالة من البؤس والتفكك الاجتماعي الكامل، وفقاً لما يقول ياري[54]. (لاحقاً، وأثناء محادثات بين المبعوثَين الإسرائيلي والفلسطيني في النرويج التي مهدت الطريق لاتفاقية أوسلو، قال كبير المفاوضين الإسرائيليين أوري سافير لنظيره الفلسطيني أبو علاء بأن "الاحتلال يفسد شبابكم. ونحن نريد تخليص أنفسنا من ذلك")[55].

التحدّي الآخر كان المحافظة على العلاقة الخاصة التي تجمع بين إسرائيل وواشنطن. فأي تحوّل في النظام الإقليمي يمكن أن يضعف الأهمية الاستراتيجية للدولة اليهودية بالتحديد لأن وضعها مؤاتٍ جداً. فأثناء الحرب الباردة، لعبت إسرائيل دوراً استراتيجياً رئيسياً كمركز أمامي موالٍ للغرب في شرق أوسط مهدد بالاختراق السوفياتي. لكن مع زوال الاتحاد السوفياتي، وصلت العلاقات الأميركية العربية إلى ذروة مجدها، وبات من الممكن أن يفقد التحالف الإسرائيلي أهميته في نظر واشنطن. الوعد الذي قطعته إدارة بوش الأب بمعالجة القضية الفلسطينية فور انتهاء حرب الخليج، ومقاومة حكومة شامير التوصل إلى أية تسويات مناطقية، لم يحسّن موقف إسرائيل. لقد أظهرت الحرب لإسرائيل أن انهيار الاتحاد السوفياتي وفّر لواشنطن هامشاً واسعاً من الحرّية في الدول العربية بالمنطقة، وأن الحاجة إلى خدمات إسرائيل بوصفها حليفاً موالياً للغرب يمكن الاعتماد عليه في المياه العكرة لسياسات الشرق الأوسط تراجعت نتيجة لذلك. حتى أن إسرائيل أصبحت، من وجوه عديدة، عبئاً على واشنطن[56].

مع تحسّن العلاقات الأميركية العربية، بات من المحتمل لأي خرق في العلاقات الأميركية الإيرانية أن يزيل ما تبقّى من أهمية استراتيجية ضئيلة تحتفظ بها إسرائيل. فعلى العكس من إسرائيل، تتمتع إيران بموقع استراتيجي بين أكبر خزاني نفط وغاز طبيعي في العالم: الخليج العربي وبحر قزوين. كما أن إيران تحدّ جمهوريات آسيا الوسطى المتحررة حديثاً ولكن المغلقة، وهي التي تقبع فوق احتياطيات هامة من النفط والغاز الطبيعي ويمكن أن تصبح سوقاً هامة للسلع الغربية. وبعدد سكان يربو على الستين مليوناً، وفّرت إيران نفسها سوقاً يزيد حجمها عن حجم السوق الإسرائيلية بمقدار عشرة أضعاف. مع انتهاء الحرب الباردة، بدأت الدولة اليهودية تبحث عن حل لإثبات جدواها من الناحية الاستراتيجية للولايات المتحدة[57].

أدّى تلهف واشنطن إلى التوصل إلى سلام في الشرق الأوسط بعد حرب الخليج إلى مزيد من التدهور في العلاقات الأميركية الإسرائيلية. فالولايات المتحدة كانت في أوج قوتها واحتاجت إلى أن تُري العالم أنها ستستخدم عضلاتها الدبلوماسية في حل القضية الإسرائيلية الفلسطينية بشكل نهائي. وشعر وزير الخارجية جايمس بيكر "بأن الوقت قد حان لانتهاز الفرصة لأن... شيئاً كبيراً كان يدور في أوساط العرب". اعتقد في مسحة تفاؤل بأن هذا الموقف الجديد من العرب يمكن أن يقنع إسرائيل باختيار السلام[58]. لكن كان في انتظار بيكر مفاجأة، فشامير وحكومة الليكود بإسرائيل لم يكونا في مزاج لكي يقتنعا، ولا كانا متحمسيْن لثقة واشنطن الجديدة بإمكانية صنع السلام في الشرق الأوسط، ومشككيْن في أن الدافع لذلك هو دَين إدارة بوش الأب لسوريا ومصر بسبب الدعم الذي قدمته هاتان الدولتان في حرب الخليج. ويشرح هالفي، الرئيس السابق لجهاز الموساد، الأمر فيقول: "ساد شعور بوجود خطر متأصل في ذلك. ربما شعرت الولايات المتحدة بضرورة الميل إلى العرب... وشروط السلام لن تكون مقبولة لدى إسرائيل"[59].

بالرغم من أن شامير واجه معارضة في الداخل، وبخاصة من حزب العمل ورابين – الذي عارض مبادئ الصهيونية المعدّلة الجديدة بالقول بأنه ينبغي التخلي عن حلم إسرائيل الكبرى (إيرتز إسرائيل) وأنه لا يوجد حل عسكري للمشكلة الفلسطينية – واصل شامير معارضته للضغوط

الأميركية. لكن لم يكن في حوزة إسرائيل الكثير من الأوراق لتلعبها باستثناء إعاقة جهود السلام التي تبذلها واشنطن وإيجاد حقائق جديدة على الأرض. فابتداءً من العام 1989، وإدارة بوش الأب تصارع حكومة شامير على خلفية مستوطناتها غير القانونية في الأراضي الفلسطينية المحتلة. ومع أن شامير طمأن بوش إلى أنه سيصار إلى وقف هذه النشاطات، لم تلتزم إسرائيل بوعدها، كما يعترف بايكر. وزادت بذلك حدّة النزاع. حتى أن بايكر منع نائب وزير الخارجية الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، في لحظة معينة، من الاجتماع بوزارة الخارجية الأميركية بعد أن اتهم الولايات المتحدة علناً "ببناء سياساتها على أساس من التشويه والأكاذيب"[60].

في مايو/أيار 1991، قال زلمان شوفال، سفير إسرائيل لدى الولايات المتحدة، بأنه سيطلب من أميركا ضمانات قروض بقيمة 10 مليارات دولار للمساعدة على توفير مساكن للعدد الهائل من المهاجرين السوفيات. ومع أن هذا الطلب شكّل زيادة في طلبات المساعدة الإسرائيلية، فقد مكّن الولايات المتحدة أيضاً من ربط المساعدة الأميركية بسياسة الاستيطان الإسرائيلية. ففي سبتمبر/أيلول 1991، تقدمت إسرائيل بالطلب بشكل رسمي، وذلك قبل شهر واحد فقط من مؤتمر هام للسلام كان سيعقد برعاية الولايات المتحدة بمدريد. قاوم بوش الأب الطلب الإسرائيلي، وطلب من الكونغرس تأخير النظر في الطلب، لتجنب إلحاق ضرر بالجهود التي يبذلها بيكر لعقد المؤتمر. بعد شهور من المناقشات لهذه القضية مع إسرائيل ومع اللوبي المؤيد لها في واشنطن – كانت تفصل ذلك مدة تقل عن سنة على الانتخابات الرئاسية الأميركية في العام 1992 – قال بيكر لشوفال في 24 يناير/كانون الثاني 1992 بأن الولايات المتحدة ستقبل بوجود المستوطنات الحالية، ولكن ضمانات القروض ستُمنح فقط في حال عدم بناء مستوطنات جديدة. عبّر بوش الأب عن هذا الموقف بلغة صريحة جداً في مارس/آذار من ذلك العام عندما قال: "الخيار في يد إسرائيل. يمكنها تحديد ما إذا كانت تريد القيام بعمل يسمح بتقديم دعم قوي من جانب كل من الفرعين التشريعي والتنفيذي لضمانات تلك القروض أم لا". لكن إسرائيل رفضت القبول بالشروط الأميركية، ورفض بوش رسمياً في 17 مارس/آذار طلب إسرائيل[61]. (بعد أن وصل رابين إلى السلطة في وقت لاحق من ذلك العام، وافقت إدارة بوش الأب على إعطاء ضمانات القروض في النهاية، مع فرض قيود خفيفة).

النقطة الأخرى العالقة كانت مسألة التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية. بالرغم من أن الولايات المتحدة لم تكن في مزاج يسمح لها بالصفح عن زعيم المنظمة ياسر عرفات بسبب تأييده لصدام أثناء حرب الخليج، أدركت أن أية عملية سلمية بدون عرفات ستفشل. من ناحية أخرى، استخدم شامير مبدأ عدم التفاوض مع الإرهابيين لتبرير التهرب من الجهود السلمية التي تبذلها واشنطن جملة واحدة. خلال محادثة هاتفية ساخنة جرت بين بوش الأب وشامير، أوضح بوش أن الولايات المتحدة "لا تسعى إلى إجبار إسرائيل على التحدث إلى منظمة التحرير. ولكننا نرغب في ألاّ يحصل مزيد من التأخير في الردّ الواقعي علينا... إذا أعطيتم رداً إيجابياً، يمكن لإسرائيل والولايات المتحدة أن تسيرا إلى الأمام معاً. وإذا لم تعطوا رداً، ينبغي أن نفسّر ذلك بأنكم لا تريدون المضي إلى الأمام... لقد قرأت للتو القصة المؤثرة التي تقتبس حديثك عن مواجهة مع الولايات المتحدة. إذا كنت تريد ذلك؛ فلا بأس". لخّصت الرسالة العلنية الغليظة التي وجهها بيكر لإسرائيل التوترات التي شهدتها العلاقات الأميركية الإسرائيلية، "عندما تصبحون جادّين بشأن السلام، اتصلوا بنا". من الواضح أن العلاقات الأميركية الإسرائيلية كانت في الحضيض[62].

في أكتوبر/تشرين الأول 1991، نفدت جعبة شامير من الاعتذارات، وتمكنت واشنطن بصعوبة من جرّ الإسرائيليين إلى مؤتمر مدريد. كان لدى شامير شرط واحد بالرغم من ذلك: تجنب إيجاد ظروف تمكّن المجتمع الدولي من إجبار إسرائيل على العودة إلى حدود العام 1967، طلب زعيم الليكود عدم جعل المؤتمر ركيزة دائمة يمكن استخدامها في حلّ الصراع. بعبارة أخرى، لم يرد شامير أن يكون المؤتمر مناسبة مستمرة تلتئم لمناقشة التقدم الذي يتم إحرازه في المفاوضات. بدلاً من ذلك، سيكون المؤتمر مناسبة لاطلاق شيء واحد هو بدء المباحثات، وفي وقت لاحق عندما تنتهي المفاوضات، ينعقد المؤتمر مرة أخرى للاعتراف بأية نتيجة تثمر عنها المفاوضات[63]. استناداً إلى كورتزر، فإن السبب الذي دفع شامير أخيراً إلى الذهاب إلى مدريد هو تمكن واشنطن من إقناع زعيم الليكود بأن:

موقف إسرائيل قد تغيّر نحو الأحسن على ثلاثة أصعدة بحيث إن مخاطر الدخول في عملية سلمية باتت أقل ما يمكن. أولاً: على الصعيد العالمي في ظل سقوط الاتحاد السوفياتي الذي تزامن مع عقد مؤتمر مدريد تماماً... ثانياً: الاضطراب الإقليمي، لا هزيمة العراق في الحرب وحسب، بل والعملية التي حشدنا من خلالها ائتلافاً ضم دولاً عربية كانت على استعداد للانضمام إلى القوى الاستعمارية الغربية السابقة في ردّ اعتداء دولة عربية. وثالثاً: العوامل المحلية. فمن الواضح أن الفلسطينيين لم يبلغوا أهدافهم، ومن الواضح أنهم يبحثون عن طريقة لترجمة ما كان استراتيجية عسكرية فاشلة إلى شكل من أشكال العملية السياسية. وإسرائيل أيضاً، بالرغم من أنها كانت أكثر نجاحاً في وقف أعمال العنف في تلك الفترة، فشلت في ترجمة نجاحاتها إلى شكل من أشكال الانتصار السياسي[64].

كان بوش الأب قد أعلن بأنه سيكون لكافة شعوب المنطقة رأي في تشكيل النظام الجديد في الشرق الأوسط، وعمل بايكر بشكل مكثف على ضمان أن تكون للدول الإقليمية حصة في العملية بحيث لا يكون من "السهل عليها الخروج منها". لقد عكس نجاح واشنطن في ضمان مشاركة إسرائيل، وسوريا، والفلسطينيين على حدّ سواء موقع القوة الجديد الذي تتمتع به. من الناحية العملية، تم توجيه دعوة إلى كل بلد في المنطقة باستثناء بلد واحد؛ إيران[65].

صنع السلام بمدريد

كان مؤتمر مدريد احتفالاً بالموقع العالمي الجديد لأميركا كقوة عظمى وحيدة. ومع أنه كان لا يزال يفصل بضعة شهور عن تداعي الاتحاد السوفياتي، كانت نذر ذلك تلوح في الأفق. تقاسمت القوتان العظمتان رعاية المؤتمر، لكن بدا واضحاً منذ البداية الجهة التي تدير الدفّة. التأم

المؤتمر في 30 أكتوبر/تشرين الأول 1991، مع مسارَي تفاوض منفصلَين لكن متوازيَين، أحدهما ثنائي الأطراف والثاني متعدد الأطراف. اشتمل المسار الثنائي على أولى المحادثات المباشرة بين إسرائيل وجيرانها العرب المباشرين، بهدف حل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني والتوصل إلى سلام بين إسرائيل وجيرانها العرب. كان الهدف من المفاوضات متعددة الأطراف بناء مستقبل الشرق الأوسط. ركّز هذا المسار، الذي افتُتح بموسكو في يناير/كانون الثاني 1992، على القضايا الرئيسية التي تهمّ مجمل الشرق الأوسط: المياه، البيئة، الحدّ من التسلّح، اللاجئون، التنمية الاقتصادية، والأهم من ذلك كله، الأمن الإقليمي.

وُجّهت دعوات إلى عدد كبير من البلدان. أما المشاركون الرئيسيون فكانوا حكومة كل من إسرائيل، وسوريا، ولبنان، والأردن. (بناء على طلب إسرائيل، لم يشكل الفلسطينيون وفداً خاصاً بهم، كان في وسع الفلسطينيين من غير الأعضاء الرسميين في منظمة التحرير الفلسطينية الحضور كجزء من وفد أردني فلسطيني مشترك). كما وُجهت دعوات إلى مصر، والاتحاد الأوروبي، ودول مجلس التعاون الخليجي كمشاركين، في حين دُعيت الأمم المتحدة إلى إرسال مراقب يمثل الأمين العام. بالمحصلة، شاركت أربع وثلاثون دولة في المحادثات متعددة الأطراف، من بينها خمس عشرة دولة إقليمية. وفي الوقت الذي اعتقدت فيه طهران أن فرصتها قد أزفت للقبول بها كقوة إقليمية وإشراكها في صنع القرار في الشرق الأوسط، قضت واشنطن على آمال إيران برفضها توجيه دعوة إليها.

أخفقت واشنطن من وجوه عدة في تقدير براغماتية إيران، وبخاصة الموقف الجديد لطهران من إسرائيل، حيث أعلن رفسنجاني أن إيران ستوافق على أي حل يكون مقبولاً من الفلسطينيين. ويعود دينيس روس، المنسق الخاص لعملية السلام في الشرق الأوسط لدى البيت الأبيض حينها، بالذاكرة إلى تلك الفترة ويقول: "لم نلحظ أية جهوزية من قِبلهم لكي يكونوا جزءاً من عملية سلمية مع إسرائيل". أخفقت واشنطن في ملاحظة جهوزية إيران بسبب الصورة المأخوذة عن إيران بوصفها دولة راسخة العداء للأميركيين، والتي تشكّلت على مدى عقد من التوترات بين البلدين. وعلى حدّ تعبير روس: "تبدأ صورة معينة بالتشكّل، وعندما تتشكل، ستعطي الكثير من الوزن لتلك الأفعال التي تؤكدها حتى عندما تبدو حتى السلوكيات متناقضة مع الصورة، وستصرف النظر عن تلك السلوكيات التي تشير إلى اتجاه آخر... كان مصير الإشارات التي أطلقها رفسنجاني الإهمال، ولكنها كانت موجودة. والسلوكيات التي تلاءمت مع الصور التقليدية لإيران عوملت كما لو أنها إيران الحقيقية"[66].

في نظر مسؤولين آخرين في البيت الأبيض، كانت إيران في التسعينيات أكثر من راديكالية. فقد أثبتت حادثة اغتيال رئيس الوزراء الإيراني السابق شهبور بختيار بباريس في أغسطس/آب 1991 – التي أُفيد بأنها كانت من تدبير عملاء إيرانيين – أن إيران "ميؤوس منها"، لأن جريمة القتل، كما يجادل هؤلاء، وقعت فيما كانت إيران تسعى إلى تحسين علاقاتها مع واشنطن. وفي الحد الأدنى، رفع سلوك إيران المتناقض الكلفة السياسية لمدّ اليد لطهران[67]. وبما أنه لم يكن يوجد علاقات دبلوماسية بين واشنطن وإيران، لم تكن هناك مصلحة في دعوة الدول التي يمكن أن تتصرف كدول مُفسدة[68]. يقول سكاوكروفت: "لم نكن جاهزين في ذلك الوقت لإشراك إيران"[69].

لكن كان يوجد عامل آخر أيضاً؛ كان يُنظر إلى إيران على أنها بعيدة الصلة عن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. كانت علاقات إيران مع الفلسطينيين ونفوذها في أوساطهم يُعتبران عديمي الأهمية بسبب افتقارها إلى المشاركة النشطة في القضية الفلسطينية[70]. في هذا الصدد، يجادل سكاوكروفت بأنه "لم يكن لدى إيران ما تسهم فيه بكل بساطة. لم تكن تتمتع بنفوذ في أوساط العرب، وبالتالي أنّى لها المساعدة في العملية السلمية؟"[71] وكانت هذه وجهة نظر الإسرائيليين أيضاً، حيث شعروا بأن لدى إيران القليل مما يمكن أن توفره في هذا الخصوص. ويشرح دبلوماسي إسرائيلي لدى الأمم المتحدة الموقف الإسرائيلي فيقول: "لم يكن لدى إيران صلة بالموضوع. فهي لا تملك تأثيراً في الفلسطينيين، بخلاف مصر والدول العربية، ولذلك كانت مشاركتها غير ضرورية"[72]. (لكن في غضون بضع سنين، ألقى كل من إسرائيل والولايات المتحدة اللوم في فشل العلمية السلمية على تأثير إيران في الفلسطينيين).

لم تكن إيران بعيدة الصلة عن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني في أذهان صانعي السياسة بواشنطن وحسب، بل وغير ذات صلة بشيء إطلاقاً، انتهى نقطة على السطر. في حين خشي فريق بايكر من أن تعمل إيران كمفسد للمؤتمر في حال دُعيت إلى حضوره، نسي أن يأخذ في الحسبان قدرة إيران على لعب دور مخرّب في حال لم تُدعَ إلى حضوره. في تلك اللحظة أحادية القطبية لم ترَ واشنطن ببساطة في إيران قوة يُحسب لها حساب فقد بلغت ثقة أميركا بنفسها حدّ العجرفة. ويشرح كورتزر المسألة فيقول بأن تلك كانت "لحظة أميركا في الشرق الأوسط. كان كل شيء يسير وفقاً لما نشتهي. إيران كانت مشكلة لنا، لكن ماذا يعنيه ذلك؟ نحن نملك كل شيء آخر"[73].

ردّت طهران بمرارة على ازدراء واشنطن. مع تأثير في الفلسطينيين أو بدونه، رأت إيران في نفسها قوة إقليمية رئيسية، وتوقّعت احتلال مقعد على الطاولة، وبخاصة بعد الدور المساعد الذي شعرت أنها لعبته في تأمين إطلاق سراح الرهائن بلبنان ومساعدتها غير المباشرة في الحرب التي قادتها الولايات المتحدة ضدّ العراق[74]. فبعد كل شيء، لم يكن مؤتمر مدريد مجرد مؤتمر لبحث الصراع الإسرائيلي الفلسطيني وحسب، بل ولحظة فاصلة في تشكيل النظام الجديد في الشرق الأوسط؛ وهو النظام الذي أملت طهران بلعب دور فيه يتناسب مع وزنها الجيوسياسي. وأدى عدم توجيه الدعوة إليها إلى حرمان إيران من فرصة المساعدة على صياغة نظام جديد وفقاً لمصالحها الخاصة[75].

لزيادة الأمور سوءاً، هددت دعوة سوريا للمؤتمر بفرطِ تحالف دمشق طهران والحدّ من وجود إيران بالشرق وقدرتها على وصولها إليه؛ وهو رصيد استراتيجي هام استثمرت فيه إيران بقوة[76]. لم تكن مخاوف إيران بدون أساس. فإسرائيل التي كانت قلقة من دعم إيران لحزب الله بلبنان وزيادة النفوذ الإيراني غداة هزيمة العراق في حرب الخليج، طالبت سوريا في مدريد بالموافقة على وجوب استبعاد إيران من إطار المؤتمر والتخفيض من

مستوى العلاقات الإيرانية السورية[78]. يقول نائب وزير الخارجية هادي نجاد حسينيان: "كان ذلك إهانة لطهران بالتأكيد، ما من شك في ذلك"[79]. قال لي العديد من المسؤولين الإيرانيين إن طهران كانت على استعداد للمشاركة في المباحثات واستخدام نفوذها ودورها شريطة عدم الاعتراف بإسرائيل[80]. (لم يكن الاعتراف بإسرائيل مطلباً لأي من المشاركين في المؤتمر). هذا يتناسب جيداً مع مبادرات إيران الأخرى لأن المؤتمر انعقد فيما كانت إيران تكثّف جهودها للعودة إلى الاندماج مع المجتمع الدولي. يقول سيماك نامازي، من مؤسسة أتييه بهار للاستشارات: "الدخول إلى هذه الهيئات كان الأمر الذي تهدف إليه إيران بالتحديد في ذلك الوقت"[81]. بعد عقد على ذلك التاريخ، لعبت إيران دوراً حاسماً في مؤتمر بون بعد الغزو الأميركي لأفغانستان في العام 2001. وهذا يظهر، كما يقول طاجيك، المستشار لدى الرئيس السابق محمد خاتمي، أن إيران توّاقة إلى المشاركة في مثل هذه المؤتمرات الإقليمية عندما تُدعى إليها. ويضيف "كانت إيران ستلبّي الدعوة إلى حضور مدريد. وقد قبلنا بدور في مؤتمر بون حول أفغانستان وأردنا المشاركة في مؤتمر مدريد أيضاً"[82].

كان الامتناع عن توجيه دعوة لحضور مؤتمر مدريد القشة الأخير التي قضت على سياسة الانفتاح الدولي التي انتهجها رفسنجاني مع واشنطن. فقد تملّك إيران أصلاً شعور بأن التعديلات التي أدخلتْها على سياساتها لم تنل اعتراف إدارة بوش الأب وتقديرها. أولاً: اختارت واشنطن إبقاء صدام في السلطة، وتركت قسماً هاماً من الحرس الجمهوري العراقي سليماً من أجل موازنة إيران[83]. يقول العقيد لورنس ويلكرسون: "تم القيام بذلك عن عمد، حيث أُبقي على عدد كاف من الجنود بحيث لا يشكل خطراً على جيران العراق ولكنه كبير بما يكفي لموازنة إيران"[84]. ثانياً: عمدت واشنطن إلى استباق تصميم تركيبة أمنية حصرية للخليج العربي. يقول نامازي: "كانت المرّة الأولى التي تبدر عن إيران فيها إيماءة عظيمة. من الواضح أنها شعرت بأن سياسة العزل ستطبّق بصرف النظر عما تقوم به"[85]. لقد انطوت إيماءات حسن النية من جانب رفسنجاني على مخاطرة سياسية محلية كبيرة، وكان عدد المسؤولين القلائل المحيطين بالرئيس الإيراني والذين كانوا على استعداد لدفع كلفة التودد إلى الولايات المتحدة يتناقص شيئاً فشيئاً. اشتكى مسعود إسلامي، من وزارة الخارجية الإيرانية من أن "الاستعداد للقيام بعمل إيجابي مع أميركا تلاشى تقريباً، لأنها لم تقابلنا بالمثل. فبصرف النظر عن العمل الإيجابي الذي تقوم به إيران، كان الردّ دائماً المزيد والمزيد من العزلة"[86].

إن إخفاق واشنطن في مقابلة الإيماءات الإيرانية بإيماءات مماثلة – حتى عندما كانت توقعات طهران مبالَغاً فيها – قوّى موقف الرافضين الإيرانيين الذين جادلوا بأن واشنطن لن تتوصل إلى اتفاق مع إيران طواعية، وشيئاً فشيئاً، بدأ نهج رفسنجاني القائم على تلطيف حدّة السياسة الخارجية الإيرانية والتقرّب أكثر من مجموعة الدول الغربية ينهار[87]. استنتجت طهران، بعد أن اقتنعت بأن واشنطن لن تمنح إيران دورها المشروع في المنطقة، بأنه لم يعد أمامها خيار سوى جعل تجاهل أميركا لها مكلفاً بقدر الإمكان باللجوء إلى تخريب سياساتها[88]. هذه القناعة، كما يقول تابار: "دفعت إيران إلى الالتفات نحو الجماعات الفلسطينية واللبنانية التي تشاطر إيران وجهات نظرها"[89]. كانت القضية الإسرائيلية الفلسطينية واحدة من الميادين القليلة التي يمكن لإيران فيها إضعاف الولايات المتحدة. بدأ رفسنجاني بتبنّي موقف أكثر حدّة من إسرائيل والابتعاد عن الخط الأصلي القائم على القبول برغبات الفلسطينيين[90]. وفي إدراك متأخر، يقرّ روس بأن استبعاد إيران من مؤتمر مدريد كانت له أهمية أكبر مما اعتقد الكثيرون حينها. قال روس: "أعتقد بأنه من المنصف القول بأننا لم ندرس الأمر بتأنّ، ولو عدنا إلى الماضي، ربما كان يجدر بنا توجيه دعوة إليها. لكنّ إيران لم تكن تحظى بالكثير من الاهتمام"[91].

حالما بدا واضحاً أن دعوة إلى حضور المؤتمر لن توجَّه إلى طهران، أعطى المرشد الأعلى للثورة الإيرانية، آية الله السيد علي خامنئي، الضوء الأخضر لعلي أكبر محتشميبور من أجل تنظيم مؤتمر يعارض مؤتمر مدريد[92]. كانت تلك نقطة تحوّل، لأن إيران بدأت للمرّة الأولى بمدّ اليد بطريقة جدّية إلى الجماعات الفلسطينية الرافضة، على الرغم من الانقسام الشيعي السنّي والعداوة التي بينهما والتي ترجع إلى الحرب العراقية الإيرانية. كانت إيران قد خفضت قبل سنة من ذلك التاريخ دعمها المالي لحزب الله بلبنان[93]. وتولّت إيران الدور الريادي في معارضة مؤتمر مدريد، وهو موقف لم تكن لتأخذه لو أن واشنطن دعتها إلى المشاركة، وذلك استناداً إلى روح الله رمزاني من جامعة فرجينيا، الخبير الضليع بالسياسة الخارجية الإيرانية[94].

تزامن مؤتمر الرافضين بطهران مع مؤتمر مدريد، وضم جماعات فلسطينية مسلّحة رأت – كما إيران – أن جهود الوساطة الأميركية تضرّ بمصالحها[95]. ورفعت إيران حدّة خطابها المعادي لإسرائيل، واتهمت الحكومات العربية التي تدعم عملية السلام بالخيانة، واستخدمت ورقة الشارع العربي في إضعاف الحكومات العربية الموالية للغرب. ولكنها التزمت بالامتناع عن مواجهة إسرائيل مباشرة، إن بالطرق التقليدية أو باستخدام الإرهاب. واستناداً إلى مصادر إسرائيلية، لم تقع أعمال إرهابية استهدفت إسرائيل وحملت بصمات إيرانية[96]. وكم كانت سعادة إيران عندما لم ينتج عن مؤتمر مدريد إحراز التقدم الذي أملت واشنطن به. كانت حكومة شامير مترددة حيال المشاركة منذ البداية، وهي لم تقم بالكثير لإنجاح المفاوضات. وبعد أن اتضح فشل مدريد، قويت الآمال في معسكر رفسنجاني بأن واشنطن ستفهم أن تغييراً في المنطقة لا يمكن أن يحدث بدون تعاون طهران. لكن قبل أن يقوم رفسنجاني بمحاولة جديدة لمدّ اليد إلى واشنطن، أجرى حزب العمل الإسرائيلي، الذي أدرك عواقب أي نظام جديد في الشرق الأوسط على الموقف الاستراتيجي لتل أبيب، تغييراً حادّاً في السياسة الخارجية الإسرائيلية.

الفصل 14 مقايضة الأعداء

احتجنا إلى غراء جديد للتحالف مع أميركا. والغراء الجديد... كان الإسلام الراديكالي. وإيران هي الإسلام الراديكالي.

– إفرايم إنبار، مركز بيغن – السادات

كان الشعب الإسرائيلي منهكاً عندما توجّه إلى صناديق الاقتراع في يونيو/حزيران 1992. فبعد مرور عدة سنين على اندلاع الانتفاضة، كانت الثورة الفلسطينية التي بدأت في ديسمبر/كانون الأول 1987 قد استنفدت كثيراً من أرصدة الدولة اليهودية[1]. أدرك الإسرائيليون بأعداد متزايدة أن الاحتلال – الذي كانت تبرّره إسرائيل عموماً على أسس أمنية – أصبح خطراً أمنياً في حدّ ذاته. كتب أوري سافير، الذي تفاوض في وقت لاحق على اتفاقية أوسلو مع منظمة التحرير الفلسطينية، "لم يعد الاحتلال أمراً روتينياً يمكننا تجاهله بأمان. لقد تعب الإسرائيليون من الصراع وأرادوا الراحة، راحة البال"[2]. قدّم حزبا الليكود والعمل، اللذان يقفان على طرفي نقيض دائماً، وجهتي نظر مختلفتين حيال مأزق إسرائيل. فضّل إسحاق شامير وحزب الليكود الإبقاء على الوضع الراهن؛ الفلسطينيون يشكلون مشكلة، لكن يستحيل التوصل إلى اتفاق معهم، وإسرائيل لن تحصل على السلام ولا على الأمن بالتوصل إلى تسوية مع العرب، وأنه يمكن ضمان أمن إسرائيل على المدى الطويل في حال احتفظت بالأراضي المحتلة ووسعت مستوطناتها. وحتى في حال اعترضت واشنطن، ستنتصر إسرائيل في النهاية، كما اعتقد الليكود، في حال أصرت على مواقفها.

جادل حزب العمل بأنه يمكن التضحية ببعض المستوطنات، وأنه ينبغي تحويل الموارد من مشروع الاستيطان إلى إسرائيل نفسها من أجل استيعاب جموع اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفياتي. هذا هو العنصر الأهم بالنسبة لإسرائيل لأن التهديد الأمني الرئيسي للدولة اليهودية لم يعد مناطقياً بل أصبح ديموغرافياً. كان الفلسطينيون يتفوقون على الإسرائيليين عدداً بوتيرة سريعة. فقد طردت دول الخليج العربية أعداداً ضخمة من العمال الفلسطينيين للانتقام من دعم منظمة التحرير للعراق في الحرب. وعاد العديد من هؤلاء إلى الضفة الغربية وقطاع غزّة، وهو ما زاد عدد السكان لصالح الفلسطينيين[3].

يشرح دان ميريدور، وهو سياسي بارز في حزب الليكود، اختلف مع حزبه في هذه النقطة، المشكلة قائلاً: "كنا نواجه قنبلة ديموغرافية، قنبلة فلسطينية. وفي حال بقينا من الأردن وحتى البحر، ربما نتساوى معهم في العدد في غضون سنين. وسيكون ذلك نهاية للحلم الصهيوني". كان الطابع اليهودي لإسرائيل في خطر؛ إما أن تُضطر إسرائيل إلى استيعاب الفلسطينيين وتخسر يهوديتها أو سلوك المسار الجنوب أفريقي والتخلّي عن الديمقراطية[4]. الخيار الأول يعني نهاية المشروع الصهيوني، في حين أن الخيار الثاني سيقضي على ديموقراطية إسرائيل[5]. جادل حزب العمل بأن إسرائيل بحاجة إلى ترميم علاقتها التي تضررت كثيراً مع الولايات المتحدة عبر إظهار مزيد من المرونة. يشرح إيتمار رابينوفيتش، وهو مستشار مقرّب من إسحاق رابين، الموقف بالقول: "لقد انطلقت عملية مدريد، ومن الواضح أن حكومة شامير لا تريد المضيّ فيها. احتجنا إلى إصلاح العلاقة مع إدارة بوش الأب/بايكر التي أفسدها فريق شامير/شارون[6]. توصل حزب العمل بمهارة إلى استنتاج مفاده أن إسرائيل لن تستطيع التمسك باستراتيجية ثابتة فيما تخضع البيئة من حولها لتغييرات جذرية. في الحلبة الدولية الجديدة، كان على إسرائيل أن تعيد ترتيب أولوياتها.

كانت انتخابات يونيو/حزيران 1992 من وجوه عديدة استفتاء على وجهتي النظر اللتين قدّمهما رابين وشامير. كما تبيّن من النتائج، اختار الإسرائيليون الوقوف إلى جانب رابين، فحقق حزب العمل فوزاً ساحقاً وتمكن – لأول مرة منذ خمسة عشر عاماً – من إقصاء الليكود تماماً عن السلطة[7]. بدعم واضح من جمهور الناخبين، اعتقد حزب العمل بقيادة رابين وبيريز أنه يمكن تحويل أخطار الانتفاضة وعلاقات إسرائيل المتوترة بواشنطن إلى فرصة. أقرّ حزب العمل بأن الأخطار الداخلية والمشكلات الخارجية التي تواجهها إسرائيل – وبخاصة فقدانها الحظوة لدى واشنطن – على ارتباط مباشر، وأن معالجة إحدى المجموعتين بدون معالجة الأخرى ستبقي الاثنتين بدون حل.

أوجد هذا التغيير في البيئة الداخلية والخارجية لإسرائيل عالماً جديداً؛ لحظة حاسمة بالنسبة إلى أمن إسرائيل تطلبت تغييراً جذرياً[8]. فالنظام القديم لم يعد موجوداً، ولن يكون لإسرائيل مستقبل في النظام الجديد ما لم تجد تعليلاً منطقياً لكي تواصل واشنطن شراكتها الاستراتيجية معها[9]. لكن إسرائيل لم تكن قوية بما يكفي لعكس هذه الميول؛ يمكنها البقاء في وضع سلبي ومراقبة منافسيها وهم يتولّون الدور الريادي في إيجاد نظام جديد يميل لصالحهم، أو يمكنها تولّي زمام المبادرة وصياغة شرق أوسط يتلاءم مع المصالح الإسرائيلية. لكن في هذه اللعبة الإقليمية، لم تعد منافسة إسرائيل مع العرب بل مع إيران. اقتنعت إسرائيل بأن إيران، التي برزت من جملة المنتصرين في حرب الخليج، ستسعى إلى فرض نظامها الخاص على الشرق الأوسط وخاصة إذا وافق ما تريده أميركا[10]. خافت إسرائيل من أن استمرار تركيز واشنطن على العراق سيخلّ بالتوازن الإقليمي ويمكّن إيران من البروز كخطر سياسي – وعسكري – على إسرائيل[11]. هذا التحوّل في نظرة حزب العمل إلى إيران "نابع من حقيقة أن طهران يمكن أن تتطلع إلى لعب دور المهيمن الإقليمي وهو الدور الذي تتطلع إليه إسرائيل"[12]. في هذه المنافسة الجديدة على مستقبل المنطقة، رأى حزب العمل أن كل مكسب إيراني يعدّ خسارة لإسرائيل[13].

الطريقة الوحيدة لكي تخرج إسرائيل من هذا الوضع كانت في ترأس عملية إعادة إيجاد توازن للقوى في الشرق الأوسط لضمان أن يكون في صالح الدولة اليهودية وأن يمنحها دوراً محورياً في الشؤون الإقليمية[14]. أطلق بيريز على التصميم الإقليمي الجديد عبارة "الشرق الأوسط الجديد"[15]. في هذا الشرق الأوسط، سيكون هناك "مجموعة من الدول الإقليمية، مع سوق مشتركة وهيئات مركزية منتخَبة، على غرار الاتحاد الأوروبي". اعتقد

بيريز بأنه بعد أن يتم حل النزاعات السياسية بين إسرائيل والعرب، ستتطور روابط اقتصادية بين إسرائيل والعرب، وستبرز إسرائيل بوصفها المحرّك الاقتصادي في المنطقة، بحيث تنتج سلعاً لسوق عربية يبلغ عدد المستهلكين فيها 240 مليوناً ممن يتمتعون بقدرة شرائية قوية[16]. وبوصفها هونغ كونغ الشرق الأوسط، سيصل الناتج المحلي الإجمالي للفرد في إسرائيل مستوى نظيره بالولايات المتحدة[17]. وبنقل المركز الاقتصادي للشرق الأوسط في اتجاه منطقة البحر الأحمر وإسرائيل، ستفقد منطقة الخليج العربي وإيران أهميتها الاستراتيجية[18]. وتصوّر حزب العمل أن الموقع الذي عجزت إسرائيل عن بلوغه من خلال الوسائل العسكرية أو السياسية – أو من خلال الاحتفاظ بالأراضي الفلسطينية – ستحصل عليه من خلال وسائل اقتصادية[19].

آلت هذه الاستراتيجية إلى مكونتين جوهريتين تقوّي إحداهما الأخرى: التوصل إلى سلام مع الفلسطينيين وتصوير إيران كخطر يهدد المنطقة والعالم. كانت الظروف ناضجة للتوصل إلى اتفاق مع العرب، وأرادت واشنطن من إسرائيل أن تؤْثر السلام. على الرغم من الانتفاضة، كانت منظمة التحرير الفلسطينية تمرّ في أضعف مرحلة لها منذ تأسيسها. وفيما كان حزب العمل في أوج قوته، كان زعيم منظمة التحرير ياسر عرفات في الحضيض. فقد ارتكبت القيادة الفلسطينية عدة أخطاء استراتيجية فادحة في الشهور السابقة: أيّد عرفات غزو صدام للكويت، مما ولّد توترات لا مع الولايات المتحدة وحسب، بل ومع الدول العربية الخليجية التي تعتبر الممول الرئيسي لمنظمة التحرير. بعد بضعة شهور، أيد الزعيم الفلسطيني انقلاباً شيوعياً فاشلاً بروسيا، آملاً بأن يجدد الشيوعيون الذين كانوا ينوون الاستيلاء على الحكم الدعم الروسي للفلسطينيين[20].

بحلول صيف العام 1993، وصلت منظمة التحرير إلى شفير الانهيار. فقد أخفقت في ترجمة مكاسبها التكتيكية التي جنتها من الانتفاضة إلى رأسمال سياسي على المسرح الدولي، ومع توقف الدعم المالي، أوشكت المنظمة على الإفلاس. في لحظة يأس، وجدت المنظمة أنها مضطرة إلى أن تبرم صفقة مع إسرائيل[21]. ويؤكد إفرايم هالفي، الرئيس السابق للموساد الإسرائيلي، قائلاً: "لو أنها لم تقم بذلك، لكنا اكتسحناهم بالكامل"[22]. وافق كل من الفلسطينيين والإسرائيليين على التوصل إلى سلام لأن منظمة التحرير كان تُحتضر، وكان الفلسطينيون أضعف من أن يبحثوا عن حل بديل، ولأن الإسرائيليين كانوا من القوة بحيث يصعب التوصل معهم إلى صفقة أفضل. جادل حزب العمل بأن إنقاذ منظمة تحرير ضعيفة خير من تدميرها بالنسبة إلى إسرائيل[23]. يقول كيث وايزمان من لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (إيباك): "كان جيراننا ضعفاء، وكان الفلسطينيون مفلسين، وكانت سوريا بدون دعم، وكانت مصر خارج اللعبة، وبالتالي توفرت لنا نافذة فرص رائعة للتوصل إلى سلام". بالنسبة إلى بيريز، لم يكن بالإمكان وصف هذه الفرصة بأقل من كونها رائعة لتغيير مجرى التاريخ[24].

إذا فوّتت إسرائيل هذه الفرصة، ستخاطر بمواجهة سكان فلسطينيين تملّكتهم النزعة الراديكالية في المستقبل، وربما بقيادة حماس. كانت منظمة التحرير قد بدأت تفقد رصيدها في الضفة الغربية وقطاع غزّة منذ طرد الفلسطينيين من لبنان في الثمانينيات، وبدأت جماعات مثل حماس والجهاد الإسلامي بملء الفراغ الذي خلّفته منظمة التحرير. بحلول التسعينيات، بدأت حماس تتحدّى عرفات مما يعكس أفول القومية وبروز الأصولية الإسلامية[25]. من دواعي السخرية أن إسرائيل كانت مهتمة بقوة حماس عند بدء الانتفاضة من أجل إضعاف منظمة التحرير. لكنها لم يعد في مقدورها الوقوف موقف اللامبالاة حيال ميل ميزان القوى[26]. كان الخيار واضحاً: إبرام صفقة مع منظمة تحرير ضعيفة الآن أو قتال حماس قوية في المستقبل[27]. (واجه عرفات مأزقاً مماثلاً، فكان عليه إما إبرام صفقة مع حزب العمل على الرغم من ضعف المنظمة أو تحييدها من قبل حماس واضطرارها إلى الجلوس على مقاعد المتفرّجين في اشتباك مستقبلي بين الإسلاميين الفلسطينيين ومناصري إسرائيل الكبرى في الليكود)[28].

كان ذلك بمثابة تحول غير مسبوق في النظرة الجيوسياسية لإسرائيل. فقد تناقضت هذه النظرة تماماً مع جوهر الاستراتيجية الموجّهة لإسرائيل منذ أيام بن غوريون؛ المبدأ المحيطي. بالسعي إلى التوصل إلى سلام مع الدول العربية المجاورة لإسرائيل وتصوير دولة محيطية رئيسية – إيران – بأنها خطر، قلَب رابين وبيريز المبدأ المحيطي رأساً على عقب. كان التحول مثيراً للدهشة على الخصوص لأن بيريز ورابين قادا قبل بضع سنين فقط جهوداً لتحسين العلاقات بين الرئيس الأميركي رونالد ريغان ونظام آية الله الخميني بإيران. دافع بيريز عن موقفه الجديد بالمجادلة بأنه – بوصفه أحد الشخصيات المحظية لدى بن غوريون – لم يتغيّر بل العالم هو الذي تغير[29]. وبدلاً من الاعتماد على المحيط في موازنة العرب، أدى الضعف الذي اعترى العرب، وقوة المحيط، والقوى التي ضغطت في اتجاه بناء نظام جديد إلى وضع إسرائيل وإيران على طرفين متقابلَين في المعادلة الجيوسياسية الجديدة. كان ذلك المسمار الأخير في نعش مبدأ المحيط؛ فلقد بات المحيط الفارسي هو الذي يمكن أن يشكل الآن خطراً على الدولة اليهودية، وليس الجوار العربي[30]. ففي النهاية، جاء الدور الذي تصوّره بيريز لإسرائيل في الشرق الأوسط الجديد على حساب إيران. ولكي تحتل إسرائيل المركز الرئيسي في الشرق الأوسط الجديد، ينبغي أن تبقى إيران على الهامش السياسي للمنطقة ويجب أن تستمر محرومة من الدور الذي تعتقد بأنها تستحقه[31]. يشرح ديفيد ماهوفسكي، وهو خبير في السياسة الخارجية الإسرائيلية، هذا الوضع الجديد بالقول: "ما من شك في أنه عندما برزت احتمالات التوصل إلى سلام مع الدائرة الضيقة، برز تصوّر إيران بأنها خطر"[32].

إن الفكرة التي فحواها أن المحيط يمكن أن يصبح خطراً على إسرائيل ليست جديدة تماماً، فقد بدأ رابين إعادة تقييم المبدأ المحيطي في أواخر العام 1989، وتصوّر وبيريز الشروع في عملية سلمية مع الفلسطينيين واستمرار المبدأ المحيطي كاستراتيجيات حصرية متبادلة. (واجهت إسرائيل هذا المأزق من قبل: مقايضة مشابهة بين السلام مع جار وحلف مع دولة محيطية قام بها مناحيم بيغن وموشي دايان عندما اختارا التضحية

بعلاقات تل أبيب مع أثيوبيا من أجل التوصل إلى سلام مع مصر في العام 1979)[33]. غير أن صيحة الإفاقة جاءت من الجيل الجديد من الأسلحة، وذلك عندما ضرب صدامُ إسرائيل بصواريخ سكود أثناء حرب الخليج. فالعراق الذي كان يُعتبر – إلى جانب إيران – جزءاً من الدائرة الخارجية، وضع إسرائيل في متناول صواريخه. يشرح موشي أرينز، وزير الدفاع الإسرائيلي في تلك الفترة هذا التطور بالقول بأن الهجمات بصواريخ سكود "أكدت على حقيقة لم نتنبّه لها من قبل؛ كان هناك خطر قادم من وراء الأفق، من المحيط"[34]. فإذا كان في مقدور الدول البعيدة أن تضرب إسرائيل، فهذا يعني أن مفهوم المحيط قد فقد معناه[35]. وفكرة عقد صداقات مع المحيط – الذي يمكن أن يكون خطراً – من أجل إضعاف جوار إسرائيل – الذي كان أضعف من أن يشكل تهديداً – فقدت الكثير من أساسها المنطقي، مما أسكت معسكر مناصري المبدأ المحيطي بإسرائيل[36].

في أواخر العام 1991، أغرق الاستراتيجيون الإسرائيليون الصحف الإسرائيلية القريبة من حزب العمل بمقالات تتحدّى النظرة التقليدية حيال إيران باعتبارها حليفاً استراتيجياً غير عربي، وتصفها بأعظم خطر استراتيجي يهدد إسرائيل. (كانت الصحف الأكثر تشكيكاً في إمكانية التوصل إلى سلام مع العرب أكثر حذراً)[37]. وعلى سبيل المثال، كتبت صحيفة جيروزالم بوست في عددها الصادر في نوفمبر/تشرين الثاني 1991 أن "التدهور العراقي أحدث فراغاً في القوة كانت إيران – المدفوعة بميول سلطوية وإسلامية – على استعداد لملئه. وهناك عملية بناء عسكرية ضخمة تدعم هذه الأهداف السياسية المستحدثة. وربما تُقوّى هاتان الناحيتان بخطة نووية تدعمها الهند والصين". ونتيجة لذلك، جادلت الصحيفة اليومية الإسرائيلية بأن "إيران تلوح بوصفها التحدّي الاستراتيجي التالي الذي يواجه إسرائيل. لقد أصبحت إيران بوجه من الوجوه صورة مرآوية لما أمل العراق بتحقيقه قبل خمس سنين"[38].

بالرغم من أنه جرى تغييب الفوارق الدقيقة عن عمد في الخطاب، لم تستند التهم إلى وجود خطر إيراني حالي، وإنما إلى توقع بروز خطر إيراني في المستقبل. (كانت تفصل إيران عدة عقود عن امتلاك قدرة نووية في ذلك الوقت، وإنفاقها العسكري تراجع بشكل حادّ). قاد الحملة من بين أوساط النخبة السياسية بإسرائيل إفرايم سنيه، وهو نائب من حزب العمل في الكنيست، واللواء عموس جلعاد، وأوري لوبراني، المبعوث الإسرائيلي الأسبق لدى إيران. قال لي سنيه: "كنت الشخص الأول الذي وضع هذه المسألة على جدول أعمال الكنيست. وحجتي كانت أن إيران تركيبة خطرة؛ إنها نظام يريد دمارنا ويمكن أن يمتلك قدرة نووية"[39]. لكن في البداية، خاض الصقور في المسألة الإيرانية معركة صعبة، وغالباً ما كانوا يجدون حضوراً مشككاً وغير مقتنع. وكانوا يُتهمون بين الحين والآخر بأنهم "ناشرو الذعر والمتوعّدون باستعمال القوة الذين يهمّهم إشعال حروب بعيدة عن الحدود المباشرة لإسرائيل"[40]. كان رابين متشككاً في البداية، فهو لم يقدّر جهود سنيه، وطلب منه التخفيف من حدّة خطابه والامتناع عن جعل إيران محور تركيز تشريعي[41]. لكن بعد مرور شهور معدودة على تولّيه السلطة كرئيس للوزراء – وقبل سنتين من تدخل إيران مباشرة في الإرهاب الفلسطيني الموجّه ضدّ إسرائيل – حلّ محل شكوك رابين انفعال وحماسة. أصبح التحول المذهبي حقيقة.

جرى إعداد حملة بسرعة لإقناع الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي بأن إيران خطر عالمي. وحرص بيريز ورابين على التأكد من أن خوف إسرائيل الجديد من إيران يحظى بانتباه الجميع. في أكتوبر/تشرين الأول 1992، بدأا بترديد الخطاب الملتهب المعادي لإيران. وبتكرار شعاراتهما متى سنحت الفرصة، تبنّى زعيما حزب العمل لهجة غير مسبوقة ضدّ إيران، فاتّهم بيريز إيرانَ "بإشعال كافة الحرائق بالشرق الأوسط"، ملمّحاً إلى أن الفشل في حل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني يرجع إلى تدخّل إيران وليس إلى تقصير من جانب إسرائيل والفلسطينيين[42]. واتهم رابين إيرانَ بأنها تعاني من جنون العظمة وأنها تسعى إلى أن تصبح "القوة الرائدة بالمنطقة"[43]. وقال للكنيست في ديسمبر/كانون الأول 1992 إن "صراع إسرائيل ضدّ الإرهاب الإسلامي المجرم قُصد منه إيقاظ العالم الغافل عن أخطار الأصولية الشيعية". وختم رابين حديثه بالقول "الموت عند عتبة دارنا"، بالرغم من أنه قبل سنين قليلة فقط وصف إيران بالحليف الاستراتيجي[44].

كان التحوّل الإسرائيلي حادّاً بقدر ما كان غير متوقّع. يقول غاري سيك، الذي كان يخدم في مجلس الأمن القومي على عهد إدارتي كارتر وريغان: "فجأة، ظهر هذا الأمر. كانوا يتحدثون جميعاً عنه، كانت تلك حملة"[45]. وبعد أيام قلائل على الانتخابات الرئاسية الأميركية التي جرت في العام 1992، سعت حكومة رابين إلى إقناع إدارة بيل كلينتون الجديدة بعدم التركيز على العراق بوصفه خطراً، وإنما على إيران. قال يوسي ألفير، الذي كان حينها مستشاراً لرابين: "ينبغي تعريف إيران بأنها العدو رقم واحد". وذلك في حديث إلى صحيفة نيويورك تايمز بعد أربعة أيام من فوز كلينتون بالانتخابات. عرض رابين رسالته بشكل متكرر على المسؤولين الأميركيين لحمل واشنطن على القيام بعمل ضدّ إيران. يشرح روبرت بيلّترو، الذي خدم كمساعد لوزير الخارجية في شؤون الشرق الأدنى حينها، الأمر فيقول: "أصبحت إيران، بوصفها جزءاً من الخطر، جزءاً من العرض الاستراتيجي الإسرائيلي، لأن هذه كانت بالتأكيد وجهة النظر التي كان يعرضها رابين بواشنطن في مستهلّ التسعينيات"[47]. واستناداً إلى إسرائيل شاحاك، وهو أكاديمي إسرائيلي ورئيس الجمعية الإسرائيلية لحقوق الإنسان والحقوق المدنية، تمثلت استراتيجية حزب العمل "في الضغط على واشنطن وعلى القوى الغربية لحملها على الدخول في مواجهة مع إيران". لم يكن في مستطاع إسرائيل مواجهة إيران بنفسها لأن ذلك يهدد بتحويل المسألة إلى صراع إسرائيلي إسلامي. من أجل درء هذا الخطر، كانت رسالة إسرائيل تقول إن إيران ليست خطراً على إسرائيل وحدها، وإنما على العالم الغربي بأكمله[48].

بنت إسرائيل قضيتها على عدة عوامل. أول هذه العوامل وأكثرها أهمية هو اتهام إسرائيل لإيران بالسعي إلى إنتاج أسلحة نووية وكيميائية[49].

ففي تحذير للمجتمع الدولي بأن إيران يمكن أن تتسلّح بقنبلة نووية بحلول العام 1999، قال بيريز للقناة التلفزيونية الفرنسية الثالثة في أكتوبر/تشرين الأول إن "إيران هي الخطر الأكبر على السلام والمشكلة الأكبر في الشرق الأوسط... لأنها تتبنّى الخيار النووي فيما تتخذ موقفاً حربياً دينياً بالغ الخطورة". جادل وزير الخارجية الإسرائيلي بأنه لا يمكنك ردع دولة إرهابية متعصبة تملك أسلحة نووية[50]. وفي حال امتلك النظام الديني الشيعي المزود بأسلحة نووية صواريخ باليستية أيضاً، عندئذٍ تصبح إيران أشدّ خطراً من الفلسطينيين[51]. (لم تعرف إسرائيل مدى البرنامج الصاروخي الإيراني إلاّ في أواخر العام 1994)[52].

ثانياً: إن طبيعة النظام الإيراني وإيديولوجيته المناوئة لإسرائيل خطر في حدّ ذاتهما[53]. إن التعايش مع مثل هذا النظام الذي يتعذّر إصلاحه أمر مستحيل. صرّح بيريز ورابين بأن إيران مجنونة وأضافا بأن الخمينية هي الإيديولوجية الوحيدة المتبقية التي تؤمن بأن الغاية تبرّر الوسيلة[54]. كان شعار رابين عندما تحدث عن البيئة الأمنية الجديدة لإسرائيل، "الخمينية بدون الخميني". وجادل هذا السياسي الإسرائيلي المحنّك، "الذي لم يفوّت فرصة للوم إيران"، بأن إيديولوجيا آية الله الخميني الأصولية لا تزال حيّة حتى بعد وفاته وأنها حلّت محلّ الشيوعية كخطر إيديولوجي على الغرب[55]. وأشار ماكوفسكي إلى أن رابين كان يكرر شعاره المتعلق بالخمينية "في كل خطاب كان يلقيه في أسفاره. أعتقد بأنه أعاده ألف مرّة. كان يركّز في الحقيقة على الخمينية"[56]. في النهاية، كانت إيران تشكك فعلاً في حق إسرائيل في الوجود.

بعد أن أدرك صنّاع السياسة الإسرائيليون أن الملالي وُجدوا ليبقوا، بدأوا ينظرون إلى إيران كعدو دائم لأنها تدعو إلى تدمير إسرائيل، حتى وإن كانت هذه الدعوات أقل بكثير مما كانت عليه في الثمانينيات عندما شعر قلّة بتل أبيب بالقلق من الخطاب والنوايا الإيرانية[57]. هناك فارق هام هو أن إيران لم تعد تواجه العراق. جادل الإسرائيليون بأن الخطاب يعكس النوايا، وأنه بعد أن تحررت إيران من قيود العراق، صار في إمكانها امتلاك القدرة على تحويل نواياها إلى سياسات[58]. جادل بيريز بأنه على الرغم من أن إيران كانت تفتقر إلى الإمكانيات في تلك الفترة، كانت لا تزال تشكّل خطراً وجودياً "وأكبر خطر واجهته إسرائيل في حياتها" بحكم نواياها[59]. وقد أثار هذا التحوّل الشامل في نظرة إسرائيل الدهشة في الولايات المتحدة[60].

إن القول بأن إيران هي الخطر الجديد على المنطقة وعلى مركز الولايات المتحدة في الشرق الأوسط كان على حدّ تعبير الواشنطن بوست، "فكرة مثيرة للجدل" وتحمل القليل من المصداقية[61]. بالرغم من أن إسرائيل أشارت إلى شراء إيران لمفاعلات نووية صينية بأنه صيحة إفاقة، بقيت نيويورك تايمز متشككة، وقالت: "يبقى انتظار الإسرائيليين حتى وقت قريب لكي يطلقوا صفارة إنذار قوية للتحذير من إيران أمراً يبعث على الحيرة". في المقالة نفسها، نُقل عن ألفير وسنيه ربطهما بين تحذير إسرائيل من إيران بالعملية السلمية والحاجة إلى "علاقات متينة مع الإدارة الأميركية الجديدة"[62]. فهذا سيوفر لإسرائيل "حاجزاً بين الأنظمة المجنونة والأنظمة العاقلة" في الشرق الأوسط[63].

أخذت الحملةُ الإسرائيلية إدارةَ كلينتون على حين غرّة. فنصيحة إسرائيل لم تتلاءم مع أجندة واشنطن، على اعتبار أن البيت الأبيض في عهد كلينتون أراد التركيز على العراق، لا على إيران. على عكس ما كان عليه الحال في منتصف الثمانينيات، باتت إسرائيل تطلق الآن مجسّات إلى العراق فيما تحثّ الولايات المتحدة على عزل إيران. يقول مارتن إندك، مساعد كلينتون الخاص في شؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا في مجلس الأمن القومي والذي خدم لاحقاً كسفير لدى إسرائيل وكمساعد لوزير الخارجية: "بعد شن الحرب على العراق، وعندما صار من المنطقي بالنسبة إلينا التحدث عن طهران، لم يأتِ الإسرائيليون ويعرضوا هذه الحجة. وبدلاً من ذلك، بدأوا بمدّ اليد إلى العراقيين". كان إندك قد خدم قبل انضمامه إلى إدارة كلينتون مديراً بحثياً لدى إيباك.

ساد شعور بأن حكومة بيريز – رابين تضخّم الخطر الإيراني ضمن إدارة كلينتون. فقد جاءت حملة إسرائيل على إيران في وقت كانت طهران تقلل من تدخلاتها في القضية الفلسطينية، وهي حقيقة أقرّ بها صنّاع السياسية في كل من تل أبيب وواشنطن[64]. يشرح وايزمان من إيباك قائلاً: "في ذلك الوقت، كانت هناك محاولات إيرانية للتخفيف من حدة اللغة الإيديولوجية للخميني في خطابها. ما من شك في ذلك، وهناك مقابلة شهيرة أجريت مع رفسنجاني... قال فيها إنه إذا كان الأمر يناسب الفلسطينيين، فهو يناسبنا"[65]. لكن قلّة هم المسؤولون الذين ناقشوا علناً ذلك التحول الشامل في إسرائيل. وأشار مستشار الأمن القومي برينت سكاوكروفت إلى أن العديد من المراقبين لا يذكرون حتى "تعاطف إسرائيل مع إيران في الثمانينيات"[66].

لاقى هذا التحول الإسرائيلي المفاجئ آذاناً عربية غير مقتنعة أيضاً. فعلى ضوء دعم إسرائيل لإيران أثناء الحرب العراقية الإيرانية، كان من الصعب على العرب سبر غور مصداقية الموقف الإسرائيلي الجديد. فقد قال سفير مصر لدى الولايات المتحدة نبيل فهمي: "القول بأن الإسرائيليين يخشون إيران سيكون منطقياً لو لم يتبنّوا ذلك الموقف إزاء الخميني. الفكرة التي تقول بأنهم يعتبرون إيران تشكل هذا الخطر، سخيفة"[67]. كما شعر العرب بالقلق من النوايا الإسرائيلية الخاصة في المنطقة. جادل هؤلاء العرب بأن تصوّر بيريز لشرق أوسط جديد زرع الخوف بدلاً من أن يزرع الأمل في الكثير من الدول العربية، فذلك لم يكن تصوّراً للسلام، وإنما تصوّراً للخضوع العربي والهيمنة الإسرائيلية. يشرح دبلوماسي إسرائيل ذلك التصوّر بالقول: "كانت إسرائيل شديدة اللهفة إلى تجسيد تصوّرها الجديد للشرق الأوسط. أرادت بشدة أن تكون جزءاً من الشرق الأوسط وإظهار

فائدتها للدول العربية. لكن هذا التلهف جعل العرب يعتقدون بأن الشرق الأوسط الجديد ليس أكثر من طريقة لكي تسيطر عليهم إسرائيل"[69].

انتهجت إسرائيل أصلاً سياسة الهيمنة العسكرية مع كافة الدول التي تقع في متناول الدولة اليهودية[70]. وخشي العرب من أن الشرق الأوسط الجديد سيجعل إسرائيل المهيمن الاقتصادي على المنطقة أيضاً. من ناحية أخرى، لقيت التطمينات الإسرائيلية آذاناً صمّاء، واستناداً إلى شلومو بروم وهو أحد المدافعين القدامى عن السلام الإسرائيلي الفلسطيني، أساء العرب فهم إسرائيل: "كانت تلك قضية كلاسيكية على سوء التصوّر. قال بيريز بأننا نرغب في مساعدة جيراننا لأننا نعتقد أن ذلك سيولّد حقيقة السلام. ما الذي يمكننا المساهمة به؟ يمكننا المساهمة في ميزتنا التكنولوجية وما إلى ذلك. قال ذلك بتبسيط شديد، وبدون أية مقدمات خاصة. ولكن كلامه حُمل على محمل خاطئ تماماً"[71].

الخطر الإيراني – حقيقة أم خيال؟

بصرف النظر عن مدى انفعال بيريز ورابين في الحديث عن الخطر الإيراني، لم تكن الأرقام تقف في صالحهما[72]. فالتشكيك الذي قابل اتهاماتهما متأصل في حقيقة بسيطة جداً؛ لم يصدّق أحد أن إيران تحوّلت بين عشية وضحاها إلى خطر عظيم يهدد المنطقة. صحيح أن زوال الخطر العراقي كان من مصلحة طهران، ولكنه أدّى إلى حشد غير مسبوق لجيوش دول مجلس التعاون الخليجي. وبرزت الدول العربية الخليجية على الخصوص من بين سائر تلك الدول، فقد تصاغر الإنفاق العسكري الإيراني أمام إنفاقها، إذ إن السعودية أنفقت أكثر من 40 مليار دولار على شراء الأسلحة في العام 1991، في وقت وقفت النفقات العسكرية الإيرانية عند مستوى 6.37 مليار دولار. وكان الجيش الإيراني الهرم أقل خطراً على العرب من خطر الأسلحة المتطورة الأميركية الصنع التي يمتلكها العرب والتي تخيف إيران. إسرائيل نفسها لم تسمح لمسحة تفاؤلها بالسلام بتخفيض ميزانيتها العسكرية، بل على العكس، ساعد تصوير خطر إيران على تبرير زيادة الإنفاق العسكري الإسرائيلي[74]. وبميزانية عسكرية بلغت 8.7 مليار دولار في العام 1992، فاق إنفاق إسرائيل، نسبة إلى عدد سكانها البالغ أربعة ملايين، إنفاق إيران التي يبلغ عدد سكانها ستين مليوناً. (كان رفسنجاني قد خفّض الميزانية العسكرية الإيرانية من 6.7 مليار دولار في العام 1991 إلى 4.2 مليار دولار في العام 1992، وذلك استناداً إلى وزارة الخارجية الأميركية)[75]. أثناء الاجتماع الأول بين كلينتون ورابين، عدّل الأخير طلبية الأسلحة السنوية الإسرائيلية فاستبدل طائرات أف–16 التكتيكية بطائرات أف–15 متطورة يمكنها بلوغ إيران[76]. طلبت إسرائيل الحصول على خمس وعشرين طائرة من هذا الطراز، علماً بأن كلفة الطائرة الواحدة منها تساوي 85 مليون دولار[77].

لم تتغيّر إيران، ولكن كل الأمور حولها تغيرت. لم تكن إيران أشد بروزاً على شاشة الرادار الإسرائيلية لأنها أصبحت معادية لإسرائيل وحسب، بل ولأن كافة الأخطار السابقة تبخّرت تقريباً. بكل بساطة، لم يعد هناك أية أخطار عسكرية تقليدية متبقية[78]. يقول بروم: "لم يحصل شيء ملفت مع إيران، لكن بعد أن أزيح العراق، بدأت إيران تشغل حيزاً أكبر في الخطر الذي ترسم إسرائيل صورة له"[79]. أي أن هزيمة العراق وزوال الجبهة الشرقية المرعبة جعلا إسرائيل تحوّل ناظريها إلى إيران. يقول رنعان غيسين، الذي كان الناطق باسم أرييل شارون عندما كان هذا رئيساً للوزراء، أصبحت إيران الخطر الرئيسي بسبب زوال الجبهة الشرقية. ولم يعد هناك وجود لذلك التحالف الذي مثّل دائماً خطراً وجودياً بسبب القوات العسكرية التي يمكن أن تأتي من العراق والصواريخ بعيدة المدى التي كان يملكها. لكن بعد العام 1991، لم يعد لتلك الجبهة وجود"[80]. حتى الأشخاص الذين يحشدون الدعم لإسرائيل أقرّوا بأنه لم يتغيّر شيء كثيراً مع إيران خلال السنين الخمس القصيرة السابقة عندما انتقل رابين من وصف طهران بالصديق الاستراتيجي إلى تحذيراته من الخطر الفارسي[81]. قلّة هم الذين أخفقوا في ملاحظة أن إسرائيل بدت أكثر قلقاً من الخطر الإيراني على دول مجلس التعاون الخليجي العربي من العرب أنفسهم. حتى أن بعض دول الخليج أعلنت أن إيران لا تشكل خطراً عليها[82]. ويذكر السفير المصري فهمي أن "استخدام بيريز لتلك الأداة كان ستاراً دخانياً أكثر منه حقيقة"[83]. مع أن إيران بدت أكبر من ذي قبل، بالكاد جعل تدهور القوى الأخرى إيرانَ خطراً أكبر في حدّ ذاتها. ويتساءل باري روبن، مدير البحوث العالمية في مركز الشؤون الدولية بالقدس، قائلاً: "هل كانت إيران خطراً وشيكاً أو عظيماً في العام 1991؟ الجواب هو أنه لم تكن تشكل ذلك الخطر"[84]. حتى الخطر غير المباشر الذي يمكن أن تشكله إيران كان محدوداً في ذلك الوقت، ويشرح إفرايم هالفي – الذي خدم كنائب لرئيس الموساد في تلك الفترة – واقع الحال بالقول إن إيران كانت تتعامل مع حزب الله بلبنان ولكن لم يكن لها وجود في الأراضي الفلسطينية[85]. وبحلول العام 1995، أصبحت إيران داعماً رئيسياً للجماعات الفلسطينية الرافضة. لكن في العام 1992 عندما شنّ رابين وبيريز حملتهما المعادية لإيران لم يكن الأمر كذلك، وبالتالي سبق الإنذارُ الذي يختص بإيران الخطرَ الإيراني.

يقول بعض الإسرائيليين إن إسرائيل بحاجة إلى خطر وجودي. يمكن أن يكون ذلك الخطر بلداً، مثل إيران، أو إيديولوجيا، مثل الأصولية الإسلامية، أو يمكن في أوقات أخرى أن يكون تكتيكاً؛ الإرهاب. شرح لي خبير إسرائيلي مختص بالشؤون الإيرانية المسألة فقال: "عليك أن تعرف أننا نحن الإسرائيليون بحاجة إلى خطر وجودي. فهذا جزء من طريقة نظرنا إلى العالم. إذا كان في مقدورنا العثور على أكثر من خطر، فهذا أفضل، ولكننا سنرضى بخطر واحد". إن هذه الظاهرة متجذّرة في التجربة اليهودية. فبعد قرون من الاضطهاد، وإبادة جماعية كادت تُفني اليهود كلهم في أوروبا، وخمسين عاماً مضت على دولة تخللتها حروب متكررة، تميل الدول إلى العمل انطلاقاً من سيناريوهات الحالة الأسوأ. بعد ذلك

يصار إلى الحكم على كل شيء بناء على سيناريو الحالة الأسوأ. ويمزح أحد الخبراء بالشؤون الإيرانية فيقول: "عندما تكون مستعداً للأسوأ دائماً، يمكنك اعتبار الأداء الذي هو دون المستوى المطلوب بأنه أفضل ما كان في الإمكان"[86]. لكن العديد من المسؤولين في وزارة الدفاع الإسرائيلية يرون أخطاراً عظيمة مع هذا التشديد على سيناريوهات الحالة الأسوأ، غير أن قلّة منهم تعبّر عن انتقاداتها بصراحة.

يعدّ بروم استثناء لهذه القاعدة، وقد قال لي في مكتبه المتواضع في مركز يافي للدراسات الاستراتيجية بتل أبيب: "في العديد من الحالات، يمكن أن ترى كيف أن التخطيط لسيناريوهات الحالة الأسوأ يؤدي إلى توقعات ترضي الذات. هذا هو محور جدالي مع العديد من الإسرائيليين. فليس هناك ما هو أسهل من تقديم سيناريوهات الحالة الأسوأ. وهذا يخدم في العادة المصلحة الذاتية للمخطِّط، لأنك إذا قدّمت التوقع المبني على الحالة الأسوأ ولم يتحقق شيء مما قلتَه، سيكون الجميع سعداء، ولن يتذكر أحد شيئاً مما قلتَه. لكن في حل تحققت توقعاتك، يمكنك أن تقول دائماً، 'قلت لكم ذلك'". يضحك بروم وهو يقول هذا الكلام، ولكن راودني إحساس بأن هذا الرجل المتزن لا يحظى بالشعبية في أوساط القوات المسلّحة الإسرائيلية. كان جزءاً من الجهاز الاستخباري الإسرائيلي عندما بالغ الجهاز، وفقاً للطريقة المنهجية، في تقدير القدرات النووية الإيرانية، أو عمد إلى تضخيمها في بعض الأحيان. ويقول باستهزاء: "تذكّر، لا يزال يفصل الإيرانيين عن امتلاك قنبلة ما بين خمس وسبع سنوات. سينقضي الوقت، وستظل تفصلهم عن امتلاك القنبلة خمس إلى سبع سنوات"[87].

كانت حملة رابين – بيريز المعادية لإيران مثيرة للجدل في بدايتها داخل إسرائيل بقدر ما كانت كذلك في الولايات المتحدة. فقد رفض الجيش الإسرائيلي رفضاً قاطعاً تقييم القيادة السياسية الإسرائيلية، حيث صرّح رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية، الجنرال أوري ساغاي، علناً بأن إيران لا تشكل تهديداً لأن برنامجها العسكري يستهدف جيرانها المباشرين وليس إسرائيل. قال للمراسلين: "لكن يتعين القول إن هذا البلد (إيران) يدعو إلى شنّ حرب مقدسة علينا، غير أن سياسته التسلّحية ليست مرتبطة بنا، وسيبقى الأمر كما هو حتى ولو لم يعد لنا وجود". حصل ساغاي على التأييد العلني من الجنرال إيهود باراك، رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي الذي أصبح في ما يعد رئيساً للوزراء. جادل باراك بأن الخطر الحقيقي على إسرائيل هو العراق، والتركيز على إيران في تلك الفترة عندما لم يكن في مقدورها تهديد إسرائيل عاد بنتائج عكسية. وصرح أيضاً بأنه "ينبغي علينا بالتالي عدم إيجاد مناخ هستيري بتصوير أنفسنا بأننا الهدف الرئيسي لإيران"[88].

على الرغم من هزيمة العراق، بقي القلق يساور العديد من الأشخاص في الجيش الإسرائيلي من برنامج الأسلحة الكيميائية والنووية لصدام. يقول الجنرال أمنون شاحاك، لم تكن إيران تمثل خطراً مباشراً، ولم يسبق أن مثلت إيران خطراً مباشراً. أما العراق فبلى"[89]. لم يكن الأكاديميون والخبراء الأمنيون الإسرائيليون أقل انتقاداً. فقد أشار إسرائيل شاحاك إلى أن حكومة حزب العمل صوّرت إيران بأنها خطر في ذروة الضعف الإيراني، وكتب "دعوني أشير إلى أنه بعد أن قررت إسرائيل (كما يشير الكثير من الأدلة) أن إيران هي العدو الأول بعد حرب الخليج، كانت إيران لا تزال منهكة من حربها الطويلة مع العراق ولم تكن قد بدأت بعد برنامجها النووي"[90]. كتب شاي فيلدْمان من مركز يافي للدراسات الاستراتيجية أن إسرائيل بحاجة إلى بعبع جديد يقف خلف المبالغة في وصف القوة العسكرية الإيرانية[91]. يجادل أنوشروان إحتشامي ورايموند هينيبوش بأن بيريز ورابين حوّلا إيران إلى غوليم عصري؛ شخصية أسطورية تعبّر عن الخوف والاشمئزاز في الفولكلور الإسرائيلي[92]. وكتب إيهود سبرينزاك من الجامعة العبرية بالقدس بأن القيادة الإسرائيلية طبّقت "مفهوماً استراتيجياً سياسياً، وأخفقت في التمييز بين الخطاب الإيراني وحقيقة الحاجات العسكرية الدفاعية الإيرانية"[93]. وأشار آخرون من خارج الحكومة إلى أن استراتيجية إيران كانت دفاعية، وأن قواتها المسلّحة تخدم كقوة ردعية. يقول إفرايم كام من مركز يافي: "تطلق إيران في أسوأ الأحوال تهديدات للردّ على تهديدات الآخرين، ولكنها ليست من نوع التهديدات التي تستهدف الاعتداء على الدول الأخرى، بما في ذلك إسرائيل"[94].

يرى حزب العمل أن الحملة المفاجئة التي شنّها رابين وبيريز كانت منطقية من الناحية السياسية والاستراتيجية بالنسبة إلى إسرائيل، لأنها تماشت مع الجهود التي تبذلها إسرائيل لصنع السلام مع جيرانها العرب المباشرين ولإعادة تنشيط علاقتها الاستراتيجية مع واشنطن[95]. حتى وإن لم تكن إيران تشكل خطراً جدّياً في ذلك الوقت، فبروز قوتها بشكل نسبي بعد هزيمة العراق يمكن أن يجعل منها خطراً في المستقبل. إسرائيل لا يمكن أن تواجه إيران صاعدة وتكتلاً عربياً يطمح إلى الأخذ بالثأر في نفس الوقت. من بين الاثنين، كان من المرجح أن تمثل إيران تحدياً، لذلك ينبغي على إسرائيل انتهاز الفرصة لصنع السلام مع العرب قبل أن تصبح إيران خطراً فعلياً. إنّ نافذة الفرص هذه اللازمة لسلوك هذا المسار يمكن أن توجد بعد سبع سنين، كما تكهن رابين في العام 1992[96]. استناداً إلى إيهود ياري من القناة التلفزيونية الإسرائيلية الثانية، قال رابين: "دعونا نبرم صفقة مع العرب قبل أن يأتي الإيرانيون بما سيأتون به. علينا أن نوجد وضعاً لا يدع للإيرانيين فسحة للتدخل"[97]. والعرب أنفسهم سيكونون أكثر ميلاً للتوصل إلى سلام في نهاية الأمر مع إسرائيل إذا شعروا بأن خطر إيران الأصولية أشد خطراً من ترسانة إسرائيل النووية واحتلالها للأراضي الفلسطينية.

رأى حزب العمل أنه على الرغم من أن الانقسامات العربية الفارسية لم تكن بمثل الصراع الدائر بين العرب وإسرائيل، يمكن أن تكون الحكومات العربية الموالية للغرب أكثر تقبّلاً لتلك الحجة. ففي النهاية، انهار الحاجز العراقي الذي كان يحمي العرب من إيران. في الخريطة الجيوسياسية الجديدة للمنطقة، يواجه العرب والإسرائيليون "خطراً مشتركاً يتمثل في إيران والأصولية"، وذلك استناداً إلى الدبلوماسي الأميركي دينيس روس[98]. لقد اعتقدت قيادة حزب العمل أنه ينبغي استغلال مخاوف العرب من إيران كرافعة لحملهم على وضع مطلبهم بانسحاب إسرائيل من

الأراضي الفلسطينية جانباً. إن الفكرة التي تقول بأن العرب سيبرمون سلاماً مع إسرائيل فقط في حال واجههم خطر أكبر من ذلك ليست بالأمر الجديد. ففي مستهل الثمانينيات، عندما كانت واشنطن مصممة على هزيمة إيران في عهد الخميني، سعت إدارة ريغان بدون نجاح إلى الترويج لهذه الفكرة لدى حكومة ليكود كانت مترددة بشأن هذه الفكرة. كان الهدف التوصل إلى إجماع استراتيجي بين إسرائيل وجيرانها العرب المعتدلين. يقول العضو السابق في مجلس الأمن القومي سيك: "لطالما كان الهدف المنشود للسياسة الأميركية في المنطقة إقناع العرب بنسيان الصراع العربي الإسرائيلي والتركيز بدلاً من ذلك على خطر آخر"[99].

على العكس من حكومة الليكود، آمن حزب العمل بالفكرة بدون تحفّظ. وصف بيريز إيران بالخطر الأعظم على العرب، وجادل بأن الإنفاق الخليجي غير المسبوق على التسلّح نابع من المخاوف العربية من إيران لا من خوف العرب من إسرائيل. قال بيريز لتجمع في ميلانو في نوفمبر/تشرين الثاني 1993: "الغيوم التي تتجمع في سماء الشرق الأوسط هي غيوم أصولية وليست غيوماً إسرائيلية"[100]. من أجل إغراء العرب بالوقوف إلى جانب إسرائيل، جادل بيريز بأنه يمكن أن يحصل العرب على مساعدة إسرائيلية عبر البحر الأحمر لمواجهة إيران[101]. بعد ذلك ببضع سنين، وأثناء الزيارة التاريخية لقطر في الخليج العربي، قال بيريز للصحافيين: "الدول العربية تدرك أن إيران، والعنف، والتطرّف هي أعداء كل من إسرائيل والعرب. تشكل إيران خطراً مباشراً، وهي العدو الرئيسي للتنمية والتقدم، لا في إسرائيل وحسب، بل وفي العالم العربي أيضاً"[102]. وأكّد زعيم حزب العمل على الخطر الإيراني الذي يهدّد العرب بانفعال أوضح في المناقشات الخاصة التي أجراها مع مسؤولين عرب[103].

لكن شركاء إسرائيل المحتملين من العرب في السلام ليسوا الوحيدين الذين احتاجوا إلى إقناع. فعلى مدى عقود والإسرائيليون ينظرون إلى العرب كأعداء لدودين. لقد ترعرع أكثر من جيلين من الأطفال الإسرائيليين على تعلّم أن ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية من جملة الإرهابيين الذين يسعون إلى تدمير الدولة اليهودية، وسنوات الانتفاضة الخمس لم تلطّف من هذه النظرة، ومع أن أغلب الإسرائيليين تاقوا إلى السلام، لكن إقناع الشعب الإسرائيلي بأن عرفات والفلسطينيين لم يعودوا إرهابيين وإنما شركاء في صنع السلام مهمة شاقّة، وكما فعل حزب العمل مع الدول العربية، احتاج إلى الحديث عن خطر يلوح في الأفق لإقناع جمهور إسرائيلي متشكك بهذا التحول الاستراتيجي الجذري[104]. في هذا السياق، يشير إفرايم إنبار من مركز بيغن – السادات بالقدس، "ركّز رابين على الخطر الإيراني أكثر مما يستحق لكي يسوّق العملية السلمية"[105]، وتساءل رابين بطريقة منمّقة عن الخطر الحقيقي الذي يهدد إسرائيل: هل هم الفلسطينيون الضعاف أم الإيرانيون الذين يتزايد شأنهم؟ وقال للناخبين الإسرائيليين: "إننا بحاجة إلى التوصل إلى اتفاقية سلام قبل أن يمتلك الإيرانيون قدرة صاروخية نووية يمكن أن تعيد صياغة موازين القوى في المنطقة"[106]. لقد خدمت إثارة المخاوف من إيران غرضاً سياسياً كما يقول إندك، ويضيف "بعث إشارة بأن مصدر الخطر لم يعد الفلسطينيين أو العرب، ولذلك نحن بحاجة إلى صنع السلام مع الدائرة الضيقة"[107]. بذلك أضحت إيران حجة مناسبة في النقاش المحلّي الإسرائيلي، واستخدمها حزب العمل في استمالة الرأي العام الإسرائيلي لصالح القيام بخطوات جريئة لإبرام سلام مع الجيران العرب"[108]. يشرح ياري هذا الأسلوب كما يلي، "على سبيل المثال، إذا كنت تجادل دفاعاً عن التوصل إلى اتفاق سريع مع سوريا، عليك أن تقول 'بما أن إيران كذا وكذا، فنحن بحاجة إلى فك ارتباط سوريا بإيران'"[109]. الأهم من ذلك ربما هو أن الميل إلى إطلاق التحذيرات من إيران عزز الرسالة التي تقول بأن واشنطن بحاجة إلى إسرائيل. أي أن الأهمية الاستراتيجية التي تمتعت بها إسرائيل إبّان الحرب الباردة يمكن استعادتها من خلال الخطر المشترك المتمثل في إيران والأصولية الإسلامية؛ بدلاً من أن تكون متراساً في وجه التوسع السوفياتي، ستكون إسرائيل الآن متراساً في وجه طموحات إيران الإقليمية في عالم أحادي القطبية"[110]. يقول إنبار: "ساد شعور في إسرائيل بأنه نتيجة لانتهاء الحرب الباردة، بدأت العلاقات مع الولايات المتحدة تفتر واحتجنا إلى غراء جديد للتحالف. والغراء الجديد... كان الإسلام الراديكالي. وإيران هي الإسلام الراديكالي"[111].

الاحتواء المزدوج

لم يطل الأمر قبل أن يلصق هذا الغراء الجديد. فما إن انقضت بضعة شهور على ولاية كلينتون الأولى، وبعد مرور ثمانية شهور على شنّ حكومة رابين – بيريز حملة لعزل إيران، تبنّت واشنطن سياسة الاحتواء المزدوج[112]. ففي 18 مايو/أيار 1993، شرح إندك، بصفته المساعد الخاص الجديد في شؤون الشرق الأدنى وآسيا الجنوبية لدى مجلس الأمن القومي، هذه السياسة في خطاب ألقاه في معهد واشنطن للسياسة الشرق الأدنى، وهو مؤسسة فكرية موالية لإسرائيل ساعد إندك على تأسيسها في العام 1985. كان ذلك بمثابة تصريح سياسي هام، صيغ في الأصل لكي يدلي به مستشار الأمن القومي أنتوني ليك نفسه[113]. أبرزت هذه السياسة تحولاً كبيراً في النهج الأميركي في المنطقة. فقد سعت واشنطن على نحو تقليدي إلى إيجاد توازن بين العراق وإيران للمحافظة على درجة من الاستقرار. جادل إندك بأن قوة أميركا وصلت الآن إلى مستويات لم تعد معها بحاجة إلى موازنة هذا الطرف في مقابلة ذاك فهي تستطيع أن توازن بين الاثنين بدون الاعتماد على أي منهما. قال إندك: "إننا لسنا بحاجة إلى الاعتماد على واحد لموازنة الآخر". كان العراق خاضعاً لعقوبات منهِكة فرضتها الأمم المتحدة، وإيران لا تزال تستعيد عافيتها من الحرب العراقية الإيرانية، والولايات المتحدة هي القوة المهيمنة في الخليج العربي وفي حوزتها "وسيلة لمجابهة النظامين العراقي والإيراني"[114]. جادل إندك بأن إيران أضعف من أن تشكل خطراً جدّياً على الولايات المتحدة، لكن ما لم يتم احتواؤها، فستستفيد من ضعف العراق وتتسبب بمشكلات للسياسات التي

تتّبعها واشنطن في المنطقة. ويمكن أن يؤدي تركيز حصري على الخطر العراقي إلى عواقب وخيمة إذا "مال ميزان القوى في الخليج لصالح إيران"[115]. واستناداً إلى كينيث بولاك، الذي كان حينها محللاً مختصاً بالشؤون الإيرانية في وكالة الاستخبارات المركزية، كانت السياسة "مصممة لطمأنة إسرائيل إلى أن الولايات المتحدة تضع إيران تحت المراقبة، فيما تشرع القدس في عملية صنع السلام المحفوفة بالمخاطر"[116].

بالرغم من أن هذه السياسة الجديد حازت على ثناء تل أبيب، فقد تعرضت لانتقادات قوية داخل واشنطن. فقد وجد الخبراء في السياسة الخارجية داخل الأوساط السياسية بواشنطن أن التركيز الإسرائيلي على السياسة الجيدة يثير القلق. فاستناداً إلى مساعدة وزير الخارجية بيلّترو، كانت الفكرة الأساسية الإسرائيلية لسياسة الاحتواء المزدوج "مقبولة إلى حدّ بعيد بواشنطن"، بالرغم من أن المسؤولين في الإدارة أقرّوا في العلن فقط بأن هذه السياسة متأثرة أو تحاكي التفكير الإسرائيلي[117]. وأصرّ أشد المنتقدين قسوة على القول بأن ميل هذه السياسة الواضح إلى إسرائيل عاد بنتائج غير مرغوبة على المصالح الأميركية. ويشتكي سكاوكروفت من "أنها فكرة مجنونة". وأضاف بأنه كان ببساطة "أمراً مجنوناً" محاولة موازنة كل من إيران والعراق مع القوة الأميركية[118]. في جلساتهم الخاصة، أبدى العديد من المسؤولين في إدارة كلينتون موافقتهم، لأن الاحتواء المزدوج "يحشر أعداءك في الزاوية نفسها"، وعندئذٍ سيُضطرون إلى التعاون في ما بينهم ضدّ الولايات المتحدة. ويعترف مسؤول رفيع في وزارة الخارجية بأن "الطريقة التي صيغت بموجبها هذه السياسة أثناء ولاية إدارة كلينتون لم تكن منطقية في نظر الكثير من الناس"[119]. لكن مع بدء إسرائيل حملتها للفوز بتأييد البيت الأبيض، سرعان ما وجد حزب العمل أن سيناريوهات الحالة الأسوأ لم تكن المسار الوحيد للتوصل إلى تكهنات ترضي الذات. فمع تحويل واشنطن وتل أبيب تركيزهما إلى طهران، ردّ رجال الدين هناك بوضع عداوتهم مع الإسلاميين في الأراضي الفلسطينية جانباً.

الفصل 15 من السلام البارد إلى الحرب الباردة

انظر إلى حيث تشاء، وستجد يد إيران الشرّيرة في هذه المنطقة.

– وزير الخارجية الأميركي وارن كريستوفر، 10 مارس/آذار 1995

فوجئت طهران بحملة حزب العمل التي هدف من ورائها إلى عزل إيران. فقد اعتقد الإيرانيون بأن إسرائيل ستواصل الإعراض عن انتقادات إيران العنيفة الموجهة ضدّ الدولة اليهودية على غرار ما فعلت في الثمانينيات، واعتقدوا أن التفاهم الضمني بين الدولتين لا يزال سارياً من وجهة نظر الإيرانيين: ستبقى إيران مجرّد ناقد منظّر، وستستمرّ في إلقاء الخطب الملونة المعادية لإسرائيل فيما تدعم بالكلام، لا بالأفعال، القضية الفلسطينية. بدورها، ستعير إسرائيل آذاناً صمّاء لخطاب إيران، وتتذكر أن الشعارات التي تطلقها طهران لا تعكس السياسة الحقيقية لإيران. لكن التحوّل الهجومي لبيريز ورابين أشار إلى أن ذلك الزمان قد ولّى. بشكل تدريجي، بدأت إيران تدرك بأن إسرائيل آخذة في التحول إلى منافس رئيسي في بناء نظام الشرق الأوسط الجديد. بالنسبة إلى الإيرانيين، ليس هناك من اتهام إسرائيلي يكشف عن نوايا إسرائيل الحقيقية أكثر من ادّعائها أن إيران تريد الهيمنة على الشرق الأوسط.

بالرغم من أن إيران لم تكن في وضع يمكّنها من تحدّي الولايات المتحدة أو الحلول محلها كقوة منفردة في المنطقة – أصبحت أميركا قوة بحكم الأمر الواقع في المنطقة من خلال تواجدها العسكري في دول مجلس التعاون الخليجي – فقد غذّى تصاعد إيران وسعيها إلى إيجاد نظام جديد شهية إيران بالتأكيد للعب دور سياسي واقتصادي على حساب مكانة إسرائيل. لقد رأى رجال الدين أن العزلة المفروضة على إيران غير طبيعية، وغير عادلة، ولا يمكن تبريرها[1]. كان يجدر أن تتعلم واشنطن من فشل مؤتمر مدريد في العام 1991 درساً قيّماً؛ لا يمكن أن يحدث تغير جوهري بدون تعاون من جانب إيران. يشرح هادي نجاد حسينيان، الذي خدم في وزارة الرئيس هاشمي رفسنجاني في التسعينيات، "ما من شك في أن إيران أرادت وشعرت بأنه من حقها أن تلعب دور قوة إقليمية. ينبغي أن نكون القوة الأوسع نفوذاً في المنطقة، وأن نلعب دوراً بناء على ذلك، فنحن نملك الإمكانيات وينبغي علينا أن نجسّد ذلك"[2]. وسواء راق الأمر لأميركا وإسرائيل أم لا، فليس أمامهما خيار سوى الاعتراف بحقيقة قوة إيران ونفوذها. ويجادل عباس مالكي، الذي خدم كنائب لوزير الخارجية في ذلك الوقت قائلاً: "إيران قوة إقليمية. وإيران يمكنها حل المشكلة الأرمينية الأذربيجانية. وينبغي أن تكون إيران جزءاً من مؤتمر شنغهاي. وإيران جزء من منظمة التعاون الاقتصادي، وينبغي أن تكون طهران جزءاً من مجلس التعاون الخليجي"[3].

أصرت طهران على القول بأن القيادة الإيرانية لا تريد بسط هيمنتها على المنطقة. كانت إيران تستهدف الأرضية الوسط بين البقاء عديمة الحراك في المسائل الإقليمية والسعي إلى الهيمنة. على تلك الأرضية الوسط، لا يمكن أن تكون إيران معزولة بعد ذلك، وسيكون في مقدورها المطالبة بدورها كمنافس طبيعي على التفوق في الشرق الأوسط[4]. لم تكن فكرة الدور في أذهان الإيرانيين تعني السيطرة بطريقة عدوانية، بل تعني مؤشراً على إشراك إيران لتلبية أغراض دفاعية. يشرح مستشار الأمن القومي الإيراني السابق محمود غلام معنى الدور فيقول: "إنه جعل الجهات الفاعلة الأخرى تصغي إليك وتستشيرك بحيث يمكنك إحباط العمليات إذا كانت تضرّ بمصالحك"[5]. وجدتُ وأنا أنصت إلى غلام، الذي تلقّى تعليمه في الولايات المتحدة، في مكتبه الفخم بطهران صعوبة في تجنّب الذهول من قلّة الأشياء التي تغيّرت. فكلما جرى الإمعان في عرض السياسة الخارجية للجمهورية الإيرانية بطريقة مختلفة عن سياسة الشاه، كلما بدت أكثر شبهاً بها من حيث جوهرها. فبلوغ موقع متفوق في الخليج العربي والمحافظة عليه – بناء على إشراك إيران في كافة القرارات المتعلقة بالمنطقة – كانا المبدأ التوجيهي للسياسة الخارجية للشاه. صحيح أن الوسائل تغيرت بشكل جذري، وأن الإيديولوجية تغيّرت على نحو مدهش، لكن الملفت أن الهدف النهائي ظل كما هو.

لم يفت إسرائيل ملاحظة التغييرات أو أوجه الشبه في سلوك إيران. حتى أن العديد من الاستراتيجيين الإسرائيليين اعترفوا بالحاجة إلى الإشراك السياسي لإيران لأغراض دفاعية. يقول إفرايم كام من مركز يافي للدراسات الاستراتيجية بتل أبيب: "لا يُقصد من الهيمنة – الكفاح من أجل بسط الهيمنة الإقليمية – الكفاح من أجل التوسع المناطقي، وهو الأمر الذي لا يضعه الإيرانيون في جملة أهدافهم. إنها (الهيمنة) أقرب إلى الحاجة إلى التأثير في المجريات التي تحدث في المنطقة، لا سيما منطقة الخليج العربي التي تعتبر المنطقة الأكثر أهمية بالنسبة إلى إيران. فهناك تكمن الأخطار التي تهددها. وتلك هي المنطقة التي يتدفق عبرها النفط الذي يعتبر المفتاح للاقتصاد الإيراني. وهذه هي المنطقة التي يتواجد فيها الأميركيون"[6].

لكن لا يهم إن كان صراع إيران الحقيقي يدور مع واشنطن أو مع تل أبيب، حتى وإن كان الموقع الذي ترى إيران أنها تستحقّه في المنطقة لا يتناقض مع الدور الذي تحتاج إسرائيل إلى لعبه لكي تنفذ علاقتها الخاصة بواشنطن. فإيران وإسرائيل دولتان من بين حفنة من الدول التي تتمتع بالقوة الكافية لصياغة النظام الجديد للشرق الأوسط. وهذا في حدّ ذاته يضع هاتين الدولتين غير العربيتين القويتين على مسار تصادم. كانت إسرائيل أول من اعترف بهذه الحقيقة، ولكن الإيرانيين كانوا سريعين في اللحاق بها.

اعتقدت إيران أنّ إسرائيل بحاجة إلى بناء تحالف دولي لاحتواء إيران ومنعها من أن تصبح قائداً إقليمياً[7]. يقول أمير مهيبيان، المحرر السياسي في صحيفة **رسالت** اليومية الإيرانية المحافظة: "لم نشعر بوجود خطر عظيم نابع من إسرائيل، ولكنها أحست بوجود خطر نابع منّا لأن وضعنا قد تحسّن. شعرت إسرائيل بأن القيود التي كانت تكبّل إيران قد كُسرت، وأن إيران تزداد شأناً"[8]. تعتقد إيران بأن هذه المنافسة على النفوذ في

المنطقة وضعت إيران في مواجهة إسرائيل. يشرح نجاد حسينيان، المسألة فيقول: "هذه منافسة طبيعية لأن إيران وإسرائيل هما قطبا القوة في الشرق الأوسط. ولا يوجد دولة أخرى في المنطقة يمكن أن تجاريهما"[9]. نظرت إيران إلى منافستها مع إسرائيل، كما فعلت إسرائيل تماماً، بناء على أن فوز طرف يعين خسارة الآخر، أي أن كل مكسب تحرزه إيران سيكون على حساب إسرائيل، والعكس صحيح[10]. من شأن التطورات الجارية في موقف إسرائيل، إضافة إلى التحسن في الروابط العربية الإسرائيلية، أن يزيدا من الصعوبة التي تواجهها إيران في بلوغ أهدافها السياسية[11]. يقول نجاد حسينيان: "من سوء الحظ أن بعض الدول العربية مثل قطر أقامت علاقات وتجارة مع إسرائيل. كان ذلك خطراً على إيران، وفي حال حذت كافة الدول في المنطقة حذوها، سيفقد الصراع ضد إسرائيل مناصريه وستصبح إسرائيل واقعاً عادياً في نظر شعوب المنطقة. من وجهة نظر إيران، كلما قوي نفوذ إسرائيل في الدول العربية، كلما زادت قدرة إسرائيل على تهديد إيران"[12].

مع تنظيم إيران مؤتمراً مناوئاً لمؤتمر مدريد، بدأت تمدّ يدها للجماعات الفلسطينية الرافضة التي كانت تربطها بها على مرّ التاريخ علاقات ضعيفة. وعلى غرار منظمة التحرير الفلسطينية، دعمت حركةُ حماس صدام حسين خلال الحرب العراقية الإيرانية، وبوصفها حركة إيديولوجية سنّية نشطة، كان لدى هذه المجموعة الفلسطينية القليل من القواسم المشتركة مع رجال الدين الشيعة بإيران. ولم يكن التغلّب على هذه الاختلافات أمراً سهلاً، وعندما استهدفت حكومة حزب العمل الإسرائيلية إيران، بدت إيران مترددة في التصرف علانية ضدّ إسرائيل طالما كان التوصل إلى اتفاقية سلام فلسطينية إسرائيلية بعيد المنال. لكن كل ذلك تغيّر في 13 سبتمبر/أيلول 1993.

من السلام البارد إلى الحرب الباردة

في مكان بعيد، وتحت غطاء معهد العلوم الاجتماعية التطبيقية بالعاصمة النرويجية أوسلو، كان الإسرائيليون والفلسطينيون يتفاوضون على معاهدة سلام في سرّية تامة منذ يناير/كانون الثاني 1993. كان يوسي بيلين، المستشار المقرّب من بيريز والشخصية المحظية لديه أول من عرض فكرة إجراء مثل هذه المفاوضات على شمعون بيريز وذلك في أواخر العام 1992. وفي 19 أغسطس/آب 1993، تم التوصل إلى اتفاق تاريخي بناء على مبدأ "الأرض مقابل السلام"؛ بإعادة الأراضي المحتلة إلى الفلسطينيين، تحصل إسرائيل على السلام. تسرّبت أخبار عن الاجتماع إلى الصحافة في 27 أغسطس/آب، وبعد أقل من ثلاثة أسابيع، ومع ضجة إعلامية كبيرة، تم التوقيع على إعلان مبادئ من قبل وزير الخارجية الإسرائيلية شمعون بيريز والمسؤول في منظمة التحرير محمود عباس (أبو مازن) في احتفال بالبيت الأبيض. واختُتمت العملية بمصافحة تاريخية بين ياسر عرفات وإسحاق رابين؛ العدوَّين السابقَين. خلافاً لكل التوقعات، وفي كنف سرّية مطلقة، نجح الإسرائيليون والفلسطينيون في التوصل إلى اتفاقية سلام يمكن أن تدفع إيران إلى هامش السياسات الإقليمية بطريقة تعذرت على مؤتمر مدريد. ردّت إيران بسرعة وقسوة، حيث رفعت معارضتها لإسرائيل إلى مرتبة السياسة الأولى عبر زيادة معارضتها الكلامية لإسرائيل والإعلان في صحيفة **إتيلات** المتشددة أن إيران ستقدم دعماً غير محدود لمعارضي اتفاقية أوسلو[13]. وبين عشية وضحاها، تحول السلام البارد الذي خيم على العلاقات بين إسرائيل وإيران في الثمانينيات إلى حرب باردة[14].

بعد يوم واحد على الاحتفالات التي جرت في حديقة البيت الأبيض، اتهم الرئيسُ رفسنجاني عرفات بارتكاب "خيانة في حق الشعب الفلسطيني". كانت أوسلو "خطوة غادرة" ستؤدي إلى "زرع الانقسامات بين الدول الإسلامية في العالم". لقد خان قادة منظمة التحرير والأردن شعبيهما بالجلوس مع قادة إسرائيل، كما جاء في اتهام الرئيس الإيراني[15]. بالرغم من أنه سبق أن أُطلقت دعوات لتدمير إسرائيل في الماضي، غير أن وتيرتها زادت مع زيادة تشدد سياسة إيران تجاه إسرائيل[16]. في مارس/آذار 1994، وقّعت أغلبية ضئيلة من البرلمانيين الإيرانيين البالغ عددهم 270 على بيان "يشدد على الحاجة إلى مسح إسرائيل من خريطة العالم"، ويجادل بأن القضية الفلسطينية لن تُحلّ إلاّ من خلال الصراع المسلّح ضدّ إسرائيل[17].

لم يكن السلام بين العرب وإسرائيل يشكّل بحدّ ذاته خطراً على إيران. لكن غضب إيران كان يُثار فقط عندما يجتمع السلام مع جهد إسرائيلي أميركي لعزل إيران، بتصويرها بأنها خطر وإقصائها عن صناعة القرار على المستوى الإقليمي. لقد خشي الإيرانيون من أن تسعى إسرائيل إلى استخدام صورة مرعبة عن إيران لزيادة تقبّل العرب لإبرام السلام مع الدولة اليهودية[18]. وخشي رفسنجاني من أنه إذا تكللت اتفاقية أوسلو بالنجاح، واندفع العرب لإبرام سلام مع إسرائيل، ستُترك إيران في حالة من العزلة الطويلة[19]. في النظام الجديد الذي يتمحور حول إسرائيل المزمَع إنشاؤه، ستتولى إسرائيل دور القيادة في حين ستُمنع إيران من "لعب دور يكافئ قدرتها ونفوذها"[20]. والشيء الذي كان خطراً سياسياً في الأصل يمكن أن يتحول مع الوقت إلى خطر عسكري. ويشرح مسعود إسلامي من وزارة الخارجية الإيرانية هذه الفكرة فيقول: "إذا اقترب العرب من إسرائيل، ستزداد عزلة إيران. عندئذٍ، تكون إسرائيل في وضع يمكّنها من تحويل نفسها إلى مشكلة كبيرة تواجه إيران". بعبارات بسيطة، سيتم إخضاع إيران للهيمنة الإسرائيلية، وهو ما بعث الخوف في نفوس الإيرانيين من "الفكرة القديمة المتمثلة في سيطرة اليهود على المنطقة من النيل إلى الفرات"[21]. أصرّ الإيرانيون على أنه في حال تم إشراك إيران في العملية السلمية، ستبرز صورة مختلفة كلّياً. يقول علي رضا علوي تابار، وهو إصلاحي إيراني بارز: "كان سيغلب علينا ميل إلى دعم الجهود السلمية والتعاون من أجلها لو أننا مُنحنا دوراً نشطاً وفاعلاً منذ البداية، بدلاً من أن يضعوا خطة مختلفة كلياً ثم يتوقعوا منّا الموافقة عليها ببساطة"[22].

كانت إيران في عهد رفسنجاني، التي قللت من مستوى تدخلها قبل مؤتمر مدريد في القضية الفلسطينية، وأطلقت إشارات بأنها لن تقف في طريق التوصل إلى اتفاقية سلام، ستبدي استعدادها للتعاون من أجل التوصل إلى اتفاقية إسرائيلية فلسطينية لو أن أميركا قبلت بلعب إيران دوراً قيادياً في المنطقة، وفي مقابل ذلك، أنهت سياسة عزل طهران. بإشراك إيران في العملية السلمية، يمكن أن تضمن عدم الإضرار بصالحها من جراء معاهدة السلام مع إثبات قدرتها على أن تكون قوة إيجابية وباعثة على الاستقرار في المنطقة[23]. يقول علوي تابار: "يمكننا لعب دور إيجابي جداً عندما يتم إشراكنا في العملية. تذكر كيف أننا ساعدنا على حل الصراع بين أرمينيا وأذربيجان. لقد قدّمنا مساعدات إنسانية لكِلا الطرفين، فضلاً عن وقود التدفئة الذي اشتدت الحاجة إليه خلال فصل الشتاء البارد هناك... يمكننا لعب دور إيجابي في الشرق الأوسط بكامله"[24].

لعبة بيسبول مختلفة

بدأت إيران لأول مرة ترجمة خطابها المعادي لإسرائيل إلى سياسة عملانية. فعلى النقيض من رأي الخميني، ستتحول إيران الآن إلى دولة على خط المواجهة مع إسرائيل، لأنه إذا فشلت اتفاقية أوسلو، ستفشل معها الجهود الهادفة إلى إيجاد نظام إقليمي جديد على ظهر عزلة إيران. من دواعي السخرية أن دعم إيران لحزب الله تراجع بدرجة كبيرة في السنين السابقة بسبب التوجه الجديد للسياسة الخارجية التي انتهجها الخميني، مما جعل العديد من قادة الشيعة بلبنان يشعرون بأن إيران تخلّت عنهم[25]. أما الآن، فقد عاد تركيز طهران مجدداً إلى حزب الله والجماعات الإسلامية الأخرى. عللت طهران بأن الموقف العلني الإيراني المعارض لإسرائيل والولايات المتحدة سيقوّي موقفها في عيون الجماهير العربية، وهذا بدوره سيزيد من صعوبة تشكيل إسرائيل لجبهة عربية إسرائيلية في مواجهة إيران[26]. وكما فعلت عند بداية الثورة، ناشدت إيران الشارع العربي لإضعاف الحكومات العربية الموالية للغرب من الأسفل بجعلها تبدو ليّنة في مواجهة إسرائيل. كان الهدف، كما تشرح شخصية سياسية إيرانية، "إيجاد وضع لا يتمكّن فيه الإسرائيليون من التوصل إلى اتفاق، لأنه كلما زاد الوضع تأزماً، كلما صار وضعنا أحسن، لأن ذلك يوفر لنا مزيداً من الوقت"[27].

كثّفت إيران جهودها للتغلب على الاختلافات مع الجماعات الفلسطينية المعارضة. كما ساعدت أوسلو على إيجاد زواج مصلحة بين إيران وحركة الجهاد الإسلامي، لكن كان الأمر سيستغرق عدة سنين قبل أن تتطور العلاقات مع حماس[28]. وبالرغم من أنها كانت عملية بطيئة لم تثمر عن أي نشاطات ملموسة حتى مستهل العام 1994، كانت علاقات إيران مع الجماعات الفلسطينية في منتهى الأهمية وقدرتها على التواصل معها كانت في حدودها الدنيا حتى ذلك الحين[29]. وهذا ما جعل إيران تسير على خط رفيع. فمن ناحية، أرادت الإعلان عن دعمها للجماعات الرافضة بأقصى قدر من العلانية لجذب الشارع العربي الساخط إلى جانبها. وفي هذا السياق، أعلن وزير الخارجية الإيراني علي أكبر ولايتي في معرض اتهامه منظمة التحرير بعدم تمثيل رغبات الشعب الفلسطيني، "إننا ندعم أولئك الذين يناضلون من أجل حقوقهم، بصرف النظر إن كانوا من حماس أو ينتمون إلى مجموعات أخرى"[30]. من ناحية أخرى، كان عليها أن تتجنب أي تلميح إلى أنها تدعم تلك الجماعات عسكرياً لأن ذلك يمكن أن يجعل منها هدفاً.

على الرغم من إنكار ولايتي، ألقت الاستخبارات الإسرائيلية اللوم على إيران بشأن سلسلة الهجمات التي استهدفت في منتصف العام 1994 المصالح الإسرائيلية في مختلف أنحاء العالم. ففي 18 يوليو/تموز 1994، أدّى انفجار إلى تدمير مقر الجمعية التعاضدية اليهودية الأرجنتينية في بيونس آيرس. قُتل من جرّاء الانفجار ثمانية وستون مدنياً، وأصيب أكثر من ثلاثمائة بجراح في ما اعتُبر أسوأ هجوم إرهابي في تاريخ الأرجنتين حتى ذلك الوقت. لم تتم إدانة أحد بارتكاب هذا الهجوم، ولكنّ قلّة من الإسرائيليين ساورهم شكّ في هوية المذنبين؛ إيران وحزب الله اللبناني.

قبل ذلك بسنتين، في 17 مارس/آذار 1992، أدّى انفجار إلى تدمير السفارة الإسرائيلية ببيونس آيرس مما أدّى إلى مقتل 29 شخصاً. وبالرغم من ادعاء جماعات أخرى المسؤولية عن هذا الانفجار، ظلت إسرائيل تشتبه بوجود صلة لحزب الله فيه. واستناداً إلى روايات إسرائيلية، جاء هذان الهجومان الإرهابيان ردّاً على العمليات الإسرائيلية بجنوب لبنان. كانت إسرائيل قد اغتالت الشيخ عباس الموسوي، الأمين العام لحزب الله، وعائلته قبل شهر من تفجير السفارة. وقبل ثلاثة شهور من تفجير مقر الجمعية التعاضدية اليهودية الأرجنتينية، قصفت إسرائيل مخيماً لحزب الله في عمق الأراضي اللبنانية، وخطفت الشيخ مصطفى الديراني في محاولة لانتزاع معلومات عن جندي مفقود. قال أفينوم بار يوسف، المدير العام لمعهد تخطيط سياسات الشعب اليهودي، وهو منتدى فكري مُقربٌ من الوكالة اليهودية لإسرائيل ومن الحكومة الإسرائيلية: "ما من شك في أن تفجير السفارة يرتبط بعملية الموسوي وأن الحكومة في ذلك الوقت لم تدرك العواقب المحتملة على اليهود في الخارج"[31]. ويوافقه إيتمار رابينوفيتش، المستشار السابق لرابين والسفير الإسرائيلي لدى الولايات المتحدة، الرأي فيقول: "الانفجار الأول جاء رداً على قتل عباس الموسوي بلبنان، والثاني جاء ردّاً على هجوم على مخيم لحزب الله في عمق الأراضي اللبنانية"[32].

سواء أكانت إيران تقف خلف تفجير مقرّ جمعية التعاضد اليهودية الأرجنتينية أم لا، وسواء أكان هذان التفجيران عمليتين ثأريتين أم اعتداءين، ساد تصوّر بإسرائيل أن طهران عادت إلى الإرهاب. بذلك تكون التكهنات قد تحققت. فالخطر الإيراني الذي استخدمه بيريز ورابين في إقناع الشعب الإسرائيلي بالموافقة على تقديم تنازلات مناطقية للفلسطينيين أضحى حقيقة. يقول الجنرال أمنون شاحاك: "كانت تلك المرّة الأولى التي بدت فيها البصمات الإيرانية واضحة. فجأة، رأينا المزيد والمزيد من التدخل الإيراني غير المباشر في ما كان يجري داخل إسرائيل"[33]. هذا ما أوجد دينامية مختلفة تماماً في العلاقات الإسرائيلية الإيرانية، فلم تعد إيران عدواً بعيداً ومحتملاً. فمن خلال حزب الله، أصبحت إيران دولة محاذية[34].

ومن خلال الجماعات الفلسطينية، أصبحت إيران الآن داخل إسرائيل، أو على الأقل داخل الأراضي التي تحتلها إسرائيل. فشلت فكرة التوصل إلى سلام مع دول الجوار العربي لمواجهة الدولة الفارسية المحيطية لأن المحيط تمكن من اختراق الجوار[35]. وأشارت الاستخبارات الإسرائيلية إلى أن إيران تضغط على الفلسطينيين من أجل الدخول في صراع مسلّح ضدّ إسرائيل وعملية أوسلو[36].

رأت إسرائيل أنه بمهاجمة المصالح الإسرائيلية على هذا النطاق الواسع، رفعت إيران الرهان. لقد ولّت الأيام التي كانت إيران تكتفي فيها بلعب دور ناقد قوّال لإسرائيل. وكل عمل تقوم به إسرائيل ضدّ حزب الله أو الفلسطينيين، وكل جهد يهدف إلى تحويل رؤية بيريز الخاصة بشرق أوسط جديد إلى حقيقة يمكن أن يواجَه بهجوم إرهابي ترعاه طهران. يقول رابينوفيتش: "حسناً، هذه لعبة بيسبول مختلفة. إذا كنت لا تستطيع العمل ضدّ إسرائيل بلبنان بدون تفجير سفارة إسرائيلية أو مركز ثقافي يهودي في بيونس آيرس، ستُضطرّ إلى التوقف. إنها معادلة مختلفة"[37].

أرادت الأصوات الراديكالية أن تردّ إسرائيل بطريقة ما. وكانت منظمة مجاهدي خلق الإيرانية، وهي منظمة إرهابية ماركسية إسلامية بدأت، منذ أن دبّ الخلاف بينها وبين آية الله الخميني في العام 1981، حملة إرهابية ضدّ إيران انطلاقاً من قواعدها بالعراق، قد اتصلت بالعديد من المسؤولين الإسرائيليين في مستهل العام 1995 وعرضت تقديم المساعدة في مواجهة طهران[38]. في مقابل ذلك، أرادت المنظمة من إسرائيل القيام بحملة تأييد بواشنطن لشطب اسم المنظمة من لائحة الجماعات الإرهابية التي تعدّها وزارة الخارجية الأميركية. كان ردّ إسرائيل الرسمي أنها ترفض إقامة أية روابط مع منظمة مجاهدي خلق مع التعبير عن دعمها لفكرة وجوب عزل إيران[39].

غير أن البعض أرادوا المضي إلى ما هو أبعد من ذلك. فقد تودد إفرايم سنيه – العضو المتشدد في البرلمان عن حزب العمل والذي ضغط على رابين وبيريز من أجل تبنّي خط مواجهة مع إيران في العام 1992– إلى منظمة مجاهدي خلق وسعى إلى توفير دعم لها بإسرائيل، بالرغم من أن خبراء بارزين في الشؤون الإيرانية نصحوه بالعدول عن ذلك[40]. واستناداً إلى معلّق عسكري إسرائيلي معروف، جادل المعسكر المؤيد لمنظمة مجاهدي خلق بإسرائيل بأنه "يوجد لدى الإيرانيين معارضة حقيقية، ودعمها سهل جداً ورخيص جداً. فإذا انفجرت حافلة هنا، لِمَ لا ندبّر تفجيراً بطهران؟... الإيرانيون يدعمون التفجيرات الانتحارية والسيارات المفخخة ويحثّون عليها. فلماذا لا نتبّع الطريقة نفسها بأسلوب غير مباشر ونقول لهم بأن هذا سيف ذو حدّين؟"[41]

لكن الغلبة كانت لأصحاب العقول المتزنة. صحيح أن منظمة مجاهدي خلق واصلت التودد إلى الحكومة الإسرائيلية، غير أن تل أبيب امتنعت عن تصعيد التوترات مع طهران أكثر عبر الدخول في علاقة علنية مع منظمة مجاهدي خلق. كما أن موقف إسرائيل يمكن أن يصبح معرضاً للخطر في حال دعمت علناً جماعة إرهابية معادية لطهران فيما تضغط على العالم لكي يقوم بعمل ضدّ إيران بسبب تورّطها المزعوم في الإرهاب. لكنها سمحت للمنظمة باستخدام قمرين صناعيَّين إسرائيليَّين لإيصال بثّها التلفزيوني إلى إيران[42].

في العام 1994، بدا أن الأعمال الإيرانية الموجّهة ضدّ إسرائيل تبرّر المزاعم السابقة لحكومة رابين والتي تحكي عن الخطر الإيراني. لكن ذلك الخطر لم يكن تقليدياً على اعتبار أن طهران كانت لا تزال تفتقر إلى القدرات العسكرية الهجومية التقليدية التي تمكّنها من النيل من الدولة اليهودية. (من دواعي السخرية أن صيغة الأرض مقابل السلام المتجسّدة في اتفاقيات أوسلو لم تعمل سوى على فتح شهية إسرائيل لشراء الأسلحة. كان الإنفاق العسكري الإسرائيلي قد ثبت عند مستوى 8.6 مليار دولار في العام 1990، وهو مستوى أقل من مستوى الإنفاق العسكري لإيران، ولكن في العام 1995 – في ذروة العملية السلمية – وصل الإنفاق العسكري الإسرائيلي إلى 9.4 مليار دولار. وابتداء من العام 1992 وما بعده، زاد حجم الإنفاق العسكري الإسرائيلي على نظيره الإيراني بمقدار تراوح ما بين 1.8 مليار و4.2 مليار دولار)[43]. أقرّ الإسرائيليون في مجالسهم الخاصة بأنه على الرغم من الدعم الإيراني للجماعات الفلسطينية الرافضة مثل حماس والجهاد الإسلامي، الذي بدأ في ربيع العام 1994 بشن سلسلة من التفجيرات الإرهابية داخل إسرائيل، لم تكن إيران مصدر الإرهاب الذي تعاني منه إسرائيل. أثناء مناقشة المسألة مع معاونيه المقرّبين، أشار رابين نفسه إلى أن معاناة الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة، وليس إيران، هي القوة الدافعة للإرهاب[44]. ويقول ديفيد ميناشري، وهو أستاذ مدرّس بجامعة تل أبيب: "مهما تكن الأعمال التي تقوم بها إيران من خلال الإرهاب، كان الفلسطينيون يقومون بعمل أفضل بأنفسهم"[45]. في الواقع، جاءت سلسلة التفجيرات الإرهابية التي وقعت في ربيع العام 1994 ردّاً مباشراً على هجوم مستوطن يهودي متطرّف على المصلّين المسلمين في الحرم الإبراهيمي بالخليل، والذي أدّى إلى مقتل تسعة وعشرين فلسطينياً.

شكّل ذلك مشكلة سياسية كبيرة لحكومة رابين. فإذا أرادت إسرائيل إلقاء اللوم على الفلسطينيين – إما على عرفات مباشرة أو بطريقة غير مباشرة عبر تحميله مسؤولية عدم منع القيام بأعمال إرهابية – فسوف تقوّض أساس العملية السلمية؛ الفكرة التي تقول بأن الفلسطينيين شركاء في السلام وليسوا أعداءً. كانت متابعة العملية السلمية مع الفلسطينيين قريبة من المستحيل في حال اتهمتهم إسرائيل في الحال بالقيام بعمليات إرهابية. لكن تحميل إيران جزءاً من المسؤولية كان أسهل. اعتقد حزب العمل بأن تضخيم الخطر الإيراني في الخطاب المحلّي الإسرائيلي لا يمثل بالضرورة عملاً شديد العدوانية، وخاصة لأن الحزب اعتقد بأنه يوجد شيء من الحقيقة في ذلك الادعاء. فعلى الرغم من تضخيم حجمه، "كان الخطر حقيقياً، وليس ملفّقاً". كما قال لي رابينوفيتش[46]. لقد عزز تضخيم الخطر أهداف إسرائيل الأخرى، فقد أفشل محاولات إعادة الدفء إلى العلاقات الأميركية الإيرانية، وحمل واشنطن على اتخاذ تدبير أكثر تشدداً ضدّ إيران، وحرّض العديد من الدول العربية الموالية للغرب ضدّ إيران وأصبحت "أكبر خطر على هدف إسرائيل ببسط هيمنتها في المنطقة"[47]. ولو أن إسرائيل لم تصف إيران بأنها الخطر الرئيسي على السلام والاستقرار في المنطقة وما

وراءها، لما سعى المجتمع الدولي والولايات المتحدة إلى احتواء إيران وعزلها[48].

لكن في نظر المعترضين على العملية السلمية داخل إسرائيل، كان ذلك عملاً سياسياً مستهتراً. فاشتكى إفرايم إنبار من مركز بيغن – السادات المحافظ بالقدس من أن حزب العمل "آثر التركيز على إيران بدلاً من الخطر الكامن في أوساط الفلسطينيين"[49]. لكن طالما أن العملية السلمية متواصلة وأن الإرهاب يمكن احتواؤه، كانت نجاحات حزب العمل على المسرح الدولي تطغى على هذه الأصوات، وكما تكهن رابين وبيريز، ساعدت عملية أوسلو على وضع حدّ لعزلة إسرائيل، إذ إنه بعد التوقيع على الاتفاقات، أقامت إسرائيل علاقات دبلوماسية مع عدد قياسي من الدول، بما في ذلك العديد من الحكومات العربية[50]. وشكّل تطبيع العلاقات مع الصين والهند ثقيلتي الوزن التغيير الأكثر راديكالية في الوضع الدولي لإسرائيل منذ العام 1948، ودعم حظوظها في المحافظة على أهميتها الاستراتيجية في الشرق الأوسط وفي واشنطن[51].

إسرائيل تستهدف العلاقات الأميركية الإيرانية

شهد المثلث الإسرائيلي الأميركي الإيراني تحولاً ملحوظاً في سنوات قليلة. ففي الثمانينيات، كانت إسرائيل المدافع غير المتوقَّع عن إيران والذي يختلق الأعذار لها بواشنطن، والمجازف الكبير في الضغط على إدارة ريغان لكي تفتح قنوات اتصال مع إيران. الآن، قامت إسرائيل بالعكس تماماً. أرادت إسرائيل من الولايات المتحدة أن تفرض حصاراً اقتصادياً وسياسياً على إيران[52]. أي أن الشرق الأوسط الجديد الذي تحدث عنه شمعون بيريز والسياسة الأميركية القائمة على الاحتواء المزدوج التي دخلت حيز التأثير في العام 1993 بعد أكثر من عام على الضغوط الإسرائيلية وضعا عزلة إيران في إطار قانوني[53].

هناك القليل من الأصوات التي شككت في الحكمة من هذا القرار في هذا الوقت. ففي النهاية، إذا كانت إيران تشكل خطراً على إسرائيل بسبب الإيديولوجية، والقدرات، والبرنامج النووي، ألن تُخدَم المصالح الإسرائيلية على نحو أفضل بالسعي إلى التأثير في سلوك إيران من خلال حوار أميركي إيراني بدلاً من العمل الدؤوب على منع الشروع في مثل هذا الحوار؟ ألا يمكن لإسرائيل استخدام علاقاتها مع الولايات المتحدة التي أصبحت في قمّة مجدها في إرغام إيران على تعديل نهجها مع إسرائيل؟ ألا يوجد مسار أكثر فاعلية من تشديد العزلة على إيران؟ كانت هناك أقلية داخل وزارة الخارجية الإسرائيلية طرحت هذه الأسئلة، وجادلت بأنه يمكن استخدام المحادثات بين طهران وواشنطن بما يصبّ في مصلحة إسرائيل. ستكون طهران مجبرة على التخفيف من حدّة لهجتها وسلوكها من أجل الفوز بتعاون واشنطن[54].

لكنّ النظرة التي انتصرت داخل الحكومة الإسرائيلية كانت في أن حواراً أميركياً إيرانياً لن يفيد إسرائيل لأن إيران مهتمة فقط بتخفيض حدة التوتر مع واشنطن لا مع إسرائيل[55]. ويجادل الجنرال عموس جلعاد قائلاً: "الشيء الذي يريده الإيرانيون هو أن تعترف الولايات المتحدة بهم كقوة عظمى إقليمية في الشرق الأوسط"[56]. كما فعلت إيران في قضية إيران – كونترا وفي المفاوضات مع واشنطن حول تحرير الرهائن المحتجَزين بلبنان في مستهل التسعينيات، ستحاول إيران إبعاد إسرائيل عن الصفقة لأنه لا يوجد حاجة لدى طهران يمكن أن توفرها إسرائيل[57]. وأية إشارة تفيد بتعديل إيران سلوكها تجاه إسرائيل لن تكون أكثر من مناورة تكتيكية خالية من أية مضامين استراتيجية وتهدف فقط إلى تخفيف الضغوط الأميركية عن طهران[58]. ويجادل إيهود ياري، وهو إعلامي تلفزيوني إسرائيلي محنّك، "إنهم مهتمون فقط بالادعاء بفتح حوار معنا في الأوقات التي يعتقدون فيها بأنهم يستطيعون التوصل إلى صفقة ما مع الأميركيين، وهذا كل شيء. إنهم ليسوا مهتمين بإسرائيل في حدّ ذاتها"[59]. اعتقدت إسرائيل أنه ما إن يتم تخفيف الضغوط، حتى تعمد إيران إلى خيانة الدولة اليهودية[60]. عندما يحصل ذلك، سيكون من الصعوبة بمكان على إسرائيل إرغام واشنطن على استئناف ضغوطها. وعليه لم تكن المفاوضات أكثر من منحدر زلق، وكان من المحتمل أن تفقد إسرائيل سيطرتها عليها بسرعة[61]. الأسوأ من ذلك هو أنه في حال لم تقدم إيران على خيانة إسرائيل، فقد تقوم بذلك الولايات المتحدة. فلو وضعنا الإيديولوجية والخطب جانباً، نجد أن إيران والولايات المتحدة تتقاسمان العديد من المصالح المشتركة في المنطقة. فكلتاهما في حالة عداء مع العراق، وكلتاهما بحاجة إلى إرساء الاستقرار في الخليج العربي، وكلتاهما تؤيد تدفق النفط بدون إعاقة، وكلتاهما تعارض – بدرجات متفاوتة – تنامي قوة حركة طالبان بأفغانستان وتجارة المخدرات الأفغانية. خافت إسرائيل من أن تطغى هذه المصالح المشتركة بين إيران والولايات المتحدة في أي حوار أميركي إيراني على هواجس إسرائيل حيال طهران، وتترك إسرائيل بمفردها في مواجهة منافستها الفارسية[62].

تصح هذه الافتراضات على الخصوص في حال وُضعت العلاقات الأميركية الإيرانية في سياق عالمي، حيث تحتاج الولايات المتحدة إلى المحافظة على بعض التأثير في إيران وعلى احتياطياتها من النفط والغاز من أجل وضع الدولة المنافسة الجيوسياسية المستقبلية للولايات المتحدة – أي الصين– تحت المراقبة. ويشتكي رابينوفيتش من أن "الدولة الصغيرة تقلق دائماً من أي يبرم حليفها العالمي صفقة بحيث تستحوذ عليها النظرة العالمية للصفقة، وتنسى التفاصيل المحلّية التي تعتبر في غاية الأهمية بالنسبة إلى جهة محلية مؤثرة"[63]. كان للخوف من أن تبيع واشنطن إسرائيل، وتسعى وراء مصالحها الخاصة في حوار أميركي إيراني تأثير قوي في أذهان الاستراتيجيين الإسرائيليين[64]. وبما أن إسرائيل اعتبرت الحوار الأميركي الإيراني خطراً أكبر من خطر إيران نفسها، فالاستراتيجية المثلى كانت في منع تحوّل هذا الحوار إلى حقيقة أصلاً[65]. وهذا ما وفّر للجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (إيباك)، وهي أقوى جماعات الضغط الموالية لإسرائيل في الولايات المتحدة، قضية جديدة تركز جهودها

عليها.

إيباك – ملكة جماعات الضغط

تأسست لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية في العام 1953، وهي تصف نفسها بأنها "اللوبي المؤيد لإسرائيل في أميركا". بأعضائها الذين يربو عددهم على مائة ألف في شتى أرجاء البلاد، لطالما صنّفتها مجلة فورتشن كواحدة من أقوى جماعات الضغط في الولايات المتحدة[66]. وبحشد الدعم داخل الحكومة في القضايا والتشريعات "لضمان إقامة علاقات أميركية إسرائيلية قوية لكي يتمكن البلدان من العمل معاً" واتّباع الشعار الذي يقول من الأفضل أن تكون مهاباً على أن تكون محبوباً، أخافت إيباك، بفاعليتها، وتعقيدها، وقسوتها الأصدقاء والأعداء على حدٍّ سواء. غير أن العملية السلمية شكّلت تحدّياً كبيراً للمنظمة.

عملت إيباك على مدة عدة عقود على إفشال صفقات الأسلحة الأميركية العربية، وعلى تليين موقف واشنطن المعارض للمستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة، ومنع فرض أية اتفاقية سلام على إسرائيل، والضغط على الولايات المتحدة لكي لا تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية كمنظمة شرعية، والحرص على أن تكون سياسات واشنطن في الشرق الأوسط مائلة لصالح إسرائيل؛ والليكود غالباً. تعمّدت إيباك اتخاذ موقف أكثر تشدداً في هذه القضايا من موقف الحكومة الإسرائيلية، لا بسبب أنه يهيمن عليها أفراد يشعرون بأنهم أقرب إلى الليكود منهم إلى حزب العمل وحسب، بل ولتوفير أكبر قدر من المرونة للحكومة الإسرائيلية في واشنطن. يقول الرئيس السابق للموساد يوسي ألفير: "تمثّل إيباك التفكير الإسرائيلي الاستراتيجي الأكثر تشدداً، وهي تقوم بذلك عن دراية تامة". وظيفتها هي توفير أكبر قدر من المناورة لإسرائيل، ولكي تقوم بذلك، تتبنّى وجهة النظر الأكثر تشدداً[67]. غير أن العملية السلمية حرمت إيباك من ذريعتها الرئيسية لحشد الدعم تجاه الخطر العربي والفلسطيني الذي يهدد وجود إسرائيل. فقد أصبح الفلسطينيون شركاء، لا أعداء، في السلام الآن، وستستفيد إسرائيل من تقديم الولايات المتحدة مساعدات اقتصادية لهم. كانت تلك حقيقة وجدت إيباك صعوبة في تقبّلها. بوصفها منظمة، بات جزء جوهري من سبب وجودها مهدداً.

ضمن نهج حزب العمل مع الفلسطينيين أن تكون العلاقات بين هذا اللوبي ورابين متوترة منذ البداية، ولطالما كانت تربط رابين علاقات تثير المشكلات مع المنظمات اليهودية الأميركية، ويعود ذلك جزئياً إلى ميوله ونشأته العلمانية، ولكنه يرجع أساساً إلى ما اعتقده محاولات متكررة من جانب القادة اليهود الأميركيين لتهميش الحكومة الإسرائيلية (وبخاصة حكومات حزب العمل) عبر التعامل مع إدارة الولايات المتحدة من منطلق الدفاع عن إسرائيل. لقد أصرّ على وجوب أن يكون حشد الدعم في الإدارة خارج صلاحيات إيباك، في حين كان الكونغرس فريسة مشروعة[68]. يقول جيس هورديز، مدير جمعية محاربة التشهير بواشنطن العاصمة: "شعر بأن المجتمع اليهودي يشكّل جزءاً كبيراً جداً من العلاقة الثنائية الأميركية الإسرائيلية"[69]. وبعد مرور وقت قصير على اعتلائه منصب رئيس الوزراء الإسرائيلي، بعث رابين إلى إيباك برسالة واضحة جداً؛ لن تكونوا ليكوديين في الفترة التي أتولى فيها رئاسة الحكومة[70]. وكرر هذه الرسالة في لقاء مع مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأميركية الرئيسية خلال السنة ذاتها[71].

من نافلة القول إن هذا الموقف القاسي من جانب رابين أضاف مزيداً من التوتر إلى العلاقات المتوترة أصلاً. يقول هورديز: "لم يكن الدبلوماسي الأمثل"[72]. غير أن عاملاً ساعد على التخفيف من حدّة التوتر في العلاقات وهو إيران. فاندفاع إسرائيل الجديد ضدّ إيران وفّر لإيباك فرصة لإعادة اختراع نفسها في حقبة أوسلو، بعد أن ولّى زمان وظيفتها التقليدية المتمثلة في معارضة التأثير العربي في واشنطن[73]. يقول شاي فيلدمان من مركز يافي للدراسات الاستراتيجية بتل أبيب: "جعلت إيباك من إيران قضية رئيسية بما أنه لم يعد لديها أية قضية أخرى تدافع عنها. كانت الولايات المتحدة تؤيد العملية السلمية، وبالتالي ما هو الهدف الذي تريد الضغط من أجل تحقيقه؟"[74] احتاجت إيباك إلى قضية جديدة، وكانت إسرائيل بحاجة إلى مساعدة من أجل تحريض واشنطن على إيران. كان ذلك وضعاً يعود بالفائدة على كل من إيباك والحكومة الإسرائيلية.

في منتصف العام 1994، ركّزت إسرائيل وإيباك كامل نفوذهما الدبلوماسي والقدرة على حشد التأييد ضدّ إيران، فطالب المستشارون من رابين مناشدة الغرب فرض "بعض العقوبات الاقتصادية القوية على إيران"[75]. لم تكن تلك مهمة سهلة لأنه حتى وإن لم تكن إيران دولة تحظى بالشعبية في الولايات المتحدة، فهي لم تكن تُعتبر خطراً. لكن بصرف النظر عن التحديات الماثلة أمامها، ففي الإمكان التغلّب عليها بمساعدة إيباك[76]. لقد عقد رابين مؤتمراً عن بُعد مع القادة اليهود الأميركيين في سبتمبر/أيلول 1994 لتنسيق الاستراتيجية. كانت رسالته واضحة؛ إيران هي أكبر خطر يهدد السلام في الشرق الأوسط. قال رابين: "تقف دولة إسلامية خلف الجماعات الفلسطينية الرافضة – إيران– تسعى بالإضافة إلى ذلك إلى تطوير أسلحة نووية في غضون فترة تتراوح ما بين سبع سنين وخمس عشرة سنة وتطوير صواريخ أرض – أرض يمكنها أن تطال كل مكان في الشرق الأوسط"[77].

استخدم رابين، الذي يعرف مدى التزام إدارة كلينتون بالعملية السلمية، اتفاقية أوسلو كصنارة. واستناداً إلى كين بولاك الذي خدم في البيت الأبيض، قالت إسرائيل لإدارة كلينتون: "عليكم أيها الرفاق القيام بشيء حيال الإيرانيين، لأنهم يقتلوننا". في إشارة إلى أن تل أبيب لن تتمكن من مواصلة العملية السلمية مع الدائرة العربية الضيقة ما لم تتبنَ الولايات المتحدة موقفاً أكثر تشدداً من إيران في سياساتها المتبعة مع المحيط[78]. ونزولاً عند رغبة الحكومة الإسرائيلية، صاغت إيباك، ونشرت تقريراً مؤلفاً من سبعٍ وأربعين صفحة في واشنطن يجادل بأن إيران لا تشكل خطراً

على إسرائيل وحسب، بل وعلى الولايات المتحدة وعلى الغرب أيضاً[79]. يقول مستشار الأمن القومي السابق برينت سكاوكروفت: "تبنّت جماعات الضغط اليهودية موقفاً قوياً من إيران، وأثّرت في السياسة الأميركية تجاه إيران بطريقة شبه عاطفية"[80].

في أواخر العام 1994، اتهم رابين كوريا الشمالية بتزويد إيران بصواريخ أرض- أرض من طراز سكود يصل مداها إلى 500 كلم تقريباً؛ وهي مسافة أقل بكثير من المسافة التي تفصل بين إسرائيل وإيران[81]. وبعد شهر من ذلك، أشارت صحيفة نيويورك تايمز نقلاً عن مسؤولين أميركيين وإسرائيليين لم تكشف عن هويتهم أن برنامج الأسلحة النووية الإيراني المزعوم متقدم أكثر مما كان متوقعاً، ويمكن أن يتسبب في ضربة إسرائيلية استباقية للمفاعلات الإيرانية[82]. ردّت إيران بإصدار تحذير شديد لإسرائيل، فقال رئيس البرلمان الإيراني علي أكبر ناطق نوري لإيران نيوز: "في حال ارتكبت إسرائيل مثل هذا الخطأ الفاحش، فسنلقّنها درساً بعدم القيام بمحاولة اعتداء أخرى على إيران"[83].

لكن هذه التصريحات الإيرانية صبّت في مصلحة إسرائيل التي استفادت جهودها الهادفة إلى تصوير إيران كخطر من الحديث القاسي لطهران، ولو وضعنا الخطاب الإيراني جانباً، نجد أن ما ساهم في نجاح إسرائيل في النهاية كان سياسة البيت الأبيض التي تمحورت حول العملية السلمية في عهد إدارة كلينتون. فقد استثمرت واشنطن بقوة في أوسلو وفي إيجاد نظام جديد في الشرق الأوسط. لقد كانت إدارة كلينتون على استعداد لبذل كل ما في وسعها لإقناع الإسرائيليين والفلسطينيين بالبقاء على مسار السلام، حتى وإن كان ذلك يعني زيادة التوترات مع إيران. واستناداً إلى بولاك، "كانت المسألة ببساطة ما الذي يمكننا القيام به لحملكم أيها الرفاق على متابعة السير في هذه الطريق، قولوا لنا ما تطلبون وسنفعله من أجلكم. ولا تنسوا أننا لا نحبّ إيران على أية حال"[84].

في أكتوبر/تشرين الأول 1994، بدأت واشنطن بتبنّي الموقف الإسرائيلي من إيران. فاستجابة للضغوط الإسرائيلية – وليس التصرفات الإيرانية – بدأ خطاب واشنطن يعكس الحجج الإسرائيلية[85]، فقال وارن كريستوفر، وزير الخارجية الأميركي، أمام جمهور في جامعة جورج تاون في أكتوبر/تشرين الأول 1994 إن "إيران هي أكبر راعٍ للإرهاب في العالم، والمعارض الأكثر شدة للعملية السلمية في الشرق الأوسط. ولا يزال المجتمع الدولي كثير التساهل مع سلوك إيران الخارج عن القانون... والدلائل التي تشير إلى ذلك كثيرة: إيران مصممة على نشر الإرهاب والتطرّف في كامل منطقة الشرق الأوسط وما وراءها. وحده الجهد الدولي المنسّق يمكن أن يوقفها"[86].

بعد ذلك بشهور قليلة، قال كريستوفر: "انظر إلى حيث تشاء، وستجد يد إيران الشرّيرة في هذه المنطقة"[87]. في حين عرّف مساعد وزير الخارجية الأميركي السابق مارتن إندك إيران بأنها خطر على إسرائيل، وعلى العرب، وعلى الغرب، وهو موقف رفضت واشنطن اتخاذه قبل سنتين فقط[88]. قالت إدارة كلينتون للإسرائيليين إن "العملية السلمية عازل آخر في وجه إيران. وبما أننا نجحنا في وضع العرب في مدار صنع السلام، سيحدث مزيد من التهميش للنفوذ الإيراني في السياسات القائمة بين الدول العربية"[89]. كان ذلك بالضبط ما دأبت إسرائيل على قوله لواشنطن في السنتين الأخيرتين. وعكس إرجاع واشنطن للحجج الإسرائيلية إلى تل أبيب نجاح حملة رابين وبيريز المعادية لإيران. كان تحوّل واشنطن نتيجة مباشرة للضغط الإسرائيلي لأن الولايات المتحدة ردّت على التصرفات الإيرانية فقط عندما هددت إسرائيل بالتوقف عن متابعة العملية السلمية، وذلك استناداً إلى بولاك[90].

لكن لا تبنّي أميركا للموقف الإسرائيلي من إيران ولا الاحتواء المزدوج كانا كافيين. فبعد أن حققت إسرائيل هذه الأهداف، رفعت سقف مطالبها، وناشدت بذل ضغوط إضافية على إيران[91]. ففي النهاية، بقيت التجارة الأميركية الإيرانية في منأى عن تأثير سياسة الاحتواء المزدوج، وإن كانت إدارة كلينتون قد تبنّت خطاب إسرائيل وموقفها المتشدد من إيران في الميدان السياسي. بلغ حجم التجارة بين البلدين 3.8 مليار دولار في العام 1994، فضلاً عن 1.2 مليار دولار على شكل سلع باعتها شركات أميركية عبر شركات تابعة أجنبية، مما جعل الولايات المتحدة أحد أكبر شركاء إيران التجاريين[92]. لقد لفت هلموت كول، المستشار الألماني، انتباه إيباك إلى هذا التضارب والذي دافع في لقاء مع إيباك في العام 1994 عن تجارة ألمانيا مع إيران بالإشارة إلى علاقات واشنطن التجارية الواسعة مع طهران. يقول كيث وايزمان من منظمة إيباك: "نظرنا إلى الأرقام، فوجدنا أنه كان محقاً. من الناحية الأساسية، كانت الأموال الأميركية التي تتدفق إلى طهران تفوق الأموال التي ترسلها أية دولة أخرى. وهذا جعلنا نهتم بالجانب الاقتصادي للمسألة"[93]. (المثير في الأمر هو أن إسرائيل لم تقرّ أية قوانين تحظر التجارة الإيرانية الإسرائيلية طوال فترة التسعينيات)[94]. شنّت إيباك حملة لردم الهوة بين النهج السياسي والنهج الاقتصادي الأميركي مع إيران. وضغطت سوية مع الحكومة الإسرائيلية على إدارة كلينتون لكي تكون المثال الذي يُحتذى في هذه المسألة، لأن الجهود التي يبذلها الأميركيون لوقف التجارة الروسية والأوروبية مع إيران ستفشل ما لم يكن هناك انسجام بين النهج السياسي والاقتصادي لأميركا. يقول بولاك: "حسناً، كانت إيباك والإسرائيليون يصرخون من أجل فرض عقوبات جديدة". مضيفاً أن إدارة كلينتون كانت ترى إيران فقط من منظور الصراع الإسرائيلي الفلسطيني[95].

لم تكسب الحملة الكثير من التأييد إلى أن عرضت إدارة رفسنجاني صفقة نفطية مربحة على الشركة النفطية كونوكو الأميركية في العام 1995. ففي غمرة الحملة الإسرائيلية لفرض عقوبات على إيران، قام رفسنجاني بجهد أخير لتحسين العلاقات مع الولايات المتحدة. كانت الردود الجافة المتكررة من جانب الولايات المتحدة قد كلّفته غالياً في إيران، ولكن الإيرانيين عمدوا إلى اتبّاع سياسة مزدوجة. فمن ناحية، دعموا الإسلاميين

الفلسطينيين، وتولّوا الدور الريادي في معارضة إسرائيل في العالم الإسلامي بدعم صورة إيران في الشارع العربي، لقد رأت إيران أن هذا سيجعل من الصعب إقصاءها عن الشؤون الإقليمية في المستقبل، لأنها ستصبح أكثر قدرة على إفساد الأمور[96]. وبما أن التقارب السياسي المباشر مع الولايات المتحدة يظل مستبعداً، اختار رفسنجاني استخدام الروابط الاقتصادية مع واشنطن لإيجاد مساحات للمصالح المشتركة يمكن أن تمهد الطريق لاحقاً أمام تقارب سياسي[97]. ورأى رفسنجاني أن الاستثمارات الأميركية في صناعة النفط المعتلّة بإيران ستكون حلاً يفيد الطرفين.

حارب رفسنجاني على مدى عدة سنوات في محاولاته لتوسيع العلاقات الاقتصادية لبلاده مع المجتمع الدولي من أجل إعادة فتح صناعة النفط الإيرانية أمام الشركات الأجنبية. كانت القيمة الرمزية لهذه الخطوة كبيرة. فقد لعبت صناعة النفط دوراً مركزياً في الثورة الإيرانية وفي التنمية الاقتصادية والتطور السياسي في البلاد في القرن العشرين. وبناء على ذلك، فتحت إيران المجال أمام التقدم بعطاءات من أجل عقد اتفاقيات إنتاجية خاصة باثنين من حقولها النفطية قبالة الساحل أمام الشركات الدولية في العام 1994. كان من المتوقّع أن تحصل شركة توتال التي يملكها الفرنسيون على أول عقد نفطي بعد الثورة مقابل مليار دولار. لكن بعد التفاوض مع كونوكو، أعلن الإيرانيون في 6 مارس/آذار 1995 بأن العقد سيرسو على الأميركيين[98]. وقال الإيرانيون بأن آية الله علي خامنئي وافق على العقد بنفسه وكان المقصود من ذلك أن يكون غصن زيتون يقدّم إلى واشنطن. ومن أجل ضمان موافقة البيت الأبيض، أبقت شركةُ كونوكو البيت الأبيض على اطلاع كامل بالمفاوضات التي تجريها. وأكدت وزارة الخارجية الأميركية لكونوكو مراراً أن البيت الأبيض سيوافق على الصفقة[99].

بالنسبة إلى إيباك، كانت صفقة كونوكو "مصادفة وهدفاً مناسباً"[100]. عمدت المنظمة إلى تصعيد الموقف باستخدام العرض الإيراني لا من أجل إفشال صفقة كونوكو وحسب، بل ولوضع حدّ لكافة أشكال التجارة الأميركية الإيرانية. ففي تقرير أصدرته في 2 أبريل/نيسان 1995 بعنوان **عقوبات أميركية شاملة ضدّ إيران: خطة للعمل**، جادلت إيباك بأنه يتعين معاقبة إيران على الأفعال التي تقوم بها ضدّ إسرائيل. وجاء في التقرير، "يرفض قادة إيران وجود إسرائيل، وبالإضافة إلى ذلك، تنظر إيران إلى العملية السلمية كمحاولة أميركية لإضفاء صفة قانونية على احتلال إسرائيل لفلسطين، أرض المسلمين"[101]. تحت ضغط من جانب الكونغرس، وإيباك، والإسرائيليين، سارع الرئيس كلينتون إلى إلغاء الصفقة بإصدار أمرين تنفيذيَّين يحظران من الناحية الفعلية كافة أشكال التجارة مع إيران[102].

أعلن كلينتون عن هذا القرار في خطاب ألقاه في 30 أبريل/نيسان أمام المؤتمر اليهودي العالمي[103]. وبعد ذلك بيوم واحد، قال كريستوفر للصحافيين إن القرار المثير للجدل جاء مدفوعاً "بالتصرفات الإيرانية المقيتة"، وجادل بأن طهران لا تزال ترعى الإرهاب، وتعارض العملية السلمية في الشرق الأوسط، وتحاول امتلاك أسلحة نووية[104]. لكن في الحقيقة، كان استهداف صفقة كونوكو – التي كانت نتيجة تشوّق طهران لتحسين علاقاتها مع الولايات المتحدة – عرضاً هاماً للدعم الأميركي لإسرائيل"[105]. على الفور، سرت تكهنات في الأوساط الإعلامية بالولايات المتحدة حول "النقطة التي تبدأ منها السياسة الخارجية الأميركية والنقطة التي تبدأ منها المصالح الإسرائيلية"[106]. في هذه المرحلة، باتت إدارة كلينتون تنظر إلى طهران على أنها عدو لا يقبل المساومة، وإلى أغصان الزيتون الإيرانية على أنها أدوات لخدمة مصالحها الذاتية[107]. كان اتخاذ موقف لا يعترف بالمهادنة من الخطر الإيراني نقطة بداية بالنسبة إلى البيت الأبيض في عهد إدارة كلينتون، كما يقول دينيس روس، المنسق الخاص لعملية السلام في الشرق الأوسط في عهد كلينتون. "لم نكن مهتمين بفتح قناة جديدة مع إيران، ولكننا كنا مهتمين باحتواء ما اعتبرناه خطراً"[108]. ومن أجل مزيد من التبرير للقرار، قال المسؤولون الأميركيون الذين تحدثوا شريطة عدم ذكر أسمائهم للوس أنجلوس تايمز في 9 مايو/أيار 1995 بأن ضباطاً إيرانيين درّبوا اثنين من الفلسطينيين الانتحاريين اللذَين قتلا واحداً وعشرين إسرائيلياً في وقت سابق من ذلك العام. كما اتهم هؤلاء المسؤولون الذين رفضوا الكشف عن هويتهم – في ما اعتُبر الزعم الأميركي الأول الذي يربط إيران بهجمات إرهابية معينة بطريقة مباشرة بهدف إفشال اتفاقية أوسلو – إيران بإرسال مساعدات مالية إلى عائلات منفذي الهجمات الانتحارية[109]. في اليوم التالي، قال بيريز لجيروزالم بوست بأن الخطر الأكبر الذي يهدد إسرائيل ينبع من الأصوليين المزودين بأسلحة نووية. وتساءل "ما هو الخطر الأكبر؟ الدبابات السورية القديمة أم المفاعلات النووية الإيرانية؟"[110] مع حشد إيباك وإسرائيل الدعم لمعارضة القبول بأغصان الزيتون الإيرانية، وفي ظل غياب أية حملة سياسية هامة تدعم تقارباً أميركياً إيرانياً، لم يكن لتغيير المسار حيال طهران أي جانب سياسي سيئ. (لم تتكلل جهود كونوكو لعكس ذلك القرار بالنجاح). يعلّق روس على المسألة فيقول: "من وجهة نظر سياسية، لا أحد يدفع ثمن انتهاج القسوة مع إيران"[111].

لكنّ العقوبات الأولية لم تكن كافية. صحيح أن كلينتون استغنى بجرّة قلم عن تجارة أميركية إيرانية تدرّ مليارات الدولارات بإصدار أمرين تنفيذيَّين، كان في مقدوره تعليقهما ببساطة واستئناف المعاملات التجارية. لكن في حال كان الكونغرس الجهة التي تفرض العقوبات، ستصبح قدرة الرئيس – أي رئيس – على المناورة محدودة. وبناء على مبادرة ذاتية، أجرت إيباك مراجعة لمشروع قانون كان قد تقدم به السيناتور ألفونس داماتو عن ولاية نيويورك بمساعدة الإسرائيليين في مستهل العام 1995، ثم أقنعت داماتو بإعادة تقديمه في العام 1996 بعد إدخال التعديلات التي اقترحتها إيباك[112].

أطلقت إيباك حملة هائلة لحشد الدعم، وتمكنت من الفوز بدعم واسع لمشروع القانون – مرسوم عقوبات إيران ليبيا (إلسا) – في

الكونغرس[113]. مضى إلسا إلى ما هو أبعد من الأمرين التنفيذيَّين اللذَين أصدرهما الرئيس كلينتون قبل ستة عشر شهراً، لأنه استهدف كلاً من الشركات الأميركية وغير الأميركية التي تستثمر 40 مليون دولار أو أكثر في قطاع النفط والغاز الإيراني. الهدف الرسمي من وراء القانون كان حرمان إيران وليبيا من عائدات يمكن استخدامها في تمويل الإرهاب الدولي، والحدّ من التدفق غير الضروري للموارد للحصول على أسلحة دمار شامل[114]. غير أن إدارة كلينتون رفضت مشروع القانون، وأدلى روبرت بيلّترو، مساعد وزير الخارجية في ذلك الوقت، بشهادة ضدّ المشروع في الكونغرس، وجادل بأن عقوبات تطبّق خارج حدود الدولة ستعود بنتائج سلبية لأنها ستنفّر الدول التي تحتاج الولايات المتحدة إلى دعمها لشلّ قدرة النظام الإيراني. وقال أمام لجنة العلاقات الدولية بالكونغرس: "إننا نريد عزل الإيرانيين، لا عزل أنفسنا"[115]. لكن لم يكن تأثير كلينتون يضاهي تأثير إيباك في الكونغرس. وبالتالي أقرّ مجلس النواب الأميركي القانون بعد أن نال 415 صوتاً مقابل لا شيء، ووقّع عليه الرئيس على مضض وأصبح قانوناً في أغسطس/آب 1996[116].

بالرغم من أن جهود إيباك ساعدت على إلغاء عقود تجارية تقدّر قيمتها بمليارات الدولارات مع إيران، شعر اللوبي المؤيد لإسرائيل بأنه ينبغي أن يلقى إلسا الترحاب من رجال الأعمال الأميركيين لأنه يستهدف في الأساس الشركات الأجنبية. ويشرح وايزمان من إيباك وجهة النظر هذه بالقول: "قمنا بإصدار التقرير إلسا... من أجل تسوية أرضية الملعب. أردنا إثبات أننا لا نعاقب الشركات الأميركية لأسباب تتعلق بالسياسة الخارجية... غير أن أحداً من رجال الأعمال لم يعجبه التقرير. ربما كان عملاً ساذجاً قمنا به". شعرت معظم الشركات الأميركية بالغيظ من هذا القانون. صحيح أن عقوبات إلسا استهدفت الشركات الأجنبية، لكنها لا تزال تشكّل خطراً على الشركات الأميركية بسبب احتمال أن تعمد الحكومات الأوروبية والآسيوية إلى إصدار قوانين للردّ على هذه العقوبات. لجعل الأمور أكثر سوءاً، واصلت إسرائيل، على الرغم من الضغوط التي مارستها من أجل فرض عقوبات أميركية، شراءها للسلع الإيرانية عبر طرف ثالث. يعترف وايزمان بالقول: "كانت هناك مرات كثيرة في السنين الماضية عندما قامت إسرائيل بالقليل من الأعمال إزاء إيران مما سمح للناس بتصوّر أننا أكثر تشدداً من إسرائيل"[117].

إذا وضعنا هذه التناقضات جانباً، كان مشروع إلسا نجاحاً كبيراً لإيباك ولإسرائيل؛ لم يأتِ نتيجة لفرض تغييرات على السياسة الخارجية، لأنه لم يؤدِّ إلى تغييرات أصلاً. ففي استعادة للتجارب الماضية، يعترف إندك بأن إلسا كان "معاكساً للجهود التي نبذلها لتغيير السلوك الإيراني لأنه أوجد شرخاً بيننا وبين حلفائنا الأوروبيين"[118]. بالمقابل، يكمن نجاح إلسا في العقبة السياسية التي لا يمكن إزاحتها، والتي وضعها القانون أمام أي جهد لتحسين العلاقات الأميركية الإيرانية؛ وهذا هدف حيوي لإسرائيل بسبب خوفها من أن حواراً بين الولايات المتحدة وإيران سيكون على حساب الدور الاستراتيجي لإسرائيل. ويعترف نائب وزير الدفاع الإسرائيلي سنيه فيقول: "وقفنا ضدّ الحوار الأميركي الإيراني... لأن مصلحة الولايات المتحدة لم تتطابق مع مصلحتنا"[119].

الفصل 16 مع عودة الليكود، عاد المبدأ المحيطي

يميل الليكود إلى أن يكون أكثر تقبّلاً للفكرة التي تقول بأنه ربما كان يوجد عناصر متبقية في النظام الثوري بإيران ترى الأمور من الناحية الجيوسياسية كما كانت إيران تراها في عهد الشاه.

– دوري غولد، السفير الإسرائيلي السابق لدى الأمم المتحدة، 28 أكتوبر/تشرين الأول 2004

على الرغم من خطاب إسرائيل الموجّه ضدّ رجال الدين وإيديولوجية الإسلاميين التي لا يمكن التصالح معها، فهم العديد من الإسرائيليين الحسابات الاستراتيجية التي تقف خلف معارضة إيران للعملية السلمية. فقد أقرّت واشنطن وتل أبيب بأن العملية السلمية والجهود الدبلوماسية التي تبذلها إسرائيل لتشكيل نظام جديد في الشرق الأوسط تضرّان بالوضع الاستراتيجي لإيران[1]. فخطوط التقسيم الجديدة للشرق الأوسط أصبحت بين أولئك المنضوين في عملية أوسلو وأولئك الذين هم خارجها[2]. يمكن أن يؤدي السلام مع الفلسطينيين إلى سلام مع سوريا، وهذا بدوره يجعل ميول العالم العربي تصبّ في خانة إسرائيل، ويزيد من إضعاف النفوذ الإيراني في المنطقة. نتيجة لذلك، ظنّ الإسرائيليون بأن لدى إيران مصلحة استراتيجية في معارضة الجهود السلمية[3]. يقول إتمار رابينوفيتش، الذي كان مستشاراً لدى رئيس الوزراء إسحاق رابين والذي خدم كسفير لإسرائيل لدى الأمم المتحدة: "تخيل أنه تم إبرام اتفاق بين إسرائيل وسوريا في العام 1993، وهو الأمر الذي كان قريب المنال، وأن إيران وجدت نفسها بدون الحليف السوري، وبدون إمكانية الوصول إلى لبنان مما يجعلها تخسر قاعدة لبنان، وأن حدّة التوترات تراجعت بين إسرائيل والفلسطينيين. ستفقد السياسة الإيرانية في الشرق الأوسط العديد من أرصدتها ومواردها. ستبدأ بالتالي تطوير مصلحة لها في إفشال العملية السلمية، وإحدى الطرق الرئيسية لإفشال العملية السلمية هي في العمل مع الجماعات الفلسطينية الأصولية"[4].

لم تكن إيران معرّضة لخطر خسارة تحالفها مع سوريا وحسب، بل وكانت العملية السلمية "ستعزز التواجد العسكري الأميركي في المنطقة، وهو دور تراه إيران خطراً على هدفها المتمثل في بسط هيمنتها الإقليمية"، كما كتب معهد سياسات الشرق الأدنى[5]. ويقول كيث وايزمان من إيباك: "شعرت دائماً بأن الإيرانيين أحسّوا بأنهم مهددون لأسباب جيوسياسية. انظر، كان العرب سيتحلّون بمزيد من الثقة بالنفس لأنهم كانوا سيشعرون بأن الإسرائيليين سيدعمونهم الآن في مواجهة إيران، فضلاً عن الأميركيين"[6].

على الرغم من خوف إيران الواضح من العزلة، لم تتكهن واشنطن بأن إيران ستنقلب ضدّ العملية السلمية على النحو الذي قامت به. وبالاستناد إلى مارتن إندك، مساعد وزير الخارجية الأميركي السابق، خشيت الولايات المتحدة من أن يشكّل العراق وإيران محوراً لموازنة الولايات المتحدة، ولإفشال الجهود الهادفة إلى عزلهما. ويشرح ذلك فيقول: "كنا أكثر تركيزاً، في ذلك الوقت، على استراتيجية تدفع فيها سياسة الاحتواء المزدوج إيران إلى التقارب مع العراق". والفكرة في أن إيران ستلجأ إلى الإرهاب لم تكن شيئاً ترجحه واشنطن، حتى بالرغم من استخدام تهمة دعم الإيرانيين للإرهاب في تبرير فرض العزلة على إيران. ما قام به الإيرانيون هو أنهم تفوقوا علينا بذكائهم عبر استهداف العملية السلمية. وبالتالي، أصبحوا داعمين شديدي العدوانية للإرهاب الفلسطيني وليس لحزب الله فقط"[7].

بدأت واشنطن تفهم الخطأ الاستراتيجي الخطير في سياستها القائمة على الاحتواء المزدوج. فبرفض مبادرات التودد الإيرانية والتخطيط لإنشاء نظام جديد في الشرق الأوسط يستند إلى إقصاء إيران، كانت الولايات المتحدة توفّر لإيران حوافز قوية لتخريب الحلقة الأضعف في السياسة، وهي المحادثات الإسرائيلية الفلسطينية الهشة. واستناداً إلى إندك، كان لدى الإيرانيين "كل الحوافز لمعارضة العملية السلمية. أما استراتيجيتنا فكانت، من ناحية، استخدام محرّك صنع السلام في تحويل المنطقة، ومن ناحية أخرى، كانت احتواء الإيرانيين عبر فرض العقوبات والعزلة عليهم. كان أحد شقّي هذه الإستراتيجية مكمّلاً للشقّ الآخر. فكلما نجحنا في صنع السلام، كلما زادت عزلة الإيرانيين، وكلما نجحنا في احتوائهم، كلما زادت فرص صنع السلام. لذلك كان لديهم حافز لإفشالنا في العملية السلمية لكي يهزموا سياسة الاحتواء والعزلة. ولهذا السبب استهدفوا العملية السلمية"[8].

بالرغم من أن واشنطن لم تتوقّع بقاء إيران مكتوفة الأيدي مع تبلور النظام الجديد للشرق الأوسط، فقدا استهانت بقدرة طهران على التأثير في العملية. يقول دانيال كورتزر، السفير الأميركي السابق لدى إسرائيل: "لم نتوقع أن يجلسوا بلا حراك لأننا عرفنا أنهم لا يستطيعون تحمّل عواقب ذلك"[9]. لكن مع اقتراب العام 1995 من نهايته، بات من الواضح أنه يمكن للإرهاب أن يحرف مسيرة المشروع الإسرائيلي الفلسطيني برمّته.

إيغال يقتل إسحاق

في 4 نوفمبر/تشرين الثاني 1995، ضرب الإرهاب إسرائيل مجدداً، لكن من مكان غير متوقّع. فقد أطلق إيغال أمير، وهو متطرف ينتمي إلى اليمين الإسرائيلي، النار على رئيس الوزراء رابين وقتله في مرآب للسيارات بالقرب من ساحة ملوك إسرائيل بتل أبيب. حضر رابين تجمّعاً للسلام أراد أن يدعم اتفاقية أوسلو، وكان على وشك أن يركب سيارته عندما أطلق عليه القاتل النار. أصيبت إسرائيل بصدمة، وابتهجت طهران. فكتبت الصحيفة المتشددة **جمهوري إسلامي** تقول: "في مختلف أنحاء العالم، تتفق الأمم الحرّة مع المسلمين في الابتهاج بمقتل هذا الصهيوني المتعطش للدماء مع أن الحكومات أعلنت الحداد أو أرسلت برقيات العزاء". في حين قالت صحيفة **كيهان الدولي** التي تصدر باللغة الإنكليزية: "لا ينبغي أن يحدّ على رابين أحد، فهو الذي جلب الدماء، والدموع، والظلام إلى حياة المئات والآلاف"[10]. وقال رئيس البرلمان الإيراني علي أكبر ناطق نوري إن رابين دفع الثمن بعملته الخاصة: "إننا ندين الأعمال الإرهابية، لكن كان يجدر بالصهاينة أن يعرفوا أنه عندما يفتحون باب الإرهاب

سيكونون هم ضحايا المكائد التي يحيكونها للآخرين"[11].

أدى اغتيال رابين إلى إطلاق جولة جديدة بين طهران وتل أبيب. فقد تملّكت الإيرانيين الجرأة؛ بدون رابين، أصبحت العملية السلمية في خطر. وقال المرشد الأعلى للثورة الإسلامية آية الله علي خامنئي، لراديو طهران بأن "إيران وشعبها يعتقدان بأن وجود إسرائيل خطأ ومصطنع. في الواقع، لا توجد دولة اسمها إسرائيل، ولكن يوجد قادة صهاينة يتصرفون بناء على العنصرية فقط، وهم جمعوا بعض الأشخاص من أصقاع الأرض، وأقاموا دولة خصيصاً من أجل احتلال فلسطين"[12].

ردّ الإسرائيليون بتكثيف جهودهم لعزل إيران وتصويرها كخطر عالمي. ففي 15 فبراير/شباط 1996، قال وزير الخارجية إيهود باراك لأعضاء مجلس الأمن الدولي إن إيران ستتمكن من إنتاج أسلحة نووية في غضون ثماني سنين[13]. وكما سعت إيران إلى إعاقة تطور العلاقات العربية الإسرائيلية، سعت إسرائيل إلى منع إيران من استخدام تجارتها مع الاتحاد الأوروبي للخروج من عزلتها. وقال رئيس الوزراء شمعون بيريز للقناة التلفزيونية الفرنسية الثانية في مارس/آذار 1996: "يتعين عليكم أن توقفوا التودد إلى الإيرانيين. إيران هي مركز الإرهاب، والأصولية، والتخريب... وهي في رأيي أشد خطراً من النازية لأن هتلر لم يمتلك قنبلة نووية، في حين أن الإيرانيين يسعون إلى تحسين خيارهم النووي"[14].

بالرغم من أن حزب العمل اختار مسار أوسلو، بدا واضحاً على نحو متزايد بحلول العام 1996 أنها حققت القليل من السلام الثمين. وشعر الشعب الإسرائيلي، الذي أعطى حزب العمل في العام 1992 نصراً انتخابياً باهراً، بالانزعاج من العملية السلمية، وبدأ يميل نحو قاعدة الليكود المعادية لأوسلو. ثم وجّه الإرهاب، في ربيع العام 1996، ضربة أخرى مدمّرة لبيريز وحزبه. ففي الفترة الواقعة بين 25 فبراير/شباط و4 مارس/آذار، هزّت أربعة تفجيرات مدن تل أبيب، والقدس، وعسقلان الإسرائيلية، مما أدّى إلى مقتل تسعة وخمسين مدنياً إسرائيلياً. سارع بيريز إلى إلقام اللوم على طهران مجادلاً بأن الإيرانيين يسعون إلى إسقاط حكومته. قال بيريز: "إنهم يبذلون كل ما في وسعهم لإنهاء السلام وإسقاط الحكومة التي تريد السلام...لدينا الدليل على أنهم يضغطون على الجهاد الإسلامي والمنظمات المخرّبة الأخرى للقيام بعمليات ضدّ إسرائيل قبل الانتخابات"[15]. (لكن حماس ادّعت علناً المسؤولية عن التفجيرات، وقالت بأنها ردّ انتقامي على اغتيال الإسرائيليين ليحيى عياش، وهو ناشط رفيع الشأن من حماس).

حتى اليوم، يعتقد بيريز بأن الإيرانيين هم من أعطى الأوامر بتنفيذ الهجمات الأربع بقصد إلحاق الضرر باحتمالات التوصل إلى سلام، وذلك استناداً إلى وايزمان "إنه تأكيد غير منطقي فعلاً، أن يفهم الإيرانيون أنه بانتخاب بنيامين نتنياهو، يمكنك إبطاء العملية السلمية. وهذا ما حصل"[16]. (لكنّ إسرائيل لم تقدّم أي دليل قاطع يدعم هذا الزعم).

العودة من أوسلو إلى المبدأ المحيطي

يمثل اللواء عاموس جلعاد نموذج الجنرال الإسرائيلي شديد اللهجة الذي يحتقر الفوارق الدقيقة، ويرفض فكرة الحاجة إلى إعادة التفكير بما يعتقده نقّاده بأنها افتراضاته غير الدقيقة غالباً والمتعلقة بأعدائه. ففي التسعينيات، لم يضغط أحد من أجل تصوير وجود خطر إيراني أحادي الأبعاد داخل وزارة الدفاع الإسرائيلية كما فعل هو بوصفه رئيساً للتقييم الاستخباري القومي في الجيش. فهوسه بإيران يقترب مما يصفه نقّاده بهوس إيران[17]. ويشرح ضابط في الجيش الإسرائيلي عمل عن قرب مع جلعاد حقيقة هذا الهوس فيقول: "لقد جعل عاموس جلعاد من الصواريخ الإيرانية ثأراً شخصياً"، مضيفاً أنه "يفكّر دائماً في إطار التكهنات وبدون أدنى تقدير للفوارق الدقيقة"[18]. لقد نجح بالتعاون مع إفرايم سنيه، العضو في الكنيست، في وضع إيران على شاشة الرادار الإسرائيلية، وفي إقناع حزب العمل بانتهاج سياسة أكثر عدوانية تجاه إيران.

لكن جلعاد وجد نظيره في نتنياهو. ففي 30 مايو/أيار 1996، هزم زعيم حزب الليكود، الذي تلقّى تعليمه بأميركا، شاغل منصب رئيس الوزراء بيريز بهامش ضئيل في انتخابات أصبحت بمثابة استفتاء على العملية السلمية. ولم يفصل سوى 15000 صوت بين الاثنين[19]. شكّل انتصار نتنياهو بداية النهاية لعملية أوسلو، ومهّد الطريق أمام عودة الدفء إلى العلاقات الإسرائيلية الإيرانية لفترة قصيرة. لكن قبل انتخابات العام 1996، وكردّ على الانتقادات الداخلية لسياسة حزب العمل في الموضوع الإيراني، شكّل رابين لجنة لتقديم التوصيات بشأن كيفية التعامل مع أي خطر إيراني. رأى العديد في إسرائيل أن التصعيد الإيراني المعادي لإسرائيل بعد العام 1994 كان نتيجة مباشرة للحملة التي شنّتها حكومة رابين – بيريز على إيران. فقد اتّسم خطاب حزب العمل بالمبالغة والفشل الذاتي، ووضع إسرائيل على شاشة الرادار الإيرانية بدون داعٍ[20]. يقول يوسي ألفير، وهو ضابط سابق في الموساد ومستشار رفيع لدى رئيس الوزراء إيهود باراك، كان الخطاب "مرشحاً لأن يصبح توقعاً يتحقق من تلقاء نفسه. وكلما زاد حديثنا عن هجوم نووي إيراني محتمل على إسرائيل، كلما سببت لنا إيران مزيداً من القلق، وكلما زاد احتمال حدوث بعض التصعيد الخارج عن السيطرة"[21].

دعا النقّاد إلى اتّباع سياسة تتحاشى قول أشياء يمكن أن تزيد من المخاوف الإيرانية وتسبب الكثير من الصخب الإيراني. ففي النهاية، يمكن أن تمثّل إيران تحدّياً لإسرائيل، ولكنه ليس خطراً وجودياً. حتى بعد نشر صواريخ الفجر بلبنان، كانت قدرة إيران على إلحاق الضرر بإسرائيل محدودة وأدنى بكثير من القدرات الإسرائيلية[22]. عرفت إسرائيل أن إيران لا تملك أسلحة دمار شامل وأنه من المستبعد جداً أن تشعل حرباً تقليدية مع إسرائيل[23]. حتى عندما اكتشفت الاستخبارات الإسرائيلية وجود برنامج صاروخي إيراني في أواخر العام 1994، ساد اعتراف على نطاق واسع

بإسرائيل أن التسلّح الإيراني، والبرنامج الصاروخي، والبرنامج النووي المحتمل كلها لا تستهدف إسرائيل[24]. يقول ألفير: "تذكر أن الإيرانيين ربما يتحدثون عنّا، ولكننا لسنا همّهم الاستراتيجي الأول ولا حتى الثاني، كما أننا لسنا سبباً يدفعهم إلى تطوير أسلحة نووية"[25]. كانت اللجنة التي شكّلها حزب العمل فريقاً وزارياً يتألف من ممثلين عن الموساد، ووزارة الخارجية، ووزارة الدفاع، ومجلس الأمن القومي الإسرائيلي، وكانت برئاسة الجنرال ديفيد إيفري، سفير إسرائيل السابق لدى الولايات المتحدة (والذي قاد الغارات الإسرائيلية الجوية على المفاعل النووي العراقي في العام 1981). وخدم شمعون ليمون، وهو خبير في الشؤون الإيرانية في وزارة الدفاع كأمين سرّ اللجنة[26]. أمّا الأعضاء الرئيسيون الآخرون فهم أوديد إران أحد أشهر الدبلوماسيين الإسرائيليين، وأوري لوبراني المبعوث الإسرائيلي لدى إران في السبعينيات، وديفيد ميناشري وهو أستاذ مدرّس بجامعة تل أبيب وأكثر الخبراء الإسرائيليين في الشؤون الإيرانية شهرة (وهو نفسه يهودي إيراني)[27].

بالرغم من أن الحملة الهجومية التي شنّها حزب العمل نجحت في فرض ضغوط دولية على إيران، جادلت اللجنة بأنه لا يوجد الكثير مما ستجنيه إسرائيل من جعل إيران عدوة لإسرائيل. إنّ الخطاب الملتهب لحزب العمل لم يعمل سوى على لفت انتباه إيران وتقوية تصوّر إيران لوجود خطر إسرائيلي، والذي بدوره جعل إسرائيل أقل أمناً بدلاً من أن يجعلها أكثر أمناً. داخل اللجنة، عرض إران وميناشري وفضّلا فتح قنوات اتصال مع إيران، وهو اقتراح عارضه لوبراني بقوة لأنه يعتقد بأن النظام بطهران آيل إلى السقوط حتماً[28]. في النهاية، تجاهلت حكومة رابين – بيريز توصيات اللجنة، وأصرّت على موقفها الهجومي من إيران.

كانت حكومة نتنياهو الجديدة أكثر تقبّلاً للنتائج التي توصلت إليها اللجنة. طلب رئيس الوزراء وزعيم الليكود على الفور تقييماً استخبارياً للبيئة الأمنية الإسرائيلية من كل من الموساد والاستخبارات العسكرية. كان الجدال بين هذين الجهازين مماثلاً للجدال الذي دار بينهما في الثمانينيات؛ من الذي يشكل الخطر الأكبر على إسرائيل، العراق أم إيران؟ وهل يمكن الاعتماد على إيران في موازنة العراق؟[29] وما ان انقضت أسابيع على ولاية نتنياهو حتى اكتملت التقييمات. دعا رئيس الوزراء ممثلين عن الجيش والموساد والاستخبارات العسكرية إلى حضور اجتماع وزاري حضره كل الوزراء لكي يدلي كل منهم بحجته. مثّل جلعاد الجيش، ومثّل أوزي أراد الموساد والاستخبارات العسكرية. بالرغم من اشتداد حدة المناقشات والانفعالات – على غرار كافة المناقشات الوزارية في حكومة نتنياهو – توصل الاجتماع إلى نتيجة غير مسبوقة. جادل جلعاد أولاً بأن إيران حلّت محلّ العراق كخطر وجودي على إسرائيل، وأشار إلى أن النظام الإيراني معادٍ لإسرائيل وأنه عازم على تدمير الدولة اليهودية. وتجاهل جلعاد الفكرة التي تقول بأن الغلبة ستكون للمعتدلين بإيران ودافع عن السيناريو المعاكس. قال جلعاد: "أنا أمثّل خطاً متشدداً يزعم بأن المحافظين سيسيطرون على إيران.. هذا على مستوى النوايا الاستراتيجية".

ثانياً: قال بأن القدرات الإيرانية تتطور، وبخاصة من خلال البرنامج الصاروخي الإيراني. وأكّد جلعاد على أن إسرائيل ستصبح ضمن مدى الصواريخ الإيرانية بحلول العام 1999. والمكونة الثالثة كانت البرنامج النووي الإيراني. لقد خلَص تقييم الاستخبارات إلى أن إيران ستملك قنبلة نووية بحلول العام 2005. وأصرّ جلعاد على القول إنه "حتى قنبلة بدائية واحدة كافية لتدمير إسرائيل". أخيراً، أصرّ على القول بأن إيران تعارض العملية السلمية وأنها طورت خطراً إرهابياً على إسرائيل من خلال دعمها لحركة الجهاد الإسلامي، وحماس، وحزب الله. وختم حديثه بالقول "بوجه عام، يبدو من الناحية الإيديولوجية والاستراتيجية أن إيران عازمة على تدمير إسرائيل"[30].

عرض أراد وجهة نظر مختلفة اختلافاً جذرياً، فجادل بأن غاية إيران من إعادة التسلّح دفاعية وتهدف أساساً إلى ردع صدام حسين. وإيران بحاجة إلى أن تعيد تسليح نفسها كنتيجة طبيعية لاستمرار حالة العداء بينها وبين الدول العربية. ففي النهاية، لم توقّع إيران والعراق بعد على معاهدة سلام. كما أن إيران مثقلة بالديون، والوضع السياسي الداخلي فيها غير مستقرّ، وأسعار النفط متدنّية. هذا كله، أضاف أراد، أضعف من قدرة إيران على تشكيل خطر، في حين أن العراق – بصواريخ سكود المتوفرة لديه والتي أطلق منها أربعة وثلاثين صاروخاً على إسرائيل أثناء حرب الخليج العربي – أثبت أنه خطر حقيقي[31]. في الواقع، يمكن لتصور الخطر العربي أن ينعش المبدأ المحيطي مجدداً، مما يؤدي إلى تقارب إيراني إسرائيلي لدرء الخطر العربي المشترك.

يتلخص جوهر مرافعة أراد في أن أمام إسرائيل خياراً: إما أن تجعل من نفسها العدو الأول لإيران بمواصلة خطاب بيريز – رابين الحربي، أو التخفيف من الضغط والسماح للإيرانيين بالإحساس بوجود خطر أكبر من الجهات الفاعلة الإقليمية الأخرى. جاء في مرافعته، "هناك ما يكفي من الأشخاص الأشرار حولهم. ونحن لسنا بحاجة إلى إفراد أنفسنا كعدو"[32]. لكن كان على إسرائيل أن تبقى حذرة، وتنتهج سياسة الانتظار والترقب لأن طموحات إيران يمكن أن تتجاوز حاجاتها الدفاعية المشروعة[33]. والأهم من ذلك أنه ينبغي على إسرائيل تجنب الوقوع في نمط التصعيد مع إيران المدفوع بالخطاب السابق لحزب العمل. يقول شلومو بروم من مركز يافي للدراسات الاستراتيجية وعضو في لجنة إيران الأصلية: "احتجنا إلى تخفيف اللهجة"[34].

أصغى نتنياهو بانتباه شديد إلى الجانبين المتصارعَين. تحدث جلعاد بثقة كبيرة بالنفس وهو يعلم حق العلم أنه ما من رئيس للوزراء يستطيع تجاهل النتائج التي توصل إليها التقييم الاستخباري الذي يعدّه الجيش. وإذا أضفنا إلى ذلك الميل الإسرائيلي إلى تبنّي سيناريوهات متشائمة والتعامل مع الفوارق الدقيقة والتقييمات التي تعبّر عن القليل من التفاؤل بارتياب كبير، يتبين أن الاحتمالات كانت تصبّ في صالحه. لكنّ ردّ نتنياهو أصاب جلعاد بالإرباك. ففي خطوة غير مسبوقة، رفض رئيس الوزراء التقييم الاستخباري، وتبنّى توصية أراد بتخفيف التوترات مع إيران[35]. كان تجاهل

نتنياهو لتقييم جلعاد بمثابة ضربة قوية له، ولغاية اليوم، لا يزال يحاول إخفاء مرارته بالإشارة فقط إلى العديد من الأخطاء التي وقع فيها منافسوه. قال جلعاد: "قالت إحدى أكثر المنظمات أهمية في إسرائيل، وأنا لا أريد أن أذكرها بالاسم لأني أخجل من الإتيان على ذكرها بأن الكل سيكون سعيداً في العام 2005 لأن النظام في إيران سيسقط"[36]. صحيح أن السيناريو المشؤوم الذي توقّعه جلعاد لم يتحقق، لكنه لا يزال مصرّاً على أن اشتداد العداوة بين إيران وإسرائيل يثبت أنه كان على صواب. قال لي بدون مواربة: "كان إنجازاً استخبارياً رائعاً". ومما يشهد له أن إيران أجرت تجربة ناجحة في إطلاق الصاروخ شهاب-3 في العام 2001، والذي من الممكن أن يطال إسرائيل بعد سنتين فقط من الموعد الذي توقعه جلعاد. لكن على النقيض من تقييمه، لم تستخدم إيران صواريخها لتدمير إسرائيل.

نتنياهو يضع حداً للخطاب العنيف المعادي لطهران

شعر جلعاد بكثير من الإحباط عندما ركّز نتنياهو على ياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، وعلى الخطر الفلسطيني بدلاً من أن يركّز على إيران، ووضع نهاية شاملة للمواجهة الكلامية بين إسرائيل وإيران. كان ذلك تحولاً رئيسياً أثّر في كافة مستويات التخطيط بإسرائيل في ما يتعلق بإيران. يقول إيهود ياري من المحطة التلفزيونية الإسرائيلية الثانية: "كان هناك انتشار للتصريحات الإسرائيلية، إلى حين تشكيل حكومة نتنياهو، تحاول ردع إيران، وتحذير إيران، والتذكير بالذراع الطويلة لسلاح الجو الإسرائيلي... إلخ. لكن ذلك توقف والفضل في ذلك يعود إلى نتنياهو"[37]. واستناداً إلى دوري غولد، الذي خدم كسفير لدى الأمم المتحدة في عهد نتنياهو، أراد رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد أن يتجنّب أخطاء سلفه. ويقول: "كان هناك إحساس بأنه ربما أضرّ بعض خطاب حكومة بيريز السابقة بعلاقات معينة في المنطقة. فعلى سبيل المثال، عند الحديث عن الشرق الأوسط الجديد ولعب إسرائيل دوراً اقتصادياً فيه"[38]. مضى العديد من مستشاري نتنياهو إلى حدّ الجدال بأن إسرائيل وإيران تتقاسمان مصالح مشتركة تتجاوز الاختلافات التي بينهما[39]. وجادل بأن تعاطف الإعلام الإسرائيلي مع التحوّل الذي أجرته حكومة الليكود حيال إيران يعني أن اللوم يقع على حكومة حزب العمل السابقة في تصاعد التوتر مع إيران، مستشهداً بالجهود التي بذلها المبعوث الإسرائيلي لإقناع إدارة كلينتون بتمويل انقلاب هناك. كما أن نشر مبادرة حكومة حزب العمل "ألحق ضرراً كبيراً بإسرائيل"، كما قال مسؤولون استخباريون إسرائيليون رفضوا الكشف عن أسمائهم للمحطة التلفزيونية الإسرائيلية الثانية. "إذا كانت الولايات المتحدة في الماضي الشيطان الأكبر وإسرائيل الشيطان الأصغر، فقد بات الإيرانيون اليوم يعتبرون أن إسرائيل هي الشيطان الذي يقبع داخل عقل الشيطان الأكبر ويحرّكه"[40]. رأت حكومة نتنياهو في هذه التصريحات بأنها مضرّة وسعت إلى تجنّب مثل هذا الاشتباك مع الإيرانيين. يقول غولد: "لم يرغب نتنياهو في استخدام خطاب يثير عداوة الإيرانيين بدون سبب"[41].

لكن نتنياهو مضى إلى ما هو أبعد من مجرّد تخفيض حدّة الخطاب. فقد سعى إلى التوصل إلى تفاهم مع إيران من خلال مساعدة اليهود الإيرانيين البارزين، وأوقف التهجمات الإسرائيلية على إيران في المنظمات الدولية، ونظّم لقاءات بين ممثلين إسرائيليين وإيرانيين في المنتديات الفكرية الأوروبية، وشجّع البرلمانيين الإسرائيليين على التواصل مع نظرائهم الإيرانيين في اجتماعات اتحاد البرلمانيين. وكما هو معتاد، أنكر الإيرانيون في وقت لاحق المشاركة في اجتماعات مع الإسرائيليين[42].

سعى نتنياهو في مرحلة معينة إلى أن يتوسط الكازاخستانيون والروس بين إيران وإسرائيل. ففي ديسمبر/كانون الأول 1996، زار إسرائيل وزير النفط الكازاخستاني نورلين بالجمبايف، الذي كان يتمتع بعلاقات ممتازة مع طهران، لتلقي العلاج الطبي، حيث طُلب منه إعداد حوار مع إيران لمناقشة السبل الكفيلة بخفض التوترات بين البلدين[43]. لكن لم يكن في وسعه القيام بالكثير لإذابة الجليد بين إيران وإسرائيل. كما سعت حكومة الليكود إلى التخفيف من المخاوف العربية والإيرانية من أن إسرائيل تسعى إلى لعب دور مهيمن في المنطقة أو أن صراعها مع الأصولية الإسلامية – الذي بدأه رابين وبيريز – حرب على الإسلام. وأثناء السفر بالطائرة من القدس إلى القاهرة، عرض غولد على نتنياهو مقالة كتبها فواز جرجس، وهو بروفسور عربي أميركي، تتحدث عن هذا الموضوع، وأقنع زعيم الليكود بأن يشجب علناً فكرة أن صراعاً حضارياً في طور الاختمار.

بعد أسابيع قليلة، في 10 يوليو/تموز 1996، عبّر نتنياهو في الخطاب الذي ألقاه في الكونغرس الأميركي، عن ذلك بالقول: "يتعين عليّ القول بأن هذا ليس صراعاً مع الإسلام. إننا لا نؤيد الفكرة التي تقول بأن الإسلام حلّ محلّ الشيوعية كمنافس جديد للغرب"[44]. كان التصريح مدروساً بإتقان للإشارة إلى الابتعاد عن تشديد رابين – بيريز على الخطر الإقليمي بدلاً من الأخطار الدولية على إسرائيل. يشرح غولد ذلك فيقول: "رأينا أننا نستطيع الحصول على بعض المنفعة من قول رئيس وزراء من حزب الليكود إن الإسلام ليس عدواً"[45].

لكنّ تحوّل نتنياهو في الموضوع الإيراني كان مدفوعاً بما هو أكثر من محاولة لإبعاد إسرائيل عن شاشة الرادار الإيرانية. أولاً: وقبل كل شيء، اعترف بأن الإرهاب الذي يستهدف المدنيين الإسرائيليين هو الذي ضمن انتصاره الانتخابي، وابتعاد الشعب الإسرائيلي عن حزب العمل. وبعد أن أصبح في السلطة، خشي نتنياهو من أن تواصل الإرهاب يمكن أن يهزمه ثانية كما هزم بيريز[46]. بالتخفيف من حدّة الخطاب الإسرائيلي الموجّه ضدّ إيران، سعى نتنياهو إلى تجنب أي استفزاز غير مبرر لإيران رأى فيه سبباً لشنّ مزيد من الهجمات والتي ستكون لها عواقب سياسية لا يمكن التكهن بها.

ثانياً: على الصعيد الاستراتيجي، عارض نتنياهو عملية أوسلو من الناحية الاستراتيجية ولم يُخفِ عدم ثقته بالفلسطينيين، واعتقد أنه بما أن السلام مع العرب يبقى بعيد الاحتمال، فإن أفضل وسيلة لضمان أمن إسرائيل هي في صياغة تحالف مع الدول غير العربية في الشرق الأوسط،

وهذا يعني عودة إلى المبدأ المحيطي. استناداً إلى صحيفة معاريف الإسرائيلية، قال نتنياهو لمساعديه: "علينا أن ننسى الشرق الأوسط الجديد، لأنه لا يوجد شيء بهذا الاسم"[47]. فرؤية بيريز لشرق أوسط جديد لم تكن مشوبة بعيب متأصل وحسب، بل إن سياسة التهويل من إيران أضرّت بالمصلحة القومية لإسرائيل من ناحيتين حساستين. فمن ناحية، كانت إسرائيل تستثمر بقوة في شريك – عرفات – الذي يعتقد الليكود أنه لا بدّ وأن يخون إسرائيل ويسعى إلى دمارها. فقد اعتقدت حكومة نتنياهو أن عرفات لن يبرم في نهاية المطاف معاهدة سلام مع إسرائيل وأنه يتفاوض لكسب الوقت فقط وتقوية وضعه الخاص[48]. يقول غولد: "بالنسبة إلى بيريز، كان عرفات شريكاً انحرف عن طريق أوسلو بسبب الدعم الذي تقدمه إيران لحماس. إن المشكلة تكمن هناك مع إيران، وليس مع عرفات. لكن كانت لدينا فكرة معاكسة تماماً، وقلنا بأن عرفات هو المشكلة"[49].

من ناحية أخرى، كانت إسرائيل تقرن استثمارها في الفلسطينيين بسياسة قلبت دولة محيطية رئيسية – إيران – وجعلتها عدوة لإسرائيل. فقد قلل خطاب بيريز العنيف اللهجة من فرص إحياء الاتفاق التفاهمي الإسرائيلي الإيراني، وبما أن الليكود رأى أن التوصل إلى اتفاق يمكن أن يستمر مع عرفات قريب من المستحيل، اعتقد الليكود بأن استراتيجية حزب العمل ستنزل بإسرائيل خسارة مزدوجة؛ عدم التوصل إلى سلام وعدم وجود دولة محيطية لموازنة العرب. احتاج رئيس الوزراء الإسرائيلي المتشدد إلى الإبقاء على خيار إيران لأنه لم يكن يعتقد بإمكانية التوصل إلى سلام مع الفلسطينيين. يقول غولد: "يميل حزب الليكود إلى أن يكون أكثر تقبّلاً للفكرة التي تقول إنّه ربما كان يوجد عناصر متبقية في النظام الثوري بإيران ترى الأمور من الناحية الجيوسياسية كما كانت إيران تراها في عهد الشاه"[50]. لذلك، حتى عندما كان حزب الليكود بزعامة نتنياهو يضغط على الولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي، وروسيا لمنع إيران من تطوير برامج أسلحة نووية يمكن أن تضع إسرائيل في متناول طهران، كانت حكومة نتنياهو تسعى أيضاً إلى إحياء تحالفها المحيطي مع إيران، على اعتبار أنه استراتيجية محبّذة على الاستراتيجية التي تضع ثقتها في القيادة الفلسطينية[51].

ثالثاً: من منظور سياسي محلّي، هدف نتنياهو إلى تأليب الشعب الإسرائيلي على عملية أوسلو وإنهاء صيغة الأرض مقابل السلام. ولكنه لم يكن يستطيع توجيه غضب إسرائيل نحو عرفات والفلسطينيين إذ كان يُنظر إلى إيران بأنها مصدر الإرهاب[52]. يشرح وايزمان من منظمة إيباك هذا التعليل بالقول: "إن إلقاء اللوم على الإيرانيين بسبب الإرهاب الفلسطيني سيعود بنتائج عكسية على رسالته التي تقول بأن مصدر الإرهاب هو الفلسطينيون"[53]. وكما أن فكرة وجود خطر إيراني خدمت رغبة بيريز ورابين في إقناع الشعب الإسرائيلي بدعم التوصل إلى مصالحة مع العرب، فهذه الفكرة تقوّض جهود نتنياهو لإقناع الإسرائيليين بمعارضة هذه المصالحة بالذات. يقول غولد إن دور إيران في العملية السلمية لم يكن واحداً من هموم نتنياهو، ويضيف "لم يكن يشكل جزءاً من المناقشات. كان همّنا عرفات"[54]. بالنسبة إلى حكومة الليكود، خلط رابين وبيريز بين السياسة وأمن إسرائيل عبر استهداف إيران، والتزام الصمت حيال دول أخرى تبرّعت بأموال لحماس فاقت ما تبرّعت به إيران[55].

أخيراً، وإن يكن السبب الأكثر أهمية، كان نتنياهو يشاطر بيريز ورابين خوفهما من مضامين أي حوار أميركي إيراني. لكن حدث انعطاف جديد الآن. فإذا كانت الولايات المتحدة وإيران ستستأنفان علاقاتهما فيما تظل العلاقات الإيرانية الإسرائيلية عدائية، تكون إسرائيل قد تُركت فعلاً في العراء[56]. يتساءل جلعاد بطريقة منمّقة: "هناك العديد من المواضيع التي يمكن أن تتحدث الولايات المتحدة إلى إيران بشأنها: المخدرات، العراق، أسلحة الدمار الشامل. فلماذا ترغب في التحدث إلى إيران عن إسرائيل؟"[57] جاء الحافز لإرسال الإشارات الأولى إلى إيران عندما وجه حزبُ الليكود اللوم لحزب العمل على التوترات مع إيران من عجز واشنطن عن إقناع أوروبا بالانضمام إلى جهودها الهادفة إلى عزل إيران، كما قال مصدر رفيع يعمل في مكتب رئيس الوزراء لراديو إسرائيل. اعتقدت حكومة الليكود أن حقبة الاحتواء المزدوج قد انتهت، وخشيت من تبني الولايات المتحدة علاقات مع إيران. لذلك، كان على إسرائيل أن تخفض من حدة التوترات مع إيران لإعداد نفسها لمثل هذا السيناريو. فكلما كانت التوترات مع إيران أقل حدّة، كلما قلّ حجم الارتدادات السلبية الناتجة عن تحسّن العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران[58]. كما كانت استراتيجية حزب العمل، تمثلت استراتيجية الليكود في معارضة إقامة علاقات بين الولايات المتحدة وإيران بقدر ما يستطيع، ولكن حزب الليكود أراد أن تكون إسرائيل قادرة على إعادة تموضع نفسها بسرعة في حال كان اختراق سياسي بين إيران والولايات المتحدة في طور الاختمار. وبعد أن يصبح الحوار الأميركي الإيراني محتماً، تكون إسرائيل في وضع أفضل يمكّنها من التأثير في المحادثات عبر جعل نفسها جزءاً من العملية.

لم تكن الجهود التي بذلها نتنياهو للانفتاح على إيران تعني أن إسرائيل ستخفف من الضغط على إيران في النواحي الأخرى. فقد واصلت إسرائيل حثّ الولايات المتحدة على الضغط على روسيا من أجل حملها على عدم التعاون مع إيران في المجال النووي، وواصلت الجماعات المؤيدة لإسرائيل السعي إلى عزل إيران على الساحة الدولية[59]. لكن إسرائيل كانت حريصة أيضاً على عدم تكرار خطأ فضيحة إيران – كونترا، وأن أي تحسن في العلاقات بين إيران والغرب ينبغي أن يتضمن حدوث تغيير في العلاقات الإسرائيلية الإيرانية. فإذا كانت إيران تريد تحسين علاقاتها مع الولايات المتحدة، ينبغي ألاّ يوجد سبيل للقيام بذلك إلاّ من خلال إسرائيل.

من جانبها، خففت إيران من حدة خطابها ومن مشاركتها في محاربة أوسلو ما إن بدأ الجمود يعتري المحادثات الإسرائيلية الفلسطينية. طالما أن العملية السلمية لن تؤدي إلى أية نتيجة، فهي لا تشكل تهديداً لإيران ولا حاجة لدى إيران إلى محاربتها. لم يكن في استطاعة الإيرانيين الاعتراف بذلك علناً، ولكن انتصار نتنياهو في الانتخابات حظي بالترحاب في المجالس الخاصة بطهران لأن حزب الليكود أقل تلهّفاً للدفع في اتجاه إقامة

شرق أوسط جديد وما يترتب عليه من عزلة مطوّلة لإيران[60]. لكن بالرغم من الشكوك التي راودت النظام الإيراني، بدا متلهفاً في الوقت نفسه لمعرفة النتيجة التي يمكن أن تؤدي إليها مناورات حكومة الليكود. لم تكن طهران مهتمة باستئناف العلاقات مع إسرائيل، ولكنها رحّبت بالفرص الكفيلة بخفض التوترات بين البلدين[61]. يشير محسن ميرْدمادي، وهو عضو في لجنة العلاقات الخارجية بالبرلمان الإيراني، "سرت أقاويل بأن فريق نتنياهو أراد ترقيع العلاقات مع إيران، وأنه يعارض النظرية التي تقول إنّ العداوة الإيرانية الإسرائيلية لا مفرّ منها"[62].

ضغطت إيران على حزب الله بلبنان لكي يوافق على وقف لإطلاق النار مع إسرائيل في أبريل/نيسان 1996. (في ذلك الشهر، قامت إسرائيل بحملة عسكرية مفاجئة استمرّت ستة عشر يوماً ضدّ حزب الله بلبنان أطلقت عليها اسم عناقيد الغضب. وبالرغم من أن أحداً لم ينتصر في تلك الحرب، فشلت إسرائيل في إلحاق أضرار كبيرة بحزب الله، وهو ما أدّى إلى التوصل إلى تفاهم عرف بتفاهم نيسان. وقام وزير الخارجية علي أكبر ولايتي بحملة دبلوماسية مكثفة استمرّت تسعة أيام أثمرت عن التوصل إلى هدنة بين حزب الله وإسرائيل، فضلاً عن تحرير العديد من الأسرى)[63]. اقترح الإيرانيون عدداً من الاقتراحات على إسرائيل، منها التقليل من دعم حزب الله في مقابل رفع الضغط الإسرائيلي على روسيا الذي يهدف إلى وقف تعاونها النووي مع إيران[64]. كما أشار نائب وزير الخارجية إلى أنّ طهران ستكون مستعدة للمساعدة على البحث عن الطيار الإسرائيلي المفقود رون أراد، وهو ضابط في منظومات أسلحة سلاح الجو الإسرائيلي أُسر في العام 1986 والذي يعتقد الإسرائيليون أنه أصبح في إيران[65]. في خطوة نادرة، أثنت إسرائيل علناً على الجهود التي بذلتها إيران لتبادل الأسرى وإعادة رفات جنود إسرائيليين قُتلوا بلبنان. فقد قال وزير الدفاع الإسرائيلي إسحاق موردخاي للصحافيين: "كإيماءة طيبة، أودّ أن أشكر كل جهة قامت بهذا العمل الإنساني؛ بلبنان، وسوريا، وإيران... وأريد أن أطلب منها مواصلة جهودها"[66].

لكن كما حصل في العديد من المرات السابقة، طمعت إيران في إقامة علاقات جيدة مع واشنطن، لا مع تل أبيب. وقنوات الاتصال المتنوعة، مثل المسار 2 والمسار 1½ (وهما قناتان دبلوماسيتان غير رسميتين غالباً ما تضمنتا علماء أكاديميين، ومسؤولين متقاعدين مدنيين وعسكريين، وشخصيات عامة، وناشطين اجتماعيين)، التي تأسست في العام 1996 أقنعت حكومة نتنياهو بأن إيران تريد كعكتها وتريد أكلها أيضاً. أرادت أن تحسّن علاقاتها مع الغرب، ولكنها لم تكن لتتخلّى عن موقفها المعادي لإسرائيل لأنه يمنحها الشرعية في العالم العربي. كانت كل الاقتراحات مناورات تكتيكية هدفت إلى التخفيف من الضغط الأميركي على إيران لا إلى تحسين العلاقات مع إسرائيل. ففي النهاية، جهود نتنياهو لا تساوي شيئاً بل هي ذوبان ربيعي مؤقت للجليد بين إسرائيل وإيران. لكن بالنسبة إلى إيران، كانت الأجندة السياسية لحزب الليكود ومعارضته لأوسلو جيدة بما فيه الكفاية. فقد آثر الإيرانيون حزب الليكود على حزب العمل لنفس السبب الذي دعا حزب الليكود إلى إلقاء اللوم على الفلسطينيين وليس على إيران: إسرائيل التي لا تسعى إلى سلام بناء على عزلة إيران لن تحتاج إلى اللجوء إلى واشنطن وإلى المجتمع الدولي لمحاربة إيران. قال لي استراتيجي سياسي إيراني بصراحة: "كان التصوّر في إيران أن حزب الليكود ليس جادّاً بشأن السلام مع الفلسطينيين، ولذلك لم يكن لدى إيران حاجة إلى كبش فداء. لكنّ حزب العمل احتاج إلى كبش فداء"[67].

الفصل 17 خاتمي وسياسة التخفيف من التوتر

الحضارة الأميركية تستحقّ الاحترام. عندما نقدّر جذور هذه الحضارة، تصبح أهميتها أكثر وضوحاً.

– الرئيس الإيراني محمد خاتمي، 7 يناير/كانون الثاني 1998

إننا مسرورون بالمباراة التي تقام اليوم بين الرياضيين الأميركيين والإيرانيين. وأنا آمل بأن تكون خطوة أخرى في اتجاه إنهاء حالة التنافر بين بلدينا.

– الرئيس بيل كلينتون (في تصريح قبل مباراة في كرة القدم بين إيران والولايات المتحدة)، 21 يونيو/حزيران 1998

مرّت إيران بما يعتبره البعض ثورة ثانية في 23 مايو/أيار 1997. ففي تحدّ للمؤسسة السياسية والدينية بطهران، استخدم الشعب الإيراني الحيّز المحدود الذي يملكه لإرسال إشارة واضحة إلى النظام الحاكم ومؤداه أنّه يتعيّن أن يبدأ التغيير. توجّه الإيرانيون بأعداد غفيرة إلى صناديق الاقتراع، وانتخبوا شخصية ليبرالية غير معروفة، السيد محمد خاتمي، ليكون رئيسهم المقبل. خاض خاتمي الانتخابات بناء على برنامج انتخابي قائم على تطبيق القانون، والديموقراطية، وتحسين العلاقات مع العالم الخارجي، ونظام سياسي منفتح. بفضل النسبة القياسية لمشاركة الشابات والشباب، حقق خاتمي انتصاراً ساحقاً على خصمه المحافظ. رفع الإصلاحيون، كما بات يُطلق على حلفائه السياسيين، الأجندة البراغماتية للرئيس السابق أكبر هاشمي رفسنجاني إلى مستويات جديدة بالكامل. فالجهود الهادفة إلى تلطيف سياسات إيران الداخلية والخارجية لن تتواصل وحسب، بل وستزداد كثافة بالرغم من المقاومة الشديدة التي تبديها العناصر المحافظة في النظام. ربما كان سجل خاتمي على صعيد الإصلاحات الداخلية محلّ خلاف، لكنّ القليلين شككوا في الدفء الذي جلبته رئاسته إلى العلاقات مع الغرب ومع العالم العربي[1]. لكن في وضع أشبه ما يكون ببداية التسعينيات، كانت علاقة إيران بإسرائيل قصة من نوع آخر.

تحوّل الفضول بشأن القائد الجديد غير المعروف لإيران بعد وقت قصير إلى شغف في العالم العربي وما وراءه. تُوّج ذوبان الجليد بين إيران والعرب في منظمة المؤتمر الإسلامي في ديسمبر/كانون الأول 1997 بطهران، عندما شاركت الدول العربية المجاورة لإيران بوفود بلغ عددها مستوى قياسياً. وربما كان أهم هؤلاء الضيوف وليّ العهد السعودي الأمير عبد الله ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، الذي لم تطأ قدمه إيران منذ العام 1980. تجلّى موقف إيران الجديد من جيرانها ومن المجتمع الدولي منذ البداية. أكّد خاتمي في خطابه الافتتاحي للدول العربية المجاورة على النوايا السلمية لطهران وعلى قبولها بالأنظمة العربية وهذه إشارة على أعلى مستوى إلى التخلّي عن فكرة تصدير الثورة[2]. وردّ وليّ العهد السعودي الأمير عبد الله بالمثل فقال: "مع الإنجازات الخالدة التي حققها الشعب الإيراني المسلم، ومساهماتكم التي لا تقدّر بثمن على مرّ تاريخنا الإسلامي العظيم، لا عجب أن طهران، عاصمة الجمهورية الإسلامية الإيرانية تستضيف هذا التجمّع الإسلامي الهام، وإنه لأمر طبيعي بالنسبة إلى القيادة في هذا البلد الإسلامي أنها تعرف واجباتها ومسؤولياتها تجاه الأمّة الإسلامية عند هذا المفرق الحاسم في تاريخنا المشترك"[3].

بدا أن اعتراف إيران الذي سعت إليه الدول العربية قد وصل أخيراً. في مارس/آذار 1996، وصلت العملية السلمية الإسرائيلية الفلسطينية إلى حالة جمود، والتقى رفسنجاني، الذي كان الرئيس حينها، بعرفات بالعاصمة الباكستانية إسلام أباد، لتخفيف حدة التوتر بين إيران والمعسكر العربي[4]. وفي وقت لاحق من ذلك العام، خففت حكومة رفسنجاني من حدّة خطابها الموجّه ضدّ الزعيم الفلسطيني، فلم تعد تصدر إدانات لعرفات على سعيه إلى حلّ قائم على دولتين، بالرغم من أن طهران واصلت التعبير عن شكوكها في العملية السلمية. هذا التحوّل في طهران يعود جزئياً إلى تشديد إجراءات الخناق على المقاومين الإسلاميين في الأراضي الفلسطينية. بإحكامه سيطرته على غزّة والضفة الغربية، أعطى الزعيم الفلسطيني إشارة، على حدّ تعبير السفير المصري لدى الولايات المتحدة نبيل فهمي، "بأن في إمكانكم اللعب بقدر ما تشاءون على الحدود اللبنانية، لكن إذا كنتم ستلعبون داخل الأراضي الفلسطينية، فسوف تصابون بالأذى". فهِم الإيرانيون الرسالة، وهي أنه لن يعود دعم الجماعات الفلسطينية الرافضة بدون كلفة[5]. لكن الأهم من ذلك، أنّ إيران خففت من حدّة موقفها، بعد أن انقلبت إسرائيل نفسها ضدّ العملية السلمية، وبعد أن تفاقمت التوترات العربية الإسرائيلية، واستفادت من هذه الفرصة الذهبية في تحسين علاقاتها مع الحكومات العربية.

كانت جامعة الدول العربية قد أوصت كافة الدول الأعضاء فيها بتجميد عملية تطبيع العلاقات مع إسرائيل إلى أن تعود حكومة نتنياهو إلى عملية أوسلو. رحّب الإيرانيون بحفاوة بهذا القرار، وبعد انقضاء أسابيع قليلة على انتخاب خاتمي، أشار عرفات إلى أن الرياح الإصلاحية في إيران فتحت الباب أمام فرص جديدة لتحسين العلاقات بين السلطة الوطنية الفلسطينية وإيران[6]. وكما أن الإحساس ببوادر خطر من إيران ساعد على تقريب العرب من إسرائيل، دفع إحباطُ العرب من إسرائيل الحكومات العربية إلى الاقتراب أكثر من طهران[7]. ولم تضيّع إيران الكثير من الوقت في إظهار أنها لا تشكل خطراً على جيرانها العرب، وأن تهويل إسرائيل بإيران لم يخدم سوى في صرف الانتباه عما تصفه طهران بسياسات واشنطن وتل أبيب التي تنذر بالخطر[8]. وبدلاً من أن تكون إيران خطراً على الدول العربية المعتدلة، حان دور إسرائيل الآن لكي يُنظر إليها مجدداً على أنها عدو للدول الإسلامية في المنطقة. وفي إشارة صارخة إلى مدى سرعة التحولات التي رافقت انتخاب خاتمي، أدان وزيرا الخارجية السعودي والإيراني إسرائيل في بيان مشترك. قال وزير الخارجية السعودي للصحافيين في نوفمبر/تشرين الثاني: "هناك توافق على أن السياسات الإسرائيلية تعيق الأمن والاستقرار في الشرق الأوسط"[9].

لم يقتصر انفتاح خاتمي على العرب، فقد ازدهرت العلاقات بين إيران والاتحاد الأوروبي في ظل خاتمي. تم التوصل إلى حلّ لأكبر عقبة

كانت تحول دون تحسين العلاقات بين الطرفين – الفتوى التي أصدرها آية الله الخميني في العام 1989 في حقّ الكاتب البريطاني سلمان رشدي – في خريف العام 1998 عبر مفاوضات جرت بين وزير الخارجية الإيراني كمال خرازي ونظيره البريطاني روبن كوك. صرّحت إيران علناً بأنها لن تنفّذ فتوى الخميني، واصفة إياها بأنها كانت وجهة نظر شخصية للإمام الراحل ولم تكن سياسة الدولة الإيرانية. قال خرازي لكوك: "لا يوجد لدى حكومة الجمهورية الإسلامية الإيرانية نية، ولن تقوم بأي عمل مهما كان نوعه لتهديد حياة مؤلف كتاب **آيات شيطانية** أو أي شخص آخر على علاقة بهذا الكتاب، كما أنها لن تساعد أو تشجّع أي شخص على القيام بذلك". لا يوجد مثال أوضح على انتصار المصلحة القومية على الإيديولوجية[10].

طال انفتاح خاتمي الولايات المتحدة. فبعدد مرور أربعة شهور فقط على تولّيه الرئاسة، منح الرئيس الإيراني الجديد مراسلة محطة سي أن أن، كريستين أمانبور التي وُلدت بإيران وغادرت البلاد فور انتصار الثورة، مقابلة تلفزيونية. في ملاحظات أُعدّت بعناية، حاول خاتمي مدّ اليد مباشرة إلى الشعب الأميركي ومعالجة القضايا العالقة بين واشنطن وطهران، بما في ذلك الإرهاب: إننا نؤمن بما جاء في القرآن الكريم بأن قتل شخص بريء واحد يعادل قتل الناس جميعاً. فكيف يمكن لهذا الدين، ولمن يعلنون أنهم من أتباعه، الضلوع في اغتيال أفراد أبرياء وذبح أناس أبرياء؟ إننا نرفض رفضاً مطلقاً كافة هذه المزاعم... ينبغي إدانة الإرهاب في كافة أشكاله ومظاهره. ويتعين إدانة الاغتيالات. فالإرهاب عديم الجدوى على أية حال ونحن ندينه إدانة مطلقة"[11].

وصل الأمر بخاتمي إلى حدّ التعبير عن أسفه على الاستيلاء على السفارة الأميركية بإيران في العام 1979، ونأى بنفسه عن إحراق العلم الأميركي، وهو مشهد شائع في التجمّعات التي ينظّمها المتشددون بإيران. قال خاتمي إنّه يتعين النظر إلى حرق العلم والشعارات المعادية لأميركا بإيران في السياق الأشمل "لجدار انعدام الثقة" القائم بين الولايات المتحدة وإيران. مع أنّه دعا إلى استخدام لهجة أكثر أدباً، أصرّ خاتمي على أنه لا يُقصد من هذه الشعارات إهانة الشعب الأميركي، وأنها في الواقع بيانات تخدم في التعبير عن رغبة الإيرانيين "بإنهاء نمط العلاقة بين إيران وأميركا"[12].

سارعت واشنطن إلى الردّ على تصريحات خاتمي، فقال مارتن إندك، الذي كان يعمل حينها سفيراً للولايات المتحدة لدى إسرائيل، للمراسلين بأن واشنطن سترحب بحوار مع إيران وأنها تعترف بالحكومة الإسلامية الإيرانية. كان إندك نفسه قد عبّر قبل شهور من ذلك عن اهتمام إدارة كلينتون بالتحاور مع إيران. قال إندك: "أوضحت الولايات المتحدة مراراً وتكراراً أنه لا يوجد لدينا شيء ضدّ حكومة إسلامية بإيران. ونحن مستعدون لإجراء حوار مع الحكومة الإيرانية"[13]. وسرعان ما فُتنت إدارة كلينتون بخاتمي وبفكرة وضع حدّ أخيراً للعداوة التي استمرّت عقدين بين البلدين[14]. وكان يجري تبادل إشارات في السرّ والعلن بين العاصمتين، وهو ما كان يشير إلى إمكانية حدوث خرق وشيك.

هناك ثلاث إشارات صدرت من واشنطن تستحق عناية خاصة. في خطاب رائع ألقته وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت، أصدرت الولايات المتحدة اعتذاراً غير مباشر عن الانقلاب الذي دبّرته وكالة الاستخبارات المركزية ضدّ رئيس وزراء إيران المنتخَب بطريقة ديموقراطية، محمد مصدّق، في العام 1953، واقترحت خريطة طريق لتقارب أميركي إيراني. كما أصدر كلينتون نفسه إشارات أخرى. فأثناء مؤتمر صحفي، عبّر عن تفهمه للاستياء الإيراني من الغرب وقال: "لكنني أعتقد بأنه من المهم الاعتراف بأن إيران تتعرض، بحكم أهميتها الجيوسياسية الفائقة، للكثير من الإساءات من جانب الدول الغربية"[15]. وعشية مباراة في كرة القدم بين فريقي الولايات المتحدة وإيران في بطولة كأس العالم التي جرت بفرنسا في 21 يونيو/حزيران 1998، انتهز كلينتون الفرصة لمبادلة الخطوة التي قام بها خاتمي وخاطب الإيرانيين المولعين بلعبة كرة القدم مباشرة. فقبيل بدء المباراة، بُثّ تصريحه المسجَّل مسبقاً على الهواء في مختلف أنحاء العالم: "إننا مسرورون بالمباراة التي تقام اليوم بين الرياضيين الأميركيين والإيرانيين، وأنا آمل بأن تكون خطوة أخرى في اتجاه إنهاء حالة التنافر بين بلدينا. إنني سعيد بالعمل مع الرئيس خاتمي طوال السنة الفائتة على تشجيع حدوث تبادلات بين الشعبين، وعلى مساعدة مواطنينا على تطوير فهم أفضل للحضارة الغنية للشعب الآخر".

لكن لا دبلوماسية كرة القدم، أو التخفيف من القيود على إصدار تأشيرات السفر، أو التخفيف من حدة الخطاب أعاد الدفء إلى العلاقات بين البلدين. من المثير للسخرية أنّه تبيّن أن العقوبات الاقتصادية والخطاب اللاذع الذي تبنّاه البيت الأبيض على عهد كلينتون أثناء فترة رئاسته الأولى شكّلا العقبة التي كانت تحول دون حدوث تقارب. ففي حين أن إخفاق كل من طهران وواشنطن يكمن أساساً في سوء الاتصال، والإشارات الضائعة، والثقة الإيرانية الزائدة بالنفس، واصلت الخطوات التي تقوم بها إسرائيل واللوبي المؤيد لها وضع العراقيل السياسية على مسار التقارب بين إيران والولايات المتحدة[16]. فسياسة مدّ اليد التي اتّبعها كلينتون أثارت قلق مؤيدي إسرائيل بالولايات المتحدة، وبخاصة لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (إيباك) التي جعلت من احتواء إيران أولوية، وحشدت الدعم ضدّ الشروع في حوار مع إيران[17]. ولكي توضح لواشنطن عدم موافقتها، أمرت وزارة الخارجية الإسرائيلية دبلوماسييها بمقاطعة المؤتمرات التي يخطب فيها مسؤولون إيرانيون بالولايات المتحدة[18].

المحيط الإضافي

لم تصل آثار تحمّس واشنطن وأوروبا للحركة الإصلاحية بإيران إلى إسرائيل أبداً. فالجهود الكثيرة التي بذلها نتنياهو للانفتاح على رفسنجاني لم تثمر عن الكثير بالرغم من أنها خفّضت من حدّة لهجة إيران وتدخلها في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. بحلول العام 1997، وعلى الرغم من فوز خاتمي، زاد تذمّر الحكومة الإسرائيلية من استراتيجية إيران، وبخاصة لاستمرار تطوير البرنامج الصاروخي والبرنامج النووي الإيراني. وبالرغم

من أنّ إسرائيل أقرّت بأن هذه الصواريخ غير عملانية، بدأ حزب الليكود يفقد الثقة بطريقة التعامل مع النظام الديني بإيران[19].

بالمقابل، بدأ نتنياهو في مستهل العام 1997 استخدام اللغة ذاتها والخطاب نفسه الموجّه ضدّ إيران كما فعل أسلافه. وبناء على ذلك، قام بعكس قراره السابق، وأشار إلى أن إيران أشدّ خطراً من العراق لأن "لديها طموحات عالمية. إنها إيديولوجيا"[20]. وقال للقادة اليهود الأميركيين بأن حكومته "ستحيط الحكومة الروسية علماً بعبارات لا لَبْس فيها" بموقف إسرائيل من المساعدة التي يُزعم أن روسيا تقدّمها للبرنامج الصاروخي الباليستي الإيراني[21]. كما اتهم إيران بمحاولة تطوير صواريخ يمكن أن تطال الولايات المتحدة. قال نتنياهو: "نحن نعتقد بأن إيران عازمة على تطوير صواريخ باليستية، لكي تطال إسرائيل أولاً، ثم أوروبا، إلى أن تبلغ مدى مقداره 10000 كيلومتر؛ مما يعني أنها تستطيع الوصول إلى الساحل الغربي للولايات المتحدة"[22]. وبالرغم من أن البرنامج الصاروخي الإيراني كان لا يزال في مراحله الأولى، فقد شكّل تحدياً من نوع جديد لإسرائيل. فعلى العكس من الصواريخ التي تملكها سوريا – وهي بلد يمكن لإسرائيل أن تثأر منه بسهولة – يوجد هذا الخطر الصاروخي الجديد خارج الحدود العملانية تقريباً لسلاح الجو الإسرائيلي[23].

كان لانتخاب خاتمي تأثير طفيف في الخطاب التحذيري الإسرائيلي. فبعد أيام قليلة على النصر الساحق الذي حققه الإصلاحيون، حذّر وزير الخارجية الإسرائيلي ديفيد ليفي إيران من أنه إذا لم تغيّر الأساليب التي تتّبعها، فستواجه تحالفاً دولياً مثل التحالف الذي حارب العراق في العام 1991[24]. قوبل التركيز الإسرائيلي على الخطر الصاروخي الإيراني المزعوم في البداية بالشكوك بواشنطن. فبما أنه لم يكن في حوزة إيران أية صواريخ بعيدة المدى في ذلك الوقت، وبالنظر إلى التزام نتنياهو الصمت حيال إيران طوال أكثر من تسعة شهور فيما كان يشدد على الخطر العراقي، أثار التحوّل الإسرائيلي الكثير من علامات الاستفهام في إدارة كلينتون. كان الأميركيون قد أُصيبوا بالإحباط أصلاً بسبب عدم استعداد نتنياهو لتحريك عملية السلام، وخشيت واشنطن من أن الحديث عن خطر صاروخي كان أسلوباً تضليلياً. يقول ديفيد ماكوفسكسي من معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى: "اعتقد البعض في إدارة كلينتون أن تركيز نتنياهو على قضية الصواريخ الإيرانية كان طريقة لتغيير القناة عن النواحي المثيرة للمشاكل في عملية أوسلو"[25].

لم تكن الشكوك الأميركية بدون أساس، فاليمين الإسرائيلي يسعى بشكل تقليدي إلى صرف تركيز واشنطن بعيداً عن الصراع الفلسطيني. يقول شلومو بن عامي، وزير الخارجية المغربي المولد في حكومة إيهود باراك: "بالنسبة إلى الجميع، كان من المناسب أن تصبح إيران القضية الرئيسية في نظر الغرب لأنه بهذه الطريقة، دخلنا في قضية أكبر، وأحلنا مشكلتنا مع الفلسطينيين إلى مرتبة ثانوية"[26]. لكن نتنياهو لم يتراجع عن موقفه محذراً الولايات المتحدة من أن "الاقتصاد العالمي بأكمله سيصبح رهينة لدى إيران" في حال امتلكت طهران صواريخ باليستية، وأن إيران تخطط للسيطرة على المنطقة والتحول إلى قوة عالمية[27]. قال للمراسلين في نوفمبر/تشرين الثاني 1997: "يبدو الأمر خيالياً ولكن إيران تريد أن تكون قوة عالمية وذات إيديولوجيا عالمية قائمة على الهيمنة الأصولية، وترى في الغرب عدوها الأكبر"[28].

أدّى فشل نتنياهو في مدّ اليد إلى حكومة رفسنجاني إلى أن تتوصل إسرائيل إلى الاستنتاج بأن عداوة إيران ستبقى مهما تكن طبيعة النظام فيها، مما سيحوّل القدرات الإيرانية إلى خطر يهدد إيران نفسها، وبما أن إيران لا تزال تشكك في حق إسرائيل في الوجود، شعرت إسرائيل بأنه لا يوجد خيار أمامها سوى التحلّي بالحذر حيال قوة إيران، حتى وإن لم تكن أفعال إيران بحجم أقوالها. رأت تل أبيب أنه لا يوجد خيار أمامها سوى التأثير في قدرة إيران على العمل بموجب لغتها القاسية الموجهة ضدّ إسرائيل وذلك بإفشال البرنامج الصاروخي والبرنامج النووي الإيراني. يقول رنعان غيسين المتحدث السابق باسم رئيس الوزراء أرييل شارون: "الاعتدال في إيران لا يعني أنها ستوقف برنامجها النووي. فحتى في حال تغيّر النظام، سيكون لهذه المجموعة الصغيرة من الأصوليين تأثير في إيران. كما أنني لم أرَ بلداً أوقف برنامجه النووي ما لم يُجبر على ذلك... لكنهم لن يتوقفوا بمحض إرادتهم، حتى وإن تغيّر النظام"[29].

تسبب هذا الوضع لإسرائيل بمشكلة عويصة. فالفشل في مدّ اليد لإيران، وعدم استعداد الليكود لمواصلة العملية السلمية مع الفلسطينيين جعلا إسرائيل في وضع أصبح فيه كل من الدائرة الداخلية والمحيط – الذي كان التقدم التكنولوجي فيه يقترب أكثر من إسرائيل– يشكّل خطراً. حتى عندما أدى الفشل في الفوز بإيران مجدداً إلى إسكات المدافعين القدامى عن المبدأ المحيطي الذين لم يتزعزع إيمانهم بإمكانية التوصل إلى اتفاق تفاهمي إيراني إسرائيلي نتيجة لثورة العام 1979، ظلّ المنطق المحيطي قوياً في العقل الإسرائيلي وبات يكشف عن نفسه من خلال تفسيرات جديدة[30].

بعد أن اقتنعت إسرائيل بأنها لا تستطيع إبرام سلام لا مع دول الجوار العربي ولا مع المحيط الفارسي، أملى منطق المبدأ المحيطي استنتاجاً مفاده أن إسرائيل بحاجة إلى موازنة كل من العرب وإيران عبر التحالف مع الدول الصديقة الواقعة في ما وراء المحيط. يقول العضو في الكنيست إفرايم سنيه وأحد المدافعين الرئيسيين عن هذه النظرة: "انظر، هناك المبدأ المحيطي الجديد والمحيط الجديد. كان المحيط القديم يهدف إلى تطويق أعداء إسرائيل من العرب، وبات هذا الوضع ينطبق على إيران الآن. ينبغي أن يكون لدينا محيط جديد لتطويق إيران". في العام 1996، تحدّث سنيه في كتابه Israel After the Year 2000 عن الحاجة إلى إضعاف إيران عبر الاستثمار في ما أطلق عليه المحيط الجديد[31]. في استراتيجية المحيط الإضافي، يتألف المحيط الجديد من الدول الواقعة في كل من المحيط القديم والمحيط الجديد. تعتبر تركيا الدولة الأكثر أهمية في المحيط القديم، وهي دولة ذات غالبية إسلامية مثل إيران، وغير عربية. والهند هي الدولة الأكثر أهمية في المحيط الجديد؛ إنها إيران الجديدة. فهي دولة غير عربية، وأغلب سكانها ليسوا مسلمين، وتقع على المحيط الخارجي للشرق الأوسط وهو ما جعلها وفقاً للنظر الاستراتيجية لحزب الليكود

بديلاً عن إيران. والبلاد الأخرى المنتمية إلى المحيط الجديد تقع في القوقاز وجمهوريات آسيا الوسطى[32].

بالكاد كان يُعتبر بروز المثلث الإسرائيلي التركي الهندي أمراً غير متوقع. فهو يمثّل التطور المنطقي لزوج من العلاقات الاستراتيجية التي رسمت مسارات مشابهة طوال معظم فترة التسعينيات[33]. في الواقع، كان لغزاً، في نظر العديد من الاستراتيجيين الإسرائيليين، السبب الذي جعل الهند تنتظر كل هذه المدة قبل أن تكتشف المسار الهندي الإسرائيلي المشترك. يقول يوسي ألفير، وهو أحد مستشاري باراك وضابط سابق في الموساد: "كان هناك سؤال يُطرح دائماً وهو ما العيب في الهنود؟ لماذا يسعون إلى أن يكونوا قادة حركة عدم الانحياز المليئة بالدول الإسلامية المعادية في ما نحن نُعتبر حلفاءهم الطبيعيين؟"[34] بالرغم من أنّ الروابط الاستراتيجية مع الهند وتركيا خدمت غايات عدّة، كان إضعاف إيران الغاية الأكثر أهمية بالنسبة إلى الدولة اليهودية[35].

أهم خطر أوجدته إيران على إسرائيل بعد العام 1996 كان قدرتها على البروز كقوة إقليمية يمكنها تحدّي الاحتكار العسكري والنووي الإسرائيلي والحدّ من قدرة الدولة اليهودية على المناورة السياسية والعسكرية[36]. لم يكن بالضرورة أن يكون التعرض لهجوم نووي إيراني في حدّ ذاته على قمة لائحة المخاوف الإسرائيلية. فإيران لا تفتقر إلى هذه القدرة وحسب، بل وحتى عندما أصبح برنامج إيران الصاروخي عملانياً، لم يكن في مقدورها تدمير إسرائيل بدون أن تجلب الدمار على نفسها بسبب قدرة إسرائيل على توجيه ضربة ثانية. فمن خلال غواصاتها النووية الألمانية الصنع، ستكون إسرائيل قادرة على الثأر من هجوم نووي تشنّه عليها إيران، مما يوفر لإسرائيل قوة ردعية منيعة. يقول غيسين: "بغض النظر عن الإجراء الذي يتخذونه، لا يمكنهم تدمير قدرة إسرائيل على الردّ"[37]. لكن يمكن لإيران الصاعدة على أقل تقدير أن تتحدى التصوّر القائم على تفوق إسرائيل العسكري وعلى قدرتها على المناورة التي تحلّت بها نتيجة لهذا التصوّر. ويجادل عموس جلعاد بأن ذلك "سيعرض للخطر صورتنا بأننا قوة عظمى لا يمكن إنزال الهزيمة بها"[38].

من شأن ذلك أن يقوّي منظمات مثل حزب الله، لأنها ستشعر بأن في مقدورها العمل تحت حماية المظلّة الإيرانية[39]، وستصبح الخيارات المتوفرة لإسرائيل في الردّ محدودة بدرجة كبيرة في حال كان من الممكن أن يؤدي التصعيد مع حزب الله إلى ردّ من إيران الواثقة من نفسها. يقول جلعاد: "إذا امتلك الآخرون قنبلة نووية، فسيردعون إسرائيل، ويكبّلون أيديها، ويمنعونها من كافة أشكال الردّ الانتقامي. وهذا أمر على قدر عظيم من الأهمية"[40]. في مثل هذه الظروف، يمكن أن تُجبر إسرائيل على القبول بتقديم تنازلات على صعيد الأراضي كان في مقدورها تجنّبها لولا ذلك. يشرح سنيه هذه المسألة فيقول: "سيوفر ذلك للعرب القدرة على الابتزاز النووي. وأنا لا أريد أن تُعقد المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية في ظل قنبلة نووية إيرانية"[41].

لكن هذه المخاوف لا تعني أن إسرائيل سترفض مدّ يدها لإيران بين الحين والآخر حتى وإن كانت آمالها ضعيفة بحدوث خرق مع حكومة خاتمي. ففي أكتوبر/تشرين الأول 1997، سعى وزير الخارجية أريبل شارون إلى سداد دين مالي إسرائيلي قديم لإيران يرجع إلى أيام الشاه وذلك عبر روسيا وبمساعدة جمعية الصداقة الإسرائيلية العربية، وهي منظمة سعت إلى تحسين العلاقات الإسرائيلية الإيرانية عبر القبول بدور إيران وتطلعاتها في المنطقة. وقال يهوشوا ميري، رئيس الجمعية، لصحيفة جيروزالم بوست: "إذا كانت إسرائيل ستعطي إيران منزلة قوة إقليمية، يمكن أن يحدث تكامل في المصالح"[42]. اعتقد شارون أن تسوية الدَّين ستساعد على تخفيف التوتر مع إيران وعلى فتح قناة مع حكومة خاتمي. وقد حظي بدعم عناصر داخل الأوساط الاستخبارية الإسرائيلية الذين جادلوا بأن التحاور مع إيران أمر ضروري وممكن في آن.

لكن وزير الدفاع عارض فكرة شارون، وجادل بأن زيادة تدفق الأموال على إيران ستكون أشبه بمساعدة مباشرة لأكبر عدو لإسرائيل على امتلاك صواريخ بعيدة المدى وقدرات نووية. في إشارة إلى التناقض في الانفتاح على إيران فيما تعمل إسرائيل على عزل إيران على الساحة الدولية، جادل مسؤولون في وزارة الدفاع بأنه "سيكون خطأً فادحاً إعادة الأموال إلى إيران... إنه لأمر لا يتصوره عقل أنه ينبغي على نتنياهو من ناحية التصريح بأن إيران هي عدونا الأول وأنه ينبغي على رجاله إقناع البلدان المختلفة بالمشاركة في الحظر الذي تفرضه الولايات المتحدة، في حين أن وزيراً رفيع المستوى يقوم بخطوة من ناحية أخرى لإعادة المال. إننا ببساطة نجعل من أنفسنا أضحوكة أمام الناس"[43]. ففي النهاية، إسرائيل جعلت من نفسها حجر عثرة كبيراً يحول دون حدوث تقارب أميركي إيراني[44].

سبق أن تسبب التناقض بين سياسات إسرائيل الخاصة بإيران وبين ما تطلبه إسرائيل من واشنطن ببعض الانزعاج في أميركا. فعلى سبيل المثال، ثارت ثائرة صناعة الفستق الأميركية عندما أغرق الفستق الإيراني الأسواقَ الإسرائيلية على حساب الفستق المنتج بكاليفورنيا[45]. وبالرغم من أن حجم هذه التجارة كان ضئيلاً – 185 مليون دولار في العام 1997 و360 مليون دولار في العام 1998– فقد كانت قيمته الرمزية كبيرة لأن إسرائيل نجحت في الضغط على واشنطن من أجل قطع كافة روابطها التجارية مع إيران[46]. وكُشف النقاب في وقت لاحق عن شركات إسرائيلية لم تتعاقد من أجل شراء الفستق وسلع تجارية أخرى مع إيران وحسب، بل وتعاقدت على موادّ كيمائية ومعدات عسكرية[47]. بدورهم، لم يسمح الإيرانيون للإيديولوجيا بأن تقف في طريقهم. يقول نائب وزير الخارجية هادي نجاد حسينان: "هناك سارق سرق أموالنا، فلماذا نأبه لإيديولوجيته؟"[48]

بدأت مفاوضات تمهيدية حول الدين – الذي قُدّر بنحو ملياري دولار، بالإضافة إلى الفائدة– ولكنها أوقفت لاحقاً بناء على أوامر من

نتنياهو[49]. (تم رفع القضية في وقت لاحق إلى التحكيم في محكمة العدل الدولية في لاهاي، ولا تزال إلى الآن بدون حلّ). إن إخفاق إسرائيل في ترميم العلاقات مع رفسنجاني، واقتناعها بأن إيران ستظل معادية لها مهما كانت الأحوال، ومبدأها العسكري الذي يقول بأنه يتعين شلّ القدرات الإيرانية، وخوفها من احتمال أن تقدم إدارة كلينتون على التضحية بها لإبرام صفقة مع خاتمي، دفعتها كلها إلى صرف النظر عن تغيّر موقفها من إيران في عهد خاتمي.

سياسة إيران الجديدة تجاه إسرائيل

لم تقتصر براغماتية خاتمي على الولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي، والعرب. فبروز الإصلاحيين بإيران كثّف من جهود طهران للاندماج مع المجتمع الدولي[50]. وهذا ما أثّر في موقف إيران من إسرائيل أيضاً. فسياسة إيران، والأهم من ذلك، موقفها من إسرائيل تغيّرا كثيراً في عهد خاتمي[51]. فيما بدأت استثمارات إيران في تحسين العلاقات مع الحكومات العربية تؤتي ثمارها، تراجعت حاجة إيران إلى الشارع العربي، وكذلك حاجتها إلى معاداة إسرائيل ومعارضة العملية السلمية[52]. وكلما قويت علاقات إيران بالعرب والاتحاد الأوروبي، كلما زاد انعزال إيران عن التطورات الفلسطينية الإسرائيلية.

بعد نجاح مؤتمر منظمة المؤتمر الإسلامي بطهران في العام 1997، اعتقدت حكومة خاتمي أن علاقاتها مع الدول في المنطقة أصبحت قوية بما يكفي لكي تتحمل إيران نتائج أي اتفاق إسرائيلي فلسطيني. بالمختصر لم تعد العملية السلمية تشكل خطراً على وضع إيران في المنطقة[53]. تمثلت الخطوة الأولى في التخفيف من حدّة الخطاب الإيراني. وبالرغم من أن العديد من الإصلاحيين كانوا أكثر تحمساً لمعارضة الدولة اليهودية من نظرائهم المحافظين، وبالرغم من أنهم اعترفوا بأن الموقف الإيراني المتشدد كان ضرورياً للردّ على أخطار عملية أوسلو في الفترة الواقعة بين عامي 1994 و1995، فقد بقوا على اعتقادهم بأن المعارضة الصريحة والملموسة للعملية السلمية أضرّت بصورة البلاد وعملية إفشال سياسة الاحتواء[54].

في نظر الإصلاحيين، يمكن الردّ على جهود إسرائيل وأميركا لبناء نظام جديد في المنطقة على حساب إيران بدون دعم الجماعات الفلسطينية والدفع بإيران نحو الدخول في صراع أعمق مع الغرب. مضى وزير الداخلية الصريح عبد الله نوري في حكومة خاتمي إلى حدّ الخوض في أحد المحرمات القديمة في الجمهورية الإسلامية وذلك بمناقشته علناً حلولاً بديلة للقضية الفلسطينية عن تلك التي اقترحها خاتمي نفسه: "بما أن الدول العربية لا تحبّذ الدخول في حرب، بأي قوة سياسية، أو اقتصادية، أو عسكرية نريد أن نحارب إسرائيل؟ ما الذي يجنيه الإيرانيون من هذا الموقف، باستثناء تحمّل اللوم على دعمهم للإرهاب؟ يوجد لدى الفلسطينيين اليوم حكومة نحن نعترف بها، وهي مكلفة باتخاذ القرارات نيابة عن شعبها. صحيح أن الوضع الحالي ليس مثالياً، لكن يتعين علينا التكيف مع الحقائق وألاّ نكون وعاء أكثر سخونة من الحساء"[55].

جادل الإصلاحيون بأن استخدام الإرهاب كأداة سياسية أثبت أنه عالي الكلفة، وهم يشيرون بذلك إلى أن إيران نفسها كانت ضحية كبيرة للإرهاب[56]. وأضافوا بأن سلاح الإرهاب الذي كان في يد رفسنجاني مكّن إسرائيل أيضاً من إلحاق مزيد من الضرر بالعلاقات الأميركية الإيرانية[57]. ففي المقابلة التي أجراها خاتمي مع محطة سي أن أن، أدان الإرهاب الذي يستهدف الإسرائيليين، بالرغم من أنه حذّر بأن دعم حركات التحرر مسألة مختلفة تماماً. قال خاتمي لمحطة سي أن أن: "إن دعم الأشخاص الذين يقاتلون من أجل تحرير أرضهم لا يعدّ في رأيي دعماً للإرهاب"[58]. بعد ذلك، وفي عودة ملفتة إلى السياسة الأولى التي اتبعها رفسنجاني، لم يستبعد خاتمي إمكانية وجود دولة إسرائيلية على أرض فلسطين التاريخية[59]. لم يكن تصريح خاتمي موجهاً إلى المستمعين الغربيين فقط؛ فقبل شهر من ذلك، جادل الرئيس الإيراني عذب اللسان في الخطاب الذي ألقاه في قمة منظمة المؤتمر الإسلامي بأن الحل القائم على دولتين حل مقبول.

مع شعور إيران بأنها تفوقت في المنافسة الإسرائيلية الإيرانية في المنطقة؛ أرادت إيران تعزيز مكاسبها عبر التخفيف من التوترات مع إسرائيل وإرغامها على عدم السعي إلى إفشال التقارب الأميركي الإيراني[60]. يقول أحد مستشاري خاتمي: "يوجد مصلحة في أن نظهر لإسرائيل أننا سنكون سعداء بأي حل للصراع"[61]. وفي محادثات شبه رسمية استضافها منتدى فكري اسكندينافي مع الأميركيين، قال مسؤولون في وزارة الخارجية الإيرانية وأكاديميون بأن "الجدال حول إسرائيل قد انفجر" وأنه لم يعد أمام إيران خيار سوى القبول بحل قائم على دولتين، وشرحوا في إشارة إلى محاوريهم الأميركيين بأن الحكومة الإيرانية تتقبّل فكرة أن إسرائيل حقيقة في المنطقة "سيكون من الصعوبة بمكان على إيران القيام بأي شيء سوى القبول بهذا الحل"[62].

لعبت الحجج التي ساقها نوري في ذلك النقاش دوراً حاسماً. تساءل نوري "ما هو المنطق في امتلاك كل شخص الحق في التحدث واتخاذ قرارات تتعلق بفلسطين والفلسطينيين في حين أن الفلسطينيين أنفسهم لا يملكون هذا الحق؟ لماذا ندّعي حق فرض آرائنا عليهم؟" كان العديد من الإصلاحيين في معسكر خاتمي من أشدّ المعارضين لوجود الدولة اليهودية، لكنهم شعروا بأن العبء الثقيل للقضية الفلسطينية يتعين أن يُرفع عن كاهل إيران[63]. شرح نائب وزير الخارجية الإيراني السابق عباس مالكي المسألة فقال: "لا نريد أن نكون كاثوليكيين أكثر من البابا. عندما يجد الفلسطينيون رغبة في التفاوض، لماذا ينبغي على إيران أن تصرّ على عدم إجراء مفاوضات؟"[64] كشف النقاش عن أنه بات يُنظر إلى القضية

الفلسطينية على نحو متزايد على أنها مسألة وطنية لا مسألة دينية، كما أراد آية الله الخميني لها أن تكون.

بالرغم من أن خاتمي لم يكرر تلك الحجج علناً، عادت إيران ببطء إلى الموقف الذي كانت عليه قبل أوسلو من القضية الفلسطينية. بناء على ذلك، ستقبل إيران – ولكنها لن تدعم بشكل نشط بالضرورة – أي حل يوافق الشعب الفلسطيني عليه، مع الاحتفاظ بحق انتقاد أي اتفاق تراه غير عادل (لكن بدون القيام بأي أعمال ملموسة ضده)[65]. يشرح محمد رضا دهشيري من وزارة الخارجية الإيرانية موقف إيران فيقول: "لن نتدخل في العملية السلمية، ولكننا سنعبّر عن آرائنا. فنحن نملك حق التعبير عن وجهات نظرنا، ولكن ذلك لا يعني التدخل في العملية السلمية. سنقبل بالموقف الفلسطيني من غير أن ندعمه"[66]. وفي تعبير عن الالتزام بتقاليد السياسة الخارجية الإيرانية، أبقت إيران على انتقادها الشديد لإسرائيل، وواصلت حكومة خاتمي رفضها التفاوض مع الدولة اليهودية مع دعمها الصريح للقضية الفلسطينية. لكن بدلاً من الدعوة إلى تدمير إسرائيل، سعى خاتمي إلى حمل المجتمع الدولي على التركيز على خطر ترسانة الأسلحة النووية الإسرائيلية غير المعلَن عنها وحثّ المنظمات التي تدافع عن حقوق الإنسان على إدانة الأعمال الإسرائيلية في الأراضي المحتلة[67]. في المجالس الخاصة، قال المسؤولون الإيرانيون للمسؤولين الأوروبيين والأميركيين بأنه لا يوجد في الثورة شيء يجعل الحل القائم على إنشاء دولتين غير مقبول بالنسبة إلى إيران[68]. بالرغم من خطاب إيران السابق، قالوا بأن طهران لم تسعَ إلى تدمير إسرائيل، وأشاروا إلى حقيقة أن خاتمي نفسه لم يشكك في حق إسرائيل في الوجود.

أشار المسؤولون الإيرانيون مراراً إلى هذا التحوّل في سياسة إيران، وكانوا يتوجّهون بذلك مباشرة بين الحين والآخر إلى المسؤولين الإسرائيليين. واستناداً إلى صحيفة يديعوت أحرنوت الإسرائيلية، التقى سفير إيران لدى الأونيسكو، أحمد جلالي، سرّاً بكبير الحاخامات الإسرائيليين إلياهو باكشي دورون في مؤتمر عُقد بالغرب في فبراير/شباط 1998. وأفيد بأن جلالي قال لباكشي دورون الذي هاجر إلى إسرائيل من إيران، بأن "إيران ليست العراق وأنها لن تهاجم إسرائيل أبداً"[69]. وذكرت يديعوت أحرنوت في وقت سابق من ذلك الشهر أن نائبة الرئيس الإيراني معصومة ابتكار قالت للصحيفة في المنتدى الاقتصادي العالمي الذي عُقد في مدينة دافوس بسويسرا إن إيران عاكفة على إعادة النظر في سياستها تجاه إسرائيل، وأنها سترحب بالدخول في حوار مع إسرائيل في المسائل التي لا علاقة لها بالسياسة[70]. أنكرت ابتكار في وقت لاحق المزاعم بأنها أجرت مقابلة مع الصحيفة الإسرائيلية، وكررت القول بأن إيران لن تعترف بالدولة اليهودية[71]. (عملت ابتكار في العام 1979 عندما كانت طالبة في الثامنة عشرة من عمرها مترجمة أثناء الاستيلاء على السفارة الأميركية، وأطلقت عليها وسائل الإعلام الأميركية لقب الأخت ماري. وعلى غرار العديد من رفاقها الذين احتجزوا الرهائن، تحوّلت إلى المعسكر الإصلاحي في منتصف التسعينيات).

بعد ذلك بعام واحد، أفادت صحيفة هآرتز الإسرائيلية بأن إيران تقدمت من الإسرائيليين، عبر الحكومة البريطانية، بطلب التفاوض مع الإسرائيليين على معاهدة تتعلق بالصواريخ. أشار التقرير الذي لم يتم التأكد من صحته أن الإيرانيين أكدوا للإسرائيليين أن بناءهم لترسانتهم العسكرية ليس موجهاً ضدّ إسرائيل وإنما ضدّ البلدان الأخرى التي ترى فيها خطراً إقليمياً، والعراق على وجه الخصوص[72]. بالرغم من أن الإيرانيين أصرّوا على أنهم لم يتحدثوا مطلقاً إلى مسؤولين إسرائيليين أو إلى الصحف، إلاّ أنهم غالباً ما كانوا ينتهزون تلك الفرص في توضيح موقف إيران من إسرائيل في المقابلات العامة. ففي حديث مع هوشانغ أمير أحمدي من المجلس الأميركي الإيراني، أفصح سفير إيران لدى الأمم المتحدة جواد ظريف عن الموقف الجديد لإيران:

أمير أحمدي: الانطباع العام هو أن السياسة الرسمية تعمل على تدمير إسرائيل.

ظريف: إيران لا تعترف رسمياً بإسرائيل. لكن ذلك لا يعني القيام بأي عمل ضدها. لقد أوضحت إيران بجلاء تام أنها لا تسعى إلى المعاداة أو الدخول في صراع مع أحد. وأوضحت إيران بجلاء تام وبأقصى العبارات العمومية والقاطعة أننا لا نسعى إلى معاداة أحد. وفي نفس الوقت، نحن لا نخجل من التعبير عن موقفنا الرافض للاعتراف بإسرائيل. وهذا موقف سياسي تبنّيناه، ونحن نعتقد بأن هذا الموقف لا يتعارض مع القبول بأي حل يتوصل إليه الفلسطينيون، وأعني أن أي شيء يقررونه سيكون قرارهم. إذا كان سيجلب الأمن والاستقرار إلى المنطقة، فسوف يرحّب به الجميع.

أمير أحمدي: بلدان، دولتان. هل هذا الحل مقبول من جانبكم؟

ظريف: إذا كان مقبولاً لدى الشعب الفلسطيني، فلن يكون لدينا شيء ضدّه.

أمير أحمدي: إذاً أنتم ترون أن بعض الأراضي التي يُطلق عليها إسرائيل شرعية؟

ظريف: المشكلة هي في الاحتلال المتواصل للأراضي الفلسطينية. وبعد أن يتم التوصل إلى حلّ لتلك المشكلة، علماً بأن كيفية حلها تعتمد على الفلسطينيين والإسرائيليين، يصبح الأمر مختلفاً حينها... لكن اتخاذ القرار لا يرجع إلينا، بل يرجع إلى السكان الذين يعيشون في تلك الأراضي. في وسعنا عرض تحليلنا وحسب، وحتى التقدم باقتراحات حول ما نراه إيجابياً ويمكن أن يؤدي إلى الأمن والسلام.

أمير أحمدي: وسياستكم لا تنصّ على تدمير المجتمع الإسرائيلي؟

ظريف: سياستنا لا تنصّ على تدمير أي مجتمع[73].

ضاع في أثناء الترجمة الناحية الأكثر حساسية في السياسة التي ينتهجها خاتمي في التعاطي مع إسرائيل. بالاعتراف بحل قائم على دولتين، ستمنح إيرانُ إسرائيل اعترافاً غير مباشر. وقلّة هم المتابعون في الغرب الذين انتبهوا إلى هذا التحول الدقيق ولكن الحاسم. وهذا ما كان مدعاة إلى شعور حكومة خاتمي بإحباط كبير وهو ما اعتبرته مؤشراً آخر على عدم مرونة واشنطن في تعاملها مع إيران[74].

باراك لا يرى سوى لبنان

على الرغم من تلقّي "إشارات استراتيجية من خاتمي بأنه تجري مراجعة السياسة الإيرانية"، دفع منطق المحيط الزائد حكومةَ نتنياهو إلى التركيز على إيران كخطر محتمل[75]. تكرر هذا الإهمال نفسه للإشارات الصادرة من طهران في عهد خليفة نتنياهو، زعيم حزب العمل إيهود باراك. كان باراك، الجندي الحائز على أكبر عدد من الأوسمة في تاريخ الجيش الإسرائيلي، قد انتقد، عندما كان رئيساً لهيئة أركان الجيش، توجّه إسحاق رابين وشمعون بيريز في التعاطي مع إيران قائلاً بأنه سيعود بنتائج عكسية[76]. وصرّح في العام 1993 بأن الخطر الحقيقي هو العراق، وبقي مؤمناً بوجهة النظر هذه إلى حدّ ما عندما هزم نتنياهو في الانتخابات التي جرت في 17 مايو/أيار 1999.

مع عودة حزب العمل إلى تولّي السلطة، أصبح إنهاء الاحتلال الإسرائيلي للبنان ومعالجة القضايا السورية والفلسطينية على قمّة أولويات إسرائيل مرّة أخرى، في حين اعتُبرت إيران مشكلة أقل أهمية. وقال لي بن عامي: "لم تكن إيران على جدول أعمالنا في الواقع. خلال تلك السنتين، أعتقد بأن جدول الأعمال ركّز على هاتين المسألتين المحددتين، المسألة الفلسطينية والمسألة السورية. وأنا لا أذكر اجتماعاً وزارياً واحداً – من اجتماعات الوزارة المصغَّرة التي يُطلق عليها اسم وزارة السياسة الخارجية والدفاع – كانت فيه إيران على جدول الأعمال"[77]. لكن إيران عادت ببطء لتظهر على شاشة الرادار الإسرائيلي لثلاثة أهداف رئيسية.

عانت علاقات إيران مع حزب الله من نكسة بعد أن أخفقت إيران في مدّ يدها إلى الولايات المتحدة في مستهل التسعينيات. فنظرة رفسنجاني المعتدلة، وتلهّفه إلى إبرام صفقة مع واشنطن، أثارا سخط العديد من العناصر المتشددة في تلك المنظمة اللبنانية. وساد إحساس بالهجران في وادي البقاع مع تراجع مستوى التعاون الإيراني مع حزب الله[78]. لكنّ مؤتمر مدريد وعملية أوسلو عكسا حظوظ حزب الله. ففي ظل غياب علاقات متينة مع المنظمات السنّية الفلسطينية، احتاجت إيران إلى حزب الله لمجابهة النفوذ المتزايد لإسرائيل. من خلال المقاتلين الشيعة بلبنان، يمكن لإيران أن تجمع معلومات استخبارية فضلاً عن إلحاق خسائر كبيرة بالدولة اليهودية بسبب الضغوط التي مارستها على الولايات المتحدة لكي تعمل ضدّ إيران. الأهم من ذلك أنه باستخدام حزب الله، لن تحتاج إيران إلى صواريخ باليستية متطورة لضرب إسرائيل. ويشرح بن عامي هذا الوضع فيقول: "كان حزب الله الذراع الطويلة لإيران"، وتمكن مقاتلوه من تحويل إيران إلى دولة محاذية. "كانت سياستهم الرئيسية عرقلة العملية السلمية، وأفضل طريقة لعرقلة العملية السلمية كانت في مضايقة القوات الإسرائيلية بلبنان".

رأى العديد من الإسرائيليين في التعاون القائم بين إيران وحزب الله نذيراً أكثر شؤماً من الاتصالات التي تجريها إيران مع الجماعات الفلسطينية الرافض للعملية السلمية. جادل هؤلاء بأنه بدون العلاقة بين إيران وحزب الله، يمكن أن تتطور العلاقات الإسرائيلية الإيرانية نحو الأفضل. يقول الجنرال أمنون شاحاك، الذي خلف باراك وأصبح الرئيس الخامس عشر لهيئة أركان الجيش الإسرائيلي في العام 1995: "النقطة العالقة لم تكن مع الفلسطينيين، ولا مع النظام، وإنما مع حزب الله"[79]. ويجادل آمي أيالون، مدير المخابرات السرّية الشين بيت، بأن إيران لم تزوّد حزب الله بآلاف المقذوفات والصواريخ التي يمكن أن تطال معظم الأجزاء الواقعة في شمال إسرائيل وحسب، بل وأعطت توجيهاتها للمنظمة اللبنانية بإعداد بنية تحتية تمكّنها من تنفيذ عمليات داخل إسرائيل[80]. ومع ارتفاع كلفة احتلال جنوب لبنان وتراجع شعبيته، بدأت إسرائيل تشعر على نحو متزايد بأن الاحتلال تحول إلى مصيدة. فبدلاً من أن يوفّر الأمن لإسرائيل، وفّر فرصة لإيران لكي تحرج إسرائيل. يقول بن عامي: "شعرنا بأننا أُخذنا رهائن"[81].

ثانياً: وفّر الغزو الإسرائيلي للبنان فرصة لإيران لكي تؤثر في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني بشكل غير مباشر من خلال تأثيرها في لبنان. فعلاقات إيران مع حزب الله جعلتها دولة مفسدة أكثر اقتداراً، وهي حقيقة لم يكن في مقدور حكومة باراك تحمّل إهمالها مع استعداداتها لإعادة إطلاق العملية السلمية. كانت إسرائيل قد لاحظت اهتمام إيران باستخدام حزب الله في اختراق المناطق الفلسطينية، وشعرت حكومة باراك بالقلق من أن إيران ستزيد من حدّة سياساتها المعادية لإسرائيل بعد أن تعود العملية السلمية إلى مسارها. ويشير بن عامي إلى أن حكومة باراك "لم تكن مهتمة بالتوصل إلى اتفاقية سلام بين إسرائيل والعالم العربي، ويرجع ذلك على الأرجح إلى أن ذلك كان سيفرض مزيداً من العزلة على إيران"[82].

أخيراً، وكما حصل في مرّات عديدة سابقة، عزّز اهتمام إدارة كلينتون بخاتمي المخاوف من أن واشنطن ستبرم صفقة مع طهران وتهجر إسرائيل[83]. مع أن مثل هذا السيناريو كان مستبعداً، لم تكن الحكومة الإسرائيلية على استعداد للمجازفة. في هذا السياق، قال لي الرئيس السابق لجهاز الموساد إفرايم هالفي: "عندما تبدأ المفاوضات، فأنت تعرف من أين تبدأ، ولكنك لا تعرف دائماً إلى أين ستنتهي. هناك خوف من أن الولايات المتحدة ربما تقدّم تنازلات لا ترغب إسرائيل منها أن تقدمها"[84]. من الواضح أن المحادثات مع إيران لن تُجرى بدون ثمن تدفعه أميركا، وبدون التوصل إلى شكل من أشكال التسوية للفوز بتنازلات من إيران. والأهم من هذا كله أن إسرائيل خشيت من أن واشنطن ستعترف بشرعية النظام الإيراني ووضعه الفريد في المنطقة، وهو ما سيكون على حساب إسرائيل. ومثل هذه الصفقة سيعني أن الإيرانيين "يمكن أن يتمتعوا بحرية نسبية في التصرف، وأن أميركا ستشطب اسمهم من لائحة الدول التي تدعم الإرهاب... وأنهم ربما سيلعبون دوراً إقليمياً"[85]. سينتهي الأمر بإيران إلى تغيير القليل جداً من سياساتها الإقليمية لأنها تقيم وزناً لعلاقاتها بواشنطن فقط، لا بإسرائيل. وطالما أن إسرائيل مستبعَدة من الصفقة، لن يتوفر ضغط كافٍ لمعالجة الهواجس التي تنتاب إسرائيل من إيران، أي دعم إيران لحزب الله والجماعات الفلسطينية الرافضة، وبرنامجها الصاروخي،

وبرنامجها المزعوم المتعلق بإنتاج أسلحة نووية. الأسوأ من ذلك أن الإسرائيليين تخوّفوا من أن الإيرانيين يسعون إلى إجراء محادثات من أجل التخفيف من الضغط الأميركي وحسب. يقول دان ميريدور من حكومة نتنياهو: "كانت كلها ابتسامات جميلة. أرادوا التحدث فقط من أجل الإفلات من الضغط الأميركي... كان الأمر خدعة"[86].

نتيجة لذلك، طالما أن احتمالات تحسن العلاقات الأميركية الإيرانية تبقى ضئيلة، آثرت إسرائيل عزل إيران على التوصل إلى تسوية معها. كان الوضع الراهن، حيث إيران المعادية لا تستطيع أن تشكل خطراً حقيقياً على الدولة اليهودية، مفضلاً على وضع يؤدي فيه التوصل إلى تفاهم أميركي إيراني إلى ترك إسرائيل وحيدة في مواجهة إيران فيما ستستخدم طهران صداقتها التي فازت بها حديثاً مع واشنطن في تطوير قدراتها العسكرية بدون رقيب. ويعلّق بن عامي على ذلك فيقول: "كان أمراً مفهوماً جداً أنهم لن يتخلّوا عن برنامجهم البحثي النووي كُرمى لعيون الرئيس كلينتون الزرقاء. سيطالبون بتعويضات، وربما تكون التعويضات شيئاً لا تستسيغه إسرائيل كثيراً". يضاف إلى ذلك أنه حتى في حال قبلت إيران بحل قائم على دولتين، ستعود طهران إلى موقف معادٍ لإسرائيل وأكثر تمسكاً بالإيديولوجية ما إن تحوز على موقع قوة. كما أصرت إسرائيل دائماً على أن اعترافاً مباشراً من الدول العربية يقابل الدخول في مفاوضات ناجحة، فهي تصر أيضاً على اعتراف مباشر من إيران لضمان عدم جنوح سياستها الخارجية إلى التطرّف.

لكن مع إطلاق إدارة كلينتون إشارات تدل على شوق متزايد إلى التحاور مع إيران، بدأت تثور ثائرة إسرائيل. جادل البعض في دوائر السياسة الخارجية بإسرائيل بأن المعارضة المستمرة لحدوث تطور يبدو محتوماً لن تعمل سوى على إضعاف موقف إسرائيل أكثر. فقد برزت حقيقة جديدة لا يمكن لإسرائيل أن تتجاهلها. يقول ديفيد ميناشري، أوسع الخبراء الإسرائيليين اطلاعاً بالشؤون الإيرانية وأحد مؤيدي فتح قناة اتصالات إسرائيلية إيرانية عندما كان يخدم في لجنة إيران بإسرائيل: "لغاية الآن، رفضت إسرائيل أي اتصال محتمل بين الولايات المتحدة وإيران. وأنا لست واثقاً من قدرتنا على معارضة هذه العملية"[87]. في أعقاب الانتخابات البرلمانية الإيرانية التي جرت في فبراير/شباط 2000، عندما استأثر الإصلاحيون بأغلبية المجلس الإيراني (الهيئة التشريعية)، جادل وزير العدل الإسرائيلي يوسي بيلين، وهو أحد المهندسين الرئيسيين في عملية أوسلو، بدعم ضمني من وزارة الخارجية الإسرائيلية، بأنه ينبغي على إسرائيل إعادة تقييم علاقاتها مع إيران[88]. وكتب بيلين في صحيفة هآرتز، "إن الرئيس خاتمي وإيران بعد الانتخابات بلد فيه من الفروقات الدقيقة والتعقيدات ما يفوق الذي اعتدنا على رؤيته. وينبغي علينا تفحص موقفنا من إيران"[89]. لكن عزم حكومة باراك على التوصل إلى حل نهائي للقضية الإسرائيلية الفلسطينية جعل من الصعب على إسرائيل إعطاء القضية الإيرانية الاهتمام الذي تستحقه. ما من مرة وضع فيها باراك فكرة التشجيع على حوار أميركي إيراني في جدول أعمال الوزارة. في عودة إلى الماضي، رأى وزير الخارجية بن عامي أن تلك كانت غلطة. كان الضغط في اتجاه الشروع في حوار أميركي إيراني "عملاً يحسن بنا القيام به" لخدمة مصلحة إسرائيل لأن الإيرانيين، كما قال رئيس الوزراء الإسرائيلي نفسه، لن يبرموا سلاماً أبداً مع الشيطان الأصغر قبل أن يتصالحوا مع الشيطان الأكبر[90].

لكن بدلاً من الضغط من أجل بدء حوار أميركي إسرائيل، سارع باراك فور تولّيه المنصب في العام 1999 إلى تغيير وضعية إيران من عدو إلى خطر مع بدء التحضيرات لسحب الجنود الإسرائيليين من جنوب لبنان في مايو/أيار 2000. كان رفض فكرة أن إيران عدوة بمثابة إشارة إلى أن إسرائيل لا تنظر إلى إيران على أنها خطر محتّم وأبدي. وصرّح دبلوماسيون إسرائيليون بأن "الموقف الإسرائيلي الحالي يفيد بأن إسرائيل ليست في حالة صراع مع الشعب الإيراني، ولا مع الجمهورية الإيرانية، ولا مع الإسلام". كانت لجنة إيران تعمل على إحداث هذا التحوّل وكانت تطلق الدعوات لتبنّي سياسة تصالحية منذ حكومة رابين[91].

كان الدافع لهذا القرار شغف إدارة كلينتون بفكرة أن خاتمي سيصبح نسخة إيرانية عن ميخائيل غورباتشوف، زعيم الاتحاد السوفياتي إلى حين انهياره في العام 1991. لم يشأ الإسرائيليون في أن يتم استبعادهم من حوار محتمل، وفي نفس الوقت، لم تشأ إسرائيل أن تبدو وكأنها تقرع طبول الحرب فيما تسعى واشنطن إلى الدخول في حوار[92]. بغرض إضافة مزيد من الرونق إلى هذه الإشارة، أدانت إسرائيل "بطريقة غير رسمية" هجوماً إرهابياً استهدف مستشاراً مقرباً من خاتمي على أمل أن يساعد ذلك على دعم القوى المعتدلة بإيران[93]. لكنّ باراك لم يكن جادّاً أبداً في مدّ اليد إلى إيران. ففي النهاية، كانت إيران لا تزال تعمل على تطوير الصاروخ شهاب-3، والذي جادلت إسرائيل بأنه إشارة واضحة إلى طموحات إيرانية بامتلاك أسلحة نووية[94]. وبدلاً من ذلك، كشف ديفيد ليفي، الذي خدم كوزير للخارجية لدى كل من نتنياهو وباراك، النقاب في وقت لاحق عن أن إسرائيل رفضت عروضاً من طهران للشروع في مباحثات عبر قنوات سرّية. قررت حكومة باراك "بعد مراجعة حذرة ووزن لمضامين هذه المحادثات أن الأمور لم تنضج بعد" ورفضت الاقتراحات الإيرانية[95]. (وكالمعتاد، أنكر الإيرانيون أنهم تقدّموا بمثل هذه الاقتراحات، واتهموا إسرائيل بتلفيق هذه القصص لإضعاف موقع إيران في العالم الإسلامي)[96].

في 17 أبريل/نيسان 2000، قام باراك بما تجرّأ القليل من رؤساء الوزارات الإسرائيلية من قبله على القيام به؛ بدأ انسحاباً من أراضٍ عربية محتلة بجنوب لبنان، بعد أن تبين له أن كلفة الاحتفاظ بهذه الأراضي أكبر من ثمن تصوّر أن إسرائيل تعرّضت للهزيمة. تطلب اكتمال الانسحاب فترة تزيد عن الشهر بقليل وحظي بدعم واسع من الشعب الإسرائيلي. (يصرّ لبنان وسوريا على أن إسرائيل لا تزال تحتلّ شريطاً من الأراضي اللبنانية يسمى مزارع شبعا. وتدعي إسرائيل، بدعم من الأمم المتحدة، أن مزارع شبعا أرض سورية وليست لبنانية). اختار باراك إكمال الانسحاب قبل أن تُستأنف مفاوضات الوضع النهائي مع الفلسطينيين لكي لا تكون إيران وحزب الله قادرين على إفشال محدثات السلام، ومن أجل التقليل من

قدرة إيران على تقييد حرّية إسرائيل في المناورة. يقول بن عامي: "بفك الارتباط مع حزب الله تحت رعاية الأمم المتحدة، تركناهم (أي الإيرانيين) بدون قاعدة تمكّنهم من مواصلة تلك السياسة"[97].

من الناحية الرسمية، أعلن الإيرانيون عن انتصارهم، وأشاروا إلى الانسحاب على أنه دليل على جدوى المقاومة المسلّحة ضدّ إسرائيل. قال المرشد الأعلى آية الله علي خامنئي في 25 مايو/أيار بأن "هذا النصر كشف عن أن الحل للعجرفة والأعمال الوحشية التي يقوم بها الصهاينة المغتصبون يكمن فقط في منطق المقاومة، والجهاد، والإخلاص"[98]. بعد مرور أسبوع على ذلك التاريخ، أضاف بأن الأحداث التي وقعت بلبنان "يمكن أن تقع مجدداً في فلسطين نفسها... ومن الممكن في غضون سنين عديدة أن تُعاد أجزاء من فلسطين المحتلة وفي النهاية كامل فلسطين المحتلة إلى الشعب الفلسطيني"[99]. لكن في مجالسهم الخاصة، عرف الإيرانيون أن لهذا الانتصار جانباً آخر سلبياً. فقد اعتمد تأثير إيران في إسرائيل على المقاومة التي وفّرها حزب الله.

كان مبرر وجود هذه المنظمة اللبنانية الصراع ضدّ الاحتلال الإسرائيلي. كما أن هذا الاحتلال وفّر أساساً منطقياً لروابط إيران الاستراتيجية بالشرق. بدون الاحتلال الإسرائيلي، يمكن فقدان الكثير من هذه الروابط. في حال أخفق حزب الله في تحويل نفسه من مقاومة فدائية إلى حركة سياسية، يمكن أن تفقد إيران نفوذها بلبنان، وهذا بدوره يمكن أن يضعف المحور الإيراني السوري. كما أن الانسحاب حرم سوريا من إحدى أوراق المساومة الرئيسية لديها في مواجهة إسرائيل، وهو ما قوّى من التكهنات بأن دمشق ربما تشعل صراعاً مع إسرائيل. شعر خاتمي بأن عودة إسرائيل إلى دخول لبنان يمكن أن تشكل خطراً أكبر على مستقبل حزب الله، وحثّ سوريا على إظهار ضبط النفس. وقال للرئيس السوري حافظ الأسد بأنه بعد هذا "النصر التاريخي على الصهاينة"، يتعين أن يظل حزب الله "بعيداً عن الأضواء" لكي لا يلحق ضرراً "بالمكانة الأخلاقية العالية" التي بلغها[100].

كامب ديفيد 2 وانتفاضة الأقصى

حوّل باراك تركيزه بعد الانسحاب من لبنان مباشرة إلى الفلسطينيين بهدف حل الصراع حلاً نهائياً. اعتقد هذا العسكري الإسرائيلي المزدان بالأوسمة بأن الشعب الإسرائيلي سيكون على أقصى قدر من الاستعداد لتقديم تنازلات للفلسطينيين في حال كانت اتفاقية السلام شاملة؛ يتعين حلّ كافة القضايا العالقة والاتفاق على وضع حدّ نهائي للصراع. وبحماسة كبيرة، لكن مع قليل من التحضير، استضاف البيتُ الأبيض الفلسطينيين والإسرائيليين في كامب ديفيد 2 في 11 يوليو/تموز على أمل التوصل إلى حلّ نهائي للصراع. كان للرئيس كلينتون حسه الخاص بالإلحاحية وكانت مدة رئاسته على وشك أن تنتهي، وأراد أن يختم حياته السياسية بالتوصل إلى تسوية نهائية. بالرغم من أن إسرائيل اتهمت إيران بدعم الجماعات الفلسطينية الرافضة من أجل تخريب المحادثات، نأت إيران عن التدخل نسبياً أثناء مباحثات كامب ديفيد 2. كالعادة، انتقدت المباحثات، وشككت في مزاعم واشنطن بالنزاهة، لكن حدث تغيّر جارف في نهج إيران مقارنة بنهجها في العامين 1994-1995[101]. في هذا الصدد، يقول هالفي: "لا أذكر أنه كان هناك أي نشاط إيراني على الإطلاق"[102]. هناك سببان دفعا إيران إلى الإحجام عن التدخل. السبب الأول هو أن إيران عزلت نفسها عن التطورات الإسرائيلية الفلسطينية عبر تحسين علاقاتها مع الدول المجاورة القريبة ومع أوروبا. لم ترَ إيران في محادثات كامب ديفيد 2 خطراً استراتيجياً على وضعها، مما يجعل المعارضة الإيرانية للصفقة أمراً غير ضروري. وردّة فعل إيران تجاه انتفاضة الأقصى زادت من التأكيد على أن النهج الإيراني في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني يتأثر بالاعتبارات الاستراتيجية أكثر مما يتأثر بالاعتبارات الإيديولوجية. فلو أن الإيديولوجية أو المحنة التي يعاني منها الفلسطينيون كانا المحرّك للسياسة الإسرائيلية، لكانت ردّة فعل طهران على قمع الانتفاضة أشدّ قسوة.

السبب الثاني هو أن انسحاب إسرائيل من لبنان حدّ من قدرة إيران على إفشال المحادثات. كانت إيران بحاجة إلى الوقت لكي تتعافى من ذيول الانسحاب والعثور على قنوات جديدة للتواصل مع الجماعات الفلسطينية الرافضة. يقول بن عامي: "أعتقد أن إيران فوجئت بالانسحاب من لبنان، واحتاجت إلى إعادة نشر جهودها لكي تجعلها أكثر فاعلية. بعد أن غادرنا لبنان، وجدوا أنفسهم في وضع لم يألفوه من قبل. فلأول مرّة، لم تعد في حوزتهم أداة لعرقلة المفاوضات بين الإسرائيليين والفلسطينيين". واستناداً إلى بن عامي، لو أن إسرائيل لم تنسحب من لبنان، ربما كانت إيران ستستخدم حزب الله في نشر الخراب في المنطقة. كان حرمان إيران من لعب هذه الورقة – بالإضافة إلى إشباع رغبة قوية تملكت جمهور الناخبين الإسرائيليين في الانسحاب– أحد الأسباب الرئيسية التي دعت إلى الانسحاب من لبنان[103].

بعد انقضاء أسبوعين من المفاوضات المكثفة، انتهت مفاوضات كامب ديفيد 2 من غير أن يلوح اتفاق في الأفق. واجه كل من باراك وكلينتون احتمال أن يتركا خلفهما إرثاً من الفشل بدلاً من انتصار واحد. بهدف تحويل الانتباه عن إخفاقهما، احتاجا إلى العثور على مذنب[104]. بدأت لعبة إلقاء اللوم فور انهيار المباحثات. وبما أن إيران نأت بنفسها عن الأحداث نسبياً، ألقت إسرائيل والولايات المتحدة بدلاً من ذلك بالمسؤولية الكاملة عن الفشل على ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية، بالرغم من أن كافة الأطراف اتفقوا سلفاً على أنه لا ينبغي إلقاء اللوم على أحد في حال فشلت المحادثات. خشيت واشنطن من أن انهيار المباحثات سيكلّف باراك منصبه كرئيس للوزراء وإعادة حزب الليكود المعارض لأوسلو إلى السلطة بزعامة نتنياهو. ومما زاد من هذه المخاوف انتفاضة الأقصى التي اندلعت بعد شهرين على فشل قمّة كامب ديفيد[105].

في 28 سبتمبر/أيلول، زار زعيم المعارضة في إسرائيل أرييل شارون المسجد الأقصى في المدينة القديمة بالقدس. ووافقت حكومة باراك سلفاً على زيارة شارون بطريقة رسمية على الرغم من التحذيرات التي أطلقها الناشطون من أجل السلام وبعض المسؤولين من أن الزيارة يمكن أن تؤدي

إلى اندلاع أعمال شغب. أدان الفلسطينيون الزيارة ووصفوها بالاستفزازية والتطفلية، وأدت بالفعل إلى إشعال انتفاضة جديدة. وفي اليوم التالي، بعد صلاة الجمعة، وقعت أعمال شغب بالقدس، قُتل في أثنائها العديد من الفلسطينيين. وبالرغم من أن قلّة لاموا طهران، لكن طهران شعرت بأنها بريئة بسبب فشل واشنطن وتل أبيب. يقول يورام شويتزر، وهو خبير في الاستخبارات الإسرائيلية في مركز يافي للدراسات الاستراتيجية: "لم يكن في الإمكان أن تشعر إيران بسعادة أكثر من ذلك"[106]. كما رحبت إيران بتأزم العلاقات بين إسرائيل والدول العربية المجاورة لها، ورحبت على الخصوص بالقرار الذي اتخذته مصر والأردن باستدعاء سفيريهما لدى إسرائيل[107].

كما حصل في الماضي، سعت طهران إلى استغلال التوترات بين إسرائيل والعرب عبر دعوة العالم الإسلامي إلى التوحد ضدّ إسرائيل، واصفة الدولة اليهودية "بالورم الخبيث وشجرة الشرّ" وتصويرها "بخطر يهدد العالم الإسلامي بأكمله، وحتى تلك الحكومات التي تعتقد بأن الحكومة الصهيونية الغاصبة تخدم مصالحها"[108]. لكن بالمقارنة مع منتصف التسعينيات، بدت الهجمات الكلامية الإيرانية على إسرائيل أقل تكراراً، وفي ما عدا استثناءات جديرة بالملاحظة، لم تكن تلك التهجمات تستهدف إثارة الجماهير العربية. وبذلك تكون إيران قد فازت بالحكومات العربية؛ عززت الانتفاضةُ والفوز الانتخابي الذي أحرزه أرييل شارون في مستهل العام 2001 جهودَ المصالحة بين إيران والدول العربية، بما في ذلك الحكومات التي وقّعت على معاهدات سلام مع إسرائيل[109]. بدأ الانفراج في العلاقات مع حركة فتح التي يترأسها عرفات، مما قرّب إيران من الجماعات الفلسطينية العلمانية أيضاً[110]. ثم سعت طهران إلى تعبئة الرأي العام الدولي ضدّ إسرائيل عبر الدعوة، على سبيل المثال، إلى "تشكيل محكمة خاصة بجرائم الحرب للتعامل مع الجرائم الإسرائيلية في الأراضي المحتلة" ودعوة مجلس الأمن الدولي إلى إرسال مراقبين دوليين لمنع تصاعد أعمال العنف[111].

لكن في حين اتهمت إسرائيلُ إيران بتمويل الإرهاب الفلسطيني، اشتكى الفلسطينيون أنفسهم من الوعود الإيرانية الكلامية[112]. من الواضح أن خطاب إيران بقي محافظاً على الحس بالواجب الإيراني تجاه الفلسطينيين، فخاطب المرشدُ الأعلى زعيم حماس قائلاً: "بأن الحرب المقدسة لتحرير فلسطين حرب للدفاع عن شرف الإسلام والمسلمين، وسنواصل دعمنا الثابت للشعب الفلسطيني بالرغم من كافة الضغوط السياسية والاقتصادية، وأن مسألة القدس ليست مشكلة فلسطينية، وإنما مشكلة كافة المسلمين"[113]. غير أن توفير إيران الدعم الكلامي كان أسهل من توفير الدعم العملي. ونادراً ما أُتبعت الشعارات الإيرانية بأفعال ملموسة، حتى بعد اندلاع الانتفاضة الثانية. احتل الإيرانيون موقع الصدارة في إلقاء الخطب الرنانة التي تتحدث عن القضية الفلسطينية، لكنهم نادراً ما التزموا بالمعايير التي وصفوها في تصريحاتهم. وأشار الدبلوماسيون الأوروبيون الذين أجروا اتصالات مع ممثلين عن الجهاد الإسلامي وحماس ممن زاروا إيران بعد اندلاع الانتفاضة الثانية إلى أن كلتا المجموعتين شعرت بخيبة أمل مريرة من مضيفيهم الإيرانيين. فإيران لم تقدم لهم المال ولا الأسلحة. وانتشرت نكتة في شوارع طهران عكست هذا الادعاء الإيراني: "لماذا لم يعد يوجد أحجار لرجم الزانية؟ وفقاً لأوامر المرشد الأعلى، تم شحن كل الأحجار إلى فلسطين كمساهمة من إيران في الانتفاضة"[114].

الفصل 18 خيانة بأفغانستان

الدول التي مثل إيران، والعراق، وكوريا الشمالية، وحلفاؤها الإرهابيون يشكلون محور شرّ.

– الرئيس جورج دبليو بوش (خطاب حالة الاتحاد، 29 يناير/كانون الثاني (2002

حبس العالم كله أنفاسه عندما عانت أميركا من تجربة الحيرة 2000. بالنسبة إلى إسرائيل وإيران، يمكن أن تكون حصيلة النزاع الذي دام ستة أسابيع على الانتخابات الرئاسية العامل المحدد الأكثر أهمية في مستقبل الشرق الأوسط. ففي كلتا العاصمتين، ساد شعور بأنه في حال تم انتخاب آل غور وجو ليبرمان، فسيواصلان سياسات إدارة كلينتون في الشرق الأوسط: دعم قوي لإسرائيل وللعملية السلمية في الشرق الأوسط، إلى جانب ضغط كبير لمعاقبة إيران وعزلها (مع أن كلينتون سعى قبيل انتهاء ولايته الرئاسية إلى مدّ اليد لإيران). وسواء أكان ذلك صواباً أم خطأً، اعتقد الإيرانيون بأن أكبر خطأ ارتكبه كلينتون كان سماحه لإسرائيل بالهيمنة على السياسة الخارجية الأميركية في الشرق الأوسط وأنه ربط بدون داعٍ مشكلات إيران القديمة، والتي يمكن حلها، مع الولايات المتحدة بالمنافسة الحادة بين إيران وإسرائيل[1].

من ناحية أخرى، سرى اعتقاد بأن البيت الأبيض يمكن أن يعيد نهج السياسة الخارجية الأميركية، في حال فاز جورج دبليو بوش وديك تشيني، إلى ما كان عليه على عهد جورج بوش الأب؛ ضغوط على إسرائيل لكي تنسحب من الأراضي الفلسطينية، حساسية أكبر لمصالح الدول العربية الحليفة لواشنطن، وسياسة طاقة لن تمنع الشركات النفطية الأميركية من دخول أسواق رئيسية مثل إيران. ففي النهاية، كان ديك تشيني، نائب الرئيس جورج دبليو بوش، المسؤول التنفيذي الرئيسي في شركة توزيع خدمات الطاقة هاليبورتون التي انتقدت بشدة العقوبات الاقتصادية التي فرضتها إدارة كلينتون على إيران. ولم يكن هناك من شك في المرشحَين اللذَين ترغب إيران وإسرائيل في فوزهما في الانتخابات فيما كانتا تترقبان عملية إحصاء الأصوات وإعادة عدّها بولاية فلوريدا.

وافقت المحكمة العليا بالولايات المتحدة في 9 ديسمبر/كانون الأول على نتائج العدّ الآلي بفلوريدا ومنحت بوش الفوز بالولاية وبالانتخابات عامة. على الرغم من خسارة بوش التصويت الشعبي على مستوى البلاد بفارق أكثر من نصف مليون صوت، فاز بوش بالتصويت الانتخابي وأصبح أول رئيس يُنتخَب على الرغم من حصوله على عدد أقل من الأصوات الشعبية منذ بنيامين هاريسون في العام 1888. على الفور، سرت مخاوف في إسرائيل من أن واشنطن ستليّن موقفها من إيران، وتخفف العقوبات الاقتصادية التي فرضها كلينتون، وتقلّص جهودها الهادفة إلى إعاقة البرنامج النووي الإيراني[2].

كان لدى الإسرائيليين سبب يدعوهم إلى القلق. فبعد وقت قصير على انتهاء الانتخابات، التقى المدراء التنفيذيون للشركات النفطية الأميركية بوزير الخارجية الإيرانية كمال خرازي بنيويورك، وأشار مرشح الرئيس بوش لمنصب وزير الخارجية الجنرال كولن باول أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ أثناء جلسة التأكيد على ترشيحه إلى وجوب إدخال مزيد من التحسينات على سياسته تجاه إيران[3]. من الواضح أن باول أراد تغيير المسار المتَّبع في الشرق الأوسط، لكن إيران لم تكن تحتل بالضرورة موقعاً هاماً في أجندة السياسة الخارجية للرئيس بوش[4]. وإذا كانت هناك كلمة يمكن أن تقال، فهي أن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني طغى على المسألة الإيرانية مجدداً. وفي يوم إدلاء بوش بالقسم، دعا الرئيس كلينتون وزيرَ الخارجية كولن باول لمناقشة قضايا الشرق الأوسط. وما كان من المفترض أن يكون محادثة قصيرة حول الأخطاء التي ارتُكبت في العملية السلمية وكيف يمكن إعادة العملية إلى المسار الصحيح تحول إلى مناقشة دامت أربعين دقيقة كادت أن تتسبب في تأخر وصول وزير الخارجية الجديد إلى احتفال تولّي الرئاسة. ألقى كلينتون باللوم مباشرة على زعيم منظمة التحرير ياسر عرفات على فشله في التوصل إلى سلام وبالكاد أتى على ذكر إيران، على الرغم من محاولات إسرائيل وصف طهران بالمخرّب الرئيسي للعملية السلمية. على غرار سلفه، اعتقد باول أن التوصل إلى حل للمشكلة الإسرائيلية الفلسطينية سيكون بادرة لحل المسألة الإيرانية وليس العكس. وحتى لو أنه أراد البدء بإيران، كان باول يرى أن الصعوبة التي سيلاقيها في الترويج لفكرة فتح حوار أميركي إيراني لدى اللوبي المؤيد لإسرائيل بالولايات المتحدة أكبر من صعوبة تسويقها بإسرائيل نفسها[5].

في حين كانت إسرائيل تستعدّ لسيناريو الحالة الأسوأ، قال إفرايم سنيه من حزب العمل، والذي كان قد أصبح نائب وزير الدفاع في وزارة رئيس الوزراء إيهود باراك: "إذا تبنّت الولايات المتحدة فعلاً مقاربة تصالحية مع إيران... فإن مضامين ذلك أننا سنضطرّ إلى مواجهة هذا الخطر بمفردنا".

بدأ حلفاء إسرائيل بواشنطن يتهيأون للدخول في معركة[6]. كانت مدة مرسوم فرض العقوبات على ليبيا (إلسا) ستنتهي في أغسطس/آب 2001، وخشيت منظمة لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (إيباك) القوية المؤيدة لإسرائيل من أن تحاول إدارة بوش إنهاءها. وبدلاً من أن تنتظر الخطوة التي سيقوم بها بوش وباول، استغلت إيباك حالة التخبط في البيت الأبيض إثر النزاع الانتخابي وبدأت تحرّكها.

أدت مرحلة الحيرة عام 2000 إلى حرمان إدارة بوش من فترة زادت عن ستة أسابيع كانت في أمس الحاجة إليها لتنظيم الإدارة، وملء المناصب الرئيسية في وزارة الخارجية وفي غيرها. بعد مرور أكثر من ثلاثة شهور على تولّيه سدّة الرئاسة، لم يكن بوش قد عثر على العديد من الأشخاص الذين سيرأسون أجهزته الحكومية، بما في ذلك الأشخاص الذين سيتولون مسؤولية إعداد السياسات الخاصة بإيران. لكن ماكينة إيباك كانت في أفضل صورة. بدأ اللوبي الإسرائيلي بتهيئة الأرضية لتجديد المرسوم إلسا في الكونغرس، بحيث تمكن بحلول منتصف مارس/آذار – قبل أن يتبنّى الرئيس بوش حتى موقفاً من إلسا– من ضمان أكثر من ثلاثمائة مؤيد في الكونغرس (لم يكن المرسوم بحاجة على أكثر من 218 صوتاً لإقراره). صحيح أن العقوبات فشلت في تغيير السياسة الخارجية الإيرانية، لكنّ إيباك بقيت تمتدح إلسا بوصفها نجاحاً باهراً. لقد حثّ المدير التنفيذي لإيباك، هاوراد كور، لجنة العلاقات الدولية في الكونغرس على تجديد إلسا لأنه "نجح في الاختبار، وأثبت فاعليته مع الوقت" ولأن "السلوك الإيراني

يتطلبه"[7]. جادل معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى المؤيد لإسرائيل بأن تجديد المرسوم سيساعد "المعتدلين الحقيقيين" بإيران ويضرّ "بمن يسمَّون بالمعتدلين" الذين يحيطون بالرئيس محمد خاتمي، والذين يتفقون "مع القيادة الدينية المتشددة بإيران في سياساتها المناوئة لإسرائيل"[8]. كانت تلك خطوة حدّت بسرعة من قدرة إدارة بوش على المناورة؛ فمن خلال عمل إيباك الاستباقي في الكونغرس، هزمت المنظمةُ إدارة بوش، وضمنت إقرار العقوبات بعدد كبير في الأصوات في الكونغرس بمجلسيه. لكن التفاؤل الحذر ظل يخيّم على نهج إيران في تعاملها مع الولايات المتحدة خلال الشهور الأولى لإدارة بوش، وساد هدوء في الحرب بين طهران وتل أبيب[9]. لكن كل ذلك تغيّر صبيحة 11 سبتمبر/أيلول 2001.

11 سبتمبر/أيلول

في 11 سبتمبر/أيلول 2001، اكتشفت أميركا أن الخطر الإسلامي الحقيقي لا يكمن في إيران الشيعية – كما أصرّت على ذلك إسرائيل منذ العام 1991 – وإنما في العناصر المتطرفة في العالم السنّي. فقد اختطف تسعة عشر متطرفاً موالون لأسامة بن لادن، مؤسس وزعيم تنظيم القاعدة الإرهابي الذي آوته حكومة طالبان أربع طائرات ركاب، وصدموا باثنتين من هذه الطائرات برجي مركز التجارة العالمي بنيويورك، وانقضّوا بالثالثة على البنتاغون بواشنطن العاصمة، وسقطت الرابعة في حقل بريف بنسلفانيا. لم يتغير العالم في ذلك اليوم، لكنّ أميركا تغيرت؛ لكن ردّ واشنطن على الهجوم الإرهابي العنيف جلب في النهاية مزيداً من الفوضى إلى العالمين العربي والإسلامي. في تلك الليلة، أمر باول مجموعة صغيرة من كبار الموظفين بالعمل طوال الليل للتوصل إلى استراتيجية لجمع تحالف دولي للنيل من أسامة بن لادن. أصبحت الخطة مخططاً تفصيلياً للاستراتيجية الدبلوماسية التي تمحورت حول عملية الحرّية الدائمة؛ الحرب التي تشنّها أميركا على طالبان والقاعدة بأفغانستان[10]. وللفوز بالدعم ضدّ طالبان، احتاجت الولايات المتحدة إلى ما هو أكثر من دعم دولي شامل، لقد احتاجت إلى دعم خاص من إيران. جارة أفغانستان والعدو اللدود لطالبان.

كانت إيران طوال فترة التسعينيات الراعي الرئيسي للتحالف الشمالي، وهو عبارة عن مجموعة من القوى المعارضة لطالبان بقيادة أحمد شاه مسعود. وإلى جانب روسيا والهند، قدّمت إيران السلاح والمال للتحالف الشمالي فيما كانت الولايات المتحدة تغضّ الطرف عن انتهاكات طالبان لحقوق الإنسان ودعمها للإرهاب. لم يكن وجود حكومة معادية بالمطلق للإيرانيين وللشيعة بأفغانستان يؤثر سلباً في الهدف بعيد المدى الذي وضعته إدارة كلينتون لعزل إيران. لكن هذه السياسة عادت لتقضّ مضجع أميركا بعد سنين قليلة. كان الإيرانيون حينها متلهفين لتقديم المساعدة لواشنطن وإظهار الفوائد الاستراتيجية المترتبة على تعاون أميركا مع إيران. يقول فلينت ليفيرت، الذي كان حينها مديراً رفيعاً في مجلس الأمن القومي في الشؤون الخاصة بالشرق الأوسط: "أجرى الإيرانيون اتصالات حقيقية مع جهات فاعلة مهمة بأفغانستان وكانوا على استعداد لاستخدام نفوذهم في التأثير في طرق بنّاءة بالتنسيق مع الولايات المتحدة"[11]. اقتضت الخطة التي أعدّها باول التعاون مع إيران التي ستُستخدم كقاعدة لإقناع طالبان بقطع علاقتها مع الجماعات الإرهابية المعادية لإسرائيل مقابل بناء علاقة استراتيجية إيجابية مع واشنطن[12].

أثارت الخطة سخط إسرائيل. فقد تبيّن فجأة أن الأحداث الجارية في الشرق الأوسط، على غرار ما حصل بعد انتهاء الحرب الباردة، تهدد بتحويل إسرائيل إلى عبء على الولايات المتحدة بدلاً من أن تكون رصيداً لها، فيما وفرت لإيران فرصة لإظهار قيمتها لأميركا. على افتراض البدء بحوار أميركي إيراني، فسيكون هناك "الكثير من القلق في إسرائيل. فما هو موقع إسرائيل في هذا الحوار؟ هل ستتشاور الولايات المتحدة معنا لمعالجة حاجاتنا ومخاوفنا؟ وهل سنكون جزءاً من صفقة شاملة مع إيران؟ وإذا كان الحال كذلك، ما عساه يكون هذا الجزء؟"[13] كما قال لي يوسي ألفير، مستشار باراك والضابط السابق في جهاز الموساد. تعكس تعليقات ألفير الخوف المتأصل لدى الإسرائيليين حيال علاقاتهم بالولايات المتحدة: هل ستحمي الولايات المتحدة مصالح إسرائيل في الصراعات الجيوسياسية عندما لا تكون مصالح الحليفين منسجمة مع بعضها بالضرورة؟ وعلى وجه التحديد، خشيت إسرائيل من أن تقارباً أميركياً إيرانياً لن يستوجب تفكيك الصواريخ الإيرانية أو اعتراف إيران بالدولة اليهودية. اعتقد الإسرائيليون أن المصالح الجيو سياسية الأميركية – وبخاصة الحاجة إلى احتواء تنامي الصين عبر السيطرة على قدرة بكين على الحصول على الطاقة عبر إيران – يمكن أن تدفع واشنطن إلى التضحية بالتزاماتها تجاه إسرائيل.

برزت توترات إسرائيلية إيرانية لم تتمكن محادثات كامب ديفيد ولا انتفاضة الأقصى من إشعالها بسبب الحدث الجلل الذي هزّ أساسات الوضع الراهن في الشرق الأوسط، وأجبر كافة الدول على إعادة تقييم مواقفها وأدوارها في حقبة ما بعد 11 سبتمبر/أيلول. بلعب بريطانيا دور الوسيط، ترددت واشنطن إلى إيران فيما أبقت إسرائيلَ بعيدة، وكما فعلت الحكومة البريطانية غداة حرب الخليج في العام 1991، أشار وزير الخارجية البريطاني جاك سترو إلى أن إسرائيل تتحمّل جزءاً من اللوم. ففي تصريح وصفه الإسرائيليون "بالفاحش"، و"الطعنة في الظهر"، أشار سترو إلى أن هجمات 11 سبتمبر/أيلول ربما تكون مرتبطة بالإرهاب والصراع الإسرائيلي الفلسطيني المتفاقم[14].

كانت إسرائيل والمحافظون الجدد في الولايات المتحدة، الذين تمكنوا من العودة إلى دهاليز السلطة بعد انتخاب بوش، يفكرون في شيء آخر. ينبغي أن تحذّر أميركا كافة الجهات المتهمة بدعم الإرهاب؛ وعلى الخصوص إيران والسلطة الفلسطينية. ففي رسالة وقّع عليها واحد وأربعون من المحافظين الجدد البارزين، منهم وليام كريستول، وريتشارد بيرل، وتشارلز كراوثامر، حثّ الموقّعون الرئيسَ بوش على عدم الاقتصار على استهداف القاعدة بحيث يُستهدف حزب الله أيضاً، وعلى الطلب من إيران وسوريا أن توقفا على الفور كافة أشكال الدعم العسكري، والسياسي، والمالي لتلك المنظمة، وفي حال رفضتا الامتثال، ينبغي على بوش "دراسة اتخاذ تدابير مناسبة للثأر من هاتين الدولتين الموصومتين برعاية الإرهاب"[15]. يمكن

أن يؤدي إشعال حرب مع إيران وسوريا إلى الإفراط في انتشار القوات الأميركية، ولكنه سيضع أميركا وإسرائيل أيضاً على الجانب نفسه من الحرب ويزيد – بدلاً من أن يقلل من – حاجة الولايات المتحدة إلى إسرائيل.

في البداية، لم يحرز المحافظون الجدد سوى تقدم متواضع. لكن مع بدء الولايات المتحدة عملياتها العسكرية بأفغانستان، بدأت وزارة الخارجية ومجلس الأمن القومي الاجتماع سرّاً بدبلوماسيين إيرانيين بباريس وجنيف في أكتوبر/تشرين الأول 2001، برعاية الأخضر الإبراهيمي، رئيس لجنة مساعدات الأمم المتحدة بأفغانستان[16]. بدأ الاتصالات السفير جايمس دوبنز، مبعوث إدارة بوش الخاص بأفغانستان. وبدعم كامل من باول، قال دوبنز للإبراهيمي بأنه يرغب في الاجتماع بالإيرانيين. في غضون أيام قلائل، اتصل مسؤولون من وزارة الخارجية الإيرانية بدوبنز، وعرضوا عليه مساعدتهم. كما حضر الاجتماعاتِ التمهيدية وفود ألمانية وإيطالية لتوفير الغطاء السياسي لإيران والولايات المتحدة، حيث أعطى حضورهم المحادثاتِ – التي سرعان ما أُطلق عليها اسم قناة جنيف – مظهراً متعدد الأطراف. لكن في الحقيقة، كانت المناقشات ثنائية والاتصالات على أعلى مستوى بين مسؤولي البلدين منذ فضيحة إيران – كونترا.

سارت المحادثات على نحو أفضل مما كان متوقعاً. ركّزت المناقشات على "كيفية إزاحة طالبان بفاعلية، وكيفية تشكيل حكومة أفغانية بعد رحيل طالبان" لقد قدّم الإيرانيون مساعدة كبيرة للولايات المتحدة في الحرب، من غير أن يعرفوا شيئاً عما سيتكشف بعد النجاح بأفغانستان[17]. لقد أدهش الدبلوماسيون الإيرانيون نظراءهم الأميركيين والأوروبيين بما لديهم من معارف وخبرات بشؤون أفغانستان وطالبان. لم تكن المساعدة التي قدّمتها إيران شكلية، فعرض الإيرانيون السماح للولايات المتحدة باستخدام قواعدهم الجوية، وعرضوا توفير قاعدة لتنفيذ مهام البحث والإنقاذ للطيارين الذين يتم إسقاط طائراتهم، وخدموا كجسر بين التحالف الشمالي والولايات المتحدة في قتال الطالبان. حتى أنهم استخدموا في قليل من المناسبات معلومات أميركية للعثور على زعماء تنظيم القاعدة الفارّين وقتلهم[18].

بالرغم من أن تكليف دوبنز اقتصر على إجراء محادثات حول أفغانستان، أعدّت مجموعة مغلقة من المسؤولين المحيطين بباول رزمة سرّية كاملة من الجزرات وعصا واحدة لعرضها على الإيرانيين. فعلى النقيض من البنتاغون، آثرت وزارة الخارجية فتح قناة اتصال استراتيجية مع إيران، وليس مجرّد محادثات تكتيكية. أدرك الدبلوماسيون الأميركيون أن التعاون بشأن أفغانستان يمكن أن يتوسّع ليشمل القاعدة والمنظمات الإرهابية الأخرى. بناء على ذلك، يمكن للولايات المتحدة وإيران توسيع تعاونهما على صعيد تقاسم المعلومات الاستخبارية، وتنسيق دوريات حدودية مكثفة لاعتقال مقاتلي القاعدة الذين يريدون الهرب إلى باكستان وإيران. عرف ريان كروكر، وكان عضواً في فريق التفاوض الأميركي ومكلفاً بمناقشة القضايا العامة، بأمر الرزمة. كان كروكر، إلى جانب زملائه الذين يتفقون معه في الرأي بوزارة الخارجية، على استعداد لتنفيذ اقتراح باول على الفور؛ في حال وافق الرئيس عليه. لكنّ المتشددين في البيت الأبيض عملوا بجدّ لمنع بوش من المضي فيه. يقول ويلكرسون: "كان نائب الرئيس تشيني ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد هناك دائماً لتخريب تعاوننا في أفغانستان إذا قطع شوطاً طويلاً"[19].

لم تكن المصلحة المشتركة بين الولايات المتحدة وإيران على هذا القدر من الوضوح كما تبين في مؤتمر بون الذي انعقد في ديسمبر/كانون الأول 2001، حيث التقى عدد من الأفغان البارزين ومندوبون من بلدان متنوعة، منها الولايات المتحدة وإيران، برعاية الأمم المتحدة في ألمانيا للاتفاق على خطة لحكم أفغانستان. أعدّت الولايات المتحدة وإيران بعناية الأرضية اللازمة للمؤتمر قبل انعقاده بعدة أسابيع. وأثبت النفوذ السياسي الإيراني في أوساط الجماعات الأفغانية المحاربة المتنوعة أنه كان حاسماً، فكان هذا النفوذ بين أوساط الأفغان – وليس تهديدات أميركا ووعودها – هو الذي حرّك عجلة المفاوضات إلى الأمام. كما أن الوفد الإيراني – وليس دوبنز – هو الذي أشار إلى أن مسودة إعلان بون لم تتضمن أية إشارة إلى الديموقراطية أو إلى أي التزام من جانب أفغانستان بمحاربة الإرهاب الدولي. لكن المثير للفضول هو أن تعليمات دوبنز لم تحتوِ على أي شيء يشير إلى الديموقراطية.

بحلول الليلة الأخيرة للمؤتمر، تمت الموافقة على دستور مؤقت، وتمّ حل كافة القضايا الأخرى باستثناء القضية الأصعب: من الذي سيحكم أفغانستان؟ أصرّ التحالف الشمالي، بوصفه المنتصر في الحرب، على أن من حقّه الاستئثار بالغنائم. بالرغم من أنه ممثَّل في حوالى 40 في المائة من البلاد، أراد أن يشغل ثمانية عشر منصباً وزارياً من أصل أربعة وعشرين. وقرابة الساعة الثانية فجراً، جمع دوبنز الأحزاب الأفغانية، والإيرانيين، والروس، والهنود، والألمان، والإبراهيمي من الأمم المتحدة لحل هذه النقطة الأخيرة العالقة. تناوبت الوفود على الكلام على مدى ساعتين في محاولة لإقناع يونس قانوني، مندوب التحالف الشمالي بالقبول بعدد أقل من الوزارات، ولكن بدون جدوى. أخيراً، اجتمع كبير المفاوضين الإيرانيين – جواد ظريف – بالمندوب الأفغاني على انفراد، وبدأ يهمس في أذنه باللغة الفارسية. بعد بضع دقائق، عادا إلى الطاولة، وأذعن الأفغاني، وقال: "حسناً، أنا موافق. يمكن للفصائل الأخرى الحصول على وزارتين أخريين". كانت تلك نقطة تحوّل حاسمة لأن الجهود التي بذلتها الدول الأخرى لإقناع القانوني باءت كلها بالفشل. في هذا الصدد، يقرّ دوبنز بأن "المسألة لم تُحسم إلاّ بعد أن اجتمع به ظريف على انفراد. ربما كنا سنواجه وضعاً مثل الوضع الذي واجهناه بالعراق، حيث لم نتمكن أبداً من اتفاق على زعيم واحد وعلى تشكيل حكومة". في صباح اليوم التالي، تم التوقيع على اتفاقية بون التاريخية. النتيجة هي أن أميركا لم تنتصر في الحرب وحسب، بل وانتصرت، بفضل إيران، في السلام أيضاً[20].

بالنسبة إلى الإيرانيين، كانت تلك لحظة انتصار. فلم يقتصر الأمر على إلحاق الهزيمة بعدو رئيسي لإيران – حركة طالبان– بل واظهار كيف يمكن أن تساعد على إرساء دعائم الاستقرار في المنطقة، وكيف يمكن أن تستفيد أميركا من بناء علاقة أفضل معها. وفي تلميح إلى استعداد إيران للتوسع في المناقشات لتشمل نواحي أخرى، قال ظريف في إحدى المراحل لكروكر ممازحاً بأنه بعد أن تم حل القضية الأفغانية، ربما آن الوقت لمعالجة النزاع النووي الذي يزرع الخلاف بين البلدين. وبدون أي تردد، أعاد كروكر الكرة إلى ملعب ظريف، وسأله إن كان يجدر به التطرّق إلى

التعليمات الخاصة بهذا الملف، مشيراً إلى أن وزارة الخارجية سبق أن أعدّت نقاط بحث بشأن هذه القضية. لكن ظريف لم يكن يملك صلاحية الذهاب إلى ما هو أبعد من موضوع أفغانستان في ذلك الوقت علماً بأن الإيرانيين تعاملوا مع تلك المناقشات كقناة استراتيجية[21]. يشرح دوبنز واقع الحال فيقول: "جاء ذلك منسجماً مع رغبتهم في إجراء محادثات استراتيجية". في إشارة إلى أن الإيرانيين لم يكشفوا عن نواياهم الكاملة إلاّ في مرحلة متأخرة جداً[22].

تمثل المأزق الإيراني في أن جدول أعمال المناقشات –أفغانستان، المسألة النووية، الإرهاب– تصدّى للهموم الأميركية فقط، بحيث لم يكن هناك مكان لهموم إيران المتعلقة بالسياسات الأميركية. في حين أبدى المرشد الأعلى للثورة الإيرانية آية الله خامنئي والرئيس خاتمي دعمهما الكامل للمحادثات الأفغانية ولفكرة فتح قناة اتصال استراتيجية مع واشنطن، لكنهما أصرّا على أنه ينبغي أن تتضمن المحادثات الأوسع نطاقاً الهموم الإيرانية والهموم الأميركية على حدّ سواء[23]. بالنسبة إلى وزارة الخارجية الأميركية ومستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس، لم يكن في ذلك مشكلة. فكلاهما أراد استكشاف مزيد من الفرص مع إيران، ولكنهما كانا يتعرضان للإعاقة من بعض المسؤولين في البيت الأبيض المتحمسين لعداء إيران[24]. يقول دوبنز: "لم ألحظ أي اهتمام خارج البلاد" بإجراء مناقشة استراتيجية مع الإيرانيين. فعلى الرغم من المساعدة الحاسمة التي قدّمتها إيران للولايات المتحدة بأفغانستان، لم يكن يوجد تقبّل لإجراءات حسن النية الإيرانية في البيت الأبيض في عهد بوش. أي أن أحداث العام 1991 عادت لتتكرر من جديد: لا يوجد تقدير للمصلحة الاستراتيجية الإيرانية في شرق أوسط مستقر، ولإمكانية أن تكون إيران راغبة في ترقيع علاقاتها مع الولايات المتحدة. حتى أن تعهّد إيران في مؤتمر الدول المانحة بطوكيو الذي انعقد في يناير/كانون الثاني 2002 بتقديم 500 مليون دولار إلى أفغانستان – وكان أكبر تعهد من جانب أية دولة شاركت في المؤتمر، بما في ذلك الولايات المتحدة – لم يحز على إعجاب المتشددين في البيت الأبيض.

كما لاقى عرض إيران بالمساعدة على إعادة بناء الجيش الأفغاني – في ظل قيادة أميركية – من أجل تقوية الحكومة الأفغانية إزاء أمراء الحرب المتنوعين الذين كانوا لا يزالون يسيطرون على أجزاء من البلاد، آذاناً صمّاء أيضاً. ففي أحد الاجتماعات التي عُقدت بجنيف، قال الإيرانيون لدوبنز: "نحن على استعداد لاستقبال ما يصل إلى عشرين ألف جندي، وكسوتهم، وتسليحهم، وتدريبهم ضمن برنامج واسع تحت قيادتكم". لكن دوبنز أشار إلى أنه إذا كانت إيران والولايات المتحدة ستتقاسمان المسؤولية في تدريب الجنود، فسينتهي بهم الأمر إلى العمل وفقاً لمذهبين عسكريَّين مختلفَين. عندئذٍ، ضحك قائد الجيش الإيراني، الذي صاحب الوفد الإيراني لمناقشة العرض مع دوبنز، وقال: "لا تقلق، لا زلنا نستعمل الكتيبات التي تركتموها وراءكم في العام 1979". وأضاف بأنه لن تبرز أية مشكلات تتعلق بولاء هؤلاء الجنود أيضاً، لأن إيران كانت لا تزال تدفع رواتب الجنود الأفغان الذين تستخدمهم الولايات المتحدة في القضاء على عناصر القاعدة وطالبان على الحدود الأفغانية الباكستانية. ووجّه سؤاله إلى دوبنز بطريقة منمّقة وقال: "هل تواجهون أية مشكلات تتعلق بولائهم؟"[25]

عاد دوبنز إلى واشنطن لكي يوجز للمسؤولين الرئيسيين تفاصيل العرض الإيراني غير المسبوق، وختم حديثه عنه بالقول بأنه أريد أن يكون إيماءة ودّية. بدأ بإيجاز تفاصيل تلك المناقشات لباول أولاً الذي أعدّ موجزاً لرايس. وافقته رايس الرأي بأنه ينبغي التمعن في العرض، وبناء على ذلك، حُدد موعد لاجتماع ثالث يضم باول، ورايس، ورامسفيلد. لكن في هذه المرّة، اصطدم دوبنز بحائط مسدود. فطوال ذلك الاجتماع، لم ينبس رامسفيلد ببنت شفة. كان يدوّن القليل من الملاحظات فيما كان يحدق في دوبنز، ولكنه لم يُظهر أي اهتمام حقيقي بالعرض. في ذلك الاجتماع بالذات، دُفن الاقتراح. يقول دوبنز: "على حدّ علمي، لم يصدر أي ردّ. كان هناك ميل إلى عدم التعامل مع العروض الإيرانية بجدّية وعلى عدم إعطائها أية معانٍ واسعة". يجادل دوبنز بأن عدم اهتمام الإدارة بفتح قناة اتصال استراتيجية أوسع "مردّه أن واشنطن ركّزت بدرجة كبيرة على سلوك إيران تجاه إسرائيل" بدلاً من أن تركّز على سلوك إيران تجاه أميركا[26].

شعرت إسرائيل بالخطر من تعاون واشنطن مع إيران. وفي انتقاد علني قاسٍ لبوش، أشار رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون علناً إلى أن بوش يتصرف كما تصرّف وزير الخارجية البريطاني (1937–1940) نيفيل تشامبرلين، ببيعه إسرائيل كما باع تشامبرلين التشيكيين برفضه مواجهة أدولف هتلر[27]. كانت التوترات قد بدأت بالتصاعد بين الولايات المتحدة وإسرائيل قبل 11 سبتمبر/أيلول. فقد صمم باول مبادرة لشرق أوسط جديد تكون فيه القدس عاصمة مشتركة بين إسرائيل ودولة فلسطينية؛ وهو ابتعاد ملفت عن المواقف الأميركية السابقة حيال الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. بالنسبة إلى الليكود، كان الاعتراف بالقدس غير مقسمة كعاصمة أبدية لإسرائيل خطاً أحمر لا يخضع للتفاوض، والسياسة الجديدة لإدارة بوش هددت بتحويل شارون من حليف أميركي إلى عقبة، والهجوم الشخصي الذي شنّه شارون على بوش لم يكن ليعمل على التخفيف من هذه التوترات. لقد أثارت هذه التعليقات غضب الرئيس الأميركي سريع الانفعال، ووصف الناطق الصحفي بالبيت الأبيض آري فيشر ملاحظاتِ شارون بأنها "غير مقبولة"[28].

لم تفت التوترات الإسرائيلية الأميركية إيران، وشعرت حكومة خاتمي بثقة متزايدة بأن الجمود في المثلث الإسرائيلي الإيراني الأميركي يمكن أن يُكسر لمصلحة إيران. في هذا السياق، أثنى وليّ الله شوجابوريان، وهو فقيه بالقانون ينتمي إلى المعسكر الإصلاحي، على سياسة الوفاق الدولي التي يتّبعها خاتمي، وحذّر من غضب إسرائيل من جرّاء نجاحات إيران، وقال للصحيفة اليومية الإيرانية **أفتابي يزد:** "أغضب هذا القبول الدولي بإيران عدونا اللدود إسرائيل بالتأكيد، ولكنه أعطانا فرصة جديدة لإعادة بناء روابطنا الدولية"[29].

سعى المحافظون الجدد بواشنطن والحكومة الإسرائيلية بلا كلل للتوصل إلى طرق لوقف التعاون الإيراني الأميركي. من خلال وسائل متنوعة، سعوا إلى قطع قناة جنيف واستباق أية إمكانية بأن تُعاد تجربة 'نيكسون يذهب إلى الصين' مع إيران؛ أي مدّ اليد إلى عدو رئيسي لأميركا والتصالح

معه. إحدى المقاربات التي اتُّبعت في هذا الخصوص كانت في التلاعب بالإيرانيين لحملهم على إغلاق هذه القناة بأنفسهم. الفكرة هي أن يتم تشجيع رجل دين راديكالي أو استفزازه لحمله على انتقاد المحادثات كطريقة لمداهنة المتطرّفين الإيرانيين، وهو ما سيجبر المرشد الأعلى على التراجع عن مواصلة هذه الاتصالات. المثير للسخرية هو أن المحافظين الجدد الذين لعبوا دوراً رئيسياً في فضيحة إيران – الكونترا باتوا يحاولون الآن تخريب الإنجاز السياسي نفسه الذي حاربوا من أجل تحقيقه قبل خمسة عشر عاماً. فبعد أن أُقصي من الحكومة طوال أكثر من عقد، تمكن مايكل ليدن – وهو أحد المحافظين الجدد وصديق رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق شمعون بيريز الذي اعتقدت وكالة الاستخبارات المركزية في وقت من الأوقات أنه "عامل تأثير لحكومة أجنبية" – من العودة إلى دهاليز السلطة بعد انتخاب بوش في العام 2000[30]. وتمكن من الوصول إلى الرئيس عبر كارل روف، مستشار بوش، والذي كان يلتقي به بصفة دورية[31]. بدأ ليدين بوصفه باحثاً في معهد المؤسسات الأميركية بكتابة مقالات أسبوعية في ناشونال ريفيو في العام 2000 حيث جادل مراراً بضرورة استهداف إيران، وكان يعبّر عن انزعاجه من سير واشنطن البطيء في مواجهة إيران، وكان يختم كل مقالة بالقول: "أسرعوا رجاء. أسرعوا"[32].

أدّى انهيار الاتحاد السوفياتي وهزيمة العراق في حرب الخليج سنة 1991 إلى انقلاب تام في مواقف ليدين. وكما فعلت إسرائيل تماماً، بات يرى الآن أن إيران منافس ينبغي عزله وإضعافه بدلاً من اعتباره حليفاً ينبغي التعامل معه وتقويته. وفي ديسمبر/كانون الأول 2000، نظّم ليدين، الذي بات يخدم حينها كمستشار لوكيل وزارة الدفاع دوغلاس فيث، اجتماعاً في روما مع صديقه القديم منذ فضيحة الكونترا، منوشهر غوربانيفار، الدجّال وتاجر الأسلحة الإيراني الذي اعتبرته وكالة الاستخبارات المركزية "ملفّقاً متسلسلاً". بوصفه تلميذاً للحركة الفاشية الإيطالية، تمتع ليدين بعلاقات واسعة داخل أجهزة الاستخبارات الإيطالية. لذلك وجّه دعوة أيضاً إلى نيكولو بولاري، رئيس الاستخبارات العسكرية الإيطالية سيسمي، ووزير الدفاع الإيطالي أنتونيو مارتينو[33]. كما حضر الاجتماع العديد من المنفيين الإيرانيين: لاري فرانكلين وهو محلل إيراني في وكالة الاستخبارات الدفاعية والذي طالب في وقت لاحق بالبراءة من تهمة التجسس لصالح إسرائيل في العام 2005 وهو ينفذ حالياً عقوبة بالسجن مدتها ثلاثة عشر عاماً؛ وهارولد رود وهو خبير بالشرق الأوسط لعب دوراً رئيسياً في فضيحة إيران – الكونترا[34]. كان رود وفرانكلين جزءاً من مجموعة صغيرة متجانسة من المحافظين الجدد المتشددين حيال إيران والذين فضّلوا تغيير النظام بإيران، وعزموا على وضع حدّ لدبلوماسية باول. تضمنت شبكتهم السياسية في البنتاغون في وقت لاحق مكتب الخطط الخاصة، وهو مكتب استخباري بديل يرأسه فيث وفّر للجهاز الاستخباري الأميركي معلومات غير دقيقة ساعدت على تمهيد الطريق أمام غزو العراق[35].

جرى عقد اللقاءات بأوروبا لأنه لم يكن في مقدور غوربانيفار الحصول على تأشيرة دخول أميركية بسبب تجاربه السابقة مع وكالة الاستخبارات المركزية. لقد حرص ليدين على عدم إطلاع وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية على هذه اللقاءات الحساسة، بما يتناقض والبروتوكول المتّبع في ما يختصّ بالاتصالات مع الأجهزة الاستخبارية الأجنبية. لكن سرعان ما وصل الخبر إلى السفير الأميركي لدى إيطاليا ميل سيمبلر، وإلى رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية بروما، لتصل بعد ذلك إلى أعلى المستويات في إدارة بوش. بعد تدخل من مدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تينيت نفسه، أُمر فيث وليدن بقطع كافة الاتصالات مع غوربانيفار وجماعته[36]. لكن الضرر كان قد وقع. فقد بلغت الإيرانيين أخبار هذه اللقاءات، وانتابهم الغضب من اجتماع مسؤولين أميركيين رفيعي المستوى بغوربانيفار ومنفيين إيرانيين آخرين انقلبوا على النظام الديني. لكن بصرف النظر عن الضرر الذي ألحقه ليدن وغوربانيفار بقناة جنيف، فهو لم يكن يساوي شيئاً بالمقارنة مع الأحداث التي تكشفت بعد ذلك.

كارين أيه ومحور الشرّ

في 3 يناير/كانون الثاني 2002، اعترض الإسرائيليون السفينة كارين أيه في المياه الدولية في البحر الأحمر. كان يقود السفينة قبطان من البحرية الفلسطينية، وكانت محمّلة بصواريخ كاتيوشا، وقذائف مورتر، وبنادق آلية، وبنادق قنص، وذخائر، وألغام مضادّة للدروع، وأنواع أخرى من المتفجرات. زعم الإسرائيليون بأن السفينة قدمت من جزيرة كيش الإيرانية، وبما أن أغلب الأسلحة كانت لا تزال في صناديق المصانع التي أنتجتها، وتحمل رموزاً تشير إلى أنها من صنع إيراني، جادل الإسرائيليون بأن الاستنتاج بديهي: إيران تسعى إلى تزويد السلطة الوطنية الفلسطينية بقيادة عرفات بالأسلحة في خرق للاتفاقات التي أبرمتها السلطة مع إسرائيل. كان ذلك الدليل القاطع الذي احتاج إليه الإسرائيليون لوقف الحوار الأميركي الإيراني، ووضع حدّ للضغوط التي تمارسها واشنطن على إسرائيل لكي تتعامل مع الفلسطينيين[37]. كانت العملية هدية لشارون، وتزامنت بالمصادفة مع زيارة كان يقوم بها الجنرال أنتوني زيني لإسرائيل، مبعوث بوش الجديد للشرق الأوسط. بالنسبة إلى العديد من المراقبين، كان الخبر من الروعة بحيث لا يمكن أن يكون صحيحاً لدرجة أنه حتى حلفاء إسرائيل بدأوا يشككون في صحته. فالمسار المعتاد للشحنات الإيرانية المتجهة إلى وكلائها يمرّ عبر دمشق ولبنان – جواً، وليس بالقوارب في محيط شبه الجزيرة العربية حيث كان من المعلوم أن البحرية الإسرائيلية تسيّر دوريات هناك.

أنكر الإيرانيون أن تكون لهم أية علاقة بالسفينة، لكن لم يكن الإنكار ليوازي صورة شارون وهو يتفحص السفينة والأسلحة الإيرانية المحمّلة عليها. قبلت واشنطن بالرواية الإسرائيلية للقصة، ووصفت الدليل الإسرائيلي بأنه مقنع. بالنسبة إلى إدارة بوش، زال أي شك ربما كان يساورها في مواصلة إيران اتصالاتها مع الإرهابيين[38]. كانت تلك نكسة كبيرة للمدافعين عن الحوار مع إيران مثل باول. يقول ويلكرسون: "بدد ذلك توقعات باول بما كان من الممكن تحقيقه مع الإيرانيين".

في إيران، أخذ الخبرُ الرئيسَ خاتمي على حين غرّة، فأمر بعقد اجتمع لمجلس الأمن القومي الإيراني لكي يعرف من الذي يقف خلف هذه الشحنة. كان خاتمي يعلم حق العلم بوجود عناصر شرّيرة داخل الحكومة الإيرانية تسعى متى سنحت لها الفرصة إلى إفشال سياسته القائمة على الانفتاح على الولايات المتحدة. غير أن أحداً في المجلس لم يعترف بأنه كان على علم بأمر السفينة. سارع الإيرانيون، من خلال قناة جنيف، إلى الاتصال بدوبنز وإبلاغه بأمر اجتماع خاتمي بالمجلس، وأُمر الدبلوماسيون الإيرانيون بطلب الحصول على دليل من الولايات المتحدة يثبت هوية مصدر تلك الشحنة لكي تتمكن السلطات بطهران من التصرف بناء على ذلك. في نفس الوقت، بعثت حكومة خاتمي برسالة إلى واشنطن عبر السفارة السويسرية بطهران أنكرت فيها أية مشاركة إيرانية في القضية. كررت طلب الحصول على معلومات من الولايات المتحدة، وعرضت إعطاء واشنطن أية معلومات ربما تتوصل إليها إيران. لكن لا الرسالة التي وصلت إلى دوبنز ولا المذكرة التي أُرسلت عبر السويسريين عوملت بطريقة جادّة من قبل إدارة بوش. لم تقدّم واشنطن أي دليل إلى طهران يثبت المزاعم الإسرائيلية، ولكنها ردّت على طهران بعد أسابيع قليلة، وأكدت على أن المعلومات كافية وجديرة بالاعتماد، مما يعني من الناحية العملية رفض الإنكار الإيراني[39].

بالنسبة إلى الإيرانيين المرتابين دوماً، كانت المسألة بأكملها ملفّقة. ورأوا أنها تخدم غاية واحدة فقط: إضعاف قناة جنيف. يقول ظريف: "في غضون أيام قليلة، تحولت سياسة التعاون إلى سياسة مواجهة. ولا تزال كارين أيه لغزاً ظهر في الوقت المناسب بالنسبة إلى الأشخاص الذين أرادوا منع حدوث تقارب أميركي إيراني"[40]. ولو عدنا إلى الماضي، نجد أن بعض المسؤولين في إدارة بوش بدأوا يشككون في القضية. تكهن البعض بأنها من تدبير إسرائيل، وجادل البعض بأن عناصر شرّيرة بإيران ربما تقف خلفها. لكن ما من أحد في إدارة بوش تابع القضية إلى ما هو أبعد من ذلك. فبعد أن أكدت الاستخبارات الأميركية صحة الرواية الإسرائيلية، بات الأمر مفروغاً منه. ويعترف ويلكرسون فيقول: "لكن بالنتيجة، تساءلنا جميعاً إن كانت خدعة أم حقيقة"[41].

بعيداً عن التكهنات بشأن مصدر كارين أيه والتفاصيل المتعلقة بها، شكك القليل من الأشخاص في التأثير الذي أحدثته في نهج واشنطن مع طهران. ففي غضون أيام قليلة، وجّه البنتاغون اتهامات غاضبة إلى إيران، متهماً إياها بتوفير ملاذ آمن للمقاتلين الفارّين المنتمين إلى تنظيم القاعدة من أجل استخدامهم ضدّ الولايات المتحدة بأفغانستان في فترة ما بعد حكم طالبان. لكن الاتهامات ارتكزت على أرضية مهتزّة. فبناء على طلب من الولايات المتحدة، زادت إيران من حجم قواتها المنتشرة على الحدود مع أفغانستان، ورفعت ملفاً إلى الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان يشير إلى 290 عضواً في القاعدة تحتجزهم إيران. تم ترحيل العديد من هؤلاء في وقت لاحق إلى أفغانستان، ودول عربية وأوروبية أخرى. يقول دوبنز: "لم أكن على علم بأية معلومات استخبارية تدعم تلك التهمة. وكنت سأطّلع على هذه المعلومات بالتأكيد لو كانت متوفرة. ولم يقل لي أحد بأنهم يأوون عناصر من تنظيم القاعدة"[42].

ثم جاء يوم 29 يناير/كانون الثاني 2002، عندما ألقى بوش أول خطاباته عن حال الاتحاد، وجمع إيران مع العراق وكوريا الشمالية ووصفها بأنها دول خطيرة تشكّل محور شرّ. وسواء أجرى تضمين إيران في هذا المحور على سبيل التكلف أم أن بوش اعتقد أن إيران، والعراق وكوريا الشمالية تتعاون في ما بينها، فهناك أمر واحد أكيد، وهو أن حادثة كارين أيه ساهمت بشكل مباشر في نيل إيران عضوية نادي بوش للأشرار[43]. صُدمت طهران من الخطاب، فسياسة الوفاق الدولي التي انتهجها خاتمي، والمساعدة التي قدّمتها إيران للولايات المتحدة بأفغانستان كانت بدون طائل. بعد أن رأى أجندته المحلّية وهي تتداعى، تلقّى الموقف الدولي لخاتمي الآن ضربة. فقد عرّض نفسه للخطر، وواجه المتشددين بطهران الذين تبيّن أن شكوكهم في أهلية أميركا للثقة كانت صحيحة[44]. تقول فريدة فرحي، وهي خبيرة في الشؤون الإيرانية بجامعة هاواي: "كان محور الشرّ بمثابة فشل ذريع لحكومة خاتمي. وقد استغلّه المتشددون الذين قالوا: 'إذا أذعنتم، إذا قدمتم مساعدتكم من موقف ضعف، فستحصلون على نتائج سلبية'"[45].

المثير للسخرية هو أنه كان قد مضى على وصف إيران للولايات المتحدة بالشيطان الأكبر أكثر من عقدين عندما أشار بوش إلى إيران بأنها دولة شرّيرة. من الواضح أن كلتا الدولتين استخدمت حصتها من الخطاب المفرط وغير المنتج. لكن يوجد القليل من الأمثلة على إطلاق مثل هذه التصريحات غير الدبلوماسية في مثل هذا الوقت الحرج – فبعد مرور أسابيع على إثبات إيران أنها حليف لا يمكن الاستغناء عنه بأفغانستان– جادل المتشددون بطهران، بالإضافة إلى بعض أعضاء الوفد الإيراني الذي تفاوض مع الأميركيين، بأنه لا يجدر بإيران أن تعرض على الولايات المتحدة المساعدة بدون الإصرار على دفع ثمن مقدماً. يقول ظريف: "ارتكبت إيران خطأ بعدم ربط مساعدتها في أفغانستان بمساعدة أميركية في نواحٍ أخرى، وبالأمل بأن ترد الولايات المتحدة على المعاملة بالمثل". أُجبر بعض هؤلاء الدبلوماسيين لاحقاً على دفع ثمن هذا الفشل بإرغامهم على الاستقالة من مناصبهم، مما جعل الآخرين في دوائر السياسة الخارجية الإيرانية يفكرون مرتين قبل مدّ يد صداقة إلى إدارة بوش.

تمثلت ردّة فعل إيران الفورية على خطاب محور الشرّ بقطع قناة جنيف تعبيراً عن احتجاجها. قال الإيرانيون بأن واشنطن فشلت مرة أخرى في الرد على النوايا الإيرانية الطيبة بالمثل، وعوقبت إيران بدلاً من ذلك على دعمها للأميركيين[46]. في اجتماعهم الأخير بدوبنز، احتجّ الإيرانيون على خطاب محور الشرّ. شرح دوبنز بأنه لا يزال هناك الكثير من نقاط الخلاف مع إيران، بما في ذلك الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، وأن التعاون في أفغانستان بالرغم من أنه كان مفيداً جداً، لم يغيّر تلك الحقيقة، وأشار إلى أنه في أغلب الحالات، كانت الولايات المتحدة وإيران لا تزالان على طرفي نقيض. جسّد الردّ الإيراني الفرصة التي أضاعها تصريح محور الشرّ عندما قال الإيرانيون لدوبنز كاشفين عن نية طهران في استخدام القناة والتعاون بأفغانستان من أجل حل القضايا العالقة بين الولايات المتحدة وإيران، بقولهم: "كنا نرغب في مناقشة تلك المسائل أيضاً"[47]. بالنسبة إلى الإيرانيين،

كان أمراً محيّراً جمعهم مع صدام حسين، عدو إيران اللدود[48].

لكن تعليقات بوش لم تشعل نوبة من الغضب بطهران فقط، فقد قوبل الخطاب، والعبارة التي استُخدمت فيه، بانتقاد شديد داخل الولايات المتحدة أيضاً بما في ذلك الانتقادات التي وجهها مسؤولون أميركيون (بالرغم من أنهم نادراً ما كانوا يعبّرون عن انتقاداتهم علناً إلى أن يغادروا مناصبهم). شعر دوبنز بأنه كان من "المثير للضحك والسخرية" الإشارة إلى إيران، والعراق، وكوريا الشمالية بأنهم يشكلون محوراً. وقد صرّح دوبنز لمؤسسة أميركا الجديدة في أغسطس/آب 2006، "كان الأمر أشبه بالإشارة إلى أنه ينبغي معاملة الاتحاد السوفياتي وألمانيا النازية على قدم المساواة بعد أن اجتاحت ألمانيا الاتحاد السوفياتي"[49]. وحذّر رايس من أن الخطاب يمكن أن يحمل إيران على الأخذ بالثأر عبر زعزعة الاستقرار بأفغانستان. لكن رايس لم تتأثر بالتحذير، واعتبرت أن أفغانستان وإيران دولتان غير مهمتين نسبياً، وقالت لدوبنز بأن الولايات المتحدة تفكّر في مخططات أكبر، وأنه لا أهمية لإيران أو أفغانستان في الصورة الكبيرة[50]. وردد موظفو وزارة الخارجية لدى باول أصداء هواجس دوبنز، ولكن وزير الخارجية "لم يرَ مشكلة رئيسية في الخطاب"[51].

أعطت قصة كارين أيه دفعاً جديداً للحملة التي تشنّها إسرائيل منذ زمن طويل لحمل المجتمع الدولي على الإعلان بأن إيران دولة راعية للإرهاب[52]. بناء على ذلك، أمر بيريز بطبع كتاب أسود ليصار إلى توزيعه في مختلف أنحاء العالم. قال بيريز: "سيكشف هذا الكتاب كافة الحقائق المتعلقة بالأعمال التي قام بها نظام رجال الدين ضدّ إسرائيل. وسيحتوي على كافة الدعوات التي أطلقها القادة الإيرانيون والتي طالبوا فيها بتدمير إسرائيل، فضلاً عن التفاصيل المتعلقة ببرنامجهم النووي الذي يهدف إلى تحقيق هذه الغاية"[53]. بدورها، دعت إيرانُ الأمم المتحدة إلى تشكيل محكمة جنائية لمحاكمة المسؤولين الإسرائيليين بتهمة ارتكاب جرائم حرب[54]. وسرعان ما تحوّل الخطاب إلى تهديدات مباشرة، فهددت إسرائيل بضرب المنشآت النووية الإيرانية في بوشهر، وردّ الإيرانيون بالتهديد بمهاجمة إسرائيل بالصواريخ الباليستية في حال انتهكت إسرائيلُ السيادة الإيرانية[55].

في مرحلة معينة، بلغ الخطاب مستوى من العدوانية إلى حدٍّ جعل كلاً من واشنطن والجنرالات الإسرائيليين يتدخلون للتخفيف من حدّة التوتر. ففي فبراير/شباط 2006، طلبت واشنطن من شارون التخفيف من لهجته حيال إيران. وخلال الشهر نفسه، ذكّر رئيس مجلس الأمن القومي الإسرائيلي، الجنرال عوزي دايان، زملاءه بتل أبيب بأنه ينبغي تصوير إيران على أنها خطر عالمي، لا أنها خطر على إسرائيل فقط. قال دايان لإذاعة الجيش الإسرائيلي، بأن إيران "ليست عدواً لإسرائيل، وأنه لا يجدر بنا تهديد إيران – من وجهة نظرنا، إيران ليست عدواً – ولكن علينا التأكد من عدم تمكن إيران من اقتناء أسلحة دمار شامل"[57]. لكن على الرغم من خطاب محور الشرّ والجهود التي بذلتها إسرائيل لعزل إيران، لم تنقلب طهران أبداً على أميركا بأفغانستان. بحلول الوقت الذي توقف فيه الإيرانيون عن المشاركة في اجتماعات جنيف، كان قد تم التغلب على العقبات الرئيسية بأفغانستان في القتال ضدّ طالبان وفي تشكيل الحكومة الأفغانية الجديدة. لكن سرعان ما سيجد الإيرانيون أنهم بحاجة إلى طريقة للعودة إلى جنيف، لأنهم أدركوا بعد وقت قصير على انتهاء الحرب الأفغانية أن المتشددين بواشنطن قطعوا شوطاً كبيراً في إعداد خطط لتوسيع الحرب لتشمل الجار الغربي لإيران – العراق.

الفصل 19 انتزاع الهزيمة من بين فكّي النصر

إذا كان التواضع قوة الضعيف، فالتكبّر هو ضعف القوي.

– ماريي غروث

أعتقد بأننا نرتكب خطأ كبيراً بعدم فتح قناة مع إيران.

– معلّق عسكري إسرائيلي بارز (في تعليقه على فشل إسرائيل في الاستفادة من اليد التي مدّتها إيران)، 17 أكتوبر/تشرين الأول 2004

حدث ذلك في سبتمبر/أيلول 2000، أي قبل عام من الهجمات الإرهابية التي وقعت يوم 11 سبتمبر/أيلول. لكن تركيز ديك تشيني، ودونالد رامسفيلد، وبول وولفويتز، وجِب بوش حاكم فلوريدا، وآي لويس ليبي مساعد تشيني كان منصبّاً على العراق عندما اجتمعوا في مؤتمر للمحافظين الجدد تحت عنوان مشروع القرن الأميركي الجديد في واشنطن العاصمة[1]. برعاية هذه المنظمة، صاغوا وثيقة تحدد رؤيتهم لدور أميركا في الشرق الأوسط، والتي تضمنت هجوماً على العراق. جادل تقريرهم، الذي حمل العنوان **إعادة بناء دفاعات أميركا: الاستراتيجيات، والقوى والموارد لقرن جديد**، بأنه يتعين أن يكون للولايات المتحدة تواجد عسكري دائم في الخليج العربي، وأنه على الرغم "من أن الصراع غير المحسوم مع العراق يوفر تبريراً مباشراً لغزوه، فإن الحاجة إلى وجود قوة عسكرية أميركية كبيرة في الخليج تتجاوز قضية نظام صدام حسين"[2]. تم نشر التقرير وتوزيعه على نطاق واسع داخل الأوساط السياسية بواشنطن. كان التحرّك ضدّ العراق جارياً على قدم وساق، وتكهّن العديد بأن دخول أميركا حرباً مع العراق كان لخدمة المصالح الإسرائيلية، وتمضي الحجة مشيرة إلى أن اللوبي المؤيد لإسرائيل ضغط على إدارة جورج دبليو بوش لكي تغزو العراق بعد 11 سبتمبر/أيلول لضمان أمن إسرائيل. لكن الواقع، يشير إلى أن إسرائيل أصبحت داعماً متزمّتاً للحرب فقط بعد أن أدركت أن واشنطن حسمت أمرها بالهجوم على العراق، مهما كانت الظروف[3].

يمكن القول إنه كان لدى إسرائيل أسباب وجيهة لدعم غزو أميركي للعراق. فبقاء صدام وقدرته المحتملة على إنتاج أسلحة دمار شامل كانا حجر عثرة في طريق وصول إسرائيل إلى هدفها الأساسي: إعادة رسم الخريطة السياسية للشرق الأوسط بشكل جذري عبر ضمان ميل ميزان القوى إلى إسرائيل بشكل نهائي. لقد مضى التعليل إلى حدّ القول إنه في حال نجح الأميركيون في العراق، يمكن أن يصبح العراق مصر الثانية؛ دولة عربية قوية وذات كثافة سكانية عالية، ستبرم بسبب صلاتها بالولايات المتحدة صلحاً مع إسرائيل. إذا أضاف العراق اسمه إلى لائحة الدول العربية التي تعترف بإسرائيل، عندئذٍ يصبح عدوّا إسرائيل الإقليميّان – إيران وسوريا – أكثر انعزالاً وأشدّ ضعفاً.

كما أن غزواً أميركياً للعراق سيمكّن إسرائيل أيضاً من استئناف اتصالاتها مع الأكراد العراقيين. كانت عشيرة البرزاني، التي تمتع الإسرائيليون بتعاون طويل ومثمر معها في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، لا تزال قوة رئيسية في السياسة الكردية. وبواسطة دعمها، يمكن أن تستخدم إسرائيلُ إقليم كردستان العراقي في جمع المعلومات عن المنطقة الواقعة شمال غرب إيران واختراقها، كما كانت تفعل إيران مع إسرائيل بجنوب لبنان. في الواقع، حصلت محطة بي بي سي في سبتمبر/أيلول 2006 على دليل بأن الإسرائيليين بدأوا بعد احتلال الأميركيين للعراق، بتدريب الأكراد في شمال العراق بالقرب من الحدود الإيرانية. وكانت صحيفة يديعوت أحرنوت قد نشرت تقريراً حول الموضوع نفسه في ديسمبر/كانون الثاني 2005[4]. لكن بقدر ما يثير العراق المشكلات، لم تعد تنظر إليه إسرائيل على أنه الخطر الرئيسي. فابتداءً من أواخر التسعينيات، عندما بدأت إيران برنامجها الصاروخي الباليستي بشكل جدّي، تربّعت إيران على قمّة لائحة الأخطار الإقليمية التي تهدد إسرائيل. لذلك، وعلى العكس من التصورات الشائعة، عارضت إسرائيل الحرب العراقية في بداية الأمر.

في مستهل العام 2002، بدأت الحكومة الإسرائيلية تشتبه في أن الولايات المتحدة قد تهاجم العراق. رأت إسرائيل أن ذلك سيكون غلطة لأن العراق كان الخطر الخطأ؛ وأنه ينبغي عدم هدر الطاقات على عدو ثانوي في حين يتم تجاهل الخطر الحقيقي؛ إيران. بناء على ذلك، تدفق المسؤولون الإسرائيليون، عسكريون ومدنيون، إلى واشنطن للتعبير عن معارضتهم. كانت رسالة إسرائيل واضحة: هناك حاجة إلى العراق لموازنة العدو الحقيقي. في فبراير/شباط 2002، زار بنيامين بن أليعازر من حزب العمل واشنطن لإقناع إدارة بوش بأن إيران هي "الخطر الاستراتيجي الحقيقي" وأنه يتعين على أميركا "التعامل معها بطريقة دبلوماسية، أو عسكرية، أو بالطريقتين معاً". وفي حال لم تقم واشنطن بذلك، هدد بن أليعازر بأن "إسرائيل ستُضطرّ إلى القيام بذلك بمفردها"[5]. ورفض إسرائيليون آخرون حجة المحافظين الجدد التي تقول إن سقوط صدام وبروز ديموقراطية عراقية سيشعلان ثورة شعبية في إيران ضدّ رجال الدين.

لكن بعد أن استنتجت بأن المحافظين الجدد في الإدارة قد حسموا أمرهم، وأن الرئيس بوش عازم على الدخول في حرب مع العراق مهما تكن الظروف، غيّرت إسرائيل أساليبها. في أواخر ربيع العام 2002، قدمت موجة جديدة من الإسرائيليين إلى البيت الأبيض. يقول لورنس ويلكرسون، كبير موظفي وزارة الخارجية لدى كولن باول: "كان أكثر المشاهد التي رأيتها إثارة للفضول". حملت هذه الموجة الثانية رسالة مختلفة: جادل هؤلاء بأن العراق خطر، وأحضروا معهم معلومات استخبارية جديدة لدعم تغيّرهم المفاجئ. ولكنهم قالوا إن إيران تشكل خطراً أيضاً، وينبغي على واشنطن ألاّ تقتصر على غزو العراق، بل ينبغي أن تكون إيران الهدف الحقيقي على اعتبار أنه لا يمكن معالجة الخطر الإيراني إلاّ بعد تحييد العراق أولاً. أي أن حكومة أرييل شارون رأت في غزو العراق خطوة ضرورية لمواصلة الحرب ضدّ إيران. في مستهل شهر نوفمبر/تشرين الثاني 2002، كشف شارون عن الهدف الإسرائيلي عندما حثّ واشنطن على غزو إيران "بعد يوم" من سحق العراق[6].

للأسباب ذاتها، عارضت إيرانُ الحرب. صحيح أن نوايا صدام تجاه إيران ظلت عدائية، لكن جيشه، الذي دمّر السوادَ الأعظم منه التحالفُ

الذي قادته الولايات المتحدة في حرب الخليج، اعتراه ضعف شديد، كما أن الاقتصاد العراقي كان في حالة مزرية فيما كانت يدا صدام مكبّلتين بعد عقد من العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة والعزلة الدولية. كان العراق يشكل خطراً على إيران على المدى القصير، غير أن خطراً مصدره صدام المعادي، ولكن الذي لا حول له ولا قوة أفضل من الخطر الذي يشكله تنصيب حكومة عميلة موالية للغرب في العراق تضمر نوايا عدوانية تجاه إيران وتدعمها الجيوش الغربية. خشي الاستراتيجيون بطهران من أن بروز نظام ببغداد يميل إلى الغرب سيكمل تطويق أميركا لإيران، فإلى الجنوب من إيران، أوكلت الدولُ العربية الموالية لأميركا أمنها لواشنطن، وأضفت صبغة من الشرعية على التواجد العسكري الأميركي في الخليج العربي، وإلى الشمال من إيران، تتواجد القوات الأميركية في أذربيجان وفي جمهوريات آسيا الوسطى، وعند الحدود الجنوبية الغربية للبلاد، برزت باكستان كحليف رئيسي للأميركيين في الحرب العالمية على الإرهاب، حتى وإن كانت المؤسس لنظام طالبان بأفغانستان والداعم الرئيسي له. مع هزيمة طالبان، باتت القوات الأميركية تحوم عند الحدود الشرقية لإيران أيضاً. لقد خشيت طهران، التي يوجد بينها وبين العراق حدود مشتركة يبلغ طولها 1300 كيلومتر تقريباً، من أن نجاح أميركا في احتلال العراق سيجعل إيران هدفاً يتعذر الدفاع عنه في خطة إدارة بوش لتحويل الشرق الأوسط. والتصريحات التي صدرت عن المعاهد والمؤسسات الفكرية ذات النزعة المحافظة الجديدة بواشنطن لم تعمل على طمأنة الإيرانيين. فعلى سبيل المثال، راجت نكات في أوساط الإدارة قبل الغزو تقول إحداها: "الكل يريد الذهاب إلى بغداد، لكنّ الرجال الحقيقيين يريدون الذهاب إلى طهران"[7].

بالرغم من أن قلة في طهران أرادوا التضحية بمستقبلهم بمحاولة مدّ اليد إلى واشنطن مجدداً، غير أن طبول الحرب التي قرعها المحافظون الجدد في مستهل العام 2002 أقلقت الإيرانيين بما يكفي لكي يشحذوا عزائمهم ويحاولوا مجدداً. كان لا يزال في حوزة رجال الدين القليل من الأوراق القيّمة التي أملوا بأن يلعبوها لقلب الجدال الدائر بواشنطن لمصلحة وزارة الخارجية الأميركية وأولئك الذين يفضّلون الحوار. إحدى هذه الأوراق كانت المعلومات الاستخبارية الإيرانية فائقة النوعية، واطلاع الإيرانيين على الأوضاع بالعراق. بفضل سنوات الحرب الثماني في الثمانينيات، استوعب الإيرانيون، بخلاف الأميركيين، الشبكات الاجتماعية العشائرية العراقية المعقدة، وعرفوا كيفية التعامل معها. رأت طهران أن واشنطن ستكون بحاجة إلى هذه المعرفة، وهذا ما سيعطي الإيرانيين بعض النفوذ على المحافظين الجدد. فبدون قناة اتصال، يمكن أن يحدث سوء تفاهم، وهو ما سيفيد المنافسين الإقليميين لإيران، بما في ذلك إسرائيل والدول العربية. كما ضغطت جماعات المعارضة العراقية التي لديها روابط وثيقة مع طهران – سواء المنظمات الشيعية أم الفصائل الكردية بقيادة جلال الطالباني (الذي أصبح في وقت لاحق رئيس العراق) – على الإيرانيين لكي يساعدوا الأميركيين. في النهاية، احتاج الإيرانيون إلى قناة لفهم القرارات الأميركية الخاصة بالعراق والتأثير فيها، واحتاج الأميركيون إلى إيران لكي لا تعقّد الخطط الأميركية. لذلك، أعيد فتح قناة جنيف في أواخر ربيع العام 2002 بعد اتصال وزارة الخارجية الأميركية بالإيرانيين.

بالنظر إلى خبرتها في المناقشات السابقة التي دارت حول أفغانستان، أرادت إيران توسيع المجموعة لتضمّ قوى رئيسية أخرى. لكن الولايات المتحدة عارضت الاقتراح، لأنه سيتضمن روسيا وفرنسا، وهما الدولتان اللتان عارضتا بقوة القيام بعمل عسكري ضدّ العراق. لذلك، كان الحل في استخدام المجموعة التي شاركت في المباحثات السابقة حول أفغانستان، مع إجراء مناقشات حول العراق كبند هامشي في المباحثات[8]. ترأس المباحثات في الجانب الإيراني شخصيات سياسية رفيعة، منها السفير لدى الأمم المتحدة جواد ظريف. أما نظيره في الجانب الأميركي فكان السفير زلماي خليل زاد، وهو أميركي من أصل أفغاني يتحدث اللغة الفارسية بطلاقة، ويتمتع بعلاقات وثيقة مع الرئيس بوش. افتقرت المباحثات إلى روح التعاون التي سادت إبّان الحرب الأفغانية، ولكنها استمرّت بالرغم من ذلك بدافع الضرورة المتبادلة[9]. شعر بعض المفاوضين الإيرانيين بأن خليل زاد كثير الشكوى، واعتقدوا بأن هذا الرجل الذي يتكلم الإنكليزية بلكنة أفغانية يسعى إلى التعويض عن وضعه كمهاجر باتخاذ مواقف متشددة على نحو مبالغ فيه في المفاوضات.

كان العمل الموازن الذي قامت به إيران عملاً دقيقاً. أرادت إيران أن توازن بين الخوف من أن عملية أميركية ناجحة ستترك إيران مطوّقة وبين الهدف الضعيف الثاني المتمثل في ازدياد جرأة صدام وتحوله إلى خطر أعظم في حال نجاته. بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن تؤدي حرب ناجحة تليها عملية إعادة إعمار فاشلة إلى تفكك العراق مع ما سيستتبع ذلك من تأثيرات تطال محيطه: يمكن أن يعلن الأكراد في شمال العراق استقلالهم، وهذا بدوره سيشجع على إطلاق دعوات مشابهة في أوساط الأقلية الكردية بإيران التي يبلغ عددها ستة ملايين (حوالى 10 في المائة من عدد السكان). والفراغ الناتج في السلطة سيجذب بلداناً مثل تركيا، والمملكة العربية السعودية، وسوريا وإيران إلى الحلبة العراقية رغماً عنها. لذلك، على الرغم من حقيقة أن إيران تعارض حرباً أميركية على العراق، استنتجت إيران – حالما تبيّن أن الحرب واقعة لا محالة – أن الدعم المعتدل للجهد الأميركي هو أهون الشرّين[10].

ما إن استؤنفت المحادثات الأميركية الإيرانية حتى بدأ المحافظون الجدد بواشنطن محاولة تقويضها. فبعد عقد ونيّف، بات مايكل ليدين والإسرائيليون في الجانب الآخر من النقاش. جادل ليدين بقوة على الصفحات الأولى للنيويورك تايمز في يوليو/تموز 1988 – مع انتهاء الحرب العراقية الإيرانية– بأنه يتعين على الولايات المتحدة أن تبدأ حواراً مع إيران فقال: "ينبغي على الولايات المتحدة، التي كان يجدر بها استكشاف آفاق تحسين العلاقات مع إيران قبل الآن... انتهاز الفرصة والقيام بذلك. فالانتظار ربما يعني حتى بالنسبة إلى الإيرانيين الموالين للغرب أن رفض السعي إلى بناء علاقات أفضل يستند إلى شعور بالعداوة تجاه إيران بدلاً من أن يكون اعتراضاً على عمل إيراني محدد، والإيرانيون الذين يطالبون بعلاقات أفضل مع الغرب يستجمعون قواهم كما هو واضح... ومن بين المدافعين عن تحسين العلاقات مرشحان بارزان لخلافة آية الله الخميني: آية الله حجة الإسلام رفسنجاني وآية الله حسين منتظري"[11]. الآن، بات ليدين والإسرائيليون يسعون إلى منع رفسنجاني أو أي مسؤول إيراني آخر من التحدث إلى الأميركيين. في يونيو/حزيران 2002، أي قبل أسابيع قليلة من إعادة فتح قناة جنيف، نظّم ليدين اجتماعاً ثانياً بروما مع مسؤولين من البنتاغون

وغوربانيفار. لكن في هذه المرّة، حرص ليدين على أن يكون الاجتماع سرّاً مكشوفاً، وسرعان ما أُحيطت لجنة الاختيار في مجلس الشيوخ علماً به. وفي صيف العام 2003، كشفت نيوزويك عن التعاملات الجارية بين غوربانيفار وليدين والبنتاغون. قال غوربانيفار نفسه للصحافية الأميركية لورا روزن بأنه عقد أكثر من خمسين اجتماعاً مع ليدين بعد 11 سبتمبر/أيلول، وقدّم له أكثر من "4000 إلى 5000 وثيقة حساسة" تتعلق بإيران، والعراق، والشرق الأوسط[12].

بالرغم من أن البنتاغون اعتبر تلك الاجتماعات بأنها "لقاءات جرت بالصدفة"، فإن الكشف عن مشاركة مسؤولين أميركيين رفيعي المستوى في محادثات مع عناصر من المعارضة الإيرانية زاد من صعوبة حدوث خرق في العلاقات الأميركية الإيرانية. لكنّ جهود ليدين فشلت في دفع الإيرانيين إلى إغلاق قناة جنيف. تواصلت الاتصالات، واستناداً إلى كينيث بولاك من معهد بروكينغز، انتهى الأمر بإيران إلى لعب دور مفيد جداً في غزو العراق، وبخاصة في مرحلة إعادة الإعمار فور انهيار الجيش العراقي. فقد أمرت إيران، بالإضافة إلى جملة من الأشياء الأخرى، الجماعات الشيعية النافذة التابعة لها في العراق بالمشاركة في إعادة الإعمار بعد الحرب بدلاً من مقاومة الاحتلال الأميركي، وعندما كان في مقدور إيران التسبب بمشكلات للولايات المتحدة، اختارت عدم القيام بذلك. كتب بولاك "لو أراد الإيرانيون إحداث فوضى بالعراق بعد سقوط صدام، لتمكنوا من القيام بذلك بسهولة في أحلك الأيام التي أعقبت الحرب، ولكن الولايات المتحدة كانت محظوظة بعدم قيامهم بذلك"[13].

عرض لا يمكن لواشنطن أن ترفضه

تبيّن أن هزيمة العراق عسكرياً المهمة السهلة التي توقعها المحافظون الجدد لم تكن كذلك. ففي 9 أبريل/نيسان 2003، أي بعد مرور ثلاثة أسابيع فقط على بدء الغزو، دخلت القواتُ الأميركية بغداد، وأُعلن رسمياً عن احتلال القوات الأميركية للعاصمة العراقية، وانتهت رسمياً حقبة صدام. غير أن هزيمة الولايات المتحدة لأقوى جيش نظامي عربي بهذه السرعة – وهو ما فشل الإيرانيون في إنجازه بعد ثماني سنين من الحرب الدموية – أثارت الذعر في نفوس أعداء أميركا في المنطقة وما وراءها. حتى أن صقور واشنطن أنفسهم تفاجأوا من سهولة القضاء على الحرس الجمهوري التابع لصدام. في طهران، واجه رجال الدين حقيقة جديدة وقاتمة. لقد اكتمل الحصار الأميركي لإيران. فخلال السنوات الأربع والعشرين لحكم رجال الدين، نادراً ما شعروا بهذا القدر من الضعف. وقبل أيام من إعلان بوش عن أن المهمة قد انتهت على ظهر حاملة الطائرات الأميركية أبراهام لينكولن في 1 مايو/أيار، شعرت إيران بأنه ينبغي القيام بمحاولة أخيرة لمد اليد إلى الولايات المتحدة الأميركية. فبعد أن رأى الإيرانيون أن بقاء النظام الإيراني نفسه بات على المحك، وضعوا كل شيء على الطاولة؛ حزب الله، والصراع الإسرائيلي الفلسطيني بما في ذلك حماس والجهاد الإسلامي، والبرنامج النووي الإيراني.

أعدّ الإيرانيون اقتراحاً شاملاً بيّن حدود صفقة ضخمة محتملة بين البلدين تعالج كافة نقاط النزاع بينهما. كتب صادق خرازي، نجل شقيق وزير الخارجية الإيراني وسفير إيران لدى فرنسا، المسودة الأولى للاقتراح. ثم رُفعت المسودة إلى المرشد الأعلى للثورة الإيرانية للمصادقة عليها، والذي طلب بدوره من ظريف – السفير لدى الأمم المتحدة – مراجعتها قبل إرسالها إلى الأميركيين، ووضع اللمسات الأخيرة عليها. لم يكن على علم بهذا الاقتراح ويشارك في إعداده سوى دائرة مغلقة من صنّاع القرار بطهران؛ وزير الخارجية كمال خرازي، والرئيس محمد خاتمي، والسفير لدى الأمم المتحدة ظريف، والسفير لدى فرنسا خرازي، والمرشد الأعلى للثورة علي خامنئي. بالإضافة إلى ذلك، أجرى الإيرانيون مشاورات مع تيم غالديمان، السفير السويسري لدى إيران، والذي كان سيسلّم الاقتراح في النهاية إلى واشنطن.

أذهل الاقتراحُ الأميركيين. فهو لم يكن اقتراحاً رسمياً وحسب – على اعتبار أنه حصل على موافقة المرشد الأعلى– بل إن ما تضمنه من بنود كان مدهشاً أيضاً. يقول فينت ليفيريت الذي خدم كمدير رفيع في شؤون الشرق الأوسط لدى مجلس الأمن القومي حينها: "اعترف الإيرانيون بأن أسلحة الدمار الشامل ودعم الإرهاب قضيتان هامتان بالنسبة إليهم، وأنهم على استعداد للتفاوض عليهما. لقد حظيت الرسالة بموافقة كافة المستويات العليا للسلطة"[14]. بذلك، وضع الإيرانيون كافة أوراقهم على الطاولة، وصرّحوا عن كل ما يريدونه من الولايات المتحدة، وعن الأشياء التي هم على استعداد لتقديمها بالمقابل[15]. يقول محمد حسين عادلي الذي كان حينها نائب وزير الخارجية الإيراني: "مضت تلك الرسالة التي جرى تسليمها للأميركيين إلى حدّ القول بأننا على استعداد للتحاور، وعلى استعداد لمعالجة قضايانا"[16].

في حوار حول الاحترام المتبادل، عرض الإيرانيون وقف دعمهم لحماس والجهاد الإسلامي – الإخوة الإيديولوجيون لإيران في صراعها مع الدولة اليهودية– والضغط على المجموعتين لكي توقفا هجماتهما على إسرائيل، وفي ما يتعلق بحزب الله؛ وليد أفكار إيران، وشريكها الأكثر جدارة بالاعتماد عليه في العالم العربي، عرض رجال الدين دعم عملية نزع سلاحه وتحويله إلى حزب سياسي صرف. في الموضوع النووي، عرض الاقتراح فتح البرنامج النووي الإيراني بالكامل أمام عمليات تفتيش دولية غير مقيدة من أجل إزالة أية مخاوف من برامج التسلّح الإيرانية. وسيوقّع الإيرانيون على البروتوكول الإضافي الخاص بمعاهدة عدم الانتشار، كما سيعرضون على الأميركيين إمكانية المشاركة الكثيفة في البرنامج كضمانة إضافية وإيماءة على حسن النية. في موضوع الإرهاب، عرضت طهران التعاون الكامل في مواجهة كافة المنظمات الإرهابية؛ وأهمها القاعدة. في الموضوع العراقي، ستعمل إيران بنشاط مع الولايات المتحدة على دعم الاستقرار السياسي وإقامة مؤسسات ديموقراطية، والأهم من ذلك، تشكيل حكومة غير دينية.

ربما كان البند الأكثر إثارة للدهشة ذلك المتعلق بعرض إيران القبول بإعلان بيروت الصادر عن القمة العربية؛ أي خطة السلام التي أعلنها ولي العهد السعودي في مارس/آذار 2002 والتي عرض العرب بموجبها إبرام سلام جماعي مع إسرائيل، مقابل موافقة إسرائيل على الانسحاب من

كافة الأراضي المحتلة والقبول بدولة فلسطينية مستقلة بالكامل، والتوصل إلى حلّ عادل لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين. من خلال هذه الخطوة، ستعترف إيران رسمياً بالحل القائم على دولتين. وكان المتشددون بطهران قد رفضوا قبل سنة واحدة فقط المبادرة العربية، مجادلين بأن عودة إسرائيل إلى حدود ما قبل العام 1967 ستكون حلاً غير عادل بالنسبة إلى الفلسطينيين[17].

بالمقابل، كان لدى الإيرانيين مطالب تكتيكية وأخرى استراتيجية. على المستوى التكتيكي، أرادوا تسلّم أعضاء من المنظمة الإرهابية الإيرانية العاملة بالعراق، منظمة مجاهدي خلق، في مقابل تسليم ناشطين من القاعدة تحتجزهم إيران. لم يكن الإيرانيون تواقين إلى تسليم ناشطي القاعدة ما لم تغيّر الولايات المتحدة موقفها من إيران. كانت طهران تخاطر بجعل نفسها هدفاً رئيسياً لمنظمة القاعدة في حال سلّمت ناشطيها إلى الولايات المتحدة. وما لم توافق الولايات المتحدة على مبادلة تلك الخطوة بمثلها، سيواجه الإيرانيون غضب القاعدة بمفردهم. وبالإضافة إلى ذلك، تعاملت إيران مع سجناء القاعدة بوصفهم ورقة مساومة قيّمة. وبناء على ذلك، سيكون من غير الحكمة تسليمهم بدون تأمين تدبير مضادّ من جانب الولايات المتحدة. لقد رأى رجال الدين أن مبادلة إرهابيي القاعدة بإرهابيي مجاهدي خلق ستكون صفقة مناسبة تنسجم مع مضمون الحرب على الإرهاب، وستظهر نية واشنطن في عدم استخدام الجماعات الإرهابية في إسقاط نظام رجال الدين. ففي النهاية، جرى إدراج منظمة مجاهدي خلق على لائحة وزارة الخارجية الأميركية للمنظمات الإرهابية تحت أسماء مختلفة منذ العام 1992.

سبق أن أشار بوش في خطاب ألقاه في الأمم المتحدة إلى دعم صدام لمنظمة مجاهدي خلق كدليل على علاقاته بالإرهابيين. قال بوش أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في 12 سبتمبر/أيلول 2002: "يواصل العراق إيواء ودعم المنظمات الإرهابية التي تقوم بأعمال عنف مباشرة ضدّ إيران"[18]. لكن على الرغم من وضعيتها كمنظمة إرهابية، كان يوجد لدى مجاهدي خلق مناصرون أقوياء في واشنطن وتل أبيب. ففي أغسطس/آب 2002، لعبت المنظمة دوراً في الكشف عن تطور البرنامج النووي الإيراني. وصدر الكثير من المؤشرات التي تدل على أن المعلومات الاستخبارية التي كشفت عنها منظمة مجاهدي خلق كان مصدرها إسرائيل. وكانت الاستخبارات الإسرائيلية، التي قررت عدم الظهور في مظهر القوة الدافعة خلف الضغط الأميركي على إيران في الموضوع النووي، قد اتصلت أولاً بنجل الشاه لكي يقوم هو بالكشف عن هذه المعلومات. لكن وريث الشاه رفض إذاعة هذه الأخبار، وهو ما ترك أمام الاستخبارات الإسرائيلية القليل من الخيارات عدا الاتصال بمنظمة مجاهدي خلق[19]. في البيت الأبيض، كان إرهابيو مجاهدي خلق يحظون بحماية رامسفيلد، وتشيني، وغيرهما من المحافظين الجدد الذين رأوا في المنظمة رصيداً محتملاً في السعي إلى زعزعة استقرار النظام الإيراني[20]. بعد الغزو الأميركي، قرر وزير الدفاع رامسفيلد، كما سبق أن قرر صدام، استخدام مقاتلي المنظمة في مراقبة السكان العراقيين. وسمح للمنظمة بالاحتفاظ بأسلحتها، وأمرها بتزويد نقاط التفتيش في جنوب العراق بالرجال إلى جانب القوات الأميركية. عندما جادل باول بأنه لا يمكن للولايات المتحدة أن تتودد إلى منظمة إرهابية في غمرة حرب أميركا الخاصة على الإرهاب، أجاب رامسفيلد بأنه لا يملك العدد الكافي من الجنود لنزع أسلحة منظمة مجاهدي خلق[21].

كان موقف وزير الدفاع، المنتمي إلى جناح الصقور، من منظمة مجاهدي خلق سراً مكشوفاً بواشنطن. ففي أواخر مايو/أيار 2003، أذاعت محطة أي بي سي نيوز تقريراً أفاد بأن البنتاغون يدعو إلى الإطاحة بالنظام الإيراني عبر "استخدام كافة نقاط الضغط المتاحة ضدّ النظام الإيراني، بما في ذلك دعم المنشقّين الإيرانيين المسلّحين ونشر خدمات مجاهدي خلق"[22]. (بالرغم من أن باول تمكن في النهاية من إغلاق مكاتب المنظمة في واشنطن العاصمة في أغسطس/آب 2003، لا تزال هذه المجموعة نشطة في الولايات المتحدة وفي العراق. ففي يناير/كانون الثاني 2004، نظّم أعضاء المنظمة حفلاً كبيراً لجمع التبرعات في مركز أم سي آي بواشنطن العاصمة، حيث كان ريتشارد بيرل، وهو شخصية رئيسية في دوائر المحافظين الجدد، متحدثاً رئيسياً فيه. وحصل المتحدث باسم المنظمة وكبير حاشدي الدعم لها، علي رضا جعفرزادة، على وظيفة منذ ذلك الحين كخبير في شؤون الإرهاب لدى شبكة فوكس نيوز).

على المستوى الاستراتيجي، أراد الإيرانيون التوصل إلى تفاهم على المدى الطويل مع الولايات المتحدة عبر وقف كافة التصرفات المعادية التي تقوم بها أميركا، مثل خطاب محور الشرّ والتدخل في الشؤون الداخلية الإيرانية، وإنهاء كافة العقوبات الأميركية، واحترام المصالح القومية الإيرانية بالعراق، ودعم مطالب الإيرانيين بالحصول على تعويضات عن الحرب، واحترام حق إيران بالحصول غير المقيد على التكنولوجيا النووية والبيولوجية والكيميائية، وأخيراً الاعتراف بالمصالح الأمنية الإيرانية المشروعة في المنطقة. كما أوضحت الوثيقة الإجراءات الخاصة بالتفاوض المتدرّج إلى حين التوصل إلى اتفاقية تكون مقبولة لدى الطرفين[23].

كان إيصال الاقتراح إلى الولايات المتحدة عملية كبرى. خدم السفير السويسري، الذي يتولّى رعاية المصالح الأميركية بإيران، تيم غولديمان، كوسيط عندما كان البلدان بحاجة إلى تبادل الاتصالات. جرى إعداد هذه القناة في العام 1990، أي قبل اندلاع حرب الخليج مباشرة، لأن واشنطن أقرّت بالحاجة إلى الاتصال بالإيرانيين من أجل تجنّب أي سوء فهم محتمل أثناء الحرب. بناء على ذلك، اتصل الأميركيون بالسويسريين وأعطوهم توجيهات صارمة جداً تتعلق بتلك القناة. كان ينبغي نقل المعلومات – في كِلا الاتجاهين – بدون أي تفسير من جانب السويسريين. كان على السفارة السويسرية بطهران إرسال الرسائل الإيرانية إلى السفارة السويسرية بواشنطن عبر وزارة الخارجية السويسرية، والتي بدورها تسلّم تلك الرسائل إلى وزارة الخارجية الأميركية[24].

من الواضح أن الإيرانيين، الذين كانوا على دراية تامة بالاقتتال الداخلي والصراع على النفوذ الذي ميّز إدارة بوش، تخوّفوا من عدم وصول الاقتراح إلى البيت الأبيض في حال لم يُرسل إلى وزارة الخارجية الأميركية. وحتى في حال استلم باول الاقتراح، لا توجد ضمانة بأنه يستطيع لفت

انتباه بوش إليه، بالنظر إلى التوترات القائمة بين باول والمسؤولين في البيت الأبيض. لذلك برزت حاجة إلى قناة ثانية إلى جانب وزارة الخارجية الأميركية، إلى شخص يمكنه الاتصال مباشرة بالرئيس. عرف غولديمان، الذي كان إيجازه للأخبار المتعلقة بالأحداث الجارية بإيران للمسؤولين الأميركيين محل تقدير من جانب الإيرانيين، الشخص المطلوب: إنه بوب ني بأوهايو.

كان رئيس لجنة إدارة مجلس النواب الجمهوري القوي مشرّعاً غير عادي. فقد كان العضو الوحيد في الكونغرس الذي يتقن اللغة الفارسية، بعد أن تعلمها من رفاقه الإيرانيين بجامعة ولاية أوهايو. بعد تخرّجه من الكلّية، أمضى سنة في مدينة شيراز الواقعة جنوبيّ إيران حيث عمل مدرّساً للغة الإنكليزية. وبعد أن اجتاحت الثورة إيران، عاد بوب إلى الولايات المتحدة وبدأ العمل بالسياسة، حيث أفادته تجربته بإيران في مرات كثيرة. ومعرفته بأحوال إيران وخبرته فيها أكسبتاه احترام المشرّعين والمسؤولين في البيت الأبيض على حدّ سواء[25].

في أوائل مايو/أيار 2003، زار غولديمان واشنطن وأوجز لبوب شخصياً الاقتراح. أعطى الدبلوماسيُّ السويسري العضوَ في الكونغرس نسخة لاقتراح من صفحتين، تضمنت شرحاً عاماً للأهداف الإيرانية والأميركية واقترحت إجراءات للسير في المفاوضات، بالإضافة إلى رواية من إحدى عشرة صفحة لغولديمان عن المحادثات التي أجراها مع المسؤولين الإيرانيين. أوضحت رواية غولديمان موقف طهران وأصالة الاقتراح. كان غولديمان قد بعث بواسطة الفاكس قبل بضعة أيام، في 4 مايو/أيار، الاقتراح إلى وزارة الخارجية إلى جانب رسالة توضيحية تفصّل نوايا طهران الخاصة بالاقتراح وتثبت أصالته. كما تم إرسال نسخة أخرى إلى السفير الأميركي بجنيف، كيفن مولي. وكتب غولديمان في الرسالة التوضيحية، "لديّ انطباع واضح بأن هناك إرادة قوية لدى النظام لمعالجة المشكلة مع الولايات المتحدة الآن، ومحاولة القيام بذلك بواسطة هذه المبادرة".

أدرك بوب، الذي سبق أن دافع عن فتح حوار أميركي إيراني منذ وصول خاتمي إلى سدّة الرئاسة في العام 1997، بسرعة أن الوثيقة يمكن أن تحدث خرقاً هاماً في العلاقات الأميركية الإيرانية، وتساعد أميركا في الحرب التي تشنّها على القاعدة. وقال لي حينها بشوق واضح: "هذه هي الفرصة. هذه هي الفرصة التي ستحقق ذلك". قام على الفور بإرسال موظف لكي يسلّم الوثيقة باليد لكارل روف، كبير مستشاري الرئيس والذي يعرفه بوب منذ سنوات الدراسة في الكلّية. في غضون بضع ساعات، اتصل روف ببوب لكي يستعلم عن أصالة الاقتراح، فأكد له النائب عن ولاية أوهايو أنه سيقوم بتسليم الوثيقة "المثيرة للاهتمام" إلى الرئيس مباشرة. بذلك تكون الخطوة الأولى من العملية قد تمت بنجاح؛ وصل الاقتراح إلى أعلى المستويات في الحكومة الأميركية. لكنّ ردّ واشنطن فاجأ الجميع، بمن فيهم الدبلوماسي السويسري.

العجرفة

بالنسبة إلى وزارة الخارجية الأميركية، لم يكن الاقتراح بحاجة إلى تفكير. فقد عرضت إيران تقديم تنازلات هامة في مقابل إنهاء سياسة العقوبات التي ترعاها لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (إيباك) المؤيدة لإسرائيل، وهي السياسة التي ربما كبّدت الولايات المتحدة على الصعيد الدبلوماسي ما يفوق ما كبّدت إيران على الصعيد الاقتصادي، والأهم من ذلك أن العرض كان رسمياً وحظي بموافقة أعلى مستوى في السلطة بإيران، وهي حقيقة لم تفت وزارة الخارجية الأميركية[26]. آثر باول ومساعده ريتشارد أرميتاج تقديم ردّ إيجابي للإيرانيين. وعرضا إلى جانب مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس الاقتراح على الرئيس، لكن بدلاً من أن يثير ذلك نقاشاً فياضاً حول تفاصيل الردّ الأميركي المحتمل، سارع تشيني ورامسفيلد إلى وضع حدّ للمسألة. كانت حجتهما بسيطة ولكن مدمّرة: قالا: "لا تتحدثوا إلى الشرّ"[27]. حتى لو أن باول وحليفيه أبدوا معارضة، فعلى الأرجح أنهم كانوا سيلاقون الفشل. يقول ليفيريت: "عرفت وزارة الخارجية أنه لا يوجد أمل على مستوى الأجهزة في الدفاع عن القضية بنجاح. ولم يكن وارداً تبديد رصيد باول الآخذ في التلاشي في سرعة على أمر بعيد الاحتمال". حتى أنه لم يُعقد اجتماع واحد بين الأجهزة لمناقشة الاقتراح[28]. يقول ويلكرسون في إشارة قاسية إلى المحافظين الجدد برئاسة تشيني ورامسفيلد: "في النهاية، نالت العصابة السرّية ما أرادته: لا مفاوضات مع طهران"[29].

جاء العرض الإيراني في وقت كانت فيه الولايات المتحدة في أوج قوتها. فقد أنزلت الهزيمة بالعراق قبل أسابيع قليلة، وبالرغم من أن البعض رأى في الأمر شعاراً لا أكثر، بدا أن إدارة بوش تؤمن به: *بدأت مسيرة الحرّية*. فكما في العام 1991 عندما اختارت الولايات المتحدة عدم دعوة إيران لحضور مؤتمر مدريد، كان التفاوض مع الإيرانيين يحتل مرتبة دنيا في أجندة البيت الأبيض. فسّر المتشددون في البنتاغون ومكتب نائب الرئيس الاقتراحَ الإيراني – وكانوا محقين في ذلك على الأرجح – على أنه أمارة ضعف. وجادلوا بأن إيران تقدمت بعرضها – عرض يتعارض بوضوح مع إيديولوجيتها الرسمية– بسبب شعورها بالضعف واليأس. عارض هؤلاء المسؤولون التوصل إلى اتفاق مع إيران بغض النظر عما يعرضه رجال الدين، لأن في استطاعة أميركا، كما قالوا، الحصول على ما تريده مجاناً بالتخلص من النظام بطهران بكل بساطة. من ناحية أخرى، لو أن المباحثات بدأت وقبلت أميركا مساعدة إيران، لكانت واشنطن ستضع نفسها في موقف محرج لأنها ستدين بخدمة لرجال الدين[30]. فلماذا التحدث إلى إيران عندما يمكنك ببساطة إملاء شروطك من موقع قوة؟ في النهاية، أظهر النجاح السريع بالعراق أن احتلال إيران لن يكون أمراً بالغ التعقيد. فقبل شهر من ذلك التاريخ، أوجز وكيل وزارة الدفاع في الشؤون السياسية دوغلاس فيث للمسؤولين في وزارتي الدفاع والخارجية تفاصيل كيفية مواصلة الحرب بالعراق لتشمل إيران وسوريا من أجل استبدال النظامين هناك. كانت الخطط موسّعة وبعيدة المدى. يقول ويلكرسون: "كانت أكثر من خطة طوارئ"[31]. غير أن مجرّد الردّ على الإيرانيين بالنفي لم يكن كافياً، ومن الواضح أن المتشددين في الدوائر السياسية بواشنطن أرادوا زيادة الطين بلة.

بدلاً من الاقتصار على رفض العرض الإيراني، قررت إدارة بوش معاقبة السويسريين على تسلمهم الاقتراح. فبعد مرور أيام قلائل على تسليمهم الاقتراح، عمدت واشنطن إلى انتقاد غولديمان والحكومة السويسرية على تجاوزها حدود تفويضها الدبلوماسي. يعترف ويلكرسون بالقول بأنه:

"كان العمل الأكثر خزياً". لكن الرسالة التي وصلت طهران كانت واضحة: لن تكتفي إدارة بوش بحرمان إيران المجاملة في الردّ، بل وستعاقب أولئك الذين سعوا إلى نقل الرسائل بين البلدين[32].

جرى إهدار فرصة لإحداث خرق هام بمحض الإرادة. يعترف العديد من المسؤولين السابقين في إدارة بوش بأن عدم الردّ كان غلطة. فقد جرى التقدم بالاقتراح في وقت مناسب لأنه لم يكن لدى طهران برنامج نووي قيد التشغيل، ولم تكن إيران تسبح في عائدات النفط الناتجة عن ارتفاع الطلب على الطاقة. قال ليفيريت في إحدى المقابلات: "في ذلك الوقت، لم يكن لدى الإيرانيين أجهزة طرد مركزي دوّارة، ولم يكن لديهم برنامج لتخصيب اليورانيوم". ووصف بول آر بيلار، وهو ضابط سابق في الاستخبارات القومية لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا، العرض "بالفرصة الضائعة"، وأشار ريتشارد هاس، رئيس قسم تخطيط السياسات في وزارة الخارجية حينها والذي يرأس حالياً مجلس العلاقات الخارجية، إلى أن الاقتراح كان يستحق الدرس على أقل تقدير. قال ريتشارد: "إذا أردنا تشبيه المسألة بالنفط، كان من المحتمل أن نحفر في بئر ناضب، لكنني لم أرَ شيئاً يمكن أن نخسره"[33]. بالنسبة إلى أعضاء الإدارة الذين عارضوا أجندة المحافظين الجدد، كان من الصعب تصوّر كيفية إضاعة مثل هذه الفرصة. يقول ويلكرسون: "في اعتقادي، كانت من جملة الأشياء التي تلقيها في الهواء وتقول لا يمكنني أن أصدق أننا قمنا بذلك"[34].

(وفي وقت لاحق، في فبراير/شباط 2007، ضغطت لجنة العلاقات الدولية في الكونغرس على وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس بشأن الاقتراح الإيراني، وسُئِلت إن كانت الولايات المتحدة أضاعت فرصة هامة. قالت– في شهادة مناقضة لما كانت قد أدلت به في مقابلة سابقة مع الإذاعة العامة الوطنية عندما اعترفت بأنها اطلعت على الاقتراح – للمشرّعين بأنها لا تستطيع أن تتذكر إن كانت قد اطلعت عليها. وقالت في ردّها على الاقتراح الأميركي: "لا أذكر أنني رأيت شيئاً مثل هذا". وخوفاً من أن ينتهي الأمر بالولايات المتحدة إلى التفاوض مع إيران، ربما كان الدافع إلى هذا الانقلاب المفاجئ لرايس هو تجنب الحاجة إلى مقارنة حصيلة أية مفاوضات مع إيران في العام 2007 بما كانت ستحصل عليه الولايات المتحدة في العام 2003 عندما كانت البلاد في وضع أقوى بكثير)[35].

لم يكن الاقتراح حادثاً منعزلاً. فقد كان الدبلوماسيون الإيرانيون العاملون بأوروبا وفي أمكنة أخرى يرسلون إشارات مشابهة إلى الولايات المتحدة في ربيع العام 2003. كما بدأ المبعوث الإيراني إلى كل من السويد وبريطانيا بإرسال إشارات بأن النظام على استعداد للتفاوض من أجل التوصل إلى اتفاق، باستخدام القنوات الخلفية عدا قناة وزارة الخارجية السويسرية[36]. وفي جنيف، استمرّت المناقشات بين ظريف وخليل زاد بالرغم من الغضب الذي اعترى المحافظين الجدد. ففي 3 مايو/أيار، وقبل أن تدرك طهران أن البيت الأبيض رفض اقتراحها، التقى ظريف وخليل زاد لمناقشة التطورات الجارية بالعراق. وكان البنتاغون قد حذّر خليل زاد من شائعات تتحدث عن هجوم وشيك يقوم به تنظيم القاعدة ضدّ القوات الأميركية في الخليج العربي. وأُمر خليل زاد بأن يطلب المساعدة من إيران لتوفير معلومات عن ناشطين من القاعدة تحتجزهم إيران من أجل التحقق من صحة تلك الشائعات. يمكن أن تكون تلك المعلومات في غاية الأهمية في منع وقوع هجوم كارثي محتمل على القوات الأميركية. لكن خليل زاد لم يكن يملك صلاحية تقديم أي شيء بالمقابل، وبخاصة في موضوع إرهابيي مجاهدي خلق بالعراق. بهدف كسر حالة الجمود، عرض ظريف حلاً وسطاً: إذا أعطت واشنطن إيرانَ أسماء مقاتلي مجاهدي خلق بالعراق، يمكن أن تقدم إيران للولايات المتحدة أسماء الناشطين من تنظيم القاعدة الموجودين في السجون الإيرانية[37]. وبالرغم من أن الاقتراح لم يلقَ آذاناً صاغية، فقد اتفق الدبلوماسيان على الاجتماع مجدداً في 25 مايو/أيار لمناقشة هذه المسائل وغيرها بمزيد من التفصيل.

قبل أسابيع معدودة من تسليم غولديمان الوثيقة الإيرانية لواشنطن، قدّم الإيرانيون عرضاً مشابهاً إلى إسرائيل في أثينا. ففي جهد للإشارة للدولة اليهودية بأن إيران على استعداد للتوصل إلى تفاهم معها، خاطب الجنرال محسن رضائي، القائد السابق للحرس الثوري الإيراني، مجموعة من المسؤولين الأميركيين، والإسرائيليين، والفلسطينيين وشبه المسؤولين في اجتماع رعته إحدى الجامعات الأميركية.

في خطوة غير مسبوقة، دخل رضائي في جلسة أسئلة وأجوبة مع الإسرائيليين وناقش اقتراحاً جريئاً بشأن بناء علاقات أميركية إيرانية استراتيجية[39]. خلاصة ما جاء في خطة رضائي كان التوصل إلى تسوية مؤقتة حول حالة الجمود في الاتصالات الإيرانية الإسرائيلية، واحترام كل من البلدين لمنطقة نفوذ الآخر، وعدم اصطدام أي منهما بالآخر. وفي حال عكست الولايات المتحدة وإسرائيل سياسة فرض العزلة على إيران، تعدّل طهران سلوكها في العديد من القضايا الرئيسية، بما في ذلك إسرائيل[40]. وستليّن إيران بدرجة كبيرة من موقفها من الصراع الإسرائيلي الفلسطيني عبر تبنّي الموقف الباكستاني، أي أن تكون دولة إسلامية لا تعترف بإسرائيل، وتنتقدها بين حين وآخر، ولكنها تتجنب الدخول في مواجهة مع الدولة اليهودية بالمطلق أو تحدّيها، إما مباشرة أو من خلال وكلاء[41]. كما ستضغط إيران على مجموعات تدور في فلكها لكي تمتنع عن استفزاز إسرائيل. بالمقابل، ستخفف إسرائيل من معارضتها للتقارب الأميركي الإيراني، وتعترف بدور إيران في المنطقة، في حين ستُنهي الولايات المتحدة سياسة عزل إيران وتقبل بدور إيراني في أمن الخليج العربي. بالنسبة إلى إيران، كانت تلك طريقة لكي تفصل ببطء بين العلاقات الأميركية الإيرانية والمنافسة الإسرائيلية الإيرانية. يقول مسؤول في وزارة الخارجية الإيرانية: "في السنة الأولى للثورة، لم نعترف بإسرائيل، ولكن كانت تربطنا علاقات دبلوماسية بالولايات المتحدة. وإذا دعت الضرورة، يمكن لإسرائيل الاتجار مع إيران عبر الولايات المتحدة. سيكون ذلك حلاً مؤقتاً لأننا لا نستطيع الاعتراف بإسرائيل في هذه المرحلة... ستكون إسرائيل قادرة من الناحية العملية على بلوغ أهدافها، ولن تعارض إيران من الناحية العملية سياسات إسرائيل في المنطقة"[42].

كان النموذج الباكستاني/الماليزي يحظى بدعم قوي في وزارة الخارجية الإيرانية، وفي أقسام من المؤسسة العسكرية، وفي مكتب الرئيس، كما

حظي بتأييد الرئيس الأسبق رفسنجاني[43]. كما حظي بدعم متردد من آية الله خامنئي، وهذا ما يفسر سبب مطالبة الدبلوماسيين الإيرانيين في مناسبات كثيرة، منها مأدبة عشاء في الكونغرس حضرها ظريف والعديد من المشرّعين الأميركيين، بإشراك إيران في صناعة القرار الإقليمي في مقابل سلبية إيران في التعاطي مع إسرائيل[44]. كما شرح الإيرانيون فحوى النموذج الباكستاني/الماليزي لأعضاء في أوساط السياسة الخارجية بواشنطن، والذين أكّدوا على استعداد إيران للمساومة على قضايا حساسة مثل دعمهم للعديد من الجماعات[45].

أُعجب الإسرائيليون بالعرض. وبلهجة محترمة وودّية، تحاوروا مع الجنرال الذي سببت مساعداته ونصائحه لحزب الله الكثير من الألم والمعاناة لإسرائيل بلبنان. يجدر بالذكر أن الكثير من التفاصيل المتعلقة بالاقتراح لم تكن جديدة؛ سبق أن سمع الإسرائيليون الرسالة ذاتها من مندوبين رسميين وغير رسميين لطهران في لقاءات أخرى. مع سماع الإسرائيليين الإيرانيين المرة تلو المرة زاد ذلك من الثقة بأن إيران جادّة في ما تقوله، بمعنى أن العرض لم يكن كلاماً فارغاً. كما أن الانسجام الذي ميّز الرسالة بيّن "بمزيد من الوضوح أنها سياسة. لم تكن سياسة استراتيجية، ولكنها كانت سياسة"، وفقاً لما جاء على لسان أحد كبار المختصين بإسرائيل في الشؤون الدفاعية والأمنية. "ولو أنني كنت صانع سياسة، لكنت قلت دعونا ننتقل إلى الاتصالات الهادئة"[46].

لكنّ المحافظين الجدد بواشنطن والمتشددين في الحكومة الإسرائيلية لم يرغبوا في أية اتصالات هادئة. فالنصر الذي تم إحرازه بالعراق ورفض الاقتراح الإيراني أثارا الحماسة في نفوسهم، وهو ما حملهم على مضاعفة جهودهم لإقناع البيت الأبيض باستهداف إيران. كتب ويليام كريستول، وهو أحد المحافظين الجدد البارزين ومؤسس مشروع القرن الأميركي الجديد، في مجلة ويكلي ستاندارد، "كان تحرير العراق المعركة الكبرى الأولى لمستقبل الشرق الأوسط. والمعركة الكبرى التالية – والتي نأمل بألاّ تكون عسكرية – ستكون من أجل إيران. فنحن نخوض صراع حياة أو موت مع إيران أصلاً على مستقبل العراق"[47]. بالمجادلة بأن النجاح في العراق سيكون نذيراً بالقضاء على الثورة الإيرانية، ينضمّ كريستول إلى المحافظين الجدد الآخرين في الترويج لفكرة تأثير الدومينو. فبعد أن يصبح العراق دولة ديموقراطية، إما أن تتبع الديكتاتوريات الأخرى في الشرق الأوسط مساره أو تفنى تحت ضغط مطالب شعوبها. لقد كتب ريويل مارك غيريشت من معهد المؤسسات الأميركية في المجلة نفسها، "يميل السخط الشعبي بإيران إلى الغليان عندما يقترب الجنود الأميركيون من الجمهورية الإسلامية"[48].

كان الدخول في مواجهة مع إيران في متناول اليد، لكن قبل أن يكون في مقدور واشنطن تسخين الوضع مع إيران، كان لا بدّ من القضاء على الخيار الدبلوماسي بشكل نهائي. في 6 مايو/أيار، وفي مؤتمر معهد المؤسسات الأميركية، أوضحت الخبيرة في شؤون الشرق الأوسط ميراف ورمْزر الإسرائيلية المولد (التي يخدم زوجها حالياً كمستشار رفيع لدى تشيني) الهدف التالي للمحافظين الجدد: المناقشات التي يجريها خليل زاد مع ظريف بجنيف. قالت ورمْزر: "معركتنا مع العراق ليست سوى حلقة في حرب طويلة. سيكون من الخطأ الاعتقاد بأننا نستطيع التعامل مع العراق فقط... يتعين علينا الاستمرار، وبوتيرة أسرع... كان خطأ جسيماً إرسال خليل زاد لعقد لقاءات سرّية مع ممثلين عن الحكومة الإيرانية في الأسابيع الأخيرة، وبدلاً من الخروج منتصرين يهابنا الجميع ويحترموننا بدلاً من أن يحبّونا، لا زلنا نستخدم الدبلوماسية القديمة، وذلك النوع من السياسات التي أدت إلى وقوع هجمات 11 سبتمبر/أيلول"[49].

بعد ذلك بستة أيام، في 12 مايو/أيار، وفّر هجوم إرهابي وقع بالرياض وأدّى إلى مقتل ثمانية أميركيين وستة وعشرين سعودياً، للمحافظين الجدد حافزاً لوضع حدّ لدبلوماسية خليل زاد. ففي غضون أيام، بدأت الأصابع تشير إلى إيران، وأعلن رامسفيلد أنه يبدو أن العملية دبّرتها القاعدة بإيران. في 15 مايو/أيار، أفاد ديفيد مارتن من محطة سي بي أس الإخبارية بأن البنتاغون يملك الدليل على أن الهجمات التي شُنّت بالسعودية "خطط لها وأمر بتنفيذها ناشطون كبار في تنظيم القاعدة الذين وجدوا ملاذاً آمناً بإيران". لكن لم يتوفر دليل يثبت ذلك. بالرغم من اعتراض مكالمات هاتفية جرت بين ناشطين في تنظيم القاعدة في كل من المملكة العربية السعودية وإيران، لا يوجد دليل على أنه تم الشروع بهذه النشاطات بناء على موافقة الحكومة الإيرانية أو معرفتها. لقد قال ويلكرسون: "يتفق الخبراء بإيران على أنه حتى وإن كان أعضاء القاعدة يدخلون إيران ويخرجون منها، فذلك لا يعني أن الحكومة الإيرانية متورّطة. فهناك أجزاء من إيران لا تدري الحكومة ماذا يجري فيها"[50].

كان من المقرر عقد الاجتماع التالي بجنيف في 25 مايو/أيار، ولكن في 14 مايو/أيار، ساورت الإيرانيين الظنون بأن واشنطن ربما تلغي المحادثات. أبلغ السفير الإيراني لدى أفغانستان طهران بأن الأميركيين لن يحضروا ذلك الاجتماع، حتى وإن لم تعلن واشنطن رسمياً إلغاءه. نتيجة لذلك، لم يسافر ظريف إلى طهران من نيويورك لتلقّي توجيهات خاصة باللقاء. (بوصفه سفير إيران لدى الأمم المتحدة، كان ظريف يقيم بنيويورك، وكان عليه السفر إلى إيران قبل وبعد كل جلسة بجنيف بهدف تلقّي التوجيهات، ولكي يوجز لطهران ما جرى في المباحثات. وبالنظر إلى حساسية المسألة، كان يتم تقديم كافة الإيجازات والتوجيهات بطريقة شفهية، وكان يتم ذلك في العديد من الحالات من قبل المرشد الأعلى مباشرة)[51]. وقبل بضعة أيام من اللقاء المقرر، بعثت واشنطن برسالة إلى طهران عبر سويسرا – التي دعت الحاجة إلى الاستعانة بخدماتها مرّة أخرى– تفيد بأن قناة جنيف قد أقفلت. بذلك حقق الصقور من المحافظين الجدد انتصاراً آخر، ولكن المعركة من أجل إيران كانت أبعد ما تكون عن نهايتها.

أصيب الدبلوماسيون في وزارة الخارجية الأميركية بالإحباط، ولكنهم لم ييأسوا. في العام 2003، كما في العام 1996 عندما قامت إيباك بخطوة استباقية بفرض عقوبات من قبل الكونغرس لضمان عدم امتلاك الرئيس كلينتون القدرة على عكس قرارها (لأنه وحده الكونغرس يستطيع رفع عقوبات فرضها بنفسه)، كان في مقدور الكونغرس الحدّ مرّة أخرى من قدرة الرئيس على المناورة. تبيّن أن التحالف الجديد بين إيباك والجمهوريين في الكونغرس مفيد على الخصوص في هذه القضية. كان السيناتور سام براونْباك، وهو جمهوري بروتستانتي طموح يشغل مقعد كنساس للمرة الثانية، قد

تولّى الدور الريادي في مستهل ربيع العام 2003 في مجلس الشيوخ في إفشال أي حوار أميركي إيراني. بما أنه كان يعرف ميل باول إلى إجراء حوار مع إيران والتوصل إلى صفقة ضخمة، عمل براونباك على وضع العراقيل السياسية في طريق باول.

في 8 أبريل/نيسان، طرح براونباك تعديلاً مثيراً للجدل لمرسوم إجازة العلاقات الخارجية للعام 2004 والذي يجيز منح 50 مليون دولار سنوياً للناشطين في المعارضة الإيرانية. أعاد هذا التعديل ببساطة تكرار الأفكار التي اقترحها في يونيو/حزيران 2002 موظفو البنتاغون في المناقشات التي أجرتها إدارة بوش لمراجعة السياسات المتعلقة بإيران. على الرغم من فشل جهود موظفي البنتاغون آنذاك، أعاد براونباك طرح أفكارهم في مجلس الشيوخ، وباقتراح تعديل يوسع من نطاق الدعم المالي لجماعات المعارضة الإيرانية – على غرار التمويل الأميركي للمجلس الوطني العراقي المعارض بقيادة أحمد الشلبي – تكون واشنطن قد خطت خطوة حاسمة في اتجاه جعل تغيير النظام بإيران سياسة رسمية للولايات المتحدة. بعد أن يتم ذلك، تزول احتمالات فتح حوار أميركي إيراني أو التوصل إلى صفقة ضخمة من الناحية العملية.

أُريد من التعديل إنشاء مؤسسة إيران الديموقراطية التي بدورها ستقوم بتوزيع 50 مليون دولار على مجموعات المعارضة الإيرانية المتنوعة، وستقوم بتمويل قنوات التلفزة التي تُبثّ عبر الأقمار الصناعية بالولايات المتحدة. كان رضا بهلوي، نجل الشاه الراحل وأحد مناصري براونباك، قد حثّ أعضاء الكونغرس، أثناء جلسة إيجاز خاصة للمناقشات الجارية في الكونغرس قامت بتنظيمها قبل أسبوع من ذلك لجنة الشؤون العامة الإيرانية اليهودية[52]، على دعم فكرة تمويل المعارضة الإيرانية. وأكّد رضا لأعضاء الكونغرس على أن أية شبهات مالية تحوم حول جماعات المعارضة يمكن حلها عبر التوصل إلى "درجة من الفصل" بين الكونغرس وبين من يتلقّون المساعدات من الإيرانيين، وهذا ما ستقوم به بالضبط مؤسسة إيران الديموقراطية. في الواقع، بدت اللغة التي صيغ بواسطتها التعديل كثيرة الشبه بتلك التي استُخدمت في مرسوم تحرير العراق الذي أقرّه الكونغرس في العام 1998، والذي جعل من تغيير النظام بالعراق السياسة الرسمية للولايات المتحدة، ومهد الطريق أمام حرب العراق في العام 2003 عبر التخلص من كافة الخيارات الدبلوماسية. وسرعان ما اعترضت إيباك على عم التعديل[53].

لم تكن ارتباطات بهلوي بإسرائيل وبالقوى الموالية لها بواشنطن أمراً جديداً. ففي مستهل ثمانينيات القرن الماضي، تقدم إليه وزير الدفاع حينها شارون بخطة للإطاحة برجال الدين. لكن مع صعود المحافظين الجدد في إدارة بوش، بات لدى البهلوي عذر جديد يبرر إعادة الاتصال بأصدقائه القدامى. وفي مقابل حاجة نجل الشاه إلى الجماعات المؤيدة لإسرائيل من أجل إيصال رسالته إلى صنّاع السياسة بواشنطن، استفادت إيباك والمحافظون الجدد من إضفاء صبغة إيرانية على أجندتهم الخاصة. قال بويا دايانيم، رئيس لجنة الشؤون العامة الإيرانية اليهودية بلوس أنجلوس لمجلة ذي فارورد: "هناك حلف برز بين الصقور في الإدارة، والجماعات اليهودية ومناصري البهلوي من الإيرانيين للدفع في اتجاه تغيير النظام".

بالرغم من أن البهلوي التقى بمجلس إدارة المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي المعروف بخطه المتشدد، وبشارون، ورئيس الوزراء السابق بنيامين نتنياهو، والرئيس الإسرائيلي المولود بإيران موشيه كاتساف، فشل البهلوي في التأثير في المستمعين إليه[54]. فمهارته السياسية لم تكن بمثل حماسته. على سبيل المثال، ألحّ البهلوي على مخاطبة مؤتمر إيباك السنوي في مايو/أيار 2003 بواشنطن، لكن كان على المسؤولين بإيباك إقناع نجل الشاه بأن المبالغة في التقرب من اللوبي المؤيد لإسرائيل قد لا تلقى استحسان قاعدة مناصريه؛ الشتات الإيراني بالولايات المتحدة[55].

لكن لاقت فكرة مساعدة البهلوي والاقتراحات الداعية إلى تشكيل مؤسسة إيران الديموقراطية الاستحسان. بناء على ذلك، أصبح تعديل براونباك المركبة المثالية التي سيستخدمها الصقور بالبنتاغون لمنع بوش من التصرف بما يلبّي الاقتراح الإيراني بالتوصل إلى صفقة ضخمة. إن الأمر المثير للسخرية هو أنه على الرغم من إدانة السيناتور عن ولاية كنساس دعمَ الحكومة الإيرانية للإرهاب، من الواضح أنه لم يكن يطبّق المعيار ذاته على نفسه. فعندما اعتقلت السلطاتُ الفرنسية المسؤولة في منظمة مجاهدي خلق، مريم رجوي، في يونيو/حزيران 2003 بباريس، سعى براونباك على الفور إلى مساعدة المعارضة الإيرانية المسلّحة. بالرغم من أن المنظمة كانت تتلقّى دعماً مالياً من صدام حسين، كما أقرّ بوش نفسه، وبالرغم من أنها كانت على لائحة المنظمات الإرهابية التي تعدّها وزارة الخارجية وأنها مسؤولة عن وفاة العديد من الأميركيين، بعث براونباك برسالة إلى السفير الفرنسي جان ديفيد ليفيت يحثه فيها على عدم اتخاذ أي إجراء في حق مريم رجوي. قال إنه ينبغي ألاّ تقوم فرنسا "بالعمل القذر الذي تقوم به الجمهورية الإسلامية الإيرانية" عبر دعم "نظام إرهابي ضدّ مجموعة من الشعب المحكوم من قبل هذا النظام والتي تناضل من أجل الحرّية"[56]. لكن جهود سيناتور كنساس لمساعدة المنظمة المدرج اسمها على لائحة المنظمات الإرهابية باءت بالفشل.

كما فشل أيضاً الضغط الأولي الذي بذله براونباك من أجل التعديل، ويعود ذلك جزئياً إلى أن جماعات المعارضة المعنية فشلت في إعطاء انطباع بأنها مقتدرة ويمكن التعويل عليها. ففي إيجاز قدّمه رضا بهلوي في الكونغرس، ساد الإرباك وعدم الاقتناع في أوساط أعضاء الكونغرس عندما تحدث عن أميركا بصيغة "الجمع". لقد أثنى بهلوي على الجهود الأميركية بالعراق وأشار إلى التفوق الأخلاقي للجيش الأميركي فقال لأعضاء الكونغرس المحتارين الذين اعتقدوا في بادئ الأمر أنه كان هناك مفرزة صغيرة من الجنود الإيرانيين الموالين لرضا بهلوي قاتلت إلى جانب قوات المارينز عندما دخلت بغداد: "لقد تكبّدنا (أميركا) عدداً من الإصابات كان في إمكاننا اجتنابها لو أننا لم نسعَ إلى اجتناب قتل المدنيين في الجانب العراقي". بالرغم من أن براونباك فشل في تمرير تعديله، فقد تمكن من بلوغ هدفه الرئيسي: تعقيد العلاقات الأميركية الإيرانية، وإعاقة وزارة الخارجية في ضغطها على البيت الأبيض لاستكشاف أفاق فتح حوار مع طهران. بالنسبة إلى إسرائيل، ساعدت التوترات الأميركية الإيرانية المستمرّة على إبقاء الخيار العسكري مفتوحاً والإبقاء على الأمل بأنه بعد بغداد، سيستهدف رجال حقيقيون طهران.

في هذه الأثناء، رأت طهران في عدم الردّ الأميركي إهانة. الآن، جاء دور إيران لتشتكي من صعوبة التعامل مع نظام إيديولوجي؛ إدارة بوش. قال لي أحد الإصلاحيين الإيرانيين: "هؤلاء الأشخاص بواشنطن لا يرون العالم كما هو، وهم لا يرون إلاّ ما يرغبون في رؤيته فقط. كنا نعاني من

العقلية نفسها بعد الثورة، ولكننا تعلمنا بسرعة كبيرة أخطار السياسة الخارجية الإيديولوجية. لقد دفعنا ثمناً غالياً جداً لقاء أخطائنا الأولى"[57]. كما أن طريقة تعامل واشنطن مع الاقتراح الإيراني قوّت الاعتقاد بأن التعامل مع الولايات المتحدة من موقع ضعف لن يجدي نفعاً. كان عرض المساعدة على أميركا بالعراق أو التوصل إلى تسويات معها عديم الجدوى لأن واشنطن ستطلب الانصياع الكامل من إيران عندما يساورها اعتقاد بأنها تتمتع بقدرة عالية على المناورة وأنها تملك العديد من الخيارات التي يمكنها الاختيار بينها. لقد علل رجال الدين بأن إدارة بوش ستوافق على صفقة مع إيران على أساس من المساواة فقط في حال حُرمت من كافة الخيارات الأخرى.

على غرار ما جرى في الفترة الواقعة بين عامي 1991 و1993، بعد أن أقصيت إيران عن المشاركة في مؤتمر مدريد، وبعد أن كثفت الولايات المتحدة جهودها لعزل إيران في أعقاب المساعدة التي قدمتها إيران في حرب الخليج الأولى، قوّى قرار واشنطن موقفَ أولئك الذين جادلوا بطهران بأنه يمكن إرغام أميركا على الجلوس إلى طاولة المفاوضات فقط إذا كُبّدت خسارة من جرّاء عدم جلوسها إليها. وبالتالي، مالت موازين القوى بإيران لصالح المتشددين، وكما حصل من قبل، دفع الدبلوماسيون الذين أيدوا الانفتاح على الولايات المتحدة ثمن قيامهم بهذه المجازفة. يقول السيد محمد حسين عادلي: "لم يقتصر الفشل على الفكرة وحسب، بل وعلى المجموعة التي أيدتها"[58]. (بوصفه سفير إيران لدى بريطانيا، فُصل عادلي في وقت لاحق من قبل الرئيس الإيراني المتشدد الجديد محمود أحمدي نجاد). وعلى غرار ما فعلت إدارة بوش الأب في العام 1991، رأت إدارة بوش الحالية أن الولايات المتحدة ليست بحاجة إلى التفاوض مع إيران، فقد كانت أميركا مخيفة جداً ومرعبة جداً، وكانت إيران ضعيفة جداً وهشة جداً. إنها العجرفة مجدداً.

بدورهم، اعتقد الصقور بإسرائيل أن مدّ اليد من جانب إيران كان محاولة لكسب الوقت لكي تقوّي نفسها في مواجهة الخطر الأميركي، والذي تفاقم بعد هزيمة صدام بالعراق. رفض كل من شارون وحكومة باراك المحاولة الإيرانية على أساس أنه لم يكن لدى إيران مصلحة مع إسرائيل، وأنها تسعى فقط إلى تحسين علاقاتها مع الولايات المتحدة، لتعود بعد ذلك إلى مواجهة إسرائيل[59]. استناداً إلى أفرايم سنيه العضو في الكنيست الذي رفض الاعتقاد بأن إيران كانت على استعداد لتليين موقفها من إسرائيل، كان الحوار مع إيران "مجرّداً بالكامل من أي أساس، وعديم الجدوى بالكامل". كان سيوفر فقط فرصة لكي تهرب إيران من العدالة الأميركية. رأى أن الإيرانيين لن يغيّروا موقفهم من إسرائيل أبداً، وبالتالي فإن الخيار الوحيد المتوفر هو استبدال النظام. وقال لي في مكتبه بتل أبيب: "النظام بطهران لا يقبل بشرعية الدولة اليهودية في هذا الجزء من العالم. وإذا كان الحال كذلك، لماذا يجدر بي التحدث إليهم عن شروط إعدامي؟"[60] تساءل الصقور الإسرائيليون عن السبب الذي قد يدعو الولايات المتحدة إلى التفاوض مع طهران والسماح لرجال الدين بالبقاء فيما تملك أميركا القدرة على حسم خلافها معهم إلى الأبد. لكن كانت هناك أصوات بإسرائيل أكثر حذراً وتأسفت في بعض الأحيان على تفويت ما كان من المحتمل أن يتحول إلى فرصة وبداية جديدة. يقول معلق عسكري إسرائيلي بارز: "أعتقد بأن عدم فتح قناة كان غلطة كبيرة، لا من أجل حل كل شيء وحسب، بل ولكي يفهم كل من الطرفين الطرف الآخر على نحو أفضل. سيفهم الطرفان الخطوط الحمراء من خلال المفاوضات"[61].

كما حصل سابقاً، أظهرت تعقيدات السياسات الإقليمية أن للقليل من الانتصارات في الشرق الأوسط أثراً يدوم لمدة طويلة. فبعد انقضاء شهور قليلة على هزيمة صدام، اندلع تمرّد قلب الطاولات مجدداً على رأس إيران والولايات المتحدة. ففي الوقت الذي بدأ فيه نفوذ إيران يتصاعد بسبب روابطها بالشيعة بجنوب العراق، وروابطها بالأكراد في شماله، بدأت فسحة المناورة المتوفرة لواشنطن تتقلّص. لقد حشرت إدارة بوش نفسها في الزاوية عبر تقويض من مصداقيتها الخاصة وإقناع الإيرانيين بأن الهدف النهائي لأميركا – بغض النظر عن تعاونها على المدى القصير مع طهران – هو تدمير الجمهورية الإسلامية. كان السرور بادياً على وجه وزير النفط الإيراني هادي نجاد حسينيان عندما شرح كيف أن الولايات المتحدة قوّت من غير قصد إيران. فقد ساعدت واشنطن على تحويل إيران إلى قوة إقليمية بإلحاقها الهزيمة بصدام وحركة طالبان، فيما أغرقت نفسها في بلاد ما بين النهرين. وقال لي وهو يبتسم: "لم يكن العراق ليتحول إلى وضع أفضل من الوضع الذي تحول إليه بالنسبة إلينا"[62].

القسم الثالث

التطلّع إلى المستقبل

الفصل 20مواجهة المستقبل، مواجهة الحقيقة

من الذي يهيمن على الشرق الأوسط؟ إيران أم الولايات المتحدة؟

– وزير الخارجية الألماني السابق يوشكا فيشر، 29 مايو/أيار 2006

تحولت المنافسة بين إسرائيل وإيران منذ انتهاء الحرب الباردة، إلى عثرة في طريق تحقيق العديد من الأهداف الاستراتيجية الأميركية في الشرق الأوسط. فقد عملت كلتا الدولتين على تقويض السياسات الأميركية التي رأت كل منهما أنها تصبّ في مصلحة الدولة الأخرى. فعلى سبيل المثال، عملت إيران على إفشال العملية السلمية لمنع الولايات المتحدة من تشكيل ما خشيت طهران من أنه سيكون شرق أوسط يتمحور حول إسرائيل ويعتمد على عزلة مطوّلة تُفرض على إيران. بدورها، عارضت إسرائيل المحادثات التي كانت تجري بين الولايات وإيران، مخافة أن يمنح تقاربٌ أميركي إيراني طهران أهمية استراتيجية كبيرة بواشنطن على حساب إسرائيل لأن إيران دولة قوية يمكنها تقاسم العديد من المصالح العالمية مع الولايات المتحدة، على الرغم من إيديولوجياتهما المتضاربة[1].

يمكن أن تستفيد الولايات المتحدة من إيران قوية تخدم كحاجز يحول دون وصول الصين إلى مصادر الطاقة في الخليج العربي وحوض قزوين، كما سبق أن خدمت كحاجز في وجه الاتحاد السوفياتي قبل انهيار الشيوعية. لقد خشيت إسرائيل من إيران قوية، وتملك ترسانة صاروخية، وربما نووية لا يمكن لها ولا يمكن لواشنطن التأثير كثيراً فيها[2]. في حين شعر العديد بإسرائيل أن الدولة اليهودية لا تستطيع منافسة إيران على المستوى الاستراتيجي – بدلالة قيمتها بالنسبة إلى الولايات المتحدة – جادل آخرون بأن العلاقة الخاصة التي تربط إسرائيل بالولايات المتحدة لا تعتمد على المصالح الاستراتيجية، ولكنها تعتمد على شكل من أشكال التجانس، كما يشرح شلومو بروم من مركز يافي للدراسات الاستراتيجية. ويضيف: "إنها تعتمد على حقيقة أن شريحة واسعة من السكان بالولايات المتحدة تدعم إسرائيل: اليهود، واليمين المسيحي، وغيرهم. إنها تعتمد على القيم المشتركة"[3].

لم تتغلب إسرائيل ولا إيران – ولا الشرق الأوسط بأكمله – على الهزة الجيوسياسية التي ضربت المنطقة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. يعود سبب خوف إسرائيل وإيران من نظام جديد في الشرق الأوسط يفيد الطرف الآخر إلى افتقار المنطقة إلى قاعدة جيوسياسية لنظامها الواهي. وعودة الحديث عن إيجاد توازن جديد ومستقر يجدد المنافسات الإقليمية ويذكّيها. فالأمر لا يقتصر على تعذر استيعاب نتائج انهيار الاتحاد السوفياتي وحسب، بل وعلى عدم معرفة النتائج الكاملة للهزيمة التي أنزلتها أميركا بطالبان والعراق حتى ذلك الحين. لزيادة الأمور سوءاً، سعت واشنطن إلى إقامة نظام يتناقض مع التوازن الطبيعي عبر السعي إلى احتواء إيران وعزلها، وهي التي تعتبر من أقوى الدول في المنطقة. حتى لو أمكن تشكيل نظام مصطنع يعتمد على إقصاء عملاق إقليمي مثل إيران، لن يتمكن هذا النظام من الوقوف على رجليه، وسيبقى هذا النظام صامداً طالما أن الولايات المتحدة مستعدة للاستثمار في بقائه.

لم يكن سبب اندلاع الصراع بين إيران وإسرائيل الاختلافات الإيديولوجية التي بينهما، كما أنه ليست حماستهما الإيديولوجية هي التي تبقيهما حيتين اليوم. لكن ذلك لا يعني بالتأكيد أنه لا أهمية للإيديولوجيات في هاتين الدولتين. ففي الحد الأدنى، يتسبب الخطاب السياسي الناتج عن هذه الإيديولوجيات في جعل إمكانية التوصل إلى تسوية سياسية أكثر صعوبة. فوجهات النظر المعادية للصهيونية يتبنّاها أغلب المسؤولين الإيرانيين، ولكن ليس كلهم. غير أن تأثير التوجّه الإيديولوجي للمسؤولين في رسم السياسة الخارجية الإيرانية مسألة مختلفة تماماً. تزامنت كافة التحولات الجوهرية في العلاقات الإسرائيلية الإيرانية مع التحولات الجيوسياسية وليس الإيديولوجية، فبدأ الشاه الابتعاد عن إسرائيل بعد أن باتت إيران تملك من القوة ما يمكّنها من تحييد الخطر العربي، وعقد صداقات مع الدول العربية من موقع قوة. في تلك المرحلة، ازداد ميل إيران إلى النظر إلى علاقتها بإسرائيل على أنها عبء أكثر منها رصيد. غير أن فشل الشاه في الفوز بدعم العرب لموقعه القيادي – وهو فشل يعود جزئياً إلى روابطه الوثيقة بإسرائيل – دفع الثوريين إلى البحث عن صيغة أخرى لرأب الصدع العربي الفارسي من خلال الإسلام السياسي. وأدّى ذلك التوجّه إلى زيادة حاجة طهران إلى معارضة إسرائيل، بالرغم من استمرار روابطها السرية بالدولة اليهودية.

حدث التحول الأسوأ والأكثر دراماتيكية في العلاقات الإسرائيلية الأميركية في مستهل التسعينيات، مع انتهاء الحرب الباردة وهزيمة العراق في حرب الخليج. المثير للسخرية أن الحماسة الإيديولوجية بإيران تراجعت بحدة في تلك السنين. ففي حين أنه كان في السياسة الخارجية الإيرانية مكونة إيديولوجية دائماً، كانت الإيديولوجية تُترجَم إلى سياسة عملانية في ما يتعلق بإسرائيل فقط عندما تقترن بمصلحة استراتيجية، كما كان عليه الحال في حقبة ما بعد الحرب الباردة[4]. يشرح محسن ميردمادي الذي ترأس لجنة العلاقات الخارجية في البرلمان الإيراني في أواخر التسعينيات الأمر بالقول: "الإسرائيليون يعارضون فكرة أن تلعب إيران دوراً هاماً، أو تكون القوة الأولى في المنطقة. ونتيجة لذلك، نجد أنهم يعارضون حدوث تطور بإيران. وبالتالي فهذا صراع بيننا وبين إسرائيل. ولو نظرنا إليه من زاوية إيديولوجية، سنظل في حالة عداء مع إسرائيل"[5].

عندما كانت المصلحة الإيديولوجية تتصادم مع المصلحة الاستراتيجية، كما حصل في الثمانينيات، كانت الاعتبارات الاستراتيجية تتفوق باستمرار. بالنسبة إلى الإيرانيين، هذا ليس تناقضاً وإنما إحدى حقائق الحياة البسيطة. لذلك لا ينظر الحكام بإيران إلى الإيديولوجية كحقيقة مطلقة، وهو ما اعترف به الرئيس السابق هاشمي رفسنجاني في خطبة جمعة عندما قال: "عمدنا إلى اتخاذ تدابير غير مناسبة أو لم نعمد إلى اتخاذ أي تدابير؛ وعمدنا إلى تأخير صناعة القرار. إن إيديولوجيتنا تتميز بالمرونة، وفي وسعنا اختيار منفعتنا الذاتية وفقاً للإسلام"[6]. في مناسبة أخرى، رفض رفسنجاني الفكرة التي تقول بأنه ينبغي أن تستند السياسة الخارجية الإيرانية إلى المبادئ الإيديولوجية بحيث يتوجب على الدولة أن تتصرف

بما يتفق ومهامها التي يوجبها الإسلام، بصرف النظر عن النتائج التي ستنجم عن ذلك. "إن وضع الدولة في خطر على أساس أننا نتصرف على أساس إسلامي عمل غير إسلامي"[7]. استناداً إلى نائب وزير الخارجية السابق عباس مالكي، لم تعد السياسة الخارجية الإيرانية إيديولوجيةً منذ زمن طويل، "فالإيديولوجية تعني أنه يتعين علينا تبنّي سياسات تناصر المسلمين في كل العالم. أجل، يمكننا القول إننا نناصر المسلمين في كافة أنحاء العالم... ولكننا لا ندعم المسلمين الشيشان. إذا كانت الإيديولوجية المحرّك الأول للسياسة الخارجية الإيرانية، إذاً يتعين على إيران أن تفعل ذلك. ولكن إيران لم تفعل ذلك"[8]. بقدر ما قد يرغب القادة الإيرانيون في متابعة أهدافهم الإيديولوجية، ما من قوة في السياسة الخارجية الإيرانية أكثر غلبة من الاعتبارات الجيوسياسية[9].

يقرّ العديد من كبار صنّاع السياسة بتل أبيب بهذه الحقيقة، بالرغم من أن الخطاب الإسرائيلي يشير إلى العكس، ويجادلون بأن طموحات إيران لا علاقة لها بالطبيعة الإسلامية لنظام الحكم فيها. يقول باري روبن، مدير مركز البحوث العالمي للشؤون الدولية بالقدس (غلوريا): "إن ما كان يعتبر طموحاً مستنداً إلى القومية لدى الشاه أصبح لدى من خلفوه طموحاً موازياً مستنداً إلى راديكالية إسلامية غالباً ما خدمت ببساطة كقناع رقيق للقومية". والمرحلة الأخيرة، كما يسمّيها الإسرائيليون، التي وصلت إليها السياسة الخارجية الإيرانية لا تختلف كثيراً عن السياسة التي كانت متَّبعة في عهد الشاه[10]. وقال لي إيرانيّ مسنّ بإسرائيل بصراحة: "الفرس يريدون الهيمنة! لطالما كانوا كذلك، وسيبقون دائماً كذلك".

عندما يتمعن المرء قليلاً، يجد أنه حتى انتقادات الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد الحادّة لإسرائيل تحرّكها دوافع استراتيجية. وهو قام بأمر قلّة من القادة الإيرانيين قاموا به قبله؛ التشكيك في المحرقة النازية. (كان الرئيس السابق محمد خاتمي حريصاً على تجنّب هذه المبالغات). قال أحمدي نجاد أمام حشد في خريف العام 2005 بمنطقة زهيدان الواقعة في جنوب شرق إيران: "اليوم، أوجدوا خرافة باسم المحرقة النازية وقدّموها على الله، والدين، والأنبياء. إذا كنتم (الأوروبيون) قد ارتكبتم هذه الجريمة الشنعاء، فلماذا ينبغي على الشعب الفلسطيني المظلوم أن يدفع الثمن؟ أنتم (الأوروبيون) الذين يتوجب عليكم دفع التعويض". وعلى الفور، أصدر مجلس الأمن الدولي بياناً أدان فيه تعليقات الرئيس الإيراني. ومن غير المفاجئ أن الأوروبيين شعروا بالغضب الشديد، وهددوا بالانضمام إلى الولايات المتحدة في تبنّي موقف أشدّ قسوة من إيران. فوجئت إيران بردة الفعل الدولية القوية، مما أشعل جدالاً داخلياً حادّاً داخل الحكومة، لأن تعليقات الرئيس أغضبت المفاوضين الإيرانيين المكلّفين بالموضوع النووي والذين كانوا يجرون محادثات دقيقة مع الأوروبيين منذ العام 2003 حول البرنامج النووي الإيراني. هذا الخطاب أضعف العمل الدقيق المتزن الذي قاموا به لتجنّب إحالة الملف الإيراني إلى مجلس الأمن وللدفاع عن حق إيران بتخصيب اليورانيوم.

جادل المعسكر المحيط بأحمدي نجاد بأنه ينبغي على إيران توسيع دائرة الصراع وجعل إسرائيل جزءاً جوهرياً وبارزاً في الجدال الدولي حول البرنامج النووي الإيراني، لأن معالجة هذا الموضوع بمعزل عن القضايا الأخرى لا يفيد سوى الغرب. لكن بتوسيع أفق الجدال، ستجد إيران الأدوات اللازمة للدفاع عن موقفها. في الحد الأدنى، جادل معسكر أحمدي نجاد بأنه ينبغي تكبيد إسرائيل ثمناً لأنها جعلت البرنامج النووي الإيراني مصدر قلق دولياً واسعاً ولأنها أقنعت واشنطن بتبنّي سياسة أكثر تشدداً في هذه المسألة. ويوافق معارضو أحمدي نجاد في المعسكر الأكثر اعتدالاً على ضرورة وضع إسرائيل في موقف دفاعي وتوسيع النقاش، ولكنهم يختلفون عن المعسكر الأول بشكل واضح بشأن الطريقة المثلى لبلوغ تلك الأهداف. وبالاستناد إلى مسؤول إيراني رفيع المستوى، آثر الأشخاص المقرّبون من أحمدي نجاد إثارة مسائل تمكنت إسرائيل من حسمها على مدى العقدين السابقَين: شرعية إسرائيل وحقها في الوجود، وحقيقة المحرقة النازية، وحق اليهود الأوروبيين بالبقاء في قلب الشرق الأوسط. وجادل بأن هذا النهج سيردد صدى الشارع العربي الساخط ويظهر عجز الأنظمة العربية الموالية لأميركا والتي ستشعر بالضغط والإحراج.

وكما فعلت إيران في مستهل الثمانينيات، سعت هنا أيضاً إلى تحييد الحكومات العربية الموالية للغرب في المنطقة عبر مخاطبة الشارع العربي. فإذا جرى عرض حالة الجمود في الموضوع النووي على أنها اعتداء أميركي إسرائيلي على إيران الإسلامية التي نهضت لدعم الفلسطينيين، سيكون من المستحيل على الحكومات العربية – بصرف النظر عن مدى كراهيتها لطهران – الوقوف في وجه إيران لأن ذلك سيجعلها تبدو بأنها تقف إلى جانب إسرائيل. كانت تلك خدعة إيرانية قديمة، والإسرائيليون على دراية تامة بها بالرغم من عدم قدرتهم على القيام بالكثير لمواجهتها. يقول شلومو بن عامي، وزير الخارجية الإسرائيلي السابق: "في رأيي، تبقى هذه، حتى بالرغم من الموضوع النووي، الغاية الرئيسية للخطاب الناري لأحمدي نجاد. إذا كان الخطاب المطروح في الشرق الأوسط خطاباً عربياً، سيتم عزل إيران. لكن في حال كان إسلامياً، ستحتل إيران موقعاً ريادياً. وإذا أضفنا إلى ذلك دعوى حماية إيران والثورة الإيرانية، يتبين لنا لماذا سعوا طوال الوقت إلى معارضة العملية السلمية"[11].

عارضت الأصوات الأكثر اعتدالاً بطهران هذا النهج بسبب الصعوبات التي تكهنوا بأنه سيوجدها للمساعي الدبلوماسية الإيرانية في الموضوع النووي. وهم آثروا أسلوب خاتمي الذي اعتمد على إثارة مسألة معاناة الشعب الفلسطيني وعدم استعداد إسرائيل لتقديم تنازلات على صعيد الأراضي، مع تجنب القضايا الساخنة مثل حق إسرائيل في الوجود أو المحرقة النازية، وجادلوا بأن رفع الخطاب إلى مثل هذه المستويات سيفشل ويدفع دولاً رئيسية مثل روسيا والصين إلى الانقلاب على إيران. في هذا السياق، جرى تداول جزء من هذه النقاشات علناً على صفحات الجرائد الإيرانية. فقد نشرت صحيفة **الشرق** الإصلاحية اليومية التي أغلقها أحمدي نجاد بعد أن انتقدته علناً، مقالة افتتاحية انتقدت فيها إنكار الرئيس للمحرقة النازية. ركّز الكاتب على حجتين؛ المحرقة النازية ليست قضية تعني إيران، وأنه بدلاً من قلب الطاولة على رؤوس أعداء إيران، لن تعمل تصريحات أحمدي نجاد سوى على زيادة الأمور سوءاً بالنسبة إلى إيران[12].

غير أن الذي غاب عن الجدال الداخلي بطهران على نحو ملفت للنظر كان الدوافع والعوامل الإيديولوجية التي تثيرها إيران علناً لتبرير موقفها

من إسرائيل. فلم يأتِ أحد على ذكر الإسلام أو معاناة الشعب الفلسطيني في النقاشات. وبدلاً من ذلك، بدت بنود الجدال ونتيجته ذات طبيعة استراتيجية صرفة. فقد هدف المعسكران إلى إعطاء إيران زمام المبادرة في المواجهة مع الولايات المتحدة وإسرائيل لتجنّب مواجهة المصير الذي واجهه العراق عندما ظلت واشنطن من العام 1991 ولغاية الغزو في العام 2003 تسيطر بدرجة كبيرة على مجرى الأحداث. مع أن النظام لم يتوصل إلى إجماع على كيفية حل المسألة، منع آية الله كافة المسؤولين الإيرانيين من تكرار الملاحظات العنيفة حول المحرقة في الوقت الحالي؛ وهو ما كان مدعاة للإحباط بالنسبة إلى أحمدي نجاد.

لا يزال هذا القرار ساري المفعول. فعندما زار أحمدي نجاد نيويورك لإلقاء خطاب أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في سبتمبر/أيلول 2006، أثار الصحافيون الغربيون مسألة جرائم المحرقة. لكن بدلاً من تكرار ملاحظاته السابقة، حوّل أحمدي نجاد السؤال إلى جدال مختلف: معرفة ما إذا كان ينبغي على الفلسطينيين دفع ثمن الجرائم التي ارتكبتها ألمانيا النازية، ولماذا يُعتبر التشكيك في المحرقة جريمة في بعض البلدان الأوروبية. كما وجه أحمدي نجاد سؤالاً إلى أندرسون كوبر من محطة سي أن أن فقال: "إذا حصل هذا الأمر، فأين حصل؟ السؤال الأساسي هو 'أين'. والمكان ليس فلسطين. [إذاً]، لماذا تُستخدم المحرقة النازية ذريعة لاحتلال الأراضي الفلسطينية؟" ثم دعا إلى إجراء المزيد من البحوث في هذا الموضوع مع تجنّبه بالكامل الاعتراف بحقيقة المحرقة أو تكرار وصفه السابق لها بأنها خرافة[13]. لكن حتى بدون تكرار ملاحظاته السابقة، أظهر أحمدي نجاد كيف أن في وسعه إضعاف منافسيه بسهولة بطهران عبر إثارة غضب المراقبين الغربيين.

رجال دين نوويون؟

يتعين معالجة حالة الجمود في موضوع البرنامج النووي الإيراني في هذا السياق أيضاً. كما أن العداوة الإسرائيلية الإيرانية ليست مدفوعة بالاختلافات الإيديولوجية بين الطرفين، فهي ليست ناتجة حصراً عن إحساس إسرائيل بالخطر بسبب النشاطات النووية الإيرانية. لدى إسرائيل مخاوف مشروعة بالتأكيد بشأن الخطط النووية الإيرانية، لكن هذه المخاوف لا تفسر في حدّ ذاتها سبب هذا التحول نحو الأسوأ في العلاقات الإسرائيلية الإيرانية في العام 1992 – بعد مرور ثلاث سنين على اكتشاف إسرائيل أن إيران أعادت تنشيط برنامجها النووي– أو سبب تنحية نتنياهو هذه المخاوف جانباً لفترة مؤقتة في العام 1996 عندما سعى إلى مدّ اليد إلى إيران. يقول كيث وايزمان من لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (إيباك): "لم تعر إسرائيل اهتماماً في الحقيقة للبرنامج النووي الإيراني إلى أن بدأت العملية السلمية"[14]. في ذلك الوقت، كان البرنامج في مرحلة أولية، ولم يكن لدى إيران أجهزة طرد مركزي لليورانيوم، وكانت تفتقر إلى الكثير من المعرفة التقنية اللازمة لتطوير أسلحة نووية، وهي لا تزال كذلك لغاية الآن.

استناداً إلى مراجعة أجرتها الاستخبارات الأميركية، كانت إيران في العام 2005 على مسافة عقد تقريباً من تصنيع المكونة الرئيسية لسلاح نووي[15]. كما أنه وفقاً لعدد من صنّاع السياسة بإسرائيل، بالغ حزب العمل في وصفه للخطر الإيراني لأسباب سياسية. فبالرغم من وجود خطر بعيد، بالغ رئيس الوزراء إسحاق رابين في الحديث عنه للترويج لصيغة الأرض مقابل السلام في أوساط الشعب الإسرائيلي، كما يشرح مستشار سابق لرابين[16]. ففي النهاية، التصرّف الإسرائيلي لا يتفق والفكرة التي تقول بأنها تواجه خطراً وجودياً مصدره إيران. ولو أن هذا الخطر موجود فعلاً، كنا سنتوقع من إسرائيل استكشاف كافة السبل الكفيلة بتحييد ذلك الخطر، بما في ذلك فتح حوار أميركي إيراني. بدلاً من ذلك، عملت إسرائيل بلا هوادة على منع بدء مثل هذا الحوار.

بدأ الشاه البرنامج النووي الإيراني في سبعينيات القرن الماضي. كانت إيران تنتج حينها كميات من النفط تفوق ما تنتجه اليوم، وكان استهلاكها المحلّي أدنى بكثير في تلك الأيام. غير أن الرئيس جيرالد فورد عرض على طهران فرصة شراء منشأة إعادة معالجة أميركية الصنع لاستخراج البلوتونيوم من وقود المفاعل النووي. من خلال ذلك العرض، ستتمكن إيران من امتلاك دورة الوقود النووي الكاملة، وهو ما سيوفر لها المعرفة اللازمة لإنتاج مواد لصنع قنبلة نووية. لكن واشنطن أرادت الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك. ففي العام 1975، قام وزير الخارجية هنري كيسنجر بتطوير استراتيجية تفاوض لبيع معدات طاقة نووية لإيران كان من المتوقع أن تعود على التجارة الأميركية بأكثر من 6 مليارات دولار. كان ديك تشيني، وبول وولفويتز، ودونالد رامسفيلد يشغلون جميعاً مناصب رئيسية في مجلس الأمن القومي في إدارة فورد. لكن بعد مرور أكثر من ربع قرن، أصبح هؤلاء الأشخاص أنفسهم على خط المواجهة في حملة تهدف إلى حرمان إيران من الحصول على تلك التكنولوجيا بالذات مجادلين بأن بلداً يملك ثروة نفطية مثل إيران يهدف من وراء امتلاك هذه التكنولوجيا إلى استخدامها في أغراض عسكرية وحسب[17].

بالرغم من أن إيران لا تزال على مسافة سنوات من امتلاك القدرة والمادة لصنع قنبلة نووية، فقد وصلت حالة الجمود إلى نقطة حرجة بسبب الجهود الإيرانية الهادفة إلى إتقان عملية تخصيب اليورانيوم. استناداً إلى ما تقوله إسرائيل، بعد أن تتعلم إيران كيفية تخصيب اليورانيوم بكميات كبيرة وعند مستويات إثراء مرتفعة، تكون قد عبرت نقطة اللاعودة. وتكون بذلك قد امتلكت المعرفة التقنية اللازمة، والتي سيكون من شبه المستحيل بعدها منع إيران من التحول إلى بلد نووي. لكن يوجد العديد من المشكلات في هذا التحليل. أولاً: وقّعت إيران – بخلاف إسرائيل – على معاهدة عدم الانتشار، ويرى أغلب المشاركين في هذه المعاهدة أن إيران تملك الحق بتخصيب اليورانيوم بموجب البند الرابع من المعاهدة، والذي يضمن لكافة الدول "الحق الذي لا يجوز التفريط فيه... في تطوير البحوث في الطاقة النووية وإنتاجها واستخدامها في أغراض سلمية بدون تمييز". إن إنكار هذا الحق على إيران سيغيّر بنود المعاهدة والتي يتردد العديد من الدول غير النووية في الانضمام إليها ما لم تفِ الدول النووية بالتزامها المنصوص عليه في البند السادس من المعاهدة وتبدأ تفكيك ترساناتها النووية[18]. ثانياً: يقول بعض الخبراء في قضايا عدم الانتشار، بأن مفهوم نقطة اللاعودة

مقياس اعتباطي يُستخدم لغايات سياسية. يقول جون وولفْستال، وهو مسؤول رفيع سابق في وزارة الطاقة: "إن مفهوم نقطة اللاعودة مفهوم غير صحيح، والأصوات التي تستخدمه بأميركا وإسرائيل للدفع في اتجاه التوصل إلى حل سريع أصوات مضللة. إنه مفهوم باطل تستخدمه الجهات التي تريد القيام بعمل فوري"[19].

العمل الفوري هو بالضبط ما يريد الإسرائيليون القيام به. في صيف العام 2006، قالت وزيرة الخارجية الإسرائيلية تسيبي ليفني: "كل يوم ينقضي يقرّب الإيرانيين أكثر من بناء قنبلة. والعالم لا يستطيع التعايش مع إيران نووية"[20]. لقد تبنّى اللوبي المؤيد لإسرائيل بواشنطن موقفاً أكثر تشدداً من موقف الحكومة الإسرائيلية نفسها، فخاطب المدير التنفيذي في إيباك، هاوارد كور، خمسة آلاف شخص من مناصري إيباك في مأدبتهم السنوية بواشنطن في 5 مارس/آذار 2006، "إن أوجه المقارنة بين المناخ الجيوسياسي في 5 مارس/آذار 1993 ونظيره في 5 مارس/آذار 2006، مذهلة من حيث التشابه بينهما، ولكنها رهيبة من حيث مضمونها". وقبل أن يلقي كور خطابه، شاهد الحضور سلسلة من الفيديو كليبات التي تقارن بين وصول أدولف هتلر إلى السلطة وفترة حكم أحمدي نجاد كرئيس لإيران[21]. بذل الإسرائيليون ضغوطاً هائلة على إدارة بوش لحملها على التحرّك، ولعبوا دوراً رئيسياً في إقناع واشنطن بتبنّي سياسة تعارض التخصيب بالمطلق، مما يعني أنه يتعين حرمان إيران بالكامل من أية تكنولوجيا متعلقة بالتخصيب، ويصر الإسرائيليون على القول إنه حتى البرنامج التجريبي الصغير لن يكون مقبولاً لأن إيران ستظل قادرة على تعلّم كيفية استخدام هذه التكنولوجيا انطلاقاً من هكذا برنامج. وما من مرة صدرت تلميحات من إدارة بوش تشير إلى استعدادها للتوصل إلى تسوية إلاّ ودقّ الإسرائيليون أجراس الإنذار.

على سبيل المثال، عندما عبّرت إدارة بوش عن دعمها لاقتراح يسمح لإيران بمواصلة تطوير برنامجها النووي طالما أن عملية التخصيب تجري بروسيا، وقفت إيباك بحزم ضدّ إدارة بوش[22]. وفي إيجاز لأعضاء الكونغرس، سُئِل دبلوماسي إسرائيلي رفيع المستوى عن نوع نظام التحقق الذي سيُشعر الإسرائيليين بالاطمئنان إلى برنامج نووي سلمي إيراني. وبدون تردد أجاب هذا الدبلوماسي: "لا يوجد". بالمقابل، قال إن الضمانة الوحيدة المقبولة لدى إسرائيل هي "إضعاف قاعدة إيران الصناعية". وقال الإسرائيليون بأنه في حال لم تقم الولايات المتحدة بعمل سريع ضدّ إيران، فقد "تحتاج (الدولة اليهودية) إلى المضي في هذا الأمر بمفردها"، في إشارة إلى أنه ربما تحاول تدمير المنشآت النووية الإيرانية بنفسها.

سبّب احتمال شنّ هجوم إسرائيلي على المنشآت النووية الإيرانية صداعاً حادّاً للبيت الأبيض، لأن اللوم سيُلقى على الولايات المتحدة تلقائياً في هذا العمل؛ بصرف النظر عما إذا كان الرئيس قد أعطى الإسرائيليين الضوء الأخضر أم لا. وبما أن إسرائيل لا تملك بمفردها القدرة العسكرية على تدمير البرنامج الإيراني بنجاح عبر توجيه ضربات جوّية، فالتهديدات المبطّنة التي تطلقها تل أبيب تهدف على الأرجح إلى الضغط على واشنطن لكي لا تليّن من موقفها عبر تحذيرها من العواقب المترتبة على شنّ هجوم إسرائيلي على إيران: تصعيد خطير في العنف في المنطقة سيشكل خطراً جدّياً على أمن الولايات المتحدة، بالنظر إلى موقف واشنطن الذي يزداد ضعفاً بالعراق. وسواء أراق الأمر لواشنطن أم لا، ستغرق لا محالة في الفوضى التي ستلي ذلك.

المثير للسخرية هو أن إيران ربما لا تريد بناء سلاح نووي كهدف في حدّ ذاته، وإنما تريد امتلاك القدرة على التحول إلى دولة نووية في حال واجهت خطراً وشيكاً. (لكن لا تزال القوى الغربية ترى في امتلاك إيران مثل هذه القدرة مشكلة كبيرة). وأشار المدير التنفيذي للوكالة الدولية للطاقة الذرّية محمد البرادعي إلى أن الخيار المفضَّل لدى إيران هو امتلاك القدرة على صنع الأسلحة من غير أن تعمد إلى صنعها، وقال البرادعي بأن معرفة الإيرانيين كيفية تخصيب اليورانيوم رادع في حدّ ذاته وإلى أنهم "ليسوا بحاجة إلى سلاح؛ التخصيب عبارة عن رسالة". وعزز مدير الوكالة تعليقاته التي أدلى بها في نيوز آور مع جيم ليهْرِر في 18 مارس/آذار 2004 بالقول: "حسناً، ما أردت أن أقوله هو... إذا كنتم تملكون برنامجاً للتخصيب أو برنامجاً لإعادة المعالجة، فهذا يعني أنكم تستطيعون إنتاج اليورانيوم... وأنتم من الناحية الفعلية تبعثون برسالة بأننا نعرف كيفية القيام بذلك في حال قررنا صنع سلاح. نحن لسنا بحاجة إلى تطوير سلاح، ولكننا نقول لكم، أنتم تعرفون، كما يعرف العالم وكما يعرف جيراننا بأننا نستطيع القيام بذلك"[23].

يدرك الإيرانيون جيداً أن قراراً بامتلاك أسلحة نووية سيضعف الموقف الإستراتيجي لإيران على الأرجح بدلاً من أن يقوّيه. وطالما تم الإبقاء على الشرق الأوسط خالياً قدر الإمكان من الأسلحة النووية، ستتمتع إيران بتفوق في ميدان الأسلحة التقليدية على جيرانها بسبب حجمها ومواردها. لكن في حال امتلاك إيران أسلحة نووية، فستخاطر بإشعال سباق على تسلّح نووي يمكن أن يدفع دولاً صغيرة إلى امتلاك قدرة نووية أيضاً. عندما يصبح الشرق الأوسط على هذه الحال، ستخسر إيران تفوقها التقليدي، وتجد نفسها في وضع مساوٍ من الناحية الاستراتيجية لدول تكبرها إيران حجماً بأكثر من عشرين مرة. هذا هو الدافع الذي يفسر جزئياً سبب انضمام إيران إلى دولة إقليمية أخرى ذات كثافة سكانية عالية – مصر – بالدعوة إلى إبقاء الشرق الأوسط منطقة خالية من الأسلحة النووية في سبعينيات القرن الماضي. فبوصفهما دولتين كبيرتين، لا يوجد لدى إيران ومصر ما تكسبانه لكن يوجد لديهما كل ما تخسرانه بامتلاك أسلحة نووية. (لا يوفق الإسرائيليون على هذا التحليل ويفترضون بأن الإيرانيين سيسعون إلى امتلاك سلاح نووي مهما كانت الظروف)[24].

يضاف إلى ذلك أن إيران تعتقد بأنها تملك قدرات ردعية فاعلة في مواجهة كافة الدول التي في المنطقة تقريباً، بما في ذلك إسرائيل، وأنها ليست بحاجة إلى أسلحة نووية لثني الدولة اليهودية عن مهاجمة إيران. يقول سفير إيران لدى الأمم المتحدة جواد ظريف، في إشارة إلى القدرات غير النظامية التي تملكها إيران بلبنان: "من وجهة نظر الحكومة، لن تشكل أسلحة الدمار الشامل رادعاً لإسرائيل. لكن لدينا روادع أخرى تعمل

بشكل أفضل"[25]. غير أن الخطر الوحيد الذي تفتقر إيران إلى أي رادع فاعل لمواجهته هو الولايات المتحدة (بالرغم من أن إيران تملك رادعاً جزئياً من خلال نفوذها لدى شيعة العراق، وهو ما يمكن أن يلحق أذى كبيراً بالاحتلال الأميركي الآخذ في الانهيار أصلاً هناك). لكن في حال أمكن تحسين العلاقات بالولايات المتحدة، ربما تُحرم إيران من أحد الدوافع الرئيسية لامتلاك أسلحة نووية.

هل يمكن ردع طهران؟

يمكن فهم خوف إسرائيل من إيران نووية، حتى وإن كانت إسرائيل لا تعتقد بأن إيران ستستخدم بالضرورة أسلحة الدمار الشامل ضدّها[26]. فهذا سيؤدي بالتأكيد إلى دمار إيران نفسها: يعرف القادة الإيرانيون المدنيون منهم والعسكريون أن ترسانة إسرائيل تضمّ مائتي رأس حربي نووي، وأنها قادرة على توجيه ضربة ثانية بواسطة غواصاتها الثلاث من طراز دولفين والمجهزة بصواريخ نووية. على النقيض من الفكرة التي تصوّر الإيرانيين بأنهم "رجال... مجانين"، يقرّ أغلب المفكرين الاستراتيجيين بإسرائيل بأن الحكومة الإيرانية متطرّفة وراديكالية ولكنها حكيمة.

في الواقع، يمكن القول إن إيران عدو عاجز أمام إسرائيل لأنها لا تتصف باللاعقلانية والتهور. إيران تتصرف بمهارة كبيرة وحذر بالغ على نحو يفوق العديد من أعداء إسرائيل التقليديين. ففي حين كان صدام متهوراً ومغامراً وارتكب أخطاء استراتيجية كبيرة بمهاجمته إيران في العام 1980 وغزوه للكويت في العام 1990، عملت طهران وفقاً لمبادئ مختلفة تماماً. حتى في أغلب الفترة التي سيطرت فيها الإيديولوجية على الثورة الإيرانية، لم تتصرف إيران بطريقة متهورة أو بدون تحسس لخسائرها أبداً[27]. يقول إيهود ياري، وهو إعلامي تلفزيوني إسرائيلي محنّك: "الناس هنا يحترمون الإيرانيين والنظام الإيراني. وهم يعتبرونهم لاعبين في غاية الجدّية ويدرسون خطواتهم بعناية"[28]. يتفق معه إفرايم هالفي، الرئيس السابق للموساد، في الرأي ويقول: "أنا لا أعتقد أنهم غير عقلانيين، بل إنني أعتقد أنهم عقلانيون جداً. ووصفهم باللاعقلانية تهرّب من الحقيقة ووسيلة للابتعاد عن الواقع"[29]. وطالما أن الطرف الآخر عقلاني، ستتوفر للقدرة الردعية الإسرائيلية في مواجهة خطر إيراني نووي فرصة كبيرة للنجاح لأن الإيرانيين يعرفون بالضبط الثمن المترتب على مهاجمة إسرائيل، كما يقول روفين بيداتْزور، مدير مركز غاليلي للاستراتيجيا والأمن القومي ومقاتل طيار في سلاح الجو الإسرائيلي الاحتياطي[30].

ربما تكون العقلانية التي تتصف بها إيران السبب الذي يفسر أيضاً عدم تقاسمها أسلحة كيميائية أو بيولوجية مع أي من وكلائها، ولماذا يرجَّح ألاّ تتقاسم إيران نووية الأسلحة النووية مع الجماعات الإرهابية. كانت إسرائيل قد أطلقت إشارات إلى إيران بأنها ستنتقم من أي هجوم نووي على إسرائيل بضرب إيران؛ بصرف النظر عن الجهة التي هاجمت إسرائيل. وقد استوعبت طهران بشكل كامل فحوى تلك الإشارة؛ في حال هوجمت إسرائيل من قبل أي من وكلاء إيران برأس حربي نووي، فستدمر إسرائيلُ إيران. لكن حتى بدون هذا التحذير الصارم، من غير المرجح أن تتقاسم إيران أسلحة الدمار الشامل مع وكلائها لأن هؤلاء لن يتصرفوا عندئذٍ كوكلاء في حال امتلكوا مثل هذه الأسلحة. ففي النهاية كل ما تطمح إليه إيران هو أن تصبح قوة إقليمية بدون منازع. وبالنظر إلى ميلها إلى اعتبار كافة البلدان الأخرى منافسة محتملة لها، من المستبعد جداً أن تقوّض هدفها بتقاسمها التكنولوجيا الحساسة مع أي من وكلائها. وإذا أردنا أن نحكم بناء على تصرفات طهران السابقة، يتبين أن القيادة الإيرانية أكثر دهاء من أن ترتكب خطأ مدمراً لا يمكن تصحيحه.

هناك وجهة نظر ضعيفة بإسرائيل، تسمى وجهة النظر البيغنية، وتحظى بتأييد أشخاص من أمثال نائب وزير الدفاع إفرايم سنيه، والعضو في الكنيست أوزي لاندو، والجنرال عموس جلعاد. يجادل هؤلاء بأنه يتعين أن يكون المبدأ الاستباقي لمناحيم بيغن – الذي دمّر المفاعل النووي العراقي بقصف أوزيراك في العام 1981 – هو الموجّه لطريقة تعاطي إسرائيل مع إيران. واستناداً إلى هذه المدرسة الفكرية، تتميز الدول الواقعة في الشرق الأوسط باللاعقلانية والتهور، ونتيجة لذلك لا يتوفر خيار رادع ثابت[31]. أي أن إسرائيل لا تتحمل المجازفة مع أعداء مثل هؤلاء. والدفاع الوحيد المتوفر هو ضمان عدم امتلاك هذه البلدان تكنولوجيا نووية عبر تدمير منشآتها النووية بضربات استباقية.

غالباً ما يشير المدافعون عن هذا الخط إلى تصريح أدلى به رفسنجاني في مستهل العام 2002، عندما ناقش كيفية جعل دولة إسرائيل الصغيرة أكثر انكشافاً أمام هجوم نووي، ملمّحاً – كما يقول البيغنيون – إلى أن إيران تعتقد بأنها تستطيع أن تحقق النصر في حرب نووية مع إسرائيل. (اتَّهم رفسنجاني إسرائيلَ في وقت لاحق بتشويه تصريحه)[32]. في النهاية، يملك البيغنيون تأثيراً في الخطاب الإسرائيلي وفي توصيف الصراع أقوى من تأثيرهم في السياسة الفعلية المتَّبعة مع إيران. لكن إذا كانت إيران دولة غير عقلانية ومتهورة، فلماذا لم تقدم على عمل متهور لغاية الآن؟ يبدو أن الجمهورية الإسلامية رفضت على مدى السنين السبع والعشرين الأخيرة كافة الفرص التي تؤدي إلى دمارها. في الواقع، يرجح أن رجال الدين باتوا اليوم أقوى من أي وقت مضى. وبالنظر إلى المشكلات الداخلية العديدة التي تعاني منها الحكومة الإيرانية ونفور الناس منها في الداخل وفي الخارج، من الصعب فهم كيف تمكن رجال الدين من تحقيق هذا النجاح لو كانوا غير عقلانيين.

مع ذلك، ليس بالأمر المفاجئ أن العديد بإسرائيل توصّلوا إلى الاستنتاج بأن طهران غير عقلانية لأن هذا ما يودّ رجالُ الدين أن يراه أعداء إيران. لكن خلف سلوكهم المتناقض، غالباً ما تكمن سياسة وحيدة صيغت بعناية شديدة. فإيران تستخدم هذا التناقض لكي تخفي مصالحها، وتترك انطباعاً بأنها غير عقلانية ولا يمكن التوقع بتصرفاتها، وهو ما يُطلق عليه "انعدام العقلانية المتقمَّص"[33]. ويقول أمير مهيبيان، وهو استراتيجي محافظ بارز: "ينبغي ألاّ نكون دولة يمكن لأعداء إيران معرفة طريقتها في التفكير والتوقع بما ستقوم به. لم يكن في مقدور الولايات المتحدة أن تعبث مع الإمام الخميني لأنه لم يكن في الإمكان معرفة طريقته في التفكير... ويرجع سقوط صدام إلى أن طريقته في التفكير كانت معروفة. وهم

عرفوا أنه حتى لو كان يملك أسلحة دمار شامل فهو لم يكن ليجرؤ على استعمالها"[34].

هذه الطريقة في التفكير ليست محصورة بمعسكر المحافظين بإيران. فاستناداً إلى أحد معاوني مستشار الأمن القومي الإيراني، هذه الطريقة متجذّرة في تجارب إيران على مدى القرنين التاسع عشر والعشرين، عندما مكّن انفتاحُ البلاد القوى الخارجية من التلاعب بها من أجل استغلال ثرواتها الطبيعية وجعلها دولة تعتمد على الغرب. ترى الحكومة الإيرانية بأنه "ينبغي البقاء على مسافة محسوبة بعيداً عن الأجانب"، على حدّ تعبير هذا المعاون. ويضيف "عليك ألاّ تجعلهم يفهمون كيفية إدارتك لشؤونك الخاصة. لهذا السبب، أعتقد بأن إثارة الحيرة أمر مقصود. ولهذا السبب يسمحون للمؤسسات المختلفة بالتعبير عن العديد من السياسات المتناقضة، ولا بأس بذلك. فهذا يوفّر لإيران الأمن لأننا نعرف ما نريد أن نقوم به"[35]. ربما تكون إيران قد خدعت الكثيرين في إسرائيل بهذه الاستراتيجية، ولكنها أسهمت أيضاً بانعدام الثقة المطلق بين إيران والعالم الخارجي، وهذا بدوره زاد من صعوبة التوصل إلى حل لمشكلات إيران مع الولايات المتحدة ومع المجتمع الدولي.

سواء أكانت إيران عقلانية أم لا، متهورة أم لا، كانت تنوي مهاجمة إسرائيل أما لا، ستشكل إيران النووية بالرغم من ذلك مشكلة لإسرائيل بسبب تأثيرها في قدرة إسرائيل على المناورة الاستراتيجية. فالخطر الحقيقي الذي تراه إسرائيل في إيران تملك قدرة نووية له شقّان. الشق الأول هو أن إيران التي لا تملك أسلحة نووية – ولكن في مقدورها إنتاجها – ستلحق ضرراً بالغاً بقدرة إسرائيل على ردع المنظمات المسلحة الفلسطينية واللبنانية. وستضرّ بصورة إسرائيل بأنها الدولة الوحيدة المزودة بأسلحة نووية في المنطقة وتحطم الأسطورة التي تقول بأنها دولة لا تُقهر. عن هذه الصورة، قال لي جلعاد: "إنها أقوى عامل في إرساء السلام. إنها الرادع الذي نملكه". بالتالي، يمكن لقدرة ردعية إيرانية أن تقوض التفوق العسكري لإسرائيل، وتمنعها من إملاء شروطها الخاصة بالسلام ومتابعة خططها الخاصة بالسلام بطريقة أحادية. يقول سنيه: "لا يمكننا تحمّل وجود قنبلة نووية في حوزة أعدائنا نقطة على السطر. إنهم لن يكونوا بحاجة إلى استخدامها، لأن مجرد امتلاكهم لها يعتبر كافياً". يمكن لإيران النووية أن تجبر إسرائيل على القبول بتسويات مناطقية مع جيرانها لحرمان إيران من الذرائع العدوانية التي يمكن أن تستخدمها ضدّ الدولة اليهودية. وإسرائيل لن تتحمّل ببساطة الدخول في منافسة نووية مع إيران ومواصلة نزاعاتها على الأراضي مع العرب في الوقت نفسه. الشق الثاني إن الرادع والقوة التي ستمتلكهما إيران من جرّاء امتلاك دورة الوقود سيجبران واشنطن على التوصل إلى اتفاق مع طهران بحيث يصار إلى الاعتراف بإيران قوة إقليمية، مما سيُكسبها أهمية استراتيجية في الشرق الأوسط على حساب إسرائيل.

خيارات واشنطن: بين المطرقة والسندان

عندما يتعلق الأمر بإيران والمنافسة الإيرانية الإسرائيلية، الاعتقاد الشائع هو أن واشنطن لا تملك أي خيارات جيدة. لكن بعض الخيارات أسوأ من البعض الآخر. يستند بعض هذه الخيارات إلى نظريات خيالية لها القليل من الارتباط بالواقع، مثل إصرار إسرائيل على البقاء مخلصة للمبدأ المحيطي في الثمانينيات حتى بعد وصول آية الله الخميني إلى السلطة بإيران. فقد استندت النظرة الكونية للإسرائيليين على فرضيات بسيطة حول آليات العلاقات الدولية التي أخفقت في أخذ المصالح المتضاربة لإيران بعين الاعتبار. فمن ناحية، اعتقدت إسرائيل أن الصدع العربي الإسرائيلي عميق لدرجة أنه لن يمكن التوصل إلى سلام حقيقي مع العرب (على الرغم من الاتفاقية التي توصلت إليها إسرائيل مع مصر في كامب ديفيد 1)؛ ومن ناحية أخرى، افترضت أن إيران تسير على المسار نفسه الذي سارت عليه إسرائيل. أي أن إيران ستبقى دائماً على طرفي نقيض مع جيرانها العرب بسبب الصدع العربي الفارسي، مما يجعلها حليفاً طبيعياً ودائماً لإسرائيل بغض النظر عن رغبات حكام طهران. فالحقائق الجيوسياسية لن تترك ببساطة لإيران خيارات أخرى[36]. وبناء على هذه الافتراضات، تكوّنت فكرة عما ينبغي أن يكون عليه سلوك إيران، وعندما لا ينسجم سلوك إيران مع هذه الفكرة، لا يتم التشكيك في صحة الافتراضات التي بُنيت عليها هذه الفكرة. وبدلاً من ذلك، يُنظر إلى تصرف إيران على أنه غير عقلاني ومؤقت، وأن إيران ستعود إلى رشدها عاجلاً أو آجلاً.

هذه النظرة البعيدة عن الواقع هي التي ميّزت مقاربة إدارة بوش في الشرق الأوسط منذ 11 سبتمبر/أيلول. إحدى النظريات الخيالية التي استثمر فيها البيت الأبيض في عهد بوش الكثير من الطاقة والأمل هي تغيير النظام بإيران، والذي اعتمد هو نفسه على الفكرة التي تقول إنه مع وجود نظام مختلف يحكم طهران، ستُحلّ المشكلات بين الولايات المتحدة وإيران، وكذلك المشكلات بين إسرائيل وإيران، تلقائياً بطريقة أو بأخرى.

يقول سنيه: "في اللحظة التي يزول فيها النظام الإسلامي، ستتغير العلاقة الإسرائيلية الإيرانية بزاوية مقدارها 180 درجة"[37]. بالنظر إلى العلاقة الوثيقة التي تمتعت بها إسرائيل والشاه، من السهل التوصل إلى هذا الاستنتاج المشكوك فيه. لكن هناك الكثير من الخلاف حول هذه النقطة بإسرائيل. فالبعض، مثل ميناشي أمير، المدير الأسطوري لراديو إسرائيل الناطق باللغة الفارسية، يرى في الحماسة الدينية للقيادة الإيرانية السبب الوحيد للعداوة بين البلدين. وهو قال لي في مكتبه بالقدس، والمزيّن بالمشغولات الحرفية واللوحات الزيتية الإيرانية: "اليوم، إيران في حالة عداء مع إسرائيل لأسباب دينية. غير أن الأنظمة الإيرانية المستقبلية لن تعاني من تلك المشكلة"[38].

البعض الآخر يجادل بأن تغييراً في القيادة الفردية أو في النظام بطهران لن يؤثر في الدافع النووي لدى إيران. وربما تكون حكومة علمانية وديموقراطية في طهران أكثر ميلاً إلى امتلاك قنبلة نووية، كما يقول رنعان غيسين، المتحدث باسم أرييل شارون، أو في الحد الأدنى، ستكون رازحة تحت ضغط شعبي لمواصلة البرنامج النووي بالوتيرة نفسها[39]. ويقول أوزي أراد، مدير الاستخبارات السابق في الموساد والبروفسور في مركز المناهج العلمية المتعددة بهرتزيليا: "لا يمكن لإسرائيل أن تثق بأن الإصلاح بإيران سيزيل الخطر الاستراتيجي الذي يهدد إسرائيل"[40]. وبالإضافة

إلى ذلك، لا توجد ضمانة بأن إيران ديموقراطية ستكون أكثر استقراراً أو أقل راديكالية مما هي عليه في ظل النظام الحالي. يقول الجنرال أمنون شاحاك: "إذا كان تغيير النظام أمراً ممكناً، سيكون الخطر موجوداً هناك. سيكون وضعاً غير مستقرّ وسيبقى نظاماً غير مستقر". وكما حلّت حكومة راديكالية محلّ نظام الشاه، يمكن أن يواجه نظام ضعيف بإيران المصير نفسه[41]. بدوره، يرفض جلعاد المناقشة برمتها باعتبار أنها أكاديمية وبدون طائل لأنه من غير المرجّح، في نظره، أن يسقط النظام. وهو يقول: "أنا أستبعد أية إمكانية لتغيير النظام"[42]. بقدر ما يعتبر رجال الدين سبباً لإثارة المشكلات، لكن طبيعة النظام الديني ليست سبب العداوة بين إسرائيل وإيران أو بين الولايات المتحدة وإيران. ففي النهاية، كانت التغييرات الجيوسياسية هي التي أشعلت المنافسة الإسرائيلية الإيرانية بعد انتهاء الحرب الباردة، وليس الإيديولوجية أو طبيعة القيادة بإيران. كما أن الثورة الإسلامية لم تضع حداً لسعي إيران إلى التفوق (في الواقع، زادت من الحماسة له في البداية)، ولا يمكن القول بأن إيران علمانية ستكون أقل ميلاً إلى السعي إلى رفعة الشأن وأكثر تقبّلاً لدور خجول في الشؤون الإقليمية.

فشل الاحتواء – حرب لبنان في العام 2006

السياسة الفاشلة الأخرى هي سياسة الاحتواء؛ الفكرة التي تقول بأن الصراع يكمن في احتواء إيران وإضعافها. هذه السياسة لم تفشل وحسب، بل وحوّلت وضعاً سيئاً إلى وضع أكثر سوءاً بجعل إيران دولة أقوى وأشدّ غضباً. المحاولة الأخيرة لإضعاف إيران – الحرب التي اندلعت في صيف العام 2006 بلبنان– توضح هذه النقطة. فبالرغم من أن إسرائيل لم تتوقع الهجوم الحدودي الذي شنّه حزب الله في 12 يوليو/تموز وأسر اثنين من جنودها، إلاّ أن الدولة اليهودية كانت قد خططت، واستعدت لحرب تشنّها على حزب الله منذ أكثر من سنتين. ففي العام 2005، بدأ ضابط رفيع المستوى في الجيش الإسرائيلي بتقديم عروض تقديمية أمام دبلوماسيين أميركيين، وصحافيين، ومفكرين، توضح بتفصيل مخيف خطة العملية المتوقعة. يقول البروفسور جيرالد ستاينْبيرغ من جامعة بار إيلان: "من بين كافة الحروب التي خاضتها إسرائيل منذ العام 1948، كانت هذه الحرب التي استعدت لها على الوجه الأكمل"[43]. في البداية، سار كل شيء وفقاً للمخطط المرسوم. فبعد أن أعطت واشنطن إسرائيلَ بركتها ودعمها – أشارت وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس إلى الاقتتال بأنه "آلام ولادة شرق أوسط جديد" – اجتمع رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي دان حالوتس ومجموعة كبيرة من الضباط على عمق عدة مئات من الأقدام تحت الأرض في المعقل القيادي التابع لسلاح الجو الإسرائيلي بتل أبيب لمراقبة التطورات. في وقت متأخر من مساء 12 يوليو/تموز، وردت أولى التقارير إلى مقرّ القيادة. فقد دمّرت المقاتلات الإسرائيلية أربعاً وخمسين منصة صواريخ وعادت إلى قواعدها سالمة. بعد أن شعر حالوتس بالارتياح، اتصل برئيس الوزراء إيهود أولمرت في منزله بالقدس وأعلن بفخر: "تم تدمير كافة الصواريخ بعيدة المدى". لكنه لم يتوقف عند هذا الحدّ. فبعد لحظة صمت قصيرة، أضاف: "لقد انتصرنا في الحرب"[44].

في هذه الأثناء، فيما كان المحافظون الجدد بواشنطن يضغطون على إدارة بوش لا من أجل دعم الحرب وحسب، بل ومن أجل المشاركة فيها أيضاً، كان صنّاع السياسة بطهران يرتعدون خوفاً. فقد تفاجأ كل من حزب الله وإيران بحجم الردّ الإسرائيلي على الغارة. قال نائب أمين عام حزب الله، الشيخ نعيم قاسم، في وقت لاحق للصحافيين: "توقعنا أن يكون ردّ إسرائيل على أسر الجنديَّين قصفاً مدفعياً يدوم يوماً أو يومين على الأكثر أو شنّ هجمات محدودة على أماكن معينة"[45]. كانت الاستخبارات الإيرانية قد حذّرت القادة السياسيين بطهران من أن إسرائيل أعدّت خططاً لمهاجمة لبنان في وقت لاحق، في أكتوبر/تشرين الأول 2006، لكن لم تصلها أية إشارات تدلّ على أن الحرب ستكون بهذا الحجم أو أنها ستبدأ في وقت مبكر في يوليو/تموز[46]. يقول ناصر هاديان، الاستراتيجي الإصلاحي: "كانت تلك نعمة على إسرائيل. لقد وفر لها حزب الله الفرصة الذهبية لكي تشنّ هجومها"[47].

تخوفت إيران من أن واشنطن وإسرائيل تمهدان الطريق أمام بدء مواجهة عسكرية مع إيران عبر استئصال حزب الله أولاً؛ خط الدفاع الإيراني الأول، وخشيت طهران أن تكون تلك أكثر من حرب بالوكالة، خشيت أن تكون توطئة لتصفية حساب نهائية. تكهن الخبراء بالولايات المتحدة بأن إيران عمدت إلى إشعال فتيل الصراع لصرف الأنظار بعيداً عن مشكلة البرنامج النووي الإيراني، لكنّ الشعور الذي ساد بطهران هو أنه "تم هدر إحدى أوراق إيران بدون داعٍ" عبر الهجوم المتهور الذي قام به حزب الله على إسرائيل، وسرى اعتقاد بطهران بأن مواجهة مباشرة بين المسلحين اللبنانيين والجيش الإسرائيلي لن تكون على الأرجح في صالح حزب الله[48]. يقول محسن رضائي، أمين عام مجمع تشخيص مصلحة النظام: "عرفت إسرائيل والولايات المتحدة أنه طالما أن حماس وحزب الله موجودان هناك، ستكون المواجهة مع إيران مكلفة. ولذلك لكي يتعاملا مع إيران، هما يريدان أولاً التخلص من القوى المقربة من إيران بلبنان وفلسطين"[49]. حول هذه النقطة، لا يبدو أن هناك خلافاً بين الإسرائيليين والإيرانيين. فعلى مدى سنين كثيرة والقلق ينتاب الإسرائيليين من الحشد العسكري لحزب الله. ومع نشره آلافاً من القذائف والصواريخ، صار في مقدور هذا الحزب الشيعي ضرب أجزاء واسعة من شمال إسرائيل. من خلال حزب الله، اكتسب الإيرانيون قدرة ردعية ورافعة لم تقبل بها إسرائيل. الفكرة التي استحوذت على أذهان الإسرائيليين هي أن القتال بلبنان لا علاقة له بحزب الله وحسب، بل وبإيران أيضاً. قال ستاينبيرغ لمجلس العلاقات الخارجية: "أحد أهداف هذه الحرب، بدرجة معينة، هو التأكد من أنهم عندما يشاهدون بطهران صور بيروت، سيفكرون أيضاً بما قد يحصل لطهران"[50].

لكن لا آمال إسرائيل ولا مخاوف إيران تحققت. فبعد إحراز بعض النجاحات الأولية، ذُهل الإسرائيليون من الردّ القوي لحزب الله، والذي شمل إطلاق آلاف من صواريخ الكاتيوشا على شمال إسرائيل. وبدلاً من أن يواجه الإسرائيليون تنظيماً غير محترف، أدركوا بعد وقت وجيز أنهم يقاتلون قوات حسنة التدريب والتجهيز. حتى أن حزب الله استخدم صاروخ سي–807 صيني الصنع ضدّ سفينة حربية إسرائيلية قبالة الشاطئ اللبناني وأخذ

الإسرائيليين على حين غرّة وأعطب السفينة. فشلت الاستخبارات الإسرائيلية في التوصل إلى معرفة كاملة قبل الحرب بما كان يخبئه حزب الله في ترساناته[51]. خاض حزب الله حرباً عالية التقنية، وأولى عناية فائقة للحرب الإعلامية بقدر ما اعتنى بالقتال الذي كان يجري على الأرض. وتمكن مقاتلو حزب الله، الذين تلقوا تدريباتهم وعتادهم من الإيرانيين، من فكّ رموز شيفرة الاتصالات اللاسلكية الإسرائيلية، واعترضوا تقارير تتحدث عن الإصابات التي تكبّدوها. فما من مرّة قُتل فيها جندي إسرائيلي إلاّ وتأكد حزب الله من صحة الخبر عبر التنصّت على الاتصالات اللاسلكية الإسرائيلية ليرسل بعد ذلك تقاريره مباشرة إلى محطته التلفزيونية الفضائية – **المنار** – التي كانت تبثّ الأخبار على الهواء مباشرة. هكذا، عرف الجمهور العربي أسماء من أصيبوا من الإسرائيليين والأماكن التي قُتلوا فيها قبل أن يتسنّى للجيش الإسرائيلي فرصة إبلاغ ذويهم. إن الوقع النفسي لهذه العملية على الإسرائيليين – الذين اعتادوا على التفوق على جيوش جيرانهم العرب – كان مدمّراً.

مع تتابع مجريات الحرب، غيّر سوء الحسابات التكتيكية وقِصر النظر الاستراتيجي الإسرائيلي الوضعَ على الأرض؛ فضلاً عن الرأي العام بإسرائيل. ففي الأيام الأولى للمعارك، كانت الغالبية العظمى من الشعب الإسرائيلي تؤيد الحرب، حيث اعتُبرت حرباً دفاعية وضرورية لوضع حدّ نهائي للهجمات الحدودية التي يشنّها حزب الله. لكن سرعان ما تحوّلت البهجة الأولية للقيادة الإسرائيلية – وللشعب الإسرائيلي – إلى يأس. بعد مرور بضعة أسابيع من القتال من غير أن تظهر إشارات تدلّ على تحقيق الجيش الإسرائيلي مكاسب واضحة، أظهرت استطلاعات الرأي أن 63 في المائة من الإسرائيليين يعتقدون بأنه ينبغي على أولمرت أن يقدّم استقالته. وأبدى 74 في المائة رغبتهم في استقالة وزير الدفاع عمير بيريز المغربي المولد أيضاً[52]. وتحوّلت صيحة الحرب التي كانت في بداية الحرب تقول: "دعوا إسرائيل تفوز" بحلول الأسبوع الثالث إلى "سنرضى بالتعادل". ومع انتهاء الحرب بعد أربعة وثلاثين يوماً، قال الإسرائيليون الساخرون بأنه لم يكن مهماً انتصار إسرائيل أو هزيمتها، ولكنّ المهم أنها شاركت في المباراة، وبدلاً من تقوية صورة الردع الإسرائيلي الذي لا يُقهر وتعزيزها، أدّت الحرب التي كان من المفترض أن تُضعف إيران إلى جعل إسرائيل أكثر انكشافاً وحسب. وبالرغم من تلقي حزب الله الضربات (وكذلك لبنان بوجه عام، حيث قُتل ما يزيد عن ألف شخص كانوا في غالبيتهم من المدنيين، وتعرّضت البنية التحتية للبلاد لقصف منهجي من قبل إسرائيل منذ الأيام الأولى للحرب)، لم تلحق بقدراته الاستراتيجية أضرار كبيرة، وربما تعززت قوته السياسية داخل الخليط اللبناني الطائفي المعقد. وظلت إسرائيل معرضة للخطر بعد الحرب بقدر ما كانت معرضة له قبلها.

كان الإيرانيون في عداد من فوجئوا بالنتيجة أيضاً أي بالقدرة القتالية التي أظهرها حزب الله. كان الخوف، والتوقع إلى حدّ ما، أن تقوم إسرائيل بتدمير حليفها اللبناني، وبعد ذلك "تتغير الحسابات الإقليمية برمّتها لغير صالح إيران"[53]. بدلاً من ذلك، ارتفع رصيد إيران – وأكثر منه رصيد حزب الله– في الشارع العربي إلى مستويات غير مسبوقة، وانتاب الضعفُ إسرائيل والولايات المتحدة، ووجدت الحكومات العربية الموالية للغرب نفسها محاصرة بين شعوبها المتذمّرة وبيت أبيض أبدى قليلاً من المراعاة لمصالح حلفائه ورغباتهم. قام بعض الحلفاء الرئيسيين للولايات المتحدة بخطوة غير عادية في الأيام الأولى للحرب بانتقاد حزب الله على تسببه بإشعال الحرب[54]. بالمقابل عملت إدارة بوش على إطالة أمد الحرب بدلاً من تقصيره، وأحرجت حلفاءها العرب بإظهار أنه ليس لديهم نفوذ في البيت الأبيض برئاسة بوش[55]. وفي الوقت نفسه، كان الدعم الشعبي لحزب الله قوياً جداً لدى شعوب الحكومات التي انتقدت عملية حزب الله لدرجة أن قادة هذه البلاد عمدوا إلى تغيير موقفهم من حزب الله بسرعة. ولزيادة الأمور سوءاً، لم ينجم عن الخطوة الإسرائيلية تقوية إيران وحسب، بل إن إيران استفادت من إضعاف واشنطن لمنافسيها العرب.

فشل الاحتواء أيضاً عندما كانت الظروف أكثر مواتاة للولايات المتحدة، فباتت واشنطن وتل أبيب تواجهان الآن وضعاً مختلفاً بالكلّية عن الوضع الذي كان سائداً في العام 1993 عندما وُضعت سياسة الاحتواء قيد التطبيق للمرة الأولى من خلال العملية السلمية. في ذلك الوقت، كانت واشنطن في ذروة مجدها، فيما انهار الاتحاد السوفياتي. وفيما كان النظام العالمي الجديد قيد التكوين، أضحت الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة في العالم، وأضحى رصيد واشنطن، من الناحية الدبلوماسية، كبيراً بالمثل. وبعد ذلك، شكّل وزير الخارجية جايمس بيكر ائتلافاً عريضاً – ضمّ عدداً كبيراً من الدول العربية – لطرد صدام من الكويت، ووفى بوعده بأن التعاون العربي ضدّ العراق سيليه ضغط من أجل التوصل إلى سلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين. من ناحية أخرى، كانت إيران ضعيفة، وكانت لا تزال تستعيد عافيتها بعد الحرب العراقية الإيرانية، فيما بقيت علاقاتها مع الدول العربية ومع أوروبا مجمّدة. بالرغم من ذلك، تبيّن أن عزل إيران في تلك الفترة كان أصعب مما تصوّرته واشنطن. وبالرغم من الجهود المكثفة التي بذلتها، تبيّن أن سياسة احتواء إيران كانت خطأً فاحشاً.

لكن الأوضاع انقلبت اليوم، فأضحت مصداقية واشنطن متدنية أكثر من أي وقت مضى. وغزو العراق واحتلاله أضعفا الولايات المتحدة على الصعيدين العسكري والدبلوماسي، والحرب التي شنّتها إسرائيل على حزب الله لم تسهم بالكثير لكسب أصدقاء جدد في العالم العربي، وعجز الحكومات العربية الموالية للغرب عن التأثير في واشنطن زاد من حجم الهوة التي تفصل بين هذه الأنظمة وشعوبها. وعلى الرغم من النجاحات الاقتصادية التي لا مجال لإنكارها، أصاب الضعفُ الدول العربية في الخليج لأن أمنها بات يرتبط بشكل مباشر بقوة الولايات المتحدة.

من ناحية أخرى، اكتسبت إيران مزيداً من القوة. فقد عجّلت إدارة بوش من بروز إيران كقوة رئيسية في الشرق الأوسط عبر إزاحة منافسَيها الرئيسيَّين – طالبان بأفغانستان وصدام حسين بالعراق – عن الرقعة الجيوسياسية. ولم تعد هناك قوة إقليمية يمكنها موازنة إيران واحتواؤها بدون دعم أميركي مكثف؛ ومع ارتفاع كلفة هذه السياسة، تزداد الشكوك في إمكانية استمرارها. وعاجلاً أو آجلاً ستنهار سياسة الاحتواء، وتُضطر الولايات المتحدة إما إلى مكاملة إيران مع المنطقة أو الدخول في مواجهة معها. ويبدو بشكل متزايد أن أفضل خيار لواشنطن – ولإسرائيل – هو تقبّل الواقع بشجاعة والبحث عن طريقة للتوصل إلى تسوية مع إيران لأن كلفة الإعراض عن التحدث إلى إيران ترتفع بشكل مستمرّ. غير أن المحافظين الجدد لا يزالون يعملون على إضاعة فرص التفاوض مع إيران من موقع قوة في السنين الخمس الأخيرة، لأنهم، كما إسرائيل، لا يرغبون في أية محادثات

أميركية إيرانية أصلاً. نتيجة لذلك، ربما تبدأ المحادثات المستقبلية من نقطة أكثر مواتاة لإيران منها لواشنطن وتل أبيب.

الحل العسكري غير الموجود

سيكون أي عمل عسكري يوجّه ضدّ إيران محفوفاً بمخاطر شديدة؛ وستكون تكاليفه باهظة حتى في حال نجاحه. لذلك، يحذّر كبار الضباط في الجيش الأميركي وفي مشاة البحرية، فضلاً عن العديد من المحافظين الجدد داخل نخبة مسؤولي الأمن القومي الأميركي، من أن هجوماً أميركياً على إيران سينزل كارثة بالموقف الأميركي في العراق وفي المنطقة بوجه عام بسبب قدراتها غير النظامية على الهجوم المضادّ. من ناحية أخرى، لا يمكن لإسرائيل أن تهاجم إيران بمفردها. فسلاح الجو الإسرائيلي لا يزال يفتقر إلى القدرات التي تمكّنه من ضرب كافة المنشآت النووية الإيرانية المعروفة. فعلى العكس من البرنامج العراقي، تتوزّع المنشآت النووية الإيرانية في شتى أرجاء البلاد. بالإضافة إلى ذلك، المسافة التي تفصلها عن إيران أكبر بكثير، وهذا يعني أن الإسرائيليين لن يتمكنوا من الوصول إلى إيران بدون إعادة التزود بالوقود من الجو. والأهم من ذلك أن الخطط العسكرية الأميركية لا تتضمن استهداف المنشآت النووية وحسب، بل ومعظم أجزاء البنية التحتية المرتبطة بالبرنامج النووي. الولايات المتحدة قادرة على تدمير كافة هذه المواقع، ولكن إسرائيل غير قادرة على ذلك. كما أن حملة عسكرية متهورة وغير موفقة يمكن أن تجعل الزخم السياسي في صالح إيران وتقوّض الجهود الهادفة إلى وقفها. زد على ذلك أنه مع وجود نحو خمسة وعشرين ألف يهودي إيراني لا يزالون يقيمون بإيران، يمكن لمواجهة عسكرية أن تعرّض أمن هذا المجتمع القديم للخطر، وهي خطوة ستتردد الدولة اليهودية في اتخاذها. بالرغم من أن إسرائيل دفعت بواشنطن إلى التعامل مع إيران بطريقة صارمة، تحذر جماعات الضغط المؤيدة لإسرائيل بواشنطن من المبالغة في الضغط على الولايات المتحدة، خشية أن يعتبر الشعب الأميركي ذلك بمثابة ضغط على أميركا لكي تدخل حرباً من أجل إسرائيل. المنظمات اليهودية داخل الولايات المتحدة سبق أن طلبت بهدوء من البيت الأبيض عدم الإشارة إلى أمن إسرائيل بوصفه التعليل المنطقي الأول لحسم نهائي محتمل مع إيران، مخافة بروز ردّة فعل معاكسة من الشعب الأميركي[56].

طريق محتمل للخروج؛ التكامل الإقليمي والأمن الجماعي

هناك سياسة واحدة لم تخضع لبحث جدّي وهي التكامل الإقليمي من خلال الحوار والمشاركة. ستعتمد هذه السياسة على الاعتراف بأن إيران – كما الصين – دولة لا يمكن للولايات المتحدة احتواؤها إلى أجل غير محدود، وأن إيران تصبح أكثر عدائية عندما يتم إقصاؤها، وأنه يمكن للولايات المتحدة أن تؤثر في إيران بشكل أفضل عبر مساعدتها على الاندماج في التركيبة السياسية والاقتصادية للعالم بدلاً من إبقائها خارجها. كما أن هذه المقاربة تحظى بتأييد الناشطين الإيرانيين البارزين في مجال حقوق الإنسان الذين يعتقدون أن ذلك سيعمل على تسهيل الإصلاح السياسي الداخلي أيضاً. إن ما يطلبه الإيرانيون من حيث الجوهر هو إنهاء سياسة كبّدت الولايات المتحدة الكثير وأكسبتها القليل.

إلى جانب كون هذه السياسة الخيار السياسي الأقل كلفة، هناك مؤشرات على أن هذه السياسة تتمتع بفرصة لا بأس بها للنجاح. فهناك فكرة متأصلة في كل من إيران الإمبراطورية وإيران الإسلامية تعتمد على حجم إيران، وعدد سكانها، ومستوى المتعلمين فيها، ومواردها الطبيعية التي تدفع البلاد إلى السعي إلى رفعة الشأن، وعلى أنه ينبغي لإيران أن تلعب دوراً قيادياً يعكس وزنها الجيوسياسي. كان ذلك – وسيبقى – القوة الرئيسية الدافعة للسياسة الخارجية الإيرانية سواء في حقبة الشاه أو بعد الثورة الإسلامية في العام 1979. فقد تطلّعت إيران الثورية في البداية إلى أن تكون قائد العالم الإسلامي بأكمله. وتطلعات الشاه الخاصة بدور إيران تجاوزت إلى حدّ بعيد منطقة الشرق الأوسط من الناحية الجغرافية، فقد كان يحلم بجعل إيران قوة بحرية متفوقة في المحيط الهندي.

لكن منذ انتهاء الحرب العراقية الإيرانية، خفضت طهران من مستوى طموحاتها، وقلّصت من حدود تعريفها لبيئة أمنها القومي بحيث بات يقتصر على الخليج العربي وبحر قزوين وليس الشرق الأوسط الكبير[57]. داخل هذه المنطقة، تريد إيران أن تكون الأولى بدون منازع، وسياساتها الخارجية مالت إلى الراديكالية عندما سعت القوى الإقليمية والخارجية إلى عزلها واحتوائها. استناداً إلى مراد سغافي، وهو إصلاحي علماني تربطه علاقات عائلية وثيقة بالراحل آية الله الخميني، ستقبل إيران تودداً أميركياً يضمن مصالحها الإقليمية. ويضيف: "إذا قالوا، يوجد لإيران مكان في العالم، ونحن لا نريد مهاجمة إيران، ودعونا نسمح لإيران بأن تكون منتجاً رائداً للغاز، ستقول إيران أجل"[58].

لكن بالرغم من أن إيران الثورية لم تتردد في التضحية بأهدافها الإيديولوجية من أجل بقاء الدولة ونظامها، يبقى السؤال المطروح هو هل توجد ضمانات بأنها ستصبح أكثر براغماتية متى صار في مقدورها متابعة أهدافها الإيديولوجية بدون التضحية بموقعها الاستراتيجي؟ وهل ستبقى الإيديولوجية حافزاً ثانوياً لسياستها الخارجية، أم أنها ستصبح المحرّك الأول لها؟ باختصار، هل ستكون إيران الأقوى إيران أكثر راديكالية أيضاً؟ التوقعات الدقيقة مستحيلة وتدخل في علم الغيب. غير أن مراجعة لسلوك إيران في الماضي تدل على أن إيران الأقوى والأكثر تكاملاً هي أيضاً إيران الأكثر اعتدالاً. فسلوكها بعد الفوز الانتخابي الذي حققه الليكود في العام 1996 بمثابة تأكيد على ذلك. مع تنامي قوة إيران وتحسّن علاقاتها بالدول العربية، والاتحاد الأوروبي، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ومع نجاحها في الردّ على الجهود الأميركية الهادفة إلى عزلها، تراجعت حدة موقفها من القضية الإسرائيلية الفلسطينية. فإيران لم تستخدم قوتها المتنامية في زيادة حدّة سياساتها المعادية لإسرائيل. ربما أدركت إيران أنها لن تتمكن من إقصاء إسرائيل عن صناعة القرارات الإقليمية (على غرار فشل إسرائيل في إقصاء إيران) وأنها لن تكون بحاجة على المدى البعيد إلى عزل إسرائيل لكي تحقق أهدافها القيادية.

يمكن لمقاربة أميركية جديدة أن تحوّل سياستها الخارجية تجاه إيران إلى قوة تدعم الاستقرار عبر القبول بالأهداف الأمنية الإيرانية المشروعة

في مقابل تنازلات إيرانية في العديد من القضايا الإقليمية والدولية، بالإضافة إلى إدخال تعديلات هامة في السياسة الإيرانية، بما في ذلك قبول إيران بالدور العالمي لأميركا ووضع حدّ لعدائها لإسرائيل، وكما أشارت إيران نفسها في الاقتراح الذي قدّمته لواشنطن في العام 2003، ستقبل طهران بإسرائيل كحقيقة في المنطقة وتقبل حلاً للصراع الإسرائيلي الفلسطيني قائماً على دولتين. لقد سبق أن حثّ وزير الخارجية الألماني السابق يوشكا فيشر الولايات المتحدة على تبنّي هذه المقاربة في مقالة نشرتها الواشنطن بوست في مايو/أيار 2006. كتب فيشر "ينبغي ألاّ تقل بدائل إيران عن الاعتراف والأمن أو العزلة الكاملة"[59]. فهذا النظام سيعكس على نحو أفضل التوازن الطبيعي للمنطقة، والذي بدوره سيجعلها أكثر استقراراً وأقل كلفة على الولايات المتحدة.

كما تحظى هذه الفكرة أيضاً بدعم بإسرائيل بين أوساط العناصر المعتدلة التي تعترف بأن مقاربة *الفائز يحصد كافة الجوائز* ربما ستجعل إسرائيل في موقف أضعف على المدى البعيد. ويجادل بن عامي، وزير الخارجية الإسرائيلي السابق، على صفحات هآرتز بأن "السؤال المطروح اليوم ليس حول تحديد متى ستصبح إيران قوة نووية، وإنما حول كيفية دمجها في سياسة إرساء الاستقرار الإقليمي قبل أن تمتلك تلك القوة. إن إيران لا يدفعها هوس بتدمير إسرائيل، وإنما إصرارها على المحافظة على نظامها وتثبيت نفسها كقوة إقليمية استراتيجية إزاء كل من إسرائيل والدول العربية... إن الردّ على الخطر الإيراني هو في سياسة الوفاق الدولي التي ستغيّر نمط سلوك النخبة بإيران"[60]. مضى بن عامي إلى حدّ الإشارة إلى أن هذه هي أولى المسؤوليات الملقاة على عاتق الولايات المتحدة وأكثرها أهمية، لكنه أشار إلى أن إدارة بوش – كما إسرائيل – أكثر اهتماماً بمحاربة الشرّ منه بمحاولة التوصل إلى حل للصراع. ويجادل بن عامي بأن الحوار الأميركي الإيراني بات ضرورة مطلقة، حتى وإن كان سيفضي إلى حلول وسطية مع واشنطن وتل أبيب، مثل الاعتراف بأهمية إيران على الساحة الإقليمية. على العكس من أسلافه في حزب العمل، يشير بن عامي إلى أن التخفيف من حدّة الخطر الإيراني سيصب في مصلحة العملية السلمية الإسرائيلية الفلسطينية، وأن السعي إلى المبالغة في تصوير هذا الخطر لتخويف العرب والشعب الإسرائيلي من الجلوس إلى طاولة المفاوضات سيلحق الضرر بإسرائيل على المدى الطويل.

ما يطرحه بن عامي هو أن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني لن يُحَلّ ما لم تتم مراعاة السياق الجيوسياسي الذي يدور في إطاره. وهناك العديد ممن يجادل بأن القضية الإسرائيلية الفلسطينية هي المفتاح لحلّ كافة المشكلات التي يعاني منها الشرق الأوسط. فعلى سبيل المثال، كان كولن باول يرى أن العملية السلمية الإسرائيلية الفلسطينية ستمهد الطريق أمام التوصل إلى تسوية مع إيران. لكن المفتاح ربما يكمن في الاتجاه آخر. صحيح أن الصراع بين الإسرائيليين والفلسطينيين يلامس كل شخص وكل شيء في المنطقة بطريقة عاطفية عميقة، لكنه ليس صراعاً يحدد التوازن الجيوسياسي. كما أنه ليس مدفوعاً بالعوامل الجيوسياسية أيضاً. بدلاً من ذلك، إنه يمثل انعدام التوازن الجيوسياسي في المنطقة وهو ما يجعل الصراع عصياً على الحلّ. وما لم تتم معالجة الصراعات الكامنة في المنطقة، فإن أية عملية تهدف إلى حلّ النزاع الإسرائيلي الفلسطيني ستكون رهينة المنافسات الجيوسياسية. بناء على ذلك، سيبقى هذا النزاع أسير المنافسة بين إسرائيل وإيران على النظام المستقبلي للمنطقة، كما كان عليه الحال في منتصف تسعينيات القرن الماضي. من الواضح أن هذه القضايا مترابطة، سواء أجرت معالجتها انطلاقاً من هذه الحقيقة أم لا.

بالرغم من أنه يمكن لواشنطن فقط أن تقود عملية إعادة دمج إيران في النظام الإقليمي، يلزم اتخاذ خطوات جوهرية أيضاً من جانب إسرائيل لإنجاح هذه السياسة. إن القناعة المطلقة بأن جيران إسرائيل العرب سيعمدون إلى تدميرها إن استطاعوا تجعل الدولة اليهودية تسعى إلى المحافظة على وجودها من خلال الهيمنة العسكرية[61]. الإسرائيليون يعتقدون بشدة بمفهوم يشار إليه بالحافة الاستراتيجية أو العسكرية. وتعتقد القيادة الإسرائيلية بوجه عام أن النوايا العدوانية لجيرانها غير قابلة للتغيير، مما يجعلها غير مبالية بتأثير أفعالها على أهدافها[62]. بالنظر إلى صغر الحجم الجغرافي لإسرائيل وقلة عدد سكانها، يقول المبدأ القياسي بأنه لا يوجد أمامها خيار سوى السعي إلى أن تكون أقوى من كافة جيرانها على مرّ الأزمان لأنه "في حال امتلك أي من أعدائها القدرة على التخلّص منّا، فسيقوم بذلك"، على حدّ تعبير صموئيل بار، وهو ضابط قديم في الاستخبارات الإسرائيلية[63]. من جانب آخر، يرفض أغلب الإسرائيليين الفكرة التي تقول بأنه يمكن لإسرائيل أن تؤثر في أهداف إيران ودوافعها. يصر الجنرال الإسرائيلي جلعاد على القول بأن "إيران تعمل بوحي من أحلامها، وحلمها هو تدمير إسرائيل... لا شيء يمكن أن يغيّر رأيهم. إنهم يتحلّون بالمرونة فقط فيما يتعلق بالمدى الزمني الذي سيستغرقه هذا الأمر"[64]. إذا كانت النوايا غير قابلة للتغيير، فلن يكون أمام إسرائيل خيار سوى ضمان ضعف جيرانها. وطالما أن إسرائيل تبقي جيرانها ضعفاء، فلن يكون لنواياهم أهمية. يجادل نائب وزير الدفاع سنيه فيقول: "في هذه المنطقة، علينا أن ننظر إلى كل سلاح كما لو أنه موجّه نحو إسرائيل. هذا هو الافتراض الذي ينبغي أن يكون دليلنا في كل شيء نقوم به. فنحن نعيش في منطقة خطرة وغير مستقرّة، ويتعين علينا أن نعيش وفقاً لسيناريوهات الحالة الأسوأ طوال الوقت"[65].

ينبع التأكيد على سيناريوهات الحالة الأسوأ، بدرجة كبيرة، من الإفراط في التعويض عن الشعور بالنقص الذي تملّك الجهاز الاستخباري بسبب الفشل الذي وقع فيه غداة حرب تشرين في العام 1973، عندما قلل من تقدير القدرات العربية فيما بالغ في تقدير قدراته الخاصة. النتيجة كانت أن إسرائيل المعجَبة بنفسها صُعقت من الهجوم المصري السوري المفاجئ والجيد التنسيق والذي ألحق بالإسرائيليين خسائر جسيمة في الأيام الأولى من تلك الحرب، وكاد أن يؤدي إلى هزيمة ساحقة، قبل أن تستعيد إسرائيل توازنها وتتحول إلى الهجوم. يقول صموئيل ليمون من وزارة الدفاع: "كان تصحيح هذا الخطأ مبالغاً فيه. واليوم، باتت الثقافة السائدة، وأسمح لنفسي بالقول بأن عقلية الاستخبارات... هي في أن تنسب إلى العدو قوة غير محدودة تقريباً وتقلل بالكامل من تقدير ما تعنيه قوتنا بالنسبة إليهم"[66]. تميل هذه العقلية التي تنذر بالشؤم إلى التوصل إلى تكهنات ترضي الذات، وتجسّد سيناريوهات الحالة الأسوأ بدلاً من أن تمنعها من الظهور[67]. زد على ذلك أن التشديد على الدعاية العدائية التي يطلقها أعداء

إسرائيل – وهي وفيرة في حالة إيران – يميل إلى جعل إسرائيل تفوّت الإشارات الإيجابية أو تتجاهلها بوصفها تكتيكات خادعة[68]. بتطبيق ما تقدم على المستوى التالي، نجد أن هذه السياسة تملي على إسرائيل وجوب القيام بعمل استباقي ضد أية دولة أو منظمة توشك على امتلاك قدرات يمكن أن توفر لها توازناً في القوى. واستناداً إلى ديفيد إيفري، السفير الإسرائيلي السابق لدى الولايات المتحدة، المبدأ الاستباقي سياسة إسرائيلية قديمة، ويضيف: "تقاليدنا تشير إلى أنه يجب عليك أن تنهض أولاً وتقتل الذي يريد أن ينهض ليقتلك. إن عبارة *تنهض أولاً* تلخّص هذا المبدأ برمّته"[69].

في أبريل/نيسان 2004، تلقّى رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون تقريراً شاملاً عن الأمن القومي – المشروع دانيال – جادل بأن لإسرائيل حقاً أصيلاً بالعمل الاستباقي لأن القيادات العربية والإيرانية، كما استنتج التقرير، غير عقلانية ولا تقيم وزناً للمحافظة على الذات. هذا يضعف من فاعلية الردع الإسرائيلي، ويوجب تحقيق هيمنة عسكرية كاملة، وتجنّب التساوي في القوى مهما تكن التكاليف. بناء على ذلك، أي شيء لا يرقى إلى مستوى التفوق الإسرائيلي الساحق سيشكّل خطراً وجودياً على الدولة اليهودية[70]. نتيجة لذلك، يتعين على إسرائيل أن تسعى باستمرار إلى التفوق على جيرانها عبر استباق أية دولة تريد أن تتحدّاها. ومع تطور الدول التي في المنطقة، يتعين على إسرائيل أن تسبقهم في التطور، وإسرائيل لا تستطيع تحمّل خسارة موقعها الريادي، لأنه في حال امتلك جيرانها اليد العليا في الميدان العسكري، فلن يترددوا في تدميرها. يظهر هذا المبدأ لماذا قد تكون الديموقراطية بإيران غير كافية لإحداث تغيير جوهري في المنافسة الإسرائيلية الإيرانية، لأنه حتى إيران الديموقراطية ستعتبر خطراً على إسرائيل إذا كان في مقدورها تحدّي التفوق العسكري الإسرائيلي – النووي أو التقليدي[71]. ويعترف أحد المحللين الإسرائيليين بالقول: "أصبحت هذه هي الطريقة الوحيدة التي نعتقد بأنها تضمن لنا وجوداً في هذه المنطقة. إنها في وجه من الوجوه شكل من أشكال الهيمنة. ولكنها ليست هيمنة على الإطلاق. فنحن لا نريد ولا نفكر في أن نكون القوة الثقافية المهيمنة. إنه الوجود من خلال الهيمنة". لكنها تبقى هيمنة على أية حال.

في حين أن الاندماج هو السياسة الوحيدة التي يمكن أن تثبّت دعائم الاستقرار في المنطقة، لكنها لن تتكلل بالنجاح ما لم يتم التخفيف من حدّة المنافسة الإسرائيلية الإيرانية، وهذا بدوره يتطلب إدخال تغييرات هامة في السياسات الخارجية والأمنية لكل من إسرائيل وإيران. في الحدّ الأدنى، يتعين على إيران القبول بحل قائم على دولتين والتقليل من طموحاتها الإقليمية عبر الرضى بدور لا يتجاوز مواردها. لكن من الواضح أنه لا يمكن لإيران أن تتوقع لعب دور بارز كقوة شرعية تسهم في دعم الاستقرار في المنطقة إذا استمرت في النظر إلى قدراتها العسكرية غير النظامية كأداة سياسية مشروعة. من ناحية أخرى، يتعين على إسرائيل أن تعدّل وجهة نظرها العسكرية لأنه يرجّح أن يضعها اعتقادها بأنه يتعين عليها الهيمنة عسكرياً على المنطقة على مسار تصادمي مع طهران بغض النظر عن إيديولوجية إيران، أو تركيبتها السياسية، أو سياساتها. كما أنه على الأرجح أن يؤدي التخلّي عن هذا المبدأ العسكري إلى تسهيل صنع السلام بين إسرائيل وجيرانها العرب.

سيبقى التصادم بين طموحات إيران الإقليمية وإصرار إسرائيل على الهيمنة الاستراتيجية سبباً لزعزعة الاستقرار والإضرار بمصالح واشنطن في المنطقة ما لم تعترف أميركا بأنه لا يمكن إرساء الاستقرار ولا الديموقراطية بدون إنهاء لعبة الموازنة والسعي بصدق إلى بناء شرق أوسط يكامل بين التطلعات المشروعة للدول كافة، بما في ذلك إيران. لكن إدارة بوش لا تزال مصّرة لغاية الآن على مقاومة مثل هذا التحوّل. في مرحلة ما على الطريق، سيعتري أميركا ضعف شديد بسبب إخفاقها في العراق لدرجة أن المنافسة الإسرائيلية الإيرانية ستطغى على المخاوف التي تساور واشنطن من أن إيران ستنجح في تحدّي هيمنتها في المنطقة. ففي خطاب حالة الاتحاد الذي ألقاه بوش في 10 يناير/كانون الثاني 2007، اتهم بوش إيران بزعزعة استقرار العراق ودعم الميليشيات الشيعية لقتل الجنود الأميركيين هناك، فيما تغاضى عن حقيقة أن المتمرّدين السنّة مسؤولون عن أكثر من 90 في المائة من الإصابات التي تكبّدها الأميركيون بالعراق. بدافع من رغبة جامحة للمحافظة على هيمنة أميركا على المنطقة، أشار بوش إلى أنه ستتم مواجهة إيران وفرض مزيد من العزلة عليها من قبل الولايات المتحدة عبر تشكيل تحالف مناوئ لإيران يتألف من الدول العربية وإسرائيل، بمعنى أن سياسة توازن القوى ستبقى الدليل الذي يوجّه أميركا.

ملاحظاتالفصل 1 : تقديم

Epigraphs: "Ahmadinejad Says Iran Ready for 'Final Nuclear Step,'" AFP, November 16, 2006; Victor Ostrovsky, *By Way of Deception* (New York: St. Martin's, 1990), 330; Samuel Segev, *The Iranian Triangle* (New York: Free Press, 1988), 249.

1 Ahmadinejad's statement has generally been mistranslated to read, "Wipe Israel off the map." Ahmadinejad never used the word "Israel" but rather the "occupying regime of Jerusalem," which is a reference to the Israeli regime and not necessarily to the country. Moreover, the hard-line Iranian president misquoted Ayatollah Khomeini in his speech. The father of the Iranian revolution had used the phrase "Sahneh roozgar," which means "scene of time," though for years the term was incorrectly translated by the Iranian government to mean "map." Ahmadinejad, however, said "*Safheh* roozgar," which means "pages of time," or "pages of history." No one noticed the change, and news agencies stuck with the standard—but incorrect—translation. The significant issue is that both phrases refer to time rather than place, making it incorrect to translate it as "wiping *Israel* off the *map*." As a result, Ahmadinejad "was not threatening an Iranian-initiated war to remove Israeli control over Jerusalem" but was rather "expressing a vague wish for the future," according to Jonathan Steele of the *Guardian*. See Jonathan Steele, "Lost in Translation," *Guardian*, June 14, 2006; and Ethan Bronner and Nazila Fathi, "Just How Far Did They Go, Those Words Against Israel?" *New York Times*, June 11, 2006.

2 "Israel Focuses on the Threat Beyond the Periphery," *New York Times*, November 8, 1992.

3 Seymour M. Hersh, "The Iran Plans," *New Yorker*, April 17, 2006. The White House denied the allegations made in the story.

4 Barbara Demick, "Iran Remains Home to Jewish Enclave," *Knight-Ridder*, September 30, 1997.

5 In 1979 Iran's Jewish community numbered approximately eighty thousand.

6 Norman Cohn, *Cosmos, Chaos, and the World to Come* (New Haven: Yale University Press, 2001).

7 Paul Kriwaczek, *In Search of Zarathustra* (New York: Vintage Books, 2002), 184–185. The henotheistic nature of pre-exilic Judaism is exemplified in the First Commandment, "I am the Lord your God; you shall have no other gods before me."

8 Larry Derfner, "See No Evil, Hear No Evil," *Jerusalem Post*, September 28, 2006.

9 Barbara Demick, "Iran: Life of Jews Living in Iran," Sephardic Studies, http://www.sephardicstudies.org/iran.html.

10 Frances Harrison, "Iran's Proud but Discreet Jews," BBC, September 22, 2006. "Ahmadinejad didn't do anything to the Jews so far. Despite everything he says in the media about the Holocaust and Israel, the Jews don't feel any pressure and most of the adults want to stay there," another Iranian Jew told the *Jerusalem Post*.

11 Ewen MacAskill, Simon Tisdall, and Robert Tait, "Iran's Jews Learn to Live with Ahmadinejad," *Guardian*, June 27, 2006.
12 Sadeq Saba, "Iran Jews Express Holocaust Shock," BBC, February 11, 2006.
13 John R. Bradley, "Iranian Jews Wary of Becoming Scapegoats," *Washington Times*, March 21, 2006. Later in January 2007, Khatami gave an interview to the Israeli newspaper *Yediot Aharonot*, in which he criticized Ahmadinejad for holding a conference in Tehran questioning the Holocaust. "I strongly condemn the holding of this conference," he said on the sidelines of the annual World Economic Forum in Davos, Switzerland. "The Holocaust against the Jewish people was one of the most grave acts against humanity in our time. There is no doubt that it happened." "Khatami Slams Controversial Holocaust Conference," AFP, January 26, 2007.
14 "Iranian Jews Shaping Israeli Policy," *Jane's Islamic Analysis*, October 1, 2006.
15 Orly Halpern, "Cramped in Ashdod, Cheering for Iran," *Jerusalem Post*, June 11, 2006. Orly Halpern, "Immigrant Moves Back 'Home' to Teheran," *Jerusalem Post*, November 3, 2006.
16 "It doesn't mean people are lying," he added. "They are just dealing with you with a different character." Michael Slackman, "The Fine Art of Hiding What You Mean to Say," *New York Times*, August 6, 2006.
17 Interview with Shmuel Bar, Tel Aviv, October 18, 2004.
18 Interview with Ehud Yaari, Jerusalem, October 24, 2004.
19 Interview with Mustafa Zahrani of the Iranian Foreign Ministry, New York, February 26, 2004.
20 William Kristol, "It's Our War—Bush Should Go to Jerusalem—and the U.S. Should Confront Iran," *Weekly Standard*, July 24, 2006.
21 James Bamford, "Iran: The Next War," *Rolling Stone Magazine*, July 24, 2006.
22 Michael Ledeen, "The Same War," *National Review Online*, July 13, 2006.
23 John Gibson, "Iran Attacking Israel Is Really Attack on U.S.," *Fox News*, July 13, 2006.
24 Brian Knowlton, "Rice Says Israel May Need to Prolong Offensive," *International Herald Tribune*, July 16, 2006.

الفصل 2: تحالف أملته الضرورة: الصداقة السرّية للشاه

1 UN Special Committee on Palestine, Recommendations to the General Assembly, September 3, 1947.
2 Resolution 181 was adopted by a vote of thirty-three to thirteen, with ten abstentions. Both the United States and the Soviet Union supported it.
3 R. K. Ramazani, "Iran and the Arab-Israeli Conflict," *Middle East Journal* 3 (1978): 414–415.
4 Sohrab Sobhani, *The Pragmatic Entente: Israeli-Iranian Relations, 1948–1988* (New York: Praeger, 1989), 23. (Mohammad Mossadeq had been elected Iran's prime minister in 1951 by a vote of seventy-nine to twelve by the Iranian parliament. The landslide victory left the Shah with no other option but to assent to the Parliament's vote, in spite of his differences with the charismatic Mossadeq. The Iranian prime minister was later overthrown by a coup organized by the CIA and the British intelligence, strengthening the Shah's grip on power.)
5 Ibid., 3, 34.
6 Robert Reppa, *Israel and Iran—Bilateral Relationships and Effect on the Indian Ocean Basin* (New York: Praeger, 1974), 91.

7 Ramazani, "Iran and the Arab-Israeli Conflict," 415.

8 "Nasserism," which maintained that the West sought the suppression of the Arab masses and that the Arab-Israeli conflict was an instrument for Western intrusion in the Middle East, had become a powerful force in the Middle East by advocating anti-Colonialism and pan-Arab socialism.

9 Sobhani, *Pragmatic Entente*, 18.

10 Interview with former Iranian intelligence officer, Washington, D.C., March 14, 2004.

11 Phone interview with Ambassador Fereydoun Hoveyda, former head of the Permanent Mission of Iran to the UN, Washington, D.C., March 3, 2004. Samuel Segev, *The Iranian Triangle* (New York: Free Press, 1988), 62. In the early 1970s, the Shah offered Palestine Liberation Organization (PLO) head Yassir Arafat a more pro-Arab position on Israel in return for an end to the PLO's support for the Iranian opposition. Later in the 1960s, the support of Arafat and the PLO—a major flag-bearer of pan-Arabism—for Iranian opposition and separatist groups further fueled Iranian opposition to pan-Arabism. The PLO opened its training camps to Iranian opposition elements that waged a military campaign against the Shah's regime, in hope that a change of regime in Tehran would bring Iran into the pro-Arab camp. (Interview with former Iranian diplomat under the Shah, Washington, D.C., April 2, 2004.)

12 Segev, *Iranian Triangle*, 35–36.

13 In 1954 Sultan Sanandaji, a low-level Iranian diplomat at the Iranian embassy in London, had approached an Israeli diplomat at the Israeli embassy in London, First Secretary Mordechai Gazit, and offered Israel access to Iranian energy sources. Sanandaji's proposal quickly led to a diplomatic frenzy involving the highest levels of government in both Iran and Israel. Later that year, Yisrael Koslov, a representative of Israeli Prime Minister Levi Eshkol, finalized the deal during a secret visit to Tehran. Segev, *Iranian Triangle*, 40.

14 Ibid., 60–61, 39–41. A second pipeline from Eilat to Israel's Mediterranean port of Ashkelon was constructed after the 1967 war, during which the Suez Canal was closed down yet again. The Eilat-Ashkelon pipeline provided Israel with a steady supply of oil for its refineries and its growing domestic consumption. Its capacity was around 400,000 barrels per day in 1970, with plans of increasing it to 1.2 million barrels per day by 1980. Declassified Memorandum of Conversation between Pete Wolgast of Esso and Warren Clark of the U.S. Department of State, October 8, 1970. This document and the other government documents referenced here are available at the National Security Archives.

15 Declassified correspondence between Foggy Bottom and U.S. embassy in Tehran, February 13, 1969.

16 Interview with Deputy Minister M. Vakilzadeh, Washington, D.C., February 28, 2004.

17 Interview with former Iranian Minister of Agriculture A. A. Ahmadi, and his deputy, M. Vakilzadeh, Washington, D.C., February 28, 2004.

18 Gary Sick, *October Surprise* (New York: Random House, 1991), 60.

19 Sobhani, *Pragmatic Entente*, xviii–xxii.

20 Ramazani, "Iran and the Arab-Israeli Conflict," 416.

21 Interview with Charles Naas, former U.S. deputy ambassador to Iran in the 1970s, Washington, D.C., March 8, 2004.

22 Interview with Naas, March 8, 2004.

23 Sobhani, *Pragmatic Entente*, 128.
24 Interview with Gholam-Reza Afkhami, an advisor to the Mohammad Reza Shah, Washington, D.C., March 5, 2004.
25 Sobhani, *Pragmatic Entente*, 109.
26 Ramazani, "Iran and the Arab-Israeli Conflict," 427.
27 Sobhani, *Pragmatic Entente*, 27.
28 Nader Entessar, "Israel and Iran's National Security," *Journal of South Asian and Middle Eastern Studies* 4 (2004): 1–2; Segev, *Iranian Triangle*, 43.
29 Interview with former Iranian ambassador under the Shah, Washington, D.C., April 2, 2004. These accusations were categorically denied by Eliezer Tsafrir, who served as the head of the Mossad in Iran and Iraq in the 1960s and 1970s. Interview, Tel Aviv, October 16, 2004.
30 Interview with former Iranian intelligence officer, Washington, D.C., March 14, 2004.
31 Interview with former Iranian diplomat stationed in Israel, Tehran, August 12, 2004.
32 Declassified telegram from the U.S. embassy in Tel Aviv, December 7, 1970.
33 Sick, *October Surprise*, 61.
34 Behrouz Souresrafil, *Khomeini and Israel* (London: Researchers, 1988), 32.
35 Sobhani, *Pragmatic Entente*, 114; Segev, *Iranian Triangle*, 42.
36 Interview with former Iranian ambassador, Washington, D.C., April 2, 2004.
37 Interview with former senior Israeli diplomat stationed in Tehran, Tel Aviv, October 31, 2004.
38 Declassified Memorandum of Conversation, U.S. embassy in Tehran, Andrew Killgore, Political Counselor, October 14, 1972.
39 R. K. Ramazani, *Iran's Foreign Policy 1941–1973* (Charlottesville: University Press of Virginia, 1975), 404.
40 Seyed Assadollah Athari, "Iranian-Egyptian Relations," *Discourse: An Iranian Quarterly* 2 (2001): 51.
41 Ramazani, *Iran's Foreign Policy*, 321. When, as part of the resolution of the Cuban missile crisis in 1962, the Soviet Union ceased its propaganda attacks on Iran in return for an Iranian pledge not to permit U.S. missile bases on its soil, Cairo's role in confronting and provoking Iran grew. Using the Shah's relations with Israel as a pretext, Nasser challenged Iran's role in the region, depicted Iran as an oppressor of Arab peoples, and accused Tehran of seeking to colonize Arab lands—the same charges Egypt leveled against Israel. Ramazani, "Iran and the Arab-Israeli Conflict," 416.
42 Interview with former Iranian intelligence officer, Washington, D.C., March 14, 2004.
43 Ibid. The intelligence sharing also included assessments of developments in the Arab world, though the Iranians often mistrusted the Israeli intelligence and suspected that the Israelis shared only intelligence of poorer quality. Interview with former Iranian diplomat stationed in Israel, Tehran, August 12, 2004.

الفصل 3: بروز إسرائيل، بروز إيران

Epigraph: Walter Isaacson, *Kissinger: A Biography* (New York: Touchstone, 1992), 563.
1 Interview with former Iranian Ambassador to Denmark and Greece, Washington, D.C., April 2, 2004.
2 Interview with Charles Naas, Washington, D.C., March 8, 2004.

3 Interview with former Iranian deputy UN Ambassador Mehdi Ehsassi, Tehran, August 3, 2004.
4 Interview with Alinaghi Alikhani, former minister of finance under the Shah, Washington, D.C., April 7, 2004.
5 Samuel Segev, *The Iranian Triangle* (New York: Free Press, 1988), 70.
6 *Borba* (Yugoslavia), November 1967.
7 Declassified memorandum from State Department official and the chargé d'affaires at the U.S. embassy in Tehran, November 10, 1970.
8 Conversation on April 27, 1971, between Iran's top diplomat in Tel Aviv and a political officer at the U.S. embassy. The conversation is summarized in a confidential memo found in the U.S. embassy in Tehran during the 1979–1981 hostage crisis. The memo was subsequently published by Iran's revolutionary government. It is available at the National Security Archive in Washington, D.C.
9 Seyed Assadollah Athari, "Iranian-Egyptian Relations," *Discourse: An Iranian Quarterly* 2 (2001): 51. Phone interview with Ambassador Fereydoun Hoveyda, former head of the Permanent Mission of Iran to the UN, Washington, D.C., March 3, 2004. Athari, "Iranian-Egyptian relations," 51–52. Interview with Henry Precht, former Iran desk officer at the U.S. Department of State, Washington, D.C., March 3, 2004.
10 Phone interview with Fereydoun Hoveyda, March 3, 2004.
11 Interview with former Iranian diplomat under the Shah, Washington, D.C., April 2, 2004.
12 R. K. Ramazani, "Iran and the Arab-Israeli Conflict," *Middle East Journal* 3 (1978): 418.
13 Athari, "Iranian-Egyptian Relations," 51–52.
14 Interview with Gholam-Reza Afkhami, an adviser to the Mohammad Reza Shah, Washington, D.C., March 5, 2004. Iranian diplomats in New York were instructed by the Shah to assist the Egyptians in creating ties with U.S. lawmakers and leaders of the Jewish-American community to facilitate Egypt's transition to the pro-Western camp. Phone interview with Fereydoun Hoveyda, March 3, 2004.
15 Ramazani, "Iran and the Arab-Israeli Conflict," 418.
16 Asadollah Alam, *The Shah and I*, ed. Alinaghi Alikhani (New York: St. Martin's, 1991), 152.
17 Phone interview with Fereydoun Hoveyda, March 3, 2004.
18 Interview, Tel Aviv, October 31, 2004.
19 Alam, *The Shah and I*, 179–180. The confidential meeting was arranged by the Shah's Court Marshall, Asadollah Alam, without the knowledge of the Iranian Foreign Minister.
20 Henry Paolucci, *Iran, Israel and the United States* (New York: Griffon House, 1991), 10.
21 Interview with former Iranian deputy UN Ambassador Mehdi Ehsassi, Tehran, August 3, 2004.
22 Interview with Alinaghi Alikhani, April 7, 2004.
23 Interview with a former deputy commander in chief of the Iranian navy, March 16, 2004.
24 Segev, *Iranian Triangle*, 77–78.
25 Interview with former Iranian intelligence officer, Washington, D.C., March 14, 2004.
26 Interview with a former deputy commander in chief of the Iranian Navy, March 16, 2004.

27 Sohrab Sobhani, *The Pragmatic Entente: Israeli-Iranian Relations, 1948–1988* (New York: Praeger, 1989), 73.

28 Alam, *The Shah and I*, 82, 129, 170. Though tensions existed between Iran and other Arab states, Iran did not feel any direct military threat from them. Interview with Gholam-Reza Afkhami, Washington, D.C., March 5, 2004.

29 Interview with Shmuel Bar, Tel Aviv, October 18, 2004.

30 Interview with Yitzak Segev, former Israeli military attaché to Iran, Tel Aviv, October 17, 2004.

31 Israel's de-emphasizing of superpower politics was made evident after the Marxist coup against Haile Selassie in Ethiopia in 1974. As a non-Arab state with a large Jewish minority, Ethiopia played an important role in Israel's doctrine of the periphery. Ethiopia's Cold War orientation was less important to Israel. As a result, Tel Aviv quickly moved to establish ties with the Mengistu government in Addis Ababa after the communist coup to ensure the continuation of its doctrine of the periphery. Iran, on the other hand, viewed the developments in Ethiopia as a successful Soviet bid to gain influence in the Horn of Africa after having been ousted by Sadat from Egypt. Sobhani, *Pragmatic Entente*, 126.

32 Interview with Davoud Hermidas-Bavand, Professor at Shahid Beheshti University and former Iranian diplomat, Tehran, August 8, 2004.

33 Sobhani, *Pragmatic Entente*, 74.

34 Ibid., 71.

35 R. K. Ramazani, "Security in the Persian Gulf," *Foreign Affairs* 4 (1979): 1.

36 Interview with Gholam-Reza Afkhami, an adviser to the Mohammad Reza Shah, Washington, D.C., March 5, 2004.

37 For instance, the same message was delivered to senior American officials in Washington by the Shah in April 1969 immediately after the funeral of President Eisenhower. The Iranian monarch added that an American troop withdrawal from the Persian Gulf following the British departure would be the most logical way of preventing the Soviets from acquiring influence in the region. Since 1949, the U.S. Navy had had a regular but small presence in the Persian Gulf through a base in Bahrain. Alam, *The Shah and I*, 50.

38 Kenneth Pollack, *The Persian Puzzle* (New York: Random House, 2004), 99–100.

39 Walter Isaacson, *Kissinger: A Biography* (New York: Touchstone, 1992), 563.

40 Available at the National Security Archive, http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB21/03-01.htm.

41 International Financial Statistics Yearbook, International Monetary Fund, 1991. World Development Report, World Bank, 2003.

الفصل 4: سعي إيران إلى الهيمنة

Epigraph: Interview with a former deputy commander in chief of the Iranian navy, March 16, 2004.

1 R. K. Ramazani, *Revolutionary Iran: Challenge and Response in the Middle East* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1988), ch. 2.

2 Mohammad Reza Pahlavi, *Answer to History* (New York: Stein and Day, 1980), 142.

3 Interview with former Iranian diplomat under the Shah, Washington, D.C., April 2, 2004.

4 Interview with Gholam-Reza Afkhami, former adviser to Mohammad Reza Shah, Washington, D.C., March 5, 2004. The Shah viewed Iran and Japan as the most advanced nations in Asia; thus he believed Japan should lead in east Asia, while Iran should lead in west Asia. Asadollah Alam, *The Shah and I,* ed. Alinaghi Alikhani (New York: St. Martin's, 1991), 389. Mohammad Reza Pahlavi, *Mission for My Country* (London: Hutchinson of London, 1960), 132.

5 Interview with Charles Naas, Washington, D.C., March 8, 2004.

6 Interview with Afkhami, March 5, 2004.

7 Alam, *The Shah and I,* 185.

8 U.S. Department of State, Bureau of Verification and Compliance.

9 Saudi Arabia's military spending skyrocketed, particularly after 1973, when it grew sevenfold in as many years. The other rising Arab state was Iraq, which, under the leadership of Saddam Hussein, began arming itself to the teeth.

10 Historically, major wars have broken out when the divergence between states' power and their political role becomes intolerable. Disequilibrium is reached in the political order that only war can restore. Simply put, rising states can either be given space by their neighbors or have their power quelled through war. According to Charles Doran, role is the currency of power. It is the state's ability to partake in regional decision-making and advance its interest without resorting to force. Unlike power, however, role is granted to a state by its neighbors by recognizing the legitimacy of the state's interests. As a state's power rises, so does its need to expand its role to partake in decisions that affect its growing sphere of influence. Absent such a role, the state will face great difficulties in sustaining its power. Doran's power cycle theory provides an excellent explanation of the dynamics of role and power. See Charles Doran, *The Politics of Assimilation: Hegemony and Its Aftermath* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1971).

11 Interview with Afkhami, March 5, 2004.

12 Ibid.

13 Interview with Davoud Hermidas-Bavand, professor at Shahid Beheshti University and former Iranian diplomat, Tehran, August 8, 2004.

14 Interview with former senior Israeli diplomat stationed in Tehran, Tel Aviv, October 31, 2004.

15 Interview with former Iranian diplomat stationed in Israel, Tehran, August 12, 2004. For this very reason, the Shah held the Sultan of Oman in high regard. In June 1976, after a brief visit by the Sultan to Tehran, the Shah told Court Marshall Asadollah Alam that the Arab ruler was "a good sort. He doesn't do a thing without asking our permission." Alam, *The Shah and I,* 495.

16 Kenneth Pollack, *The Persian Puzzle* (New York: Random House, 2004), 104.

17 Hooshang Amirahmadi and Nader Entessar, *Reconstruction and Regional Diplomacy in the Persian Gulf* (London: Routledge, 1992), 230–231.

18 Hooshang Amirahmadi and Nader Entessar, *Iran and the Arab World* (New York: St. Martin's, 1993), 102. Renowned historian Nikki Keddie writes that though Persian-Arab tensions have existed since the Arab conquest of Iran, the paradigm of twentieth-century Persian nationalism incorrectly maintains that enmity between the two peoples is age-old and unchanging. According to Keddie, there is much evidence that premodern Iranians identified more as Shias than Iranians. See Nikki Keddie, *Modern Iran: Roots and Results of Revolution* (New Haven: Yale University Press, 2003).

19 Sohrab Sobhani, *The Pragmatic Entente: Israeli-Iranian Relations, 1948–1988* (New York: Praeger, 1989), 103.

20 Interview with a former deputy commander in chief of the Iranian navy, March 16, 2004.

21 Phone interview with Ambassador Fereydoun Hoveyda, former head of the Permanent Mission of Iran to the UN, Washington, D.C., March 3, 2004.

22 Phone interview with Abbas Maleki, Iranian deputy foreign minister in the early and mid-1990s, Geneva, January 27, 2005.

23 Sobhani, *Pragmatic Entente*, 104.

24 Interview with Hermidas-Bavand, August 8, 2004.

25 Interview with Deputy Minister M. Vakilzadeh, Washington, D.C., February 28, 2004.

26 CIA Intelligence memorandum, "Iran: The Shah's Lending Binge," December 1974. Available at the National Security Archives.

27 Interview with Iran's former Deputy UN Ambassador Mehdi Ehsassi, Tehran, August 3, 2004.

28 Sobhani, *Pragmatic Entente*, 77.

29 Interview with a former deputy commander in chief of the Iranian navy, March 16, 2004.

30 William Quandt, *Peace Process* (Los Angeles: University of California Press, 1993), 148.

31 Sobhani, *Pragmatic Entente*, 96. Phone interview with Soli Shavar, professor at Haifa University, Haifa, October 28, 2004.

32 Israel was a valued strategic asset to Iran in the sense that it "absorbed so much of the Arab energy." Interview with Afkhami, March 5, 2004. Iran knew that "a strong Israel would divert the Arab countries toward looking at [Israel] as a bigger threat than Iran." Interview with a former deputy commander in chief of the Iranian navy, March 16, 2004.

33 Interview with Yitzak Segev, Tel Aviv, October 17, 2004.

34 According to a former Iranian intelligence officer, from Tehran's perspective Egypt went from rival and enemy to ally in less than two years as a result of the rise of Sadat. Interview with former Iranian intelligence officer, Washington, D.C., March 14, 2004.

35 Shahram Chubin and Mohammad Fard-Saidi, "Recent Trends in Middle East Politics and Iran's Foreign Policy Options," *The Institute for International Political and Economic Studies* (August 1975): 79.

36 Having just won suzerainty of the Persian Gulf from the British—a God-sent gift, according to an Iranian diplomat—the Shah was in no mood to hand it over to the Americans or the Soviets. Phone interview with Hoveyda, March 3, 2004.

37 Interview with a former deputy commander in chief of the Iranian navy, March 16, 2004.

38 Iran's role as the guarantor of security in the Gulf necessitated the Soviet Union's exclusion from the region. "We certainly could see the dangers of a Soviet presence in the Persian Gulf; we definitely didn't want that." Interview with former Iranian ambassador to South Africa, New York, February 26, 2004. While Iran could not match Moscow's power, it could prevent the Soviet Union from finding a pretext to enter the warm waters of the Persian Gulf. "The Shah always thought [the reemergence of the great powers in the Gulf] would be very bad for Iran and for the region." Interview with Afkhami, March 5, 2004.

39 *Documents of the United States Embassy in Tehran*, Volume 8, 1979, 65.
40 Interview with Ehsassi, August 3, 2004.
41 Pollack, *Persian Puzzle*, 105.
42 Interview with Afkhami, March 5, 2004.
43 R. K. Ramazani, "Iran and the Arab-Israeli Conflict," *Middle East Journal* 3 (1978): 421.
44 Sobhani, *Pragmatic Entente*, 84.
45 Samuel Segev, *The Iranian Triangle* (New York: Free Press, 1988), 82.
46 Alam, *The Shah and I*, 326.
47 Kayhan, December 1, 1973; cited in Ramazani, "Iran and the Arab-Israeli Conflict," 418–420.
48 Alam, *The Shah and I*, 325–326. Interview with a former deputy commander in chief of the Iranian navy, March 16, 2004.
49 Interview with former Iranian ambassador to South Africa, New York, February 26, 2004.
50 Interview with Alinaghi Alikhani, former minister of finance under the Shah, Washington, D.C., April 7, 2004.
51 Sobhani, *Pragmatic Entente*, 89.
52 Interview with former Iranian ambassador to South Africa, New York, February 26, 2004.
53 Phone interview with Hoveyda, March 3, 2004.
54 Phone interview with Soli Shavar, professor at Haifa University, Haifa, October 28, 2004.
55 Interview with Ehsassi, August 3, 2004.
56 Interview with a former deputy commander in chief of the Iranian navy, March 16, 2004. Interview with former Iranian diplomat stationed in Israel, Tehran, August 12, 2004.
57 Mustafa Alani, "Probable Attitudes of the GCC States Towards the Scenario of a Military Action Against Iran's Nuclear Facilities," Gulf Research Center, 2004, 11.

الفصل 5: ختْم المصير في لحظة النصر

Epigraph: Interview with Yaacov Nimrodi, Savion (Tel Aviv), October 19, 2004.
1 Interview with former senior Israeli diplomat stationed in Tehran, Tel Aviv, October 31, 2004.
2 Secret memorandum from the U.S. embassy in Iran, June 21, 1977. Available at the National Security Archives.
3 Interview with Uri Lubrani, Tel Aviv, October, 2004. Mage publishers recently published an English translation of the *Shahname*.
4 Samuel Segev, *The Iranian Triangle* (New York: Free Press, 1988), 83–84.
5 Phone interview with Soli Shavar, Haifa, October 28, 2004.
6 Segev, *Iranian Triangle*, 87–88.
7 R. K. Ramazani, "Iran and the Arab-Israeli Conflict," *Middle East Journal* 3 (1978): 420–421.
8 Interview with former senior Israeli diplomat stationed in Tehran, Tel Aviv, October 31, 2004.
9 The Kurds are indigenous to a contiguous geocultural region that includes adjacent parts of Iran, Iraq, Syria, and Turkey. Smaller communities can also be found in

Lebanon, Armenia, and Azerbaijan. The ancient Greek historian Xenophon referred to the Kurds in Anabasis as "Kardukhi . . . a fierce and protective mountain-dwelling people" who attacked Greek armies in 400 B.C.

10 Interview with Eliezer Tsafrir, Tel Aviv, October 16, 2004.

11 Interview with Iran's former Deputy UN Ambassador Mehdi Ehsassi, Tehran, August 3, 2004.

12 Interview with Tsafrir, October 16, 2004.

13 David Kimche, *The Last Option* (New York: Maxwell MacMillan International, 1991), 189.

14 Nader Entessar, "Israel and Iran's National Security," *Journal of South Asian and Middle Eastern Studies* 4 (2004): 2–4.

15 The Israeli-Iranian-Kurdish collaboration steadily intensified during the 1960s. In late 1965, Israeli military instructors set up permanent camps in northern Iraq to train the Kurdish guerillas. After the 1967 war, the volume of Israeli arms shipments further increased as Soviet-made arms captured from Egypt and Syria were shipped to Barzani's men, and, in 1969, as a result of increased tensions between Iran and Iraq over the Shatt-el-Arab/Arvand Rud waterway, which separates the two countries north of the Persian Gulf, Tehran sent regular Iranian forces dressed in Kurdish clothing into Iraqi territory to support the Kurds against Iraq. In early 1970, a breakthrough in the negotiations between Baghdad and Mustapha Barzani that would end the Kurdish rebellion in northern Iraq was in the making. This deeply concerned the Shah, who feared that without the Kurdish problem, Iraq would concentrate its forces on the Iranian border. Barzani failed, however, to win a deal with the Iraqi government, and the rebellion continued, as did Israel and Iran's support for it. Sohrab Sobhani, *The Pragmatic Entente: Israeli-Iranian Relations, 1948–1988* (New York: Praeger Publishers, 1989), 46–47. Interview with Alinaghi Alikhani, former minister of finance under the Shah, Washington, D.C., April 7, 2004. Kimche, *Last Option*, 194.

16 Kenneth Pollack, *The Persian Puzzle* (New York: Random House, 2004), 105.

17 Shahram Chubin and Mohammad Fard-Saidi, "Recent Trends in Middle East Politics and Iran's Foreign Policy Options," *The Institute for International Political and Economic Studies* (August 1975): 87.

18 Sobhani, *Pragmatic Entente*, 86.

19 Kimche, *Last Option*, 194.

20 Interview with Yaacov Nimrodi, Savion (Tel Aviv), October 19, 2004.

21 Interview with Tsafrir, October 16, 2004.

22 Asadollah Alam, *The Shah and I*, ed. Alinaghi Alikhani (New York: St. Martin's, 1991), 415–417.

23 Gary Sick, *October Surprise* (New York: Random House, 1991), 61–62. The division of the strategic waterway dated back to the Constantinople Treaty of 1913 between Iran and the Ottoman Empire. Tehran believed that the treaty had given to Iraq excessive privileges over what was supposed to be an international waterway. The Shah had long sought to renegotiate the treaty, and the two countries almost went to war over the issue in 1969.

24 Alam, *The Shah and I*, 417, 409, 418.

25 Interview with Tsafrir, October 16, 2004.

26 Interview with Gary Sick, New York, February 25, 2004.

27 Interview with Charles Naas, Washington, D.C., March 8, 2004.

28 Interview with a former deputy commander in chief of the Iranian navy, March 16, 2004. In fact, the Shah proudly explains in his book *Mission for My Country* that the relations between the United States and Iran are between two equals, a viewpoint that few in Tehran or Washington concurred with. See Mohammad Reza Pahlavi, *Mission for My Country* (London: Hutchinson of London, 1960), 130.

29 Alam, *The Shah and I*, 417. Kimche, *Last Option*, 195. Interview with former Iranian diplomat stationed in Israel, Tehran, August 12, 2004.

30 Interview with former Iranian diplomat under the Shah, Washington D.C., April 2, 2004.

31 Interview with Tsafrir, 2004.

32 Kimche, *The Last Option*, 195.

33 John A. Conway, "The Kurds and Israel," *Newsweek*, April 7, 1975, 17.

34 Interview with Tsafrir, October 16, 2004. The Iranians themselves didn't have much time; approximately one hundred Iranian pieces of field artillery, as well as countless anti-tank and SAM missiles, had to be destroyed because Tehran did not have time to bring them back across the border. Alam, *The Shah and I*, 419. The Barzani clan also fled to Iran and was given refuge in Karaj, outside of Tehran. The Kurds wanted the cooperation with Israel to continue by having the Israeli air force deliver aid by parachute drops, but Israel deemed the operation impossible without access provided by Iran. The Iraqi army took full advantage of the new circumstances and swiftly launched an offensive against the abandoned Kurds, who suffered a devastating defeat. Hundreds were massacred, and many more were forcibly relocated to the south of Iraq as part of Saddam Hussein's effort to ethnically cleanse northern Iraq of its Kurdish population. Kimche, *Last Option*, 195–196.

35 Interview with former Iranian cabinet minister, Potomac, February 2004. The identity of the minister is withheld for his protection.

36 Interview with a former deputy commander in chief of the Iranian navy, March 16, 2004.

37 Interview with former Iranian ambassador to South Africa, New York, February 26, 2004.

38 Interview with Mehdi Ehsassi, August 3, 2004.

39 Alam, *The Shah and I*, 418.

40 Interview with Alikhani, April 7, 2004. Some Iranian officials have also insisted that the United States was supporting the negotiations behind the scenes and was fully aware of the details. (Interview with former Iranian ambassador to Denmark and Greece, Washington, D.C., April 2, 2004.)

41 Alam, *The Shah and I*, 417–419.

42 Interview with Alikhani, April 7, 2004.

43 Interview with Naas, March 8, 2004.

44 Interview with Henry Precht, former Iran desk officer at the U.S. Department of State, Washington, D.C., March 3, 2004. Iranian diplomats, however, have argued that the United States also expressed satisfaction with the accord since it gave Iran, a U.S. ally, the upper hand against the Soviet-backed Iraqi government. (Interview with Ehsassi, August 3, 2004.)

45 Kimche, *Last Option*, 195.

46 Interview with Tsafrir, October 16, 2004.
47 Interview with Yaacov Nimrodi, Savion (Tel Aviv), October 19, 2004.
48 Sobhani, *Pragmatic Entente*, 108.
49 Interview with former Iranian ambassador to South Africa, New York, February 26, 2004.
50 Tehran's military expenditures tripled between 1973 and 1975, going from $6.1 billion to $15.6 billion.
51 Pollack, *Persian Puzzle*, 108.
52 Interview with former Iranian diplomat serving the government of the Shah, Washington, D.C., April 2, 2004.
53 Interview with Alikhani, April 7, 2004. In addition, the Shah was concerned that the United States would sell Israel Pershing missiles capable of carrying nuclear warheads. Classified Department of State telegram, September 1970. Available at the National Security Archives.
54 Joseph Alpher, "Israel and the Iraq-Iran War," in *The Iraq-Iran War: Impact and Implications*, ed. Efraim Karsh (New York: St. Martin's, 1989), 157.
55 Andrew Parasiliti, "Iraq's War Decisions," Ph.D. diss., Johns Hopkins University, 1998, 36, 85–86.
56 Interview with Gholam-Reza Afkhami, former adviser to Mohammad Reza Shah, Washington, D.C., March 5, 2004.
57 Interview with Davoud Hermidas-Bavand, professor at Shahid Beheshti University and former Iranian diplomat, Tehran, August 8, 2004.
58 Parasiliti, "Iraq's War Decisions," 36.
59 Interview with Tsafrir, October 16, 2004.
60 Interview with a former deputy commander in chief of the Iranian navy, March 16, 2004.

الفصل 6: جنون العظمة

Epigraph: Asadollah Alam, *The Shah and I*, ed. Alinaghi Alikhani (New York: St Martin's, 1991), 477.

1 Interview with a former deputy commander in chief of the Iranian navy, March 16, 2004. "Iran had ambitions in that area that Israel could not possibly have. That is the ambition of leadership, the ambition of interactivity, and the ambition of even moving beyond [the Persian Gulf]," according to Afkhami. Interview with Gholam-Reza Afkhami, former adviser to Mohammad Reza Shah, Washington, D.C., March 5, 2004.
2 Interview with former Iranian diplomat stationed in Israel, Tehran, August 12, 2004.
3 Samuel Segev, *The Iranian Triangle* (New York: Free Press, 1988), 73.
4 Sohrab Sobhani, *The Pragmatic Entente: Israeli-Iranian Relations, 1948–1988* (New York: Praeger, 1989), 89.
5 In conservative readings of Shi'ism, non-Shias, including Jews, are considered *najes*, unclean. As Segev pointed out, the anti-Semitism Israelis encountered tended to have religious rather than political roots. Interview with Yitzak Segev, former Israeli military attaché to Iran, Tel Aviv, October 17, 2004.
6 Interview with a former deputy commander in chief of the Iranian navy, March 16, 2004.

7 "We in the Ministry of Foreign Affairs were thinking that we shouldn't go along with the Israelis all the way. . . . I personally never tried to give the Israelis the feeling that I am with them 100 percent," explained a former Iranian deputy UN ambassador. Interview with former Iranian deputy UN ambassador Mehdi Ehsassi, Tehran, August 3, 2004.

8 Interview with former Iranian diplomat under the Shah, Washington, D.C., April 2, 2004.

9 Sobhani, *Pragmatic Entente,* 86–87.

10 Neither the Shah nor his foreign minister, Ardeshir Zahedi, held the Israelis in high regard. Discussions between them in regards to Israel were often disrespectful and derogatory. Interview with former Iranian diplomat stationed in Israel, Tehran, August 12, 2004.

11 Interview with Henry Precht, former Iran desk officer at the U.S. Department of State, Washington, D.C., March 3, 2004.

12 Interview with former senior Israeli diplomat stationed in Tehran, Tel Aviv, October 19, 2004.

13 Phone interview with Ambassador Fereydoun Hoveyda, former head of the Permanent Mission of Iran to the UN, Washington, D.C., March 3, 2004. In January 1976 the Israeli Foreign Ministry connected the Shah with a Jewish-American public relations consultant, Daniel Yankelovich. The efforts to improve Iran's image and mold U.S. public opinion in favor of the Shah's rule were to operate under a new body, called The Center for Media Research, to keep the Israeli dimension of the collaboration out of public sight. But the public relations campaign was a fiasco, partly because of excessive Iranian expectations. By the end of 1976 the Shah lost interest in the project, though he remained convinced that the media in America were under the spell of "World Jewry." "He never came out of this conviction," complained Hoveyda. Asadollah Alam, *The Shah and I,* ed. Alinaghi Alikhani (New York: St. Martin's, 1991), 458, 463–464.

14 Alireza Nourizadeh, "Israel and the Jews: Drawing on Ancient Traditions," *(Beirut) Daily Star,* October 26, 2002.

15 Massoume Price, "A Brief History of Iranian Jews," Culture of Iran, http://www.cultureofiran.com/iranian_jews.php.

16 European Jewish agencies encouraged the migration by offering financial incentives for migrating to Israel. Israeli diplomats refrained from getting involved in the emigration of Iranian Jews to Israel and let it be handled by various Zionist committees. Confidential Memorandum of Conversation, U.S. Second Secretary (Greene) and Israeli First Secretary (Tourgeman) in Tehran, December 22, 1965. Available at the National Security Archives. Unlike other Jewish minorities, Iranian Jews were, for the most part, quite foreign to the ideological tenets of Zionism. One respondent in the Tehran University study explained that his Jewish identity, which remained second to his Iranian identity, came into being only after he arrived in Israel. Hormoz Shahdadi, "Immigration of Iranian Jews to Israel: The Effects of National Identity," *Relations Internationales,* Center for International Studies, University of Tehran (1974), 117–136. Indeed, Israeli leaders were very concerned about the strong Iranian identity of Iranian Jews, as well as their lukewarm support for the state of Israel. According to one official of the Jewish Agency, the Iranian Jewish community was in the 1970s "becoming in-

creasingly Persian" and "not as helpful [toward Israel] as would be desired." Confidential correspondence between U.S. embassy in Tel Aviv and U.S. State Department, April 30, 1976. Available at the National Security Archives.

17 Interview with Ehsassi, August 3, 2004.

18 Interview with Ehsassi, August 3, 2004.

19 Interview with Davoud Hermidas-Bavand, professor at Shahid Beheshti University and former Iranian diplomat, Tehran, August 8, 2004.

20 Interview with former Iranian diplomat, Washington, D.C., April 2, 2004.

21 Phone interview with Hoveyda, March 3, 2004.

22 Alam, *The Shah and I*, 451.

23 Interview with former senior Israeli diplomat stationed in Tehran, Tel Aviv, October 19, 2004.

24 Andrew Parasiliti, "Iraq's War Decisions," Ph.D. diss., Johns Hopkins University, 1998, 37.

25 Alam, *The Shah and I*, 477. Interview with Hermidas-Bavand, August 8, 2004.

26 Interview with a former deputy commander in chief of the Iranian navy, March 16, 2004. Already in 1974 the Shah had shown a propensity for overestimating Iran's standing in international affairs. At the presentation of the incoming West German ambassador's credentials on June 9, 1974, the Shah felt insulted by the German's failure to recognize the distinction between Iran of the past and the Iran the Shah had developed. In a rather undiplomatic fashion, the Shah stated that if "Germany wishes to carry on good relations with Iran her best bet would be to learn to keep her place." Alam, *The Shah and I*, 375.

27 Interview with Hermidas-Bavand, August 8, 2004.

28 Interview with Charles Naas, Washington, D.C., March 8, 2004.

29 Interview with Precht, March 3, 2004.

30 Interview with Yitzak Segev, former Israeli military attaché to Iran, Tel Aviv, October 17, 2004.

31 Interview with Alinaghi Alikhani, former minister of finance under the Shah, Washington, D.C., April 7, 2004.

32 Department of State Scope Paper, August 15, 1967. Available at the National Security Archives.

33 Phone interview with Hoveyda, March 3, 2004.

34 Interview with Ehsassi, August 3, 2004.

35 Alam, *The Shah and I*, 176.

36 Abbas Milani, *The Persian Sphinx* (Washington, D.C.: Mage, 2004).

37 Interview with Minister of Agriculture A. A. Ahmadi, Washington, D.C., February 28, 2004.

الفصل 7: بروز بيغن واليمين الإسرائيلي

Epigraph: Documents of the United States Embassy in Teheran, Volume 19, 1979, 4. National Security Archives.

1 William Quandt, *Peace Process* (Los Angeles: University of California Press, 1993), 261.

2 Ilan Peleg, *Begin's Foreign Policy 1977–1983: Israel's Move to the Right* (New York: Greenwood, 1987), 18.

3 Peleg, *Begin's Foreign Policy,* 7, 58.
4 Shlomo Avineri, "Ideology and Israeli Foreign Policy," *Jerusalem Quarterly* 37 (Winter 1986): 4–6.
5 Sohrab Sobhani, *The Pragmatic Entente: Israeli-Iranian Relations, 1948–1988* (New York: Praeger, 1989), 98–99.
6 Peleg, *Begin's Foreign Policy,* 52.
7 Dan Fichter, "Extremists and Pragmatists: Israel's Far Right," *Yale Israel Journal* 3 (2004).
8 Peleg, *Begin's Foreign Policy,* 181–182.
9 Interview with former senior Israeli diplomat stationed in Tehran, Tel Aviv, October 19, 2004.
10 Gary Sick, *All Fall Down: America's Tragic Encounter with Iran* (New York: Random House, 1985), 22. Samuel Segev, *The Iranian Triangle* (New York: Free Press, 1988), 60.
11 Sobhani, *Pragmatic Entente,* 99.
12 Interview with Iran's former Deputy UN Ambassador Mehdi Ehsassi, Tehran, August 3, 2004.
13 Interview with former Iranian diplomat stationed in Israel, Tehran, August 12, 2004.
14 R. K. Ramazani, "Iran and the Arab-Israeli Conflict," *Middle East Journal* 3 (1978): 424.
15 Sobhani, *Pragmatic Entente,* 101.
16 *U.S. News & World Report,* March 22, 1976.
17 "Morocco, Iran Issue Joint Communiqué," *Xinhua,* February 3, 1977.
18 "Iran, Egypt Issue Joint Communiqué," *Xinhua,* March 17, 1977.
19 "Kuwaiti Foreign Minister Visits Iran," *Xinhua,* May 3, 1977.
20 Phone interview with Ambassador Fereydoun Hoveyda, former head of the Permanent Mission of Iran to the UN, Washington, D.C., March 3, 2004.
21 Documents of the United States Embassy in Teheran, Volume 19, 1979, 4. Available at the National Security Archives.
22 Interview with Gholam-Reza Afkhami, an adviser to Mohammad Reza Shah, Washington, D.C., March 5, 2004.
23 Interview with former Iranian ambassador to South Africa, New York, February 26, 2004.
24 Phone interview with Hoveyda, March 3, 2004.
25 Documents of the United States Embassy in Teheran, Volume 19, 1979, 1–3. Available at the National Security Archives.
26 Quandt, *Peace Process,* 270.
27 Interview with Afkhami, March 5, 2004.
28 Arnaud de Borchgrave, "The Shah on War and Peace," *Newsweek,* November 14, 1977, 69.
29 Moshe Dayan, *Breakthrough* (New York: Alfred Knopf, 1981), 106–107.
30 Sobhani, *Pragmatic Entente,* 126–128.
31 Ramazani, "Iran and the Arab-Israeli Conflict," 423–424.
32 *Washington Post,* January 10, 1978.
33 Interview with Afkhami, March 5, 2004. Sobhani, *Pragmatic Entente,* 100.
34 Interview with former senior Israeli diplomat stationed in Tehran, Tel Aviv, October 19, 2004.

35 Iraqi Scud missiles became one of Baghdad's most dreaded weapons later in the Iraq-Iran war. Through Iraq's access to missile technology, it could strike against Tehran itself from Iraqi soil.
36 Borchgrave, "The Shah on War and Peace," 70.
37 Sobhani, *Pragmatic Entente,* 129. The Iraq-Iran war later demonstrated that the Scuds were indeed a devastating weapon that Iran lacked deterrence against or protection from.
38 Interview with a former deputy commander in chief of the Iranian navy, March 16, 2004.
39 Documents of the United States Embassy in Teheran, Volume 19, 1979, 4. National Security Archives.
40 Elaine Sciolino, "Documents Detail Israeli Missile Deal with the Shah," *New York Times,* April 1, 1986. Sobhani, *Pragmatic Entente,* 116.
41 Martin Bailey, "The Blooming of Operation Flower," *Observer,* February 2, 1986, 19; Sciolino, "Documents Detail Israeli Missile Deal."
42 Sciolino, "Documents Detail Israeli Missile Deal."
43 Sobhani, *Pragmatic Entente,* 116.
44 Documents of the United States Embassy in Teheran, Volume 19, 1979, 14. Available at the National Security Archives.
45 *Documents of the United States Embassy in Tehran,* 36 (1979), 29. Sobhani, *Pragmatic Entente,* 119.
46 Sciolino, "Documents Detail Israeli Missile Deal."
47 Interview with a former deputy commander in chief of the Iranian navy, March 16, 2004.
48 Sobhani, *Pragmatic Entente,* 115.
49 Documents of the United States Embassy in Teheran, Volume 19, 1979, 4. Available at the National Security Archives.
50 Interview with Yitzak Segev, former Israeli military attaché to Iran, Tel Aviv, October 17, 2004. Discussion with senior Iranian government official, Paris, January 19, 2006.
51 Interview with Eliezer Tsafrir, who served as the head of the Mossad in Iran and Iraq in the 1960s and 1970s, Tel Aviv, October 16, 2004.
52 Behrouz Souresrafil, *Khomeini and Israel* (London: Researchers, 1988), 38.

الفصل 8: عودة آية الله

Epigraph: Interview with Yitzak Segev, former Israeli military attaché to Iran, Tel Aviv, October 17, 2004.

1 William Sullivan, *Mission to Iran* (New York: WW Norton, 1981), 62.
2 Interview with Eliezer Tsafrir, head of the Mossad in Iran, Tel Aviv, October 16, 2004.
3 Interview with Yitzak Segev, former Israeli military attaché to Iran, Tel Aviv, October 17, 2004.
4 Interview with Israeli official, Tel Aviv, October 2004.
5 Interview with former senior Israeli diplomat stationed in Tehran, Tel Aviv, October 19, 2004.
6 Henry Paolucci, *Iran, Israel and the United States* (New York: Griffon House, 1990), 208.
7 Interview with Israeli official, Tel Aviv, October 2004.

8 Interview with Yitzak Segev, former Israeli military attaché to Iran, Tel Aviv, October 17, 2004.

9 Sohrab Sobhani, *The Pragmatic Entente: Israeli-Iranian Relations, 1948–1988* (New York: Praeger, 1989), 135.

10 Interview with Segev, October 17, 2004.

11 Samuel Segev, *The Iranian Triangle* (New York: Free Press, 1988), 114–115.

12 Paolucci, *Iran, Israel and the United States*, 208.

13 Nader Entessar, "Israel and Iran's National Security," *Journal of South Asian and Middle Eastern Studies* 4 (2004): 4.

14 David Menashri, *Post-Revolutionary Politics in Iran* (London: Frank Cass, 2001), 266.

15 Shireen Hunter, *Iran and the World* (Indianapolis: Indiana University Press, 1990), 40–41.

16 The roots of anti-Israeli sentiment in Iran date back to the creation of the Jewish State itself. Ayatollah Mahmood Taleqani, a leading cleric who later became the first leader of the Friday Prayer after the victory of Islamic Revolution, was the first Iranian intellectual to address the topic. In 1955, he visited the Jordanian-controlled part of Jerusalem for a conference on the Israeli-Palestinian conflict. The trip left a mark on the cleric. Shortly after his eye-opening trip, he wrote a book on the plight of the Palestinians that came to color the Iranian public's view of the conflict. Another influential intellectual who helped shape pro-Palestinian sentiment in Iran was Shams Al-e Ahmad. Though he initially was an admirer of the Jewish State, a visit to the country prompted a reversal in his position. Interview with a former Iranian deputy foreign minister with close ties to Ayatollah Taleqani, August 1, 2004, Tehran.

17 Nikki Keddie, *Modern Iran: Roots and Results of Revolution* (New Haven: Yale University Press, 2003), 232.

18 Phone interview with Nader Entessar, January 25, 2005, Washington, D.C.

19 Entessar, "Israel and Iran's National Security," 5. Menashri, *Post-Revolutionary Politics*, 269.

20 R. K. Ramazani, "Ideology and Pragmatism in Iran's Foreign Policy," *Middle East Journal* 4 (2004): 555.

21 Hunter, *Iran and the World*, 36. Interview with Mahmood Sariolghalam, professor at Shahid Beheshti University and adviser to the Iranian National Security Advisor, August 18, 2004, Tehran.

22 Interview with a prominent Iranian reformist strategist, March 2, 2004, Washington, D.C.

23 Entessar, "Israel and Iran's National Security," 5.

24 Interview with a former Iranian deputy foreign minister, August 1, 2004, Tehran.

25 Entessar, "Israel and Iran's National Security," 5.

26 Behrouz Souresrafil, *Khomeini and Israel* (London: Researchers, 1988), 45.

27 Phone interview with Entessar, January 25, 2005.

28 Confidential State Department telegram from the U.S. embassy in Iran, from October 1979, sent by Chargé d'Affaires Bruce Laingen. Available at the National Security Archives.

29 Interview with a former Iranian vice prime minister, August 1, 2004, Tehran. The deputy foreign minister was part of the Iranian delegation greeting Arafat at the Tehran airport.

30 Souresrafil, *Khomeini and Israel*, 46.

31 Secret communiqué from the U.S. embassy in Tehran, late September 1979. Available at the National Security Archives.

32 A few years later, the PLO and Amal would be fighting bloody battles for control of West Beirut. Entessar, "Israel and Iran's National Security," 6.

33 Souresrafil, *Khomeini and Israel*, 48.

34 Entessar, "Israel and Iran's National Security," 6.

35 Confidential State Department memo, September 30, 1979. Available at the National Security Archives.

36 The PLO maintained friendly relations with the Marxist-Islamist Mujahedeen-e Khalq (People's Mujahedeen) and its leader, Massoud Rajavi, one of Khomeini's most potent rivals. The Mujahedeen leader received Arafat during his second trip to Tehran, for the one-year anniversary of the revolution in February 1980, and pledged his support to the Palestinians by giving Arafat a captured Israeli machine gun. "It was the Palestinian revolution that first placed arms in our hands. But our battles with imperialism and Zionism are still going on. Please accept this machine-gun as a pledge of action from the [Mujahedeen] that, by this means, we will meet one day in a free Jerusalem," Rajavi told Arafat. (Today, pro-Israeli lawmakers such as the ranking member of the House Foreign Affairs Committee, Ileana Ros-Lehtinen, support Rajavi and the Mujahedeen as an alternative to the clerical regime in Tehran even though the group is classified by the U.S. State Department as a terrorist organization.) *Mojahed*, Esfand 6, 1358 (February 28, 1980).

37 Anoushiravan Ehteshami, *After Khomeini* (New York: Routledge, 1995), 129. Souresrafil, *Khomeini and Israel*, 50.

الفصل 9: تحوّلات إيديولوجية، استمراريات جيوسياسية

Epigraph: Interview with Iranian political strategist, March 2004.

1 Declassified CIA Intelligence memorandum, "Iran: Khomeini's Prospects and Views," January 19, 1979. Declassified on January 23, 1986. Available at the National Security Archives.

2 Shireen Hunter, *Iran and the World* (Indianapolis: Indiana University Press, 1990), 42.

3 Interview with Iranian political strategist, March 2004.

4 Interview with Ambassador Javad Zarif, Iran's ambassador to the UN, New York, April 1, 2004.

5 Declassified CIA Intelligence memorandum, "Iran: Khomeini's Prospects and Views."

6 The role of Khomeini in the initial stages of the hostage-taking is disputed. According to Nikki Keddie, "The takeover, like an earlier one, would have been brief had it not got the support of Khomeini, who saw in it a chance to get rid of the liberal government, radicalize the revolution, and increase his power." Nikki Keddie, *Modern Iran: Roots and Results of Revolution* (New Haven: Yale University Press, 2003), 248–249.

7 Hunter, *Iran and the World*, 113.

8 Interview with former Minister of Finance Dan Meridor, Tel Aviv, October 27, 2004.

9 Samuel Segev, *The Iranian Triangle* (New York: Free Press, 1988), 4.

10 Gary Sick, *October Surprise* (New York: Random House, 1991), 61–63.
11 Interview with David Kimche, Tel Aviv, October 22, 2004.
12 Sohrab Sobhani, *The Pragmatic Entente: Israeli-Iranian Relations, 1948–1988* (New York: Praeger, 1989), 145.
13 Interview with Yitzhak Segev, former Israeli military attaché to Iran, Tel Aviv, October 17, 2004.
14 Israel Shahak, "How Israel's Strategy Favors Iraq over Iran," *Middle East International*, March 19, 1993, 19.
15 Interview with Yossi (Joseph) Alpher, former Mossad official and senior adviser to Ehud Barak, Tel Aviv, October 27, 2004.
16 Joseph Alpher, "Israel and the Iraq-Iran War," in *The Iraq-Iran War: Impact and Implications*, ed. Efraim Karsh (New York: St. Martin's, 1989), 157–159.
17 Ilan Peleg, *Begin's Foreign Policy 1977–1983: Israel's Move to the Right* (New York: Greenwood, 1987), 53.
18 Jakob Abadi, *Israel's Leadership: From Utopia to Crisis* (London: Greenwood, 1993), 64, 82, 155. The survival of the periphery doctrine was guaranteed by Israeli decision-makers' central belief in the inability to make peace with the Arabs. Interview with David Menashri, professor at Tel Aviv University, Tel Aviv, October 26, 2004.
19 Alpher, "Israel and the Iraq-Iran War," 158, 155.
20 Interview with Zarif, April 1, 2004.
21 Seyed Assadollah Athari, "Iranian-Egyptian Relations," *Discourse: An Iranian Quarterly* 2 (2001): 53–55. To this day, diplomatic relations between Egypt and Iran have not been restored. The sticking point is that Iran has renamed a street in Tehran after Lt. Col. Khalid al Islambuli, the Egyptian soldier who assassinated Sadat on October 6, 1981.
22 David Menashri, *Post-Revolutionary Politics in Iran* (London: Frank Cass, 2001), 227.
23 A. Ehteshami and R. Hinnebusch, *The Foreign Policies of Middle East States* (London: Lynne Rienner, 2002), 45.
24 Hunter, *Iran and the World*, 110.
25 Secret Department of State memorandum, U.S. embassy in Tehran, October 1979. Available at the National Security Archives.
26 Interview with former Deputy Foreign Minister Mahmoud Vaezi, Tehran, August 16, 2004. Suspiciousness of Israel was further fueled by Savak prisoners' revelation of Israel's role in training Savak agents in torture techniques. Massoumeh Ebtekar, *Takeover in Tehran* (Vancouver: Talonbooks, 2000), 188.
27 Interview with Gary Sick, New York, February 25, 2004.
28 Sick, *October Surprise*, 61–65.
29 Segev, *The Iranian Triangle*, 5. Sick, *October Surprise*, 71. Behrouz Souresrafil, *Khomeini and Israel* (London: Researchers, 1988), 61–62. Later, Carter managed to win a promise from Begin not to sell Iran any spare parts until the hostages were freed. Sick, *October Surprise*, 141.
30 Sobhani, *Pragmatic Entente*, 147.
31 Souresrafil, *Khomeini and Israel*, 62. Not all Iranian Jews fled the country, though. After meeting with leaders of the Jewish community, Khomeini issued a fatwa—a religious edict—decreeing that Jews and other minorities were to be protected.
32 Phone interview with Nader Entessar, January 25, 2005.
33 "Iran Calls for Stopping Oil Supply to Countries Supporting Israel," *Xinhua*, August 15, 1980.
34 Interview with Bijan Khajepour, Washington, D.C., February 17, 2004.
35 Anoushiravan Ehteshami, *After Khomeini* (New York: Routledge, 1995), 131.
36 Interview with Sick, February 25, 2004.

الفصل 10: هجمات صدام!

1 Shireen Hunter, *Iran and the World* (Indianapolis Indiana University Press, 1990), 104.
2 Interview with Ali Reza Alavi Tabar, Tehran, August 21, 2004.
3 Seyed Assadollah Athari, "Iranian-Egyptian Relations," *Discourse: An Iranian Quarterly* 2 (2001): 56.
4 Shireen Hunter, *Iran After Khomeini* (New York: Praeger, 1992), 84, 92, 113.
5 Barry Rosen, ed., *Iran Since the Revolution* (New York: Columbia University Press, 1985), 56–59.
6 This was later demonstrated through the raining of Iraqi Scuds on Tel Aviv during the 1991 Persian Gulf War.
7 Samuel Segev, *The Iranian Triangle* (New York: Free Press, 1988), 124.
8 Anoushiravan Ehteshami, *After Khomeini* (New York: Routledge, 1995), 132.
9 Interview with Amir Mohebian, Tehran, August 19, 2004.
10 Interview with A. A. Kazemi, former Iranian diplomat during the early years of the Khomeini regime, Tehran, August 16, 2004.
11 This was reflected, among other things, in Iran's emerging alliance with secular Ba'athist Syria, as well as in its arms trade with Israel. A. Ehteshami and R. Hinnebusch, *The Foreign Policies of Middle East States* (London: Lynne Rienner, 2002), 47.
12 Nader Entessar, "Israel and Iran's National Security," *Journal of South Asian and Middle Eastern Studies* 4 (2004): 7.
13 Interview with Iranian political strategist, March 2004.
14 Even the most hard-line clerics saw "nothing contradictory with acquiring arms from your enemy." Interview with Iranian political strategist, March 2004. For more details on how Shi'ism permits the existence of contradictions, see Rosen, *Iran Since the Revolution*, xii.
15 Interview with Javad Zarif, Iran's ambassador to the UN, New York, April 1, 2004. Interview with Iranian political strategist, March 2004.
16 Interview with former Deputy Foreign Minister Mahmoud Vaezi, Tehran, August 16, 2004. The more ideological elements of the Iranian regime believed that the Ba'ath Party and Iraq were fighting Iran on behalf of Washington and Tel Aviv. Saddam's invasion of Iran was believed to have been encouraged by Washington, and as a result all U.S. allies, including Israel, were viewed with great suspicion. If Saddam had attacked Iran at the behest of Washington and Tel Aviv, how could Iran have common security interests with Israel, these revolutionaries asked themselves. "At that time, we did not see any real difference between what Saddam Hussein was doing [against Iran], and what America and Israel were doing," a senior Iranian diplomat explained to me. "We put them all in the same category." Interview with Tabar, August 21, 2004. Interview with former Deputy Foreign Minister Mahmoud Vaezi, Tehran, August 16, 2004. Interview with Mustafa Zahrani, February 26, 2004. Interview with Iranian political strategist, March 2004.

17 Interview with Zarif, April 1, 2004.
18 Interview with Gary Sick, New York, February 25, 2004.
19 Interview with Amir Mohebian, Tehran, August 19, 2004.
20 Interview with Kazemi, August 16, 2004.
21 "Call for End to Iran's Links with Israel," *BBC*, November 5, 1984. "Iran Runs 'Destroy Israel' Contest for Children," Associated Press, April 25, 1985. "Iran to Send Iraqi POWs to Lebanon to Fight Israel," Associated Press, June 5, 1981. "Iran Proposes Islamic Army to Fight Israel," Associated Press, April 2, 1982.
22 Interview with Mohebian, August 19, 2004.
23 Interview with Abbas Maleki, Tehran, August 1, 2004.
24 Interview with Tabar, August 21, 2004.
25 Interview with former Iranian official, Tehran, August 2004.
26 Houchang Chehabi, *Distant Relations: Iran and Lebanon in the Last 500 Years* (New York: I. B. Tauris, 2006), 211–213.
27 Ibid., 226.
28 Interview with Vaezi, August 16, 2004. According to Alavi Tabar, who belongs to the reformist faction of the Iranian government, this duality still remains a problem for Iranian foreign policy in general. "Our rhetoric is very harsh, but our policies are soft, while America speaks softly but conducts very harsh policies. . . . Though our rhetoric has been radical, in practice, our behavior has not."
29 Interview with Maleki, August 1, 2004.
30 Haleh Vaziri, "Iran's Involvement in Lebanon: Polarization and Radicalization of Militant Islamic Movements," *Journal of South Asian and Middle Eastern Studies* 16:2 (Winter 1992): 4.
31 Entessar, "Israel and Iran's National Security," 7.
32 Iraq was, after all, an Arab country whose aspirations to replace Egypt as the leading pan-Arab state prevented it from taking a soft stance on Israel. "Our tremendous fear was that Iraq would win that war, and we felt that would have been a terrible threat to Israel's security," Kimche said. "So from purely security point of view . . . we felt we had to do everything to prevent Iraq winning that war." Kimche dismissed the possibility that the arms Israel provided Iran could one day be used against Israel itself, and he confirmed the Israeli view at the time that Iran was not a threat. Interview with David Kimche, Tel Aviv, October 22, 2004.
33 Segev, *Iranian Triangle*, 22. Gen. Raphael Eytan, the chief of staff of the Israeli army at the time, explained Iran's inability to pose a threat to Israel: "If Iran decided to invade Israel, first her forces should cross Iraq and then, they should cross Jordan; in order to get to Israel they should destroy these two countries and when they reach Israel, they would realize that we are neither Iraq nor Jordan and to overcome us would not be possible." Behrouz Souresrafil, *Khomeini and Israel* (London: Researchers, 1988), 79.
34 Interview with David Menashri, professor at Tel Aviv University, Tel Aviv, October 26, 2004. According to Yuval Ne'eman, a right-wing Knesset member, though Iran was not a friendly state, "as far as Israel's security is concerned, Iraq is a far greater danger." Ruth Sinai, "Israel Helps Iran for Strategic and Economic Reasons," Associated Press, December 1, 1986.
35 Interview with Itamar Rabinovich, former adviser to Rabin and Israeli ambassador to the United States, Tel Aviv, October 17, 2004.

36 Interview with former National Security Advisor Robert McFarlane, Washington, D.C., October 13, 2004. "In strict geopolitical terms, if you don't consider regimes, our friend should be Iran, and we should never forget that," argued Itamar Rabinovich, Israel's U.S. ambassador 1993–1996 and a close adviser to Rabin. Interview with Rabinovich, October 17, 2004. Interview with Jess Hordes, director of the Anti-Defamation League's Washington office, Washington, D.C., March 24, 2004.

37 Interview with Kimche, October 22, 2004.

38 Malcolm Byrne, *The Chronology* (New York: Warner Books, 1987), 116.

39 Gary Sick, *October Surprise* (New York: Random House, 1991), 114.

40 "Israel Would Aid Iran in Return for Friendship," Associated Press, September 28, 1980.

41 According to French journalist Pierre Pean, some Israeli military advisers even visited the Iranian front line to evaluate firsthand Iran's capabilities and needs. Entessar, "Israel and Iran's National Security," 7.

42 Sick, *October Surprise*, 114, 167–179, 198.

43 Entessar, "Israel and Iran's National Security," 8.

44 Nikki Keddie, *Modern Iran: Roots and Results of Revolution* (New Haven: Yale University Press, 2003), 81.

45 Ariel Sharon, *Warrior* (New York: Simon and Schuster, 1989), 412–413.

46 Entessar, "Israel and Iran's National Security," 7.

47 Segev, *Iranian Triangle*, 7.

48 Interview with Kimche, October 22, 2004.

49 Sohrab Sobhani, *The Pragmatic Entente: Israeli-Iranian Relations, 1948–1988* (New York: Praeger, 1989), 148. Reza Pahlavi, the son of the Mohammad Reza Shah, had approached Defense Minister Sharon through a Saudi billionaire, Adnan Khashoggi, with a request for Israeli assistance in training and arming Iranian soldiers loyal to the Pahlavi monarchy. The young pretender to the Peacock Throne wanted to train the Iranians in Sudan—far enough to be beyond Tehran's reach—using Saudi funds and Israeli equipment in order to stage a counterrevolution in Iran. Pahlavi had on many occasions sought Israel's assistance in toppling the Khomeini government. His outreach to Israelis who had dealt with the Shah's Iran was extensive, so it was no surprise that he called them personally to urge them to speak out in favor of a coup d'état in Iran and congratulating them when they did so. Sharon quickly lost faith in the abilities of the young Pahlavi, however. Sharon, *Warrior*, 416–417. Segev, *Iranian Triangle*, 11, 82, 7.

50 Interview with Yossi (Joseph) Alpher, former Mossad official and senior adviser to Ehud Barak, Tel Aviv, October 27, 2004.

51 *Sunday Telegraph*, June 14, 1981.

52 Sick, *October Surprise*, 207.

53 "BBC Says Israel Resumed Shipping Arms to Iran," Associated Press, February 1, 1982.

54 Entessar, "Israel and Iran's National Security," 9.

55 Sick, *October Surprise*, 200.

56 "Sharon Reveals Arms Supplies to Iran," *BBC*, May 28, 1982.

57 "Israel Sends Military Equipment to Iran," Associated Press, May 28, 1982.

58 Interview with Zarif, April 1, 2004.

59 Interview with Zahrani, February 26, 2004.

60 "Khomeini's Twenty-fourth August Speech: Israel and Iran's Opponents," *BBC*, August 26, 1981.

61 Interview with Shmuel Bar, Tel Aviv, October 18, 2004.

الفصل 11: فضيحة

Epigraph: Behrouz Souresrafil, *Khomeini and Israel* (England: Researchers, 1988), 115.

1 Charles D. Smith, *Palestine and the Arab-Israeli Conflict* (New York: St. Martin's, 1996), 284.

2 Lara Deeb, "Hizballah: A Primer," *Middle East Report Online*, July 31, 2006.

3 The importance of the 1982 Israeli invasion of Lebanon to the formation of Hezbollah cannot be overestimated. Had it not been for Israel's invasion, Iran would likely have failed in getting a stronghold in Lebanon, just as it had failed in Iraq and Bahrain. Incidentally, Iran's interest in the Lebanese Shia preceded the Iranian revolution. During Israel's 1978 invasion of Lebanon, the Shah privately expressed great concern about Iran's religious kin. To ease the Shah's worries, the Israelis let an Iranian delegation visit Lebanon to confirm that the Shias were not being mistreated. Interview with former senior Israeli diplomat stationed in Tehran, Tel Aviv, October 31, 2004.

4 Efraim Karsh ed., *The Iran-Iraq War: Impact and Implications* (New York: St. Martin's, 1989), 154. A. Ehteshami and R. Hinnebusch, eds., *The Foreign Policies of Middle East States* (London: Lynne Rienner, 2002), 47.

5 Sohrab Sobhani, *The Pragmatic Entente: Israeli-Iranian Relations, 1948–1988* (New York: Praeger, 1989), 150.

6 Interview with David Kimche, Tel Aviv, October 22, 2004.

7 Interview with Shmuel Bar, Tel Aviv, October 18, 2004.

8 Sobhani, *Pragmatic Entente*, 149.

9 David Kimche, *The Last Option* (New York: Maxwell Macmillan International, 1991), 213.

10 Interview with Yaacov Nimrodi, Savion (Tel Aviv), October 19, 2004. Information also taken from draft of Nimrodi's forthcoming English-language book on this subject.

11 Joyce Battle, "Shaking Hands with Saddam Hussein: The U.S. Tilts Toward Iraq, 1980–1984," *National Security Archive Electronic Briefing Book* No. 82, February 25, 2003.

12 Unclassified State Department memo titled "Iraq Use of Chemical Weapons," November 1, 1983. Available at the National Security Archives.

13 Robert Parry, "Missing U.S.-Iraq History," *Consortiumnews.com*, February 27, 2003. Based on testimony of National Security Council staff member Howard Teicher.

14 Rara Avis, "Iran and Israel," *Economist*, September 21, 1985.

15 Samuel Segev, *The Iranian Triangle* (New York: Free Press, 1988), 161.

16 Interview with Kimche, October 22, 2004.

17 Behrouz Souresrafil, *Khomeini and Israel* (London: Researchers Inc., 1988), 115.

18 Ian Black, "Israel's Longstanding Links with Iran," *Manchester Guardian Weekly*, December 7, 1986.

19 Malcolm Byrne, *The Chronology* (New York: Warner Books, 1987), 72. Based on Senate Intelligence Panel's report. Nimrodi denies this claim and argues that he was brought into the affair in February 1985.

20 Robert C. McFarlane, *Special Trust* (New York: Cadell and Davis, 1994), 19.

21 Interview with former National Security Advisor Robert McFarlane, Washington, D.C., October 13, 2004.

22 Byrne, *Chronology,* 117–118.
23 Ibid., 125.
24 Segev, *Iranian Triangle,* 133.
25 Interview with Nimrodi, October 19, 2004. See also Byrne, *Chronology,* 98.
26 Interview with Nimrodi, October 19, 2004.
27 Kimche, *Last Option,* 220.
28 Interview with Gary Sick, New York, February 25, 2004.
29 Interview with Iranian political strategist, March 2004.
30 Interview with Nimrodi, October 19, 2004.
31 Segev, *Iranian Triangle,* 281.
32 Kimche, *Last Option,* 213. Interview with Nimrodi, October 19, 2004.
33 Interview with Nimrodi, October 19, 2004.
34 Interview with McFarlane, October 13, 2004. "However, that theory was created among ourselves and had no foundation in fact of contemporary events or intelligence material," McFarlane concluded in retrospect.
35 Top-secret memorandum to George Schultz and Caspar Weinberger from Robert McFarlane, June 17, 1985. Available at the National Security Archives.
36 Interview with Nimrodi, October 19, 2004.
37 Kimche, *Last Option,* 211. According to McFarlane, Ledeen's visit with Peres was per Ledeen's own initiative; he was not authorized to speak on behalf of the U.S. government. McFarlane, *Special Trust,* 17.
38 McFarlane confirmed in his testimony before the Senate that Peres had brought up the idea of arms sales with Ledeen in May 1985. Sally Mallison and Thomas Mallison, "The Changing U.S. Position on Palestinian Self-Determination and the Impact of the Iran-Contra Scandal," *Journal of Palestine Studies* 3 (Spring 1987): 101–114. Interview with Nimrodi, October 19, 2004.
39 Segev, *Iranian Triangle,* 138.
40 Interview with Kimche, October 22, 2004.
41 Kimche, *Last Option,* 211. According to Kimche, Israel's primary motivation was to help the United States. "We owe the Americans so much that we have to do our utmost to help them; especially as they have come to us to seek our help," Peres reportedly told Kimche.
42 According to McFarlane, the Israeli envoy suggested that the United States and Israel could collaborate to "accelerate perhaps by one means or another" Khomeini's death. But McFarlane refused any suggestion of U.S. involvement in a plot to assassinate the ayatollah in the strongest possible terms. Kimche, however, vehemently denies having ever made such a suggestion, arguing that McFarlane "put that in the book to discredit Israel and save his own skin." McFarlane, *Special Trust,* 21. Interview with Kimche, October 22, 2004.
43 Interview with McFarlane, October 13, 2004.
44 McFarlane, *Special Trust,* 21.
45 Interview with Nimrodi, October 19, 2004.
46 Segev, *Iranian Triangle,* 157.
47 Interview with Nimrodi, October 19, 2004.
48 Ibid.
49 Kimche, *Last Option,* 216.

50 Byrne, *Chronology,* 601. Based on testimony of Robert McFarlane before the Senate. See also McFarlane, *Special Trust,* 31–35.
51 Kimche, *Last Option,* 213.
52 Interview with Nimrodi, October 19, 2004.
53 Segev, *Iranian Triangle,* 183–184.
54 Interview with Nimrodi, October 19, 2004.
55 Segev, *Iranian Triangle,* 183–184.
56 Interview with Nimrodi, October 19, 2004.
57 McFarlane, *Special Trust,* 46–47.
58 Ibid, 49–50, 52.
59 William Quandt, *Peace Process* (Los Angeles: University of California Press, 1993), 357.
60 Kimche, *Last Option,* 217.
61 Top-secret letter from Peres to Reagan, dated February 28, 1986. National Security Archives.
62 Victor Ostrovsky, *By Way of Deception* (New York: 1990), 330. Segev, *Iranian Triangle,* 249.
63 McFarlane, *Special Trust,* 54.
64 Top-secret Chronology of Events, dated November 18, 1986. Available at the National Security Archives.
65 Segev, *Iranian Triangle,* 270.
66 George Cave, "Why Secret 1986 U.S.-Iran 'Arms for Hostages' Negotiations Failed," *Washington Report on Middle East Affairs* (September/October 1994).
67 McFarlane, *Special Trust,* 54–56.
68 Interview with McFarlane, October 13, 2004.
69 McFarlane, *Special Trust,* 59.
70 Interview with McFarlane, October 13, 2004.
71 McFarlane, *Special Trust,* 61, 65.
72 Cave, "Negotiations Failed." McFarlane, *Special Trust,* 61, 65.
73 In one specific case, Nir received a phone call from Iran's Prime Minister Moussavi on July 20, 1986, informing him of Iranian efforts to release an American hostage nicknamed "the priest." Byrne, *Chronology,* 427.
74 Byrne, *Chronology,* 490. Based on Charles Allen's testimony before the Tower Commission.
75 Top-secret memorandum from Oliver North to National Security Advisor John Poindexter, September 15, 1986. Available at the National Security Archives. American proponents of reaching out to Iran argued along the same lines. Charles Allen of the CIA, who was closely involved in the operations, identified the principal motivation behind the Iranian channel to be "to open up a long-term geo-strategic relationship with Iran." Kimche, *Last Option,* 219.
76 Cave, "Negotiations Failed."
77 Mallison and Mallison, "Changing U.S. Position," 109.
78 Cave, "Negotiations Failed."
79 Quandt, *Peace Process,* 357.
80 Byrne, *Chronology,* 555.
81 Segev, *Iranian Triangle,* 313–314.

82 "Israel Doesn't Pledge Halt to Selling Iran Arms," Associated Press, December 8, 1986.
83 Ruth Sinai, "Peres Says U.S. Initiated Iran Deal, Israel Just Went Along," Associated Press, December 10, 1986.
84 Mary Sedor, "Peres: Arms Sales to Iran Less Than $6 Million in 1985," Associated Press, January 20, 1987.
85 "Israel Bears No Guilt in Iran Arms Sale, Eban Says," Associated Press, February 28, 1987.
86 "Shamir Urges U.S. to Pursue Possible Contacts with Iran," *Washington Post*, February 12, 1987.
87 Ostrovsky, *By Way of Deception*, 329.
88 Scheherezade Faramarzi, "Iran Offers Help Freeing Hostages, Denies Israel in Arms Deal," Associated Press, November 28, 1986.
89 R. K. Ramazani, "Ideology and Pragmatism in Iran's Foreign Policy," *Middle East Journal* 4 (2004): 556.
90 Segev, *Iranian Triangle*, 28.
91 John Rice, "Arabs Switch Focus from Israel to Ancient Enemy Iran," Associated Press, November 14, 1987. In late 1989 reports resurfaced of continued Iranian sale of oil to Israel. Iran vehemently denied the charges, but Tehran was nevertheless blasted by the PLO for its alleged ties with Israel. Associated Press, "Iran Denies Oil Sold to Israel," December 20, 1989.
92 L. Carl Brown, *Diplomacy in the Middle East* (New York: I. B. Tauris, 2004), 249.
93 Lee Stokes, "Iran Says Israel Will Only Respond to Force," United Press International, December 16, 1988.

الفصل 12: النفَس الأخير للمبدأ المحيطي

Epigraph: Behrouz Souresrafil, *Khomeini and Israel* (England: Researchers, 1988), 114.

1 Joseph Alpher, "Israel and the Iraq-Iran War," in *The Iraq-Iran War: Impact and Implications*, ed. Efraim Karsh (New York: St. Martin's, 1989), 164.
2 Ibid., 161.
3 Malcolm Byrne, *The Chronology* (New York: Warner Books, 1987), 444.
4 Interview with Yitzhak Segev, former Israeli military attaché to Iran, Tel Aviv, October 17, 2004.
5 Samuel Segev, *The Iranian Triangle* (New York: Free Press, 1988), 232.
6 "U.S. Rejects Rabin Suggestion on Better Relations with Iran," Associated Press, October 29, 1987. Alpher, "Israel and the Iraq-Iran War," 162.
7 Behrouz Souresrafil, *Khomeini and Israel* (London: Researchers, 1988), 114.
8 Alpher, "Israel and the Iraq-Iran War," 163.
9 *AIC Insight* 2 (September 2004). Souresrafil, *Khomeini and Israel*, 114.
10 Alpher, "Israel and the Iraq-Iran War," 159–160. Sohrab Sobhani, *The Pragmatic Entente: Israeli-Iranian Relations, 1948–1988* (New York: Praeger, 1989), 157.
11 Interview with Segev, October 17, 2004.
12 Interview with Javad Zarif, Iran's ambassador to the UN, New York, April 1, 2004.
13 Interview with Eliezer Tsafrir, Tel Aviv, October 16, 2004.
14 Farhang Rajaee, *The Iraq-Iran War: The Politics of Aggression* (Gainesville: University Press of Florida, 1993), 1, 206.

15 Moshe Zak, *Maariv*, August 1, 1988. Cited in Alpher, "Israel and the Iraq-Iran War," 165.

16 Efraim Imbar, "Yitzhak Rabin and Israeli National Security," *Security and Policy Studies*, No. 25, Begin-Sadat (BESA) Center for Strategic Studies, http://www.biu.ac.il/Besa/books/25/analysis.html.

17 Nicolas Tatro, "End of Iraq-Iran War Would Be Bad News for Israel," Associated Press, July 20, 1988.

18 Sobhani, *Pragmatic Entente*, 152.

19 Alpher, "Israel and the Iraq-Iran War," 165. Tamir and Saguy were supported by a pro-Iraq lobby in Washington that sought to convince Israeli leaders that Saddam Hussein's rule was beneficial to Israel. Even before the end of the war, an attempt had been made to align Israel with Washington's thaw with Saddam Hussein. The Jewish State "should develop a pro-Iraqi orientation, which may bear political fruit in the long run," a senior Israeli political source told the Israeli daily *Hadashot* in November 1987. "In recent months, senior Iraqi officials have indicated a willingness to examine the possibility of changing the policy towards Israel if the latter supports Iraq in the [Persian] Gulf War." David Kimche, *The Last Option* (New York: Maxwell Macmillan International, 1991), 231. Ilan Kfir, *Hadashot*, November 13, 1987.

20 Nick Luddington, "Iraq, Israel Call for Closer Ties with Iran; U.S. Wants Hostages Freed," Associated Press, June 5, 1989.

21 "Israel Bought Oil from Iran," Associated Press, December 19, 1989.

22 "State Department: Israel Informed U.S. About Resuming Oil Purchases from Iran," *Jerusalem Post*, December 20, 1989.

23 "Israel-Iran Oil-POW Deal Reported," *World News Digest*, December 31, 1989.

24 "Iran Denies Oil Sold to Israel," Associated Press, December 20, 1989.

25 "IDF Radio Says Israel Made 2.5m Dollar Profit in Oil Deal with Iran," *BBC*, February 22, 1990.

26 Interview with Iranian political strategist, March 2004.

27 "The Gulf Challenges of the Future," Emirates' Center for Strategic Studies and Research, 2005, 163–183.

28 Yahya Sadowski, *Scuds or Butter? The Political Economy of Arms Control in the Middle East* (Washington, D.C.: Brookings Institution, 1993), 63. Anoushiravan Ehteshami, *After Khomeini* (London: Routledge, 1995), 140.

29 Interview with Gary Sick, New York, February 25, 2004.

30 Interview with Abbas Maleki, Tehran, August 1, 2004.

31 Ehteshami, *After Khomeini*, 140.

32 Sadowski, *Scuds or Butter?*, 62.

33 Giandomenico Picco, *Man Without a Gun* (New York: Random House, 1999), 110, 113–114.

34 Interview with Mustafa Zahrani of the Iranian Foreign Ministry, New York, February 26, 2004. Anoushiravan Ehteshami and Raymond Hinnebusch, *The Foreign Policies of Middle East States* (London: Lynne Rienner, 2002), 300, 302.

35 Interview with Zarif, April 1, 2004.

36 Ehteshami, *After Khomeini*, 142. Hooshang Amirahmadi, "The Spiraling Gulf Arms Race," *Middle East Insight* 2 (1994): 48.

37 Shireen Hunter, *Iran After Khomeini* (New York: Praeger, 1992), 131.

38 Interview with former National Security Advisor Brent Scowcroft, Washington, D.C., September 27, 2004.

39 Interview with Deputy Foreign Minister Hadi Nejad-Hosseinian, Tehran, August 12, 2004.

40 Interview with Ali Reza Alavi Tabar, Tehran, August 21, 2004. Interview with Gen. Amnon Lipkin-Shahak, Tel Aviv, October 25, 2004.

41 Interview with adviser to the Iranian National Security Advisor, Tehran, August 2004.

42 Interview with former Deputy Foreign Minister Mahmoud Vaezi, Tehran, August 16, 2004. (The Iranian government views its rhetoric simply as an expression of opinion and not necessarily an action plan. This enables Iran to pursue one policy while portraying itself as the champion of a completely different policy.)

43 Interview with former member of Parliament and lead reformist strategist Mohsen Mirdamadi, Tehran, August 22, 2004.

Epigraph: Interview with U.S. Ambassador Daniel Kurtzer, Tel Aviv, October 19, 2004.

1 David Kimche, *The Last Option* (New York: Maxwell Macmillan International, 1991), 236.

2 Interview with former National Security Advisor Brent Scowcroft, Washington, D.C., September 27, 2004.

3 Efraim Halevi, *Man in the Shadows* (New York: St. Martin's, 2006), 33–34.

4 Phone interview with Efraim Halevi, former head of the Mossad, June 17, 2006.

5 Kimche, *Last Option*, 236.

6 The Iranian intelligence services even alerted the Kuwaiti government hours before the Iraqis attacked. Ibid., 233.

7 Shireen Hunter, *Iran After Khomeini* (New York: Praeger, 1992), 126.

8 Paul J. White and William S. Logan, *Remaking the Middle East* (New York: Berg, 1997), 201.

9 John Esposito and R. K. Ramazani, *Iran at the Crossroads* (New York: Palgrave, 2001), 220.

10 Interview with former Deputy Foreign Minister Mahmoud Vaezi, Tehran, August 16, 2004.

11 For a discussion on the significance of Secretary Baker's statement, see R. K. Ramazani, "Move Iran Outside the 'Axis,'" *Christian Science Monitor*, August 19, 2002.

12 Anoushiravan Ehteshami, *After Khomeini* (London: Routledge, 1995), 160. Shahram Chubin, "Iran's Security Policy in the Post-Revolutionary Era," *RAND* (2001), 12. Interview with Mustafa Zahrani of the Iranian Foreign Ministry, New York, February 26, 2004.

13 Esposito and Ramazani, *Iran at the Crossroads*, 151. David Menashri, *Post-Revolutionary Politics in Iran* (London: Frank Cass, 2001), 252. White and Logan, *Remaking the Middle East*, 209. This remarkable shift was captured in a statement by Iran's foreign minister, Ali Akbar Velayati, while on a visit to Moscow in March 1996. Iranian-Russian relations, Velayati said, were "at their highest level in contemporary history." *RAND*, March 7, 1996. Esposito and Ramazani, *Iran at the Crossroads*, 7. Rather than exporting its Islamic revo-

lution to the newly freed states of central Asia, Iran pursued a pro–status quo policy based on economic exchange and cultural—rather than religious—affinity.

14 Ahmed Rashid, *Taliban: Militant Islam, Oil, and Fundamentalism in Central Asia* (New Haven: Yale University Press, 2000).

15 Interview with Amir Mohebian, Tehran, August 19, 2004. The statement resembles the title of one of Khairallah Talfah's pan-Arab writings (Talfah was Saddam Hussein's uncle): "Three things God should not have created: Jews, Persians and mosquitoes."

16 Interview with Mohammad Reza Dehshiri, head of Regional Studies Department, School of International Relations, Iranian Foreign Ministry, Tehran, August 24, 2004.

17 Interview with Mohammad Reza Tajik, counselor to President Khatami and director of the Strategic Studies Center of the President's Office, Tehran, August 25, 2004.

18 Anoushiravan Ehteshami and Raymond Hinnebusch, *The Foreign Policies of Middle East States* (London: Lynne Rienner, 2002), 83. Interview with Iranian political strategist, March 2004.

19 Chubin, "Iran's Security Policy." Interview with Nasser Hadian, reformist strategist in Iran, New York, February 26, 2004.

20 Interview with Javad Zarif, Iran's ambassador to the UN, New York, April 1, 2004.

21 Presentation by Shahram Chubin, Woodrow Wilson Center for International Scholars, November 9, 2004.

22 Interview with Vaezi, August 16, 2004.

23 Interview with Shmuel Limone, Ministry of Defense, secretary of Israel's Iran committee, Tel Aviv, October 18, 2004.

24 *Jerusalem Post*, October 1, 1997.

25 Interview with Mahmoud Sariolghalam, professor at Shahid Beheshti University and adviser to the Iranian National Security Advisor, August 18, 2004, Tehran.

26 Kenneth Pollack, *The Persian Puzzle* (New York: Random House, 2004), 259.

27 Dafna Linzer, "Iran Is Judged 10 Years from Nuclear Bomb," *Washington Post*, August 2, 2005.

28 IAEA Resolution GOV/2006/14, February 4, 2006.

29 Menashri, *Post-Revolutionary Politics in Iran*, 297.

30 Interview with Iranian political strategist, February 2004.

31 Interview with Zarif, April 1, 2004.

32 Interview with Vaezi, August 16, 2004.

33 Interview with Ali Reza Alavi Tabar, Tehran, August 21, 2004.

34 Christopher Boucek, "An Impact Greater Than Its Size: Israeli Foreign Policy in Central Asia," master's thesis, 1999, School of Oriental and African Studies, University of London, 9. Interview with Mustafa Zahrani of the Iranian Foreign Ministry, New York, February 26, 2004.

35 Ehteshami, *After Khomeini*, 154.

36 White and Logan, *Remaking the Middle East*, 203. Hunter, *Iran After Khomeini*, 133. Esposito and Ramazani, *Iran at the Crossroads*, 217. Interview with Gary Sick, New York, February 25, 2004.

37 Hunter, *Iran After Khomeini*, 136. Interview with Siamak Namazi, Atieh Bahar Consulting, Tehran, August 2, 2004.

38 Interview with Scowcroft, September 27, 2004. White and Logan, *Remaking the Middle East*, 202.

39 Hooshang Amirahmadi, "The Spiraling Gulf Arms Race," *Middle East Insight* 2 (1994): 48.
40 Interview with Tabar, August 21, 2004.
41 Amirahmadi, "The Spiraling Gulf Arms Race," 49.
42 Interview with Ambassador Nabil Fahmi, Washington, D.C., October 12, 2004.
43 James Baker, *The Politics of Diplomacy* (New York: Putnam, 1995), 412.
44 Amirahmadi, "The Spiraling Gulf Arms Race," 49. White and Logan, *Remaking the Middle East*, 204.
45 Interview with Shlomo Brom, Jaffee Center for Strategic Studies, Tel Aviv, October 26, 2004. "Israel's strategic position was very much improved," said Ephraim Kam of the Jaffee Center for Strategic Studies at Tel Aviv University. "The collapse of the Soviet Union was very important in the end." Interview with Ephraim Kam, Jaffee Center for Strategic Studies, Tel Aviv, October 26, 2004.
46 Interview with Eynat Shlein, Israeli embassy in Washington, June 1, 2004. Interview with Kam, October 26, 2004.
47 Interview with Ehud Yaari, Jerusalem, October 24, 2004.
48 Max Abrahms, "A Window of Opportunity for Israel?" *Middle East Quarterly* (Summer 2003).
49 Phone interview with Halevi, June 17, 2006.
50 Interview with Israel's former Minister of Finance Dan Meridor, Tel Aviv, October 27, 2004.
51 Interview with Keith Weissman of American Israel Public Affairs Committee (AIPAC), Washington, D.C., March 25, 2004. The war showed that "there is no such thing as Arab unity," according to an Israeli diplomat at the Israeli UN Mission who spoke on condition of nonattribution. Interviewed March 31, 2004, New York.
52 Interview with Brom, October 26, 2004.
53 Interview with Ambassador Daniel Kurtzer, Tel Aviv, October 19, 2004.
54 Interview with Yaari, October 24, 2004.
55 Uri Savir, *The Process: 1,100 Days That Changed the Middle East* (New York: Random House, 1998), 27.
56 David W. Lesch, *The Middle East and the United States* (Boulder: Westview, 2003), 278.
57 Interview with Shai Feldman and Shlomo Brom, Jaffee Center for Strategic Studies, Tel Aviv, October 26 and 27, 2004.
58 Baker, *Politics of Diplomacy*, 415, 428.
59 Halevi, *Man in the Shadows*, 33–34.
60 Baker, *Politics of Diplomacy*, 117, 123, 129.
61 Barry Rubin, "The United States and the Middle East, 1992," *Middle East Contemporary Survey* (1992).
62 Baker, *Politics of Diplomacy*, 423, 125, 131.
63 Phone interview with Halevi, June 17, 2006.
64 Interview with Kurtzer, October 19, 2004.
65 Baker, *Politics of Diplomacy*, 444.
66 Interview with Ambassador Dennis Ross, Washington, D.C., May 29, 2004.
67 Interview with Kenneth Pollack, Washington, D.C., November 29, 2004.
68 Interview with Assistant Secretary of State Robert Pelletreau, Washington, D.C., March 1, 2004.

69 Interview with Scowcroft, September 27, 2004.
70 Interview with Pelletreau, March 1, 2004. Interview with Ross, May 29, 2004.
71 Interview with Scowcroft, September 27, 2004.
72 Interview with Israeli diplomat who spoke on condition of nonattribution, New York, March 31, 2004.
73 Interview with Kurtzer, October 19, 2004.
74 Interview with Tabar, August 21, 2004. "We could have played a positive role in the region. We expected much better behavior [from the United States]," Tabar recalled.
75 Ehteshami and Hinnebusch, *Foreign Policies of Middle East States*, 302.
76 Pollack, *Persian Puzzle*, 254.
77 Ehteshami, *After Khomeini*, 157. Interview with Bijan Khajepour, Atieh Bahar Consulting, Washington, D.C., February 17, 2004.
78 Emma Murphy, "The Impact of the Arab-Israeli Peace Process on the International Security and Economic Relations of the Persian Gulf," *The Iranian Journal of International Affairs* 2 (Summer 1996): 441.
79 Interview with Deputy Foreign Minister Hadi Nejad-Hosseinian, Tehran, August 12, 2004.
80 Interviews with Nejad-Hosseinian, August 12, 2004; Tabar, August 21, 2004; Tajik, August 25, 2004; Namazi, August 2, 2004; and Bijan Khajepour, February 17, 2004. Additional officials who spoke on condition of nonattribution confirmed this.
81 Interview with Namazi, August 2, 2004.
82 Interview with Tajik, August 25, 2004.
83 Fearing that Iraq's disintegration would leave Iran completely unchecked, Washington decided to keep Saddam in power in order to balance Iran. Pollack, *The Persian Puzzle*, 247.
84 Interview with Col. Lawrence Wilkerson, former U.S. Secretary of State Colin Powell's chief of staff, Washington, D.C., October 16, 2006.
85 Interview with Namazi, August 2, 2004.
86 Interview with Masoud Eslami of the Iranian Foreign Ministry, Tehran, August 23, 2004.
87 Interview with Tajik, August 25, 2004. Overall, more than a dozen Iranian officials from all political factions confirmed that Iran was willing to participate in the Madrid conference and that its behavior would have been more conciliatory had it been invited to the conference.
88 Interview with Iranian political strategist, August 2004.
89 Interview with Tabar, August 21, 2004. Interview with Mohebian, August 19, 2004.
90 Interview with Tajik, August 25, 2004.
91 Interview with Ross, May 29, 2004.
92 Interview with Mohebian, August 19, 2004.
93 Interview with Tabar, August 21, 2004. Interview with Mohebian, August 19, 2004.
94 R. K. Ramazani, review of Mahmoud Sariolghalam's *The Foreign Policy of the Islamic Republic*, in *Discourse: An Iranian Quarterly* 2 (2001): 216. Interview with Mohebian, August 19, 2004.
95 *Ettela'at*, September 11, 1993.
96 Interview with Israeli diplomat who spoke on condition of nonattribution, New York, March 31, 2004.

الفصل 14: مقايضة الأعداء

Epigraph: Interview with Efraim Inbar, Begin-Sadat Center, Jerusalem, October 19, 2004.

1 The damage to Palestinian society was far greater, though, with thousands held under harsh conditions in administrative detention. In addition, the occupied territories were suffering a steep economic decline brought about by the conflict and greatly worsened by Israeli closure during the Persian Gulf War, which had a devastating impact on Palestinians, who up to that point had been overwhelmingly dependent on jobs inside Israel.

2 Uri Savir, *The Process: 1,100 Days That Changed the Middle East* (New York: Random House, 1998), 22.

3 David Makovsky, *Making Peace with the PLO* (Boulder: Westview, 1996), 108.

4 Interview with Israel's former Minister of Finance Dan Meridor, Tel Aviv, October 27, 2004.

5 According to Savir, "The occupation had been forced upon Israel in 1967," and Israel needed to break out of Jabotinsky's "Iron-Wall." Savir, *The Process*, 13, 23.

6 Interview with Itamar Rabinovich, former adviser to Rabin and Israeli ambassador to the United States, Tel Aviv, October 17, 2004.

7 Makovsky, *Making Peace with the PLO*, 83.

8 Max Abrahms, "A Window of Opportunity for Israel?," *Middle East Quarterly* (Summer 2003).

9 Shimon Peres, *The New Middle East* (New York: Henry Holt, 1993), 3. Interview with Shai Feldman, Jaffee Center for Strategic Studies, Tel Aviv, October 27, 2004.

10 Interview with Gen. David Ivry, head of Israel's Iran committee, Tel Aviv, October 19, 2004.

11 Interview with former National Security Advisor Brent Scowcroft, Washington, D.C., September 27, 2004. "On the Brink," *Near East Report*, Washington Institute for Near East Affairs, May 12, 1993.

12 Israel Shahak, *Open Secrets—Israeli Nuclear and Foreign Policies* (London: Pluto, 1997), 82–83.

13 Interviews with Eynat Shlein, First Secretary, Embassy of Israel, Washington, D.C., June 1, 2004; Feldman, October 27, 2004; and Michael Eisenstadt, Washington Institute for Near East Policy, Washington, D.C., June 2, 2004.

14 David W. Lesch, *The Middle East and the United States* (Boulder: Westview, 2003), 277. Interview with Ambassador Dennis Ross, Washington, D.C., May 29, 2004.

15 Peres, *New Middle East*, 12.

16 Emma Murphy, "The Impact of the Arab-Israeli Peace Process on the International Security and Economic Relations of the Persian Gulf," *The Iranian Journal of International Affairs* 2 (Summer 1996): 428, 432–433.

17 Adam Garfinkle, *Politics and Security in Modern Israel* (London: M. E. Sharpe, 2000), 271.

18 Peres, *New Middle East*, 146.

19 Anoushiravan Ehteshami and Raymond Hinnebusch, *The Foreign Policies of Middle East States* (London: Lynne Rienner, 2002), 77.

20 Barry Rubin, *From War to Peace in Arab-Israeli Relations 1973–1993* (New York: New

York University Press, 1994), 4. Makovsky, *Making Peace with the PLO,* 11. Interview with Eisenstadt, June 2, 2004.

21 Charles Smith, *Palestine and the Arab-Israeli Conflict* (Boston: Bedford/St. Martin's, 2001), 440. Savir, *The Process,* 5. Makovsky, *Making Peace with the PLO,* 108. David Kimche, *The Last Option* (New York: Maxwell Macmillan International, 1991), 314.

22 Phone interview with Efraim Halevi, former head of Mossad, June 17, 2006.

23 Smith, *Palestine and the Arab-Israeli Conflict,* 441. Peres, *New Middle East,* 19.

24 Interview with Keith Weissman of American Israel Public Affairs Committee (AIPAC), Washington, D.C., March 25, 2004. Shimon Peres, *Battling for Peace* (New York: Random House, 1995), 284. Peres, *New Middle East,* 2–3.

25 Smith, *Palestine and the Arab-Israeli Conflict,* 440.

26 Makovsky, *Making Peace with the PLO,* 113. Hamas's ascendancy had a decisive impact on Rabin's realization that the long-standing Israeli position of not negotiating with the PLO had to be softened. Herbert C. Kelman, "Some Determinants of the Oslo Breakthrough," *International Negotiation* 2 (1997): 188.

27 Peres, *New Middle East,* 19. Barry Rubin, "The United States and the Middle East, 1992," *Middle East Contemporary Survey* 16 (1992). Makovsky, *Making Peace with the PLO,* 83.

28 Kelman, "Some Determinants of the Oslo Breakthrough," 188.

29 Peres, *New Middle East,* 33–34.

30 Interview with David Kimche, Tel Aviv, October 22, 2004.

31 Murphy, "Impact of the Arab-Israeli Peace Process," 437.

32 Makovsky, *Making Peace with the PLO,* 112. Ambassador Dennis Ross explained the Israeli shift as follows: When "there was a different Iran, you tried to create connections with Iran to counteract what were the threats closer to you. Now [Rabin] was trying to build [a] buffer of states between Israel and the potential threat to Israel [from Iran] . . . [because] the new threat came from the periphery." Interview with Ross, May 29, 2004.

33 Joseph Alpher, "Israel and the Iraq-Iran War," in *The Iraq-Iran War: Impact and Implications,* ed. Efraim Karsh (New York: St. Martin's, 1989), 164, 167n14.

34 Interview with former Minister of Defense Moshe Arens, Tel Aviv, October 21, 2004. One of the thirty-nine Iraqi Scuds that Saddam Hussein launched against Israel hit Moshe Arens's house north of Tel Aviv.

35 Interview with David Menashri, professor at Tel Aviv University, Tel Aviv, October 26, 2004. Interview with Yossi (Joseph) Alpher, former Mossad official and senior adviser to Ehud Barak, Tel Aviv, October 27, 2004.

36 Interview with Alpher, October 27, 2004.

37 Shahak, *Open Secrets,* 54.

38 "Iran Looms as a Growing Strategic Threat for Israel," *Jerusalem Post,* November 21, 1991.

39 Interview with Ephraim Sneh, member of Knesset, Tel Aviv, October 31, 2004.

40 Ephraim Sneh, "An Asymmetrical Threat," *Haaretz,* February 7, 2004.

41 Interview with leading Israeli military commentator, who spoke on condition of anonymity, Tel Aviv, October 17, 2004.

42 Peres, *New Middle East,* 43.

43 AFP, February 12, 1993.
44 "Israel Seeking to Convince U.S. That West Is Threatened by Iran," *Washington Post,* March 13, 1993.
45 Interview with Gary Sick, New York, February 25, 2004.
46 "Israel Focuses on the Threat Beyond the Periphery," *New York Times,* November 8, 1992.
47 Interview with Assistant Secretary of State Robert Pelletreau, Washington, D.C., March 1, 2004.
48 Israel Shahak, "How Israel's Strategy Favors Iraq over Iran," *Middle East International,* No. 446, March 19, 1993, 91.
49 Shai Feldman, "Confidence Building and Verification: Prospects in the Middle East," *JCSS Study* 25 (1994): 167. "Iran Is Going Nuclear, Israel Says," Reuters, September 17, 1992.
50 Reuters, October 25, 1992. "Iran Greatest Threat, Will Have Nukes by '99," Associated Press, February 12, 1993. No evidence had been found at the time that Iran was developing nuclear weapons. To this day Iran has not convinced the IAEA that its nuclear program is solely for peaceful purposes, yet the IAEA has not found evidence of a weapons program, either.
51 Peres, *New Middle East,* 41, 42, 63, 81, 82.
52 Interview with Shmuel Limone, Ministry of Defense, secretary of Israel's Iran committee, Tel Aviv, October 18, 2004.
53 Feldman, "Confidence Building and Verification," 25.
54 Peres, *New Middle East,* 19, 41.
55 Interview with Menashri, October 26, 2004. Menashri was also a member of the Israeli committee on Iran.
56 Interview with David Makovsky, Washington Institute for Near East Policy, Washington, D.C., June 3, 2004.
57 Interview with Shmuel Bar, Tel Aviv, October 18, 2004.
58 Interview with Shlein, June 1, 2004.
59 Peres, *New Middle East,* 19. Shahak, *Open Secrets,* 91. Interview with Ivry, October 19, 2004.
60 Peres, *New Middle East,* 83.
61 "Israel Seeking to Convince U.S. That West Is Threatened by Iran," *Washington Post,* March 13, 1993.
62 "Israel Focuses on the Threat Beyond the Periphery," *New York Times,* November 8, 1992.
63 Interview with Sneh, October 31, 2004.
64 Interview with Kenneth Pollack, Washington, D.C., November 29, 2004.
65 Interview with Weissman, March 25, 2004.
66 Interview with Scowcroft, September 27, 2004.
67 Interview with Ambassador Nabil Fahmi, Washington, D.C., October 12, 2004.
68 Interviews with Bader Omar Al-Dafa, Qatar's ambassador to the United States, Washington, D.C., May 26, 2004; and Fahmi, October 12, 2004.
69 Interview with Israeli diplomat who spoke on condition of nonattribution, New York, March 31, 2004.
70 Feldman, "Confidence Building and Verification," 168. Interview with Dore Gold,

Jerusalem, October 28, 2004. Gold argued that though the military edge was necessary for Israel's survival, it was purely a defensive strategy with no hegemonic ambitions in the political or cultural sense.

71 Interview with Shlomo Brom, Jaffee Center for Strategic Studies, Tel Aviv, October 26, 2004.

72 Yahya Sadowski, *Scuds or Butter? The Political Economy of Arms Control in the Middle East* (Washington, D.C.: Brookings Institution, 1993), 64–65.

73 Paul J. White and William S. Logan, *Remaking the Middle East* (New York: Berg, 1997), 208.

74 Ehteshami and Hinnebusch, *Foreign Policies of Middle East States*, 85.

75 World Military Expenditures and Arms Transfers, U.S. Department of State, Bureau of Verification and Compliance.

76 Interview with former Assistant Secretary of State Martin Indyk, Washington, D.C., March 4, 2004.

77 Eric Margolis, "Israel and Iran: The Best of Enemies," *Toronto Sun*, July 5, 1998.

78 Interview with Weissman, March 25, 2004.

79 Interview with Brom, October 26, 2004.

80 Interview with Ranaan Gissin, Jerusalem, October 31, 2004.

81 Interview with Weissman, March 25, 2004.

82 White and Logan, *Remaking the Middle East*, 205–207.

83 Interview with Fahmi, October 12, 2004.

84 Interview with Barry Rubin, Global Research in International Affairs Center, Tel Aviv, October 18, 2004.

85 Phone interview with Halevi, June 17, 2006.

86 Interview with Israeli expert on Iran who spoke on condition of anonymity, Tel Aviv, October 30, 2004.

87 Interview with Brom, October 26, 2004.

88 AFP, April 5, 1993.

89 Interview with Gen. Amnon Lipkin-Shahak, Tel Aviv, October 25, 2004.

90 Shahak, *Open Secrets*, 82–83.

91 Feldman, "Confidence Building and Verification," 167.

92 Ehteshami and Hinnebusch, *Foreign Policies of Middle East States*, 123.

93 Ehud Sprinzak, "Revving Up an Idle Threat," *Haaretz*, September 29, 1998.

94 Ephraim Kam, lecture at Tel Aviv University, February 2004.

95 Interview with Makovsky, June 3, 2004.

96 Makovsky, *Making Peace with the PLO*, 112.

97 Interview with Ehud Yaari, Jerusalem, October 24, 2004. Israel had to agree to "painful concessions" with its immediate neighbors in order to face the "unattractive cocktail presented by Iran, namely fanaticism, deliberate use of international terrorism, and development of WMDs and means of delivery," Rabin's adviser Rabinovich noted. Interview with Rabinovich, October 17, 2004.

98 Interview with Ross, May 29, 2004.

99 Jim Lobe, "'Strategic Consensus' Redux?" *IPS*, October 4, 2006.

100 "Peres Says Iran Greatest Threat to Arabs," Reuters, November 28, 1993.

101 Peres, *New Middle East*, 91, 146.

102 Radio Monte Carlo, May 16, 1996.

103 Interview with Fahmi, October 12, 2004.
104 Interview with Rabinovich, October 17, 2004.
105 Interview with Efraim Inbar, Begin-Sadat Center, Jerusalem, October 19, 2004.
106 Interview with Makovsky, June 3, 2004.
107 Interview with Indyk, March 4, 2004.
108 Interview with Feldman, October 27, 2004.
109 Interview with Yaari, October 24, 2004.
110 "Israel Seeking to Convince U.S. That West Is Threatened by Iran," *Washington Post*, March 13, 1993.
111 Interview with Inbar, October 19, 2004.
112 Murphy, "Impact of the Arab-Israeli Peace Process," 426.
113 Interview with former National Security Advisor Anthony Lake, Washington, D.C., April 5, 2004.
114 Gary Sick, "The Future of U.S.-Iran Relations," *Middle East Economic Survey*, 21 June 1999, D1-D6.
115 F. Gregory Gause III, "The Illogic of Dual Containment," *Foreign Affairs*, March/April 1994.
116 Kenneth Pollack, *The Persian Puzzle* (New York: Random House, 2004), 263.
117 Interview with Pelletreau, March 1, 2004.
118 Interview with Scowcroft, September 27, 2004.
119 Interview with senior State Department official who spoke on condition of nonattribution, October 2004.

الفصل 15: من السلام البارد إلى الحرب الباردة

Epigraph: *Mideast Mirror*, March 10, 1995.
1 Shahram Chubin, "Iran's Security Policy in the Post-Revolutionary Era," *RAND* (2001), 10. Interview with Ali Reza Alavi Tabar, Tehran, August 21, 2004.
2 Interview with Deputy Foreign Minister Hadi Nejad-Hosseinian, Tehran, August 12, 2004.
3 Interview with Abbas Maleki, Tehran, August 1, 2004.
4 Interview with Mohammad Reza Dehshiri, head of Regional Studies Department, School of International Relations, Iranian Foreign Ministry, Tehran, August 24, 2004. R. K. Ramazani, review of Mahmoud Sariolghalam's *The Foreign Policy of the Islamic Republic*, in *Discourse: An Iranian Quarterly* 2 (2001): 216.
5 Interview with Mahmoud Sariolghalam, professor at Shahid Beheshti University and adviser to the Iranian National Security Advisor, August 18, 2004, Tehran.
6 Ephraim Kam, speech given at Tel Aviv University, February 10, 2004.
7 Interview with Tabar, August 21, 2004.
8 Interview with Amir Mohebian, Tehran, August 19, 2004.
9 Interview with Nejad-Hosseinian, August 12, 2004.
10 Interviews with Mohebian, August 19, 2004; and Sariolghalam, August 18, 2004.
11 Interview with Davoud Hermidas-Bavand, professor at Shahid Beheshti University and former Iranian diplomat, Tehran, August 8, 2004.
12 Interview with Nejad-Hosseinian, August 12, 2004.
13 David Menashri, "Revolution at a Crossroads," Policy Paper 43, Washington Institute

for Near East Policy, 1997, 81. Shaul Bakhash, "Iran: Slouching Towards the 21," in *The Middle East Enters the Twenty-First Century*, ed. Robert O. Freedman (Gainesville: University Press of Florida, 2002), 57–58.

14 Interview with Mohammad Reza Tajik, counselor to President Khatami and director of Strategic Studies Center of the President's Office, Tehran, August 25, 2004.

15 Clark Staten, "Israeli-PLO Peace Agreement—Cause of Further Terrorism?," *Emergency-Net NEWS*, October 12, 1993.

16 Interview with Masoud Eslami of the Iranian Foreign Ministry, Tehran, August 23, 2004.

17 Reuters, March 5, 1994.

18 Interview with Hermidas-Bavand, August 8, 2004.

19 Interviews with Tajik, August 25, 2004; and A. A. Kazemi, former Iranian diplomat during the early years of the Khomeini regime, Tehran, August 16, 2004.

20 Interview with Mustafa Zahrani of the Iranian Foreign Ministry, New York, February 26, 2004.

21 Interview with Hermidas-Bavand, August 8, 2004.

22 Interview with Tabar, August 21, 2004.

23 Interview with Eslami, August 23, 2004.

24 Interview with Tabar, August 21, 2004.

25 Houchang Chehabi, *Distant Relations: Iran and Lebanon in the Last 500 Years* (New York: I. B. Tauris, 2006), 230.

26 Robert O. Freedman, *The Middle East Enters the Twenty-First Century* (Gainesville: University Press of Florida, 2002), 58. Interview with Shlomo Brom, Jaffee Center for Strategic Studies, Tel Aviv, October 26, 2004.

27 Interview with Iranian political strategist, March 2004.

28 Interview with Brom, October 26, 2004. "Only much later they started to have [*sic*] some kind of relationship with Hamas, although until now I think their relationship with Hamas is much weaker than with the other Islamic groups. . . . But in 1991 it was mainly the Hezbollah."

29 Interview with Ambassador Nabil Fahmi, Washington, D.C., October 12, 2004.

30 "Iran Blasts the PLO," *Washington Post*, April 30, 1994.

31 Marc Perelman, "Israeli Report Calls Argentina Bombing Payback for '92 Raid," *Forward*, July 22, 2005.

32 Interview with Itamar Rabinovich, former adviser to Rabin and Israeli ambassador to the United States, Tel Aviv, October 17, 2004.

33 Interview with Gen. Amnon Lipkin-Shahak, Tel Aviv, October 25, 2004. "Iran began to engage in anti-Israeli global terrorism with the destruction in Argentina, in 1994," Rabinovich recalled. "Terrorism as a global issue became a big issue from our point of view with Iran since 1994." Interview with Rabinovich, October 17, 2004.

34 Interview with Yossi (Joseph) Alpher, former Mossad official and senior adviser to Ehud Barak, Tel Aviv, October 27, 2004.

35 Phone interview with Efraim Halevi, former head of Mossad, June 17, 2006.

36 Interview with Brom, October 26, 2004. "In the suicide bombing that started in 1994–1995, Iran was quite active in pushing the Islamic Jihad to initiate many of these kinds of actions," Brom said.

37 Interview with Rabinovich, October 17, 2004.
38 The State Department provides details regarding the MKO's terrorist activities on its Web site, http://www.state.gov/s/ct/rls/fs/2001/6531.htm.
39 "Iranian Opposition Approaches Israel," *Voice of Israel*, May 1, 1995. "While Israel did not identify itself with the opponents of the Tehran regime," said Nisim Zvili, the Labor Party secretary-general, "it supported the political campaign to halt any assistance to the incumbent Iranian government."
40 Interview with David Menashri, professor at Tel Aviv University, Tel Aviv, October 26, 2004.
41 Interview with leading Israeli military commentator who spoke on condition of anonymity, Tel Aviv, October 17, 2004.
42 Iran-Interlink, http://www.iran-interlink.org/files/News3/May05/interlink040505.htm. The Israeli companies were Intergama Investment group and Kardan Group, using the REEM Teleport and Tel-Aviv Teleport satellites.
43 Anoushiravan Ehteshami and Raymond Hinnebusch, *The Foreign Policies of Middle East States* (London: Lynne Rienner, 2002), 82. Interview with Ephraim Sneh, member of Knesset, Tel Aviv, October 31, 2004. Interview with former Minister of Defense Moshe Arens, Tel Aviv, October 21, 2004.
44 David Makovsky, *Making Peace with the PLO* (Boulder: Westview, 1996), 112.
45 Interview with Menashri, October 26, 2004.
46 Interview with Rabinovich, October 17, 2004.
47 Interview with Israeli diplomat who spoke on condition of nonattribution, Tel Aviv, October 18, 2004.
48 Interview with Ephraim Kam, Jaffee Center for Strategic Studies, Tel Aviv, October 26, 2004.
49 Interview with Efraim Inbar, Begin-Sadat Center, Jerusalem, October 19, 2004.
50 Shai Feldman, *Confidence Building and Verification: Prospects in the Middle East*, JCSS Study No. 25 (Tel Aviv: Jaffee Center for Strategic Studies, 1994), 199.
51 Israel Shahak, *Open Secrets—Israeli Nuclear and Foreign Policies* (London: Pluto, 1997), 64.
52 Eric Margolis, "Israel and Iran: The Best of Enemies," *Toronto Sun*, July 5, 1998.
53 Mahmoud Sariolghalam, "Iranian Perceptions and Responses," *Journal of Political and Military Sociology* 29 (2001): 297.
54 Phone interview with Soli Shavar, Haifa, October 28, 2004.
55 Interview with Gen. David Ivry, head of Israel's Iran committee, Tel Aviv, October 19, 2004.
56 Interview with Gen. Amos Gilad, Tel Aviv, October 31, 2004.
57 Giandomenico Picco, *Man Without a Gun* (New York: Random House, 1999), 232.
58 Interview with Yitzak Segev, former Israeli military attaché to Iran, Tel Aviv, October 17, 2004.
59 Interview with Ehud Yaari, Jerusalem, October 24, 2004.
60 Interview with former Israeli Minister of Finance Dan Meridor, Tel Aviv, October 27, 2004.
61 Interview with Shai Feldman, Jaffee Center for Strategic Studies, Tel Aviv, October 27, 2004.
62 Interview with Gilad, October 31, 2004.

63 Interview with Rabinovich, October 17, 2004.

64 Interview with Alpher, October 27, 2004. "There was a fear that if America talks to Iran, Israel will be left out in the cold," explained Gerald Steinberg, professor at Bar Ilan University in Israel. "The Great Satan will make up with Iran and forget about Israel." Interview with Gerald Steinberg, Jerusalem, October 28, 2004.

65 Interview with Israeli diplomat who spoke on condition of nonattribution, Tel Aviv, October 18, 2004.

66 In 1998 and 1999, for example, Fortune named American Israel Public Affairs Committee (AIPAC) the second most powerful lobby in Washington after AARP (American Association for Retired Persons). On July 6, 1987, the *New York Times* described AIPAC as "a major force in shaping United States policy in the Middle East." The article also stated that "the organization has gained power to influence a presidential candidate's choice of staff, to block practically any arms sale to an Arab country, and to serve as a catalyst for intimate military relations between The Pentagon and the Israeli army. Its leading officials are consulted by State Department and White House policy makers, by senators and generals." David K. Shipler, "On Middle East Policy, a Major Influence," *New York Times*, July 6, 1987.

67 Interview with Alpher, October 27, 2004.

68 Samuel Segev, *Crossing the Jordan* (New York: St. Martin's, 1998), ch. 1.

69 Interview with Jess Hordes, director of the Anti-Defamation League's Washington office, Washington, D.C., March 24, 2004.

70 Interview with Alpher, October 27, 2004.

71 Segev, *Crossing the Jordan*, ch. 1.

72 Interview with Hordes, March 24, 2004.

73 Farideh Farhi, "Economic Statecraft or Interest Group Politics: Understanding U.S. Sanctions on Iran," *The Iranian Journal of International Affairs* 1 (Spring 1997): 67.

74 Interview with Feldman, October 27, 2004.

75 Shahak, *Open Secrets*, 84.

76 Efraim Karsh, "Israel's Imperative," *Washington Quarterly* 3 (2000): 155.

77 Reuters, September 12, 1994.

78 Interview with Kenneth Pollack, Washington, D.C., November 29, 2004. Kenneth Pollack, *The Persian Puzzle* (New York: Random House, 2004), 260.

79 Emma Murphy, "The Impact of the Arab-Israeli Peace Process on the International Security and Economic Relations of the Persian Gulf," *The Iranian Journal of International Affairs* 2 (Summer 1996): 426. Interview with Keith Weissman of American Israel Public Affairs Committee (AIPAC), Washington, D.C., March 25, 2004.

80 Interview with former National Security Advisor Brent Scowcroft, Washington, D.C., September 27, 2004.

81 Reuters, December 15, 1994.

82 Reuters, January 6, 1995.

83 UPI, January 1, 1995.

84 Interview with Pollack, November 29, 2004.

85 John Esposito and R. K. Ramazani, *Iran at the Crossroads* (New York: Palgrave, 2001), 203.

86 Text of Warren Christopher speech, "Maintaining the Momentum for Peace in the Middle East," Georgetown University, October 25, 1994.

87 *Mideast Mirror*, March 10, 1995.

88 Paul J. White and William S. Logan, *Remaking the Middle East* (New York: Berg, 1997), 199.
89 Interview with Ambassador Daniel Kurtzer, Tel Aviv, October 19, 2004.
90 Pollack, *Persian Puzzle*, 260.
91 Ibid., 268–270.
92 Ami Ayalon, *Middle East Contemporary Survey* (1994).
93 Interview with Weissman, March 25, 2004.
94 Interview with Rabinovich, October 17, 2004.
95 Interview with Pollack, November 29, 2004.
96 Interview with Bijan Khajepour, Washington, D.C., February 17, 2004.
97 Lamis Andoni, "When Iran Hedges Closer, U.S. Pushes Away," *Christian Science Monitor*, April 7, 1995.
98 Colin Barraclough, "Iran Seeks Oil Partners, U.S. Firms Can't Join the Dance," *Christian Science Monitor*, December 12, 1995.
99 Pollack, *Persian Puzzle*, 271.
100 Interview with Weissman, March 25, 2004.
101 "Comprehensive U.S. Sanctions Against Iran: A Plan for Action," *AIPAC Report*, April 2, 1995.
102 John Greenwald, "Down Goes the Deal," *Time*, March 27, 1995.
103 "Clinton's Anti-Iran Move," *Christian Science Monitor*, May 2, 1995.
104 Statement by Secretary of State Christopher at the White House, May 1, 1995.
105 Pollack, *Persian Puzzle*, 273.
106 "Clinton's Anti-Iran Move," *Christian Science Monitor*, May 2, 1995.
107 Pollack, *Persian Puzzle*, 259–260.
108 Interview with Ambassador Dennis Ross, Washington, D.C., May 29, 2004.
109 Associated Press, May 9, 1995.
110 "Greatest Threat from Iran Says Peres," *Jerusalem Post*, May 10, 1995.
111 Interview with Ross, May 29, 2004.
112 Interview with Weissman, March 25, 2004. G. Moffett, "Push to Widen Libya Sanctions Riles U.S. Allies," *Christian Science Monitor*, January 24, 1996. Pollack, *Persian Puzzle*, 270.
113 Intimately involved in every step of the deliberations on the bill, which became known as ILSA (the Iran Libya Sanctions Act), American Israel Public Affairs Committee (AIPAC) was the only lobby group at the table when the Ways and Means Committee in the House discussed the bill. Farhi, "Economic Statecraft," 66.
114 White House Fact Sheet, August 6, 1996.
115 Testimony by Assistant Secretary of State Pelletreau before the House International Relations Committee, May 2, 1995.
116 Gary Sick, "The Future of U.S.-Iran Relations," *Middle East Economic Survey*, June 21, 1999.
117 Interview with Weissman, March 25, 2004.
118 Comments by Martin Indyk at a public debate at Cooper Union, New York City, September 28, 2006.
119 Interview with Sneh, October 31, 2004.

الفصل 16: مع عودة الليكود، عاد المبدأ المحيطي

Epigraph: Interview with Dore Gold, Jerusalem, October 28, 2004.

1 Kenneth Pollack, *The Persian Puzzle* (New York: Random House, 2004), 245.

2 Emma Murphy, "The Impact of the Arab-Israeli Peace Process on the International Security and Economic Relations of the Persian Gulf," *The Iranian Journal of International Affairs* 2 (Summer 1996): 435.

3 Interview with Ephraim Kam, Jaffee Center for Strategic Studies, Tel Aviv, October 26, 2004. Interview with Efraim Inbar, Begin-Sadat Center, Jerusalem, October 19, 2004. "Iran Rallies Against Peace," *Near East Report WINEP*, January 24, 2000.

4 Interview with Itamar Rabinovich, former adviser to Rabin and Israeli ambassador to the United States, Tel Aviv, October 17, 2004.

5 "Iran Rallies Against Peace," *Near East Report WINEP*, January 24, 2000.

6 Interview with Keith Weissman of American Israel Public Affairs Committee (AIPAC), Washington, D.C., March 25, 2004.

7 Interview with former Assistant Secretary of State Martin Indyk, Washington, D.C., March 4, 2004.

8 Ibid. Other American officials were less impressed with Iran's cunning and more critical of Washington's own conduct. According to one senior official who preferred to remain unnamed: "I think it is a serious misreading of what happened to say that Iran outsmarted us. If we were in a moment of serious dominance on November 1, 1991 [the day after the Madrid conference], why didn't we exploit it better? Why didn't we fix the Arab-Israeli crisis? Why didn't we succeed if everything was going our way? Six months later Shamir was out of office, so we didn't have that excuse. We had marginalized Arafat. So he wasn't a factor. How is that Iran's doing? I would be more self-critical in my analysis. I think it is really wrong and self-exculpatory to say that Iran outsmarted us by choosing terror. Of course they would choose terror, that's all they had left. Of course they would go for the bomb, and go to exactly where they have to go for the expertise to do it, Pakistan and North Korea. I hope our Iran experts would know that. I don't think we're so stupid not to know."

9 Interview with Ambassador Daniel Kurtzer, Tel Aviv, October 19, 2004.

10 Reuters, November 7, 1995.

11 Reuters, November 5, 1995.

12 Reuters, February 8, 1996.

13 *Israel Line*, February 15, 1996.

14 Reuters, March 7, 1996.

15 Reuters, April 8, 1996. Binyamin Netanyahu, Peres's rival in the elections, did not want the public to conclude that terror attacks in Israel would help him win the elections and reacted by seeking American and German support to send a strong message to Iran and Syria. AFP, April 8, 1996.

16 Interview with Weissman, March 25, 2004.

17 Interview with Shlomo Brom, Jaffee Center for Strategic Studies, Tel Aviv, October 26, 2004.

18 Interview with an Israeli military officer who participated in the Iran Committee meetings. He spoke on condition of nonattribution. Tel Aviv, October, 2004.

19 "Israeli Election Draws Mixed Reactions," CNN, May 30, 1996.

20 Interview with Ehud Yaari, Jerusalem, October 24, 2004.

21 Interview with Yossi (Joseph) Alpher, former Mossad official and senior adviser to Ehud Barak, Tel Aviv, October 27, 2004.
22 Interview with Dore Gold, Jerusalem, October 28, 2004.
23 Interview with Weissman, March 25, 2004.
24 Interview with Shmuel Limone, Ministry of Defense, secretary of Israel's Iran committee, Tel Aviv, October 18, 2004.
25 Interview with Alpher, October 27, 2004.
26 Interview with Gen. David Ivry, head of Israel's Iran committee, Tel Aviv, October 19, 2004.
27 Interview with Limone, October 18, 2004.
28 Interview with Marshal Breger, professor at Catholic University, Washington, D.C., October 11, 2004.
29 Interview with Limone, October 18, 2004.
30 Interview with Gen. Amos Gilad, Tel Aviv, October 31, 2004.
31 Interview with Shmuel Bar, Tel Aviv, October 18, 2004.
32 Interview with Inbar, October 19, 2004.
33 Uzi Arad, "Russia and Iran's Nuclear Program," *Jerusalem Issue Brief*, April 28, 2003.
34 Interview with Brom, October 26, 2004.
35 Interview with leading Israeli military commentator who spoke on condition of anonymity, Tel Aviv, October 17, 2004.
36 Interview with Gilad, October 31, 2004.
37 Interview with Yaari, October 24, 2004.
38 Interview with Gold, October 28, 2004.
39 Aiuf Ben, "A Change in Israeli-Iranian Relations," *Haaretz*, November 10, 1996. David Menashri, *Post-Revolutionary Politics in Iran* (London: Frank Cass, 2001), 296.
40 "Israel Looks Again at Iran Relations," Channel 2, November 22, 1996. Lubrani's efforts resulted in the CIA being allocated $18 million to destabilize the Iranian government. Pollack, *Persian Puzzle*, 273.
41 Interview with Gold, October 28, 2004.
42 "Likud said to seek understanding with Iran," *RAND*, July 24, 1996. IDF Radio, November 10, 1996. *Xinhua*, September 13, 1996. *Xinhua*, September 28, 1996.
43 *Jerusalem Post*, September 9, 1997.
44 Speech by Prime Minister Benjamin Netanyahu to a Joint Session of the United States Congress, Washington, D.C., July 10, 1996.
45 Interview with Gold, October 28, 2004.
46 Interview with Indyk, March 4, 2004.
47 Reuters, August 28, 1997.
48 Interview with Barry Rubin, Global Research in International Affairs Center, Tel Aviv, October 18, 2004.
49 Interview with Gold, October 28, 2004.
50 Ibid.
51 Interview with Weissman, March 25, 2004.
52 Interview with Bar, October 18, 2004.
53 Interview with Weissman, March 25, 2004.
54 Interview with Gold, October 28, 2004.
55 Ibid. According to Gold, 50–70 percent of Hamas funding came from Saudi Arabia.
56 IDF Radio, November 10, 1996.
57 Interview with Gilad, October 31, 2004.
58 IDF Radio, November 10, 1996.
59 Interview with Israel's former Minister of Finance Dan Meridor, Tel Aviv, October 27, 2004.
60 Interview with Amir Mohebian, August 19, 2004. Interview with former Deputy Foreign Minister Mahmoud Vaezi, Tehran, August 16, 2004.
61 Reuters, June 25, 1996.
62 Interview with former member of Parliament and lead reformist strategist, Mohsen Mirdamadi, Tehran, August 22, 2004.
63 "Iran Helps Free Hostages," AFP, April 29, 1996.
64 Interview with leading Israeli military commentator who spoke on condition of anonymity, Tel Aviv, October 17, 2004.
65 IDF Radio, November 10, 1996.
66 Reuters, July 22, 1996.
67 Interview with Iranian political strategist, New York, February 26, 2004.

Epigraph: President Mohammad Khatami, interviewed on CNN, January 7, 1998.

1 Anoushiravan Ehteshami and Raymond Hinnebusch, *The Foreign Policies of Middle East States* (London: Lynne Rienner, 2002), 302.

2 Kayhan Barzegar, "Détente in Khatami's Foreign Policy and Its Impact on Improvement of Iran-Saudi Relations," *Discourse: An Iranian Quarterly* 2 (2002): 160–167.

3 Saudi Crown Prince Abdullah's speech at eleventh OIC Summit, Tehran, December 10, 1997.

4 Reuters, March 25, 1997.

5 Interview with Ambassador Nabil Fahmi, Washington, D.C., October 12, 2004.

6 *Xinhua*, June 24, 1997. Reuters, April 2, 1997.

7 David Menashri, *Post-Revolutionary Politics in Iran* (London: Frank Cass, 2001), 243.

8 *Xinhua*, November 1, 1997.

9 Reuters, November 11, 1997.

10 R. K. Ramazani, "Ideology and Pragmatism in Iran's Foreign Policy," *Middle East Journal* 4 (2004): 558.

11 "Transcript of Interview with Iranian president Mohammad Khatami," CNN, January 7, 1998.

12 Ali Ansari, *Confronting Iran* (New York: Basic Books, 2006), 155–156.

13 *Dow Jones*, May 27, 1997.

14 Interview with David Makovsky, Washington Institute for Near East Policy, Washington, D.C., June 3, 2004.

15 The White House, Office of the Press Secretary, "Remarks at the Millennium Evening: The Perils of Indifference: Lessons Learned from a Violent Century," released April 12, 1999.

16 Bulent Aras, "Turkish-Israeli-Iranian Relations in the Nineties: Impact on the Middle East," *Middle East Policy* 3 (2000): 156. For instance, the Anti-Defamation League and the Conference of Presidents of Major American Jewish Organizations opposed the Clinton administration's decision to lift the ban on imports of caviar, Persian rugs, and

pistachios from Iran. "Israel, U.S. Jewish Lobby Disagree on Iran Sanctions," UPI, September 22, 2000.

17 "U.S. Move to Engage Iran Worries Supporters of Israel," JTA, June 22, 1998. Ansari, *Confronting Iran*, 142–143.

18 "Washington Event Boycott Said Censure of U.S.-Iran Moves," Israeli TV, June 18, 1998.

19 Interview with Dore Gold, Jerusalem, October 28, 2004. Interview with Yossi (Joseph) Alpher, former Mossad official and senior adviser to Ehud Barak, Tel Aviv, October 27, 2004.

20 Federal News Service, February 28, 1997.

21 Reuters, March 4, 1997.

22 Reuters, March 26, 1997.

23 Dore Gold, "Middle East Missile Proliferation, Israeli Missile Defense, and the ABM Treaty Debate," *Jerusalem Letter-Jerusalem Center for Public Affairs*, May 15, 2000.

24 Reuters, May 28, 1997.

25 Interview with Makovsky, June 3, 2004.

26 Phone interview with Foreign Minister Shlomo Ben-Ami, May 21, 2006.

27 *Israel Line*, August 26, 1997.

28 Reuters, November 16, 1997. Efraim Karsh, "Israel's Imperative," *Washington Quarterly* 3 (2000): 160. At the same time, Israel purchased American F-15i's, a fighter-bomber capable of reaching Iran. *Dow Jones*, September 17, 1997.

29 Interview with Ranaan Gissin, Jerusalem, October 31, 2004.

30 Interview with Alpher, October 27, 2004. Interview with David Menashri, professor at Tel Aviv University, Tel Aviv, October 26, 2004. At this stage, adherence to the periphery doctrine was stronger within the Likud.

31 Interview with Ephraim Sneh, member of Knesset, Tel Aviv, October 31, 2004.

32 "Israel Finds New Ally to Stop Iranian Nuclear Bomb," *Independent*, December 29, 1995.

33 Ilan Berman, "Israel, India, and Turkey: Triple Entente?" *Middle East Quarterly* 4 (2002).

34 Interview with Alpher, October 27, 2004.

35 Interview with Gissin, October 31, 2004.

36 Erich Marquardt, "U.S. Seeks to Ostracize Iran," *Asia Times*, September 30, 2004.

37 Interview with Gissin, October 31, 2004.

38 Interview with Gen. Amos Gilad, Tel Aviv, October 31, 2004.

39 Interview with Gold, October 28, 2004.

40 Interview with Gilad, October 31, 2004.

41 Interview with Sneh, October 31, 2004.

42 *Jerusalem Post*, September 9, 1997.

43 "Splits in Israel over Iran," *Yediot Aharonot*, December 15, 1997.

44 John Esposito and R. K. Ramazani, *Iran at the Crossroads* (New York: Palgrave, 2001), 206. "Netanyahu Working to Prevent U.S. Policy Shift on Iran," *Haaretz*, December 15, 1997.

45 Reuters, June 10, 1997.

46 "Israeli Iranian Trade Ties Reportedly 'Extensive,'" *Yediot Aharonot*, January 15, 1999.

47 *Voice of Israel*, May 28, 1997. *Dow Jones*, August 22, 1997.

48 Interview with Deputy Foreign Minister Hadi Nejad-Hosseinian, Tehran, August 12, 2004.

49 "Netanyahu Rejects Sharon Initiative to Discuss Debt to Iran," *Tel Aviv Globes,* February 1, 1998.

50 Ramazani, "Ideology and Pragmatism," 557.

51 Menashri, *Post-Revolutionary Politics in Iran,* 288.

52 Interview with Bijan Khajepour, Washington, D.C., February 17, 2004.

53 Interview with Iranian political strategist, March 2004.

54 Interview with Ali Reza Alavi Tabar, Tehran, August 21, 2004. Prominent reformists, including President Khatami's brother, Mohammad Reza Khatami, are often more anti-Israeli than the conservatives. Also, Mohtashamipour, the founder of Hezbollah, belongs to the Reformist camp.

55 Menashri, *Post-Revolutionary Politics in Iran,* 294. "A bowl warmer than the soup" is an Iranian expression equivalent to the English saying, "Being more Catholic than the pope."

56 Khatami's election was decisive for Iran's change of attitude toward terror as a political tool. Gary Sick, "Iran: Confronting Terrorism," *Washington Quarterly* 4 (2003): 93.

57 Transcripts of Track-II meetings held in northern Europe. Author attended one of the meetings in August 2003 as an observer.

58 "Transcript of Interview with Iranian President Mohammad Khatami," CNN, January 7, 1998.

59 Kenneth Pollack, *The Persian Puzzle* (New York: Random House, 2004), 315.

60 Interview with Khajepour, February 17, 2004.

61 Interview with Iranian political strategist, March 2004.

62 Transcripts of Track-II meetings held in northern Europe.

63 Interview with Davoud Hermidas-Bavand, professor at Shahid Beheshti University and former Iranian diplomat, Tehran, August 8, 2004.

64 Interview with Abbas Maleki, Tehran, August 1, 2004.

65 Nejad-Hosseinian, who held a cabinet position in the Rafsanjani government, pointed out that Rafsanjani followed the same policy. "Our position is that we have our views of Israel, but that we will not impose those views on the Palestinians. We will respect their decision, but we may not support it. It's been there throughout the 1990s. Both Khatami and Rafsanjani had it." Interview with Nejad-Hosseinian, August 12, 2004.

66 Interview with Mohammad Reza Dehshiri, head of Regional Studies Department, School of International Relations, Iranian Foreign Ministry, Tehran, August 24, 2004. According to Nejad-Hosseinian, Iran would "have no moral position to object" to an agreement accepted by the Palestinians and would as a result "have no choice but to accept it." Interview with Nejad-Hosseinian, August 12, 2004.

67 AFP, February 26, 1998. Reuters, May 2, 1998.

68 Transcripts of Track-II meetings held in northern Europe.

69 AFP, February 17, 1998. Jalali later denied that the meeting had taken place. AFP, February 18, 1998.

70 Reuters, February 1, 1998.

71 *Xinhua,* February 1, 1998.

72 *Haaretz*, June 20, 1999. Former Foreign Minister Shlomo Ben-Ami does not recall having received such an offer from the Iranians. Phone interview, May 21, 2006.
73 *AIC Insight* 2 (2004).
74 Mark Katz, "Iran and America: Is Rapprochement Finally Possible?," *Middle East Policy* 4 (2005): 61.
75 Interview with Gerald Steinberg, professor at Bar Ilan University in Israel, Jerusalem, October 28, 2004.
76 AFP, April 5, 1993.
77 Phone interview with Ben-Ami, May 21, 2006.
78 H. E. Chehabi, ed., *Distant Relations: Iran and Lebanon in the Last 500 Years* (London: I. B. Tauris, 2006), 230.
79 Interview with Gen. Amnon Lipkin-Shahak, Tel Aviv, October 25, 2004.
80 "Iran Told Hezbollah to Act Inside Israel," *Haaretz*, March 29, 2000.
81 Phone interview with Ben-Ami, May 21, 2006.
82 Ibid.
83 Interview with Gold, October 28, 2004. Tel Aviv feared that Washington, motivated by lucrative business opportunities in Iran, would overlook Israeli concerns and end its policy of isolating Iran.
84 Phone interview with former head of Mossad, Efraim Halevi, June 17, 2006. "There is always a degree of apprehension, of concern that there might be an American concession of sorts which otherwise would not have been contemplated."
85 Phone interview with Ben-Ami, May 21, 2006.
86 Interview with Israel's former Minister of Finance Dan Meridor, Tel Aviv, October 27, 2004.
87 "U.S. Move to Engage Iran Worries Supporters of Israel," JTA, June 22, 1998.
88 Israel was careful not to come across as too dismissive of the reformist winds in Iran and expressed cautious optimism regarding the elections. "Israel Cautiously Welcomes Election Results in Iran," *Xinhua*, February 20, 2000.
89 "Beilin: Time to 'Reassess' Iran Relations," *Haaretz*, April 5, 2000.
90 Interview with Makovsky, June 3, 2004.
91 "Softer Israeli Policy Sees Iran as 'Threat, Not Enemy,'" *Haaretz*, July 8, 1999.
92 David Makovsky, *Making Peace with the PLO* (Boulder: Westview, 1996), 112.
93 "Israel Condemns Recent 'Terrorist' Attacks in Iran," *Yediot Aharonot*, March 17, 2000.
94 "Israel Says Iran Missile Test Reflects Nuclear Ambitions," UPI, July 15, 2000.
95 "Israel Rejects Talks with Iran: Former FM," *Xinhua*, September 26, 2000.
96 Interview with Iranian reformist strategist, February 2004.
97 Phone interview with Ben-Ami, May 21, 2006.
98 Bill Samii, "Iran Welcomes Israeli Withdrawal," *RFE/RL Iran Report*, May 29, 2000.
99 Bill Samii, "Israeli Withdrawal Leaves Questions Unanswered," *RFE/RL Iran Report*, June 5, 2000.
100 Safa Haeri, "Iran Tells a Bewildered Syria Hezbollah Must Play It Cool," Iran Press Service, May 29, 2000.
101 "Israel: Source Says Iran Inciting 'Terrorist Acts' to Spoil Political Process," *Voice of Israel*, July 23, 2000.
102 Phone interview with Halevi, June 17, 2006.

103 Phone interview with Ben-Ami, May 21, 2006.
104 See Clayton Swisher, *The Truth About Camp David: The Untold Story About the Collapse of the Middle East Peace Process* (New York: Nation Books, 2004), and Hussein Agha and Robert Malley, "Camp David: The Tragedy of Errors," *New York Review of Books*, August 9, 2001.
105 Interview with Robert Malley, Washington, D.C., April 22, 2004.
106 Remarks by Yoram Schweitzer, delivered at the Iranian Challenge Seminar, the Jaffee Center for Strategic Studies, Tel Aviv University, February 19, 2004.
107 "Iran: Official Welcomes Egypt's, Jordan's Decisions on Ties with Israel," *RAND*, November 22, 2000.
108 "Khamenei Calls for Muslim Unity Against Israel," *Voice of the Islamic Republic of Iran*, December 27, 2000.
109 "Intifada Helps Iran Warm Ties with Arab World," Reuters, March 6, 2001.
110 "Israel: Security Sources Say Iran Funding Some of Fatah's Activists," *Voice of Israel*, July 11, 2001.
111 "Iran Wants War-Crimes Court to Try Israel," AFP, November 19, 2000.
112 *Israel Line*, February 4, 1999.
113 AFP, May 2, 1998, April 10, 1999.
114 E-mail interview with former European ambassador to Iran, who spoke on condition of nonattribution, January 2005.

الفصل 18: خيانة بأفغانستان

1 Interview with Deputy Foreign Minister Hadi Nejad-Hosseinian, Tehran, Aug 12, 2004. "It's illogical to tie the solution of a small problem to solving a much bigger problem!" he told me in his Tehran office.
2 "Israel to Face Iran Alone When U.S. Lifts Sanctions," *Haaretz*, February 19, 2001.
3 Confirmation hearing of Gen. Colin Powell as secretary of state, January 17, 2001.
4 Interview with Ambassador James Dobbins, Washington, D.C., October 24, 2006.
5 Interview with Col. Lawrence Wilkerson, Secretary of State Colin Powell's chief of staff, Washington, D.C., October 16, 2006.
6 "Israel to Face Iran Alone When U.S. Lifts Sanctions," *Haaretz*, February 19, 2001.
7 Testimony of Howard Kohr to the House International Relations Committee, May 9, 2001.
8 "Renew ILSA: Let the Real Moderates Win in Iran," *WINEP*, June 14, 2001.
9 Iran and Israel continued to exchange accusations, but Tehran had toned down its poisonous rhetoric and focused more on isolating Israel internationally by, for instance, urging Muslim states to help push for an international ban on arms sales to Israel. "Iran: Foreign Minister Calls for Weapons Sanction against Israel," *RAND*, August 20, 2001.
10 Flynt Leverett, "Illusion and Reality," *American Prospect*, September 12, 2006.
11 Gareth Porter, "How Neocons Sabotaged Iran's Help on al-Qaeda," *IPS*, February 23, 2006.
12 Leverett, "Illusion and Reality."
13 Interview with Yossi (Joseph) Alpher, former Mossad official and senior adviser to Ehud Barak, Tel Aviv, October 27, 2004.
14 Patrick Bishop, "Worried Israel Feels Spurned as the West Courts Iran," *Daily Telegraph*, September 26, 2001.

15 Letter by the Project for the New America Century to President George Bush, September 20, 2001. Other prominent neoconservatives who courted the Bush administration with the idea of invading Iraq include Bernard Lewis and Fouad Ajami.

16 Porter, "How Neocons Sabotaged Iran's Help on al-Qaeda."

17 Ibid.

18 Kenneth Pollack, *The Persian Puzzle* (New York: Random House, 2004), 346–347.

19 Interview with Wilkerson, October 16, 2006. Interview with Dobbins, October 24, 2006.

20 Speech by Ambassador James Dobbins to the New America Foundation, Washington, D.C., August 24, 2006. Interview with Javad Zarif, Iran's ambassador to the UN, New York, October 12, 2006. Pollack, *Persian Puzzle*, 347. Michael Hirsh and Maziar Bahari, "Blowup? America's Hidden War with Iran," *Newsweek*, February 19, 2007. The interim constitution put Hamid Karzai in power in Afghanistan. This was not an uncontroversial decision. Several Afghani warlords refused to recognize his authority. One such warlord was Ismail Khan, whose close ties to Iran were well known. To remove any doubt of Tehran's wishes, Iran's foreign minister attended Karzai's inauguration and brought Ismail Khan with him just to make sure no one doubted that he was going to support Karzai.

21 "Iranian diplomats who dealt with U.S. counterparts during this period indicated that there was interest in Tehran in using this cooperation to effect a broader opening to the United States." Leverett, "Illusion and Reality."

22 Interview with Dobbins, October 24, 2006.

23 Interview with Zarif, October 12, 2006.

24 Interview with Wilkerson, October 16, 2006.

25 Speech by Dobbins to the New America Foundation, August 24, 2006.

26 Interview with Dobbins, October 24, 2006. Gareth Porter, "How Neocons Sabotaged Iran's Help on al-Qaeda," *IPS*, February 23, 2006.

27 James Bennet, "Sharon Invokes Munich in Warning U.S. on 'Appeasement,'" *New York Times*, October 5, 2001.

28 Jack Donnelly, "Nation Set to Push Sharon on Agreement," *Boston Globe*, October 10, 2001.

29 "Majlis Deputy Says Israel Angered by Iran's Current Foreign Policy Posture," *Aftab-e Yazd*, September 29, 2001. Another lawmaker, Mohsen Armin, echoed the same views in an interview with *Norooz*. "Reformist Official Comments on National Security, Ties with USA, Israel," *Norooz*, November 17, 2001.

30 Christopher Hitchens, "Minority Report," *Nation*, November 14, 1988, 482.

31 Jim Lobe, "Ledeen's Way," *IPS*, July 3, 2003.

32 Michael Ledeen courted the pro-monarchist Iranian opposition in the United States and appeared regularly on the exiled satellite TV stations operating out of Los Angeles. Though only two decades earlier he had been intimately involved in facilitating arms sales to the clerical regime in Tehran, he now portrayed himself as a champion of the Iranian student movement.

33 Edward Herman and Gerry O'Sullivan, *The "Terrorism" Industry* (New York: Pantheon, 1989), 161.

34 Joshua Micah Marshall, Laura Rozen, and Paul Glastris, "Iran-Contra II?," *The Washington Monthly*, September 2004.

35 Laura Rozen, "Three Days in Rome," *Mother Jones,* July/August, 2006. Seymour M. Hersh, "Moving Targets," *New Yorker,* December 15, 2003.
36 Marshall, Rozen, and Glastris, "Iran-Contra II?"
37 Pollack, *The Persian Puzzle,* 350–351.
38 Ali Ansari, *Confronting Iran* (New York: Basic Books, 2006), 186. Pollack, *Persian Puzzle,* 351.
39 Interview with Dobbins, October 24, 2006. Interview with Zarif, October 12, 2006. Interview with Wilkerson, October 16, 2006.
40 *AIC Insight* 2 (2004).
41 Interview with Wilkerson, October 16, 2006.
42 Porter, "How Neocons Sabotaged Iran's Help on al-Qaeda."
43 Gary Sick, "Iran: Confronting Terrorism," *Washington Quarterly* 4 (2003): 90. Wilkerson argued that Iran's inclusion was motivated more by the need of a third country for rhetorical purposes than an actual belief that the regime in Iran belonged to the same category as those in Iraq and North Korea. Interview with Wilkerson, October 16, 2006.
44 Ansari, *Confronting Iran,* 186–187.
45 Scott Peterson, "Pragmatism May Trump Zeal as Iran's Power Grows," *Christian Science Monitor,* July 6, 2006.
46 Pollack, *The Persian Puzzle,* 353.
47 Interview with Dobbins, October 24, 2006.
48 Ansari, *Confronting Iran,* 186.
49 Speech by Dobbins to the New America Foundation, August 24, 2006.
50 Interview with Dobbins, October 24, 2006.
51 Interview with Wilkerson, October 16, 2006.
52 "Israel to Ask World to Declare Iran Terror-Supporting State," *Voice of Israel,* January 4, 2002.
53 "Israel Compiles 'Black Book' on Iran, Says Peres," AFP, January 26, 2002.
54 "Khatami Urges World to Boycott Israel," *RAND,* January 29, 2002.
55 "Iran to Revenge with Missiles If Israel Bombs Nuclear Plant," Tass, February 7, 2002.
56 "Washington Wants Israel to 'Cool It' over Iran: Report," AFP, February 6, 2006.
57 "Iran Not an Enemy for Israel, Says National Security Chief," AFP, February 18, 2006.

الفصل 19: انتزاع الهزيمة من بين فكّي النصر

Epigraph: Interview with leading Israeli military commentator, who spoke on condition of anonymity, Tel Aviv, October 17, 2004.
1 Neil Mackay, "Bush Planned Iraq 'Regime Change' Before Becoming President," *Sunday Herald,* September 15, 2002.
2 "Rebuilding America's Defenses: Strategy, Forces and Resources for a New Century," *Project for the New American Century,* September 2000. See http://www.newamericancentury.org/RebuildingAmericasDefenses.pdf.
3 After the war, many Israelis have concluded that the invasion of Iraq worked to Israel's detriment. Yuval Diskin, the chief of the Israeli internal security service, the Shin Bet, told a crowd of Israeli settlers in February 2006 that a strong dictatorship in Iraq would be preferable to the present chaos there. "I'm not sure we won't miss Saddam," he said. "Israel 'May Rue Saddam Overthrow,'" *BBC,* February 9, 2006.

4 Magdi Abdelhadi, "Israel 'Trains Iraqi Kurd Forces,'" *BBC*, September 20, 2006. "Israelis Training Kurds in Northern Iraq—Report," Reuters, December 1, 2005.
5 "Israel Sets Up Iran as Next Target for the U.S.," *Manchester Guardian Weekly*, February 13, 2002.
6 Eric Margolis, "After Iraq, Bush Will Attack His Real Target," *Toronto Sun*, November 10, 2002.
7 *Newsweek*, August 19, 2002.
8 Interview with Javad Zarif, Iran's ambassador to the UN, New York, October 12, 2006.
9 Kenneth Pollack, *The Persian Puzzle* (New York: Random House: 2004), 353.
10 Interview with a senior Iranian politician who spoke on condition of nonattribution, Tehran, August 2004.
11 Michael Ledeen, "Let's Talk with Iran Now," *New York Times*, July 19, 1988.
12 See Laura Rozen's blog, http://www.warandpiece.com/blogdirs/001070.html.
13 Pollack, *The Persian Puzzle*, 354–355.
14 Gregory Beals, "A Missed Opportunity with Iran," *Newsday*, February 19, 2006.
15 Bernard Gwertzman, "Leverett: Bush Administration 'Not Serious' About Dealing with Iran," *Council on Foreign Relations*, March 31, 2006.
16 Gordon Corera, "Iran's Gulf of Misunderstanding with U.S.," *BBC*, September 25, 2006.
17 "Iran: Hardline Daily Dismisses Saudi Plan for Recognizing Israel," *Resalat*, February 26, 2002.
18 The reference to the Mujahedin is clarified on the White House Web site, which states that "Iraq shelters terrorist groups including the Mujahedin-e-Khalq Organization (MKO), which has used terrorist violence against Iran and in the 1970s was responsible for killing several U.S. military personnel and U.S. civilians." See http://www.whitehouse.gov/infocus/iraq/decade/sect5.html.
19 Connie Bruck, "Exiles: How Iran's Expatriates Are Gaming the Nuclear Threat," *New Yorker*, March 6, 2006, 56. Andrew Higgins and Jay Solomon, "Iranian Imbroglio Gives New Boost to Odd Exile Group," *Wall Street Journal*, November 29, 2006.
20 Gareth Porter, "Cheney-Led 'Cabal' Blocked 2003 Nuclear Talks with Iran," *IPS*, May 28, 2006.
21 Interview with Col. Lawrence Wilkerson, Secretary of State Colin Powell's chief of staff, Washington, D.C., October 16, 2006.
22 Porter, "Cheney-Led 'Cabal.'"
23 According to the Iranian version of the story, Iran did not make the proposal; rather, it responded to an American proposal (see Appendix B). The Iranians say that on April 27, 2003, Ambassador Kharrazi received an American proposal that spelled out the contours of a grand bargain. The exact source of the proposal is unknown, but they say it was a high-level State Department official, most likely Undersecretary of State Richard Armitage or Assistant Secretary of State William Burns. Kharrazi notified the supreme leader, Ayatollah Khamenei, who asked Ambassador Zarif to make amendments to the proposal and return it. No U.S. official has confirmed this version of the story, though some have said it is not entirely unlikely. It is conceivable that some senior State Department officials feared that the ease with which Iraq had been defeated would prompt Washington hawks to push for a swift expansion of the war into Iran. By initiating negotiations with the Iranians, these war plans would be derailed. Alterna-

tively the Iranians, through interaction with U.S. diplomats, may have learned of the draft U.S.-Iran peace plan drafted by the State Department at the request of Colin Powell immediately after September 11. The Iranians may have been unaware that the plan never received Bush's approval and as a result may have perceived it as an official U.S. proposal.

24 Gwertzman, "Leverett: Bush Administration 'Not Serious.'" It was via the Swiss that Iran in early 2002 had sent a memo to Washington insisting on its innocence in the *Karine A* affair.

25 The author advised Congressman Bob Ney on foreign policy matters at the time.

26 Guy Dinmore, "Washington Hardliners Wary of Engaging with Iran," *Financial Times*, March 16, 2004.

27 Corera, "Iran's Gulf of Misunderstanding with U.S." Interview with Wilkerson, October 16, 2006.

28 Gareth Porter, "Burnt Offering," *American Prospect*, June 6, 2006.

29 Interview with Wilkerson, October 16, 2006. Porter, "Cheney-Led 'Cabal.'"

30 Porter, "Burnt Offering."

31 Interview with Wilkerson, October 16, 2006.

32 Dinmore, "Washington Hardliners." Interview with Wilkerson, October 16, 2006.

33 Kessler, "In 2003, U.S. Spurned Iran's Offer of Dialogue." Gwertzman, "Leverett: Bush Administration 'Not Serious.'"

34 Corera, "Iran's Gulf of Misunderstanding with U.S."

35 Glenn Kessler, "Rice Denies Seeing Iranian Proposal in '03," *Washington Post*, February 8, 2007.

36 Beals, "A Missed Opportunity with Iran."

37 Porter, "Cheney-Led 'Cabal.'"

38 Interview with Bijan Khajepour, Washington, D.C., February 17, 2004.

39 Guy Dinmore, "U.S. Rejects Iran's Offer for Talks on Nuclear Programme," *Financial Times*, June 15, 2003.

40 Interview with Masoud Eslami of the Iranian Foreign Ministry, Tehran, August 23, 2004.

41 Interview with adviser to the Iranian National Security Advisor, August 2004, Tehran.

42 Interview with Iranian Foreign Ministry official, Tehran, August 2004.

43 Interview with Mohammad Reza Tajik, counselor to President Khatami and director, Strategic Studies Center of the President's Office, Tehran, August 25, 2004. Interview with adviser to the Iranian National Security Adviser, August 2004, Tehran.

44 At the dinner, Ambassador Zarif qualified the Iranian request for "U.S.-Iran relations based on mutual respect" to mean Iran's inclusion in regional decision-making, particularly a Persian Gulf security arrangement. Author attended the dinner as an observer invited by one of the congressmen.

45 Michael Ryan Kraig, "Realistic Solutions for Resolving the Iranian Nuclear Crisis," *The Stanley Foundation Policy Analysis Brief*, January 2005.

46 Interview with leading Israeli military commentator who spoke on condition of anonymity, Tel Aviv, October 17, 2004.

47 William Kristol, "The End of the Beginning" *Weekly Standard* 8:34 (May 12, 2003).

48 Reuel Marc Gerecht, "Regime Change in Iran?" *Weekly Standard*, August 5, 2002.

49 Jim Lobe, "Neo-cons Move Quickly on Iran," *IPS*, May 26, 2003.

50 Porter, "Burnt Offering." Flynt Leverett also questioned the validity of the intelligence claiming an Iranian role in Saudi bombings during a panel discussion at the Center for American Progress, December 15, 2006.
51 Interview with Zarif, October 12, 2006.
52 The Iranian Jewish Public Affairs Committee is a small organization headquartered in Los Angeles. Its policy positions tend to be close to those of American Israel Public Affairs Committee (AIPAC).
53 Mark Benjamin and Eli Lake, "Senator Asks $50M to Aid Iran Dissidents," UPI, April 8, 2003.
54 Marc Perelman, "New Front Sets Sights on Toppling Iran Regime," *Forward*, May 16, 2003.
55 Interview with Keith Weissman of American Israel Public Affairs Committee (AIPAC), Washington, D.C., March 25, 2004.
56 "Brownback Presses French Not to Turn Over Iranian Opposition Figures," Brownback press release, June 20, 2003.
57 Interview with senior Iranian official who spoke on the condition of nonattribution, Tehran, August 2004.
58 Corera, "Iran's Gulf of Misunderstanding with U.S."
59 Interview with Menashe Amir, head of the Israeli Radio's Persian Service, Jerusalem, October 24, 2004.
60 Interview with Ephraim Sneh, Tel Aviv, October 31, 2004.
61 Interview with leading Israeli military commentator who spoke on condition of anonymity, Tel Aviv, October 17, 2004.
62 Interview with Hadi Nejad-Hosseinian, Tehran, August 12, 2004.

الفصل 20: مواجهة المستقبل، مواجهة الحقيقة

Epigraph: Joschka Fischer, "The Case for Bargaining with Iran," *Washington Post*, May 29, 2006.

1 The United States has with much success maintained strategic relations with states it opposes ideologically. A case in point is Saudi Arabia, with which the United States has maintained a very close and strategic relationship for many decades even though the Saudi Kingdom has been ruled for this entire period by the most austere and repressive Wahhabi sect of Sunni Islam.
2 Interview with Joseph Alpher, Tel Aviv, October 27, 2004. Many Iranians recognized Israel's fear of improved U.S.-Iran relations. "The more the U.S. saw Iran and Iraq as threats, the greater Israel's strategic security became," argued Masoud Eslami. Interview with Masoud Eslami of the Iranian Foreign Ministry, Tehran, August 23, 2004.
3 Interview with Shlomo Brom, Jaffee Center for Strategic Studies, Tel Aviv, October 26, 2004.
4 In his "Ideology and Pragmatism in Iran's Foreign Policy," R. K. Ramazani argues that, historically, pragmatism has triumphed over ideology in Iranian foreign policy. See *Middle East Journal* 4 (2004): 549–559.
5 Interview with Mohsen Mirdamadi, former member of Parliament and lead Reformist strategist, Tehran, August 22, 2004.
6 Ray Takeyh, "Iranian Options: Pragmatic Mullahs and America's Interests," *National Interest* 73 (2003): 51.

7 *RAND,* April 12, 2003. It is noticeable, however, that Rafsanjani sought to present his argument as an ideologically based criticism against the emphasis on *vazifeh.*

8 Phone interview with Abbas Maleki, Iranian deputy foreign minister in the early and mid-1990s, Geneva, January 27, 2005.

9 Mahmoud Sariolghalam, "Justice for All," *Washington Quarterly* 3 (2001): 115. "No leadership, however strong, can act against [Iran's] geopolitical rationale," Sariolghalam wrote.

10 Barry Rubin, "Iran: The Rise of a Regional Power," *The Middle East Review of International Affairs* 10, no. 3 (September 2006).

11 Phone interview with Ben-Ami, May 21, 2006.

12 Mohammad Quchani, "The Jewish Issue Is Not Our Issue," *Sharq,* March 1, 2006.

13 Anderson Cooper, CNN, September 21, 2006.

14 Interview with Keith Weissman of American Israel Public Affairs Committee (AIPAC), Washington, D.C., March 25, 2004.

15 Dafna Linzer, "Iran Is Judged 10 Years from Nuclear Bomb," *Washington Post,* August 2, 2005.

16 Interview with Itamar Rabinovich, former adviser to Rabin and Israeli ambassador to the United States, Tel Aviv, October 17, 2004.

17 Dafna Linzer, "Past Arguments Don't Square with Current Iran Policy," *Washington Post,* March 27, 2005.

18 On May 30, 2006, the 144 countries in the Non-Aligned Movement issued a statement upholding Iran's right to uranium enrichment. Mark Heinrich, "Iran: No Global Consensus Against It Despite Pressure," Reuters, June 14, 2006.

19 Marc Perelman, "U.S. Pursues Diplomacy on Iran Nukes," *Forward,* January 27, 2006.

20 Herb Keinon, "Israel 'May Go It Alone' Against Iran," *Jerusalem Post,* August 24, 2006.

21 Eric Fingerhut and Debra Rubin, "Iran, Hamas Dominate AIPAC," *Washington Jewish Week,* March 9, 2006.

22 Ron Kampeas, "With Time Short on Iran Nukes, AIPAC Criticizes Bush Approach," JTA, December 4, 2005.

23 Transcript of Online *Newshour,* March 18, 2004, http://www.pbs.org/newshour/bb/international/jan-june04/elbaradei_3-18.html.

24 Interview with Shmuel Limone, Ministry of Defense, secretary of Israel's Iran committee, Tel Aviv, October 18, 2004.

25 Interview with Javad Zarif, Iran's ambassador to the UN, New York, April 1, 2004.

26 "I don't believe that they are doing it [pursuing the nuclear option] to nuke Israel," Ben-Ami told me. "I have been saying that in Israel for quite some time, and it has never been very popular. Let us put it this way: Of course Israel should not be interested in Iran having a nuclear bomb. But then, having said that, one should try to see what is really behind the march to a nuclear capacity." Phone interview with Ben-Ami, May 21, 2006.

27 Interview with Shai Feldman, Tel Aviv, October 27, 2004.

28 Interview with Ehud Yaari, Jerusalem, October 24, 2004.

29 Phone interview with Halevi, June 17, 2006. "The Iranians are not irrational. They hold extreme views, but they are not irrational," Brom added. Interview with Brom, October 26, 2004.

30 Phone interview with Reuven Pedatzur, director of the Galili Center for Strategy and National Security, Tel Aviv, November 24, 2005.

31 Interview with Gerald Steinberg, professor at Bar Ilan University in Israel, Jerusalem, October 28, 2004. See also Project Daniel, a 2003 survey commissioned to assess the threat to Israel from other states in the Middle East. It was prepared by a high-powered team of Israeli foreign policy and military experts. The report was submitted to Prime Minister Ariel Sharon and was discussed among Israel, the United States, and NATO.

32 "Iran: Expediency Council Office Says Israel Distorted Its Chairman's Remarks," *RAND*, January 2, 2002.

33 Students of American history will note an eerie similarity with what Richard Nixon called his "madman theory." In search of a way to end the Vietnam War on terms favorable to the United States, Nixon told his advisers that it would be useful to let word slip out, as a bluff, that Nixon was so obsessed with the Communists that he'd do anything to win the war, including the use of nuclear weapons against Hanoi. See Seymour Hersh, *The Price of Power* (New York: Summit Books, 1983), 52–53.

34 *International Crisis Group Report*, November 24, 2004.

35 Interview with adviser to the Iranian National Security Advisor, August 2004, Tehran.

36 Israel similarly believed that India, mindful of its conflict with Muslim Pakistan, was fighting the laws of geopolitics by refusing to recognize Israel and establish security ties with it.

37 Interview with Ephraim Sneh, member of Knesset, Tel Aviv, October 31, 2004.

38 Interview with Menashe Amir, head of the Israeli Radio's Persian Service, Jerusalem, October 24, 2004.

39 Interview with Ranaan Gissin, Jerusalem, October 31, 2004. Former Defense Minister Moshe Arens agreed and argued that every regime in Iran will pursue the nuclear option, and thus that there is very little the outside world can do to stop Tehran. Interview with former Minister of Defense Moshe Arens, Tel Aviv, October 21, 2004.

40 Uzi Arad, "Russia and Iran's Nuclear Program," *Jerusalem Issue Brief*, April 28, 2003.

41 Interview with Gen. Amnon Lipkin-Shahak, Tel Aviv, October 25, 2004.

42 Interview with Gen. Amos Gilad, Tel Aviv, October 31, 2004.

43 Matthew Kalman, "Israel Set War Plan More Than a Year Ago," *San Francisco Chronicle*, July 21, 2006.

44 Max Blumenthal, "Birth Pangs of a New Christian Zionism," *Nation*, August 8, 2006. Uzi Mahnaimi, "Humbling of the Supertroops Shatters Israeli Army Morale," *Sunday Times*, August 27, 2006.

45 Roee Nahmias, "Hizbullah: We Were Surprised by Israel's Response to Kidnapping," *YNews*, August 26, 2006.

46 Interview with Javad Zarif, Iran's ambassador to the UN, New York, October 12, 2006.

47 Michael Slackman, "Iran Hangs in Suspense as the Conflict Plays Out," *New York Times*, July 29, 2006.

48 Guy Dinmore, "Experts Challenge White House Line on Iran's Influence," *Financial Times*, July 18 2006.

49 Slackman, "Iran Hangs in Suspense."

50 Interview with Gerald M. Steinberg, *Council on Foreign Relations*, August 1, 2006. See http://www.cfr.org/publication/11215/.

51 Ze'ev Schiff, "Tehran's Role Is Extensive," *Haaretz*, July 16, 2006.

52 Mahnaimi, "Humbling of the Supertroops."
53 Interview with Zarif, October 12, 2006.
54 Hassan M. Fattah, "Fearful of Iran, Arab Leaders Criticize Militants," *New York Times,* July 17, 2006.
55 "Dampened Trust? A Conversation with Nawaf Obaid," *SUSRIS,* August 22, 2006.
56 James D. Besser and Larry Cohler-Esses, "Iran-Israel Linkage by Bush Seen as a Threat," *The Jewish Week,* April 21, 2006.
57 Interview with Zarif, April 1, 2004.
58 Anne Barnard, "Iranians Debate Parameters for a Global Role," *Boston Globe,* September 5, 2006.
59 Joschka Fischer, "The Case for Bargaining with Iran," *Washington Post,* May 29, 2006.
60 Shlomo Ben-Ami, "The Basis for Iran's Belligerence," *Haaretz,* September 7, 2006.
61 Interview with Brom, October 26, 2004.
62 Interview with Shmuel Limone, Ministry of Defense, secretary of Israel's Iran committee, Tel Aviv, October 18, 2004.
63 Interview with Shmuel Bar, Tel Aviv, October 18, 2004.
64 Interview with Gilad, October 31, 2004.
65 Interview with Sneh, October 31, 2004. "We have no choice but to be superior to our immediate environment, because if we don't, we will be crushed. They will not wait a day," Yaari argued. Interview with Yaari, October 24, 2004. "There is a sense in Israel that it is much better to be alarmist, to be untrusting. Because anytime you stick your neck out or at all take a step forward, it is so easy to be proven wrong. And when you are proven wrong, you jeopardize the safety of the nation," Pollack noted. Interview with Kenneth Pollack, Washington, D.C., November 29, 2004.
66 Interview with Limone, October 18, 2004.
67 Interview with Feldman, October 27, 2004.
68 Interview with Limone, October 18, 2004.
69 David Ivry, "War Against Terror, Dilemmas of Values and Legality," *The Fisher Institute for Air and Space Strategic Studies,* April 2004, 2.
70 "Israel's Strategic Future—The Final Report of Project Daniel," *A Journal of Politics and the Arts* 3 (2004).
71 Interview with Bar, October 18, 2004.

انتهى